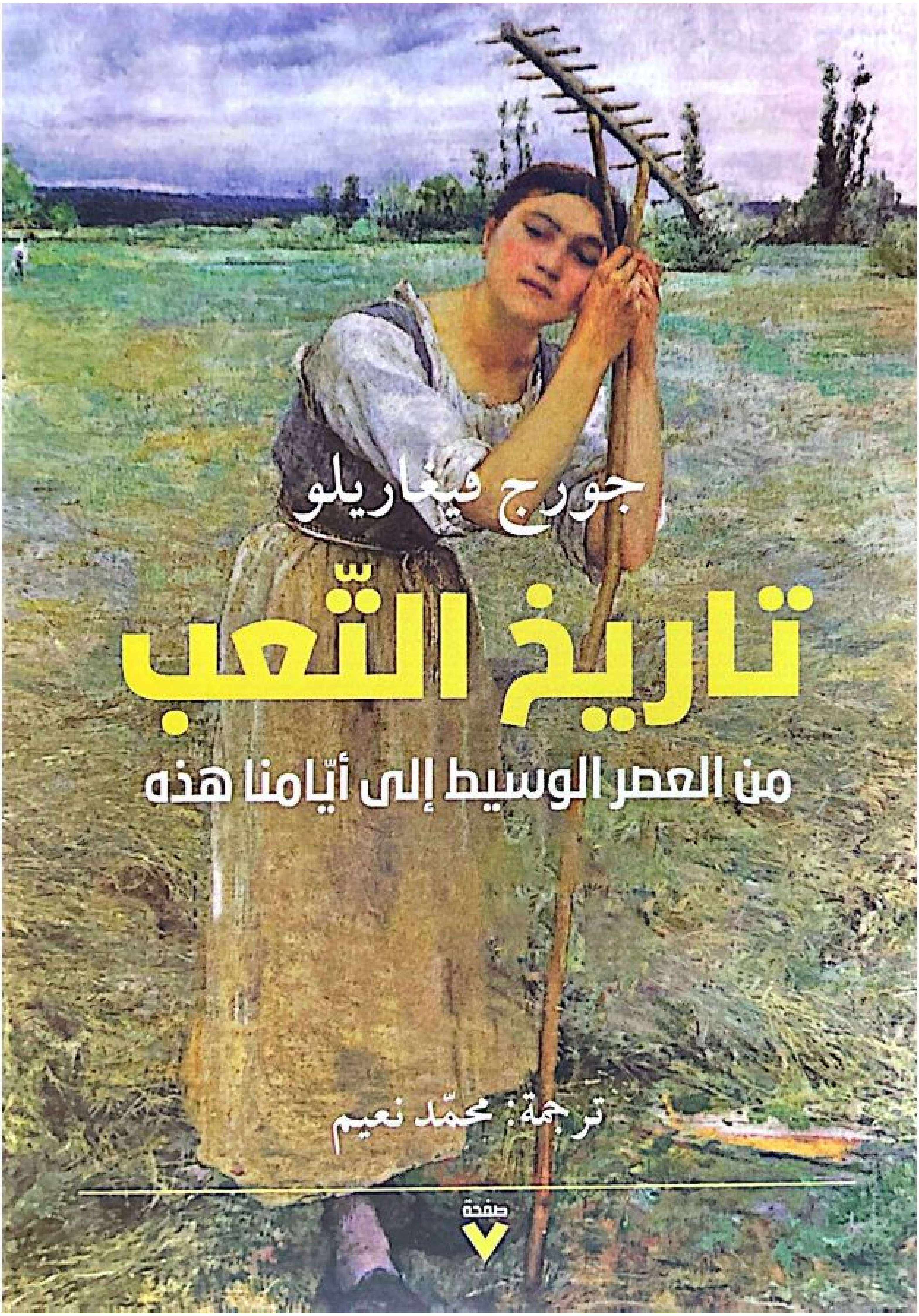

جورج فيغاريلو

تاريخ التّعب

من العصر الوسيط إلى أيّامنا هذه

ترجمة: محمّد نعيم

صفحة 7

جورج فيغاريلو

تاريخ التّعب

من العصر الوسيط إلى أيامنا هذه

يلاحظ مؤلف الكتاب، أول الأمر، أن نطاق التعب لا يفتأ يتمدد في عصرنا هذا على نحو لا يقاوم، فيقترح علينا رحلة استكشافية تجوب مسافة خمسة قرون من تمثلات هذه الحالة الجسدية والنفسية، وما يرتبط بها من ذهنيات. لقد اقترن التعب خلال العصر الوسيط بأجساد المحاربين المنهكين، أو المسافرين، مثل أولئك الحجاج الذين كانوا يتحملون المعاناة، في رحلات طويلة، يبتغون منها خلاصهم. أما في الفترة الكلاسيكية، فقد اقترنت الشكوى من التعب بنخبة «أصحاب العباءة» وبالمهن الجليلة وقتئذ، ومن ذلك «تعب البلاط» الذي وصفته السيدة مانتونون. ويجب أن ننتظر حلول القرن التاسع عشر لنسمع عن تعب العمال أو الشغالين، كما في روايات إميل زولا على سبيل المثال.

وتطورت النظريات الفيزيولوجية أيضًا بمرور الوقت: لقد ارتبط التعب في البدء بخسارة الأخلاط (الأمر الذي كان يعالج بواسطة الترطيب)، ثم صار في القرن الثامن عشر، المسمى عصر الأنوار، مرتبطا باختلال نظام التحفيز الكهربائي الذي يتم تعويضه بوسائل الاستثارة، بينما ركز القرن التاسع عشر على الطاقة وخسارة السعرات الحرارية، وهو ما كان يجري تعويضه بالغذاء. أما القرن العشرون، الذي تميز بالتضخم التكنولوجي والتوسع العمراني وظهور علم النفس، فقد شهد ازدهار مفهومي الإرهاق والإجهاد. ويذهب المؤلف إلى أن الاحتراق النفسي الذي يسم عصرنا هذا يظهرنا، في الواقع، على «تعب تحقيق الذات» الناجم عن التوتر المستمر بين «الذات المتضخمة» الخاصة بالأفراد الراغبين في اختيار حياتهم، وبين القيود المتعددة، المهنية والاجتماعية، التي لا يمكنهم الإفلات منها.

ISBN: 978-603-8387-49-8

9 786038 387498

WWW.PAGE-7.COM

تاريخ التعب

Histoire de la fatigue

« *Du Moyen Âge à nos jours* »

Georges Vigarello

تاريخ التعب

« من العصر الوسيط إلى أيامنا هذه »

جورج فيغاريلو

ترجمة: محمد نعيم

صفحة 7

صفحة ٧

الكتاب
تاريخ التعب
المؤلف
جورج فيغاريلو

الطبعة الأولى: 2023
الترقيم الدولي:
978-603-8387-49-8
رقم الإيداع:
1444/9299

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور،
المملكة العربية السعودية

الى تييري بيون.....

الفهرس

مقدمة

شهد القرنان العشرون والحادي والعشرون اتساعا عارما في مجال التعب: «ضغط نفسي»، و«إجهاد»، و«احتراق نفسي» و«إجهاد ذهني». وامتدت أوجه الإنهاك من مكان العمل إلى المنزل، ومن وقت الفراغ إلى السلوك اليومي. إن ما يقارب ثمانية من عشرة نشطين يستعملون في المقام الأول كلمة «ضغط نفسي» لوصف العمل[1]، وأعلن أكثر من ثلثي المأجورين في سنة 2007 أنهم سبق وتعرضوا لإجهاد ذهني[2]. هناك فرضية في هذا الكتاب، مفادها أن تحقيق الاستقلالية، حقيقية كانت أو مفترضة، التي اكتسبها الفرد في المجتمعات الغربية، واكتشاف «أنا» أكثر استقلالية، وتزايد الحلم بالانعتاق والحرية قد زاد من صعوبة العيش مع كل ما يُكره ويعيق، ولاسيما إذا أضفنا إلى ذلك الوعي بالعقبات المحتملة، وبصنوف الهشاشة والقابلية للعطب. تفاوت مؤلم وثقيل ومضيف للإعياء و لعدم الرضى كذلك. ولا يمكن للتعب في هذه الحالة إلا أن يشتد وينتشر في صمت، ويهدد اللحظات العادية أو غير المتوقعة، ويقوي وجهه «الداخلي». إنه

(1). انظر:

Cercle Sésame, 2012-2017: ce que veulent les Français, Paris, Eyrolles-Éditions d'Organisation, 2011, p. 209.

(2) . انظر:

«Syndrome de burn out: c'est quoi?», burnout-info.ch, https://www. burnout-info.ch/fr/burnout_c_est_quoi.htm.

يفرض نفسه في الفضاء العام، وفي العمل، وفي الفضاء الخاص، وفي العلاقات مع الأقارب، وكذلك في علاقات الذات مع نفسها.

ماذا حدث لنا؟

إن اللفظتين اللاتينيتين fatigatio أو defatigatio تكشفان عن أقدم أصل لكلمة «تعب»؛ تعبيران يشيران إلى نسب مباشر بين الأمس واليوم، اشتقاق شبه ميكانيكي يمكن أن يشير إلى أن لا شيء من رؤية العياء والإنهاك، سيتغير مع الوقت. ذلك أن التعب هو في قلب الإنساني، وهو ضعف حتمي، يجسد «نهايته» على غرار المرض أو الشيخوخة أو الموت. إنه يرمز إلى هشاشته و«نقصانه»، ويشير إلى عائق واسع الانتشار، عائق «داخلي» نابع من حدود وجوده الخاص، وعائق «خارجي» نابع من العالم ومن إكراهاته ومن تناقضاته. لا شيء مَرَضِيّ هنا، وإنما يتعلق الأمر بأكثر أوجه القصور ابتذالا. مثلما لاحظ **دو موباسان** بشكل عادي جدا حين قال: «وفي الأخير أنهكه التعب الشديد؛ فنام[3]».

مع ذلك كل شيء يتغير. كل شيء يكشف عن تاريخ أكثر تعقيدا مما يبدو، وأقل خضوعا للدراسة أيضا؛ تاريخ غني بالتحولات التي تشير إلى تحولات أخرى، معبئا توظيف الفاعلين والثقافات والمجتمعات؛ لأن إدراك التعب في الإطار الذي هو إطارنا نحن، إطار تاريخ الغرب، يتنوع من حقبة إلى أخرى، ويتبدل تقويمه، وتتغير أعراضه، وتنتظم كلماته، وتتسع تفسيراته. مسار هائل؛ حيث علينا عبور تواريخ عديدة: تاريخ الجسد، وتاريخ تمثلاته وممارسات الصحة، وتاريخ أشكال الوجود والكينونة، وتاريخ البنيات الاجتماعية، وتاريخ الحرب أو الرياضة، فضلا عن تاريخ بناءاتنا النفسية، ووصولا إلى حميميتنا.

(3) .Guy de Maupassant, Un coq chanta, Contes de la bécasse (1883), in Brigitte Monglond (éd.), Contes et nouvelles, Paris, Robert Laffont, « Bouquins », 1988, t. I, p. 499 ; ou encore, « Je suis si fatiguée que je vais me coucher, mon ami », ibid.

إن أشكال التعب «المتميزة»، تلك التي تحشد القيل والقال، والتي تفرض نفسها بوصفها أولوية في أعين الجميع، هي التي تتطور مع الوقت. لقد تبين أنها «فئوية» وتخلق أوساطا. إنها تستجيب لنظم اجتماعية، وتشير إلى أنماط وجود جماعية. إن تعب المحارب مركزي في العصر الوسيط، منطلق بحثنا، داخل حضارة يجسد فيها الجيش القيمة الأولى. إنه مبجل ومضخم، في حين أن تعب الفلاح محتقر. ويحتسب التعب حتى في خوض المبارزات، التي كانت في القرن الخامس عشر تعلي من شأن المنتصر، حسب عدد الطعنات التي يبديها المحاربون وقت التحدي.

كل شيء يتغير في المجتمع الكلاسيكي؛ حيث صاحب العباءة يفرض نفسه، وحيث تزداد هيبة أنشطة الإدارات والمكاتب. إن ممول **لافونتين** ومحامي **لا برويير** يشيران إلى أوصاف جديدة، ويوضحان عياء خاصا، وينفتحان على مجالات اهتمام غير معروفة. كل شيء يتغير مرة أخرى مع تعب العمال في القرن التاسع عشر، عندما فرض الإنتاج نفسه، بنجاحاته وأخطاره: تغلب عليه حضور أشكال الوهن وأقلقته شدته، ودُقق حسابه أيضا لأجل التوفيق جيدا بين العائدات والتوفير والفعالية، ولكن أيضا لإدانته منذ **فيليرمي** إلى **ماركس**. في حين أن مجتمعنا «الرباعي»(4)، مجتمع الحواسيب والمكاتب، يوجه نحو أوجه تعب صامتة، وغير مرئية؛ حيث يحل العبء المعلوماتي محل العبء الجسدي، وحيث تظهر التمزقات الشخصية أو الجماعية، غير المتوقعة أحيانا، بعد مسارات من معاناة مقنعة.

إن تمثلات الجسد وتغيراته توجه أيضا إدراك التعب. وتُربط أقدم صورة لـ «حالة» التعب بفقدان الأخلاط؛ فالجسد المتعب هو جسد ضعيف، والإنهاك هو تسرب للمادة وانهيار للكثافة. صورة «بسيطة» بدون شك نشأت مع الزمن

---

(4) .Roger Sue, La Richesse des hommes: vers l'économie quaternaire, Paris, Odile Jacob, 1997.

القديم، وخلقت يقينا مُفاده أن عناصر الجسم الثمينة هي سوائل، وهي نفسها تتسرب مع الجروح، وتحترق مع الحمى، وتغادر مع الموت. ويُنظم كل من التجفيف والترطيب، إذن، أعراض الجسد المتعب وترميماته. إن الجسد المنزوف يشكل الحد والمنتهى، وكذلك الإحساس به.

لم تعد الأخلاط في عالم الأنوار هي التي تعطي المعنى للتعب، بل الألياف والشبكات والـ «تيارات» والأعصاب. لقد ظهرت أعراض جديدة وسمات أخرى أُخذت بعين الاعتبار، مُفادها أن الإنهاك مرتبط بإثارة مفرطة وغير متحكم فيها بشكل جيد، وأن الضعف ناتج عن التوتر المتكرر أو المستمر لفترة طويلة. لم يعد النقصان مرتبط بفقدان المادة، بل بعدم وجود تحفيز. أحاسيس جديدة قد فرضت نفسها باشتغالها مع الشعور بالفراغ وغياب التحفيز، وذهاب النشاط. من هنا البحث عن «منشطات»، وعن منبهات معينة، وليس فقط عن معوضات سائلة، والبحث عن مقويات خاصة.

تتغير الصورة أيضا عندما يذهب المبدأ إلى الطاقات، وعندما يفعل الاحتراق العضوي فعله، وفق النموذج الآلي للقرن الثامن عشر. إن الفقدان، إذن، هو فقدان للحماسة، وفقدان للقوة المجسدة في «المردودية»، وفقدان للإحساس بقوة أبطلت، في حين ينضاف أيضا يقين اجتياح النفايات الكيميائية للأجساد وجعلها تعاني. من هنا البحث عن سعرات حرارية، وطرد السُّميات والمُضرات.

يتم إدراك التعب اليوم في اللغة الرقمية، مفضلا الرسائل الداخلية، والأحاسيس، وربط الاتصال وقطع الاتصال. من هنا اللجوء المتزايد إلى الاستجمام وإلى الاسترخاء. ومن هنا التركيز غير المسبوق على السيكولوجي، وعلى العلائقي، والبحث عن التفاعل، وعن الأحاسيس أيضا، تلك التي تتجدد ببطء.

مع الوقت تتضح تدقيقات وتدرجات، فحضارتنا تبدع حساسيات، وتخلق فروقات دقيقة، وتوجِد بشكل تدريجي أصنافا من التعب لم تكن موجودة فيما مضى، وتكشف، مع مجرى التاريخ، حالات كانت لوقت طويل مهملة. لقد ظهرت كلمات جديدة وتكشفت أعراض. فـ «الفتور»، على سبيل المثال، الذي أثاره أثرياء القرن السابع عشر الذين يشْكون من أوجه ضعف وهشاشة لم تكن إلى ذلك الوقت معروفة، أو «التصلب العضلي» الذي أثير مع ثقافة القرن الثامن عشر الحساسة، يشير إلى آلام خفيفة، كان لا يبالَى بها في السابق، وتظهر بعد مجهود غير مستعَد له. إن «السقم» الذي ظهر أيضا مع عالم العمال في القرن التاسع عشر، يوحي بضعف شديد يصيب الأجيال، هو نتيجة للعوز بقدر ما هو نتيجة للأعمال المفرطة. تتبدل الحدود، وتنشأ تفاوتات جديدة مدمرة للأرواح وللأجساد.

إن عالم القرنين العشرين والحادي والعشرين، عصر إضفاء الطابع السيكولوجي المكثف على السلوكيات والأحاسيس، قد أدخل اختلافات غير مسبوقة. أكيد أن المشقة البدنية، موضوع صراعات من أجل الاعتراف بها، لم تختف. لكن تركز الانتباه على الآثار المتعددة للغاية: الهمُّ، والقلق، واستحالة تحقيق الذات. وينضاف إلى التعب الناشئ عن مقاومة الأشياء، تعب ناشئ عن

هذا هو رهان هذه الخطوة التاريخية، والتي هي أيضا جنيالوجية، مُفادها إظهار كيف أن الذي يبدو دائما أنه مترسخ في الأجساد، مسجل أيضا عبر القرون في الوعي، وفي البنيات الاجتماعية وتمثلاتها، إلى أن يتسع من جديد ويصبينا في العمق.

القسم الأول

العالم الوسيطي وتحدي المعالم

حالة قديمة تقوض الوجود؛ حيث يصاحب التعب الحياة اليومية في العصر الوسيط بشكل عميق، وتعمل صورة الأجسام المنهارة أو المنحنية على رسمها، والنصوص الوصفية على تفسيرها: من رسائل الصحة إلى النصوص التاريخية إلى الحكايات الشعبية إلى الروايات. ويحمل هذا التعب حسب النماذج التقليدية؛ وهي فقدان الأخلاط، والنقص في سوائل الجسم الثمينة. إنه حرمان من المواد، وتسرب لما يكوّن غنى الأجسام، ومحو للكثافة. إنه ظاهرة «غامضة» أيضا: لا عدد يقيده، ولا كلمة تضبطه بوضوح، رغم وجود كلمة «تعب» التي جاءت من اللاتينية fatigare، fatigatio، defatigatio، أو حتى كلمة «عيء» التي جاءت من اللاتينية lassitudo، لا مؤشر دقيق يشير إلى «الأكثر» أو «الأقل» إلا التقويم الحدسي: طوال اليوم، والخصوصيات المتميزة للأنشطة، والمسافة التقريبية للأمكنة، دون أن نغفل المآسي والشقاء، وآثار الجروح البدنية، والأخطار.

فاعلون آخرون مرتبطون بخصائص العصر الوسيط يصيبهم التعب أيضا. ويبدو أن المشاة والمسافرين هم أول المعنيين. فصائح الأدوية والعقاقير يتوجهون أولا إلى أولئك الذين «يريدون شد الرحال» أو إلى أولئك الذين أنهكهم الطريق،

حُجاج أو تجار أو فرسان قد واجهوا معابر غريبة، وفضاءات غير آمنة. وفي المقابل، تناولت أخبار تعب لمحاربين ورواياتهم، أولئك الذين تصنع مواجهاتهم فخر المدن وتُدافع عنها. بينما تشجع سير القديسين حياة أولئك الذين تطمح حياتهم إلى خلاص الجميع، وكرّسوا أنفسهم لقاعدة المحرمات ولقاعدة الديني. ألوان من الإرهاق بالكاد يتم تصنيفها، ولكنها محسوسة بقوة، والتي يعكس استحضارها التنظيم الاجتماعي الوسيطي للمكان والزمان، أكثر من غيرها.

وبعبارة أخرى، تلتقي في النهاية حصريا في معارضة الأشياء ومقاومة الوسط.

الفصل الأول

صور واضحة ومعالم غير مؤكدة

صورة مركزية تحكم الرؤية للتعب القديم: إنها صورة الفقدان. فالإضعاف يتوافق مع النقصان والعجز في المواد. لا شيء أكثر مادية أو أكثر بصرية: فالتعرق وترهل اللحم، وعياب النفس أمور مرتبط بعضها مع بعض، يتمثل للجسد لم يعد تمثلنا. الكل مربط بـ «سرب» لا يمكن إيقافه، وثغرة ناتجة عن الأخلاط، وسوائل مفترض فيها «بناء» العضوي، إلى درجة أنها تكون أول دعامة. مواد مائية تحتل الأجزاء وتوحدها، وهي تظهر عند أدنى جُرح، وعند أدنى ورم دموي، وعند أدنى تعرق، مشبهة الوجود بالحيوية وبالقوى المخصبة، مؤكدة الخلط بين السوائل والحيوية. إن «الجوهر» الجسدي يكمن في هذه التدفقات، ووجودها يزيد القوة، ويُحدِث اختفاؤها الوهن والهزال والإنهاك، بل يحدث حتى الموت. إن التعب يأتي مما فُقد.

الفقدان وتأثيراته

تقدم الحركة البدنية صورة يتقاسمها الأطباء مثلما يتقاسمها بادئ الرأي. إن كل شيء يأتي من اهتياج الأعضاء: فالحركات المستمرة تولد الاحتكاكات، التي تولد بدورها الحرارة التي تحول الأخلاط إلى أبخرة تُسرع إخراج العرق. من هنا أوجه النقصان، واضمحلال الأجساد، وانتشار المعاناة في المجموع الذي تيبس فجأة وسرعان ما تستولي عليه البرودة. الشيء الذي يبرز جليا في رحلة تريستان وإيزو الطويلة، وفيها وحدها، في رواية القرن الثاني عشر، بجسديها «الشاحبين

والنحيفين»[6]. وهو ما يوضحه الشروحات الطبية، مشيرة إلى تسرب، واضمحلال للحوم، مثبتة آلاما في أجزاء الجسم الأكثر «شرفا»:

لكن لا تطيل العمل أبدا

فسيكون في ذلك الضرر

بتخفيض حرارتك

أو بتسبب بعض الألم

للرأس، أو للمعدة أو للصدر

مما يجعلك بحالة مزرية.[7]

في الواقع إن العجز في قلب المرض، وإن المادة الضائعة في قلب الوهن، وفيها يصبح العرق «علامة سيئة»[8]. ويمكن للحمى أن تستمر بإفراط في الاحتكاكات وبحوادثها، خصوصا إذا جرى العمل في «حرارة شديدة»[9].

لذا فإن النتيجة المفترضة للجهود تقلق الطبيب، إلى درجة التحذير منها. الضياع الكثير بالنسبة إليه يصعب تعويضه. إن التسرب خطر «على الذين يتعرقون كثيرا بالهلاك»[10]، وإن العياء يجعل «الشخص متصلبا ويابسا بفعل القوة والأرواح التي تتناقص في مثل هذا العمل»[11]. لذلك، على العامل أن يحذر من «كثرة العرق» في جسد لم يفكر بعد في مبدإ لانضباطه الداخلي. إن الحد كذلك غامض. والكثافات فيه تجريبية وحدسية. ويظل العالم عالم الانطباع اليومي،

---

(6) Tristan et Iseult (XIIe siècle), Paris, Le Livre de Poche, 1988, p. 88.
(7) .Commentaire en vers français sur l'école de Salerne (Xe-XIe siècle), Paris, 1671, p. 461
(8) .Bernard de Gor
don, Fleur de lys en médecine (XIIIe siècle), Lyon, 1495, f° c IV
(9) .Ibid., f° c IV.
(10) . انظر شروحات بيير أندري ماتيول لكتب ديسقوريديس العشرة، باريس، 1579، ص. 720.
(11) .Barthélémy l'Anglais, Le Grand Propriétaire de toutes choses (XIIIe siècle), Paris, 1556, p. 62.

والحس المباشر، وليس عالم التحقق أو الحساب[12]. وعلاوة على ذلك، فإن الضياع، كما يُحمثل، ليس قابلا للعد؛ فلا يمكن تخيل تقويمه بعد. عدد من المهام، ومن المهن، ومن الألعاب، ومن الأسفار، ومن المعارك لا تعرف القياس. وبعض الحمولات تبين ذلك أحسن من غيرها؛ فقوارب الصيد، من بين أشياء أخرى، منذ القرن الثاني عشر الميلادي، تحمل السمك من البحر، من بحر المانش أو من المحيط الأطلسي، حتى سوق باريس. إن السرعة المطلوبة وكذلك طول المسافة يقللان من موت الأحصنة خلال المدو، ومن إنهاك الطاقم، ومن تنافس العربات، إلى درجة أنه أحدث صندوق، منذ القرن الثالث عشر ميلادي، لاستبدال «الدواب التي نفقت من التعب»[13]، أو تعويض الأسماك التي فسدت في الطريق، مع ضرورة أمر من قائد شرطة باريس سنة 1500 لتحديد ظروف الرحلة جيدا، وتنظيم السوق[14].

أية كلمات نستعمل؟

حد غير دقيق من دون شك، وكلمة «تعب» بالفعل هي التي فرضت نفسها، على أية حال، منذ العصر الوسيط، مع اشتقاق عادي إذ ينحدر من كلمة **fatigare** اللاتينية، الذي استلهمتها النصوص واستلهمها المؤلفون بالحفاظ على المصدر، مثل الإشارة التي رأيتها: «دواب هلكت من التعب»، بعد «قوارب الصيد» في القرن الثالث عشر، والإشارة إلى جاماد «أفضل فارس في العالم»، الذي «لم يشعر

(12). انظر:
Alexandre Koyré, « Du monde de l'"à peu près" à l'univers de la précision », Critique, no 28, 1948, p. 806 823, repris dans Études d'histoire de la pensée philosophique, Paris, Armand Colin, 1961.
(13) Voir Nicolas de La Mare, Traité de la police où l'on trouvera l'histoire de son établissement, les fonctions et les prérogatives de ses magistrats, toutes les lois et tous les règlements qui la concernent (1705), Paris, 1719, t. III, p. 68.
(14) .Ibid., p. 71.

بالتعب قط[15]»، أو الإشارة إلى فيرابراس ومعركته ضد المسلم الذي «هدّه التعب[16]» سريعا.

كلمات كثيرة أخرى يمكن أن تحل محلها: «نال الضعف من كل الأعضاء[17]» التي أجراها دورمار الغالي، أو «تسخين[18]» الأعضاء الذي أشار إليه ألدبراندان دو سيان، أو «تلف الأرواح[19]»؛ القسم «الهوائي» من الأخلاط التي أشار إليها أرنود دو فيلنوف في القرن الثالث عشر، أو أيضا «حوادث النفس[20]»، أو حتى «ألم الدماغ[21]» الذي أشار إليه بارتيليمي الإنجليزي، منددا بليالي السهر وتيبس الأعضاء الذي يليها. كثير من الألفاظ تتمركز على «النقصان»، والعجز الجسدي وسلبياته.

تبقى هناك خاصية في استعمال العصر الوسيط لكلمة «تعب» إنها تعتمد على الإدراك. ويمكن للعياء أن ينكشف «ظاهريا» بقدر ما ينكشف «باطنيا»: فالإخوة السبعة الذين هاجمهم جلهاد كانوا «متعبين للغاية، إلى حد أنهم لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم[22]»، إن وضعهم يكشف عن حالتهم الجسدية. وفي المقابل، فإن السيد غوفان، في رواية بيرلسفو قد «أحس بالتعب جراء أيام السفر الطوال[23]»؛ إن إحساسه، هذه المرة، يعبر عن نفس هذه الحالة، ليس لأن النظريتين متميزتان وعميقتان بشكل واضح، فالإشارة تظل حدسية، وبديهية، ومفهومة، وتنفلت من

(15) .La Quête du Graal (XIIIe siècle), Albert Béguin et Yves Bonnefoy (éd.), Paris, Seuil, «Points Sagesse», 1982, p. 94.
(16) .Fierabras (XIIIe siècle), trad. Mary Lafon, Paris, 1857, p. 48.
(17) .Durmart le Gallois (XIIIe siècle), in Danielle Régnier-Bohler (éd.), Récits d'amour et de chevalerie, XIIe-XVe siècle, Paris, Robert Laffont, « Bouquins », 2000, p. 620.
(18) .Aldebrandin de Sienne, Le Régime du corps, op. cit., p. 24.
(19) .Arnaud de Villeneuve (XIIIe siècle), Regimen sanitatis en français, Paris, 1514, s. p.
(20) .Aldebrandin de Sienne, Le Régime du corps, op. cit., p. 31.
(21) .Barthélémy l'Anglais, Le Grand Propriétaire de toutes choses, op. cit., p. 64.
(22) .La Quête du Graal, op. cit., p. 94.
(23) .Perlesvaus, le haut livre du Graal (XIIIe siècle), in Danielle Régnier-Bohler (éd.), La Légende arthurienne, Le Graal et la Table ronde, Paris, Robert Laffont, « Bouquins », 1989,

كل ملاحظة خاصة، مثلها تكون عرضا أو مرضا. ليس التعب «حالة» مدروسة، ومتابعة، وملاحظة. ويتعلق الأمر بمرحلة من مراحل الحياة، ترافق العمر كله، وهي مؤكدة حيث يتعرف عليها مباشرة ويتم تقاسمها بشكل خفي. يتعلق الأمر بـ «الثغرة»، وبنسخة كئيبة وحتمية من العجز البشري.

كيف نصف الشدة؟

ونجد الالتباس النسبي نفسه عندما حاول الطب في العصر الوسيط تحديد المعالم، وتقويم العتبات، وفحص الأكثر والأقل في التعب والجهد. في القرن الثالث عشر، لجأ بارتيليمي الإنجليزي إلى عبارات مفهومة للجميع، ولكنها تبقى حسية: الشدة قبل كل شيء، «أكد أن العمل ثلاثي؛ الأول قوي، والآخر ضعيف، والآخر متوسط»، على الرغم من عدم إعطاء أي مؤشر تفصيلي؛ السرعة أيضا، «المتسرع» و«المتمهل»، (بطيء)، أو الكمية أخيرا، «كبير» أو «صغير»[24]، صفة «ذاتية» أيضا. أما «الطويل» مع مدرسة ساليرنو فتم نسخه بانتظام منذ القرن الثاني عشر: «لا تعمل أبدا لوقت طويل، فهذا سيؤذيك[25]». أيضا ليست هناك نقطة ثابتة، فالأشياء لا توجد إلا نسبيا، بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر، ليس هناك مبدأ للسرعة، ولا مبدأ للميكانيكا، ولا علامة قارة، حتى لو كانت الملاحظة مرتبطة، بشكل واضح، بأكثر وبأقل. إن «التعدد غير المنسجم لأنظمة القياس المتغيرة من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية[26]» هي التوضيح الأكبر. يظل العالم هو عالم الفورية الحسي، والانطباع البدني، والاقتناع البصري، و«التقريب» الذي أشار إليه ألكسندر كويري[27]، وليس العالم الذي يمكن هندسته رقميا.

---

(24) .Barthélémy l'Anglais, Le Grand Propriétaire de toutes choses, op. cit., p. 62.

(25) .Commentaire en vers français sur l'école de Salerne, op. cit., p. 461.

(26) انظر:

Alexandre Koyré, « Du monde de l'"à peu près" à l'univers de la précision », Études d'histoire de la pensée philosophique, op. cit., p. 319.

(27) .Ibid.

في المقابل، وجه ألدبيرلندان دوسيان في القرن الثالث عشر نحو الأشكال أو الألوان، دون زيادة في الدقة: إن الإفراط يجعل الجلد أحمر، ويُنحّف أيضا، وأحيانا حتى «يُسمّم»؛ صورة قديمة متمركزة على الهيجان والطفحان الداخلي المفترض. إن «توقف» العمل سيفرض نفسه مع ظهور مثل «الأعراض» التي يضاف إليها «الثقل»؛ هذا الإحساس لجسد يفقد راحته ليصير «ثقيلا»[28]. إنها إرادة الاعتدال، والاحتراس، بدون شك، ولكنها غير دقيقة، فقلما يتبعها الجميع، حتى ولو كانت مبدأ طبيا. إن نيتها تبقى نظرية، بعيدة، وغير واقعية في العالم اليومي للأفعال والأعمال، خصوصا وأن الجهود «الشديدة» يمكن أن تكون رائعة

أنواع من الفقدان

يبقى الغضب، والهموم والمرارات، والأوهام التي يمكن لآثارها أن تشترك مع ألوان التعب، والتي يظل قياسها مقدرا أكثر مما هو محدد. منذ القرن الحادي عشر، رفض قسطنطين الإفريقي أسبابا متعددة، ومع ذلك غير مشروحة بشكل كاف: «التفكير المفرط [nimia cogitatio]، والذكرى [memoria]، والبحث في أمور غير مفهومة [investigatio rerum incomprehensibilium]، والتخمين [suspitio]، والأمل [spes]، والخيال [imaginatio]»[29]. هنا أيضا فقدان عن طريق الجهد الذهني، والانقباض الداخلي، والهيجان المزاجي، والتي ركزت صورتُها التجفيفَ من جديد: «يهرب ويتفادى الأعباء الثقيلة والقلق؛ لأن القلق الكبير جدا يجفف الأبدان البشرية ويؤدي إلى خراب الأرواح الحية. وهكذا فالأرواح المخربة والحزينة تجفف العظام»[30]. إن «الاندثار» مرتبط بالأعضاء المتقلصة، و«القلب المنقبض» من بين أمور أخرى، تحت تأثير بعض الألم الداخلي

---

(28) Ibid.

(29) انظر:

Catherine König-Pralong, « Aspects de la fatigue dans l'anthropologie médiévale », Revue de synthèse, vol. 129, no 4, 2008, p. 539.

(30) Arnaud de Villeneuve, Regimen sanitatis en français, op. cit., s. p.

عنها الأخلاط بتقليصها، بل بحبسها. إنه مرتبط أيضا بالتسخين الذي يحدثه الندم، وتشنجاته المتوالية، والمعذبة، والمتكررة، و«حركات الدماغ غير المتوقفة» التي تهيج الأرواح بدون طائل. من هنا نصيحة أرنود دو فيلنوف الملحّة: «يجب على الإنسان أن يحتاط من الغيظ؛ لأن الغضب والغيظ على السوء يجففان الجسد، بقدر ما يسخنان كل الأعضاء بإفراط، وكثرة الحرارة تيبس الأجساد وتجعل الأعضاء سقيمة»[31]. الغضب بكل تأكيد، أو اليأس، «يحرقان» مثل الجحيم. أو أخيرا الزوائد القديمة مع «قلقها[...] وجفاف الجسد، وعسر الهضم، وتحول في طبيعة الشخص كلها»[32]. نظرة من قبل سيكولوجية؛ حيث كل إثارة هي قبل كل شيء تحريك للأجزاء البدنية بتصادماتها واحتكاكاتها.

بعيدا عن هذا الغياب النسبي للترصيف أو التكميم، فإنه يوجد، مع ذلك، «مشهد» للتعب في العصر الوسيط. عالم متنوع ومتعدد، وأيضا غني بطريقته؛ حيث تتجلى الاختلافات، وأنماط الوجود والمواجهة، وأنماط المقاومة والمعاناة. لذلك يثمن التعب في المقام الأول بحسب الوقائع والأمكنة؛ وهي أشياء خارجية «مدركة»، مبدأ وأثرا، حول بعض الجوانب الواضحة بشكل جيد، ما يعادل الفقدان والإنهاك.

---

(31) .Ibid.

(32).Barthélémy l'Anglais, Le Grand Propriétaire de toutes choses, op. cit., p. 64

الفصل الثاني

تعب المحارب المحتفَلُ به

لابد من ظروف لتجاور الأوصاف التقليدية. لابد من مواقف؛ مواجهة مع الأشياء ومع الناس. ويجب أكثر من ذلك: استحضار الأنشطة القيّمة، تلك التي تركز النظر، و الأخرى شبه الخفية أو غير المعروفة. وبعبارة أخرى، فإن التعب في المقام الأول انتقائي. وأوصاف العصر الوسيط تُظهر ذلك، تُعظم من بعض الحياة وتحط من البعض الآخر، وتكشف بذلك عن ثقافة وعن بيئة. ذلك ما توضحه مشاهد القتال، المعروضة هنا بوصفها أولوية، بينما مشاهد العمل نادرة، وأكثر ابتذالا، بدون شك، وغالبا ما يتم الحكم عليها بكونها دون قيمة ودون تميز. إن تعهد الصدام المسلح «ملحوظ» بقدر ما هو «بالغ»، ومركزي بقدر ما يحكم السُّلّم، ويخلق التراتبيات، ويبني التمايزات خطوة خطوة. ومثال ذلك حياة كيوم المارشال، الذي صعد نجمه، ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر؛ فبعد انتصاره في معارك ونزالات، في خدمة باتريس ساليسبوري، ثم في خدمة هنري الثاني، تحولت وضعيته، وانتقل من فارس مغمور إلى وصي على إنجلترا[33]. إن الوقائع الحربية هي حتما في قلب الاهتمامات، كما هو الإخلاص في الاشتباكات. من هنا هذه الطريقة في الالتفاف على التعب، بالتأكيد على المقاومة والصلابة.

الـ«مرئي» من الجسد

إن هذه التثمينات، التي تفضل الظاهر على الباطن، والبصري على الشعور، وفوران الحكي، والإطناب جد خاصة، وأيضا مؤرخة، وتوجه النظر نحو

(33). انظر:

Georges Duby, Guillaume le Maréchal ou le meilleur chevalier du monde, Paris, Fayard, 1984.

الإشارات، والأداة، واستعمالها. فالـ «خارج» يعرض نفسه كأولوية في هذا العالم القديم. مثل فيرابراس الذي أنهكته معركة ضد «كافر» في رواية القرن الثالث عشر: «انتفخت قبضته من كثرة الضرب[...]»، وترك «حساما بطول رمح يفلت»[34]. أو كونت نورماندیا في غزو القدس ورد فعله الذي بدا مختلفا، وخياليا أكثر منه واقعيا، لكنه جد مرتبط بالتعامل مع السلاح: «لم يستطع إفلات سيفه، لأن يده كانت متقبضة بشدة على المقبض، ولم يستطع تسريحها إلا بعد أن رشها بقليل من الماء الساخن والنبيذ ليرخي العضلات[35]». إن الإحساس الداخلي موجود وقد شاهدناه، لكنه مذكور قليلا ومتابع قليلا، وهو جد ذاتي من دون شك ليتم تفصيله. رؤية جد خاصة للإرهاق، محتفظة بأسبقية العلاقات مع الأشياء، أكثر من لعلاقات مع الذات، والخارج أكثر من الداخل.

إن المظاهر المرئية من الجسد والاضطرابات البدنية، تفرض التعب حتى استفحال الأعراض. «الزبد الخارج من الفم»، زبد الإفرنج المنهكين في الصحراء[36]، أو إعياء المهاجمين بعد الاستيلاء على القدس، الثياب ملطخة، شاحبون، ومسلوخون: «كانوا متسخين للغاية، ومغمًى عليهم كثيرا من الإنهاك[37]». أو أيضا الأرجل دامية بعد المسيرات «النعال مقطعة، وممزقة، ومقتلعة أمام القدم ومن تحت الكاحلين[38]». إن جميع الأعراض شبه الـ «نهائية» تثير التقدير والتأثر.

---

(34) .Fierabras, op. cit., p. 48.

(35) .Richard le Pèlerin et Graindor de Douai, La Conquête de Jérusalem (XIIe siècle), in Danielle Régnier-Bohler (éd.), Croisades et pèlerinages récits, chroniques et voyages en Terre sainte, XIIe-XVIe siècle, Paris, Robert Laffont, « Bouquins », 2009, p. 188.

(36).Richard le Pèlerin et Graindor de Douai, La Conquête de Jérusalem, op. cit., p. 188 ·
«كثيرون للصم الزبد الذي يخرج من أفواههم»

(37) Ibid., p. 261.

(38) Ibid., p. 193.

مع القتال تضاف إليه قيمة، تمزج الـ «عضوي» بالمعنوي، والقوة بالعزيمة. إنها قيمة المعركة بكل تأكيد. يجب أن تكون «طويلة وطاحنة[39]» لكي يكون النصر فيها معتبرا، أو «عنف نادر ومعترة طويلة للغاية[40]». وقيمة المحارب أيضا؛ يجب أن يكون صُلبا يصارع ضد كل استسلام، مثل كونت سان بول في برفين سنة 1214م الذي «قاتل طويلا وبقوة، والذي أُنهك بها فيه الكفاية بسبب الضربات التي وجهها[41]»؛ أو مثابرا بشدة مثل بطل جيهان والشقراء، في رواية القرن الثالث عشر، علما أنه «رفض كل استراحة طوال المعركة[42]». إن الزمن يقدر المشقة بقدر ما يوحي العالم القديم؛ حيث العجلة أقل من الصبر، والسرعة أقل من التمهل، وحيث يسم أيضا على وجه الخصوص تعظيم «القيم الشجاعة للهجوم ومقاومة كل عدوان»، يجسد المحارب غاية شبه رمزية بفرض القوة مهما كلف الأمر، و«حجب الضعف[43]». قوتان يمكنهما إذن أن تسودا، من زاوية التعب والقتال: تلك التي تكشف عن الأكثر قدرة على مواجهة حدودهم، وتلك التي تكشف عن الأكثر قدرة على تجاهلها. يؤكد الأولون أنفسهم بإظهار أنهم يعرفون الألم، بينما يؤكد الآخرون أنفسهم بإظهار أنهم لا يشعرون إن التحمل في قلب المزايا، والاستبسال من خلال المدة ويبرهن على ذلك جاك دو لالينج، الشخصية ذات الحظوة في قصر بوركون بتحليه بمهارة دقيقة. «أكثر من أي رجل،

(39) .Richard le Pèlerin et Graindor de Douai, La Chanson d'Antioche, in Croisades et pèlerinages, op. cit., p. 42-43.

(40) .L'Âtre périlleux (XIIIe siècle), in La Légende arthurienne, op. cit., p. 642.

(41).Relation de Marchiennes (XIIIe siècle), citée par Georges Duby, Le Dimanche de Bouvines, 27 juillet 1214, Paris, Gallimard, « Folio Histoire », 1985, p. 79.

(42) .Jéhan et Blonde (XIIIe siècle), Paris, Union latine d'édition, 1971, p. 92.

(43) .Georges Duby, « Réflexions sur la douleur physique au Moyen Âge », Mâle Moyen Âge : de l'amour et autres essais, Paris, Flammarion, 1990, p. 205.

لقد كان مقاوما، ومجربا، ويعرف جيدا كيف يقبظ خصمه[44]». يبرهن على ذلك جالفاد «أفضل فارس في العالم» تحليه بهدوء ثابت، «لا يتبدل ولا يكل[45]». إشارة جد مهمة أيضا إلى درجة أنها ترتقب من حصان: مثل حصان بودان في غزو القدس، «برقسول الأرغوني الذي لم يلهث قط[46]»، أو حصان قابور، العربي الذي لا تكفي عشرون فرسخا من العدو لتعيي وكضه أو لتتعبه[47]». وأخيرا إشارة أخرى جد مهمه؛ حيث تنامت طيلة العصر الوسيط، إلى درجة الظهور في قلب المبارزات. إن المتفرجين، في القرن الخامس عشر، يحبون حساب عدد الضربات وعدد الجولات، ويثمنون الضراوة ويقوّمون المدة. مثل تحدي 15 دجنبر 1445 في غنت؛ حيث واجه جاك دو لالينج في نزال فارسا صقيليا حتى النيل: «في الحقيقة، قد قال كل من حضر إنهم لم يشاهدوا قط تسديد ضربات بتلك الضراوة في عدد كبير من الجولات[48]». كما أن عدد الضربات المسددة يعلن المهاجم عنه مسبقا، علامة على رباطة الجأش، والمقاومة، وبالأولى، علامة على البسالة. إن ما تضمّنه قانون المواجهة على ضفتي نهر سون في 2 أكتوبر سنة 1450: «يجب أن تكون ضربات السلاح محددة[49]». ما يؤكد أيضا العدد «المميّز» للضربات المطلوبة (ثلاث وستون) من جان بيتوا ضد جاك دو لالينج في 15 أكتوبر 1450 [50]. طريق غير مباشرة وغير مسبوقة للجوء إلى العدد، في وسط القرن الخامس عشر، للدلالة على مقومة المحاربين، ولتقديرها على وجه الخصوص.

(44) Le Livre des faits du bon chevalier messire Jacques de Lalaing (XVe siècle), in Danielle Régnier-Bohler (éd.), Splendeurs de la cour de Bourgogne : récits et chroniques, Paris, Robert Laffont, « Bouquins », 1995, p. 1311.

(45).La Quête du Graal, op. cit., p. 94.

(46) .Richard le Pèlerin et Graindor de Douai, La Conquête de Jérusalem, op.cit., p. 251

(47).Ibid., p. 67.

(48) .Le Livre des faits du bon chevalier, messire Jacques de Lalaing, op. cit., p. 1255.

(49) Ibid., p. 1334.

(50) Ibid., p. 1343.

المعاناة «طويلا» من أجل التكوين

كثير من الإشارات الملحة توصي، في آخر المطاف، بالتكوين في مجال الفروسية نفسه. لقد اشترط جان بويل، رفيق جان دارك، اكتساب «الشرف والمجد بواسطة الحرب» لضرورة معرفة «قدرة تحمل المشقة والشدة بصبر، والذي يوجد فيها من البداية»[51]. وفضل جان لو منجر دو بوكيكو، الذي عيّنه شارل السادس، مارشال فرنسا سنة 1391، مثل هذا الشرط، مستحضرا أيام شبابه في القتال، ومرددا عبارة «طويلا»، إلى حد أنه جعل منها لازمة: «لا مشقة كانت خطيرة عليه»، وجريا وذهابا «طويلا على القدمين»، والتعود على «أخذ النفس الطويل»، والمعاناة في العمل «طويلا»، واستعمال السلاح «طويلا»، وتقوية ساعديه ويديه بـ «الضرب طويلا»، ومضاعفة «تجارب الحرب» و«لا يتوقف أبدا»[52]. هناك منطق واحد: إنه التكرار، ومنظور واحد: إنه الاستمرارية. إعادة شاملة، وكاملة، ومكثفة، بعيدا عن انسيابات «التدريجية» و«التصاعدية»، التي حاول العالم الحديث رسم معالمها، كاشفة، بشكل عابر، الخطوات القديمة للتعود على التعب ومقاومة الظروف الطارئة. إن تعلم السيطرة على العياء، ليس بالقضاء عليه بتقسيط الجهود، بل بقهره من خلال إضافة مجموع الوضعيات، دائما وأبدا، والاستسلام له، فورا، بشكل كلي.

مثل هذا الهدف يقتصر على الفرسان. ويختلف الأمر بالنسبة إلى باقي عناصر الجيش؛ فالرماة لم يشتركوا فيه عندما فكر الإنجليزي إدوارد الثالث، سنة 1335 م، في الاستعمال الجيد لسلاح الرماية عند المحارب المستقبلي: «يمنع، تحت حكم الإعدام، في كل ربوع المملكة الإنجليزية، أن تتم التسلية بلعبة أخرى، غير

(51) Jean de Bueil, Le Jouvencel (XVe siècle), Paris, 1887, p. 21.

(52) Le Livre des faits du bon messire Jean le Meingre, dit Boucicaut (XIVe siècle), in Joseph-François Michaud et Jean-Joseph-François Poujoulat (dir.), Nouvelle Collection des mémoires pour servir à l'histoire de France, Paris, 1836, 1re série, t. II, p. 219.

لعبة القوس والسهام[53]. ما يهم هنا هو استعمال السلاح ولبس التهيؤ للمسيرات والإنهاكات، والتي يواجهها، مع ذلك، غير الفرسان. نفس التوقع ساد في 28 أبريل 1448، عندما أمر الفرنسي شارل السابع كل قرية بالاحتفاظ بالرماة للمعارك المقبلة[54]. هنا يؤكد تقسيما اجتماعيا واضحا: لا يعني التكوين في القدرة على التحمل إلا أصحاب الامتياز؛ أولئك الذين يرمزون إلى «الفارس الثقيل، فارس بالمعنيين التقني والاجتماعي معا، مسلح [...] بدرع كبير [...] بزردية من المعدن، ويستعمل الرمح والسيف[55]»، ذلك الذي يستطيع حمل خمسة وعشرين كيلوغراما من الحديد، ذلك الذي مقاومته للتعب والضربات تصنع العظمة. لا شيء سوى علامة ثقافية كبرى: «في نهاية العصر الوسيط كانت الفروسية لا تزال تُعد عصب الجيوش[56]»، في الوقت الذي لم يُفكَّر في التعب المحتمل لعامة الناس.

(53). انظر،
Henri Stein, Archers d'autrefois, archers d'aujourd'hui, Paris, Longuet, 1925, p. 66.
(54). Voir ibid., p. 82.
(55). Philippe Contamine, « La segmentation féodale, début Xe-milieu XIIe siècle », in André Corvisier (éd.), Histoire militaire de la France, t. I, Philippe Contamine (dir.), Des origines à 1715, Paris, PUF, 1992, p. 71.
(56). Franco Cardini, « Le guerrier et le chevalier », Jacques Le Goff (dir.), L'Homme médiéval (1re éd. italienne 1986), Paris, Seuil, 1989, p. 122.

الفصل الثالث

المعاناة «الضرورية» للمسافر

إن السفر بمعاناته وبطوارئه هو الوجه الآخر للتعب التي يجري الحديث عنه بانتظام في العصر الوسيط. فالمشقة فيه تبقى أكثر رتابة من مشقة القتال، وهي مفروضة أكثر من كونها ذات قيمة. إنها حتمية، وبالخصوص مخيفة، ومعلق عليها. إنها في نهاية المطاف ثقافة تكشف عنها هذه الرحالات الشاقة، وتمزج العياء والعجز، والاكتشافات والأشياء جديدة.

رؤية للمكان

إن مكان العصر الوسيط هو السبب، ويحكم مباشرة فكرة التعب. فالقضية تمس الفضاء، والوسط يصبح ملتبسا بمجرد أن نوضع المسافات، وتظهر المشقة بمجرد أن يصير «المسير» واجبا. الطريق يناقض السلامة. لا وجود لنظرة تشرف على الأرض في مثل هذا العالم. ولا وجود لسطح متجانس مثل الذي يمكن لحداثتنا أن تخلقه[57]، ليس لأن الخرائط غير موجودة، مثل ما تبين النقوش الأولى التي تقسم الحدود والقاريات، ولكن الخطوط التي تهيمن فيها، والمعابر، والطرق أقل من الرؤية التي تحيط بمجموع المكان للسيطرة عليه بشكل أفضل. ويبقى الامتداد «وسطا: فراغا يجب ملؤه[58]»، مع تقاطعاته غير المؤكدة، وعقباته المتجددة باستمرار. وحدها الأمكنة لها أهمية، تلك نفسها التي ذكرها ماركو بولو، في القرن الثالث عشر، في رحلته «العجيبة»، التي ترجمت إلى العديد من الروائع

(57) .Michel de Certeau, L'invention du quotidien, t.1, Arts de faire (1990), Paris, Gallimard, « Folio Essais », 2007, p. 177.

(58). انظر:

Bernard Chevalier, « Introduction », Espace vécu, mesuré, imaginé. Textes réunis en l'honneur de Christiane Deluz, Cahiers de recherches médiévales et humanistes (XIIe-XVe siècle), no 3, 1997, p. 8.

«لا افتتان إلا أمام الحدائق»[59]. لذا، فالمسير بقدر ما يمد التقدم يمد كذلك أشكال المعاناة، و لأفق يمكنه أن يغري بقدر ما يمكنه أن يفزع. إن الشروحات موجزة، والوقت ليس للاستطان أو لتسجيل الدقيق للأحاسيس التي نحسها. فالتعب مثله مثل القتال يظهر أولا باستحضار الأشياء، والآثار الواضحة، وطبيعة الأمكنة: إنه الخارج الجغرافي الذي يؤكد مرة أخرى الداخل الجسدي. إن ظروف المسير، والمناخات، والتضاريس: مثل قوة الريح التي دفعت جان بلان دو كاربان، مبعوث البابا، إلى أن ينبطح أرضا بشكل منتظم عند عبوره لـ «تارتاريا» سنة 1246 م[60]، أو أرض الشرق القاحلة، «تارة صخرية، وتارة رملية»[61]، التي دفعت جاك الفيروني إلى اليأس من مسيره في رحلته الطويلة لسنة 1335 م.

إنه مجموع مادي وذهني شامل على المحك، ورؤية لكل ما يحيط بنا، وطريقة لرى كل مكان كأنه معزول، وبالتالي كل ابتعاد كأنه «مواجهة». لا عجب إذ قدر سكان مونتيو، في القرن الثالث عشر، بيير موري، تقديرا ليس له مثيل، والذي عبر نهرا عظيما «تحت أعينهم حاملا على كتفيه، على التوالي، بيلبياست وأرنود سيكر»[62]. وهكذا تشكل أخطار المسافات وعنفها، لمتجددة باستمرار، التحدي الأول الذي يواجه.

إن تهديد الخارج هذا، وقلق الأمكنة، ومفاجآتها المحتملة تجعل من البعيد أحد أهم موضوعات أدب العصر الوسيط. فبروندان، هذا القس الإيرلندي الذي ذهب رفقة إثني عشر من مرافقيه إلى البحث عن الفردوس الأرضي، قد لاقى، في

(59) Alain Roger, Court Traité de paysage (1997), Paris, Gallimard, « Folio Essais », 2017, p. 68.

(60).Jean Plan de Carpin, Voyage en Tartarie (XIIIe siècle), in Édouard Charton (dir.), Voyageurs anciens et modernes, Paris, 1861, t. II, p. 240.

(61).Jacques de Vérone, Liber peregrinationis, 1335, s. p.

(62) . انظر.
Emmanuel Le Roy Ladurie, Montaillou, village occitan de 1294 à 1324, Paris, Gallimard, «Bibliothèque des histoires », 1975, p. 178.

سفره عبا عديدة وعجيبة، إلى درجة أن رحلته كانت موضوع مائة وعشرين مخطوطا ما بين القرنين العاشر والخامس عشر. لقد عرف بروندان كل أنواع المياه، وكل أنواع الفزع. وتضاف إلى جهود العبور مواجهات الحيوانات المزعجة، والحضور المضني للوحوش، والعفاريت والشياطين وما تزال عجائب كثيرة تشغل العديد من الروايات، وتحرك الخيال، وتؤجج الحكايات.

وأيضا فإن الإرهاق، على وجه التحديد، هو في قلب بعض رحلات العصر الوسيط المهمة: التخوم، والبحر، والغابة، والصحاري... تلك المتعلقة بالأرض المقدسة، على وجه الخصوص، مع مخاطر التيه، والمسيرات التي لا حد لها، والإنهاك المميت. وهذه شهادة نومبار دي كومون سنة 1419 تقول: «باشرت السفر في منتصف الليل بسبب حرارة البلاد الشديدة والهائلة التي تسببت في وفاة العديد من الأشخاص في الطريق[63]».

تشمل الغابات والجبال بنفس القدر الأماكن التي ترمز إلى العناء؛ وبالخصوص الغابة، بصلالها، وبمسالكها غير الدقيقة، وبتشابهاتها غير المتميزة. تتراكم النعوت لتصفها: الغادرة، والمغمرة، والضائعة، والوعرة[64]. إنها نبه بقدر ماهي تهديد، تضاعف «الفخاخ، والأماكن السرية، والكمائن المحتملة» التي تُضاف إليها «الصعوبات في تحديد الاتجاهات، وفي كيفية الخروج منها[65]». إن فترات العياء تتضاعف فيها؛ فالملك لوط رأساؤه وصلوا عند حارس الغابة في نورثمبرلاند، ونموا نوما «عميقا، ليستطيعوا تحمل الجهود القاسية، والعذابات الكبرى[66]».

---

(63).Nompar de Caumont de Castelnau, Voyage d'outremer en Jérusalem (XVe siècle), in Croisades et pèlerinages, op. cit., p. 1082.

(64). انظر:

Micheline de Combarieu, « Le nom du monde est forêt », Espace vécu, mesuré, imaginé, op. cit., p. 79-90.

(65).Roland Bechmann, Des arbres et des hommes : la forêt au Moyen Âge, Paris, Flammarion, 1984, p. 340.

(66).Le Livre du Graal (XIIe siècle), Philippe Walter (éd.), Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 2001, t. ı, p. 1386.

إن أصدقاء جوفان الذين ساروا على الخيل حتى حلول الليل، في بعض الغابات الشاسعة والمبثة بالضلال، قد غطوا في النوم سريعا. في حين أن الغابة التي غامر جيتيو، تسمى هي نفسها «الخطيرة»[67] ليس فقط بسبب المعاناة، بل أيضا بسبب المنجزات المتوقعة التي توجبها أو تعد بها. نهاية تراجيدية، في نهاية المطاف، في رواية للقرن الثاني عشر، المرأة الخفية، إن الصراخات البعيدة المسموعة في الغابة هي صراخات «مسكين ضائع [...] حيث لا أمل لأحد في العثور عليه»[68].

في نهاية المطاف يكمل البحر أوجه الرعب، إلى متخيلات الجزع: أمطار من الأحجار ومن النار، وجزر تبعد عن الطريق بسبب مغانيطها الحديدية، والوحوش المزعجة بفكوكها الفولاذية. مخاطر جد مقنعة، إلى درجة أن أحكام أوليرون دشنت أول نظام «حماية» مفاده: «إن كل ملاح أصيب بجرح وهو في خدمة السفينة، يجب أن يعالج ويضمد على نفقة تلك السفينة»[69].

أي مسافرين؟

فرسان متجولون، أو تجار، أو رجال سلطة، أو أمراء، أو أساقفة. مسافرون عديدون واجهوا مخاطر الطرق المتعرجة، وعورة تُذْكَر دائما ويُؤكَّد عليها باستمرار.

إن الواقع اليومي مريع بقدر ما هو عادي، وهو أيضا متعدد. فالسفر لا مفر منه وهو ضروري أكثر من أي وقت مضى رغم أنه «منهك». إنه بحث عن الربح في المقام الأول، ربح التاجر، والوسيط، مع أمكنته البعيدة، ومعارضه المنتشرة بشكل واسع: «شامبان، بل أيضا بيون، كولونيا، أوجسبورج، مايونس، البندقية،

(67) Ibid., p. 1140.

(68) La Dame invisible (XIIe siècle), Paris, Union latine d'édition, 1971, p. 118.

(69) Rôles d'Oléron. Coutumier maritime du Moyen Âge, publié par Auguste Pawlowski de Lannoy, Niort, A. Chiron, 1900, art. 7

ميلانو، نابولي، وبرانديسي[70]». إن آثار الحكم الجيد، اللوحة الجدارية لسنة 1339 لـ أمبروجيو لورنزيتي التي تقع على جدران القاعة تسعة في سيينا، تعطي وصفا مزخرفا: مدن بضواحٍ نشيطة، وجماعات كثيرة، ودراب محملة، وتجار يتقدمون سيرا على أقدامهم[71] يبدو الكل صاخبا وهادئا في الآن معا. ومع ذلك فالخرطوشة تُعبِّر، بشكل غير مباشر، عن الخطر: «فليمشي كل رجل حر بدون خوف[72]». بكل تأكيد، تعاش الرحلات بقسوة. ولغة لي موزيس الشعرية في القرن الثالث عشر لا تزال متشبثة بالأخطار

تجار يعامرون في الأصقاع وفي البلدان؛

بضائعهم محمولة برا وبحرا في آن؛

في المواسم والمعارض جولاتهم على الأرض

في كل الأوقات هم في خطر، قليل منهم في أمان[73].

عملت اللغة الإدارية لكتاب دوق بورجون في الرحلة التي قام بها لمدينة النابون، على تعداد الأعطاب أو الأمراض؛ وعلى وجه التحديد الأمراض والوفيات، وهي المراحل القصوى للصعوبات التي تُواجه: أربعة وخمسون مريضا (تُرِكوا في مكانهم)، وما يقارب ثلث «المسافرين»، الذين يموت منهم أربعة، في عدد تقريبي يناهز مائة وسبعين شخصا ما بين شهري ماي وأكتوبر لسنة 1344[74]. مما يؤكد، بشكل غير مباشر، الرسالة التي وجهها لويس السادس إلى

---

(70).La Dame invisible, op. cit., p. 106. Voir aussi Voyager au Moyen Âge, catalogue d'exposition, Musée de Cluny, Paris, Réunion des musées nationaux, 2014.
(71).Ibid., p. 107.
(72).Ibid.
(73).Gilles Li Muisis, Poésies (XIIIe-XIVe siècles), Louvain, Kervyn de Lettenhove, 1882, t. I, p. 57
(74).Henri Dubois, « Un voyage princier au XIVe siècle (1344) », Voyages et voyageurs au Moyen Âge, actes des congrès de la SHMESP, Paris, Publications de la Sorbonne, 1996, p. 88.

ملك قشتالة سنة 1387 م: إن الألفي مقاتل الذين بعثهم لنجدته يجب أن يُنفِلوا، جهد المستطاع، في أحسن الظروف وبأقل الأضرار[75].

الذين لم يغادروا المنزل

ودون أن يذهبوا إلى بلدان مختلفة،

لا يعرفون الألم القاتل

والذين يذهبون يقتحمون

يحتاج الناس الذين يسافرون

الأضرار، والحيرة، والأخطار

بحار، وأنهار، ومضايق

واللغات التي لم تسمع

المشقة وتعب الجسد

ولكن كم نحن من هذا المياه

لا يعرف أي شيء من لم يسافر[76].

إن القواعد الدينية بهذا الخصوص، التي تشجع على التجنب الضروري للطرق، رمزية. فالمطران راوول البورغي، في وسط العصر الوسيط، حتى قساوسته من الرحلات الطويلة: فعلى الذين يقيمون أبعد من «ستة أو سبعة أميال

(75) «التزم الفرسان حاجبا الملك، غيوم دونيلاك وغوشي دوباساك، بتدبير مبلغ مائتي فرنك فرنسي، وقيادة الألفي مقاتل الذين بعثهم الملك لنصرة ملك قشتالة ضد دوق لوربن».
Paris, 5 février 1387, Choix de pièces inédites relatives au règne de Charles VI, publiées par Louis Douët d'Arcq, Paris, 1863, t. 1, p. 77

(76). انظر،
« Une "invitation" au voyage en forme de balade par Eustache Deschamps » (XIVe siècle), https://www.moyenagepassion.com/index.php/2017/08/08/une-invitation-auvoyage-en-forme-de-ballade-par-eustache-deschamps/

من المدينة» أن «يشتركوا في مجموعات من عشرة أفراد ويرسلوا واحدا منهم إلى الأسقف يوم الخميس المقدس ليجمع في ثلاث قوارير مختلفة الميرون المقدس للتعميد، والزيوت المقدسة للمرشحين للتنصير وللمرضى[77]». إن زيارات الأسقف هي نفسها محسوبة بدقة، ودائما رسمية، لكنها «قليلة[78]»، حتى قبل القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

تبقى رحلات الحج، العديدة، والمتفرقة، والمتنوعة للغاية، إلى درجة أنها تُعد السبب «الأكثر شيوعا للتنقلات[79]». إنها طريقة «للسير على خطى المسيح[80]» في العالم الديني؛ حيث المخلص هو نفسه واعظ متجول، يظل «نموذجا أوليا للمسافر[81]». إن خصوصيتها ظاهرة، خصوصا أنها عكست بشكل كلي المعنى العادي للعياء؛ إذ لم يعد يُعانى من الإرهاق، بل صار الإرهاق مرادا، ولم تعد المعاناة عرضية، بل صارت معاناة مرجوة. فالعظمة، على وجه الخصوص، تكتسب وقت الوصول الى الجهة المقصودة. وإن الحاج بعصاه، وبحقيبته، وبقدميه الحافيتين، لا يمثل وجه العصر الوسيط للخلاص بالتردد على آثار القديسين، والأماكن المقدسة؛ إنه يمثل أيضا وجها الخلاص المنتظر من الإرهاق الذي تحمله في الطريق. ويساهم التعب في التكفير: فـ«كل حج في العصر الوسيط، في مستوى معين، هو فعل توبة؛ بسبب الصعوبات الفعلية للسفر (تعب الطريق ومخاطرها)[82]». قال ذلك ألفونس دوبرون: «إن محنة المكان هي ما يصنع

(77).Florian Mazel, L'Évêque et le territoire : l'invention médiévale de l'espace (Ve-XIIIe siècle), Paris, Seuil, 2016, p. 113.

(78).Ibid.

(79). انظر:

Bernard Chevalier, « Introduction », Espace vécu, mesuré, imaginé, op. cit., p. 15.

(80). Herbert L. Kessler, « Marcher dans les pas du Christ », Voyager au Moyen Âge, op. cit., p. 16.

(81).Ibid.

(82).Cyrille Vogel, « Le pèlerinage pénitentiel », Revue des sciences religieuses, vol. 38, no 2, 1964, p. 113

الحج[83]». فمسافرو الشرق الذين يجتازون سيناء نحو قبر المسيح، يقولون ذلك بتباه، ملتمسين الكفارة. لا شيء آخر غير العذاب، المعنى الأخير للهدى:

لقد تسلقنا بصعوبة وبجهود جهيلة حتى القمة، فوجدنا ممرات جد صعبة وجد منهارة، إلى حد يصعب معه التصديق. يا أيها الجسد البشري المتعب! ما أكثر أنواع التعب والمحن التي تحملت لتحصل على العفو الإلهي[84].

مفارقة كبرى بين المشقة والخلاص، حتى إن البعض يوافقون على أداء الثمن من أجل الحصول على ما «يتعب» فيه الآخرون من أجلهم. إن غي دو دامبير الذي أصبح كونت مدينة فلاندر سنة 1251، ومات سنة 1305، منح، في وصيته، «مبلغ ثمانية آلاف جنيه إلى الذي، في حالة ما لم يستطع الكونت تحقيق أمنيته بالذهاب إلى الأراضي المقدسة، يقوم مكانه بهذا الحج[85]». إن «التبادل» يؤكد ممارسة «صكوك الغفران»؛ وهي تعويض مالي عن الخطايا، هذه الممارسة المرخص لها منذ قانون 992[86]، والتأكيد أيضا، من خلال المبلغ المخصص، على قسوة المواجهات المتوقعة.

الأقدام، علامة أولى

لابد من التأكيد على خصوصيات التعب الذي يُجابَه إراديا، في القرون المركزية من العصر الوسيط. إن صورة المعاناة تفرض هنا علامة مفردة، كاشفة مرة أخرى عن تنوع أشكال العياء التي تُواجه: التركيز على مكان من الجسد، والتركيز على

(83).Alphonse Dupront, Du sacré. Croisades et pèlerinages . Images et langages, Paris, Gallimard, « Bibliothèque des histoires », 1987, p. 374.

(84). انظر

Nicolas de Martoni et Ogier d'Anglure, Vers Jérusalem , itinéraires croisés au XIVe siècle, préface de Jean Meyers, Paris, Les Belles Lettres, 2008, p. 104.

(85). انظر:

Victor Derode, Histoire de Lille, Paris, 1848, t. I, p. 259.

(86). انظر:

Pierre-Toussaint Durand de Maillane, Dictionnaire de droit canonique et de pratique bénéficiale, Paris, 1761, art. « Indulgences ».

تمزقات الراجل الذي يمشي، وجراح الأقدام. إنه ضرر ميكانيكي أولا: «لم تكن موجودة في العصر الوسيط أحذية خاصة بالمشي[87]»، ولم تكن النعال المصنوعة من قطعة واحدة، تقاوم أحداث الأرض، ولا الخطوات الطويلة المتكررة. لكن الضرر يرفع أيضا من شأن التعب، بإضافة ألم جديد إلى المعاناة التي قُبلت. من هنا الأسفار التي تم القيام بها إراديا بأقدام حافية. إن القديس غيوم دو فيرتشيلي في القرن الثاني عشر، «اشتهر بكونه ذهب حاجا إلى كومبوستيلا ماشيا حافي القدمين، في سن الخامسة عشر[88]». ولقد أصبحت مشاهد التوبة والطوائف التي جرت في مثل هذه الظروف، شائعة، مثل نيجان أعمدة الكنائس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بحُجاجه الذين يسيرون حفاة بدون نعال[89]. إن «إماتة الجسد شائعة»، تقول كارين أولتشي، مستحضرة توبة بيرسوفال[90]. «أكد ذلك أيضا القديس لويس؛ حيث أمر، عند احتلال دمياط سنة 1249، بأن تتخلص المدينة من جيف القتلى من الناس والحيوانات، ومن باقي القاذورات، قبل أن يأذن بعبور المدينة، والكل حافي القدمين، البارونات وعامة الناس، إنه ورع كبير»[91]. تنشأ العظمة من هذه الطريقة لتقبل الألم، إنها طريقة دقيقة وقديمة لضمان العفو. إنها كفارة دون شك، لكن هناك كفارة أخرى أيضا، تتجلى في رعاية الراجلين الماشين على الأقدام، وغسل أقدامهم تكفيرا عن الذنوب. في كل سبت، كان القديس لويس، «قد اعتاد على غسل أقدام الفقراء في مكان سري[92]». كما أن

(87). انظر:

Voyager au Moyen Âge, op. cit., p. 51.

(88).Marcel et Pierre-Gilles Girault, Visages de pèlerins au Moyen Âge, Paris, Zodiaque, 2001, p. 261.

(89).Ibid., p. 24.

(90).Karin Ueltschi, Le Pied qui cloche ou le lignage des boiteux, Paris, Honoré Champion, 2011, p. 71.

(91).Les Grandes Chroniques de France, selon qu'elles sont conservées en l'église de Saint-Denis en France, publiées par M. Paulin Paris, Paris, 1836, t. IV, p. 311-312.

(92).Ibid., p. 354.

إيزابيل ابنة ملك المجر قد نالت القداسة، سنة 1230، ستكرس نفسها لقضية الناس الأشد عوزا:

وعندما كان الفقراء يأتون للاستراحة وقت صلاة الغروب، وإذا شاهدَتِ المتعلين بشكل سيء، الذين تغسل أقدامهم؛ قدمت لهم في صباح اليوم الموالي نعالا على مقاس أقدامهم؛ لأنها كانت طوال الوقت تجهز نعالا صغيرة وكبيرة، وتقدمها للذين هم في حاجة إليها؛ وكانت هي نفسها تساعدهم على انتعالها. ثم ترافقهم وتقودهم في الطريق الذي عليهم أن يسيروا فيه[93]

الأقدام مكان رمزي للمعاناة، لتعب ما، ولوقت ما.

(93).ibid., p. 247.

الفصل الرابع

التعب «المخلص»

يمكن لعدد من الأنشطة، وعدد من الالتزامات، أن تشكل وجها آخر لهذا التعب المخلص، إنها مشقة إرادية كلية، ومُعذِبة، وموجهة خصيصا للافتداء. والعوالم الدينية هي من يضع الشروط. وترسم شدتها الإشارات، المنتقاة حسب الأصول، مع رجال الدين بالخصوص؛ حيث النجاة في قلب التوبة الجسدية، وفي العصر الوسيط أيضا؛ حيث يكون التصوف مصحوبا دائما بآلام مطلوبة للغاية.

السفر «العقوبة»

تخرج بعض أنواع الحج عن مجرد الإرادة الشخصية؛ مثل أصناف الإرهاق، وحتى الرمزية، التي يمكن للسلطة أن تستعملها كعقوبات لاستبدال الإدانة: لم يعد افتداءً شخصيا، بل صار افتداءً اجتماعيا وتتحول فعل الحج إلى مشقة «عمومية» مؤكدة، وتقربا محسوبة. إنها طريق ووجهة يتزلقان، إذن، إلى «عقوبة» وكفارة مقننة حسب الأصول، وتربط طول الرحلة بخطورة الأفعال المُعاقب عليها. لقد حدد رجل دين المسار؛ «بارك التائب، وزوده بقبعة، وحقيبة، وعصا، وأمده بجواز مرور[..] فالوصول إلى نهاية الحج يساوي مغفرة الذنب[94]». وهكذا، فالرحلة شأن «قضائي»، وحكم تصدره الكنيسة أو القضاة، وهو خطير بما فيه الكفاية ليطبق أيضا على الإجرام. عفت رسالة بتاريخ 1387 على جان بجو دو سان موريس دي نو، المدان بجريمة قتل، «على شرط أن يذهب إلى نوتر دام

---

(94) .Ibid.

انظر أيضا:

Benoît Lambert, « Les pratiques de la pénitence dans l'Église d'Occident »,Garrigues et sentiers, 11 octobre 2010 .

دو بري ويقوم بمائة قداس لنجاة روح القتيل[95]» ومُنح سنة 1393 عفوا لاثنين من سكان أبرشية أزاي لوبريلي اللذين شاركا، قبل أربع سنوات، في قتل لص سلاب، وفي نهب امرأة، «شريطة أن يذهب أحدهما إلى دام دو بوي والآخر إلى سانت دو جاليس[96]». هكذا توجد المحن ويوجد عياء الرحلات في قلب العقوبة، كل ذلك «مصحوبا بأنواع التعب والمخاطر التي نعجز اليوم عن تصورها[97]»، كما قال فيكتور دورود سنة 1848.

تبقى حدود مثل هذه القرارات. إن كتاب التوبة بدين، ولكنه أيضا يسلم المُدانين إلى مصيرهم. إنه يصدر «عقوبات»، ولكن ينشر أيضا أنواعا أخرى من «الهلاك الأبدي». وتُصبح الطرق أقل أمنا بمجرد أن يسلكها مجرمون مدانون، وجناة، وأناس بدون أخلاق. ويزداد الاضطراب منذ ذلك الوقت، رغم أن جيل شارلي، في مجلس بالي سنة 1433، ظل يربط حج التوبة بـ«التكفير عن الخطايا[98]». إن الحقائق تفرض نفسها، مهما كان الأمر. فسرعان ما اتُّهم التطواف (perigrinatio) بكونه «مناسبة للفضيحة أكثر منه وسيلة للتطهير[99]». لذلك فالأحكام، مثل هذا النوع، تتناقص. وستختفي هذه الممارسة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، لتحل محلها الجلد والتعذيب. ومن جهة أخرى، فإن هذه الممارسة، وإن كانت عابرة، فإنها لا تقل أهمية؛ حيث فرضت صورة كبرى: صورة التعب الذي جُنّد، في العصر الوسيط، في المقام الأول، في مغامرة العبور والرحلات.

---

(95). انظر

Jean Verdon, Voyager au Moyen Âge (1998), Paris, Perrin, « Tempus », 2003, p. 260.

(96).Ibid., p. 260-261

(97).Victor Derode, Histoire de Lille, op. cit.

(98).Ibid.

(99).Cyrille Vogel, « Le pèlerinage pénitentiel », op. cit., p. 121.

يمكن أيضا أن يكون العمل «موجها»، هدفا دينيا خصوصا في هذه الحالة، ولاسيما أن الغفلة (acedia) قد أقلقت عالم الأديرة في العصر الوسيط، فوصفت بأنها «عدو الروح[100]»، وعلامة على الملل، وبُعدٌ «آثم»، وغياب للحماس[101]. وحدها التضحية أو الالتزام الكلي، ما يمكن أن تكون له الأفضلية، مثل الذي كان مع «فتيات» مستشفيات الرحمة، اللواتي «جندن أنفسهن، بشكل كلي، للتكفل بعوز الفقراء واحتياجاتهم[102]»، أو ما كان من القديسة دوسلين، مؤسسة راهبات مارسيليا في القرن الثالث عشر، التي ضاعفت من «شدة التعب[103]» لخدمة رعاياها بشكل أفضل؛ أو القديس جوليان الذي شيد، رفقة زوجته، دارا للرعاية، وبذلا قصارى جهديهما فيها «لاستقبال جميع الفقراء[104]». عمل متعدد ومتفرق، وذو أعراض زهيدة الوصف، وثقل الأعباء يغلب على تفصيل الآثار، وطول المدة يتقدم على تشتت الأفعال. ومع ذلك، يوجد عناء حسي، مرتبط بمطلب محدد مفاده، لا تتخلَّ أبداً، ولو للحظة واحدة، عن روح التضحية، وحافظ على الالتزام المستمر. حددت قوانين مستشفى باريس للرحمة مهاما شبه

(100).Siegfried Wenzel, The Sin of Sloth Acedia in Medieval Though and Literature. Chapel Hill, University of North Carolina Press, 1967, p. 36.

(101).انظر

Anson Rabinbach, Le Moteur humain : l'énergie, la fatigue et les origines de la modernité (1992), trad. Michel Luxembourg, Paris, La Fabrique, 2004, p. 58. Voir aussi Marc Loriol, Le Temps de la fatigue la gestion sociale du mal-être au travail, Paris, Anthropos, 2000, « Les moines et l'acédie : naissance de l'individu », p. 22.

(102).Jehan Henry, Livre de vie active de l'Hôtel-Dieu de Paris (1483), Marcel Candille (éd.), Archives de France, 1964, p. 29.

(103).Vie de sainte Douceline (récit en prose, anonyme, fin du XIIIe siècle), in Danielle Régnier- Bohler (éd.), Voix de femmes au Moyen Âge . savoir mystique, poésie, amour, sorcellerie, XIIe- XVe siècle, Paris, Robert Laffont, « Bouquins », 2006, p. 301, 315, 317

(104).انظر

Jacques de Voragine, « Saint Julien », La Légende dorée (XIIIe siècle), Alain Boureau (éd.), Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 2004, p. 174.

نهائية: من الغسل إلى النوم، ومن التدفئة إلى التجفيف، ومن التنظيف إلى الاستحمام، ومن العلاجات العادية إلى العلاجات القصوى؛ وهي دائما شاقة أيضا، لأنها متواصلة وتقلب «النهار ليلا والليل نهارا[105]». يضاف، أخيرا الاستيعاب الضمني لعمل مثل ندبات التعذيب الذاتي، والكفارات المضنية، والجراح المتعمدة، التي سادت في القرون الوسطى للعصر الوسيط. لقد صممت القديسة دوسلين تركيبا تقنيا صلبا، لتزيد من يقظتها، وتخدم دائما بشكل أفضل، فوضعت حبلا فوق سريرها، ويحيط بخصرها: «ما أن تتحرك حتى يمسكها الحبل، فتستيقظ[106]». وكان القديس جيروم، المتوحد في الصحراء لخدمة المسافرين المنكوبين، يضرب جسده تجنب للنوم، بأي ثمن: «إذا أنهى النُّعاس مقاومتي وعبني، أضرب على الأرض عظامي الهزيلة، التي كانت تتماسك بمشقة[107]».

من المعاناة المفروضة إلى التأمل

بمتابعة القديسة دوسلين والتزاماتها المتوالية، تفرض بداهة أخرى نفسها مفادها. أن الهدف النهائي هو العمل أقل من التأمل، والأرض أقل من السماء. ويبدو أن الدرجة القصوى من المشقة تساهم في ذلك. ابتعدت دوسلين، سنة بعد سنة، عن الأعمال اليومية، وبحثت عن «الأماكن المنعزلة[108]»، وأعدت «كنيسة صغيرة سرية للغاية»، وانهمكت في «نشوة عالية»؛ حيث كانت «تسجد أحيانا طول النهار[109]»، إلى درجة تظهر طائرة في الهواء. إن تنقلها يغيرها، ويجذب زوارا ومؤمنين، ويزيد من الورع، مبررا «التقليد الكبير» لكنيسة العصر الوسيط،

(105).Ibid.

(106).Vie de sainte Douceline, op. cit., p. 302.

(107).« Saint Jérôme », Jacques de Voragine, La Légende dorée, op. cit., p. 813.

(108) Vie de sainte Douceline, op. cit., p. 319.

(109).Ibid., p. 322-323.

الذي يفيد: «أن حياة التأمل أشرف من الحياة النشيطة[110]». تراتبية معقدة، دون شك: لا يمكن إنكار التصوف الرهباني الذي يوحد «الصلاة والأعمال اليدوية[111]»، متمثلة في السيستريسيون وبرنار دو كليرفو[112]. لا يمكن نسيان الإنهاك الجسدي الذي يدل على «وضع الإنسان الآثم[113]»، ولكنه مرحلة. إن التأمل هو الذي يُهدَف هنا إلى التغلب عليه. إنه أيضا ما يوضح مسار القديسة دوسلين، الذي عزز يقين معاصرها بيار دو جان أوليفي، المتصوف اللونغدوسيني: «إن غاية الحياة النشيطة هو الاستعداد للتأمل[114]». إن مثل هذا التعب المخلص سيكون بذلك «مرحلة»، وفعلا تحضيريا نحو عمل آخر أكثر مركزية؛ الشيء الذي يفتح على تعب آخر أيضا، نوبة النشوة، و«تمزق» الذات؛ وهذا نفسه ما تصوره ثقافة ذلك الوقت عبر السمات الجسدية عوض السمات الروحية، لانعدام الأدوات الذهنية المناسبة. يجب أن يُرى الإنهاك الداخلي. ويجب أن يكون ملحوظا، إن لم يكن موصوفا نفسيا: فالعياء غير المسبوق، عياء كبار المتصوفة، يظل «جليا». إن القديسة دوسلين قد «وهبت نفسها للإله بحماس كبير بدا معه أن جسدها شبه المنهار من حماسة الروح الكبيرة هذه التي جعلتها تذوب[115]».

نفس المظهر العام عندما يستحضر غيوم الصوري، في القرن الثاني عشر، عند ملك بيت المقدس الجديد، بردوان الثاني، الطموح الروحي الملحّ، والأدعية التي تردد باستمرار. «كان لا يتعب من الصلاة، إلى درجة أن يديه وركبتيه كانت مغطاة

(110).François-Xavier Putallaz, « Thomas d'Aquin, Pierre Olivi, figures enseignantes de la vie contemplative », in Christian Trottmann (dir.), Vie active et vie contemplative au Moyen Âge et au seuil de la Renaissance, Rome, École française de Rome, 2009, p. 372.
(111).Jacques Le Goff, La Civilisation de l'Occident médiéval, op. cit., p. 118.
(112). انظر،
Christian Trottmann (dir.), Vie active et vie contemplative au Moyen Âge, op. cit.
(113).Marc Vial, « La vie mixte, selon Jean Gerson », in ibid., p. 392.
(114).François-Xavier Putallaz, « Thomas d'Aquin, Pierre Olivi, figures enseignantes de la vie contemplative », op. cit., p. 372.
(115).Vie de sainte Douceline, op. cit., p. 324.

بتصلب الجلد، نتيجة لكثرة ركوعه، والعقوبات التي عاقب نفسه بها(116)». مرة أخرى الجسدي وإكراهاته، والحركات وأثارها، في حين أن الأمر يتعلق أكثر بالمجهود الحميمي، وبتركيز الانتباه الروحي. وكيف ما كان الحال، يبقى هذا التعب المُخَلِّص ذو قيمة في قلب عالم القرون الوسطى، فارض على الجسد أشكال المعاناة الأكثر تنوعا. مسيرة الحاج اللامتناهية، وعمل المتدين الدزوب، وزهد المتصوف القاسي. لا شيء آخر غير شبح العياء غير المحدد، بوصفه علامة مسحة، ومأمولة للاقتداء دائما.

(116).Guillaume de Tyr, Chronique (XIIe siècle), in Croisades et pèlerinages, op. cit., p. 556.

الفصل الخامس

العمل اليومي، «صمت» نسبي؟

وأخيرا من المحال تجاهل العمل اليومي، «الوضع» الرابع لاستحضار التعب في العصر الوسيط، بعد القتال، والسفر، و«الخلاص». ومع ذلك لا شيء أكثر حذرا، ولا شيء أكثر مصادفة. ويبقى تعب العمل أقل قيمة، عكس تعب المسافرين أو تعب المحاربين، أو تعب القديسين، الذي يبلغ عنه دائما، ويُشاد به. لمظاهره تنتمي إلى الأيام العادية، شبه المنسية في أمده، التائهة في جهود دون بريق. إنه ترافق قدر المجهولين الذين هشتهم العتمة المطبقة، فلا قرب ممكن مع التعاظم أو الاقتداء.

تفاهة ما هو قروي

إن مثل هذا الافتقار يحيل أولا إلى ما هو أبعد، إلى وضع القن في القرنين العاشر والحادي عشر، وضع كائن «يمكن تشكيله واستغلاله حسب رغبة سيده» منكب «ليل نهار[117]»، ومكلف بمهام كثيرة. إن تبعية مثل هذا الشخص تضاعف الأعباء الممكنة؛ إذ يمكن أن يفرض عليه «كل شيء». ويرتبط وجوده وشرعيته حتى «بانعدام حدود الخدمة المطلوبة [...] والذي يعبر عن واقع الحال[118]»؛ مما يمنع، من البداية، من ارتفاع التعب إلى مصدر انتباه. لذلك تتكرر الصورة التالية: «للأقنان كل الحرمان، وكل المشاق، وكل الأحزان[119]». وهناك تجاهل آخر مفاده: عدم إيلاء الاعتبار لأي تعب شديد. لقد استطاع، بيرتران دو بورن في

(117).Guy Fourquin, « Le temps de la croissance », in Georges Duby et Armand Wallon (dir.), Histoire de la France rurale, Paris, Seuil, 1975, t. I, p. 545.

(118).Georges Duby, Guerriers et paysans (1973), Féodalités, Paris, Gallimard, « Quarto », 1996, p. 31 et 34.

(119).S. P. Mayaud, Le Servage dans la Marche, Paris, 1878, p. 6.

قصيدته أن يبرر القسوة بقوله: «يجب أن لا نشفق على الشرير، إذا ما رأينا كسر ذراعه أو ساقه، أو إذا فقد شيئا ضروريا[120]». يضاف إلى ذلك الوضع العام للمشتغل المحكوم بالعجز، والخاضع لقانون يتجاوزه: قانون صارم منزل من السماء، مجرد وجوده يجعل من التعب أمرا إلزاميا، وكذلك لحظة، أو حالة غير ذات أهمية.

ومع ذلك حصل تغير في المعايير بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ليس لأن التعب لم يشرح بداية، على العكس، لقد شُرح بشكل غير مباشر؛ أولا في الوعي التقني، وتم التعبير عنه من طرف الأكثر تبحرا في المعرفة. إن وجود الطواحين على مجاري المياه، وعمود الكامات الذي يحول الحركات الدورانية إلى حركات ترددية، والإمكانية الميكانيكية للدق والطرق توحي بمقارنات، ومواجهة بين المظاهر القديمة والمظاهر الجديدة، والإحساس ببعض «التحرر» من الإكراهات. مثل الإشارة التي أوردها رهبان ورشات كليرفو في القرن الثالث عشر:

إن النهر [...] يرفع أو يخفض بالتناوب هذه المدكات الثقيلة، وهذه المطارق أو بالأحرى هذه الأرجل الخشبية [...]، ويجنب الرهبان التعب الشديد [...]. كم من الأحصنة ستنهك، وكم من الرجال سيتعبون سواعدهم في هذه الأعمال التي يقوم بها النهر الرائع لأجلنا، الذي نحن مدينون له بلباسنا وطعامنا. إنه يجمع جهوده من جهودنا[121].

---

(120) انظر:

Youri Bessmerny, « Le paysan vu par le seigneur. La France des XI e et XII e siècles », in Élisabeth Mornet (dir.), Campagnes médiévales : l'homme et son espace. Mélanges offerts à Robert Fossier, Paris, Publications de la Sorbonne, 1995, p. 609.

(121) انظر:

Anselme Dimier, Les Moines bâtisseurs, Paris, Fayard, 1964, p. 177.

إن انتشار «الآلة» في العصر الوسيط، مثال آخر يجسد هدفا وهو: «احتيال» على القوة، والقيام مقامها، ومساعدتها. يقين رومان دو رو كان هو: أن «الآلة تساعد المهنة[122]»؛ الشيء الذي يعرض فئة جديدة من الفاعلين: «إن «رجال الآلة» يؤكدون أنفسهم بإبداعاتهم، إلى جانب الصناع، الذين هم «رجال الأداة»[123]. هي آلات متواضعة بدون شك؛ حيث تبقى يد الإنسان فاعلة، لا بل ضرورية، لكن الإحساس بأن عالما جديدا يقوم على تجاوز العياء، يُمَكِّن من استحضارها بشكل جيد.

وبالإضافة إلى ذلك، تحولت العلاقة في الريف مع نهاية القنانة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. فالتوسع الاقتصادي سمح للعديد من الأقنان باسترداد حريتهم، وقلب العمل من مدة «غير محدودة» إلى مدة «محدودة». إن تشغيل المياومين، ووجود الأعمال الشاقة يشحذ الكفاءات، ويوحي بالأرقام، ويشجع المعاهدات الفلاحية أو الاقتصادية: «كان أناس 1250- 1260 مهتمون بالإنتاجية وبالتقنية[124]»؛ مما يميز بين المهام، ويحول الراتب إلى حساب، ويوجه نحو «تدبير[125]» مراقب. إن التعب الشديد مستحضر، هنا أيضا، لكن بطريقة غير مباشرة. لا تشجيع ولا تقدير، لاشك في ذلك، ماعدا محاولة تجنب العوائق التي يحدثها العياء في ترتيب الأشغال. ويرتبط تقويمه، بكل بديهة، بالنجاعات المفترضة. والذين يعنيهم، كثير من العاملين المهانين، لكن ما يثيره من اهتمام يتركز، بشكل واضح، على العمل المنجز. اقترح بيترو دو كريسونزي، في القرن

(122).Roman de Rou (1160), 3e partie, cité par Hélène Vérin, La Gloire des ingénieurs: l'intelligence technique du XVI e au XVIII e siècle, Paris, Albin Michel, 1993, p. 25.

(123).Serge Moscovici, Essai sur l'histoire humaine de la nature, Paris, Flammarion, 1968, p. 212.

(124).Robert Fossier, « Le temps de la faim », in Jean Delumeau et Yves Lequin (dir.), Les Malheurs du temps : histoire des fléaux et des calamités en France, Paris, Larousse, 1987, p. 143

(125) .Robert Fossier et Hugues Neveux, « La fin d'une embellie », in Les Malheurs du temps, op. cit., p. 167.

الثالث عشر: التوجه أولا نحو الفلاح المستأجر لمعرفة ما الذي «سبق وفعله»، وما أكثر شيء «فعله بإرادته وبتعب أقل»[126]. والهدف هو: تنظيم النشاط، والحد من التأخيرات، وتشجيع «تحديد الوقت[127]». ويهدف سؤال آخر إلى المطلب نفسه، عن طريق التمسك بمعايير المكان والزمان؛ وهو معرفة مقدار ما يستطيع أن يزرعه أي إنسان في فدان محدد[128]. وهكذا يظهر التعب، لأول مرة، في أفق حد محتمل، يعبر عنه بعتبة، انطلاقا منها لا يستطيع الإنسان مواصلة العمل المفروض. نفس المسألة أيضا بالنسبة إلى المزارع وناقلته؛ وهو جمع هذه المرة بين المسافة والمدة:

ويعلم منه كم عدد الأكرات التي يمكن للمحراث أن يحرثها في السنة، وكم عدد المراسيخ التي تستطيع الخيول والثيران أن تقطعها في النهار وهي تحرث آكرا من الأرض. ويقول عدد من الناس بأن محراثا واحدا لا يكفي لتسعة فدادين ولا لثمانية، أما أنا فسأوضح، ولسبيين، أن ذلك ممكن[129].

وأخيرا، المسألة نفسها بالنسبة إلى العائق المتعلق بالأراضي أو النجاعة المتعلقة بالحيوانات، فالخيول مثلا، مفروض أنها تتأقلم أحسن مع الأراضي التي فيها حجارة، ولكنها تبقى أكثر كلفة من الثيران[130].

السؤال برجماتي، وأمبريقي تمت صياغته من أجل تقدير الأجور اليومية، وعدد الناس الذين سيتم تشغيلهم، وأنواع الجر، وكلفة ذلك. إن الإجابات تخمينية، تجب إعادتها، ولكنها تجازف بتقديم أرقام، حتى وإن كانت جزئية.

---

(126).Pietro de Crescenzi, Trattato della agricoltura (XIII e siècle), Milan, 1805, p. 50.
(127).Ibid., p. 53.
(128).Traité inédit d'économie rurale composé en Angleterre au XIII e siècle, publié avec un glossaire par Louis Lacour, Paris, 1856, p. 16.
(129).Ibid., p. 11.
(130).Ibid.

ويجب أن تعلموا أن خمسة أنفار يستطيعون أن يحصدوا ويرزموا جيدا في اليوم أكرين من القمح، واحد كبير والآخر صغير، وحيث هنا كل واحد يأخذ ديناريين في اليوم، ويجب أن تدفعوا خمسة دنانير للأكر الواحد في اليوم، وهنا حيث الأربعة كل واحد يأخذ، في اليوم، دينارا وأوبلا، ولأن الخامس رازم، يأخذ ديناريين في اليوم. إذن يجب أن تدفعوا أربعة دنانير للأكر الواحد[131].

تستهدف هذه الإجابات نفسها الأجر الممنوح: «إذا احتسبوا يوما آخر لا يخص هذا الحساب، فيجب أن لا تدفعوا أجره لهم[132]» إلى درجة أنه من الممكن معرفة الفروقات بين الأجور حسب الـ «جهد» المفترض: إن الرزام، على سبيل المثال، المفروض أنه يجمع ويشد ويربط، يتقاضى ديناريين، بالمقارنة مع الحصّاد الـ «بسيط» الذي يأخذ دينارا وأوبلا[133]. أو في ضيعة كارفيل، سنة 1308، حيث أجر عمل المحراث الشاق، مع استعمال السكة وقيادة العربة، أعلى من أجر عمل المشط الشاق وتمشيطه لوجه الأرض[134]. إن كثيرا من الإشارات، إلى حد الآن قليلة، وحتى غير دقيقة، ولكنها تكشف عن إرادة في ترتيب أولويات «المشاق»، مثل ترتيب أولويات تعويضاتها

هذا لا يعني تغير الاحتقار الذي يعانيه «الفلاح»، بل إن تعبه يتحول أحيانا إلى أضحوكة. يبين فلاح بولول في حكايته الشعبية المنظومة وهو عائد إلى بيته بعد أن «عمل بكد في أراضيه وحقول قمحه»، ويخدم تعبه ذريعة لزوجته لتقوده إلى

---

(131).Ibid., cité par Georges Duby, L'Économie rurale et la vie des campagnes dans l'Occident médiéval (1962), Paris, Aubier-Flammarion, 1977, t. I, p. 312

(132).Ibid.

(133).Ibid.

(134). انظر،

Léopold Delisle, Études sur la condition de la classe agricole et l'état de l'agriculture en Normandie, Paris, Honoré Champion, 1903, p. 623.

الفراش قبل أن تذهب للقاء عشيقها. إنهاك بدون شك، ولكنها أيضا ملاءة رجل عنقر، يعتبر إضافه إلى دلك، «عبا وكريها[135]».

تبقى الأيقنة، وتمثيلها للإشارات، وتجسيدها للفاعلين، والصور المحسوسة التي أصبحت علامات كثيرة «كاشفة» ويبرز التعب، إذن، في استعمال الأدوات، وفي أشكالها ووجهاتها، وينبثق من صمت الأفعال ومواقعها. فاستعمال المجرفة أو المثقاب، على سبيل المثال، في مهمة ذكورية، على وجه الحصر، مثل الدرس أو التذرية، أنشطة تعتبر غير ملائمة لبعض «الضعف» الأنثوي المفترض، وهو نفسه، موجه للمنجل وللمشاط[136] تميل الصورة، لأول مرة، لتميز الرجال عن النساء والتعب الخاص بكل منهما من المفترض أن يظهر الجهد المطلوب، ويتجسد في انحناء الأجساد، وفي ضخامة الديناميكيات، كما هو الحال في متريع أودينارد، الذي صور في نهاية القرن الثالث عشر، حيث نجد كثرة الفلاحين، بوجوه أقرب إلى الأرض، وأطراف ممدودة، وهم يجرون نحو المجرفة للحرث[137]. ملامح جسدية أيضا، متطابقة مع حاملي القمح في مزامير سان لوي، حيث ترى رجالا منثنين إلى أقصى حد ليملؤوا المخازن بأكياسهم[138]. إشارة جد موحية، يجب التأكيد عليها، وإظهار إرادة في توضيح الإشاري؛ تعب، وجهد من دون شك، لكن، على أي حال، هناك نقص التعليمات، و لتوجيهات، والتفسيرات.

---

(135). انظر،

Marie-Thérèse Lorcin et Danièle Alexandre-Bidon, Le Quotidien du temps des fabliaux, Paris, Picard, 2003, p. 173.

(136). انظر

Perrine Mane, Travail à la campagne au Moyen Âge, Paris, Picard, 2006.

(137). Vieil Rentier d'Audenarde (XII e siècle), Bruxelles, Bibliothèque royale, ms. 1175, f° 156 v.

(138). Psautier de Saint Louis (XIII e siècle), Paris, Bibliothèque nationale de France, ms. latin 10525, f° 23 v.

وأخيرا، تبقى مجموعة من الأعمال التي يؤدى عنها بفعل مهمتها، وليس لطول مدتها: فعل «أنجز» وليس امتداده في الزمن، مما يُبقي غموضا على أي تقويم للمياه أو للجهد. إن أسقف روان في القرن الرابع عشر، كان يمنح لزارعي كرومه أجرا إجماليا، آخذا في الحسبان الأفعال، وإضافاتها، أو انتشارها، أو آثارها المحتملة، وليس تكرارها. لقد تقاضى توماس لوكورشوا أربعة جنيهات و16 سنتا «لاجتثاث، وتقليم، ونبش، وغرس، والنبش من جديد، وجرف، وتقويم، وشذب بسهولة ولطف، ويقوم بكل الأشغال طيلة الموسم، نصف أربن من الكروم في مكرمة الملك[139]». وتقاضى روبيان كورنيو 84 سنتا «لحرثه قطعة من الكرم في مزرعة كروم[140]».

يقوم الأجر على تقدير المجموع، والتجاهل الكلي لزمن الخدمات أو للتعب الذي تم بذله، رغم التعداد الدقيق للمهام المكلف بها، مثل أجر خادمين في دومين لاكريسونيير بداية القرن الرابع عشر، وهما جاك البلنسي وجوكار اللذان «يحصدان القمح، وبرتبان السباح [...] وحارس للقمح يراقب الحقول والحصادين[141]» وهكذا تبقى شدة العمل «غير قابلة للقياس[142]»، وأيضا غير معترف بها.

المهن واختراع المدد

إن المدن هي أكثر من عامل تنظيم، بل إنها صراع على الاستثمار المادي المطلوب. وإن تطورها، مع القرنين الثاني عشر والثالث عشر، قد فرض نفسه وارتبط بنهاية الغزوات، وبكثافة المبادلات، وبتحرير الأقنان. واستقرت مجموعة من المهن،

(139).Léopold Delisle, Études sur la condition de la classe agricole et l'état de l'agriculture en Normandie, op. cit., p. 454.
(140) .Ibid.
(141).Gérard Sivery, Structures agraires et vie rurale dans le Hainaut à la fin du Moyen Âge, Lille, Presses universitaires de Lille, 1977, t. I, p. 397.
(142).Robert Fossier, Paysans d'Occident, XIe-XIVe siècle, Paris, PUF, 1984, p. 115.

وتمايزت مجموعة من الأحياء، وتنوع النشاط: «قرى نائمة صارت أسواقا نشيطة[143]»، وتأسست أنماط حياة، وانتشرت قوانين.

يتعلق المعيار، في المقام الأول، بالمدة، وهذا أمر أساسي، ويتعلق، ضمنيا، بالتعب الذي ينطوي عليه. والمقياس السائد، وهو واضحة النهار. وهذا ما يشهد عليه كتاب الحِرَف منذ إنشائه سنة 1268: «سيأتي أجراء المزارع في كل أيام العمل، إلى مشغلهم، من طلوع الشمس إلى المساء، وهذا الأخير يمتد إلى غروب الشمس[144]». ستكون المدة منتظمة، من مطلع الفجر إلى غروب الشمس. ومع ذلك، ومع الفروقات الدقيقة، حتى تلك التي يستحضر فيها التعب في حالات جد استثنائية، فإن أسياد معامل ترقيق النحاس وأجراءها «لهم ما يؤهلهم لستريحوا[145]»، و«صانعو الأحزمة» أيضا لا يمكنهم العمل ليلا؛ فالنهار طويل والحرفة شاقة للغاية[146]، في حين أن قبول الاشتغال ليلا موجود، ومرتبط، بدون شك، بمعالجة الأشياء، فعمال الصباغة يمكنهم الانصراف للعمل ليلا والقيام بأعمالهم، وعمال صناعة الزيوت «يستطيعون الانصراف للعمل ليلا ونهارا، في كل الأوقات التي تبدو بالنسبة إليهم جيدة».

صراعات حول المدة

لا يخلو مثل هذا الغموض من تأثير. إنه يقود التوترات، ويشجع فئة أرباب العمل، خصوصا قبل الطاعون الأسود لسنة 1348 وفي فترة وفرة اليد العاملة،

(143).David S. Landes, L'Heure qu'il est : les horloges, la mesure du temps et la formation du monde moderne (1983), trad. Pierre-Emmanuel Dauzat et Louis Évrard, Paris, Gallimard, 1987, p. 114.

(144).Étienne Boileau, Règlements sur les arts et métiers de Paris (XIIe siècle), voir Georges-Bernard Depping, Le Livre des métiers d'Étienne Boileau, Paris, 1837, p. 399.

(145) Ibid., p. 63

(146).« Baudraiers, faiseurs de courroies », Étienne Boileau, Le Livre des métiers (XIIIe siècle), René de Lespinasse et François Bonnardot (éd.) (1879), Paris, Jean-Cyrille Godefroy, 2005, p. 181

على تمديد «يوم العمل[147]» ومن هنا ظهرت المقاومات، والنضالات عن الزمن نفسه، وتحول التعب إلى ذريعة ضمنية، وبقعة فاصلة بين ما هو مقبول وما هو غير مقبول. لقد اشتكى مأجورو اللبادات في باريس سنة 1277 من «أن أرباب العمل يمسكونهم إلى ما بعد المساء[148]» نظم حاكم باريس الأوقات: «يعمل المأجورون يومهم حتى المساء، ويستمر المساء إلى غروب الشمس[149]». وضعية مشابهة لما حصل في سونلي سنة 1346: ثمانية وعشرون مأجور لبادات اعترضوا على أربعة أرباب عمل أرادوا أن يشتغل المأجورون، في فصل الشتاء، حتى صلاة النوم؛ «فقرر القاضي بأن يشتغلوا حتى نهاية المساء، إذن قبل صلاة النوم[150]». تعب غير معلن، بدون شك، لكنه حاضر في أفق شكوى المأجورين وفي ردة فعلهم، مأخوذ بعين الاعتبار من لدنهم، بل يطالبون به، بشكل ضمني، حتى وإن لم يحدد له اسم.

لقد تسبب الطاعون الأكبر بعد سنة 1348 في تغيرات أخرى، عندما قلت اليد العاملة؛ وبالتالي صارت أكثر قيمة، وزادت الحاجة إلى العمال. زيادة الولوع بالفنون، استرخاء، بدون شك، ارتخاء متنازع عليه بحجاة من لدن أرباب العمل، ومأمول من المأجورين؛ وهو ما ورد بتفصيل في مرسوم حاكم باريس سنة 1395:

بالنسبة إلى الذي وصل إلى علمنا من أن كثيرا من أصحاب المهن مثل نساجي الكتان والأقماط، واللبادين، والمبلطين، والبنائين، والنجارين وعمال آخرين من سكان باريس يريدون إجهاد أنفسهم للذهاب إلى العمل، وأن يستمروا في الشغل إلى تلك الساعات التي تبدو لهم جيدة، أعلم أنهم يجب أن يتقاضوا أجر يومهم

(147) Jean-Louis Roch, Les Métiers au Moyen Âge, Paris, Jean-Paul Gisserot, 2014, p. 113.
(148) Id., Un autre monde du travail : la draperie en Normandie au Moyen Âge, Rouen, Presses universitaires de Rouen et du Havre, 2013, p. 154.
(149) Ibid.
(150) Ibid., p. 156.

مثلا لو أنهم اشتغلوا طوال اليوم؛ مما أدى إلى احتجاج وخسارة وضرر كثير من أرباب العمل وأصحاب المهن، وكذلك مصلحة الشأن العام.

من الآن فصاعدًا، وفي جميع الأحوال، يذهب جميع الناس من المهن المربحة المذكورة وعمال المياومة إلى العمل في هذه الحرف من ساعات طلوع الشمس حتى ساعة غروبها، ويتناولون وجباتهم في ساعات معقولة [151]

لذلك توترات متعددة ومحلية وبجزأة، والتي تضاف إليها أسباب أخرى أيضا. المنافسة أو المقارنة بين المهن نفسها. اعترض نساجو مدينة بوفيه على عمال الصوف لكونهم يصلون دائما إلى مكان العمل متأخرين، وتبريرهم يكون بـ «التعب» الكبير الناتج عن عملهم. وهكذا يتنامى الرهان، بل يتم التفاوض من أجله: وهو العياء الناتج عن المهمة وعن خصوصياتها. في المقابل، تمسك قرار البرلمان بمنطق النساجين وأعاد وضع نفس المدة للجميع[152].

إن تراكم الصراعات هذا، الذي يتغير مع التقلبات الاقتصادية أو الديموغرافية، قد أدى، منذ القرن الثالث عشر، إلى خلق «أجراس العمل» في العديد من المدن الأوربية: «كامبانا لابوريس» في إيطاليا العليا، و«كلوك دي ميتييه» في دواي، و«ويفرسكلوك» في بروج، و«كامبانا برو أوبراري» في قلعة وندسور[153]. وبشكل تدريجي، استقل العمل عن مقاييس الطبيعة القديمة، أو عن الأجراس الكنسية. لقد كسب خصوصية وتميّز. وهذا قد حد من التوترات دون أن يقضي عليها، مثل ما أظهرت أحداث بروفين سنة 1282. لقد تظاهر عمال النسيج ضد قرار عمدة المدينة، ذلك القرار الذي يقضي بتأجيل إشارة

(151).Ordonnance du prévôt des marchands, 1395, voir Henri Hauser, Ouvriers du temps passé, XVe -XVI e siècle, Paris, 1927, p. 78.

(152).Gerhard Dohrn-van Rossum, L'Histoire de l'heure , l'horlogerie et l'organisation moderne du temps (2001), trad. Olivier Mannoni, Paris, Éditions de la Maison des sciences de l'homme, 1997, p. 315.

(153).Ibid., p. 310-311

الجرس التي تعلن نهاية العمل إلى المساء «قتل العمدة، وخرب الجرس»[154].
وقد تطلب الأمر عفوا صدر عن الملك إدوار الأول، ملك انجلترا، وكونت شمبانيا، ليعود الهدوء. إذن ففي تيروان سنة 1367 ذهب كل من الأسقف ومجلس الكهنة إلى وعد «لعمال اللبادين، وبعض الحرفيين الآخرين» بأن يتم «إيقاف جرس العمال نهائيا، لكيلا تنشأ فوضى وصراع في المدينة وفي الكنيسة، بفعل رنين جرس مثل هذا النوع»[155]. إن الزمن والتعب متمازجين بشكل خفي، دون أن يتحدد هذا الأخير بشكل بيّن وواضح.

مع الاعتماد المتزايد للمهن، تبقى هناك تكتيكات دقيقة للغاية من أجل ضبط التوقفات، وتهيئة فترات راحة على مدار اليوم، وبالخصوص محاولة الحد من الصراعات التي قد تنجم عن ذلك. تعامل طويل، أولا، على غرار القانون الملكي الذي صدر سنة 1369، وعلى غرار طلب برجوازيي تروا الرافض للتوقفات الثلاث التي طالب بها رفاق النساجين: استراحات للغذاء، وللعشاء، وللوجبة الخفيفة. إن النص الصارم يأمرهم بـ«الاشتغال طول النهار بشكل مستمر مثل البنائين، والنجارين، والمسقفين، والكرامين وغيرهم، والعمال الآخرين كيفما كانت وضعيتهم»[156]. إن الدقة، مع ذلك، ازدادت، إن لم نقل إنها تثبتت مع بداية القرن الرابع عشر.

لقد لجأ أعضاء بلدية تورناي سنة 1302 إلى «رنين مخصص للغذاء ورنين آخر مخصص لاستئناف العمل»[157]؛ وقد اعتبر أعضاء بلدية أميان أن القوانين

(154).Ibid., p. 310.
(155).David S. Landes, L'Heure qu'il est, op. cit., p. 117

(156). انظر:
Corine Maitte et Didier Terrier, « Conflits et résistances autour du temps de travail avant l'industrialisation », Temporalités. Revue de sciences sociales et humaines, n° 16, 2012, http://temporalites.revues.org/2203, en particulier, « Conflits autour des pauses ».
(157).Laure Leroux, Cloches et société médiévale : les sonneries de Tournai au Moyen Âge, Tournai, Art et Histoire, 2011, p. 82.

الموجودة عشوائية للغاية، وحصلوا من الملك على ترخيص لاستعمال جرس جديد يرن منذ ذلك الحين «أربع مرات في اليوم، في الصباح وفي المساء وقبل وبعد التوقف لأخذ الوجبات[158]».

وهكذا يصير اليوم مقسما، ويمزج بين الراحة والعمل، ويجري تجزيئه، ويدبر حدودا ومددا؛ مع تداعيات تنظيمية: معاقبة تأخر العمال، مثل بيستويا سنة 1356 حيث تم تغريم العامل كابيتشو فلسين لأنه «أمضى كثيرا من الوقت ليعود من وجبته الخفيفة» (stette troppo a tornare da merende)[159]. لقد انتظمت الفترات البينية. وتتسلل الراحة بشكل متواضع، مثل المراقبة وصرامتها.

زمن الساعة

تزداد الدقة أيضا مع الساعات الميكانيكية التي اخترعت في القرن الخامس عشر، تحددت ساعات متساوية، في حين أنه قبل ذلك كانت تتفاوت مع الفصول. لم يعد المقياس هو مقياس الطبيعة وتغيراتها، بل هو معيار الساعات وثباتها. من هنا فهذه المراجع متقاسمة بين الجميع، ومددها منذ البداية مهمة، مثل ما حصل في بورج سنة 1443؛ حيث من المفترض أن تحد من الخلافات، على الرغم أن هذه الأخيرة يمكنها أن تستمر:

سيكون اللبادون والنساجون في مكان العمل في الشتاء مع مطلع النهار، ويكونون في أيام الصيف ما بين الرابعة والخامسة صباحا، ولن يكون للبادين سوى ثلاث ساعات لتناول الغداء، والعشاء، والوجبة الخفيفة، والشرب والنوم، ولا يمكنهم أن يبرحوا مكانهم أيا كانت الذرائع. وهكذا يتبرى كل واحد منهم لعمله مقابل هذا الأجر أو ذاك الذي في وسعه أن يتقاضاه. أما الذين يتأخرون

---

(158). Gerhard Dohrn-van Rossum, L'Histoire de l'heure, op. cit., p. 332.

(159). Giuliano Pinto, « La rémunération des salariés du bâtiment (XIIIe -XVe siècle) : les critères d'évaluation », in Patrice Beck, Philippe Bernardi et Laurent Feller (dir.), Rémunérer le travail au Moyen Âge, Paris, Picard, 2014, p. 320.

من الحضور للعمل، لأنهم حين تحين صلاة الغروب لن يتقاضوا أجر عمل ذلك اليوم[160].

هكذا وضعت حدود للعمل مع عالم العصر الوسيط، ونظمت مجرى الأيام، ومدتها، وحددت التعب والراحة. لا علاقة مع الوصف الملتهب للمقاتلين المنهكين، ولا علاقة مع الوصف القوي للمسافرين المتألمين، ولا فوران خاص. إن هذه التقييمات، الوظيفية، لا تتجاوز هنا الحدس أو النية. إنها، مع ذلك، تحتل القواعد، وتثير الصراعات. إنها تسبب «تعبئة العمالة»، رغم أن وزنها يعود في غالب الأحيان إلى «الضمني»[161]. عياء معبر عنه بصمت، وبشكل ضمني، لكن يتذكره أول مرة أولئك الذين يعيشونه ويحاولون تقليصه.

المهن واختراع القوى

مراجع قصوى فارقة. القوى المحرطة ومدتها. يميز العالم القروي، كما رأيناه، الرزام المفروض فيه الجمع والضم والربط، والذي تقاضي دينارين، مقارنة مع الحصاد الـ «بسيط» ذي العمل المحصور جدا، والذي يتقاضى دينارا واحدا وأوبلا. تتراتب المشاق أيضا في المدينة، وتتمايز الأجور، وتتأسس على العياء المفترض، خفية بحيث لا تفسر كثيرا. كثير من المهام الحضرية تقود إلى نفس الحالة: «التقويم الأجر، يتم تقويم قوة السواعد خاصة[162]» يوجد تدرج محتمل، يتأرجح بين بطء الحركات، وصلابة المواد، ونوع النشاط. يتقاضى الذي يقطع الخشب في ورش كاتدرائية ميلانو في نهاية القرن الرابع عشر بين سبعة وثمانية فلوس، ويتقاضى قاطع الحجارة بين تسعة وعشرة فلوس[163]. إن أجر يوم عمل

(160) انظر.
Mathieu Arnoux, « Relation salariale et temps de travail », Le Moyen Âge, revue d'histoire et de philologie, vol. 115, no 3-4, 2009, p. 574.
(161) Ibid., p. 576.
(162) Giuliano Pinto, « La rémunération des salariés du bâtiment », op. cit., p. 316.
(163) Ibid., p 317

«جامع لقش» في أورليانز في منتصف القرن الخامس عشر أكثر بقليل من 0.1 ليرة تورية، بينما يتقاضى الحطاب الذي يقطع «خشب البلوط» 0.5 ليرة تورية[164]. إن الكل يعتمد على الـ«شدة» المفترضة فيما يُشتغل عليه، ويعتمد كل شيء على صورة القوى، وعلى صورة الحركات المستعملة.

كما أن كابيشو الذي اشتغل سنة 1356 في أعمال بناء معمودية بيستويا، كان يتقاضى «ستة فلوس في اليوم حينما يتعلق الأمر بإزالة المخلفات والركام»، وثمانية فلوس حينما يتعلق الأمر «بتقطيع الرخام[165]». وهكذا، فإن الإنفاق الناجم عن الحجر يفوق كل إنفاق آخر محتمل؛ الشيء الذي يحس من عمل المرأة التي تتقاضى فلسين في أوراش ميلانو في القرن الرابع عشر، في حين أن «المشتغل الأساسي»، العامل، يتقاضى ثلاثة فلوس[166]. لا شيء آخر هنا سوى تقدير عمل، رؤية الأعباء مفسرة من لدن المشتغل، وما يسمى بالتعب الخفي، المشكوك فيه، والمتوقع أكثر منه مستحضر واقعيا.

---

(164). انظر:

Philippe Mantellier, Mémoire sur la valeur des principales denrées et marchandises qui se vendaient et se consommaient en la ville d'Orléans, Mémoires de la société archéologique de l'Orléanais, t. V, 1862, p. 440.

(165). Giuliano Pinto, « La rémunération des salariés du bâtiment », op. cit., p. 316.

(166). Philippe Braunstein, Travail et entreprise au Moyen Âge, Bruxelles, de Boeck, 2003, p. 412.

الفصل السادس

بين القوة الباطنية وميزة الانتعاش

وأخيرا من المحبب تجاهل المقاومات، والخطرات المتخذة لمقاومة الجهود البدنية، أو إزالة آثارها بشكل أفضل. إنها إستراتيجيات خاصة تشير إلى ثقافة وعصر. ويحضر التعب أيضا في الردود المقدمة لاحتوائه أو إزالته. يوجد صراع، وأيضا توجد بعض الاحتياطات. إنها عمليات جد مهمة، يتم استحضارها بوصفها بديهية، ومجمع عليها دائما، دون حتى تفصيل التعب المقصود.

وصفات للمشي

أولا، لقد ضاعف الأطباء الوصفات التي لا شيء، بدون شك، يثبت أنه سيتم اتباعها بشكل دقيق. إن الوصفات المرتبطة بالمشي أو مواجه المسافة البعيدة، هي المذكورة في المقام الأول في نصوصهم، وتشير إلى تحدي التنقل في قرون العصر الوسيط الوسطى. إن نصائح ألدبراندان السيالي، التي دشنت اللغة العامية في القرن الثالث عشر، تتوجه في المقام الأول إلى أولئك الذين يريدون «المشي طويلا»[167]، إلى درجه أن جعل ها فصلا خاصا في كتابه حمية الجسد. «وصفات» بسيطة على ما يبدو، وعديدة، وتشتغل، بشكل طبيعي، مع سوائل البدن: الاستفراغ أو الفصد قبل الانطلاق لتطهير الأمزجة أو تخفيفها، وأكل اللحوم الخفيفة، وشرب الماء الصافي، أو الماء المصحح بالبصل، أو بالخل، أو بالتفاح الحامض لتصفية نفس هذه الأمزجة، وتجنب الفواكه التي لها لب حامض جدا يثير اضطراب الأعضاء، أو تنحل بحموضته، وتجنب الحديث الذي ينهك النَّفَس، وتغطية الرأس من الشمس، ودهن الوجه بمرهم لاتقاء الحر أو القر،

(167) Aldebrandin de Sienne, « Comment on se doit garder qui cheminer veut », Le Régime du corps, op. cit., p. 68-70.

وحمل بلور في الفم لدفع العطش. حايات متنوعة، المفروض فيها تعديل الأجزاء المائية مباشرة، حتى حفظ اللعاب لتأخير كل اجتفاف

انتعاش

في المقابل، هناك القليل من النصائح عن المعارك، وقليل من الإلحاح هنا من الأطباء. إن مطالبهم «الاعتدالية» غريبة جدا عن المعارك وعن المواجهات. وللإشارة إلى الخطوات التي تتبعها الجيوش، يتطلب الأمر أخبارا تاريخية ومغامراتها. ويتطلب الأمر مروبات تقريظية، وسرديات ملحمية. إن «ما بعد» المعارك هو ما يحرك الشهادات. ويتركز الاختيار عن الأمزجة أيضا: إن امتصاص السوائل ضمان للتجديد. من هنا المشاهد التي توضح القوى المستعادة: فهؤلاء النسوة أو هؤلاء الخدام المكلفون بدعم الصليبيين بإعطائهم الماء:

يشمرون عن سواعدهم ويتخلصون من أرديتهم الطويلة، ويحملون للفرسان المنهكين الشرب في أوعية وجفنات وأقداح مذهبة. إن الشرب يعيد للفرسان كل حيويتهم، ثم تأتي المساعدة التي طالما انتظروها[168].

يرتبط التصليح بشرطين مزدوجين وهما الارتواء والتصفية.

إنه موضوع جد قوي إلى درجة أن كلمة «إنعاش» تصبح بديهية. فـ ديلوت وأصحابه «انتعشوا واغتسلوا[169]» بعد معاركهم المُنهكة. وإن الصليبيين ينتظرون ماء ثمينا ونادرا، ليتجددوا أمام القدس[170]. لقد اغتنت الكلمة أيضا في القرن الثالث عشر واكتسبت معنى أكثر «شمولية»، وجعلت «الانتعاش» مساويا للراحة: أصبحت كلمة «انتعش» هي «ارتاح». لقد قالها روبير الكلاري مستحضرا مسيرة الصليبيين نحو القسطنطينية: «بعد البحر وصلوا إلى المدينة، بولندا، وصلوا هناك وانتعشوا، حيث أقاموا قليلا طالما أنهم منتعشون

---

(168).Richard le Pèlerin et Graindor de Douai, La Chanson d'Antioche, op. cit., p. 48.
(169).Durmart le Gallois, op. cit., p. 569.
(170).Richard le Pèlerin et Graindor de Douai, La Conquête de Jérusalem, op. cit., p. 97

جيدًا[171]. لقد بسط جان فرواسار الكلمة في القرن الرابع عشر، ووصف في جسر موفرازان سنة 1388، محاربين يصحون خوذاتهم من جديد ويعودون إلى المعركة بعد أن انتعشوا جيدًا[172]؛ لقد كثف فرواسار حتى تعدد معاني الفعل، مستحضر تجدد أسلحة المحاربين، نيكولا لام الإنجليزي وسان–بي الفرنسي، وقد انتعشا بفضل «سيوف جديدة»[173] في مبارزتهما الفريدة في سانت–إنغليرث. لقد صار الماء مجزأ، وتحول المعنى واتجه نحو «البعث»: عودة القوة بقدر الراحة.

طلسمات وأحجار كريمة

ما لا يحول دون اللجوء إلى أساليب أخرى تتوافق جميعها مع متخيل «الصفاء» هذا هو الاقتناع بأن الاتصال بمواد بلورية يساعد في تمديد الجهود، بدخولها إلى الجسد بانه قواها. ويفرض هذا الاعتقاد نفسه في عالم المعارك. لقد كان للبارون طوماس المارلي، في غزوه للقدس، «طلسما ذا قيمة عالية، حين يحمله يحميه من كل سوء»[174]. وكان الفارس العاري، في القرن الثاني عشر، «يحمل على صدره حجرا يمنحه القوة والسرعة»[175]؛ حتى إنه يملك عدة أحجار كريمة في حزامه ليطمئن «بأنه لن يُهزم أبدا»[176]. إن الجواهر أو اللؤلؤ أو الماس تعزز بشكل مضاعف المقاومة بإبعاد «التعفنات الخارجية»، ومنع تطور «التعفنات الداخلية». إضافة إلى إحالات أكثر باطنية، رهان خارق، يأتي العون من القوى الخفية، مثل القوة التي عثر عليها جوفان، في رواية الموقد الخطير، الذي التفت نحو الصليب بدعم من

(171).Robert de Clari, La Conquête de Constantinople (1215), in Albert Pauphilet (éd.), Historiens et chroniqueurs du Moyen Âge, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1952, p. 15.
(172).Jean Froissart, Chroniques (XIVe siècle), in Historiens et chroniqueurs du Moyen Âge, op. cit., p. 511.
(173) .Ibid., p. 708.
(174).Richard le Pèlerin et Graindor de Douai, La Conquête de Jérusalem, op. cit., p. 263.
(175).Le Chevalier nu : contes de l'Allemagne médiévale, Danielle Buschinger, Jean-Marc Pastré et Wolfgang Spiewok (éd.), Paris, Stock, 1988, p. 103.
(176) Ibid.

الفتاة التي حثه، «تنظر إليه دون فشل، واسترجع أنفاسك هناك، وسترتاح تماما من تعبك». امتثل الرجل واسترجع «بسالته وإقدامه[177]». أو الإحالة على بعض السحر المرتبط بالنور؛ فالنصيحة المقدمة من نفس الفتاة لهزم خصم شيطاني المفروض أن «يضعف مع غروب الشمس»: «لا تواجهه أبدا قبل أن تمر الساعة التاسعة[178]»؛ ما لاحظه البطل، وقد سيطر حينها على رجل خاضع.

من المحال أن نتجاهل هنا المكانة التي طالما جُعِلَت للتأثيرات الباطنية، فالتعب الناشئ عن التعاويذ، والإزعاج الموكول للسحرة هو في الواقع انتقام خفي؛ حيث يشتكي الضحايا من «روح شريرة» ما، و«ذهاب القوى»، و«الضعف في الساقين واليدين»، ولـ «حاجة إلى النوم». إذن، لا شيء آخر سوى «أعمال شعوذة» التي تحتاج إلى الرقيات وإلى السحر المضاد[179].

يبقى استعمال يرمي للمواد الثمينة، ولكن أيضا متنوعة للغاية، نظمتها رسالة الأحجار لـ هلديجار دوبنجن في القرن الثاني عشر، مشيرة إلى علة آثار محتملة: «إذا كان أحد ما مُتعب من الأخلاط، فليقم بتسخين البلور على الشمس ويضعه على المكان حيث يعاني: وهكذا سيتم طرد الخلط[180]»؛ والياقوت في الفم «يزيل آلام الروماتيزم»؛ وارتداء الزمرد يريح القلب أو المعدة؛ والتنفس بالاتصال بالعقيق «يقوي كل حواس الجسم[181]»؛ والياقوت الجمري «يعيد الحيوية[182]». مواد فعالة بما يكفي لتتصدى لكل مواطن الضعف، جامعة بالتالي بين التعب والأذى، وبين الإنهاك والعجز إلى درجة عدم أي تمييز بين عياء ومرض. يحتمل

(177)L'Âtre périlleux, op. cit., p. 628-630.

(178)Ibid., p. 633.

(179)Références présentes dans nombre de textes médiévaux, présentes encore dans le livre majeur de Léonardo Vairo en 1583, Trois Livres de charmes, sorcelages ou enchantements, voir p. 55-57

(180)Hildegarde de Bingen, Le Livre des subtilités des créatures divines : les plantes, les éléments, les pierres, les métaux (XII e siècle), Grenoble, Jérôme Millon, 1988, t. I, p. 268.

(181)Ibid., p. 241.

(182)Ibid., p. 257.

الحجر الكريم هامشا من عدم التدقيق في تعريف الأذى: فحمله باستمرار يقي من كل خطر. إن معادلاتها الأكثر بساطة كلها دفاعات عامة: أسنان أو قرون عديدة، وعظام موضوعة على الرقبة، مخفية أو ظاهرة على الملابس الأكثر تواضعا. إذن يبقى التعب نقصا من بين نقائص أخرى متميز قليلا، وموضوعيا قليلا، إلا في صورة ضعف منتشر. وأخيرا إنها صورة أكثر حساسية تلك التي تقدمها هذه العظام المصقولة واللامعة، وهذه الأسنان أو القرون الحادة والصلبة، مما يشهد على إصرار حيوي مقاوم للموت. انبثاقات غامضة من العضوي، فمثل هذه المواد هي في الدنيا وفي الآخرة: بعيدة عن كل تدهور وعن كل إصابة. وبما أنها متحققة من الكائن الحي، فإنها تنقل الأجساد خارج الزمان.

زيوت وتوابل

وأخيرا تضاف بالضرورة مواد المفروض بها من صفاتها اختراق الأجساد: إن التوابل التي زيوتها شبه متطايرة ستعوض الأجزاء الأكثر لطافة كما الأكثر روحانية؛ والتي هي الأخلاط. كل شيء مرتبط بمخيال الجسد. إن جوهره الهوائي سيعوض فقدان «الأرواح»، هذه المواد القريبة من النار، والمتحكمة في الحركات وفي الأحاسيس. إن «أثيرها» يساعد الأعصاب، التي تجوب الأعضاء، على تعويض التبخر الذي يعرضه التعب. وتذكرها كتب الأعشاب، مطورة بشكل غير محدود، هذه النباتات «الجالبة للراحة»، مشيرة أيضا إلى تأثيراتها المتعددة، من العلاج إلى الراحة، ومن الرعاية إلى التقوية، ومن المرض إلى الارتياح. لا وجود لإشارة دقيقة عن إسهامها في العمل، ولا حتى في الأنشطة اليومية، لكن الباعة الجوالون يصحون بها، ويقترحون، من بين أشياء أخرى «خبز التوابل لصحة القلب» إن الروايات توضحها، باستحضار أوجيبه المنهك، الذي تعاق بالفلفل الأسود المضاف إلى اللحم.

الأرانب بالفلفل الأسود المسحوق

ويستعيد قلبك قوته[183].

أكثر من ذلك، مراجع كثيرة تشير إلى قيمة مزدوجة: قيمة التنقية، وقيمة المعالجة. إن التوابل «مؤثرة». يضيفون إلى التأثير المُسْخر للزيوت، حدة في الفم، وارتعاش الجسد، وإحداث صدمة، وقوة يُشعَر بها على الفور، وتتحول إلى إحساس بتقوية بدنية. بعبارة أخرى، إنها طريقة للتلاعب بالإحساس، تحويل حدته إلى علامة على قوة مستعادة. وتسري التوابل في الجسد، وتعمل على تنشيطه، معززة يقينا ذاتيا؛ وهو يقين كسب صلابة داخلية؛ الشيء الذي يبرر إمكانية الاستهلاك في حالة الجهد. وموارد الصوم أيضا، كما تبين ذلك حسابات الملك جان لوبون، المسجون في لندن في منتصف القرن الرابع عشر، التي أظهرت محاسبة بقالي الملك، شهرية مضاعفة مرتين، وفي بعض المرات حتى ثلاث مرات في شراء الزنجبيل، أو القرفة، أو القرنفل، أو السكر، أو الكزبرة، من أجل صيام فبراير[184].

إن اللجوء إلى هذه السلع من الشرق يمكن أن يكون أيضا بغاية جنسية: فالتوابل، برائحتها وبنكهتها الممزوجة دائما بحرارة حارقة، ستكون تقريبا «مثيرة للشبق»؛ فالفلفل الأسود، على وجه الخصوص، الذي «يمنح راحة جيدة ويساعد الأعصاب الباردة»، واليانسون «الذي يسبب البول ويهيج الشبق[185]»، أو جوزة الطيب «المناسبة للذتنا بشكل كبير[186]» يلجأ إليها العشاق، وكذلك الرهبان «المغرمون» بالحكايات التي تجعل مؤنة من «اللحم المطبوخ في القدر، وشرائح

(183) .Léon Gautier, La Chevalerie, Paris, 1884, p. 634.

(184) .« Journal de la dépense du roi Jean le Bon en Angleterre (1er février 1359-8 février 1360), Louis Douët d'Arcq, Comptes de l'argenterie des rois de France au XIV e siècle. Paris. 1851, p. 195 sqq.

(185).Nicolas de La Chesnaye, La Nef de santé, avec gouvernail du corps humain et la condamnation des banquets (XV e siècle), Paris, 1507, s. p.

(186). Baptiste Platine, De l'honnête volupté (XV e siècle), Le Platine en français, Paris, 1871, p. 176.

بالفلفل الأسود[187]، قبل ملاقاة صديقاتهم، لمضاعفة المتعة أو بولين التي تنتظر بفارغ الصبر غياب زوجها المزعج، لترسل حبيب «قلبها» لجلب «الفلفل الأسود والكمون» اللذين يتناولهما العاشقان بشغف قبل أن يذهبا إلى الفراش «ويتضاجعان ويتلاحمان»[188]

انتقاء اجتماعي

إن الذي يفترض أيضا، من خلال الجانب الثمين والانتقائي لجل هذه المواد القادمة من الشرق: القرفة، أو الزنجبيل، أو جوزة الطيب، استهلاكها على نطاق ضيق. إن التوابل ترف، وتبدو أن قيمتها الخيالية تكون أكبر بكثير إذا بقيت نادرة. فغلاؤها يصنع الفارق. وليست موارد «الفلاحين»، هي موارد التجار أو موارد البورجوازيين؛ فرطل الزعفران (489 غراما) يساوي 64 فلسا في نهاية القرن الرابع عشر[189]، ورطل جوزة الطيب يساوي 50 فلسا[190]؛ إنها أغلى من ثمن البقرة التي بيعت بـ42 فلسا في مقاطعة بويك سنة 1396 [191]. أما رطل الفلفل الأسود فيقتصر على 12 فلسا[192]، معادلا ثمن كبش سمين بيع بـ10 فلوس و5 دنانير في سانت مرتان لاكوربيل حوالي 1400 [193].

---

(187).نقلا عن:

Étienne Barbazan, Fabliaux et contes des poètes français des XII e , XIII e , XIV e et XV e siècles (1756), Paris, 1808, t. IV, p. 182.

(188) نقلا عن:

Anatole de Montaiglon, Recueil général et complet des fabliaux des XIII e et XIV e siècles, Paris, 1872-1890, t. V, p. 222.

(189) .Georges d'Avenel, Histoire économique de la propriété, des salaires, des denrées et de tous les prix en général, depuis l'an 1200 jusqu'en l'an 1800, Paris, 1898, t. IV, p. 500.

(190).Ibid., p. 503.

(191) .Charles de Beaurepaire, Notes et documents concernant l'état des campagnes de la Haute Normandie dans les derniers temps du Moyen Âge, Paris, 1865, p. 353.

(192) .Ibid., p. 385.

(193).Ibid., p. 386.

ويبقى من الضروري أن نوضح أن معادلات متواضعة موجودة، ومواد شائعة تستهلك لأغراض دفاعية، وأن هناك «بدائل» عن الثوم أقل ثمنا، ولكنها ذات زيوت «قوية»، كما قال باتيست بلاتين في نصائحه في القرن الخامس عشر: «بهار لناس البسطاء القوي[194]»، واللجوء إليه «جيد للعمال[195]»؛ إنه مُخلق للفلاحين. ومن الصعب تقدير حضوره الحقيقي. ومن الصعب أيضا تقدير استعماله الخاص فذكره في سجلات السمن والسفن الشراعية الإيبيرية في نهاية القرن الثالث عشر، لم يستهدف التعب بالضرورة، بل توضح أنه يُوزع على البحارة «ثوم ويصل لحمايتهم من فساد هواء البحر ومن المياه الفاسدة[196]». هناك أيضا الكثير من النباتات التي نصح بها ألديبروندان السيني المُشاة[197]، وهي مواد، كما التوابل، لها أغراض متعددة.

وهكذا، تم تحديد دفاع صريح حيال التعب في العصر الوسيط، أثناء القتال أو أثناء السفر. وهذا الدفاع أكثر التباسا في العمل أو في الحياة اليومية، وكذلك الإنهاك الذي قلما تم وصفه. مما يشهد على ثقافة مفادها أن بعض الممارسات تظل أكثر قيمة من البعض الآخر؛ وبالتالي تكون أكثر مراقبة.

---

(194).Baptiste Platine, De l'honnête volupté, op. cit., p. 181

(195).Ibid.

(196). انظر

Jean-Jacques Hémardinquer, « Sur les galères de Toscane au XVI e siècle », in id. (dir.), Pour une histoire de l'alimentation, Paris, Armand Colin, « Cahiers des Annales », 1970. p. 88.

القسم الثاني

العالم الحديث وتحدي الفئات

تؤكد شعارات سيزار ريبا، التي شرحت الشخوص التي يمكن لفن الرسم أن يستلهمها، إلى أي حد لم تتغير كثيرا الملامح العصوية للعياء مع الحداثة. «امرأة نحيفة للغاية، ترتدي ملابس خفيفة، وصدرها مكشوف[198]» تركز رمزيا «التعب». إنها نحيفة لأنها فقدت أخلاطها، وترتدي ملابس خفيفة لأنها مرهقة بالحرارة. تجتمع آثار الحركات والرطوبة: جفاف ناتج عن «عمل جد شاق أو موسم شديد الحرارة[199]». ويبقى تسرب المادة في قلب الصورة، مثلما بقي الكاردينال مازران الذي أعيا الشعب «بمص دمه حتى النخاع[200]».

لا وجود لدراسة عن التعب بوصفه حالة عامة ونوعية، ووضع من المحتمل أن يعبر السلوك في مجموعه. في المقابل، يتسع الفضول وتتنوع الأشياء التي تؤخذ بالاعتبار: تعدد الأفعال وتعدد التمظهرات. عبارات متعددة تتشكل، واستهلاكات متنوعة تقال، تعني الحرب، والمدينة، والقصر، والجيش، والسفر،

(198).Cesare Ripa, Iconologie, ou Explication nouvelle de plusieurs images, emblèmes et autres figures hiéroglyphiques des vertus, des vices, des arts, des sciences [...] et des passions humaines (1613). Paris, 1698, t. I, p. 123.

(199).Ibid.

(200).« Lettre d'un religieux envoyée au prince de Condé », 18 janvier 1649, Choix de mazarinades publié pour la Société de l'histoire de France par C. Moreau, Paris, 1853, t. I, p. 94.

واللعب... تتنوع مجالات التعب مع تعقيد العالم «الحديث»، كما هو الحال مع الاهتمام الذي يُولَى للتنوع الممكن للسلوكيات. لقد ازداد حقل الإنهاك بقدر ما نجز.

الفصل السابع

إبداع درجات

إن العالم الحديث، عالم القرنين السادس عشر والسابع عشر، قد انفتح على نطاق تعب جديد، رغم التفسيرات غير المتغيرة. وتظهر الفروقات: مستويات بين ما يمكن تحمله وما لا يمكن تحمله، ودرجات بين الإباحة والإسراف. تصقل التجارب ويزداد التمايز: إن كل «المقاييس» الجديدة تنوع مواضيع الاهتمام.

تقسيم الحالات الجسدية إلى درجات

يتطور فضول. فالأقصى، على سبيل المثال، يتم وصفه بعناية أكثر. تأكيد من بين تأكيدات أخرى تدل عليها كلمتي «إنهاك» و«أنهك» منذ القرن السادس عشر، وتشيران إلى بعض «الإضعاف التام»[201] أو، أيضا، حالة الموت التي يبينها كلل ليون بوثليه دو شافيني في منتصف القرن السابع عشر، الذي تجند بشغف مع دو كوندي خلال الثورة، وأرهقته معاركه، وحيرته الخيانات، وهددته مآزاراته، وأوهنته حياة متقشفة، يتغذى بـ «الفلة القليلة» خشية أن «يصبح ثخينا»، قبل أن يموت وحيدا وضائعا:

لقد مر وقت طويل على اضطراب الذهن وعمل الجسم الذي كان خارقا منذ انخراطه في المعركة، وكانا داخلين وجافين بطريقة غريبة. وأيضا طريقة عيشه التي ساهمت كثيرا في ذلك[202].

---

(201) انظر.

Alain Rey, Dictionnaire historique de la langue française, Paris, Robert, 1994, art. « Épuisement ». Alors que ce même mot n'apparaît pas dans le Dictionnaire universel d'Antoine Furetière en 1690.

(202) Valentin Conrart.Mémoires (1652), in Nouvelle Collection des mémoires pour servir à l'histoire de France, op. cit., 3e série, t. IV, p. 602.

كلاسيكي أيضا إنهاك المحكومين بالأشغال الشاقة، وهم شخصيات رئيسة في العقوبات القاسية منذ القرن السادس عشر، ذكرهم فليفيل أثناء الفرار من مرفأ فيلفرانش سنة 1543. إن دوجيان الذي هدده دورا، الأميرال الإيطالي، القريب من الساحل، قد قرر فجأة، وهو يقود الأسطول، الخروج من الميناء. إن المشهد قاس، والأمر نهائي، و«القوة الدائرية» قهرية للغاية؛ حيث جعلت العديد من المساجين المغمى عليهم تحت المجداف، يستبدلون على الفور بالبحارة. إنها وضعية مؤلمة للغاية، إلى درجة جعلت دوجيان، مندهلا، يقرر منح «ألفي دانين تورع على كل مجدفي السفن الإحدى عشر، وخمسمائة على كل البحارة[203]». إن الوضعية التي يكون تأثيرها تراجيديا، تدرك، لأول وهلة، بأنها تقريبا مشرفة.

اهتمامات أخرى تتضح: الاختلاف المقدر بين الرجال والنساء على وجه الخصوص. فالنساء، تحت تأثير الأخلاط، ومليئات بالماء، يكن «متعبات» أكثر من الرجال. إنه فرق أساسي وثابت يعم مجموع السلوكات حتى يصل إلى مرحلة الحمل نفسها. فالنساء اللواتي «يحملن» صبيا هن أقل تعبا من أولئك اللواتي «يحملن» صبية: «إنهن أكثر نشاطا وتوهجا، خصوصا وأنه عند الذكور كثير من الحرارة الطبيعية، التي تتأثر بها النساء[204]».

ومع ذلك، يوجد المستجد الكبير في مكان آخر، ويتعلق بحالات ظلت إلى ذاك الوقت مُتجاهلة، ومعززا سجلا من المراجع غير المسبوقة، خصوصا عند النخبة. إن «المشعر» تغتني: مؤشرات «صامتة»، وقلق غير محدد بوضوح، واضطرابات غامضة، تثير أحيانا للذات مبهمة مثل «الفتور العذب[205]»؛ حيث انغمست شخصية أنطوان فورتيير في نهاية القرن السابع عشر أو إثارة انطباعات كبيرة للغاية، وانزعاجات، وفروق دقيقة، تلك التي ذكرتها السيدة مانتونون التي

(203) .Ibid.

(204).Scipion Dupleix, La Curiosité naturelle rédigée en questions selon l'ordre alphabétique, Paris, 1623, p. 94

(205).Antoine Fureltère, Dictionnaire universel, Paris, 1690, art. « Langueur ».

قيمت من فونتيبلو إلى فيرساي، قائلة إنها وجدت عياء حاصا: «إنني فاترة منذ أن غادرت فونتبلو؛ لقد ارتحت هناك أكثر، هذا ما قضته صحتي»[206]. إن كلمة «فتور» المستحدثة، تفرض نفسها في أدب المترفين هذا، مشيرة إلى انتشار ضعيف، وأخاذ، وغير مسيطر عليه. ذلك ما أراد إسبري فليشيه، بأي ثمن، استحضاره بوصف حالة الدوفينة في السنوات التي سبقت موتها سنة 1690، مترددا في التعبيرات المستعملة:

فتور يبدو لوهلة أكثر إزعاجا من كونه خطيرا: علل يجب أن يُشتكى منها أكثر، والتي لم تكن معروفة بما يكفي، والتي ربما لم يُشتك منها بما فيه الكفاية [...] إذلال النفس مضاف إلى إذلال الجسم، وقوى الطبيعة التالفة بالعناية التي توليها لها للحفاظ عليها[207].

اضطرابات جد محددة يمكن أن تصاحب مثل هذه التصورات، الأرق من بين أشياء أخرى، جعلت لـ غيز دو بلزاك «نفسا فاترة وجسما مهدودا»[208]. إن الأحزان والانشغالات المفرطة جعلت السيدة مانتونون «مرهقة من الاحتقان»، «ضجرة من الحياة التي تعيشها هنا في فيرساي»[209]، أو الدموع التي أدت إلى تغيير الحالة البدنية للسيدة مونتمورونسي: إن «بكاءها المتواصل قد أدى إلى جفاف الدماغ، إلى درجة أن الأعصاب انتزعت، فتقوست للغاية وتعرضت لضيق التنفس»[210].

---

(206).Mme de Maintenon, lettre du 23 octobre 1713, Lettres inédites de Mme de Maintenon et de Mme la princesse des Ursins, Paris, 1826, t. III, p. 4.

(207).Esprit Fléchier, Oraison funèbre de Marie-Anne-Christine de Bavière, dauphine de France, Paris, 1690, p. 28.

(208).Jean-Louis Guez de Balzac, Lettres familières à M. Chapelain, 30 août 1639, Paris, 1659, p. 177

(209).Mme de Maintenon, lettre à Mme la comtesse de Caylus, 15 mai 1705, in Théophile Lavallée (éd.), Correspondance générale de Mme de Maintenon, Paris, 1867, t. V, p. 339.

(210).Mlle de Montpensier, Mémoires (XVII e siècle), in Nouvelle Collection des mémoires pour servir à l'histoire de France, op. cit., 3e série, t. IV, p. 322.

كلمات أخرى من المفترض أن تعبر عن أشكال هذا التعب «النسبة» و الجديدة، منوعة التعبيرات: «أبخرة»، «انزعاجات»، «إعفاءات». إن الذين عرفهم غيز دو بلزاك في منتصف القرن السابع عشر، أقسموا على نقصان انتباهه: «رغم أنني لم أنم قط، إلا أنني، تقريبا، دائما في غفوة[211]» فكلمة «انزعاج»، على وجه التحديد، تستعمل بكثرة في الرسائل، وفي المعاجم، وفي الروايات، وهي نفسها متساهلة في التفاوت في الحدة: «إنه إزعاج كبير أن تسكن في طرف المدينة»، وإنه «إزعاج صغير[212] أن تضطر إلى الحد من هذا الفعل أو ذاك. انفتح الخيال لأول مرة، موضحا لأول مرة، ولو ذاتيا أو حتى بشكل غامض، فروقا دقيقة ودرجات.

تقسيم القوى إلى درجات

إلى هذا التدرج غير المسبوق للحالات يستجيب تدرج غير مسبوق للقوى، وبداية المقارنة بين المصادر، والطاقات.

منذ القرن السادس عشر، حدد الجنود خصائص المؤهلين أكثر، أولئك الذين يقاومون، بشكل أفضل، التعب المفروض:

إن السمات الأكثر ملاءمة لهذه المهنة هي العيون اللامعة واليقظة، والرأس المستقيم، والكرش المرتفعة، والمنكبان العريضان، والساعدان الطويلان، والأصابع القوية، والبطن الصغيرة، والفخذان الكبيران، والساقان الرقيقان، والقدمان الجافتان، وهي سمات ستكون ملائمة لكل شخص توجد فيه؛ لأن الإنسان الذي تجتمع فيه، لا يمكنه إلا أن يكون يقظا وقويا، وهما خاصيتان مطلوبتان بشكل كبير في كل جندي جيد، ومع ذلك لا يمكن رفض أولئك الذي لا يتوفرون على كل السمات، شريطة أن يكونوا بالأحرى مستعدين، ولاسيما أنه

(211).jean-Louis Guez de Balzac, Lettres familières à M. Chapelain, op.cit., 6 juillet 1650, p. 25.

Antoine Furetière, Dictionnaire universel, op. cit., art. « Incommodité ».(212)

يجب التنبه أن هؤلاء الأشخاص الجدد يجب أن يكونوا مهيئين بشرف حسب منزلتهم، وألا يكونوا من الذين يجعلون الرذيلة فضيلة[213].

دعا ملاح المسرح الزراعي في سنة 1600 أيضا إلى تثمين قوة «خدمه»؛ وهي حاجة جديدة للتنظيم وللنجاعة كذلك: «سيقوم الخدم الأكثر قوة بالأعمال الأكثر الخشونة إلى الأكثر روحانية، تلك التي تكون فيها الآلة مطلوبة أكثر من القوة[214]». إن ما كانت الأديرة قد رصدته جزئيا، هو تمييز الرهبان المخصصين لأعمال الكتاب عن أولئك المخصصين لأعمال الحقول[215] تتوالى التصنيفات وتنتظم، مهينة الدرجات، ووضع تناسب للتعب حسب قدرة كل واحد، وتقسيم الكبار والصغار والمتوسطين، ومعادلة الصغار للأكثر ضعفا، والكبار للأكثر قوة، وإقرار أفضلية للمتوسطين المفترض أنهم في ملتقى الصغار والكبار. يضاف إلى ذلك تطوير المهام والتخصصات، تصنيفات مختزلة بدون شك، وحتى متسرعة، ولكنها تنشد الفئات: «إن الأشخاص الكبار صالحون للفلاحة» يشرفون على الماشية، ويتحملون الأعباء، والصغار «صالحون أكثر» للاعتناء بمزارع الكروم، و«غرس الأشجار» و«تدبير الحدائق، والنحل، وحراسة الماشية»؛ و«المتوسطون» هم «تقريبا صالحون لجميع الأعمال[216]». ومثلما بيّن قانون ماكسيميليان سنة 1517، فإن أوراش البناء، وكذلك المناجم، بدأت توزيع العمال حسب «أعمارهم وخبراتهم، وقواهم البدنية[217]». لا وجود لرقم بدون شك، ولا

---

(213).Raymond de Rouer Fourquevaux, Discipline militaire de messire Guillaume du Bellay, seigneur de Langey, Lyon, 1592, p. 18.

(214).Olivier de Serres, Le Théâtre d'agriculture et mésnage des champs, Paris, 1600, p. 59.

(215): انظر

Règle de saint Benoît (VIe siècle), in Jean-Pie Lapierre (éd.), Règles des moines, Paris, Seuil, « Points Sagesse », 1982, p. 113 « Quant aux frères infirmes ou délicats, on leur donnera une occupation ou un métier qui soit de nature à leur faire éviter l'oisiveté, sans les accabler sous l'excès du travail. »

(216).Olivier de Serres, Le Théâtre d'agriculture et mésnage des champs, op. cit., p. 77

(217): انظر

لحساب أيضا، ولكن ثمة إرادة للتثمين المسبق، ولو بشكل عام، للمقاومات والطاقات.

اقتراحات مماثلة لتوظيف الجيش؛ وهو ما أكده **جوزيف توريلهون دي براد** النقيب في كتيبة بيبيان، معترض على والده الذي جند لابنه جنودا «جد صغار»: «لقد كتبت بأن لا تجند إلا أشخاصا كبارا، وهذا لم يحصل، فمن بين الثمانية أشخاص الذين أرسلتهم إليّ ليس سوى بيارد وليفاييه وواحد خسمني في الطريق؛ وكان الآخرون أقزاما؛ كان عليك أن لا تفعل ذلك، لأنه مال رُمِيَ في النهر[218]». لقد أججت جيوش القرن السابع عشر النقاشات حول هذا الاختيار. عدة وحدات اشترطت طولا أدنى مفاده: خمسة أقدام وأربع بوصات (1م،626) بالنسبة إلى الحرس الفرنسي[219]. وتبقى فروقات دقيقة. أوصى **فوبان** بالقامات القصيرة رغم هيمنة صورة الطول: «إن الحيوية والقوة الشجاعة توجد عادة في الأشخاص قصيري القامة[220]». وهكذا تمايز الأجساد حسب القوة المتوقعة، والمقاومة، وقهر التعب أو خشيته. وأيضا مع وجود صعوبات: نقص في الرجال في نهاية القرن، وانخفاض في الأعداد. حينها رفض الملك بأن «يتم قياس الجنود[221]». لقد منع لوفوا أن يحرم الناس من «تقديم الخدمة بالسن والقوة والقامة»، وما من عيب فيهم سوى «أنهم ينقصون بعض البوصات عن

Philippe Braunstein, « Le travail minier au Moyen Âge d'après les sources réglementaires », In Jacqueline Hamesse et Colette Muraille-Samaran (dir.), Le Travail au Moyen Âge, une approche interdisciplinaire, Louvain-la-Neuve, Institut d'études médiévales, 1990, p. 333.

(218). Jean Torrilhon de Prades, « Un petit capitaine au Grand Siècle » Revue historique des armées, n o 2, 1980, p. 5-31, voir Michèle Virol (dir.), Les Oisivetés de Monsieur de Vauban, Seyssel, Champ Vallon, 2007, p. 1040, note 1.

(219) Sébastien Le Prestre de Vauban, « Moyens d'améliorer nos troupes et de faire une infanterie perpétuelle et très excellente » (1703), in Les Oisivetés de Monsieur de Vauban, op. cit., p. 1040.

(220). Ibid.

(221). Camille Rousset, Histoire de Louvois et de son administration politique et militaire, Paris, 1863, t. III, p. 296-297

الآخرين[222]». ومع ذلك، يبقى المطهر مرموزا ومثاليا، إلى درجة أن «نموذجا» تشكل منذ القرن السادس عشر؛ حيث ساد خيال حدسي بشكل واسع، خيال الحيوية والصلابة، وتأثير السواعد والأيدي، بل وحتى القامات الطويلة.

إن مثال السفن الشراعية أكثر إثارة للانتباه، هناك دفع، وسرعة القارب وقدرته على المناورة. تصنيف أكثر تفصيلا تم إنشاؤه في القرن السابع عشر، وتطور مع الأسطول «الحديث» وصف جان مارتيلي، محكوم بالأشغال الشاقة «بسبب الدين»، العمليات منذ الإبحار: «لقد قاموا بتعريتنا تماما لمُعاينوا كل أطراف جسدنا، وتحسسوا كل مكان، مثل ثور سمين يُشترى من السوق، لا أقل ولا أكثر. وعند نهاية المعاينة وضعوا طبقات، من الأكثر قوة إلى الأكثر ضعفا[223]». يشغل «الجيدون» سواء الصف الأول، ويعطون الإيقاع، أو يشغلون نهاية المجاديف ويعوضون الراحة. تراتبيات وسيطة انضافت، من «المجدف السابع» إلى «المجدف الثاني»، حسب البعد من الحافة وحجم السرعة. وتتقاطع تقويات مختلفة العمر، والقامة، «ولون البشرة». وأخيرا تتفاوت العقوبات، لقد أوصى جان بابتيست كولبير سينيلاي، كاتب الدولة للبحرية، في سنة 1688 بوضع المحكومين على «السفن التي ستذهب إلى الجزائر العاصمة[224]»؛ حيث سيكون التعب أكثر حدة.

(222).Ibid.

(223).Jean Marteilhe, Mémoires d'un galérien du Roi-Soleil (1757), Paris, Mercure de France, 1982, p. 102.

(224).Jean-Baptiste Antoine Colbert Seignelay, lettre du 18 avril 1688, voir Gaston Tournier, Les Galères de France et les galériens protestants des XVII e et XVIII e siècles, Montpellier, Les Presses du Languedoc, 1984, t. I, p. 116.

تقسيم الوظائف الاجتماعية إلى درجات

إن النظرة إلى التعب، وهي تتزايد، لن تكون مستقلة عن الاجتماعي. إن شارل لويزو، وهو يستحضر «التنظيمات» و«الرُّتب» حيث تأكد المجتمع الكلاسيكي، يبيِّن بشكل غير مباشر كمًّا من الأحكام للعامة، غير ذات فائدة

هناك حرف توجد أكثر في ألم الجسد أكثر مما توجد في نقل البضائع، أو في ذكاء العقل؛ وهذه هي الأحط، وتحديدا الذين ليست لهم حرف ولا بضائع ويعيشون على العمل بسواعدهم، والذين نسميهم أصحاب السواعد أو المرتزقة، مثل الحمالين، ومساعدي البنائين، والمياومين الآخرين، كلهم أحط عامة الشعب؛ لأن أسوأ عمل هو ألا يكون لك عمل[225].

لا وزن لخصوصيات مثل هذه الأعمال في الأوصاف اليومية؛ فهي تصل إلى حد «الإخفاء» إنها القسم «الآلي والوضيع» من «العامة» [...] أولئك المستبعدين من ثروة المملكة[226]» لقد استحضر لافونتين حطابا «متبرما وحنيا[227]»، ولكن أيضا إسكافيا «يغني من الصباح إلى الليل، وكانت رؤيته رائعة[228]»، أو «سائق العربة التي انغرست في الوحل»، الذي تبقى نصيحته الأولى: «ساعد نفسك، تساعدك السماء[229]». يتجاهل كلود فلوري عناب الخدم؛ حيث القواعد قهرية، ومذكورة بدقة متناهية: «الخادم ملزم بأن يتبع سيده في أي مكان، دون أن يجرؤ على الابتعاد للحظة واحدة[230]». يسخر أنطوان فورروتير من الشخص الفقير

(225). Charles Loyseau, Traité des ordres et simples dignités (1610), Œuvres, Paris, 1666, p. 52.

(226). Pierre Goubert et Daniel Roche, Les Français et l'Ancien Régime, t. I, La Société et l'État (1984), Paris, Armand Colin, 1991, p. 84.

(227). « La mort et le bûcheron », Jean de La Fontaine, Fables, Paris, 1668-1694.

(228). « Le savetier et le financier », ibid.

(229). « Le chartier embourbé », ibid.

(230). Claude Fleury, Les Devoirs des maîtres et des domestiques, Paris, 1688, p. 104

«القرم والملتحي» بعد أن «تعلم صيام الماء والكستناء»[231]. إن استحضار لابرويير للفلاحين الذين تُبي شكلهم الإنساني بصورة تراجيدية يبقى أمرا استثنائيا، بينما لا يترك إنهاك العمال والفلاحين بشكل عام، مكانا للتعليقات. فالمراقبون المسافرون، في منتصف القرن، لم يسهبوا في ذلك. لم ير جوزيف دو تشيسن، طبيب هنري الرابع، في «الحركات العنيفة» للعمال سوى «تقوية للعضلات والأعصاب»[232]؛ وليون غودوفري، لم ير إبان قطعه لبلدَيْ غوسكون وبيارن سنة 1646 في مظهر الفلاحين الذين صادفهم سوى سحنة بشعة؛ «غزيا» شعب الأرمنياك الذين يُعد «داكنا للغاية، إن لم نقل أسود تماما»[233]. إن فرونــوادي كروناي، وهو يعبر الأكيتان سنة 1643 شاهد فيها، من جهته، «سهلا ذا خصوبة رائعة»[234]، لكنه تجاهل أية إشارة للمعاناة أو للكد.

وقد أشار فرانسيس بيكون أيضا، في إرادته الطبية للمقارنة بين «أنماط الحياة» من النمط العسكري إلى الديني، ومن البيروقراطي إلى الفلاحي، إلى «الحياة الريفية» بوصفها أكثر تواضعا، ولكن أيضا بوصفها توفر الصحة الجيدة: «لأنه بالإضافة إلى استمتاعهم بكل حرية بالهواء النقي، فهم دائمو الحركة، وأعداء للكسل، بالهم خال من الهموم والرغبات، يعيشون، في غالبيتهم على اللحوم التي ينتجونها، دون أن يشتروها»[235]. لا ألم ولا معاناة، بالنسبة إلى عمل قلما يذكر.

---

(231).Antoine Furetière, Le Roman bourgeois (1666), in Antoine Adam (éd.), Romanciers du XVII e siècle, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1958, p. 1 047.

(232).Joseph du Chesne, Le Pourtraicz de la santé, Paris, 1618, p. 237.

(233).Léon Godefroy, Voyages en Gascogne, Bigorre et Béarn (1644-1646), in Jean-Marie Goulemot, Paul Lidsky et Didier Masseau (éd.), Le Voyage en France, Paris, Robert Laffont, «Bouquins », 1995, p. 369.

(234). انظر:

Yves-Marie Bercé, La Vie quotidienne dans l'Aquitaine du XVII e siècle, Paris, Hachette, 1978, p. 25.

(235).Francis Bacon, Histoire de la vie et de la mort (1627), Paris, 1637, p. 184-185.

الفصل الثامن

ابتكار فئات

بعيدا عن هذه اللامبالاة تجاه أوجه العياء الأكثر تواضعا، والتي ينظر إليها من جهة أخرى على أنها شدة ودرجات، إنها أيضا أصناف التعب المختلفة التي يكشفها ويتحدث عنها العالم الحديث؛ فالجهات والملامح كلها تتنوع مع تحول الاقتصادات، مثل اقتصاد النفقات، أو اقتصاد العلاقات الاجتماعية، من المدينة إلى البلاط، ومن التجارة إلى الجيش

التعب المقرر

عندما يتعلق الأمر بالعقاب أو بالقمع، فإن المعاناة لا تنسى. سبق وكانت السفن قد أرست رابطا واضحا بين العقوبة الصادرة والقهر المنتظر. فقد خصص لويس الثاني عشر، في يناير 1513، «مجموع الأحكام للعقوبات البدنية المقررة في دوقية بريطانيا[236]». إنه إنهاك بالغ الخصوصية، الذي أصبح في قلب إصدار الأحكام، تماما مثل العنف في قلب السجناء المجدفين، وفي قلب حياتهم اليومية. ففي سنة 1564، مدد مرسوم شارل التاسع القرار ليشمل مجموع المملكة، قبل أن تتمايز أكثر في القرن السابع عشر، العلاقة بين الجرم المرتكب ومدة العقوبة، والتمييز بين عقوبة التجذيف وعقوبات أخرى. وهكذا، امتدت رحلات حج التوبة، في العصر الوسيط، في شكل مختلف بقدر ما هو قاس. يصف بعض الشهود المهمة: «النهوض واقفا لحمل المجداف إلى الخلف، وتثبيت القدمين، ويلقي المجداف في الماء ثم يستلقي على المقعد ليعيد المجداف إلى الأمام بكثير من

(236).Jean Kerhervé, « Aux origines du bagne. Galères et galériens à Brest, au temps de Louis XII », in Jean-Pierre Leguay (dir.), La Ville médiévale en deçà et au-delà de ses murs, Rouen, Presses de l'université de Rouen, 2000, p. 243.

القوة»[237]. ووصف آخرون تنوعاتها الممكنة، وظروفها، والانتقال المفاجئ من «التجديف» إلى «التجديف السريع» بمضاعفة الوتيرة وروح «السجانين» المرعبة. «أحيانا يجدف المحكومون على هذا النحو عشر ساعات واثنتا عشرة ساعة وحتى لعشرين ساعة متوالية دون أدنى توقف. وفي هذه الحالة، يقوم القائد أو بحار آخر بوضع كسرة خبز، منقوعة في النبيذ، في فم المجدفين المساكين لتجنب الإغماء»[238]. وهذا لا يستبعد احتمال اللامبالاة بحياة المجدفين، وبسلامتهم، مما يذكره مارتليه نفسه بتفصيل: «إذا سقط عبد مغشيا عليه على مجدافه (وكثيرا ما يحدث هذا) يُجلد حتى يسقط ميتا، ثم يُرمى في البحر دون مراسيم»[239]. بعبارة أخرى، قمة العناء، وجد مؤكد، إلى درجة أن الحكم لم يوضحه، وأشارت إليه، في المعظم، قوانين القرن السابع عشر: كل ثلاثة من سجناء السفن مقيدين بالسلاسل، ومثبتين على كراسيهم لا يستطيعون مغادرتها لا بالنهار ولا بالليل، ويُطعمون كل يومين، ينامون بشكل سيء ممددين في «العفن»، وتلتهمهم الطفيليات»[240]. الصوت الوحيد المعارض، إذا لم تقل المفارق، هو صوت بيرناردينو رامازيني الذي أشار سنة 1700 إلى أمراض المهن، واعترف للمحكومين بالأشغال في السفن، المهددين بوابل من الضرب، بميزة القيام بجزء من الجهد وهم جالسون: «إن معدتهم ثابتة بينما هذا العضو معلقا عند العمال الذين يشتغلون واقفين»[241]؛ وهم ميكانيكي لطبيب خبير مع ذلك.

(237).Jean-Antoine de Barras de La Penne, Les Galères en campagne (début XVIII e siècle), cité par Paul Masson, Les Galères de France (1481-1781) Marseille port de guerre, Paris, Hachette, 1938, p. 72-73.

(238).Jean Marteilhe, *Mémoires d'un protestant condamné aux galères de France pour cause de religion* (1757), cité par Paul Masson, Ibid., p. 73-74.

(239).Ibid., p. 74.

انظر أيضا:

Gaston Tournier, Les Galères de France et les galériens protestants des XVII e et XVIII e siècles, op. cit., p. 139-149

(240).Jean Antoine de Barras de La Penne, Les Galères en campagne, op. cit., p. 75.

(241).Bernardino Ramazzini, Traité des maladies des artisans (1700), Paris, 1840, p. 157

استهلاك بدني كبير، على أي حال، متناسب مع نزعة الشر المفترضة للمُدان. إن الألم الخارق والقاطع للنفس، عقاب ظاهر: فالجسد بوصفه أول هدف للعقوبات التقليدية، معاناة مرئية، ومعاناة «محتومة». إن المرجع واحد، عندما يتم التفكير في المستشفى العام، في اللحظة ذاتها، «بالنسبة إلى استقبال الفتيان دون سن الخامسة والعشرين والفتيات المحتجزات هناك للإصلاح»، أولئك من بين آخرين يسيئون معاملة آبائهم أو أمهاتهم، أو أولئك اللواتي «كن قد فجرن». إن تخيل التعب في أقصى حدوده يرتكز على العقوبة: «يعملون على تشغيلهم لأطول فترة وفي أعمال أكثر صعوبة، بقدر ما تسمح به قوتهم والأماكن التي يكونون فيها»[242]. إذن تعب خاص وغير محدد بدون شك، ولكن كلُّ منطقِهِ هو استهداف الـ «أقصى» للإخضاع والمعاقبة جيداً.

الحرب

يتم تقسيم التعب إلى فئات في العالم الحديث في السجلات العديدة الأخرى، ويبدو أن كل واحد من هذه السجلات يقدم تجربة جديدة، وكل واحد منها مرتبط بعالم متحول. إن القتال هو واحد من هذه السجلات، لاسيما مع تغير الممارسات هنا مع تغير المجتمع العسكري. لقد أصبح الجيش احترافياً مع القرن السادس عشر، وطالت مدة حمله للسلاح. استقرت مهنة وتعقدت، متطلبة تأملاً، وتربية، ورحلات طويلة، تلك الأمور المتعلقة بالمناخات، والتقلبات، والأقاليم: «لقد سجل القرن السادس عشر منعطفاً مهماً في الفكر العسكري في أوروبا الغربية [...]؛ ففي ذلك الوقت صارت للمفاهيم الحديثة لـ «الجندي» ولـ «التدريب» ولـ «الرتبة» الأسبقية على مفاهيم «الفروسية» و«الصف» و«الشرف»[243]». الجيش دائم، والتجنيد مستمر، والمبدأ الأول هو: «أن الجندي لا يتوقف عن القيام

(242).Ordonnance du 20 avril 1648, voir Nicolas de La Mare, Traité de la police, op. cit., 1722, t. I, p. 528.

(243).Claude Gaier, Armes et combats dans l'univers médiéval, Bruxelles, De Boeck-Wesmael, 1995, p. 309.

بالخدمة إلا إذا أصبح في حالة لا تسمح له بذلك أو لم تعد الحاجة إليه[244]». فـ «فترة التجنيد» تصبح «غير محددة»[245]؛ مما يحرك نشاطا متحمسا ومتواصلا، يمس، علاوة على الهجوم، الحياة في المعسكرات، وأعمال الحفر، والمسارات، والتنقلات، والحراسة، والمراقبة. والرهان هو تجنب تشتت الجند، وجعلهم في حالة تأهب بالتدريبات[246]. إن النتيجة التي ذكرها هنا سيفان دو كينسي مُفادها: «كنا متعبين للغاية في هذا المعسكر، ولم يمر يوم واحد دون أن نكون في الخدمة[247]». لقد أصبحت تدريباتهم استعراضات، وتكشفت فضاءاتهم، وتكرر الحركات، وتحاكي المعارك. لقد ذهبت حاشية الملك إلى هناك، مثل ما حصل في كومبين سنوات 1660، إلى درجة خلق عياء غير متوقع: «يجب الذهاب إلى المعسكر كل يوم، وقد بدا التعب [للحاشية] أكبر من المتعة[248]».

تضاعفت الأوامر والقواعد لتحديد «النظام والانضباط اللذين يريد صاحب الجلالة أن يحتفظ بهما جنود مشاته مستقبلا في المدن والساحات حيث يُعسكرون[249]»، ويتمس القدر تحديد واجبات الضباط[250] ومهامهم؛ فالتدريبات تمكن من تأمين «التطور العسكري» و«المسيرات» و«الصفوف»

---

(244).Jean Chagniot, Guerre et société à l'époque moderne, Paris, PUF, 2001, p. 116.
(245).Ibid.
(246).André Corvisier, « Louis XIV, la guerre et la naissance de l'armée moderne », in Histoire militaire de la France, t. I, op. cit., p. 407
(247).André Corvisier, « Louis XIV, la guerre et la naissance de l'armée moderne », in Histoire militaire de la France, t. I, op. cit., p. 407
(248).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques (fin XVII e - début XVIII e siècle), Paris, 1829, t. II, p. 201.
(249).De Lamont, Les Fonctions de tous les officiers d'infanterie, depuis celle de sergent jusqu'à celle de colonel, La Haye, 1693, p. 105.
(250).Ibid., p. 7 sqq.

و«الخطوات» (خطوة لوفوا)[251]، والتدابير الضرورية «لتحصين الساحات[252]»، وتبقى العقوبات للهاربين من الجندية[253].

فجأة، ترسخت صيغة جديدة، بعيدة عن الإنهاك الوحيد للمعركة. إنها صيغة «تعب الحرب» أو «تعب الجيش»، استعملها جان سوفيني سنة 1614 لإظهار مفاجأة عمه عندما أخبره الشاب أنه يريد أن يتجند في سرية بونتهيفر، في حين أنه لم يكن يبلغ إلا الثانية عشر من العمر: «سألني إذا ما كانت لدي رغبة وما يكفي من الشجاعة والقوى لتحمل تعب الحرب[254]». لقد استعملته أيضا مجلة ميركور غالان سنة 1672 لتظهر مفاجأة زائر دخل إلى غرفة جندي واكتشف أن الأمر يتعلق بامرأة: «لقد كانت صغيرة للغاية، ومع ذلك طويلة جدا ولها من القوة ما يجعلها تتحمل تعب الجيش[255].» التعبير نفسه، عندما تساءل فرانسيس بيكون في مطلع القرن السابع عشر عن «الحياة العسكرية»، فبين بشكل جد متناقض، بأنها يمكن أن تطيل الحياة: الشيء الذي يحصل عادة للذين تعودوا العمل منذ صغرهم. ويترتب عن ذلك أنهم ينجحون على نحو أفضل، والذي كان شديد المرارة في التعب يتحول مع التقدم في العمر إلى حلاوة[256]».

به وعي جديد يعيد تقويم البيئة، ويتجه أيضا إلى الضواحي، وظروف الحياة، وإلى التدابير اليومية. النوم، واللباس، والأكل، والراحة، كلها عوامل رخاء أو عوامل إنهاك، وبعيدا عن مجرد جهد بدني، وبعيدا عن مجرد معركة. إن فرانسوا دي سكبيو، وهو أحد الأوائل، الذي حدد في عام 1552، سبب العياء المتزايد في النوم السيء، وعدم تغيير الملابس، وكذلك السير الإجباري: «وهكذا، مشينا اثنا

(251).Ibid., p. 65 sqq.
(252).Ibid., p. 142.
(253).Ibid., p. 120.
(254).Jean de Gangnières Souvigny, Mémoires, 1613-1638, Paris, H. Laurens, 1906-1909, t. I, p. 11.
(255).« Fille soldat », Mercure galant, 1672, p. 140-141.
(256).Francis Bacon, Histoire de la vie et de la mort, op. cit., p. 185

عشر يوما في حالة الضرورة القصوى، خلال ذلك فإن الكبار الميسورين فقط من ينامون على الأسرة التي كانوا يحملونها، أما بقية الجيش فلا يغيرون ملابسهم أبدا[257]». لقد فصل عطيل شكسبير نفس هذه المحن مدعيا التغلب عليها ليقنع بشكل أفضل أعيان البندقية: «أيها السادة، إن العادة، هذا المستبد، قد حولت لي مرقد الحرب، الذي هو مرقد من صخر وفولاذ إلى فراش من ريش. أعلن أن التعب بالنسبة إلي مُتع طبيعية، وأني أتلقاه بكل سرور. إذن فإنني مستعد لأخوض هذه الحرب ضد العثمانيين[258]». لقد ازداد شبح هذا التعب المحتمل أيضا في القرن السابع عشر، إلى درجة أن دوق الموِن الابن الشرعي للويس الرابع عشر، وهو يرافق جيش فلاندر سنة 1689 حد من الشعور بالعياء في غياب تغيير الملابس، «استياء» تغلبت عليه تجربة الدوق الشاب؛ هذه التجربة التي قدمها، بازدهاء، إلى سيدته القديمة مدام مانتونون: «كنت قد بدأت بالفعل، صيدقي، أشعر بتعب الحرب؛ لأنني قضيت ثلاثة أيام وليلتين دون أن أغير القميص[259]».

جَلدٌ عسكري جديد، شامل ومنتشر، يمكن إذن أن يفرض نفسه. لم تعد مقاومة حركات المعارك وحدها، مثل ما يوحي عالم العصر الوسيط، ولكن مقاومة كل أنواع العياء التي يمكن أن تتطلبها الحياة في الريف أو في المعسكر. إن الضابط هو أكثر من أي أحد آخر يمثل هذه التجربة المضاعفة. لقد حرر سان سيمون في الرصف الطويل لـ لويس فرونسوا دي بوفلير، شهادة حاسمة عن طريقة التطوع للحرب، التي قلبت، في القرن السابع عشر، النظرة إلى التعب؛ تعب الجنود، وتعب قادتهم:

جاهز في أي وقت، ومستعد لكل شيء، منتبه بأن يتفادى قدر المستطاع تعب الآخرين والمخاطر غير المجدية، ويتعب لأجل الجميع، ويوجد في كل مكان،

(257) François de Scépeaux Vieilleville. Mémoires, op. cit., p. 143.

(258) William Shakespeare, Othello, ou le Maure de Venise, 1604, acte 1, scène III.

(259) Duc du Maine, lettre à Mme de Maintenon, mai 1689, Correspondance générale de Mme de Maintenon, op. cit., t. III, p. 176.

ومهيئا نفسه ومخاطرا بها باستمرار. ينام في ثيابه أثناء الهجمات؛ لم يسم ثلاث مرات منذ شق الخندق وحتى إعلان النصر. لا يمكن فهم كيف لرجل في مثل سنه، ومنهك بالحرب أن يستطيع القيام بمثل هذا العمل ذهنيا وبدنيا، ودون أن يفقد أبدا هدوءه واتزانه. لقد تمت مؤاخذته على أنه يعرض نفسه للخطر كثيرا، إنه قد فعل ذلك ليرى كل شيء بعينيه ويدبر كل شيء بمقدار؛ لقد فعل ذلك أيضا لإعطاء المثال ولانشغاله الخاص بأن كل شيء قد سار ونُفذ على أحسن مايرام[260]

إنها أشكال تعب جديدة أو مدركة ومحددة بشكل أفضل، في مواجهة مهام هي نفسها متزايدة ومتحولة.

نتيجة لذلك، بدأ «إضعاف» خاص للغاية يؤخذ بعين الاعتبار بشكل استثنائي، وكُشفت رؤية عن تعب بعض المهن النادرة. إن الفيلقي المجروح أو المريض «يستمر في تلقي راتبه[261]»، في حين يتقاضى الجنود القدماء أو البحارة القدماء نصف في الشهر، منذ كانون 1670. لقد افتتح الفندق الملكي للعجزة سنة 1674 وخُصص للجنود «الذين أُنهكوا أو تشوهوا وهم يحاربون لأجل الملك[262]». إنها مؤسسة مركبة، ونعرف، في الواقع، أنها شيدت أيضا لتفادي التشرد المقلق للجنود الفقراء في الساحات أو القناطر أو الشوارع.

---

(260).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques, op.cit., t. VI, p. 359.
(261).Benjamin Deruelle, « Le temps des expériences, 1450-1660 », in Hervé Drévillon et Olivier Wieviorka (dir.), Histoire militaire de la France, Paris, Perrin-Ministère des Armées, 2018, t. I, p. 256.
(262).Élisabeth Belmas, « L'infirmerie royale de l'hôtel des Invalides », in Giorgio Cosmacini et Georges Vigarello (dir.), Il medico di fronte alla morte (secoli XVI-XXI), Turin, Fondazione Ariodante Fabretti, 2008, p. 54.

أصبحت المدينة موضوعا آخر للانشغال، وقوامه أيضا عبارة عن وعي متجدد. لقد عرف السجال التقليدي عن اضطراب المدينة وهدوء الغيطان، منذ القرن السادس عشر، منعطفا جديدا. وبرز هناك تعب خاص. أسباب غليان جديدة، وأحاسيس جديدة بالعنف أو بالتوتر فرضت نفسها؛ لقد كبرت المدينة بسرعة وتعاظم دورها. لقد قلب نمو السلطة التجارية والمدنية والإدارية الأمور، مستميلا «نخب القرى المحيطة» والـ«جُباة والقضاة الإقطاعيين»[263]. لقد تكاثر أصحاب المتاجر، والمحامون، والبرلمانيون، ورجال القانون أو البيروقراطيون. في حين أن العقلنة التدريجية للاستغلال القروي، وباستثناء القاطنين ومربي الماشية الهامشيين، قد رمت بعدد غير مسبوق من «المشردين في كل الشوارع»[264]. حصل تكدس، واجتياح صاخب، ومتعدد ودائم الاتساع. وازدادت خطورته بإبقاء الجدران التي تثبت السياج للكائن؛ مما أحدث «تكدسا خارقا لا تزال منازل «باريس العتيقة» تقدم عنه مشهدا مدهشا»[265]. تؤكد الشهادات المتنامية على الحشد والجمع، و«الاختناق» داخل باريس التي «أصبحت تكتليا لعدة مدن، ومكانا مأهولا مثل خلية النحل»[266].

تمتزج الشكوى والاستنكارات، وتزداد حدة الانزعاج والسخط؛ ويحدث الضوضاء بخصوص، أكثر من أي إزعاج آخر، الصمم والنوم المضطرب. وهذا ما يقوله هجاء بوالو سنة 1666:

الكل يتآمر لإقلاق راحتي.

(263).Roger Chartier et Hugues Neveux, « La ville dominante et soumise », in Georges Duby (dir.), Histoire de la France urbaine, Paris, Seuil, 1981, t. III, p.34.

(264).Lettre de Sixte-Quint (1587), citée par Philippe Erlanger, Les idées et les mœurs au temps des rois, 1558-1715, Paris, Flammarion, 1969, p. 63.

(265).Pierre Goubert et Daniel Roche, Les Français et l'Ancien Régime, op. cit., p. 152.

(266).Giovanni Paolo Marana, L'Espion dans les cours des princes chrétiens (1684), Paris, 1710, t. V, p. 168.

وأنا هنا أشكي من أقل متاعبي [...]

ولكن في غرفتي بالكاد أطفأت النور

الذي منعني من إغماض جفني[267].

إنه غليان جديد بما يكفي ليشجع الكاريكاتير حول بعض الصخب المكتسح، وهو عامل من عوامل الإنهاك: «إن سائقي العربات متوحشون جدا، ولهم صوت أبح للغاية، ومرعب للغاية، وفرقعات سوطهم المستمرة تزيد من الضجيج بطريقة حساسة للغاية، إلى درجة يبدو معها أن كل اهيجان يتحرك ليجعل من باريس جحيما[268]». تعود الشكوى إلى الراحة المهددة، بالأصوات المضاعفة، وبصوت الجرس المتواصل. وتؤكد الأبيات المصاحبة لرسم نيكولا جيرار عن ازدحام باريس، في نهاية القرن السابع عشر، صورة الاضطراب الناتج عن الإنهاك بقدر ما هو ناتج عن الخطر:

لأنه إن لم تسمع في وسط الضوضاء

انتبه، انتبه هناك انتبه، وتنحى

إما إلى الأعلى، وإما إلى الأسفل حيث ستسحق[269].

شكوى أخرى تؤكد نفسها، وهي أكثر استبطانا وأكثر تنكرا، ومازال من الصعب تسميتها، ولكنها تستحضر وطأة القضايا، تلك المتعلقة بالمكاتب، وبالقرارات، وبالمراسلات المتنوعة. إن العياء الذي بالكاد يتم إدراكه حينها، هو مع ذلك يتزايد، ذلك الخاص برجال القانون، والإداريين، والبيروقراطيين،

---

(267).Nicolas Boileau, Satire VI (1666), in Françoise Escale (éd.), Œuvres complètes, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1966, p. 34-36.

(268).Charles de Marguetel de Saint-Denis Saint-Évremond (1613-1703), cité par F. Marcevaux, Du char antique à l'automobile, les siècles de la locomotion et du transport par voie de terre, Paris, 1897, p. 229.

(269).Nicolas Guérard, Le Pont-Neuf ou l'embarras de Paris, vers 1715, Paris, Bibliothèque nationale de France, département des estampes.

والتجار، والوجهاء الذين واجهوا عجزا غير مسبوق. نهاية جد مرهقة لمشاكل يحكمون عليها هم أنفسهم دائما بأنها عديدة أكثر من أي وقت مضى. علامات كثيرة للعلم الذي تصاعد في حضور البذلة، والنقابة، والإدارة، والبرلمان، وعمل الديوان، توترات طالما أهملت، وفجأة أصبحت محسوسة ومُعبرا عنها بواسطة اللغة، وبالفكر أيضا، وماديا أكثر منها معنويا، مثل كلمات هنري الرابع التي وجهها إلى سولي سنة 1591: «كل الأخبار التي وردتني من مدينة مانت تفيد بأنكم منهوك وهزيل بفعل العمل»(270). نفس الإشارة بعد بعض العقود، حينما وصف سان سيمون بوس ميشال شاميلار، الذي أرهقته الوزارتان التي تقلد. لقد استولى عليه احتلال الأخلاط، وغليانها، واجتفافها، وتسربها أكثر من نظائرها النفسية المحتمة.

لم يكن لشاميلار، الذي أرهقه العمل المزدوج لوزارتي الحرب والمالية، الوقت للأكل ولا للنوم [...] إذن، لقد جعل من الضرورة فضيلة، لكن في الأخير ملك الجسم: لقد أخذ الأبخرة والتوهجات، والهموم الشديدة، وذهب كل شيء، لم يعد يهضم، وهزُل بسرعة، ومع ذلك يجب أن تدور العجلة دون توقف، وفي هذه الوظائف، كان وحده من يستطيع أن يجعلها تدور(271).

وبخصوص الجسد أيضا، يشير حزقيال سبانهايم أيضا إلى «تعب المنصب» ودوار انشغالاته المفاجئ، عندما اعتلى لويس الرابع عشر العرش «ظاهر مليء بالعظمة والجلالة، وتشكيل هيئة قمينة بتحمل عبء منصب عظيم»(272). بخصوص الجسد أيضا ادعى ريشيليو، قبل عدة عقود، مقاومة «الثقل» الإداري، المحدد حديثا مع القرن السابع عشر. عملية عجيبة هنا، خفية، وبدنية بامتياز،

---

(270).Maximilien de Béthune Sully, Mémoires (1591), Paris, 1778, t. II, p. 31

(271).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques, op. cit., t. V, p. 279- 280,

(272).Ézéchiel Spanheim, Relation de la cour de France en 1690 (ms. XVII e siècle), Paris, 1882, p. 1.

وحتى شبه غرائبية. ولكن أوردها بدقة جيل ميناج، «إعاش» الأنس الحيوانية بإحداث دينامية وحركة:

أحيانا يجد وقتا ليستريح من التعب الكبير الذي يصاحب دائما المنصب. كان يحب، خصوصا بعد الوجبات، التمارين العنيفة، لكن لا يريد أن يتفاجأ [...] كان ينسل في رواق القصر الملكي الكبير بالقفز على السور، بأعلى ما يستطيع[273].

لا يخلو تهديد الإرهاق الخاص هذا، الذي استقر في العالم الكلاسيكي، من بهرجة شهرة محتملة، وطريقة للتباهي بالمقاومة والـ «استطاعة». لقد جعل له لابرويير وصفا حادا، وشخصية جديدة، تستمد التميز من «عنائها» المفترض:

هل تسخر من الحلم على العربة، أو ربما من الاستراحة فوقها؟ أسرع خذ كتابك أو أوراقك، اقرأ، وبالكاد حيي الناس الذين يمرون في عربتهم؛ سيعتقدون أنك مشغول للغاية، وسيقولون: «هذا الرجل مجتهد، ولا يتعب، إنه يقرأ، ويشتغل حتى في الشوارع أو على الطريق.» تعلم من أقل عالم بأنه يجب عليك أن تبدو مرهقا بالأعمال، وعبوسا، والحلم بلا شيء عميقا، وتعرف متى تتخلى عن الشرب والأكل [...][274].

هكذا خلقت المدينة الكلاسيكية ألوانا من التعب بقدر خلقها لصنوف الجلد.

البلاط

إن البلاط مكان آخر حيث يتحدد، في العالم الكلاسيكي، تعب خاص. وتتعلق الجدة، قبل كل شيء، في ثورة اجتماعية هائلة: تمركز السلطة، وتقوية الدولة، واندثار الإقطاعات المحلية، وبارونيات العصر الوسيط بعيدا عن نزاعاتها الحربية. معه، تكوّن مجتمع غير مسبوق، مركزه الملك، ومحركه الطقوس. ومعه،

(273) Gilles Ménage, Menagiana, ou bons mots, rencontres agréables, pensées judicieuses, et observations curieuses, Amsterdam, 1713, t. II, p. 45-46.
(274) Jean de La Bruyère, Les Caractères, op. cit., p. 183

تم إصدار «أمر» قرره آل فالوا منذ نهاية القرن السادس عشر، «بأن الملك يريد أن يبقى في بلاطه[275]».

إن المراسيم تحدد المرتبات، وتحدد الرسميات المكان والزمان. من هنا هذا الإحساس بجهاز معقد بقدر ما هو مفروض، وهو انضباط يومي، ويعمل على إملاء الحركات والمسافات، ويتغلغل في كل سلوك. أيضا هناك حاجة إلى تدقيق واضح للوعي قصد تحويل ما كان إلى حدود ذلك الوقت مُهملا، دون شك، إلى تعب. فرضت عبارة «تعب البلاط» نفسها في القرن السابع عشر، واستأنفها لفاعلون أنفسهم. فقد جعلت منها السيدة مانتونون لازمة، مستحضرة الآنسة دي جارناك؛ حيث إن «ساقيها المتورمتين» تشيران إلى مشقة التعود على تعب البلاط[276]، أو السيدة مونتشيفروي التي بيت أن مرضها «يتحمل التعب بشكل جيد[277]»، أو الماريشالة دو روشفور التي كشف مرضها بأنها «غير قادرة على التعب[278]». واعتبرت الماركيزة نفسها «مرهقة بالرعاية، والزيارات والإعداد للسفر[279]»، إلى درجة أنها ترى في ذلك «عذابا حقيقيا»، أو حتى إيجاد مطيرة فونتيبلو متعبة، «أكثر قسوة، منذ الأمس، مما لم أسمع به». يعود مثل هذا الألم مع الإحالة إلى المراسيم والوقفات لفترات طويلة للغاية، والبحث عن «سند آنية المائدة» لـ «تخفيف التعب». إن وضعية الوقوف هذه هي التي ذكرها جون فرونسوا سولنون في «قدر الحاشية الرهيب[280]». هو ما حصر الإنهاك لشامل بالنسبة إلى الكاردينال كوزلين: «الرجل المسكين الذي كان بدينا للغاية ومُتمرنا

---

(275). مرسوم هنري الثالث سنة في 1585 من «الأمر بأن يبقى الملك ساعات في بلاطه بقدر بقائه في الديوان، بالطريقة التي يريد بها أن يُحترم ويُخدم».

(276).Mme de Maintenon, lettre à M. d'Aubigné, Coignac, 8 mai 1681, Correspondance générale de Mme de Maintenon, op. cit., t. II, p. 168.

(277).Mme de Maintenon, lettre à M. d'Aubigné, Coignac, 8 mai 1681, Correspondance générale de Mme de Maintenon, op. cit., t. II, p. 168.

(278).Id., lettre à M. d'Aubigné, Coignac, 19 mai 1681, Ibid., p. 173.

(279).Id., lettre à Mme de Brinon, 17 septembre 1682, Ibid., p. 251.

(280).Jean-François Solnon, La Cour de France (1987), Paris, Perrin, « Tempus », 2014, p. 427

كبيرا، كان يرشح عرق بغزارة، في غرفة الجلوس، مرتديا جُبة وكتونة، إلى درجة أن الأرضية الخشبية كانت مبللة من حوله[281]».

ومع ذلك هناك قاعدة لها الأسبقية: «أن تكون مواظبا[282]»، وأن تتحلى بالصبر، وأن تظهر أنك «ضروري على الدوام[283]»؛ وبعبارة أخرى، أن تقاوم «الملل والفتور[284]». إن مثال الماركيز داثان، الابن الشرعي للسيدة مونتيسبان الذي ذكره سان سيمون بإسهاب، يعبر في حد ذاته عن إدراك الممثلين لـ «تعب البلاط» هذا، الجديد بقدر ما هو خاص:

إن جسدا قويا يشارك في كل شيء بدون عناء، يتوافق مع الرجل العبقري، رغم أنه أصبح بالتدريج ضحيا للعناية، ولا يرفض لا السهر ولا التعب. قاسي بطبعه، ولطيف، ومؤدب بالتمييز، وخفي، ومتلهف للإرضاء. لقد ضحى بكل شيء من أجل الطموح والثروة [...] إن جليس الملك الأكثر ذكاء، والأكثر رقة في زمانه، وكذلك الأكثر انضباطا بشكل غريب. اجتهاد دون توقف، وتعب لا يصدق، بأن توجد في كل مكان في وقت واحد، انضباط هائل في كل الأمكنة المختلفة، وعناية لا حصر لها، ونظرات إلى كل شيء، ماثلة في وقت واحد، مهارة، ومرونة، ومجاملات بإفراط، والاهتمام المتواصل الذي لا يخفى عليه شيء، وضاعة لا متناهية، لا شيء يشق عليه، ولا شيء يثبط عزيمته، طيلة عشرين سنة، لم يكن له من إنجاز آخر سوى عادته التي تستولي على ادعائه الوقح مع أساس حيث كل شيء قد أنعمه، بحق، أنه كان عليه التعدي عندما كان متمكنا من السلطة.

---

(281).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques, op. cit., t. V, p. 21.

(282).Eustache de Refuge, Traité de la cour ou instruction des courtisans, Paris, 1649, p. 189.

(283).Baltasar Gracian, L'Homme de cour (1647), Paris, Champ libre, 1972, p. 8.

(284).Charles de Marguetel de Saint-Denis Saint-Évremond, lettre du 2 mai 1701, Œuvres, Paris, 1715, t. V, p. 383

كان خضوعه لإخوانه خضوعا مطلقا، وصبره على الخثالة لا حد له، لقد لاقى في حياته إهانة قوية، ومع إخفاء مدهش[285].

هناك إستراتيجيات بارعة للسطلة، خفية، وساخرة، على ما يظهر، ومع ذلك فهي ذات قيمة. وتتسع، إذن لتخلق امتيازات وتفاوتات في توفير الجهود المرتقبة. يضاعف جون فرونسوا سولون الأمثلة في العالم الكلاسيكي: «إن الحق في الولوج إلى إقامة الملك بالعربة [وليس مشيا على الأقدام]، والحق في أن يكون لك أريكة في الكنيسة بشكل ذلك شرفا في القصر[286]». وأيضا، يشكل الوصول إلى «المنصدة» والحق في البقاء جالسا في الإقامات الملكية، امتيازا آخر مميزا للغاية. إن للدوقات امتيار إلى درجة أنهن «يسمين «السيدات الجالسات»، أو اختصارا «المتصدات»[287]». حتى نوعية الكرسي نفسه تظهر «الاختلافات» فأحفاد وحفيدات فرنسا لهم الحق في مقعد، والأمراء والأميرات لهم الحق في أريكة[288]. توجد اعتراضات، وكذلك أخطاء تكتشف على الفور، أثارتها مادام سيفينيه في لقاء مع الملكة: «فيما بعد جاءت الدوقات، من بينهن الشابة فونتادرر اللطيفة والجميلة للغاية. لقد مرونت دون أن يحضروا لها تلك المضدة السحارية. التفت نحو الحاجب الكبير، وقلت: «مع الأسف، قدمها لها». إنها مكلفة جدا بالنسبة إليها وكان من رأيي[289]». حدث آخر مفاده الترخيص «الممنوع» ومع ذلك «مسموح به». إنه الحال عندما سمحت الملكة لكثير من السيدات بالجلوس، أو «من دون تكلف»، بينما كان الرفض فارضا نفسه. لقد تفاعل أمراء ودوقات،

(285).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques, op. cit., t. V, p. 414- 416.

(286) .Jean-François Solnon, La Cour de France, op. cit., p. 428.

(287) .Ibid., p. 427

(288). انظر

Emmanuel Le Roy Ladurie, avec Jean-François Fitou, Saint-Simon ou le système de la cour, Paris, Fayard, 1997, p. 49.

(289).Mme de Sévigné, lettre à Mme de Grignan, 1 er avril 1771, in Roger Duchêne (éd.), Correspondance, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1973, t. I, p. 205.

وتداولوا بأعداد كبيرة، وطالبوا «باسم النبل، بإلغاء هذه المضادات[290]». لذلك فإن التعب يعبر بوضوح عن التراتبيات وتعزيزها، ويعبر أيضا عن خصائص جديدة.

النفس

في هذا التنويع الحديث للتعب والأمكنة، يبرز اهتمام واضح للوعي، وتحديد جانب أكثر حميمية. ويتأكد عمق وطريقة للإشارة إلى حالة النفس، وعياء «لفكر». يشير ديكارت إلى «تعب النفس[291]» الخاص برجال الدين، والمولعين بالتأمل، ومحبي المطالعة. لقد حول التعبير عن «عمل» يحيط بالنفس: هناك تلف يحول الاهتمام نحو جوانب من السلوك لم تكن، إلى ذلك الوقت، محددة بشكل جيد. ليس إرهاق المشاغل البسيط، وليس ضغط القرارات وحده أو ضغط التدابير، ولكنه ضغط العملية الذهنية، الحساب ومجهود التفكير، والاستدلال المركز والمتواصل. لقد كان مارسيلي فيتيسيو أو كرستيان دو بيزان، مَن ركز على مثل هذا العياء في القرن الخامس عشر، باستحضار الكتابة أو عمل «الذهن»، مع إعطاء الأولويه لأفعال الجسد: «عندما شيدت مدينة النساء [...] بقيت عاطلا، ومتطلعا إلى الراحة، بوصفي شخصا أعياه إنجاز عمل هائل، تعبت الأطراف والجسد من العمل الطويل والمستمر[292]». حدد ديكارت فعلا باطنيا، معترفا بأننا «نستطيع أن نسلط انتباهنا على نفس الشيء باستمرار[293]»، منددا بخطر «الإفراط في الدراسة[294]»، ومؤكدا أن الانشغالات بالغة الجدية «تضعف الجسد

(290).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques, op. cit., t. II, p. 168-169.

(291) .René Descartes, lettre à Élisabeth, juin 1645, in André Bridoux (éd.), Œuvres et lettres, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1953, p. 1190.

(292) .Christine de Pisan, Le Livre des trois vertus (XVe siècle), in Voix de femmes au Moyen Âge, op. cit., p. 560.

(293) .René Descartes, lettre à Élisabeth, 15 septembre 1645, in Œuvres et lettres, op. cit., p. 1 208.

(294).Ibid.

عن طريق إتعاب النفس». هناك خلاصة تعرض نفسها حينا يستحضر الـ «المبادئ الميتافيزيقية» وآثار الاهتمام الزائد حيالها: «أعتقد أنه سيكون مضر أن يشغل الإنسان ذهنه كثيرا بتأملها[295]». هكذا تمت الإشارة، لأول مرة، إلى «تعب النفس»، وتم تحديده، وتدقيقه، والتركيز عليه، رغم أن وصفه لا يعبر أكثر من الكلمة، ورغم أن مضمونه الدقيق وخصائصه تبقى غامضة. إن الأعراض الداخلية، هنا، يتم إدراكها أكثر ما يتم التعبير عنها، ويشار إليها أكثر مما يستدل عليها. ومع ذلك فإنها تنفتح على «إحساس» بانهيار خاص يمس القوة الذهنية وحدتها؛ فهذا التأكيد الذي تردد في المعجم الشامل لـ أنطوان فورتيير سنة 1690 مُفاده أن «النفس تتعب مثلما يتعب الجسد[296]». ومن هنا أيضا إدانة جان باتيست تيير للعبة الشطرنج في رسالة الألعاب سنة 1686: «صعبة للغاية؛ إنها تتعب النفس مثل أية مسألة مهمة»[297]. أو هذه الشهادة العابرة عن القواعد التي سنها رهبان القرون الوسطى، وفي المقابل منظمة في تلك القواعد التي سنتها الرهبانيات «الكلاسيكية»: لقد «أنشئت فترات الاستراحة لاسترخاء النفس[298]»؛ إن تفسيرهم بدهي أكثر ما هو مبرهن عليه «لا يسمح الضعف الإنساني بأن تكون النفس دائما مشغولة مثل الجسد، سواء بسواء[299]».

إن ما يشير، في الحقيقة، إلى تعب آخر، وهو نفسه قريب، وأيضا مفسر قليلا هو الشعور بـ «العياء من...» أو «التعب من...»؛ وهذا ظهور لـ «مجال» سيكولوجي جديد يُكتشف ببطء أيضا. الحزن، أولا، حزن أنطونيو في تاجر البندقية، قريب من بعض الإحباط الداخلي، وبعض العجز الخفي: «في الحقيقة لا أعرف لماذا أنا

(295).Id., lettre à Élisabeth, 28 juin 1643, ibid., p. 1160.

(296).Antoine Furetière, Dictionnaire universel, op. cit., art. « Fatiguer ».

(297).Jean-Baptiste Thiers, Traité des jeux et des divertissements, Paris, 1686, p. 353.

(298).Règlements des religieuses des Ursulines de la congrégation de Paris, Paris, 1705, t. II, p. 31.

(299).Institution des religieuses de l'hôpital de Notre-Dame de la Charité, fondé en la ville de Lille, Tournai, 1696, p. 76.

حزين، هذا الحزن يتعبني، قلتم إنه يتعبكم أنتم كذلك، لكن من أين جاءني...؟»[300]. أو حالة الاستياء، حالة الشح الداخلي، وكل المؤشرات غير المسبوقة، التي تكشف خاصيتها شبه السيكولوجية، عن اهتمام جديد، نختبره بشكل شخصي، خصوصا في القرن السابع عشر. إنه لويس الرابع عشر من قبل، بفعل التعب بعودة السيدة دي أورسين إلى البلاط، خاطرا بسوء التفاهم مع المملكة الإسبانية: «متعب من التناقضات التي عاشها، وقلق من البلبلة الخطيرة الناتجة عن الأعمال [...] وعيي بالشكاوى المرفوعة إليه والملاحظات المقدمة له»[301]. وهذا المارشال دو فيلروي، في نهاية حياته، «تعب من كراهية بلاط كثيرا ما سطع نجمه فيه»[302]، واستقال من مهمته لصالح ابنه، فشعر فجأة، «يرعب فراغ حياته»[303]. وبشكل أكثر ابتذالا، هذا صدين جوزيف سيفين دوكوينسي، «عاشق تعب وملّ من أن يكلم عشيقته إلا بواسطة الرسائل»[304]، لأنه بعيد عنها للغاية، فقرر أن يهجرها. وبشكل أكثر ابتذالا أيضا، بل بشكل فظ، فإن النفساء في هجاء 1622، كانت تزعج بالثرثرة التي «تجري بجانب سريرها»[305].

لقد أصبحت تعابير من قبيل «تعب من.. » و«ملل من ...» كلاسيكية إلى درجة الابتذال. وهي على هذا النحو وسعت من طيف العياء، بدءا من العياء البدني إلى العياء الذهني، ومن عياء الجسد إلى عياء النفس، مانحة الوجود لسريرة يجري استحضارها بصورة محددة بقدر ما يقل تفصيل القول فيها، سواء على صعيد آلياتها أو دقائقها. ومهما يكن من أمر، فهي تنفتح على مصادر الإرهاق الأكثر خفاء، والأكثر استبطانا من بنية الإنهاك وحدها، فتحرك كيفية إدراك

---

(300). William Shakespeare, Le Marchand de Venise (1596-1597), acte 1, scène I.
(301).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques, op. cit., t.IV, p. 322.
(302).Ibid., t. VI, p. 84.
(303).Ibid., p. 86.
(304).Joseph Sevin de Quincy, Mémoires, op. cit., t. II, p. 107
(305).Les Caquets de l'accouchée (1622), Paris, 1855, p. 242.

الذات لنفسها، أو كيفية إنصاتها لذاتها. إن كلمات من قبيل «أزعج[306]»، و«أحبط» و«أعيى» تفرض نفسها في هذه الحالة مع تأثيرها شبه الأخلاقي. مثلما فرضت نفسها ملاحظة بوسيه رأبيتان التي وجهت إلى الوكيل الذي ينتظر كثيرا من المدوح: «عليك أن تتعب منذ اللحظة التي قمت فيها بمقالب خبيثة للناس الذين يتقمون[307]». إنه في الواقع التحليل الشخصي للغاية، جانب الشعور، وجانب تجربة الوعي الذي يتطور في هذه الحالة بالتحديد. ظهور كبير بقدر ما هو أقل تعمقا، بمقدار هيمنة مجاز الفيزياء، ومجاز الأبخرة الضاغطة، ومجاز التسخينات الزائدة.

هناك تقارب محتمل بين أنواع التعب، ويُعد هذا التقارب مختلفا، وتمت الإشارة إليه لأول مرة؛ حكايات أيضا نادرة، ولكنها مهمة، تركز على نوع معين من اليوم، والذي يقود إلى عياء ثابت ومستمر، رغم تباين الأعباء التي يواجهها. إجهادات بدنية تضاف إلى محادثات عديدة، وسهرات مستغرقة تنضاف إلى التنقلات العديدة، وكثير من التركيزات الغريب بعضها عن بعض ولكنها موحدة. تلك هي حال الأميرة بلاتين، التي تبين يوميا، كل نشاط من أنشطتها:

اليوم كتبت رسالة مطولة إلى عمتي، وصعدت عند الأميرة دوكونتي (السلمها ستٌ وخمسون درجة عالية للغاية)، وذهبت عند السيدة الدوقة سيرًا على الأقدام عبر الحديقة، ثم استقبلت ملكة إنجلترا. وها أنا متعبة مثل كلب[308].

وحده الاهتمام المتزايد لألوان البذل والجهود، وصولا إلى كشف حساب الخطوات الواسعة أو اللقاءات الحاصلة، يمكنه أن يشير إلى مثل هذه الهوية في نهاية القرن السابع عشر.

---

(306). انظر.

Pierre Richelet, Dictionnaire français, Paris, 1680, art. « Fatiguer ».

(307) Roger de Bussy Rabutin, Lettres, cité par Pierre Richelet, ibid.

(308) Lettre de la princesse Palatine à sa demi-sœur (fin XVII e siècle), citée par Alexandre Maral, Louis XIV tel qu'ils l'ont vu, Paris, Omnibus, 2015, p. 561-562

الفصل التاسع

بداية العدد

لقد امتد طيف التعب مع الحداثة، وتنوعت أشكاله وأمكنته، وخارج المشقة البدنية، انفتح على عياء باطني للغاية، وضجر صامت، وإنهاك للفكر غير موضح بشكل كاف، ولكن مشار إليه حديثا. انتشار آخر لهذا الطيف ارتبط بإدخال العدد، ليس لأنها اكتشفت بعض الجرعات المحددة للمجهودات، وبعض التحققات الكمية للتأثيرات، ولكن مسافات وأزمنات تُحسب، وتقديرات تُنجز، وأعمال تُقاس؛ وكل هذا يطرح أسئلة عن التعب، وكل هذا أيضا لم يكن مذكورا إلى ذلك الوقت بشكل كاف.

السفر والمدة

يبرزه السفر في المقام الأول. إن الأدق تغير مع الحداثة، حتى لو أن ما هو بعيد يحتفظ بغرابته. تخطيطات ومسارات تغتني. جانبيات ومساحات تتسهّل. إن الجغرافيات نفسها، بالنسبة إلى الكثير من البلدان، تطمح في مجموعات متجانسة ومتواصلة. «يمكن للمملكة التي لا تجتاز من طرفها إلى طرفها الآخر في أكثر من خمسة وعشرين يوما على صهوة الجواد، أن تفخر بكونها تتوفر في داخلها على كل ما هو ضروري للحياة، دون اللجوء إلى جيرانها[309]». لقد صارت الطرقات موضوعا لعمل خاص، عندما تم في سنة 1599[310]، تنصيب سولي «ناظر طرقات فرنسا الأكبر». لقد تغير البُعد. ووجدت خدمة البريد على «الطرقات

---

(309). François-Savinien d'Alquié, Les Délices de la France, avec une description des provinces et des villes du royaume, Amsterdam, 1670, p. 5.

(310). انظر

Éric Alonzo, L'Architecture de la voie histoire et théories, Marseille, Parenthèses, 2018, p. 89.

الكبرى» التي بدأها لويس الحادي عشر، والمكونة من محطات خيول «مهيأة للركض طيلة المسافة المخصصة لها[311]»، فكل أربعة فراسخ جرى تنظيها بشكل أكبر سنة 1629 من قبل مراقبين يسيرون المجموع[312]، وعليهم أن يضمنوا أن الإرساليات، المسجلة مع وقت بعثها، تكون قد نُقلت «بسرعة وبشكل مؤكد»[313]. لقد صارت الدروب مناظر طبيعية، وتوحدت الأجزاء، رغم أن بعض الطرقات تظل «وعرة وبعيدة عن التجارة[314]»، وفق ما يقر به المشرفون. احتياطات مختلفة تتأكد لضمان المسارات بشكل أفضل؛ فقوانين فرنسا في العصر الكلاسيكي، تفرض، بالنسبة إلى الطرق الملكية، «أربعة وعشرين قدما من المرور الحر والمريح، دون أن يكون في العرض المذكور، حواجز أو خنادق أو أشجار[315]»؛ ويمنعون «سائقي العجلات والعربات من أن يربطوا أكثر من أربعة أحصنة» ومن أن تكون لديهم «عجلات كبيرة للغاية»، حتى يمنعون «غوص معظم الأحجار بفعل الأثقال»[316]، وأخيرا تفويض هذه المراقبة إلى «اجتهاد المدعين العامين للمكونيات[317]». إن الرسامين في عصر النهضة كانوا قد ضاعفوا، في كثير من نقط الانفلات، رسومات لأروقة خارجية شاسعة، منفتحة على آفاق أنيقة ومتصلة ولا نهائية[318].

---

(311). انظر

« De l'établissement des postes en France », Nicolas de La Mare, Traité de la police, op. cit., t. IV, p. 556.

(312). انظر:

André Corvisier, Louvois, Paris, Fayard, 1983, p. 223

(313).Ordonnance de janvier 1629, voir Nicolas de La Mare, Traité de la police, op. cit., t. IV, p. 564

(314).Yves-Marie de La Bourdonnaye, « Mémoire de la généralité de Rouen en 1697 », in Henri de Boulainvilliers, État de la France (1727), Paris, 1752, t. V, p. 10

(315).« Arrêt pour la modification des chemins de la Normandie », 18 juillet 1670, voir Nicolas de La Mare, Traité de la police, op. cit., t. IV, p. 499.

(316).Ibid.

(317).Ibid.

(318). انظر

من جهة أخرى لا يمكن عن تعب السفر، في حين أنه يأخذ معنى جديدا، ويبقى «نصيبا مشتركا[319]»، وصولا إلى الحركات والهزات التي لا يمكن للناقلات والعربات، التي اخترعت للنخبة في نهاية القرن السادس عشر، أن تتجنبها. لقد أصبح التنقل إلى فونتينبلو محنة بالنسبة إلى السيدة مانتونان، في حين انشغل «سكان خورنيات ضفة النهر[320]» سنة 1687 عدة شهور على تحسين الطريق: «لم أرتح بعد من التعب الذي لاقيته من مجيئي إلى هنا[321]». أو الانتقال إلى لاباي دي ليز بالنسبة إلى السيدة مانسيني: «لم أرتح بعد تماما من تعب وعياء سفرنا[322]». إنه علامة على حدة الإدراك، دون شك، واهتمام متزايد بالأثر الجسدية، وبالتوترات التي تُكابد وتتحول إلى انزعاج، والحركات إلى صدمات، والتمايل إلى اضطرابات سيئة. ليس المقصود معبر العصر الوسيط، بتشوشه المادي، وبمجاهله، وبظلماته، ولكن المقصود الأثر الذي تم قياسه حديثا، عن طرقات أكثر «ملاءمة»، للصدمات والوعورة. لقد استقرت معرفة جديدة، يُفترض أن تجعل الطريق موضوعا للدراسة خاصة. لقد وقع هنري غوتيه أول مقالة سنة 1693 ترجمت بسرعة فائقة إلى الإيطالية والألمانية، رسالة في تشييد الطرقات[323]، حررت ضمن فنون البناء اهتمت بفعالية المواد، كما فعالية الطرقات والتخطيطات، وفعالية الأرضيات كما فعالية الطلاءات أو الأساسات.

Alain Roger, Court Traité du paysage, op. cit., «L'invention de la fenêtre», p. 83.

(319).Sylvie Requemora-Gros, Voguer vers la modernité : le voyage à travers les genres au XVII e siècle, Paris, Presses de l'Université Paris-Sorbonne, 2012, p. 59.

(320).Claude Vacant, Du cantonnier à l'ingénieur : les métiers de la route au fil des siècles, Paris, Presses de l'École nationale des ponts et chaussées, 2001, p. 36.

(321).Mme de Maintenon, lettre à Mme des Ursins, 1 er septembre 1714, Lettres inédites de Mme de Maintenon et de Mme la princesse des Ursins, op. cit., t. III, p. 108.

(322).Marie Mancini, Mémoires (1676), Paris, Mercure de France, 1965, p. 101

(323).Henri Gautier, Traité de la construction des chemins, Toulouse, 1693. Voir aussi Éric Alonzo, L'Architecture de la voie, op. cit., p.65

وأخيرا، يمكن أن ينشأ تحد من هذه الطرق التي تمت تهيئتها تدريجيا بشكل أفضل، «وتأنقها»[324] جيدا حسب تعبير مونتاني مثلما ينشأ شيئا فشيئا من اللجوء المنتظم لحصان مبتذل. وتقتضي التنقلات الأكثر «سلاسة» أهدافا أكثر صرامة وأكثر تدبيرا، ومحاولة لاجتياز فضاء أكبر في وقت أقل، محاولة تعويض الشعور بالتعب بالرضى بالأرض التي تم اجتيازها: مثل جوزيف سوفان دوكينسي الذي واجه مسافات ومددا زمنية «وهكذا قطعنا ثلاثين ميلا في أقل من ست ساعات»[325]، أو جان هيرو دو جورفيل في عام 1652 تحديدا، «حرق» المراحل لينقل رسالة من باريس إلى بوردو، مدونا بدقة الأماكن، والمسافات، والساعات، ساعات النهار، وساعات الليل، ومدونا أيضا العياء الذي غمره: «الانطلاقة على الساعة العاشرة والنصف مساء من سانت-أوستاش، وفي منتصف الليل في شارونتون، ومطلع النهار في ليرزين، وقبل حلول الليلة المقبلة في جييان. لقد مررت بسرعة حتى بلغت سومور في اليوم الموالي [...]»[326]، أو الإياب التي يقتضي المرور عبر لوفيرني، من أجل رسائل أخرى، وعبر مائة وخمسين مكانا في سبعة أيام. يدرك هيرلوت التعب، حتى إنه يشتد عليه، في حين يقرنه برغبته في أن يتقدم: «كنت لا أزال جد صاحيا رغم عيائي وقت وصولي إلى باريس في فندق شافينبي في الساعة الخامسة صباحا وعثرت على تعبي، إنني لم أنم منذ مغادرتي أحين، وواصلت طريقي»[327]. ومن هنا أيضا نوع جديد من مقاومة التعب، وهو قرار زيادة المسافات بتقليص الوقت؛ وهذا ماقام به الملك العظيم في نظر حاشيته: «عاد الملك إلى فونتينبلو تقريبا بقدر السرعة التي ذهب بها إلى نانت. كان لا يتعب وبعد أيام من رجوعه ذهب على ظهر الحصان إلى باريس ورجع في نفس اليوم بعد

(324).Michel de Montaigne, Journal de voyage en Italie (ms. XVIe siècle), Paris, Le Livre de Poche, 1974, p. 136.
(325).Joseph Sevin de Quincy, Mémoires, op. cit., t. II, p. 140-141.
(326).Jean Hérault de Gourville, Mémoires concernant les affaires auxquelles il a été employé par la cour, depuis 1642 jusqu'en 1698, Paris, 1724, t. I, p. 56.
(327) .Ibid., p. 71-72.

أن زار البلايات الجديدة في فلنسون وفي لوفر وتويلري، لقد قام بكل هذا في الصبح، وتغذى في سانت كلو عند السيد ووصل باكرا إلى فونتينبلو»[328]. مقاومة للتعب غير مسبوقة تتحدى بذلك المكان والزمان بقهر المسافة عن طريق إدخال تقليص المدة.

إن السباقات الإنجليزية التي نشأت مع نهاية القرن السابع عشر تؤكد ظهور مثل هذا الوعي. ويتطلب الأمر ميادين عددة وخيولا «معدة» بشكل خاص، وقياسا للمسافات والأوقات «إن الإنجليز بوصفهم محبين للحركة وملاكا للفضاءات ويصعادون كثيرا، سريعا وبعيدا، يجرون الرهان على الأسرع، وعلى من يذهب إلى أبعد مكان»[329]. يتطلب الأمر، بعيدا عن المسارات، استثمارا خاصا في الحصان، و«تدريبه» وتكيُّفه التدريجي مع المسافات والمدد؛ وهو ما يقول جاسبار دو شافانياك أنه يتبنه بوصفه سرا، مستحضرا تكيف اللجام، وتكييف الشكيمة، وممارسة سباقات الإعداد[330]. ومن ناحية أخرى، هذا هو ما قدمه جاك دو سوليسيل، سنة 1654 بوصفه «علما» عن طريق حساب التوقعات: «يجب البدء بأيام قليلة، وفيما بعد الرفع منها بشكل تدريجي؛ فعلى سبيل المثال، يمكن في اليوم الأول القيام بستة فراسخ فرنسية، وثمانية في اليوم الثاني، وفيما بعد عشرة أو اثنا عشر أو حتى أربعة عشر إذا اقتضى الأمر». وتصبح مقاومة التعب، في نهاية المطاف، في هذا الإطار المحدد للمسارات، عملا مركزا، بنفس القدر، على الحصان وعلى الفارس، وإن لم يكن على الحصان أكثر منه على الفارس. إنها تتحقق، في النهاية، عبر «مجزأة» التداريب الشاقة، وتقسيم «التقدمات» إلى

(328).François-Timoléon de Choisy, « Est-ce que nous ne ferons pas rendre gorge à tous ces gens-là ? », In Alexandre Maral, Louis XIV tel qu'ils l'ont vu, op. cit., p. 255.
(329).Nicole de Blomac, La Gloire et le jeu, des hommes et des chevaux, 1766-1866, Paris, Fayard, 1991, p. 19. La remarque porte sur le XVIIe siècle.
(330).Gaspard de Chavagnac, Mémoires, Paris, 1699, p. 235.

درجات، تم تصميمها لمسارات الخيول، وهو ما صعث ممارسات القرون الوسطى إلى تجاهله.

هناك إجراء احترازي إضافي يستهدف، بشكل خاص للغاية، الحمولات التي تنقلها الخيول، خيول البريد على وجه الخصوص، والتي تتعين «حمايتها من الهلاك» بتجنب إنهاكها. لقد حدد قانون مارس 1697 [331] أمتعة الفارس في «صندوق» واحد، وحدد قرار 3 يوليوز 1680 [332] حمولة الكراسي المحمولة على عجلتين في شخص واحد ومئة رطل، وحدد قرار 15 يناير 1698 المسافة القصوى المسموح بها في اليوم في اثنا عشر أو أربعة عشر فرسخا، حسب المناطق. إنه رهان متكرر: «المحافظة على الخيول [333]» وعلى «تعبها» المحتمل

الشغل والقانون

يجد مثل هذا الحساب للمسافات، وللأوقات أو للحركات، ببطء كبير، ما يعادله في عالم الشغل. ليس لأن كل تقويم كان غائبا: إذ إن قوانين الزراعة تشير، منذ القديم، إلى ما يمكن أن يحصده الحصاد أو يجمعه الرزام، في اليوم [334]. ومع ذلك، فإن الملاحظات ناقصة، وجزئية أيضًا، في عالم حيث يهيمن، بالدرجة الأولى، تعاقب الساعات والأيام

في البداية، تبدو المواجهات حول وقت العمل، و«تجاوزه» المحتمل محدودة للغاية أيضا في العالم الكلاسيكي. لم يذكر جان نيكولا تقريبا أيا منها في فرنسا بين 1661 و1789، رغم الأربعمائة واثنين وستين نزاعا التي تم تحليلها [335]. تهيمن

(331). « De l'établissement des relais de louage à la journée », règlement de mars 1699, انظر: Nicolas de La Mare, Traité de la police, op. cit., t. IV, p. 599.

(332). Id., arrêt du 3 juillet 1680, ibid., p. 605.

(333). « Des maîtres de poste, leur établissement », ibid., p. 571

(334). انظر أعلاه، ص. 33.

(335). انظر:

Jean Nicolas, La Rébellion française : mouvements populaires et conscience sociale, 1661-1789, Paris, Seuil, 2002.

صورة في تفسيرات الأطباء أنفسهم. «المهمة التي تستمر منذ طلوع الشمس إلى غروبها محددة بـ«لا وقت معين»، ويعمل فلاحون وحرفيون [...] دون توقف من الصباح حتى المساء»[336].

تكشف إكراهات الريف بشكل أفضل أيضا همّ العمل «المتواصل» في العصر الحديث. واستحضر كل من جان ليبو وشارل إستيان عمال الحقول لتهذيب «النبيل الريفي في القرن السادس عشر، بالتأكيد على ضرورة «الأعمال المتواصلة»[337]. وهناك شدة تحضر في قولهم: جعل «الناس لا يبقون دون عمل، وأن لا يضيعوا دقيقة واحدة من الوقت دون أن يقضوها في عمل ما»[338]. وأكثر من هذا، هناك وصفات قد ذُكرت لتجنب كل غفوة، مما يجعل المعالجة القوية للجسم أمرا بديهيا: وضع «عطر على أنف المريض مع خلّ قوي، أو بذور الشّذب [...] أو نعال بالية، أو ظلف حمار أو شعر إنسان»[339]. وسواء كان ذلك واقعيا أو متخيلا، فإن مطلب النضال ضد «أولئك الذين يعانون كثرة النوم» يصبح هنا مقبولا بوصفه أمرا طبيعيا.

ومع ذلك ظهرت مقاومات، وردود أفعال الفلاحين، واعتراض على الأعمال المرهقة على وجه الخصوص، في حين أن السادة الإقطاعيين، يبدو أنه لزمن طويل كانت «لديهم سلطة مطلقة» بإجبار «المستأجرين متى راق لهم ذلك». لقد وضعت قوانين في نهاية القرن الخامس عشر، وتوالت الاعتراضات. وفي سنة 1543 حصل سكان شالمازيل بقرار من برلمان باريس[340] على تخفيف هذه الأعمال

(336).Joseph du Chesne, *Le Pourtrait de la santé*, op. cit., p. 335.
(337).Charles Estienne et Jean Liebault, *L'Agriculture et maison rustique* (1564), Paris, 1582, p. 12.
(338).Ibid., p. 19.
(339).Ibid., p. 23.
(340). انظر:
Edme de La Poix de Fréminville, *La Pratique universelle pour la rénovation des terriers et des droits seigneuriaux*, Paris, 1748, t. II, p. 512.

المرهقة من اثني عشر في السنة إلى ستٌّ. ومهما يكن، فإن الوتيرة تظل مهمة؛ فلم تعد الأعمال المرهقة «حسب الإرادة وغير محددة[341]»، فأعمال سكان شوغي المرهقة تقلصت إلى عمل واحد في الشهر بـ «قرار نهائي» في 13 غشت 1675[342]، في حين أنها كانت بعدد عمل في الأسبوع. وتقلصت، كذلك، الأعمال المرهقة التي يطالب بها السيد دو شالان إلى اثني عشر في السنة، بعد الحكم الذي صدر في 9 يناير 1699[343] عن محكمة مونتبرسون. استعمل الفلاحون في جاسكوني وبيرغور وكويرسي تعبيرا موحيا إلى حد كبير، ولكنه نادر، إن لم نقل استثنائيا، عندما ثاروا ضد «السلطات» سنة 1576 تحت شعار «لقد أدركنا العيء[344]!»، «تعب» طبعا، لكنه غير واضح، وموحي لأنه شامل؛ حيث يختلط [...] تأثير الأعمال المرهقة، وتأثير تخريب المحاربين، وتأثير التقلبات الجوية، وتأثير الضرائب: ضرائب الملح، وضرائب الحرب، وضرائب أخرى.

يبقى هناك استبطان واسع، بل نحو للإكراهات الزمنية المفروضة على عمل المهن. ويبقى أيضا التركيز أولا على الأجور؛ مثل فئة البنائين في باريس في يونيو 1660، مطالبين بأجر جيد مقابل يوم عملهم: «ولكن تم سجنهم بقرار من المحكمة، وتم الاعتقاد بأن الخطر قد زال[345]». وتندلع أحيانا ردود الأفعال بخفض فلس واحد في «اليوم[346]». وهذا أيضا لا يخرج عن الاعتبارات المتعلقة بالمدة نفسها، «وإن، كما أكد جل المفكرين المركنتيليين، وجب أن تكون الأجور

---

(341) Ibid., p. 517
(342) Ibid., p. 513
(343) Ibid.

(344). انظر:

Jean-Marc Moriceau, La Mémoire des croquants , chroniques de la France des campagnes, 1435-1652, Paris, Tallandier, 2018, p. 288.

(345) Guy Patin, lettre du 8 juin 1660, voir Georges Mongrédien, La Vie quotidienne sous Louis XIV, Paris, Hachette, 1948, p. 136.

(346) Ibid.

منخفضة لإجبار العمال على أن يشتغلوا[347]. فمن شأن الحصول على مكسب مرتفع أن يضمن خفضا محتملا في الساعات التي يقضيها العامل في العمل. وسيذهب في هذا الاتجاه، إذن 32٪ من الصراعات التي وثقها جان نيكولا[348].

ومن جهه أخرى، لا يمكن للحداثة أن تفشل في الوصول إلى تدقيقات جديدة تتعلق أولا بتزايد قوانين العمل المتنوع: حراسات مشددة، وفحوصات منتظمة، حتى لو كانت مستقلة عن أية علاقة بالتعب. ويؤكد ذلك مصانع القرن السابع عشر، بوصفها مؤسسات تجمع لأول مرة «كثيرا من العمال ليعملوا نفس نوع العمل[349]». إن قواعدها صارمة، ويتم تنفيذها بواسطة «مراقبين- كشافين- عدادين» أنشئوا سنة 1629[350]، هدفهم هو: تعزيز الإنتاجية، ومهمهم هو فحص حالة المنتوجات، وتقليل ألم ومعاناة «المُسيج». وما يكشفه قانون 1669 أكثر من أي شيء آخر عن مصانع النسيج، يقتصر على «طول الأقمشة وعرضها وجودتها، والصروج وأنسجة أخرى من الصوف والخيط[351]». تُسجَّ «موصوف بدقة[352]»، عدد الخيوط، ومزج اللحمات، وليونة الأقمشة، ويبقى التوقع تقنيا. ويظل دور المفتشين أو «الحراس المحلفين» تميز احترام أو عدم احترام «القانون المذكور[353]». وهكذا يبقى كل تعب محتمل في الظل. ويؤكد بيير جوبير ذلك من خلال النظر في الشهادات عن نساجي بوفيه. «إن ما ينبغي التأكيد عليه في عمل

(347). Corine Maitte et Didier Terrier, « Conflits et résistances autour du temps de travail avant l'industrialisation », Temporalités, op. cit.

(348). Jean Nicolas, cité par Corine Maitte et Didier Terrier, ibid

(349). Antoine Furetière, Dictionnaire universel, op. cit., art. « Manufacture ».

(350) انظر

Michel Vergé-Franceschi, Colbert, la politique du bon sens, Paris, Payot, « Petite Bibliothèque », 2003, p. 347

(351). Règlements et statuts généraux pour les longueurs, largeurs et qualités des draps, serges et autres étoffes de laine et de fil », Paris, août 1668, Recueil des règlements généraux et particuliers concernant les manufactures du royaume, Paris, 1730.

(352). Germain Martin, La Grande Industrie sous le règne de Louis XIV, Paris, Arthur Rousseau, 1899, p. 164.

(353). Ibid.

عمال صوف بوفيه ليس طول يوم العمل ولا وضعية الورشات السيئة للغاية؛ فهذه الظروف ترجد تقريبا في كل مكان، ولا يبدو أنها كانت مثار حتجاج من الذين عانوا منها، والذين، بدون شك، لم يتصوروا ظروفا أخرى(354)». الكثير من بذل الحركات، وبشكل أوسع بذل الجسد الذي يكون حظه المحقير. مجهودات بدون وزن، واستهارات يتم تجاهلها.

إشارة مهمة وإن كانت غير شائعة مُنحت «استراحة» لِلَبّادي مدينة أميان سنة 1666، الذين عليهم دعس الأقمشة لمدة طويلة في مزيج من البول والماء لتنظيفها جيدا من الدسم، وتليينها وشدّها. لقد أصبحت مهمتهم مقننة من الناحية الكمية: «فلا يمكن لأرباب اللباده إنجار أكثر من أربع غسلات في اليوم، دون تجديد العمال، حتى يتركوهم يستريحون وإلا أدوا غرامة عشرين صولا(355)». مثال نادر حيث يتحكم التعب «تنظيميا» في وتيرة الأعمال وتسلسلها، في حين أن المفتشين، ويجب أن نكررها، لا يبالون كثيرا إلا بـ «الجودة المطلوبة(356)» للأعمال المنتجة.

الشغل وبداية «الميكانيكا»

إن الظهور البطيء للانشغالات الميكانيكية مع القرن السادس عشر، أدخل في المقابل مسائل «نظرية»، كانت إلى ذلك الوقت مهملة. ولم يكن الخيال دائما غائبا، كما أظهر ذلك سيمون ديليكس سنة 1623 مقارنا بين المشي والركض، مرجعا

(354).Pierre Goubert, Cent Mille Provinciaux au XVII e siècle Beauvais et le Beauvaisis de 1600 à 1730, Paris, Flammarion, 1968, p. 334.

(355).« Status et réglements sayeteurs, hautelissiers, houpiers, foulons et autres ouvriers faisant partie de la manufacture d'Amiens », Paris, 23 août 1666, art. 132, Recueil des réglements généraux et particuliers concernant les manufactures du royaume, op. cit., p. 247.

(356). انظر.

« Attribution aux maires et échevins des villes [...] concernant les manufactures », août 1669, art. 1, Recueil des réglements généraux et particuliers concernant les manufactures du royaume, op. cit., p. 1

التعب الناتج عن الثاني إلى «أن الجسم دائما في الهواء، دون أن يستريح أو أن يقف على رجليه[357]». ملاحظة، بكل تأكيد، أقل تزيانية من كونها بديهية ومحسوية، وبعيدة عن الواقع وتأثيراته، متغاضية عن انقباض العضلات والاندفاعات.

مع ذلك، تبقى إرادة الموضوعية متزايدة.

لقد كان جيروم كاردان من أوائل مَن حاولوا سنة 1550 حساب الفرق بين التعب الناتج عن التنقل في السهل والتعب الناتج عن التنقل في الجبل: «يقوم الإنسان بخمسمائة خطوة في الصعود، بما يعادل أربعة آلاف خطوة ذهابا إلى وسط البلاد[358]». حساب دقيق على ما يظهر، مختزلا في مقارنة عددية، مع بقائه أيضا غير واضح بما يكفي، ولكن كاردان يقر حقيقة أن «الجسم في السهل لا يكون مرتفعا بأي حال من الأحوال»، بينما في الجبل «يجب أن يرتفع بقدر ارتفاع الدرجات[359]». من هنا الاهتمام غير المسبوق بالأعضاء، وبالبطء، وبالخطوات. وقد تساءل الرسامون، أيضا، بعد ليونارد دافينشي[360]، عن الاختلافات بين وضعيات الجهد، وتأثيرها على الإسناديات، والخطوط الجسدية، والانحناء، والتأثير على الأشياء. من هنا ملاحظة أندري فيليبيان في نصائحه في منتصف القرن السابع عشر: «عندما نرسم مثل هذه الأفعال، يجب أن يظهر الجهد أكبر بكثير، إلى درجة أن جزء الجسد الذي ينهمك في الجر أو في الدفع يكون بعيدا عن مركز التوازن[361]».

(357).Scipion Dupleix, La Curiosité naturelle rédigée en questions selon l'ordre alphabétique, op. cit., p. 52.
(358).Jérôme Cardan, De la subtilité et subtiles inventions (1re éd. Latine 1550), Paris, 1566, p. 428.
(359).Ibid.
(360).Léonard de Vinci, Traité de la peinture (1651), Paris, 1796, « Du mouvement de l'homme », p. 152.
(361).André Félibien, Entretiens sur les vies et sur les ouvrages des plus excellens peintres anciens et modernes (1666), Paris, 1725, t. II, p. 540.

من هنا أيضا تعمق العالم عندما أسست ميكانيكا القرن السابع عشر «علم الآلات»، فستكشف القوى أو الرافعات، أو المحاور، أو التصاميم. إن العالم القديم عالم «حوالي» يتزلق إلى كثير من الشتات. ويمكن أيضا للعالم الأرضي مقارنة مع عالم السماء أن يتنظم ويُحسب. إنه تحول كبير حيث لم تعد الكواكب هي المثال الوحيد للدقة، والاتجاهات اليومية تصبح خاضعة للهندسة. وتختلف الراحة البدنية حسب المحاور المُختارة. ويمكن للقوانين أن توحد الأشياء والأمكنة. لقد أكد غاليلي أن تعب نزول السلم (وليس فقط الصعود) مرتبط بالحركة الوحيدة للعضلة التي تحرك الهيكل العظمي[362]. بعد بضعة عقود، أشار ألفونسو بوريلي وهو يُعرّف «مركز ثقل» الجسم، وربطه هذه المرة بقياسات، إلى كون الثقل المحمول عموديا على هذا المركز يكون أقل إتعابا من الثقل المحمول خارجه[363]. وفي سنة 1680، أشار دانيال توفري، وهو يتمسك بفئات الرافعات بتمييزها، إلى كون الشيء الذي يمسك على طول الذراع يكون أكثر إتعابا من الشيء الذي يمسك والذراع مثني[364]. أو أخيرا فيليب دو لاهير، عضو الأكاديمية الملكية للعلوم، وهو يُقوّم فعالية الرافعات والملفافات، عبر حساب محيطاتها وأطوالها، بيّن الخفض المحتمل للقوى البدنية المستعملة بالعمل بمثل هذه الأبعاد. إن الرهان في الواقع هو اقتصاد الجهد، جهد الاستهلاك المرتبط بالعضلة. وتشير أشكال الآلات الضخمة إلى أن الناس، بوزن جسدهم وحده، يوفرون تعبهم من خلال تحريك الدواليب المسننة التي تدير البكرات. وتشير الرافعات العريضة إلى أن الأشخاص يدفعون وهم في وضعية الوقوف للتحسين من فاعليتها. وتشير المسننات ذات الأقطار المتوالية، والمدارات السميكة الملائمة إلى اقتصاد في القوة البدنية المطلوبة: «كلما كان الحبل أكثر سُمكا رحيط الدائرة أو الأسطوانة صغير،

(362).Galileo Galilei, Le Opere (XVIIe siècle), Milan, 1811, t. 11, p. 564.

(363).Giovanni Alfonso Borelli, De motu animalium, Rome, 1680, p. 293.

(364).Daniel Tauvry, Nouvelle Anatomie raisonnée où l'on explique les usages de la structure du corps de l'homme (1680), Paris, 1698, p. 395.

كلما زادت القوة اللازمة لتحرك الثقل أو لتحمله[365]. هذا هو رد لاهير عن الفرق بين الرهافة والسُّمك، في جوابه عن أسئلة جاك إنجلترا الثاني، عندما زار باريس سنة 1690، واستفهم عن أفضل «استعمال للقوى» في الروافع الرحوية[366]. خطوة مهمة تمت البرهنة عليها بما يكفي لترى فيها هيلين دافوس ديوغو نشأة الشُّغلة[367]. وهكذا تمكنن الجسد مع العالم الحديث؛ زوايا واتجاهات يتم عدُّها، ونشأت نظريات، وتراتبت مجهودات، وتمايزت نواقل ووضعيات، ومع ذلك، فمن الصعب تقويم تأثيرها على عالم الشغل، رغم انتشار الرفّاعات، والرافعات البحرية، والتحريك الآلي للأوزان الثقيلة. لوحات دقيقة وكثيرة لفنانين رسموا هندسة شبه مجردة أكثر منها هندسة ورشات. ويظل الناس وأعضاؤهم في الانزواء. وتعمل المدارات والمحركات على تحريك الأشياء أكثر من العضلات المستعملة. إن «المحرك البشري» نفسه، لم يستحضر إلا قليلاً، ولم يتم توضيحه إلا قليلا، بخلاف الآلات التي ذُكرت وتم توضيحها. ومع كل هذا، لقد ولدت هنا ثقافة أكثر فيزيائية، ومرقّمة أكثر، ومُصممة أكثر منها مُطبقة، والتي سرعان ما يقود تأثيرها إلى تقويمات يعاد التفكير فيها بشكل واسع.

الشغل وبداية تقويم علمي

هناك سياق يساعد على ذلك: السياسة الإنتاجية للكولبرتية، مثل الإرادة في تخفيض الإنفاقات الملكية. وأكثر من ذلك، فإن المشاريع الضخمة، المنجزة في النصف الثاني من القرن السابع عشر توضح هذا السياق، مثل محاولة تحويل مياه نهر أور نواحي مانترنون سنة 1686، لتوجيهها إلى فيرساي، بواسطة «قناة مياه عظيمة»، ونقل كتل ضخمة من التراب، وإعادة تشكيل الوديان، وتثبيت قواعد

(365).Philippe de La Hire, Traité de mécanique (1695), Paris, 1729, p. 142.

(366). انظر:

Hélène Daffos-Diogo, « Philippe de La Hire (1640-1718), précurseur de l'ergonomie », communication présentée à la séance du 28 mars 1987 de la Société française d'histoire de la médecine.

(367).Ibid.

الجسور. إن الالتماس الذي وجهه لوفوا إلى فوبان، الذي تُعد خبرته حجة، دقيق، ومقرم، ومحسوب: «يجب قياس سبعمائة ألف إلى ثمانمائة ألف قامة مكعبة من التراب، وسيسعدني إرفاق بيان بعدد القوات اللازمة لإنجاز هذا النقل للتراب في ثلاث سنوات، مع الأخذ في الحسبان أننا سنشرع في العمل يوم لأول من أبريل (نيسان)، ونتوقف في الخامس عشر من نونبر (تشرين الثاني) من كل سنة[368]».

كل لاختلاف بين نظم العصر الوسيط، كما الحال في ملتمس ريشلو قبل عدة عقود سنة 1638، والذي يرض على جيرالاته تكثيف أعمال الدعم في ساحات كاسال وبينيرول، دون أن يعرض أي توقع للأعمال «أنا في غاية الارتياح لقيامكم بتحصين الساحات، فمهما كانت الأموال المطلوبة لهذا الأمر، فلن تعوزكم ولن تؤسفكم[369]».

بالنسبة إلى لوفوا، تنضاف مسألة الرواتب، وتقديراتها الأولية، فالحفارون «يتقاضون على قامة مكعبة من حمولة التراب[370]». جواب شبه مستحيل، بل تقريبي إلى حد كبير، لكن نية الوزير الاقتراب من الأرقام: مجهود العامل وثمنه، نتيجة العمل ومدته. وأيضا تجنب للانحرافات: إنفاق الدولة المفرط، والإنهاك البدني غير المفيد؛ ومن هنا طلبه الملح للتقويم، ومطالبته بالكشوفات المنتظمة – «بيانات كل أسبوعين[371]» – عن عدد العمال المُشغَّلين، وعن الكميات المنقولة، وعن النفقات المصروفة. وتبدأ الملاحظات والفحوصات، وتتراكم الأرقام والتقارير. وقد علق عليها فوبان. وتسود بلبلة مفادها: تتفاوت النتائج حسب المجموعات والورشات، والإنجازات غير منتظمة، وكذلك الكلفة. والأخطر، أن مشروع وادي أور يتفكك بفعل ضخامته، وعدم التشجيع، ووجود الأوبئة

(368).Louvois, lettre à Vauban, 7 février 1685, citée par Camille Rousset, Histoire de Louvois et de son administration politique et militaire, Paris, 1863, t. III, p. 389

(369).Richelieu, lettre au cardinal de La Valette (1638), Lettres du cardinal duc de Richelieu, Paris, 1696, t. I, p. 178.

(370).Michèle Virol, « La recherche d'une norme de productivité », op. cit.

(371).Ibid.

لقد توقفت الأشغال وتم التخلي عنها سنة 1688. ويرى فيه سان سيمون تأثير التصعيدات الخطيرة القادمة من التربة، مستحضرا «الموتى الذي قضوا بسبب العمل الشاق، وأكثر من ذلك بسبب تصاعد كثرة الأتربة التي تم نقلها[372]». ويرى فوبان، بالأحرى، ضرورة العودة من جديد إلى الأرقام، واختبار تجارب غير مسبوقة بالكامل، عن عقلنة المجهودات، وتقسيم الأعمال: وضع إجراء للتقويم عبر الملاحظة والحساب غير معروفة إلى ذلك الوقت.

وهكذا تطرح الأسئلة التالية نفسها. كيف يتم توحيد المقاييس؟ كيف يتم جعل أفضل النتائج تتكرر، بعيدا عن التعب المفرط؟ إن أوراش الألزاس سنة 1688 هي مناسبة لاكتشاف الخبرات من جديد: امتدادها ضخم، ورهانها كبير، وغايتها إستراتيجية بشكل مباشر. إن تدمير بلاتينا وإرادة التوسع الفرنسي، ومن جهة أخرى تهديد الإمبراطوريين، يعزز الأهمية العسكرية للدفاعات عن الشرق، مثل الحاجة انتهائها إن مونتروبال، وفور-لويس، وبيلفور، وفالسبور، وكثير من المدن المحصنة التي تمت تهيئتها حديثا، تحت إشراف فوبان، ومناسبات كثير لإتمام المشروع الذي بدأ في مانتنون: البحث عن معيار معقول للإنتاجية [...]، وتقويم «مقدار العمل المعقول الذي يمكن للشخص أن ينجزه في اليوم»[373]؛ مما يوحد التكاليف، ويسمح للقوى البدنية بأن تتجدد. ويفصل مشروع الألزاس مثل هذا الهدف، بانحصاره في الحفر، والحركات المتكررة، والأتربة المنقولة. لا وجود لمرجع ميكانيكي، دون شك، ولا وجود لرقم مسبق، لكن فوبان يسعى إلى الحصول عليها من خلال فحص متوسط الإنجازات مع تبسيط لعد: تسجيل عدد القالات المنجزة، ومقدار التراب الذي تم حفره كل هذا قام به رجل له «قوة دون المتوسط» مفروض فيه أن يحافظ على هذا الجهد بانتظام. لقد قدم

(372).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques, op. cit., t. XIII, p. 88.
(373).Michèle Virol, «La recherche d'une norme de productivité», op. cit., p. 1633.

المهندس في خروزي دو ريشران معطيات انطلاقا من أشغال فور سان لوي؛ وهو إجراء لم تكن دقته الشديدة حتى ذلك الوقت معروفة.

إن مارشال فرنسا المستقبلي وهو يقارن بين المقادير، أكد بأنه يلزم «ما بين 220 و233 نقالة لنقل قامة مكعبة من التربة [7.39 مترا مكعبا]»[374]. وبمقارنة هذه النتائج بمدة إنجازها، أكد أيضا أنه يلزم إحدى عشرة ساعة، أو يوم لكي يستطيع الشخص حفر قامتين مكعبتين من «التربة الفضفاضة»، وإحدى عشرة ساعة ليدفع نقالة (مع الذهاب والإياب) على مسافة 30 كيلومترا في السهل، ومسافة 19.5 كيلومتر في الجبل. ارتسم معيار رقمي يخدم هدفا مزدوجا. تحديد الأجور وتقدير الأرباح. ويغض النظر عن الجانب الدقيق والصارم لمثل هذه القياسات: إن الإنجازات «المرتقبة» وسيرها إذن، سيكون شيئا مقررا. وينضاف تمييز، محسوب أيضا، حسب مقاومة وصلابة الأرض التي تم تقليبها أو عمق الحفر المطلوب، إلى درجة تعبئة عمال إضافيين في حالة «تصلب» التربة. وأخيرا، تمييز آخر مقارنة بأوقات الراحة بالفعالية المتوقعة[375]. يدعي فوبان، ولأول مرة وضع معايير موحدة لأعمال الحفر، وحساب أفضل نتيجة يمكن الحصول عليها دون إنهاك العمال: «أعتقد أنه لايزال بالإمكان تنظيم العمل كالتالي: البدء، على سبيل المثال، على الساعة الخامسة صباحا والعمل حتى الساعة الثامنة، ومغادرته من الساعة الثامنة إلى الساعة التاسعة، واستئنافه من التاسعة إلى الساعة الثانية عشرة، ثم التوقف حتى الساعة الثانية، واستئنافه فيما بعد ومواصلته حتى الساعة السابعة مساء؛ مما يجعل، في اليوم، عشر ساعات عمل وثلاث ساعات

(374).Ibid., p. 1634.

(375).Sébastien Le Prestre de Vauban, « Règlement fait en Alsace pour le prix que les entrepreneurs doivent payer aux soldats employés aux transports et remuement des terres de la fortification des places de Sa Majesté » (1690), in Les Oisivetés de Monsieur de Vauban, op. cit., p. 1 642.

راحة[376]. توزيع بالغ الأهمية الذي فرضته المراسيم إلى حدود ذلك الوقت: حضور «من الرابعة صباحا إلى السادسة مساء، أي أربع عشرة ساعة[377]»، دون الإشارة إلى فسحة، وبالغ الأهمية التميز بين عمل الصيف وعمل الشتاء؛ مما أدى إلى تغيير هذا الأخير من عشر ساعات إلى سبع ساعات فعلية. لقد زاد هذا الإجراء القياس والدقة هناك؛ حيث كان يسود الحدس والتقريب، إنه «رائد» أيضا، يقسم بشكل واضح للغاية، ما يعدُّ محتملا، وما يُعدُّ متجاوزا للحد:

بالنسبة إلى شهور فصل الشتاء الأربعة، يمكن حذف وجبات الغذاء والوجبات الخفيفة وتقليص وقت العمل إلى ساعات خلالها أنا مقتنع بأن العمال لن يقوموا بأكثر من نصف يوم صيفي بعمل البرد وسوء الحالة الجوية، أعتقد أنه لا يجب الجندي أكثر من مهمته [...] إن دفعهم للمزيد، لهو مجاوزة للحد، ودفعهم إلى أن يصيروا مرضى، وأن لا يستطيعوا الصمود طويلا[378].

نتيجة غير مسبوقة، تشير إلى الإمكانات، وحدودها، وكذلك شرعيتها. ووهم رقمي ينظم الأعمال، ومدتها، والتعب الذي يتم توفيره. تبقى أن مثل هذه العملية محدودة، ومركزة على ممارسة واحدة، تاركة في الظل الانتقال إلى أنشطة أخرى. إن هذه العملية تجريبية أيضا، وتترك في الظل، بنفس القدر، كثيرا من الفروقات بين حوادث الميادين، والأمكنة، وانحداراتها، وانحرافاتها، وفي آخر المطاف صامتة على ما هو «جهد متوسط». إنها تكشف، بدون شك، عن انشحان جديد بتكميم العمل من جميع جهاته، وفي الوقت نفسه، تكشف عن صعوبة التغلب على المتغيرات التي يمكن أن تكون موضوعا لها. من هنا بداهة «النقص» والضبط المستحيل للمعطيات: حضور التردد المحتوم، وضعف الحساب المستمر رغم إرادة تطبيقه. لقد أحدث فوبان قطيعة بمطلب الدقة مع المحافظة على

(376).Sébastien Le Prestre de Vauban, « Instruction pour servir au règlement du transport et remuement des terres » (1697), in Les Oisivetés de Monsieur de Vauban, op. cit., p. 1656.
(377).Ibid.
(378).Ibid.

الاستمرارية في اللجوء إلى الـ «تخمين». وليس التجديد أقل تاريخية. لقد حول رجل القلاع فضاءات الحضر الشاسعة إلى فضاءات للمراقبة والإحصاء. لم تتم دراسة العمل بهذه الطريقة أبدا.

الفصل العاشر

تنوع التأثيرات

درجات جديدة، وفئات جديدة، ومحاولات لبدء الحساب؛ فعالم التعب يتغير مع الحداثة. لقد أصبح ملاحظا أكثر، بل مُقيّماً أكثر. كما أنه يتحول مع الاهتمام الموجه للتأثيرات والآثار، وإلى الأمراض المحتملة. إن جِدّة الإجراءات «الكلاسيكية» مازال تهتم بملاحظة النتائج. إن مجموع الاضطرابات المتيقية متسعة أيضا، وتزداد أهميتها كما تزداد شدتها

التموجات «المؤلمة»

تكتسي «الآثار» الباقية على الجسد أهمية غير مسبوقة، تلك الآثار التي تظهر بعد العمل وإنهاكه المؤقت على وجه الخصوص. إن بعض شهادات القرن السابع عشر، النادرة ولكنها مهمة، تركز على التشنجات التي تلحق الأعضاء بعد مجهود طويل، وعلى المعاناة المتكررة، وعلى الانزعاجات المبهمة. لقد حددت، ولأول مرة، اضطرابات مرتبطة بانعدام التعود، وبالصدمة الناتجة عن غياب الألفة. لقد أشارت إليها بـ «الآلام»، وبالضيق، وبالتصلبات. ويعد السفر الباريسي لشابين هولنديين في منتصف القرن لسابع عشر، مثالا واضحا. فالشابان معا يصمان نفسيهما وهما يزوران أكاديميات الفروسية، ويضاعفان الحركات غير المتعودين عليها، قبل ذكر التأثيرات غير المتوقعة، والفتور، والأوجاع الموضعية:

نمتطي كل يوم ثلاثة أحصنة، دون احتساب حصان الحلق، إنه تمرين صعب للغاية بحيث لم نقدر على معاودته مرة أخرى حتى يزول ألم فخذينا، في بداية الأمر لم نكن نقدر على المشي إلا بصعوبة، أو يخفف عنا الألم، وأخبرنا أحد العاملين في

الأكاديمية بأننا سنعاني من ذلك لمدة خمسة عشر يوما، مثلما جربنا ذلك بالفعل[379].

لا توجد إلى حد الآن دراسة خاصة أو علمية عن هذه الأعراض، غير الواضحة في الواقع، ولا توجد استكشافات، ولكن هناك إدراك غير مسبوق منحها مكانة لم تكن لها. حتى إن فرونسوا دو ربيان قد نسب موت الكثير من الجنود بين ميتز ولونيفيل سنة 1551 إلى المجهود العنيف والمفروض بعد خمول «طويل»: تحَلُّل كبير للغاية عن راحتهم، ومباهجهم، لم يهيئهم لمسيرة كان عليهم أن «يستعدوا لها طويلا»[380]. لذلك فالتلميح الواعد إلى التأثيرات الملموسة لانعدام التكيف، وتصدعات الجسد وضعفه بعد مجهودات غير معد لها مسبقا، أمور تفرض نفسها.

حصرية «المرضي»

يبدو، على نطاق واسع أن تداعيات كل إنهاك هي قبل كل شيء موضع مساءلة. وتظهر صلات، وتتسع تفسيرات كثيرة وغير متجانسة. ليس لأن صورة الجسد المكون من سوائل، في أوروبا الكلاسيكية، قد تغيرت، وليس لأن صورة تسرب الأخلاط الناتج عن التعب قد تغيرت، ولكنه الانتباه الأكثر فطنة، حتى لو كان ذاتيا بشكل كبير، هو الذي نوّع التأثيرات.

وقائع متعددة ومتباينة تم الاحتفاظ بها- فُسرت وفاة ملكة بانار، في سنة 1572، بسبب المجهودات الناتجة عن «العمل الخارق»، والتحضير لحفل زفاف ابنها، وفُسر وجع أذنين هنري الثالث سنة 1580 بإفراط بدني متنوع: «لقد أمضى

(379).Philippe de Villers, Journal de voyage de deux jeunes Hollandais à Paris en 1656-1658, publié par Armand-Prospère Faugère. Paris, Honoré Champion. 1899, p. 84.

(380).François de Rabutin, Commentaires des dernières guerres en la Gaule Belgique (1551-1559), in Nouvelle Collection des mémoires pour servir à l'histoire de France, op. cit., 2 e série, t. VII, p. 412.

ليال كاملة، بخفي وبطاري، وأفعال أخرى غير موافقة لصحته[381]، وأيضا تم تفسير «رعاف» دوق يوري سنة 1698، بازدياد «التسخين» الناتج عن «صيد الحجل»[382]. أعراض مكشوفة، وغير متوقعة، والتي ظل منطقها مرتبطا بتمثل بعض فوران الأخلاط. وفي المقابل، يزداد التنبُّه إلى هذه الهيجانات للأخلاط، الخطيرة بقدر ما هي مفاجئة. «فالقطان» من بين أمراض أخرى مثال شبه رمزي، لم يكن بالنسبة إلى جورجيو باغليفي سوى دفق لـ «الدم المتشكب بين العضلات»[383] بعد جهد مفرط. وينشأ خطر إصابي في مثل هذه المقاربات: خطر المشروب البارد الذي يتم بتناوله على الأخلاط المساة «هائجة». وتتعدد الروايات عن «الالتهابات الرئوية» أو عن «الدم المجمد الذي يتخثر فجأة» عند «الذين شربوا بسرعة ماء باردا بعد تمرين عنيف»[384]. وتتحدث رواية لازار ريفيير المطولة في سنة 1646، في حد ذاتها، عن التيه الطبي النسبي أمام «الاضطرابات» بالتزامن مع التساؤله:

إن السيد بوتي، مواطن من مونبليه، يبلغ من العمر خمسين سنة، ذو مزاج سوداوي؛ حيث كان غارقا في الأعمال والهموم، ثم ظهرت عليه أعراض كثيرة كشفت عن مالنخوليا وسواسية، وكان عنده ورم تحت الترقوة اليمنى بحجم بيضة، رخو وله نفس لون باقي الجسد الذي كان فيه نبضان كثير، تم تشخيصه أنه ورم وعائي عضال[385].

---

(381).Ibid., p. 119.

(382).Joseph Sevin de Quincy, Mémoires, op. cit., t. I, p. 83.

(383).Giorgio Baglivi, Opera omnia, medico practica et anatomica, Lugduni, 1710, p. 116. Voir aussi la citation d'Étienne Tourtelle, Éléments de médecine théorique et pratique, Strasbourg, an VII, t. II, p. 306.

(384).Michael Ernst Ettmüller, Pratique générale de médecine et de tout le corps humain (1685), Paris, 1691, p. 292.

(385).Lazare Rivière, Observationes medicae et curationes insignes, Paris, 1646, trad. François Deboze, Lyon, 1688, obs. 34, centurie IV, p. 448.

أعضاء أخرى أيضا أكثر استهدافا: القلب الذي «يتهيج بشكل كبير بسبب العمل المفرط، وبالحرارة، وبالاستحمام، وبالممارسات الجنسية، وبالفجور، وباستهلاك الخمور القوية، وبسبب الغضب[386]»؛ والصدر عرضة للالتهابات بسبب «الاستحمام، والعمل، والغيظ[387]»؛ والدماغ مهدد بـ «حرارة الشمس، والعمل المفرط، وبكل ما من شأنه أن يثير أو يسخن الأخلاط[388]». وهكذا تـرد مجموعة من الأسباب تدين الحرارة، وتلتقي في نفس خطورة الحمام، والتعب، والإفراط في الممارسة الجنسية.

وتبقى مجهودات العمال وتداعياتها، التي نادرا ما يتم ذكرها، أقل قيمة، ولكن تم الكشف عنها في الأدب الذي هو في الواقع طبي في المقام الأول. لقد وصف جورجيوس أجريكولا، في القرن السادس عشر، وهو طبيب من جواشيمستال في بوهيميا، ومراقب يقظ للمناجم المحلية، «إصابات» و«معاناة» عمال المناجم: «أشخاص خشنون تعودوا على العمل منذ طفولتهم[389]». وهكذا تتغلب «الأضرار» المذكورة على التعب: ربو وتهالك الرئتين، وقروح، وتهيج العيون، والغرق، والسقوط، وحتى وجود عفاريت مدمرة تخالط الدهاليز البعيدة. لم يتغير الاهتمام، عندما ركز فرونسوا رانشان، بعد بضعة عقود على «إصابات» و«معاناة» «أولئك الذين يسيرون الموقع»؛ يبقى فقط المرض: «تآكلات الأرداف المزعجة»، و«حرقان البول»، و«سخونة الدم»، و«تشتت الذهن» أو حتى اضطرابات الرؤية المستمرة الناتجة عن تراكم الاهتزازات، عدا التآكل المحتمل بسبب بعض الجهد المطول[390]. وأخيرا نفس التركيز، ونفس الاختيار، عندما قام برنادينو

---

(386).Jean Fernel, La Pathologie (1544), Paris, 1661, p. 389

(387).Ibid., p. 378.

(388).Ibid., p. 320.

(389).Georgius Agricola, De re metallica, 1541, cité par Michel Angel, Mines et fonderies au XVI e siècle, Paris, Les Belles Lettres, 1989, p. 50.

(390).François Ranchin, Traité des maladies et accidents qui arrivent à ceux qui courent la poste, Lyon, 1640, p. 656-658.

رامازيني بتجميع الاضطرابات، التي تسببها المهن، في نهاية العصر الكلاسيكي[391] في مجموعة كبيرة، بل مجموعة هائلة. إن الرؤية موجهة، والاختيار مدبر لبحث الأضرار الظاهرة والمفرطة والخارقة. فالعمال الـ «واقفون»، النجارون، أو البناؤون، أو عمال الحديد، أو النحاتون هم عرضة «للدوالي والقروح» الناجمة عن تباطؤ «حركة الدم الشرياني والوريدي»[392]. ويكون عمال المناجم عرضة لاضطراب «البنية الجسدية» الناتج عن استنشاق «أبخرة المعادن»، ويكون المتسابقون الذين كانوا في القرن السابع عشر، يتقدمون العربات وخيول النبلاء، عرضة لتلف أعضاء التنفس بسبب «تسخين السباق». وفي الأخير، يكون البستانيون عرضة لـ «السقام، والاستسقاء»[393] بسبب رطوبة حدائقهم الدائمة. ترتبط الأضرار، خصوصا الواضحة للعيان، تلك المرتبطة مباشرة بالمهنة و«خصوصياتها»، علاوة عن حالات الضعف العام، وتدهور القدرة، وذهاب القوى. إنه تجاهل واضح لأشكال تحديد التعب نفسه، بقدر ما هو تجاهل للمجهود الزمني الناجم عن وضعية العمل ذاتها.

اضطرابات التجفيف

يبقى الدور البارز، والمنظم والأكثر تأكيدا على الدوام هو لأخلاط الجسم، والفقدان، والجفاف. مثل فرونسوا بيرنيه الذي تقدم في بلاد المغول في سنوات 1650: «منذ ثمانية أو تسعة أيام من المشي، بدد العرق كل هذه الأخلاط. لقد أصبح جسدي غربالا حقيقيا، جافا ويابسا، فما أكاد أضع في معدتي بنتة من الماء حتى أراها تخرج مثل الندى من كل أعضائي وحتى أطراف الأصابع. أظن أنني شربت اليوم عشر بنتات[394]». صورة قصوى لبعض تسرب الأخلاط المستمر.

---

(391). انظر

Bernardino Ramazzini. Traité des maladies des artisans, op. cit.

(392). Ibid., p. 112.

(393). Ibid., p. 132.

(394). Un libertin dans l'Inde moghole - les voyages de François Bernier, 1656-1669, Paris, Chandeigne, 2008, p. 400.

أو مثل روبير شال الذي ركب الخطر إلى «جزر الهند الشرقية» في نهاية القرن السابع عشر: «الحرارة تعرقل التنفس، والتنفس يحرق الأحشاء[395]»، في حين أن «المال يسعف في شراء المرطبات من أول يابسة[396]».

ما تظهره أيضا انشغالات السيدة دو سفيني يضاعف أسباب التسخين، وبالتالي تأثير «النقص» والانحطاط، علامات على هذه الحساسية المتزايدة عند النخبة على وجه الخصوص، تلك التي تطل الماركيزة أفضل شاهدة عليها: شمس بروفانس التي حولت غرفة السيدة غرينان «إلى فرن[397]»، وألعاب الشطرنج «التي تؤلم في الترفيه[398]»، والمشروبات الساخنة، ونقص الطعم، والوضع المائل أثناء الكتابة الذي «يهلك الصدر[399]»، وهواء أفينيون الذي «يلهب الحنجرة[400]»، وريح غرينان التي «تمنع النوم[401]»، واهتياج الأيام العادية[402] إنه مثال رئيس؛ حيث تتضاعف المواقف، والأعمال، والوضعيات، المفروض فيها أن تثير جفافا ويبسا داخليين، على الرغم من عدم وجود مؤشر موضوعي يؤكد ذلك، وعلى الرغم أيضا من كون الشهادات الشائعة لا تركز عليها، وتظل فقط الإحالة الفيزيائية التي تفصل السوائل والحرارة. إنها في النهاية صورة تركيبية حيث يلتقي «الحرق»، و«الاستهلاك»، و«الاندثار»: «يبدو لي أنك لم تنم ولم تأكل، ودمك ساخن، وأنك تستهلك نفسك، وتضعف عينيك وروحك[403]».

---

(395).Robert Challe, Journal d'un voyage fait aux Indes orientales, 1690-1691, Paris, Mercure de France, 1979, p. 165

(396).Ibid., p. 192.

(397).Mme de Sévigné, lettre du 18 juin 1677, Correspondance, op. cit., t. II, p. 470.

(398).Id., lettre du 23 avril 1690, ibid., t. III, p. 869.

(399).Id., lettre du 5 novembre 1684, ibid., p. 152.

(400).Id., lettre du 13 juillet 1689, ibid., p. 640.

(401).Id., lettre du 19 avril 1689, ibid., p. 580

(402).Id., lettre du 30 octobre 1689, ibid., p. 740.

(403).Id., lettre du 6 octobre 1680, ibid., p. 33.

وأخيرا، ينضاف الاعتراف الجنسي، الذي تم ذكره كثيرا مع الحداثة: فتعب الجسد «الشديد» يُعدُّ بأنه يؤدي إلى العجز الجنسي مثل المجهود المفرط الذي قام به أغريبا الأوبيني ليلحق بعشيقته سنة 1572، مجروح، ومنهك، بعد «اجتياز اثنين وعشرين فرسخا»، فوصل «بلا مشاعر، وبلا نظر، وبلا قوة[404]» مهجورا «بين أحضان» هذه الأخيرة.

وبشكل أوسع، إنها تأثيرات الاستهلاك الجنسي التي تم استحضارها: حكايات الإنهاك التي تم التغلب عليها بمشقة، «مرق ويضتان طازجتان[405]» تؤخذ بعد «جهود» الليل؛ اهتمامات متنوعة على وجه الخصوص: من الطعام إلى الراحة، ومن العطر إلى الخمر الجيد، ومن المربى إلى الملبسات، مفروض فيها جميعها ترميم الجسد «الواهن[406]». يبدو أن هذا التعب، بالرغم من كونه قليل التحديد، وقليل التفصيل، فإنه كبير للغاية. لقد وصف طاليمان دي ريو السيدة دو شامبري التي قادت زوجها إلى أبواب الموت: «كانت جميلة وفاتنة؛ ويقال إنها كانت دائما متنقلة ولا تكاد تستقر[407]». تفسير مطابق لتفسير وفاة لويس الثاني عشر في يناير 1515. لقد تزوج لويس، البالغ من العمر اثنين وخمسين سنة، للمرة الثانية في 9 أكتوبر 1514 في أبيفيل من ماري إنجلترا شقيقة الملك هنري الثامن اليافعة. ويبدو أنه لا يمكن عكس التسلسل: «لقد أراد أن يكون صاحبا لطيفا لزوجته، ولكنه أسرف لأنه لم يكن أهلا لذلك [...] لقد أخبره الأطباء أنه إذا استمر في

(404) Théodore Agrippa d'Aubigné, Sa vie à ses enfants (ms. XVI e siècle), in Henri Weber (éd.), Œuvres, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1969, p.396.

(405).Gédéon Tallemant des Réaux, Historiettes, Antoine Adam (éd.), Paris, Gallimard, «Bibliothèque de la Pléiade », 1960, t. I, p. 215.

(406).Marguerite de Navarre, L'Heptaméron (1559), in Pierre Jourda (éd.), Conteurs français du XVI e siècle, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1965, p. 961.

(407).Gédéon Tallemant des Réaux, Historiettes, op. cit., t. 1, p. 273.

ذلك، فإنه سيموت بسبب استهتاره[408]». إن رؤية السن، بدون شك، رؤية كره النساء، المقبولة على نطاق واسع، رؤية الإنهاك الغامض، تقدم أيضا تفسيرا هنا. لقد ضاعفت «رسائل» أو «مختلف دروس» لأدباء أو العلماء، في القرن السادس عشر، الأمثلة لشخصيات فقدت «قوة الحياة» [409] بفعل «الشبق»، بما في ذلك سلمون الذي تحول بسبب «حب النساء» من «حكيم للغاية» إلى «ماجن كبير»[410]. حتى إن هناك بعض الحيوانات التي لا يمكن تفسير قصر حياتها الشديد إلا بـ «المبالغة في الشبق»؛ قال «جواثيم»، من بين طيور أخرى، تعيش لسنة واحدة، وحسب سيبيون ديبليكس، فإنها «تتزاوج» «مع الأنثى»[411] أكثر من عشرين مرة يوميا. خلاصة دون مفاجأة: «لهذا السبب يعيش الرجال الشهوانيون والشبقون أقل من غيرهم[412]».

من هنا هذا الإحساس بالقوة المصونة بالتعفف، إحساس الكونت **لويس دياميت**، الذي ذكره جاك دو تو بإعجاب في القرن السادس عشر:

كان في الستين من عمره عندما قُتل؛ وبما أنه كان متعففا منذ شبابه عن لذة الشباب، فقد كان بصحة جيدة للغاية إلى درجة أنه في سنه كان ينام في الشتاء في غرفة معرضة لهبات الريح، وبدون قبة سرير، وبدون ستائر؛ لم يكن منزعجا من البرد، ولا من الظل، ولا من الضباب، وكأن الإله قد حفظ قواه (كما قال) في أوقات صحة للغاية[413].

(408).Robert de La Marck Fleuranges, *Mémoires*, in Nouvelle Collection des mémoires pour servir à l'histoire de France, op. cit., 1re série, t. V, p. 45

(409).Antoine du Verdier, Diverses Leçons, Lyon, 1592, p. 340.

(410).Ibid.

(411).Scipion Dupleix, La Curiosité naturelle rédigée en questions selon l'ordre alphabétique, op. cit., p. 186.

(412).Ibid.

(413).Jacques-Auguste de Thou, *Mémoires* (XVI e siècle), in Nouvelle Collection des mémoires pour servir à l'histoire de France, op. cit., 1re série, t. XI, p. 346.

ممارسة شيطانية مشتبهة بـ «الفسق» و«الشبق»، وتبقى الحياة الجنسية تهديدا بقدر ما هي لذة.

الفصل الحادي عشر

تنويع «الملاذات»

من جهة أخرى، لا يمكن لمبدإ الدفاع أن يتغير مع الحداثة، وكذلك لا يتغير مبدأ تمثلات الجسد ولا مبدأ نشاطاته. تتواصل العمليات القديمة. ويستمر المثال: المحافظة على السوائل، وتجديد الأخلاط. ومن جهة أخرى تتضاعف تأثيرات العياء، كما تتضاعف أصناف التعب، وتقديرها، وشدتها. وهذا لن يخلو من تداعيات عن المقاومة وإستراتيجيات التفادي. من هنا ترسانة المواد المتزايدة، والانتباه المتزايد إلى العلامات الخفية، وإلى الأوجاع، وإلى الدفاع الشعبي البطيء، كان إلى ذلك الوقت مُتجاهلا.

اكتشاف الترطيب من جديد

تقابل صورةُ التسخين البارزة صورةَ الترطيب البارزة أيضا. تعود السيدة دو سيفينيه في نصائحها الطويلة إلى ابنتها، إلى التأكيد على السوائل، وعلى تجديدها وتقويتها: «ابنتي، عندما نحب بجد، فليس من السخف أن نتمنى أن يهدأ ويرطب الدم الذي نربيه كثير اهتمام ويصبحا رطبا[414]»، ومن هنا الدعوة إلى «تناول حليب البقر؛ فهذا ينعشك، ويعطيك دما ملائما[415]». ويعود روبير شال أيضا إلى ذلك، في رحلته البحرية، من خلال مشترياته للمنظمة «المرطبات في أول يابسة[416]». ويعود إلى ذلك الجنود أيضا، بذكر الحصون التي تم الاستيلاء عليها،

---

(414).Mme de Sévigné, lettre du 9 juillet 1677, Correspondance, op.cit., t. II, p. 485.
(415).Id., lettre du 14 juillet 1677, Ibid., p. 485.
(416).Robert Challe, Journal d'un voyage fait aux Indes orientales, op. cit., p. 192.

تلك التي تمكن من « الانتعاش من التعب الذي لاقيه للتو[417]». يبقى تعويض السوائل هنا أمرا مركزيا.

أمر مفارق أن الحمام الساخن يُعدُّ علاجا آخر عكسا: إن المسام التي تُفتح بحرارته تسمح بدخول الماء الذي يحل محل السوائل التي زالت بالمجهود. يبتهج بعض أنصار الحمامات بمثل هذه الصور: «كل شكل من أشكال العياء يجد علاجه في الحمام [الذي] يُرطب ويُليّن الأجزاء الصُّلبة، ويحلل ويفتت الفائض من الأخلاط، يجب أن يُعتقد أنه مفيد للعياء[418]». المسألة هي أن الماء في الواقع يتسلل إلى الجلد ويحل محل السوائل التي تبددت. إنه كلام مهم ولكنه كلام طبيب «حمام[419]» أكثر مما هو كلام «طبيب مدينة»، لا يشير بأي حال من الأحوال إلى وجود مثل هذه الممارسة في الحياة اليومية لمجتمع الكلاسيكي فيه الماء عملة نادرة، والوصول إليه صعب، وتأثيره الخطير يجتاح الجسم، يكدره، ويدعه «مفتوحا[420]» وقابلا للعطب من «أذى الهواء». لا ذكر لأن يكون لاعبو كرة المضرب والصيادون قد لجأوا إلى الحمام لنسيان مجهوداتهم[421]. لا إشارة إلى حوض الاستحمام في «إطار حياة الأطباء الباريسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر[422]» ولم يذكر أي حمام بعد أسفار السيدة دو سيفينيه، أو الأميرة دي أورسان، أو الأميرة بلاتين إلى أن اعترف شارل بيرو بمثل هذا «الغياب»

(417).Joseph Sevin de Quincy, Memoires, op. cit., t. II, p. 56.

(418).Jean de Combe, Hydrologie ou discours des eaux, Aix, 1645, p. 50-51

(419). يكتب جان دو كومب بشكل خاص عن "مياه غريو"، ويركز نصه بشكل أساسي على الحمامات الحرارية.

(420). انظر في هذه النقطة:

Georges Vigarello, Le Propre et le sale, l'hygiène du corps depuis le Moyen Âge, Paris, Seuil, « Points Histoire », 1987.

(421).Y. يلجأ الأمير الكف عند رجاله إلى الماء بعد لعبهم، بل إلى حرارة مدفأة لتجفيف قمصانهم وأخلاطهم.

François Rabelais, Gargantua (1540), in Jacques Boulenger (éd.), Œuvres complètes, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1955, p. 55.

(422).Françoise Lehoux, Le Cadre de vie des médecins parisiens aux XVI e et XVII e siècles, Paris, Picard, 1976.

وقارنه مع الحمامات القديمة، مؤكدا على الدور المهم للعناية الذي لعبه القماش دائما: «الأمر يخصنا لأخذ حمامات جيدة، لكن نظافة كتاننا ووفرة ذلك، أفضل من جميع حمامات الدنيا[423]». يمتص القماش الأخلاط، ويمكنه أيضا أن يُنعش بعومته، أو بنظافته. هذه هي قناعة لوران جوبير الذي حمل على «الأخطاء الشائعة». «إلى درجة أننا إذا تعاملت معها بشكل صحيح، سترون بأننا سنجدد كل شيء»، وتبتهج بتغيير القماش والملابس، وكأن هذا سيجدد فينا الأرواح والحرارة الطبيعية[424]». بعبارة أخرى، يساهم القماش، لأول مرة مع العالم الحديث، في أعمال «الترميم».

مضاعفة «الزيوت»

يجب أيضا التوقف عند المنتجات، وعند جدها مقارنة بالمياه أو بالملابس أو بالتوابل التقليدية التي تقتصر على المرطبات أو على حرارة الفلفل. يتوجه الاهتمام إلى «الأرواح»، أجزاء الأخلاط «اللطيفة» والأكثر تطايرا، وإلى التأثيرات المحفزة شبه العصبية، وإلى التحول المادي للسوائل الداخلية. تُظهر المطور ذلك، فهي خزان كبير للزيوت الدقيقة والجديدة، والتي تسمى «المقويات» مع أجزائها «المتطايرة» المفروض فيها النفاذ إلى الأعصاب مثل «المياه المعطرة»، مياه برغموت، ومياه السمسق، ومياه الألف زهرة، ومياه البنشولي، ومياه الإنبيق التي كان لا يزال يخشى منها في العصر الوسيط، لأنها تمزج الماء بالنار، لكن رُبح الرهان نهائيا، عندما استعملته صديقة بينفينيتو سيليني، السيدة دي إتامب في القرن السادس عشر لتفادي التعب والمحافظة على «نضارة بشرتها[425]». أو ماء إكليل الجبل الذي أوصى به هاركلين في حديقة الأعشاب سنة 1624، وكثّر من تأثيراته

(423).Charles Perrault, La Querelle des anciens et des modernes en ce qui regarde les arts et les sciences, Paris, 1688, t. I, p. 80.

(424).Laurent Joubert, La Première et Seconde Partie des erreurs populaires touchant la médecine et le régime de santé, Paris, 1587, partie 2 p. 18.

(425).Benvenuto Cellini, Mémoires (XVI e siècle), Paris, Garnier, 1908, t. II, p. 48

ضد خفقان القلب، والشلل، وارتعاش الأطراف، وارتخاء الأعصاب، وحتى ضد السم، مع أنه «مناسب ليحافظ الشخص طويلا على قوته وجماله وشبابه[426]». لا شيء آخر سوى النظرة التقليدية للأوجاع، بلا شك، فنظام الأخلاط خاضع للمقابلات الأكثر تنوعا، ولكنها تنتعش هنا بفعل تخفف الريوت المقطرة.

نظرة غير مسبوقة للنبيذ أيضا، فاللجوء إليه تم التنظير له: تمثل «الرغوة» القسم «الروحي»، والسائل «يمثل الدم[427]»، وخمره ينشط، وكرمه يتحسن، وتأثيره «الطبي» يتزايد. إن «الرحيق» الآتي من الشمس سيتحول فعلا إلى نور: إن جاك ثور المنهك في سفره بين أنتيب وموناكو سنة 1589، قد أصيب بغثيان شديد، وقيل إنه استرد عافيته تماما «بنبيذ كورسيكا[428]» الذي استمد منه ما يكفي من القوة والحيوية ليرافق جاسبار دو شومبير ليصلا معا إلى مدينة جنوة. تنضاف إلى ذلك الاكتشافات. إن نبيذ الشامبانيا بإدخاله تركيبته الفوارة، ولونه البلوري، قد جمع بين الرقة والصفاء كما لم يحدث من قبل، خصوصا أن كؤوسه الرشيقة التي تمزج الفضة والذهب، تحول «اللؤلؤ المتصاعد» إلى دليل على كمال تام. وينسب سان سيمون طول عمر دوشيزن، طبيب بنات الملك، إلى أنه «كان يتناول كل مساء سلطة، ولا يشرب إلا نبيذ الشامبانيا[429]».

وأخيرا تثمين «ماء الحياة»، وصار الإنبيق أكثر شيوعا مع الحداثة، ويزيد القوة الروحية. لاحظ ذلك مارك ليستر في رحلته الباريسية سنة 1698: «ففي الحروب

---

(426).Harlequin, Nouveau jardin des vertus et propriétés des herbes communes qui croissent aux jardins et se vendent ordinairement à la place, Aix, 1624, p. 12

(427) انظر:

Ambroise Paré, Œuvres complètes (1585), Joseph-François Malgaigne (éd), Paris, 1840, t. I, p. 41.

(428).Jacques-Auguste de Thou, Mémoires, op. cit., p. 341

(429).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques, op. cit. t. XXVII, p. 183.

الطويلة كنا نستعمله. لقد لجأ السادة والنبلاء، الذين عانوا كثيرا من هذه الحملات، إلى هذه المشروبات الروحية لتحمُّل تعب الأيام والليالي، وعادوا إلى باريس واستعملوها على موائدهم[430]». لاحظ روبير شال أيضا ذلك على متن ترقاحته في الهند، مستحضرا توزيع المشروبات الروحية على البحارة بعد بعض لأعمال الشاقة: «ماء الحياة لتحشية الصاري[431]». كثير من الأعمال تتكشف، رغم أن الجهود المعنية بشكل مباشر، «العادية جدا»، لا يتم وصفها دائما.

من التبغ إلى البن

إن النبتات القادمة من العالم الجديد في القرن السابع عشر، مثل تلك تضاعفت بالرحلات إلى الشرق، تؤكد القصد نفسه. فالتبغ وعشبته المجففة محاكاة للهنود، هو الرمز الأول: بخار خفيف ولطيف يقوي الجسم ويساعد على التحكم الجسدي، ويطيل الحركات من خلال تعزيزها. يصر الزائرون البعيدون على ذلك، مستحضرين الحريقات المشتعلة التي تجتاح الأعصاب حاملة نارها. إن هنود أمريكا يستنشقون الجمر «عبر أنابيب صغيرة»، ويتحملون بشكل أفضل السباقات، والمسافات الطويلة، والحمولات الثقيلة، وحتى بعض النشوة الخفية: «يستنشقون دخان التبغ، فيسقطون فجأتهم، وكأنهم فقدوا الوعي، ثم يستفيقون ليجدوا أنفسهم حفافا بعد تلك الغفوة، وقد استعادوا قواهم[432]». لقد قصد الملاحظون الغربيون، في البداية، الهدف نفسه. الحصول على النشاط، وتحمل الجهد. لقد حل لو روايي دو براد جنود الملك على التصرف على هذا النحو: «تحمل تعب الحرب بدون شرب ولا أكل، وبدون تناول أي شيء آخر سوى

(430).Martin Lister, Voyage à Paris en M DC XCVIII. On y a joint des extraits des ouvrages d'Evelyn relatifs à ses voyages en France de 1648 à 1661, Paris, 1873, p. 151.

(431).Robert Challe, Journal d'un voyage fait aux Indes orientales, op. cit., p. 82.

(432).Nicolás Monardes, Histoire des simples médicaments apportés de l'Amérique, desquels on se sert en médecine (1588), Lyon, 1619, p. 41

نصف أوقية من التبغ، في أربع وعشرين ساعة[433]. إنه علاج فعال أيضا هنا، هيمن عليه مقاومة كل وهن: «انتفاخ الرأس، والنقرس، والروماتيزم، وترسب الأخلاط المخاطية[434]». الكثير من الأوجاع تضاف مع الطبعات المتتالية لتاريخ العقاقير العام، لـ بيير بومي، و«التاجر البقال» الباريسي في نهاية القرن السابع عشر[435] ومع ذلك فإن التبغ أيضا يشير إلى استعمالات أخرى، ويوحي بتوقعات أخرى. يتعلق الأمر بتعب جديد؛ تعب الحداثة. إنه يغذي «التنبه، والمقاومة الذهنية، و«يقوي الدماغ[436]» كما يؤكد لاغرين و«إنه ينير الفهم[437]» كما يضيف كورناي بونتيكو. وهو بشكل واسع يكبح الزيادات، والسوائل الفائضة والمضرية. رما يشير إليه برين، وهو يستحضر حياة بوالو وصحته النشيطة في عمر الثمانين: «إن التبغ الذي كان يمضغه في كل لحظة، نهارا وليلا، يجفف الأخلاط الزائدة، ويحافظ على حيويته، قليل من الناس يضحتون في سنه[438]». وتدور المسألة على الصفاء الذهني، وطريقة المحافظة على التنبُّه، وزيادة التفكير، والتركيز في الأعمال، والإدارة، والعمل الحكومي؛ إنها صورة دقيقة لما سمي في القرن السابع عشر «تعب النفس».

نفس الموضوع دائما محدد للغاية بالنسبة إلى نباتات الشرق: البن، والشاي، والكاكاو، وأوراق وحبوب سرعان ما تم اعتمادها من لدن العرب الكلاسيكي. نبات مجففة، ومحروقة، ومحمصة، والتي كان تيفنو من أوائل مَن قالوا إنه لاحظ

(433).Jean Le Royer de Prade, Histoire du tabac, où il est traité particulièrement du tabac en poudre, Paris, 1677, p. 127.

(434).Pierre Pomet, Histoire générale des drogues (1694), Paris, 1724, t. I, p. 178.

(435). تمتد المفعولات ضد القرباء والجرب، أو ضد الجوع والعطش، التي ذكرت في طبعة 1694، إلى العشرات في طبعة 1724، وضاعف الجانب «الدماغي»، بالإضافة إلى التمييز بين أنواع عدة للنبتة الواحدة.

(436).Humbert de Gaillot de Goulat de La Garenne, Les Bacchanales ou Lois de Bacchus, Paris, 1667, p. 58.

(437).Corneille Bontekoe, Suite des nouveaux éléments de médecine (1685), Paris, 1698, p. 112.

(438).Henri-Auguste de Loménie Brienne, Mémoires (1719), t. II, p. 104.

تأثيرها في رحلاته إلى البلاد العربية في منتصف القرن السابع عشر: «عندما يكون لدى التجار الفرنسيين كثير من الرسائل ليكتبوها أو يريدون الاشتغال طول الليل، يتناولون فنجاناً أو فنجانين من القهوة»[439]. رهان خاص، ورهان مركزي: تؤكد نبتات الشرق أكثر من أي وقت مضى الشكل الجديد للعياء، هذه الأشكال من العناء التي فرضتها المدينة، والبلاط، والقضاء، والتجارة، والمكاتب، تلك التي ذكرها نيقولا دو بليني، بشكل غير مباشر، ويترجى من المنتوجات أن «تصبح الأذهان المشتتة، وتفتح الأعصاب المسدودة» ويهادين المعمولين، تقوي الذاكرة، وتضمن الحكم، وتمنح القوة والبهجة»[440].

الجدير بالملاحظة في هذا الصدد هو مصير البن الذي استورده سليمان آغا، وهو مخادع نابغة، ادعى أنه سفير تركيا العظمى، وسرعان ما تم النظر إلى المشروب بوصفه «منبهاً»، وانكشف أنه مشروب النخبة، يجدد الممارسات إلى حد أن تناوله صار شبه طقسي ومثل «خدمات القهوة» هذه التي وصفها سان سيمون في منزل السيدة دو مانتنون أواخر القرن السابع عشر؛ إن هذه المجموعات المتأخرة بعد العشاء حول صوان المشروبات، وهذه الموائد الخفيفة تحمل الصواني المخصصة للمشروبات الجديدة: «كنا بالقرب من العديد من صوانات الشاي والقهوة، نتناول ما نريد»[441]. وأكثر من ذلك، أقيمت أماكن جديدة بالكامل، تحمل اسم المنتوج نفسه، تتمركز على الاستقبال، والتبادل الاجتماعي، والمحادثات الساخنة وشُيدت «المقاهي» بعد سنة 1670، وقلمت النكهة الجديدة في لندن وفي باريس، مستثمرة حبة الشرق لهدف مزدوج: ممتع، ومُنشط.

إنه تحول ثقافي واجتماعي في الآن معاً، فالمقاهي التي تقدم مرارة النبتة المحلاة، تقابل الحانات والخمارات التي تقدم الأبخرة «الكحولية» المسكرة. كل شيء فيها

---

(439).Jean Thévenot, Voyages en Europe, Asie et Afrique (1689), Paris, 1727, t. I, p. 103.
(440).Nicolas de Blégny, Secrets concernant la beauté et la santé, Paris, 1688, t. I, p. 685.
(441).Louis de Rouvroy de Saint-Simon, Mémoires complètes et authentiques, op. cit., t. XV, p. 242

مختلف، من الزخارف المزينة بالمرايا والخشب المبرنق إلى الزبناء المكونين من التجار والكتاب والبورجوازيين: «ترى هناك رجال العلم الذين أتوا ليريحوا أنفسهم من عمل المكاتب[442]»، كما أكد لويس دو مايلي. الأثمنة أيضا متفاوتة: فبروكوب تبيع النكهة الجديدة بفلسين ونصف سنة 1672[443]، بينما يتقاضى المياوم ما بين ثلاثة فلوس وستة[444]. وأخيرا، فإن المفعول المنتظر، لا يرتبط دائما بالصدمة التي يحدثها البهار، أو بالحماس الذي يحدثه النبيذ، ولكن بالملاحظة الذهنية وحدها؛ هو النشاط الذي يقوي الشعور ونفاذ البصيرة. إن إسهام الحبوب الشرقية يتضمن بل ما كان قد أظهره التبغ: تبديد التعب، والقهوة أيضا ستبدد «الكآبة»، والعتمة شبه الداخلية. إن التأثير «عضوي» و«ذهني» في الوقت ذاته: مقاومة باطنية بقدر ماهي تقوية للذهن؛ إنها رسالة شبه تاريخية[445]، المشروب الأسود ضد المشروب الأحمر، و«النشاط» ضد السكر. وهذا ما يقوله الطهرانيون الإنجليز بطريقتهم:

إن السم العذب للعناقيد الغادرة

كان قد أبهج العالم بأسره

فوصلت القهوة، هذا المشروب المهم والصحي

الذي يشفي المعدة ويجعل العبقرية أكثر يقظة

وينعش الأذهان دون أن يجعلها متخمة[446]

---

(442).Louis de Mailly, Les Entretiens des cafés de Paris et les différends qui y surviennent, Paris, 1702, p.2.

(443). انظر،

Lucette Chabouis, Le Livre du café, Paris, Bordas, 1988, p. 31.

(444). انظر،

Georges d'Avenel, Histoire économique de la propriété, des salaires, des denrées, de tous les prix en général, op. cit., t.III, p. 522.

(445). انظر

Wolfgang Schivelbusch, Histoire des stimulants (1980), trad. Éric Blondel, Ole Hanse-Love, Théo Leydenbach et Pierre Pénisson, Paris, Gallimard, « Le Promeneur », 1991, p. 28

(446). قصيدة مجهولة تعود إلى سنة 1674 نقلا عن،

علامة على تحول ثقافي حاسم: قِيَمُ النظام والعقل قد احتلت مكانة لم تكن لها من قبل. ولحِقَ التنشيطُ «فضاءات» لم يسبق له أن اجتازها. وبعبارة أخرى، إن صعود العقلانية مع الحداثة قد ضبط عياهم مثلما ضبط علم تركيب العقاقير.

تلطيف الوجود: جواب شعبي؟

تبقى هناك مقاومة أكثر اختفاء، وأقل وضوحا بدون شك، وأقل تفسيرا كذلك، رغم ذلك هي مهمة بقدر ماهي مادية مباشرة. «محاولة هادئة» لتخفيف الأعباء بتأخير سن الزواج، وتخفيض عدد حالات الحمل، وإعالة كثرة الأطفال، المرتبط بتخفيض «الخصوبة». إنها تتعلق بأفراد الشعب وحياتهم اليومية. إنها تكشف عن تحول ثقافي، باستخدام عامة الناس، رغم الصمت والتحفظ الظاهر. إنها تحول أعمال الجسد. تأخير بعض السنوات عن الزواج أمر ملاحظ، ويصيب الخصوبة، ويحد من الاستثمارات طويلة الأمد، وحتى الإرهاق. بدأت مثل هذه الحركة في إنجلترا في القرن السادس عشر، قبل أن تمتد بعد قرن من الزمان إلى أوروبا الوسطى والشمالية «وعي بطيء، ولكنه وعي بالتداعيات. عدة سنوات على المحك، إلى درجة أن أصبحت «مفتاح النظام الديموغرافي القديم[447]». لقد انتقل معدل سن الزواج من أقل من 20 سنة إلى أكثر من 24 سنة على مدار قرن بالنسبة إلى فتيات في حوض باريس[448]، ومن 19.7 سنة إلى 23.4 سنة بين فترات 1578 و1599 بالنسبة إلى فتيات أتيس[449]؛ ومن 18.9 سنة إلى 22.3 سنة بين فترات 1560–1569 و1610– 1619 بالنسبة إلى فتيات بورغ أون

Wolfgang Schivelbusch, ibid., p. 28.

(447).François Lebrun, « Le mariage et la famille », in Jacques Dupâquier (dir.), Histoire de la population française, Paris, PUF. 1988, t. II. p. 305.

(448).Ibid.

(449).Jean-Marc Moriceau, La Population du sud de Paris aux XVI e et XVII e siècles, mémoire de maîtrise, Université Paris-I, 1978.

بريس[450]. وأخير تكشف المدن، حيث كون الوعي أكثر وضوحا والإكراهات أقل تحملا، عن معدل سن زواج متأخر جدا عن الأرياف؛ فالفتيات يتزوجن في سن تفوق 27 سنة في سان مالو أو ليون حوالي سنة 1700. ويمكن لتراجع هذا السن أن يقارب 8 سنوات على مدار القرن، حسب المناطق. ويظل معدل «المواليد عند الأغنياء والمقتدرين»، الذي حافظ عليه الرخاء ورعاية الخدم، «أكثر سخاء من معدل مواليد الفقراء»[451]. إذن لا شيء آخر عند الفقراء سوى «الثورة المالثوسية»[452] الأولى؛ أول عمل عن تعب شامل وغير مصاغ كفاية. لا وجود لانتصار على المرض، ناهيك عن الموت، في هذا الاجراء الجديد للزواج، مهما كان ضئيلا، للمحن والضيق، وفي آخر المطاف هو سلوك من غير مسبوق حُبال العياء و«أعياء احياء».

لا وجود لتمثل للجسد في هذا الولوج للحداثة، ولا وجود لاكتشاف جديد مفروض به تغيير الفهم للتعب. ذلك الذي مع ذلك، تنوع بشكل كبير، وتعمق البحث عنه. فالـ«محتمل» قديما هو «أقل احتمالا» اليوم. لقد تغير «واقع عادي» - غزو ثقافي واضح - بينما لم تتغير للعالم ولا التفسيرات.

---

(450).Denise Turrel, Bourg-en-Bresse au XVI e siècle, Société de démographie historique, 1986, p. 203.

(451).Pierre Chaunu, La Civilisation de l'Europe classique, Paris, Arthaud, 1966, p. 190.

(452).Ibid.

الفصل الثاني عشر

البؤس و«الوهن»

هكذا تطورت مجموعة من أصناف التعب في القرنين السادس عشر والسابع عشر، تُرجمت هي ذاتها إلى مجموعة متنوعة من العلاجات. وهناك العديد من أنواع المشاشة إلى ذلك الحين لم تذكر إلا قليلا، ومع ذلك خيمت على أوروبا الكلاسيكية. إنها تعني عامة الناس وتتعلق بالأرياف، و«الصحاري»، وتصيب على العموم الساكنة غير المعروفة. تظل الرؤية «متماسكة»، وتشير إلى بؤس نوعي، وهي غير واضحة، ومع ذلك تشير إلى قلق غير مسبوق. لقد تطلب الأمر بلوغ نهاية القرن السابع عشر حتى يكشف وجه جديد للفقر، وظهرت مواطن ضعف طالما كانت مستورة إذ لم تكن مهملة.

صنوف البؤس

يتطلب الأمر سياقا على الخصوص: الأهمية المتزايدة لفعالية العمال، والإمكانيات المعترف بها للسواعد وللأرض، تلك التي استطاع كولبير أو لوفوا تخيلها، متوقعان منها بعض الإغناء الوطني. ويمكن لمجال جديد من القصور أن يفرض نفسه حينه، أبعد بكثير من أوجه العياء «الدقيقة» التي خلقتها النخب الكلاسيكية، أو تلك العادية جدا التي رفضها الشعب جزئيا، أو تجاهلها. ويتعلق ذلك بالتهديدات الأكثر خفاء: بؤس، وفقر دم، ومجاعات، وكل العراقيل التي تعترض المردودية، وكل حالات الضعف الظاهرة التي تشير إلى «تعب» أولي شبه جماعي. ليس الذي تمّ، مع نهاية القرن السابع عشر، الوضع الذي أعطي للأشخاص الأنذال، وليس حتى الذي تمّ الأهمية التي أعطيت إلى الظرف الصعبة للمهن. إن المسألة موجودة في مكان آخر، إنها ترتبط بالنظرة إلى بعض الفقر البدائي؛ فقر العجز «الحيوي»، وقصور شبه عضوي ناتج عن الجغرافيات،

أوعن الحروب، أوعن المناخ، أو حتى عن التوقعات الفاشلة التي تهدد الحياة اليومية مثل فعالية العمل. لقد أدخل لابرويير هذه النظرة التراجيدية في نهاية القرن، مستحضرا شقاء الفلاحين: «حيوانات شرسة، ذكورا وإناثا، منتشرة في الريف، سوداء وشاحبة ومحروقة بالشمس بالكامل، مرتبطون بالأرض التي ينبشونها ويحركونها بعناد لا يقهر(453)». تلعب ظروف في هذه الحلكة؛ ذلك أن مجموعة سنوات نهاية القرن، المستوحاة من مراسلات المسؤولين، وشهادات الوجهاء، كلها توضح أوصافا مقلقة، بل إثباتات بالأرقام. ففي ليموج سنة 1692: «اضطرت الغالبية إلى اقتلاع جذور السرخس، وتجفيفها في الفرن وسحقها من أجل الطعام؛ الشيء الذي أحدث لهم وهنا شديدا يموتون به، ويمكن أن يتسبب طاعونا في وقت وجيز(454)». وفي ريمز سنة 1694: «وضع المدينة الراهن بائس ومفجع [...] فالرعاية التي حظي بها الناس إلى الآن لم تمنع من الموت، بسبب المجاعة والوهن، أكثر من أربعة آلاف، في مدة ستة أشهر(455)».

آلية محتومة في اقتصاد الاحتياطات والتخزينات فيه غير مضمونة دائما؛ فالمحاصيل السيئة لسنتي 1693 و1694، من بين أمور أخرى، جففت مداخيل الأرض، التي بدورها جففت الأسواق، وخلقت، في نهاية المطاف، اضطرابا للحرفيين وأصحاب المتاجر: «إن المجاعة تؤدي بشكل مباشر أو غير مباشر إلى عجز(456)».

---

(453) Jean de La Bruyère, Les Caractères, op. cit., p. 295.

(454) Michel-André Jubert de Bouville, Intendant de Limoges, lettre au contrôleur général, 12 janvier 1692, Correspondance des contrôleurs généraux des finances avec les intendants des provinces, Paris, Imprimerie nationale, 1874, t. I, 1683-1699, no 1038.

(455) « Les lieutenants, gens du conseil et échevins de Reims au contrôleur général », 13 janvier 1694, Correspondance des contrôleurs généraux des finances avec les intendants des provinces, op. cit., t. I, no 1272.

(456) René Pillorget, « L'âge classique, 1661-1715 », in Georges Duby (dir.), Histoire de la France, Paris, Larousse, 1971, t. II, p. 200.

الخموع والقابلية للهشاشة

من الواضح أن معاينة مثل هذه الكوارث لم تنشأ مع نهاية القرن السابع عشر. فالمحن «وأرزاء الدهر[457]» ترافق المجتمعات القديمة. لقد استحضرتها تراجيديات أغريبا دو أوبينيه بنفس القوة في بداية القرن، منددة بتلك الأطعمة المُعدة للبعض من «الأعشاب والجيف، واللحوم غير الناضجة[458]». ومع ذلك، فقد تغيرت الرؤية بخصوص موضوعها، وتم تقدير تداعياتها، وأصبحت أكثر اقتصادا، و«أكثر شمولية»، ومنتقدة من لدن سلطة مركزية أكثر انحصارا. ويبدو أن البؤس نفسه قد صار ينظر إليه بشكل مختلف: «يظهر أن العنصر الجديد انطلاقا من نهاية القرن السابع عشر، يكمن في الوعي بقابلية الخموع للهشاشة، المختلف عن الوعي القديم بفقر الخموع[459]». هشاشة غير مسبوقة متصورة في قلب القوة الجماعية؛ هذا العوز الذي يُعد أكثر تراجيدية يؤجج، بدون شك، المخاوف التقليدية، وتهديدات المشردين التي تُشيع العنف والأمراض. إنه يولد أيضا مخاوف، كانت إلى ذلك الوقت غير معروفة: إنجازات العمال المُعرقلة بالإنهاك، والإنتاجات المُحبطة بالعوز. إن الرسائل الموجهة إلى المراقب المالي تقول ذلك؛ فمراقب روان، على سبيل المثال، «تفاجأ برؤية ضعف[460]» عمال مياه هونفلور يؤخرون العمل بشكل حتمي؛ أو أسقف ميد الذي لاحظ «الإنهاك العام للشعب وللعمال»، إلى درجة أن «قسما من الأرض ظل مزروعا، وأن

(457). انظر:

Jean Delumeau et Yves Lequin (dir.), Les Malheurs du temps, op. cit.

(458).Théodore Agrippa d'Aubigné, Les Tragiques (1615), in Œuvres, op. cit., p. 28, vers 313.

(459).Robert Castel, Les Métamorphoses de la question sociale une chronique du salariat, Paris, Fayard, 1995, p. 166.

(460).M. Marcillac, intendant de Rouen, lettre au contrôleur général, 29 mai 1685, Correspondance des contrôleurs généraux des finances avec les intendants des provinces, op. cit., t. I, no 182

الأمراض بدأت تستعر بعنف شديد»[461]؛ أو مراقب ليموج الذي قدر أن «منطقته» جد مرهقة ببؤس السنين الماضية، إلى حد «أنها دائما جد منهكة بنقص المال، وحتى بنقص العمال»[462].

«الأوزار» الضريبية و«الضعف»

تُعد مذكرات فوبان عن انتخابات فيزلاي سنة 1696 في هذه النقطة، الأكثر بلاغة، وتقارن بين الموارد والإمكانيات، وتهدف إلى تقويم دقيق لـ «المداخيل» وتقويم «طبيعة السكان وأخلاقهم»، في أفق «زيادة عدد السكان وزيادة الماشية»[463]. تبدو المعاينة الأولى تافهة وتقييدية في حد ذاتها، بل أخلاقية: «أراضي مزروعة بشكل سيء [...]، وسكان جبناء وكسالى، والبلد شبه مهجور أشواك وشجيرات رديئة» تنتشر في الأرياف، وتغزو الأرض أحجار وحصى. يُعد الكسل كمرض قادم من غابر العصور، لكن مع ذلك تغير المعاينة الاتجاه بسرعة. ففوبان يتفقد الأسباب، ويستحضر الرهانات: «ينتج هذا الخصاص على ما يبدو من الطعام الذي يتناولونه؛ لأن كل الشعب المسكين لا يعيش إلا على الخبز والشعير والشوفان مختلطين [...]، لا تعجبا إذن إذا كانت قوة هؤلاء، الذين لا يتغذون بشكل جيد، ضعيفة»[464]. كما أن الملابس المصنوعة من القماش البالي

(461).Hyacinthe Serroni, évêque de Mende, lettre au contrôleur général, 4 mai 1699, Correspondance des contrôleurs généraux des finances avec les intendants des provinces, op. cit., t. I, no 1859.

(462).
Louis de Bernage, intendant de Limoges, lettre au contrôleur général, 15 juin 1700, Correspondance des contrôleurs généraux des finances avec les intendants des provinces, op. cit., t. II, no 146.

(463).
Sébastien Le Prestre de Vauban, « Description géographique de l'élection de Vézelay » (1696), in Les Oisivetés de Monsieur de Vauban, op. cit., p. 435.

(464).
Ibid., p. 442.

والممزق، وانعال «التي هم بها حفاة الأقدام طول السنة»[465] تضاف إلى الإضعاف. من هنا يظهر هؤلاء الناس «الخاملون وخائرو العزم»[466]، وهذا التعب الغامض، غير المسمى بشكل مباشر، ولكنه يرافق الحياة اليومية، في آفاق محدودة أكثر من أي وقت مضى.

لا شك أن الأصل هو البؤس وفي المقابل يصير إلغاؤه هو هدف فوبان بإبقاء حجة مبخسة تقليديا: الحد من الرسوم، «هذه التعسفات وهذه الأخطاء التي تحدث في الضرائب وجبايتها[467]»، تمنع «المدخول الحقيقي للملكة[468]». ويمكن إذن للتعب أن ينعكس، وتأتي القوة بعد الضعف، والعمل بعد خوار العزم وستنمو القوة:

لأنه عندما لا يكون أفراد الشعوب مضطهدين، فإنهم يتزوجون بجرأة أكثر وسيلبسون ويأكلون بشكل أفضل، وسيكون أطفالهم أكثر قوة بأحسن تربية، وسيعتنون بشؤونهم، وفي النهاية سيشتغلون بمزيد من القوة والعزم عندما يدركون أن أهم جزء من الربح الذي يحققونه سيبقى معهم[469].

إنه بالفعل رهن شامل يؤخذ في الحسبان هنا، كما أن عكسه، من المفترض أن يعيد الحيوية للعمل، والقوة للأجيال، والمدة للحياة. إنها الملاحظة التي تقول: «من أكثر العلامات المؤكدة على وفرة بلد ما، تكاثر عدد الناس، وعلى العكس فإن تناقص عددهم هو دليل ثابت على العوز[470]».

(465).Ibid.
(466).Ibid., p. 443
(467) Sébastien Le Prestre de Vauban, « Projet de dîme royale » (1694), in Les Oisivetés de Monsieur de Vauban, op. cit., p. 752.
(468).Ibid., p. 795.
(469).Ibid., p. 762.
(470).« Mémoire sur la misère des peuples et les moyens d'y remédier » (1687), Mémoires des intendants sur l'état de la généralité dressés pour l'instruction du duc de Bourgogne, t. I, Mémoire de la généralité de Paris, Michel de Boislisle (éd.), Paris, 1881, appendice, p. 782.

القسم الثالث

الأنوار وتحدي الحسي

ومع القرن الثامن عشر من طيف أصناف التعب الممكنة وكذلك من أساليب مقاومتها. إن الأسباب متنوعة، وأشكال المقاومة أعيد اكتشافها. ولقد امتد مشهد العياء بشكل كبير، وحتى إنه أعيد تحديده. ومن جهة أخرى، ظلت صور فقدان الأخلاط كما هي، دون أن تسمح بتجسيده نسبيا، أو حتى عشرائيا، ورغم جدتها، فإنها بقيت وسائل حساب العمل، دون أن تسمح بدقته الحقيقية.

إن التعمق في القرن الثامن عشر مختلف؛ حيث تغير التقويم، وكذلك طريقة التعبير وطريقة إثبات الذات. فإنسان عصر الأنوار «الحساس»، الإنسان الذي أفاده في نفسه تراجع الإلهي، ذلك الذي ألزمته استقلالته الجديدة بأن يعيد تعريف نفسه، ويحول العياء إلى ظاهرة أكثر مباشرة، وأكثر حميمية: شعور أكثر قوة بالعوائق التي تعترض المبادرات والحريات، واضطرابات تعمر «شعور» كل واحد. ومن هنا أيضا البحث الأكثر أصالة عن التأكيد، هذا النهج الجديد كل الجدة، و«الحديث» بالفعل، بل وحتى «السيكولوجي»، يحاول بطريقة «لا دينية»

وعن قصد، تجاوز تعب أصبح تحديا. السفر، والاكتشاف، ومجابهة القمم، ومسح العالم لتركيز ذاته واختبارها.

كما أن تغير تمثل الجسد قد منح في نفس دينامية التمرد مكانة جديدة للأعصاب، وللمثيرات، وأعطى للجسد ولفوراته أهمية واستقصاء بشكل متزايد، وصولا إلى العيوب، وأشكال الضعف، بل إلى «الإخفاقات». إضافة إلى ذلك، فإن مثل هذه الحساسية ترافق أيضا البراغماتية، وتركز النظر على الممارسات، وكذلك على الصعوبات التي تواجهها، وتثمن معارف الفنون والمهن، ومعارف المصانع، ومعارف الحرفيين. في حين تردد أخيرا وبشكل حتمي، توقعات الفعالية، بل وحتى توقعات «التقدم»، في عالم تتنامى فيه الانتهازية والاكتمالية.

الفصل الثالث عشر

رهان المحسوس

يلعب يقين الاستقلالية الفردية المتنامي دورًا كبيرًا هامًا؛ إذ نجده يرمي الحد «الداخلي» على صعيد مبدأ العمر ذاته، ويجدد التنبيهات، وألوان الفصول، ويثري مصادر الضعف، مشيرا إلى إمكانية شخصنتها. إن الحياة الداخلية تكتسب عمقا. يتعلق الأمر بنقلة عظمى؛ حيث يضع الفرد نفسه في المشهد بقدر زائد، ويخضع نفسه للمراقبة. يحل التعب قبل كل شيء بوصفه «ضيقًا» يوميا بدرجة أكبر، واضطرابا غامضا، وسرعان ما يصير استفزازا مؤثرا في المشاريع، وفي أساليب العيش والوجود. ومن هنا حضوره الجديد في الشهادات، وكذلك في الأدب أو المحكيات.

«الإنصات للحياة»

لا مناص من مبدأ الانعتاق(47) في دائرة النخب على وجه الخصوص. ويتعلق الأمر بتوكيد «عشق الحياة الحرة»(472)، مثل المنازعة في القوى القديمة، حتى تتم مراجعة صنوف الهشاشة، ويجري التحويل الكامل لصورة الضعف، وأنسنة القابلية للتعب بجعلها شخصية وفردية بدرجة أكبر. فما عادت الأخيرة تشير إلى المسافة اللامتناهية إزاء السماء، والهاوية المحتومة بين الطبيعة وما فوق الطبيعة، قاضية على هذا «العجز» باللامبالاة بموجب بداهتها ذاتها. إنها تتسلل إلى ما بين الذات ودائها، وتكتسب حضورا أكبر، فترتد عائدة إلى الفرد، وتنتمي إلى

---

(471) انظر

François-Marie Arouet de Voltaire, Lettres philosophiques, 25e lettre, Amsterdam, 1734, p. 339-340 .

«ولد الإنسان من أجل العمل مثلما تميل النار إلى أعلى والحجر إلى أسفله».

(472).Jean Starobinski, L'Invention de la liberté, 1700-1789, Genève, Skira, 1964, p. 12

هويته، وتخترق وعيه، وتعدِّل إدراكاته. ذلك لأن كائنا مختزلا إلى ذاته، وإلى ذاته وحدها، ويُفترض أيضًا أن يُفسَّر بوصفه موضوعا لـ «الطبيعة»، يتقصى أحواله بقدر أكبر، ويبقى في حدود تجاربه الخاصة، ويحلل نفسه انطلاقا منها وليس من «مكان آخر» يكون بمنزلة مفعول له.

يصير الحاضر أشد كثافة، كما يمسي خطر الزمن أكثر حدة. وهناك مفهوم يكشف عن هذا الاهتمام، المفروض مع مجيء الأنوار، وبالمستحضَر بوصفه تجربة أولى؛ ألا وهو «الشعور بالوجود»[473]. وهو ما يشير إليه فكتور دو سيز، الطبيب الذي تخرّج في مدرسة مونبليه وعضو المؤتمر المستقبلي، في كتاب مخصص حصريًا للمحسوس، في عام 1786، بوصفه «إحساسا» يوجد «في أساس كل الإحساسات الأخرى»[474]؛ بل إنه ذلك الإحساس الذي يكشف عن «كياننا الخاص»[475]، والذي يحدث الانقلاب من الفكرة الديكارتية للغاية: «أنا أفكر إذن أنا موجود»[476] إلى الفكرة التجريبية للغاية: «أنا أحس إذن أنا موجود»[477]. إن النقلة مركزية. يشعر الفرد بـ «جسده وهو يتبدّى له باستمرار[478]»، شاهدا بوجوده على الكينونة، ذلك «اللحن المستحوِذ[479]». إنها جِدَّة عظمى «يجب المرء

(473) انظر:

John S. Spink, « Les avatars du "sentiment de l'existence" de Locke à Rousseau », Dix-Huitième Siècle, no 10, 1978, p. 269-298.

(474).Victor de Sèze, Recherches physiologiques et philosophiques sur la sensibilité ou la vie animale, Paris, 1786, p. 156.

(475) Jean Le Rond d'Alembert et Denis Diderot, Encyclopédie, ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers, Paris, 1751-1780, art. « Existence ».

(476) .René Descartes, « cogito ergo sum », voir Discours de la méthode, Leyde, 1637, partie 4.

(477) Jacques-Henri Bernardin de Saint-Pierre, Études de la nature, Paris, 1784, cité par Simone Goyard-Fabre, La Philosophie des Lumières en France, Paris, Klincksieck, 1972, p. 217.

(478) .Charlotte Burel, « Le corps sensible dans le roman du XVIIIe siècle », in Michel Delon et Jean-Christophe Abramovici (dir.), Le Corps des Lumières, de la médecine au roman, Paris, Centre des sciences de la littérature, Université Paris-X, 1997, p. 105.

(479).Ibid. p.110.

الإنصات لحياته»[480]. ومن شأن هذا أن يغير وضع التعب نفسه أيضًا: فما عاد محض حادث بسيط يأتي من الخارج، وما عاد مجرد إصابة متعددة الأوجه، ومرتبطة بالظروف، وبالأماكن، وحتى بالتجليات الإلهية، ولكنه ذلك الجانب المحتمل من الحياة الحميمة، والمرافق الذي لا مفر منه في مجرى الأيام. كمثل شهادة السيدة دي ديفان التي أشارت إلى «ضعفها»، وإلى الطارئ الذي لا يمكن لجمه عن مرافقة حياتها اليومية: «أنا أضعف كثيرًا؛ وأدنى مِرَاس يبدو لي مستحيلاً. أقوم من سريري في ساعة متأخرة»[481]. أو سخط جولي دو ليبيناس في علاقتها المستحيلة مع جاك-أنطوان دو غيبير: «أشعر بأنني كَليلة بأقل عزم»[482]. أو ملاحظة السيدة ديبناي، وهي تتحرّى عن النقص الذي لا تستطيع تفسيره: «أشعر كل يوم بضعف قوتي»[483]. يبدأ التعب أحيانًا من دون سبق إعلام، فيحاذي طرائق الوجود، ويحول كل لحظة إلى أسى، معرقلا القرارات، ومثقلا كاهل الأعمال. وهو في الأخير أمر معتاد جدا حتى إنه أمكن لـ مارغريت ستال دو لوناي أن تستهل أكثر الحكايات ابتذالا، وفي وقت مبكر من ثلاثينيات القرن الثامن عشر، بأن قالت: «ذات مساء، وأنا متعبة أكثر من المعتاد [...]»[484]. وإن هو إلا دأب ظل مهملا حتى ذلك الوقت؛ حيث صار الشأن المؤنث نفسه أكثر حضورا.

(480).Simone Goyard-Fabre, La Philosophie des Lumières en France, op. cit., p. 205.
(481).Mme du Deffand, lettre à Horace Walpole, 13 mars 1771, Lettres (1742-1780), Paris, Mercure de France, 2002, p. 421
(482).Julie de Lespinasse, lettre à Jacques-Antoine de Guibert, 20 juin 1773, Lettres de Mlle de Lespinasse, suivies de ses autres œuvres et des lettres de Mme du Deffand, de Turgot, de Bernardin de Saint-Pierre, Paris, Charpentier, 1903, p. 14.
(483).Mme d'Épinay, Les Contre-Confessions. Histoire de Mme de Montbrillant (1818), Paris, Mercure de France, préface d'Elisabeth Badinter, 1989, p. 1207
(484).Marguerite Staal de Launay, Mémoires, Paris, 1845, p. 127

لقد أمكن هذه الأشكال غير المسبوقة من الانتباه أن تتحول إلى حكايات من نوع جديد. فالمعاناة تمتد في الزمن، والحوادث تتعاقب، والمراحل تتناسق، مع تعلقها حصريًا بالتعب الذي صار شرطا للحياة تقريبًا. وعن الشهادات المتصلة بالبلاط، بالخصوص، تتولد مثل هذه الروايات. هذا ما تبين عنه بارونة أوبركيرش؛ حيث زارت فرساي ثلاث مرات خلال ثمانينيات القرن الثامن عشر، في إثر «كونت الشمال وكونتيسة الشمال». تعزز فصول الأحداث شعورًا عامًا: «كانت حياة البلاط تتعبني للغاية، كانت مرهقة»[485]. ويجري التحقق من الأسباب الأكثر عددًا، والأكثر إثارة للقلق، والأكثر استمرارية بالمقارنة مع «تعب البلاط» التقليدي: استقبال «عدة زيارات»[486]، و«الذهاب المتأخر للنوم»، و«الاستيقاظ المبكر»[487]، و«عدم التمتع بشرف المقعد»[488]، و«ارتداء الملابس»، و«خلع الملابس»[489] من نوع الفساتين السلالية ذات «الوزن الكبير»[490]، و«العروض التشريفية»[491] الصعبة والمتعبة على الدوام، و«الفحش الكبير الذي شهدته ليلة قضتها في حفلة»[492]، ونزهات شانتييه، «حتى ساعة متأخرة جدًا»، مع ما يعرض للمرء في إثرها من «تعب رهيب»[493]، والجولات «المتعبة للغاية»[494] بين فرساي وباريس ولأوبر. و«الأمسيات الطوال» التي

(485).Henriette-Louise de Waldner de Freundstein baronne d'Oberkirch, Mémoires sur la cour de Louis XVI et la société française avant 1789 (1782-1786), Paris, Mercure de France, 1982, p. 158.

(486).Henriette-Louise de Waldner de Freundstein, Mémoires sur la cour de Louis XVI et la société française avant 1789, op. cit., p. 89.

(487) Ibid. p.151.

(488) Ibid. p.339.

(489) Ibid. p.246.

(490) Ibid. p.336.

(491).Ibid. p.155.

(492) Ibid. p.199.

(493) Ibid. p.206.

(494) Ibid. p.215.

تجمع بين «التعب والمتعة»[495]. وتسعفنا العودة من فرساي في 8 يونيو 1780 بمعلومات عن حساسية البارونة، بل عن عقليتها. يتوالى العشاء والرقص والرقص الإزائي، ويتزاحم «حشد الفضوليين»، و«يجري تمديد» الحملة، وتتم مغادرة القلعة في الساعة الـ 4 صباحًا. وتقول البارونة إنها كانت «متعبة جدا»[496]. ثم تقارن بين الوجوه التي بدت «هادئة وراضية» للقرويين العابرين في طريقهم إلى عملهم، والشمس في بدء الشروق، و«الوجوه المتعبة»[497] لأفراد الحاشية الناعسين، والمتثاقلين في عربتهم. إن المرجعية الأرستقراطية تتحكم في الحقائق: فالمدة التي تسم حساسية «طبقة» تنضم ها إلى المعنى عن تعب الناس الأكثر تواضعًا.

وبالمثل، قام أندري غريتري، المؤلف الموسيقي العزيز للأوبرا الهزلية خلال نهاية القرن الثامن عشر، بتحويل انطباعاته المأساوية تجاه الإجهاد إلى «شهادة» لا تنتهي. ظهرت الأعراض في إثر «نغمة عالية بصوت عالٍ»[498] خلال شبابه وتتكرر هذه الظاهرة لمدة خمسة وعشرين عامًا، وهي متطابقة تمامًا بعد كل إبداع من إبداعاته: بصق الدم، والإرهاق الشديد، والحاجة الماسة إلى الراحة. وتصفها العلاجات التي خضع ها في روما أو لييج أو جنيف أو باريس، ومحاولات التخفيف من هذه الأعراض؛ ثم النصيحة التي قدمها تيودور ترونشان، المتعاون مع الموسوعة، وطبيب فولتير أو دوق أورليان. وفي جميع الأحوال، تظل الأوصاف كما هي «بعد النوبة الأخيرة بقيت مرتين مستلقيا على ظهري لمدة أربع وعشرين ساعة، من دون أن أتكلم ومن دون حراك. ثم استغرق الأمر نحوا من أسبوع لأستعيد قوتي»[499]. ينشأ هنا إنصات خاص جدًا، في دائرة النخبة على

---

(495).Ibid. p.272.
(496) .Ibid. p.199.
(497).Ibid.
(498).André-Ernest-Modeste Grétry, Mémoires, ou Essais sur la musique (1789), Bruxelles, 1829 ,t. I, p.39
(499) .Ibid. p.41.

الخصوص، ويتعلق بشكل مباشر جدًا بالإرهاق، مما يحول الإحساس بالجسد إلى مراقبة أكثر حصوراً للشخص.

وتتعلق هذه الأشكال السردية أيضًا بالجنود والبحرة، ومن بينهم الذين يعرفون كيف يكتبون، بالطبع، أولئك الذين يتحدثون عن الإرهاق لأول مرة بوصفه «حالة»، وطريقة دائمة للوجود. هذه هي شهادة ضباط سنتوريون في عام 1742، وهي إحدى السفن المشركة في «طواف العالم»، والتي استأجرتها البحرية الإنجليزية في عام 1740 بهدف احتواء الأملاك الإسبانية. وتمتد الحلقة على مدى تسعة عشر يومًا، بين اللحظة التي انفصلت فيها مراسي السفينة، والتي ساقتها «عاصفة رهيبة»[500]، ليلة 22 سبتمبر 1742، بينما كانت ترسو في جزيرة تينيان في قلب المحيط الهادئ، وبين عودتها إلى القاعدة بعد انجراف شاق و«عديم الفائدة». يعرض الكدّ الذي لا ينتهي أوائل كلمات الفصل: «التعب والمعاناة اللذان جرت مكابدتهما على متن السفينة»[501]. ومن هنا هذه العسرات المطولة: الضخ المستمر للمياه قبل كل شيء، و«الساعات الثلاث غير المجدية» من الجهد لرفع عارضة الصاري الكبرى، بينما كانت «حبال السحب تتكسر»، تاركة الأبدان منهكة لدرجة أن الرجال استسلموا «لخطر الهلاك»[502]، و«الاثنتي عشرة ساعة» التي أمضيناها في يوم 26 سبتمبر، «يوم التعب القاسي»، لكي «نسحب بكل ما أوتينا من قوة»[503] المرساة المهددة بالانكسار، والرفع المؤقت أخيرًا لعارضة الصاري الكبرى، ثم بعد يوم 26، «التغييرات اللانهائية لاتجاه السفينة»، مع «طاقم ضعيف جدًا»، لدرجة أنه «لم يكن في وسعه فعل المزيد»، ثم المرحلة القصوى من هذا «التعب الرهيب»[504] أخيرًا، وذلك في 11 أكتوبر على مشرف

(500).George Anson, Voyage autour du monde fait dans les années 1740, 1741, 1742, 1743 et 1744, Paris, 1750, t.IV, p. 104.

(501) .Ibid.

(502) .Ibid, p.107.

(503) .Ibid, p.108.

(504) .Ibid, p.111

جزيرة نينيان. كلها لحظات يتم سرد تفاصيلها بدقة، والتعليق عليها، في حين أنها لم تكن توافق أي تقدم في الرحلة، وأي مكسب في المشروع؛ إذ كانت مجرد فاصل، ومحض انقطاع في الرحلة الهائلة.

ترجع أصالة هذا الحديث إلى تغيير حاسم طال الحساسية، وإلى تحول التعب إلى ظاهرة في حد ذاتها، وتجربة محددة تنكشف في وقتها، لتصبح، بمفردها، موضوع «يومية» يتردد صداها في شبه «مسلسل». ذلك ما يُظهره الفصل الطويل، كما تظهره الخاتمة. «التعب الرهيب»[505]. لا شيء نَعُدُّ من قبيل الاضطرابات النفسية وتعقيدها، وأحلام الذات، وأوهامها، وانهيارها، وحتى نسيانها، مما تسبره حداثتنا بلا حدود، وإنما يتعلق الأمر بالانتباه غير المسبوق والحاسم لما يمكن أن يختبره الجميع.

الميسِّرات والمعسِّرات

ويقدر أكثر تواضعا، ولكنه ثابت أيضا، نجد التركيز الجديد، خصوصا في صفوف النخبة، على ألوان الانزعاج التي أصبحت «حالات» دائمة أو مؤقتة، وعلى صنوف الضجر والضيق والسأم التي ظلت مهملة حتى ذلك الحين. ونجد لدى جيمس بيريسفورد جردا دقيقا وحافلا ما في أحد الكتب الأكثر انتشارا في بداية القرن التالي: قلة النوم مع «العينين اللتين تحرقانك، ورأسك الذي يدور، وصرير الأسنان، والأطراف المخدرة»[506]، والنوم الزائد، بعكس ذلك، مع وهن وهبوط لا سبيل إلى ردهما[507]؛ ثم الكنبة غير السوية، ووضعية الجلوس غير المريحة، والسرير القصير جدًا أو الضيق جدًا، مع التقلصات والتشنجات[508]؛

(505) .Ibid.

(506) James Beresford, Les Misères de la vie humaine, ou Les Gémissements et soupirs (1806), Paris, 1809, t. II, p. 254.

(507) .Ibid., p. 163

(508) .Ibid., p. 180.

وفضاء «الساعات المديدة بالقرب من موقد يدخن»[509]، مع عسر التنفس والاختناق؛ والحاجة إلى التحدث بـ«فم جاف»[510]؛ واستحالة «التباهي بتعبك»[511] خلال أمسية طويلة بين «ضيوف مجهولين». إنه عدد لا يحصى من «البلايا»[512] التي تعيد اختراع صنوف الضيق وتجدد الانتباه.

بالروح نفسها، وفي الوقت نفسه، تعكس الرسائل التي وجهها نابليون إلى ماري لويز بأمثلة حالة الإرهاق التي يعاني منها الإمبراطور: «صديقتي، لقد وصلت مساء أمس متعبًا جدًا إلى بريسكيتز»[513]؛ «صديقتي، لقد وصلت إلى بوزن، ولقد تعبت قليلاً من الغبار»[514]؛ «صديقتي العزيزة، أنا متعب جدًا»[515]؛ «صديقتي العزيزة، الساعة الآن الـ 11 مساءً أنا متعب جدًا»[516]؛ «صديقتي، لقد استوليت على ماورتن [...] لقد كان يومًا جميلًا. أنا متعب قليلاً»[517]. وهي حالة عدت، مذئذ، من الأهمية بمكان حتى تظهر في كل رسالة، شاهدة على شيء أصبح «ثمينًا» أكثر من ذي قبل: ما يختبره المرسل كل يوم، ليطمئن المرسل إليه، أو يقلقه، أو ببساطة ليتواصل معه.

يتعلق الأمر كذلك بـ«مشاعر» فاعلة إلى حد التأثير في الفضاء الحميمي الخاص بالنخبة دائمًا. والعلامة على ذلك كلمة «مُثيرات»؛ «ما يسهل العيش من دون

(509) .Ibid., p. 105.
(510) .Ibid., p. 258.
(511) .Ibid., t. I, p. 66
(512) .Ibid., t. II, p. 232.
(513) .Lettres inédites de Napoléon Ier à Marie-Louise, écrites de 1810 à 1814, notes de Louis Madelin, Paris, Bibliothèques nationales de France, 1935, lettre du 14 septembre 1811.
(514) .Ibid., lettre du 30 mai 1812.
(515) .Ibid., lettre du 6 septembre 1812.
(516) .Ibid., lettre du 2 mai 1813.
(517) .Ibid., lettre du 10 mai 1812.

تعب»[518]، وهذا ما يطّرد ذكره ويتواتر تثمينه، مشيرا أكثر من ذي قبل إلى إجراءات غير مسبوقة، إلى أدوات أو تقنيات جديدة، بزعم المهندس المعماري جاك-فرانسوا بلوندِيل، في 1752، أنه صار «مُتَّبَعًا»، بما في حين «تجاهل الأسلاف أمرها بقدر مبالغ فيه قليلاً»[519]. لقد أعيد النظر في شؤون العالم البيتي، واخترعت أنواع من الأثاث، وعدلت أجهزة، وأعيد تشكيل مساحات، فصممت لأجل تقليل الحركة، وتقليص المسافات، وتقريب الأشياء. وتنوعت «الخزائن» («دائرية»، و«هلالية»، و«بيضاوية»، و«حنفية»، و«جوانية»)، فسهلت عمليات الترتيب، واختصرت حركات الدخول والخروج[520]. وصارت المواقد أكثر تعقيدًا، فقللت من ركود الدخان[521]، حتى إن أحد المخترعين، في عام 1765، اقترح آلة «لمنع ركود الدخان»[522]. وجرى تطوير آليات تدمج الرافعات والنوابض، و«مشحت الحافة» للأثاث، وأظهرت أجزاء مخفية، وحولت الرأسية إلى أفقية أو الأفقية إلى رأسية، وغيرت الخطوط، وتنوعت الأغراض ومن هنا «طاولات العمل» التي تربط بين الأدراج والصواني مرتبة الأصواف والخيوط والدبابيس والإبر والمقاص بشكل مختلف؛ أو تلك «الطاولات المسدلة» التي «يسوى جزؤها العلوي» كاشفا عن «ترتيب ذي فائدة»[523] وقد حول إلى مكتب، مع «صندوق وأدراج مرققة»؛ أو تلك «المكاتب المبطنة» التي تكشف عن الدواة

(518) .Dictionnaire universel, français et latin, vulgairement appelé Dictionnaire de Trévoux, Paris, 1743, art. «Commodité ».

(519) .Jacques-François Blondel, Architecture française, ou Recueil des plans, Paris, 1752-1756, t. I, p. 239.

(520) انظر

Guillaume Janneau, Le Mobilier français : le meuble d'ébénisterie, Paris, Jacques Fréal, 1974.

(521).Nicolas Gauger, La Mécanique du feu, ou L'Art d'en augmenter les effets et d'en diminuer la dépense, Paris, 1713.

(522).William Ritchey Newton, Derrière la façade vivre au château de Versailles au XVIIIe siècle, Paris, Perrin, 2008, p. 108.

(523).Guillaume Janneau, Le Mobilier français le meuble d'ébénisterie, op. cit., p. 74.

أو «ألواح منزلقة»[524]، أو «منضدة الزينة» ذات الفتحات المتعددة «المزودة بمزالج»، وساترة المرآة، و«الأجراف»، والأدراج الأمامية والجانبية، وتدرج المستويات[525]. على هذا النحو، يؤدي متخيل لـ «الاقتصاد» إلى تحويل الحركات اليومية، على الأقل بين الأكثر ثراء. مع وجود اختلافات أخرى أيضا؛ حيث تعد الاختراعات الإنجليزية أكثر «تقدمًا» من اختراعات الآخرين؛ ويقول المسافرون إنهم يجدون «الفن الميكانيكي» أكثر تطورًا في إنجلترا، إلى درجة أن «كل شيء أيسر، وأبسط، ومتقن بشكل أفضل»[526].

من الانقباض إلى الغشيان

ولمثل هذه الاهتمامات ما يطابقها في النظر الطبي. إن زيادة الحساسية قلبت أيضًا أنماط الوصف، وأدت إلى تكاثرها، بما يتجاوز الفروق الدقيقة التي بدأها العصر الكلاسيكي بالفعل. إنها أعراض ميزتها تفاقة الأنواع، وهي حالات لها أسماء وأسباب ونتائج. ويذهب الطموح إلى «تصنيفات الأمراض»، أو التسمية الدقيقة للأمراض. ونجد هنا تغيرا ملحوظا. التخلي عن التسمية التقليدية الوحيدة للداء بموضعه، «أمراض الرأس والصدر والمعدة والساقين»[527]، من أجل فهم الاختلافات والأشكال والتطورات بشكل أفضل، وفقًا لـ «الطريقة السببية»[528].

ويبدو «الانقباض» بعد ذلك حالة أولى من التعب؛ إذ تمت تسميته بوضوح، ويتعلق الأمر بإشارة غير مسبوقة أعطاها ويليام بوكان، في كتابه الطب البيتي، الذي نُشر عدة مرات بعد عام 1770، مُقدِّما تعريفاً معيارياً: «آلام خفيفة في جميع

(524) .Ibid., p. 136.
(525) .Ibid., p. 173.
(526).Jacques Cambry, Promenades d'automne en Angleterre, Paris, 1791, p. 44.
(527). انظر
Saint-Hilaire, L'Anatomie du corps humain avec les maladies et les remèdes pour les guérir, Paris, 1680.
(528).François Boissier de Sauvages, Nosologie méthodique (1763), Paris, 1770, t. I, p. VII

الأطراف: في الظهر، في الكلى، في البطن [...]؛ الحرارة في الرأس، في الأحشاء [...]؛ المتاعب المثارة في الجسد كله بفعل إسراف ما»[529]. ولا يعني هذا أن اكتشاف الظاهرة لم يتم إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. لقد ذكرتها بعض القصص في القرن السابق، وكان هناك تصور غامض حولها. ولكنها هنا قد وُهبت اسما ووصفا، وشرحت: «احتباس العضلات، والأوعية الدموية المتضخمة، والسائل العصبي المنهك»[530]. وهي كذلك موضوع يقظة ظلت غائبة حتى الآن؛ حتى إن ويليام بوكان زعم أن «لا أحد تحدث عنها من قبل[531]». وأضاف جوزيف ليوتو في الفترة نفسها أن «الصمت كان محيطا بها[532]»، وكلاهما وقف مليا على ملامح «الداء»، وآلامه الغامضة، وإحساساته المبهمة، وتأثيراته الخفية؛ مما يكشف عن مساحة داخلية لم تكن مساءلتها معتادة من قبل[533]. وتتراكم المفاهيم لأجل هؤلاء الأطباء «المصنفين»، المتقصين للمراحل ودرجات الشدة. ويستحضر معجم الصحة المحمول في عام 1770، ما وراء «الانقباض»، من قبيل «التعب»، و«انخفاض القوة بقدر كبير إلى درجة الإخلال بالوظائف[534]»، و«الإنهاك»؛ حيث يسمح الضعف «بالحفاظ على الذات بصعوبة[535]»، و«الخور»؛ حيث «تميل القوى الحيوية إلى الخمود[536]»، و«الغشيان»؛ حيث «تنهار فجأة جميع القوى والوظائف الحيوانية والحيوية[537]». يتعلق الأمر بتقدم تقريبي بلا شك، بل تقليدي تماما وحتى تجريبي، ولكنه علامة على زيادة لا يمكن

---

(529).William Buchan, Médecine domestique (1775), Paris, 1792, t. IV, p. 487-489.
(530).François Boissier de Sauvages, Nosologie méthodique, op. cit., t. II, p. 418.
(531).William Buchan, Médecine domestique, op. cit., t. IV, p. 487
(532).Joseph Lieutaud, Précis de la médecine pratique, Paris, 1761, p. 67.
(533). انظر
Georges Vigarello, Le Sentiment de soi : histoire de la perception du corps, XVIe-XXe siècles, Paris, Seuil, 2014, «La sensation inédite d'un dedans », p. 22.
(534).Charles-Auguste Vandermonde, Dictionnaire portatif de santé (1770), Paris, 1777, t. I, p. 368.
(535).Ibid., p. 300.
(536) Ibid., p. 216.
(537) .Ibid., t. II, p. 495.

إنكارها في قدر الاهتمام. وتتضاعف الفروق، مع معجم تريفو في عام 1743، إذ كشف عن إجهاد الأخلاط، خلط الصبر أو الأنكار[538] أو تصنيفات الأمراض المنهجية لـ فرانسوا بواسييه دو سوفاج في 1770-1771، والتي اتجهت إلى الدرجة القصوى من تراصف الآلام: سبعة عشر شكلا من الإنهاك، وثمانية أشكال من التراخي، وعدة أشكال من «التهاب الصفيحة»، وعدة أشكال من «الفشل»، وعدة أشكال من «التنميل»؛ وكلها مصنفة ضمن صور «الضعف»[539]. وتتسع الأعداد حتى الدوار مهووسة بالتمييز، وهي تقابل التعب الناتج عن الأمراض بغيرها، مما يفترض أن يشير إلى «ما يهم بالنسبة إلى الطبيب»[540]، مع التذكير بما يرتبط بالجهد والإنفاق والإفراط. ومن هنا إصرار «مصنف الأمراض» على أن:

الإنهاك يختلف عن الحمى الخبيثة والشلل السفلي، من خلال العلامات الخاصة بهذين النوعين، ولكن لم يتم تمييزها بشكل كاف حتى الآن؛ لن نخلط بينه وبين التراخي عندما نعتبر أن التعب هو إحساس غير مريح، معقد مع الإرهاق[541].

إنه بالفعل الشعور الحميم الذي لا يزال يُستشهد به بصفة أولوية في ثقافة النخبة، والشكل المؤثر، والتعديلات المتنوعة لـ«التضاؤل»، وحضورها في أكثر لحظات الحياة انتشارًا. على شاكلة احتياطات بوفون: «نادرًا ما أكتب حتى لا أتعب عيني، اللتين أصبحتا ضعيفتين جدًا لمدة عام»[542]. أو التفاصيل المتكلّفة تقريبًا التي يحفل بها بومارشي: «إن هذه القطعة التي سحرتني عن البيان، ونقلت من الفصل إلى الإطار الكبير، كانت على وشك أن تتعبني إن لم تكن مزعجة لي

(538) Dictionnaire de Trévoux, op. cit., art. « Épuisable », « Épuisement », « Épuiser. »
(539) François Boissier de Sauvages, Nosologie méthodique, op. cit., t. II, p. 290-364.
(540) Ibid., p. 391.
(541) Ibid.
(542) Georges-Louis Leclerc Buffon, lettre du 21 novembre 1759, Correspondance, Paris, 1869, t. I, p. 75.

أولاً»[543]. أو اهتمام الأمير دو لين الذي يمد التعب إلى وهم أحلامه الليلية: «أمضي جزءا من لياليَّ على متن الحصان، أنا الذي لا أمتطيه إلا قليلا [...] وأتسلق جبلًا بارتفاع جدار [...]»[544].

---

(543) .Pierre-Augustin Caron de Beaumarchais, Œuvres complètes, Paris, 1865, p. 206.
(544) .Charles-Joseph de Ligne, « De moi pendant le jour, de moi pendant la nuit » (1783), in Jeroom Vercruysse (éd.). Écrits sur la société. Paris, Honoré Champion, 2010, p. 393.

الفصل الرابع عشر

العَصَب، من الاهتياج إلى «الدوامة»

إن تغير اليقظة أمر حاسم، بقدر أعمق مما يبدو، في صفوف الأثرياء على وجه الخصوص. ويركز الاهتمام الجديد على «الحساسية» بشكل مختلف. عندما يعترف باكولار دارنو بفرلسان قائلاً: «لقد ولدت حساسًا. هذا، يا سيدي، هو المصدر الرئيس لمآسي وآلامي»[545]، وعندما يقر الأب بريفو على لسان دي غريو قائلاً: «إن أنبل الناس [...] يملكون أكثر من خمس حواس»، وتخترقهم «الأفكار والأحاسيس التي تتجاوز حدود الطبيعة»[546]؛ أو عندما تعترف إحدى مريضات صموئيل تيسو في عام 1789 قائلة: «كان لدي، كما تقول في بلدنا، سونسوريوم [دماغ] دقيق للغاية وحواس رائعة للغاية [...]»[547]، تتحول النظرة، فتتجه نحو التوتر الحميم، وتعبئة الأعصاب، والتحفيز، مع النتيجة النهائية الممكنة، والمتمثلة في الانهيار، والاكتئاب، وفقدان الإثارة. وعن هذا تنشأ أسباب أخرى أيضًا، وتتولد آليات أخرى، وتفسيرات مغايرة؛ كما تتجدد مناسبات الإنذار، والاضطراب، وعدم الرضا. إن الشعور بالتعب يتم بشكل مختلف لأن تفسيره يتم بشكل مختلف.

(545) .François-Thomas-Marie de Baculard d'Arnaud, Épreuves du sentiment, Sidney et Volsan (1772), in Henri Coulet (éd.), Nouvelles du XVIIIe siècle, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 2002, p. 859.

(546) .Antoine-François Prévost, Histoire du chevalier des Grieux et de Manon Lescaut (1733), in René Étiemble (éd.), Romanciers du XVIIIe siècle, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1966, t. I, p. 1276.

(547) انظر

Nahema Hanafi, Le Frisson et le Baume. Expériences féminines du corps au siècle des Lumières, Rennes, Presses universitaires de Rennes, 2017, p. 57.

ينكشف هنا كون «جسماني» جديد يفصل «المؤثر»، والقابل للإثارة؛ فيعدل الحوافز، وردود الفعل بدءًا من الحيوية إلى التوترات، ومن الحماسة إلى الانزعاج؛ مما يجعل الجسم امتدادًا للوعي، باهتزازاته، ونبضاته، وحركاته. إنه إصرار غير مسبوق يغير الأفق الداخلي، في الوقت نفسه الذي تحولت فيه رؤية الجسد. إن تمثل العضوي، هذه المرة، هو الذي تغير. يتنوع التعب وينفتح على جوانب أخرى. لقد أعيد ترتيب العالم: لم يعد الأمر يتعلق بالأخلاط وحجمها وطرقها، بل بالتيارات وتأثيرها وشدتها. لم يعد يتعلق بالسائل العضوي وضعفه، بل بالجوهر الجسدي ولنبيره. وأعيد اختراع الصور، وتوجيهها نحو مراجع أخرى وأحاسيس أخرى. قال ديدرو: «الألياف [في الجسم] هي نظير الخط في الرياضيات»، وهذا قول يوجد في «مبدأ الآلة بأكملها»[548]. وكذلك مبدأ جورج تشيني، من عشرينيات القرن الثامن عشر: «هناك أشخاص لديهم ألياف مفعمة بالحيوية وجاهزة للاهتزاز ومرنة لدرجة أنها ترتجف بعنف مع أدنى حركة أو ضعف حسب حالة الشعيرات والأعصاب»[549]. وتجدد التفكير في سبل المقاومة الممكنة، والتي تتعلق بأجزاء الجسد، مثمنة قوامها وشدتها، فتفرض تارة القوة وتارة الضعف بحسب حالة الحبال والأعصاب. وأجريت أيضًا تجارب تهدف إلى توليد الاهتياج والتوتر. وهذا دانييل دولاروش، في عام 1778، يثير قلب ضفدع، ويدفعه إلى تقلصات عنيفة، قبل أن يلاحظ أنه يصبح، بفعل «التعب»، «عديم الحساسية تجاه أي نوع من المثيرات»[550]. والنتيجة المتوقعة: إن الجهد

(548) .Denis Diderot, Éléments de physiologie (ms. 1769), Paris, Didier, 1964, p. 63-66.

(549) .George Cheyne, Règles sur la santé et sur les moyens de prolonger la vie (1724). Castanet, Michel d'Orions, 2002, p. 131-132.

(550) .Daniel Delaroche, Analyse des fonctions du système nerveux, Genève, 1778, t. II, p. 180.

و لإرهاق الناجم عنه يميلان إلى تقليل «نشاط اسائل العصبي»[551]. لا شيء سوى بداية تجسيد الإرهاق بدلالة فقدان رد الفعل العضلي

وتعزز التعبير بسياق شبه تقني: اكتشاف الكهرباء، «هذا الحقل» الذي «انفتح»[552] حديثًا، كما يؤكد جوزيف بريستلي في عام 1770، وهذا اليقين بأن «السائل الكهربائي موجود ويعمل في كل مكان»[553]، وهو أيضًا ما يمكن تحفيزه في مواجهة «الفشل، والتراخي»، وحتى «الشلل»[554]. ويروم عديد «المجربين» هنا تعديل القوى. يقول عديد الشهود إنهم «اختبروا إحساسًا غير معهود» في «الجسم كله» بعد أن «تم تزويدهم بالكهرباء لفترة طويلة»[555]. وأمكن إخضاع «الصدمات» الكهربائية للنقل، و«التلاعب» والشرح[556]. وعلى نطاق أوسع، تزعم الجمعية الملكية للطب، وهي بصدد الحديث عن «الجو العاصف» والبرق، أنه يسبب «نوعًا من الضعف لدى الإنسان والحيوان»[557]. الشرح الذي أصبح «واضحًا»: فالظاهرة الغامضة التي تستحوذ على كهرباء الغلاف الجوي، بإزالتها من الأجسام، تحول فقدان السوائل في كل كائن حي إلى فقدان للقوة. وهذا ما تؤكده مجلة الطب: «شعرت أن الطقس الممطر قد أثقل جسدي»[558]، أو

---

(551) .Ibid.

(552) .Joseph Priestley, Histoire de l'électricité, Paris, 1770, t. , p. XVIII.

(553) .Ibid., p. xx.

(554) . انظر،

Pierre Berthолon, De l'électricité du corps humain dans l'état de santé et de maladie, Lyon, 1780, p. 263.

(555) .Joseph Priestley, Histoire de l'électricité, op. cit., p. 253.

(556) . انظر،

Pierre Brunet, Les Physiciens hollandais et la méthode expérimentale en France au XVIIIe siècle, Paris, Blanchard, 1926, [عن تجارب الأب مولي، انظر ص. 113].

(557) .Pierre-Jean-Claude Mauduyt, « Sur l'électricité considérée relativement à l'économie animale et à l'utilité dont elle peut être en médecine », Histoire de la société royale de médecine, Mémoires de médecine et de physique médicale, 1776, p. 509.

(558) .« Recherche sur les causes des affections hypocondriaques », Journal de médecine, mars 1780, p. 196.

بالعكس: «إن الكهرباء تزيد من سرعة النبض[559]». فالموضة هي «التكهربات»؛ ترياق لصور الضعف الخفيفة التي تصيب الجسم. حتى إنه قد أمكن لـ بيير بيرتيلون أن يذكر، في عام 1780، أسلوبًا يربط بين أكثر المبتكرات فضولًا وبين أكثر المعتقدات ابتذالًا: تلك الخاصة بزوجين يقولان إنهما استعادتا خصوبتهما عن طريق عزل سريرهما قبل توصيله بآلة كهربائية[560].

ثم إن التيارات والمحفزات والدوائر العصبية تؤدي، شيئًا فشيئًا، إلى علاقات أخرى مع التعب. وذلك من قبيل الإرهاق المترتب عن الإثارة المفرطة أو «العصبية». ومنه انهيار الآنسة هارلوف، في رواية صموئيل ريتشاردسون، وهو يقدر بقلقٍ عواقبَ اختطاف الآنسة من قبل لوفليس: «متعبة للغاية والروح منهكة أكثر من الجسد»[561]. أو انهيار مانون ليسكو، «المنبوذة» في أمريكا، في مواجهة التهديدات وخيبات الأمل والمصاعب التي تغلبت عليها بشكل سيئ: «فاترة ومتوهنة»، وتمكنت في محاولة أخيرة من «النهوض بالرغم من ضعفها»[562]. أو انهيار الآنسة دو ليسبيناس، مرة أخرى، والتي تعترف بأن لديها «أحاسيس أكثر من الكلمات الصالحة لوصفها»، قبل أن تختم قائلة: «لم يعد العلاج هو ما أرغب فيه، بل الهدوء»[563]. إن فرط الاهتزاز يتعب، شأنه في ذلك شأن غيابه: عجز ناتج عن إفراط أو فقدان الحرارة. ويتحدث لوي-سيباستيان ميرسيه، في عام 1782، عن «بخاريات» الأنوار، من قبيل أن «رخاوة الجسم [...] تنزع من الألياف

(559) « L'électricité augmente-t-elle la vitesse du pouls ? », Journal de médecine, mars 1782, p. 263.

(560) انظر:
Pierre Bertholon, De l'électricité du corps humain dans l'état de santé et de maladie, op. cit., p. 303.

(561) Samuel Richardson, Lettres anglaises, ou Histoire de Miss Clarisse Harlove (1756), trad. abbé Prévost, Paris, Desjonquères, 1999, t. I, p. 553.

(562) Antoine-François Prévost, Histoire du chevalier des Grieux et de Manon Lescaut, op. cit., t. I, p. 1353 et 1365.

(563) Julie de Lespinasse, Lettres de Mlle de Lespinasse, op. cit., p. 75.

المرونة اللازمة لعمل الإفرازات بانتظام»[564]، والانهيار الذي يعقبه «خور» أصبح «عذابًا»: «يشعر الكائن أنه موجود بينا أعصابه تتلاشى، ولم تعد الأعصاب قادرة على نقل الأحاسيس التي هي حواملها»[565]. وتندرج التيارات والمحفزات في قلب المعايير الجديدة. صار «الرنى»، أو ضعف التفاعل في صميم مؤشرات الإنهاك المنفحة. وظلت الاستعارات الجسدية سائدة، لكنها أصبحت مختلفة للحديث عن الكائن المتعب.

الإثارات «الشاقة»

ومن ثم وجدت مصادر تذكر هي نفسها بشكل مختلف، وتحلل بشكل مغاير. يُنظر إلى المدينة، على سبيل المثال، كما في السابق، بوصفها مكانا للاضطراب أو الضجيج، لكنها تكشف عن نفسها، مرة أخرى، بوصفها مكانا للتبرم و الحمى؛ حيث يجري الانزلاق نحو «الدوار»، والإرهاق الملحوظ: «حركة الدوامة» التي «تؤذي»[566] كما يقول بوفون، أو «الدوامة الصاخبة» التي يسعى المسافر أحيانًا إلى «عزل نفسه»[567] عنها، بل «الدوامة الصاخبة والسريعة» التي يذكر منها لوي-سيباستيان مرسييه الحاجة الدائمة إلى التنقل والتسرع، و«سباق» «العربات»، و«الحمالين»، و«الخيالة»، و«المتقاصين»، بل «الحلاقين»[568]؛ إنه فوران عصبي بالكامل، أو بكل بساطة على «التعب بفعل حرك مشهده الدائم»[569]، وسرعة مفروضة، بل سعار، وقد أصبح ضجرًا لا مفر منه؛ أو «قرية

(564) Louis-Sébastien Mercier «Les vapeurs», Tableau de Paris (1780), Paris, Mercure de France, 1994, t. I, p. 033.

(565) Ibid.

(566) Georges-Louis Leclerc Buffon, lettre du 12 août 1781, Correspondance, op. cit., t. II, p. 104.

(567) Journal d'un provincial à Paris 25 juin-1er août 1784, dédié à ma charmante amie. Paris, 1784, p. 133.

(568) Louis-Sébastien Mercier «Les heures du jour», Tableau de Paris, op. cit., p. 673.

(569) Jean-François Marmontel, Mémoires (1786), Œuvres complètes, Genève, Slatkine, 1968, t. I, p. 85.

العمل» مرة أخرى، كما ذكر روسو[570]. ولم يزل البلاط، كما كان من قبل، مكانًا للانشغالات القسرية، والزيارات الشاقة، ولكنه أيضًا، محل «إثارة للحواس»[571] حديثًا؛ وهو مناسبة «أزمة الأعصاب الرهيبة»[572]، وحضور مزعج لـ «مجموعات متنوعة بلا حدود تتحلل باستمرار وتتكون من جديد بشكل متبادل»[573]؛ مما يزيد من الانتباه ويغير الحيوية. لا شيء حتى الحرب يمتنع انتهاكه عن اتباع سبيل العزم نفسه، مضيفًا إلى جهود الجسد الانفعالات الناتجة عن الاضطرابات والانفجارات والخوف. قال أولريش براكر، وهو فلاح سويسري جنده النمساويون قسرًا في منتصف القرن الثامن عشر، إنه كان «منهوكًا حقًا»[574] في معركة لوزيتز عام 1756؛ حيث حُرم من الحركة في غمرة الغضب، قبل أن يتمكن بمشقة من الهروب عبر كروم العنب والبساتين. بينما قال فريدريك هوفمان، الذي استشاره «عقيد شجاع» في خمسينات القرن الثامن عشر، إنه كان صحبة «ضعف كبير من النوع العصبي»، منهك بسبب «الإثارة المفرطة للروح والجسد»[575].

وهو ما ينقله صموئيل تيسو في صورة شهادات «مزعجة»، تلك الخاصة بأولئك المسنين «المنهكين»، الذين تعرضوا للوهن بشكل نهائي بسبب الأزمات المتتالية، والذرى الشديدة التي أعقبتها الاثيرات الشديدة، والتي يصعب الاعتراف بها: «إلى العلة والحساسية غير العادية من النوع العصبي وإلى الحوادث التي تسببها، ينضاف ضعف، وعدم ارتياح، وملل، وضيق كلها تصيبي كأنها

(570) Jean-Jacques Rousseau, Émile, ou De l'éducation (1761), Paris, Garnier, 1951, p. 37.

(571) Louis-Sébastien Mercier, Songe d'un hermite. Paris, 1770, p. 4.

(572) Nicolas-Edme Rétif de La Bretonne, Tableaux de la bonne compagnie, Paris, 1787, p. 27.

(573) Ibid., p. 55.

(574) Ulrich Bräker, Le Pauvre Homme du Toggenbourg (ms. XVIIIe siècle), trad. Caty Dentan, Lausanne, Éditions de l'Aire, 1978, p. 156.

(575) Frédéric Hoffman, Consultations de médecine, Paris, 1754, t. I, p. 165.

تتنافس علي فيما يبدو»[576]. أو هذه الإشارة المباشرة إلى الانهيار العصبي: «أعصابي ضعيفة للغاية، ويداي بلا قوة، وترتجفان دائمًا وتعرقان باستمرار»[577].
بل إن الاستمناء أصبح نموذجا للضعف بفعل «التشنج»؛ رمز «الفقدان التام للقوة»[578]، أو أيضا «الاسترخاء التام من النزع العصبي»[579].

ينبغي تعقب ملاحظات هوفمان اللامتناهية من تشنجات، وألوان من الضيق، والاحتدام، والتصلب، والتوتر التي يشعر بها رجل «عانى كثيرًا من التعب»، بعد أن أسرف في «التعامل مع النساء»، من أجل قياس التجديد الشديد للانتباه للأعراض المعنية، والمقاربات المتجددة باستمرار مع بعض «أمراض الأعصاب»:

يشعر بعد الأكل بحكة وحرقة شديدة على الجلد، وبخاصة على الذراعين ومفاصل الأصابع ثم يشعر بألم فريد في مكان معين فقط من الكتف الأيسر. ويعاني من تشنجات وشد مؤلم في الكتفين والرقبة وعلى طول العمود الفقري، وبمجرد أن يتحرك، تسمع له طقطقة في هذه الأجزاء؛ إنه يتألم بشكل خاص بسبب احتدام غير مريح في راحة اليدين، والذي يتوقف بمجرد أن ترطب. ومن وقت لآخر يشعر بآلام مبهمة في العضلات الوربية. بطنه لا يعمل إلا عن طريق الحقن الشرجية أو حبوب هوفمان البلسمية. تعذبه الأرياح، خصوصا في الليل، ويشعر تجاه المراقين أسفل الأضلاع الكاذبة، بتوتر معين هو، مع ذلك، أقل مما كان عليه من قبل. وللعابه دائما رائحة لاذعة بعض الشيء، ولا يعرف ما إذا كانت هذه الرائحة من التبغ الذي يدخنه كثيرا مما يجعله يبصق كثيرا، أو بالأحرى من سوء الهضم وعصارة البنكرياس الناتجة عنه. وبدأ يتمتع بشهية جيدة وقوته ليست منهكة إلى الدرجة التي تمنعه من ركوب الخيل والمشي لفترة طويلة دون أن يتعب.

---

(576) Samuel-Auguste Tissot, L'Onanisme (1760), Paris, Éditions de la Différence, 1991., p. 48.
(577) Ibid., p. 50-51.
(578) Ibid., p. 45.
(579) Ibid., p. 47.

لم يعد يعاني من العرق أثناء الليل، ونومه ونبضه في حالة طبيعية، إلا أن جسده لا يفيد. ويكون البول الذي يخرج منه في الصباح غزيرًا وذا لون أبيض ضارب إلى الأصفر الفاتح، لكن الذي يخرج منه في نحو الساعة العاشرة صباحًا يظهر بكمية أقل ويضرب إلى الحمرة؛ وبعد ساعتين من الراحة، تتجمع رواسب غزيرة تشبه الرمال الحمراء، وتتشبث بقوة بجوانب المبولة. وفي الآونة الأخيرة، إلى جانب احتدام الذراعين واليدين، هناك احمرار في المفاصل وألم حاد يمتد إلى الفخذين. وأحيانًا، خصوصا في الليل، يعاني من تصلب شديد في الرقبة يزيله العرق. وغالبًا ما يشعر بتوتر مؤلم في حلمه وعبه اليمنى مصحوبًا باحمرار. لا يعاني من عطش ولا من سعال مزعج، إلا عندما يخرج البلغم المالح. وأحيانًا يفرز برازًا أبيض ويكون أكثر عرضة للعرق. ويصبح تنفسه صعبًا أثناء سيره، لكن هذا فوائد تريحه؛ فهو يتقيأ من حين لآخر بمخاط لازب ومتخثر يخرج من صدره[580].

شهادة مطولة تتسم بالجلد والعمق معا

«اضمحلال»

هذا التركيز على الحساسية يعيد أيضا رسم مجال الضعف الجماعي لا محالة. إنه يوسع المشاشة، ويعمم قابلية العطب، ويجعل «حداثة» الأنوار تأكيدًا لكل من «الإثارة» و«الثوران». ويتضح هذا من خلال السؤال المطروح للتباري من قبل كلية الطب في كوبنهاغن عام 1777. وهو «ما إذا كانت الأمراض أو التشنجات المتقطعة أكثر تكرارا في السنوات العشر أو العشرين الماضية من السابق، وما هي أنسب العلاجات للشفاء منها»[581]. أو ملاحظة صموئيل تيسو التي تذكر زيادة «النوع العصبي»، الحامل الحتمي لـ«الخَوَر»، في «ربع صغير» بجبال الألب السويسرية، بعد ستينيات القرن الثامن عشر، و«الانتقال من الأنشطة الغابية إلى الأنشطة المستقرة؛ إذ لم يعد الأمر يتعلق بقطع الخشب أو النقل بالعربات، ولكن

(580) Frédéric Hoffman, Consultations de médecine, op. cit., t. VII, p.328-330.

(581) « Prix », Journal de médecine, chirurgie, pharmacie, juillet 1777, p. 92.

بقطع الأحجار الكريمة، أو البلور الجبلي، أو صناعة المجوهرات، لم يعد يتعلق بالحركات الوافرة والمنتشرة، بل بالحركات المحدودة والمحصورة. انفصال لا يرحم: «الأكثر من عشرين عامًا، كانت المنطقة تعاني من أكبر قدر من آلام الكسل»[582]. انتصر ضعف الأعصاب، وشاع الوهن، وتحولت الحساسية[583].

وحينئذ فرضت إحدى الكلمات نفسها بين أهل العلم والأدب معا في النصف الثاني من القرن الثمن عشر، وهي كلمة «اضمحلال»، الناتج عن ضعف «التحفيز». وهو مصطلح مستوحى من بوفون وتحليله للتدجين: التقهقر المرئي في بعض الحيوانات ابتداء إن تحول كبش الجبل الريفي إلى «خروف ضعيف» بفعل الترويض، وغياب الحركة، والعيش اللطيف هو المثال الذي يُستشهد به دائمًا: قوى أكثر ضعفًا، وأشكال أكثر ضبابية. فالمدينة، و«ترفها»، ونشاطها، ومخاوفه، تلعب كلها دورا في «تغيير الأجساد»[584]، فنتجت عن ذلك مظاهر مشوهة، وقوى متوهنة. إنما تخلق «غوغاء جبانة»[585]. و«الرذيلة الأكثر شيوعًا في يومنا هذا» هي «التكوينات الناعمة والضعيفة والتريبة»[586]، مع النتيجة الحادة المتمثلة في «الانحطاط الحقيقي للتكوينات»[587]. والسبب: «ألياف أكثر مرونة، وبالتالي أعصاب أكثر حركة»[588]. هذه أمثلة غدت أكثر وضوحًا: قام جان باتيست موهو بتقييم دروع الفرسان القدماء في عام 1778، من خلال

(582) .Samuel-Auguste Tissot, Traité des nerfs et de leurs maladies (1770-1779), Œuvres, Paris, 1861, p. 60.

(583) انظر:

John Brewer, The Pleasures of the Imagination. English Culture in the Eighteenth Century, Chicago, The University of Chicago Press, 1997, « The Pleasures of the Imagination », p. 56.

(584) .Jean-Baptiste Louvet de Couvray, La Fin des amours du chevalier de Faublas (1790), in Romanciers du XVIIIe siècle, op. cit., t. II, p. 907.

(585) .Jacques-Antoine-Hippolyte de Guibert, Essai général de tactique (1772), Londres, 1773, p. 15.

(586) .Jean Verdier, Cours d'éducation à l'usage des élèves destinés aux premières professions et aux grands emplois de l'État, Paris, 1772, p. 9-10.

(587) .Samuel-Auguste Tissot, Traité des nerfs et de leurs maladies, op. cit., p. 159.

(588) .Ibid.

التأكيد على أن معاصريه لم يعد بإمكانهم ارتداؤها[589]، ويقيم الأب فرديناندو غالياني رحلات «الغزاة» الأوائل بالتأكيد على أن معاصريه لم يعودوا قادرين على مواجهتها: «انظر كم يكلفنا الذهاب إلى بلدان مجهولة [...] قياسا إلى ما كان لدى أسلافنا. انظر إلى أي مدى نحن منهكون، مترهلون، متدهورون»[590]. فالإنساني يوجد في صميم العملية: «يبدو من الثابت جدا أن النوع البشري يضمحل بالتدريج في أوروبا»[591]. وتتوقف الموسوعة عند ضرب من فساد الأعراق[592]. ويقولها لورنس ستيرن، مؤلف رحلة خيالية إلى باريس عام 1767، ولو بشكل كاريكاتوري. كل شيء هناك منهك: وجوه ذات «أنوف طويلة، وأسنان فاسدة، وفكوك معوجة»، وأجساد «معقودة، متهالكة، ومتحدبة»[593] كل شيء تقهقر: «نضوب الولادات، وتفشي صور الضعف، والأفراد قد صاروا تافهين عاجزين عن تجاوز ارتفاع ساق»[594]. ويتكرر التفسير بإصرار: المدينة، وانحصارها، وإثاراتها العبثية.

إنه اعتقاد، بالطبع، في الوقت الذي تراجعت فيه الكوارث الصحية بشكل متدرج مع عصر الأنوار[595]، وحيث أنتج مطلب التقدم غير المسبوق[596]،

---

(589) Jean-Baptiste Moheau, Recherches et considérations sur la population de la France, Paris, 1778, p. 122.

(590) Ferdinando Galiani, lettre à Diderot, 5 septembre 1772, voir Denis Diderot, Œuvres complètes, Paris, Le Club français du livre, 1971, t. 10, p. 951.

(591) Jacques Ballexserd, Dissertation sur l'éducation physique des enfants, depuis leur naissance jusqu'à l'âge de la puberté, Paris, 1762, p. 25.

(592) Jean Le Rond d'Alembert et Denis Diderot, Encyclopédie, op. cit., t. XXV, art. «Proportions», p. 604.

(593) Laurence Sterne, Voyage sentimental à travers la France et l'Italie (1768), in Voyages imaginaires, songes, visions et romans cabalistiques, Amsterdam, 1789, t. 28, p. 104.

(594) Ibid., p. 105.

(595) انظر

Patrice Bourdelais, Les Épidémies terrassées : une histoire de pays riches, Paris, La Martinière, 2003, sur le «recul de la mort», p. 59.

(596) انظر.

بصورة مقلوبة، الخوف من التدهور. ومن ثم وُجِدَت الاهتمامات التي كانت ربما أكثر قلقا وأكثر استهدافًا. فالأعطاب، والأجساد المعوجة، والخطوات العرجاء، المهملة أو المتجاهلة لفترة طويلة، على الطرقات أو في المدن، تستعر بشكل مختلف. ووجودها يصدف قبولًا أقل. ورؤيتهم تنذر، ملهمة أسئلة جديدة: ماذا لو تلاشى السير قدما؟ ماذا لو ساد الاضمحلال؟ من هنا مرة أخرى هذا الشعور بنمو السكان؛ هذه النظرة الجديدة الملقاة عليهم، أولئك الذين أصبحوا فجأة «ثمينين» مع بدايات الصناعة المترددة، أو المبادرات المترددة أيضا لبرجوازية تندد بـ «إنهاك»[597] العالم القديم. ويخترق الصراع صفوف النخب: استثمار مبتكر في المستقبل أم رسوخ أرستقراطي في الماضي؟ لا يوجد شيء كاريكاتوري من هذا القبيل، بلا شك، لكن توقعات عالم في طور النشوء عززت فجأة القوى الجماعية، موحية باستعادة «الأعصاب» على نطاق واسع- «البشر هم الثروة الحقيقية للدولة وهي الأكثر إهمالًا»[598]، وهذا ما يصر عليه شارل فانديرموند، رئيس تحرير مجلة الطب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ ويضيف قائلا: «يجب أن نعيد تشكيل أعضائنا»[599]، ويحرص على برنامج وعلى حدوث «تجديد»، مانحا معنى لعبارة «الوقاية العامة»[600] الجديدة تمامًا، والتي من المفترض أن تتطلب من الدولة ضمانًا غير مسبوق للرفاهية والصحة. ونجد الانشغال نفسه بالقلق في شعر ليوبولد دو جينيتي، في عام 1767، بشأن الروائح المؤذية التي تسود في المستشفيات، والتي من المرجح أن تقصر من حياة المرضى الذين كانوا مع ذلك

Isabelle Queval, S'accomplir ou se dépasser ; essai sur le sport contemporain, Paris, Gallimard, 2004, sur « falsibilité de progrès » au XVIIIe siècle, p. 125.

(597) .Jean-Charles Desessartz, Traité de l'éducation corporelle des enfants en bas âge, Paris, 1760, p. VI.

(598) .Charles-Augustin Vandermonde, Essai sur la manière de perfectionner l'espèce humaine, Paris, 1756, t. II, p. 31.

(599) .Ibid., p.VII.

(600) .Patrice Bourdelais (dir.), Les Hygiénistes, enjeux, modèles pratiques, XVIIIe-XXe siècles, Paris, Belin, 2001 , voir Patrice Bourdelais, « Les logiques de développement de l'hygiène publique».

«قابلين للشفاء»، وهم أنفسهم «مجرد شحاذين بسطاء وفقراء [...] ينفمون الدولة وتحتاجهم للغاية»[601]. وأصبح السكان، لأول مرة، قوة مجهولة المصدر، وموردا هائلا وأصم، من المفترض أن يمد يد عونه: وعد القوة ومطلب الحماية. ومن هنا جاء وصم أي تجمع جماعي بأنه شيء مخيف.

(601) .Léopold de Genneté, Purification de l'air croupissant dans les hôpitaux, les prisons et les vaisseaux de mer, Nancy, 1767, p. 3.

الفصل الخامس عشر

حديث القوى

لا شك في أنها رؤية نظرية للغاية؛ إذ ظلت المساعي الملموسة نادرة إلى حد كبير، كما ظلت الصيغ المعبرة عن مسؤوليات الدولة، بشأن صحة الجميع، صيغا ضعيفة خلال سنوات 1760، وظلت الهيمنة لدى الدولة لخيار «الحكم، والمراقبة، والضغط»[602] على حساب خيار «مساعدة أو المؤازرة». وفي المقابل، فَضَّلَت ثمة أسئلة جديدة، وتقديرات أثارها هذا القلق إزاء «الاضمحلال» على شاكلة الاهتمام بدائرة العالم المحسوس، وبطابعه المادي، والوظيفي: إنها حسابات غير مسبوقة بصدد قوى الإنسان، واستفسارات حول مقاوماته، وعتبات التعب والوهن.

وراء التحول الكبير نحو الداخل، والاستكشاف الذي لا يزال مترددا للحساسية، يحدث تحول كبير أيضا مع عصر الأنوار، وذلك نحو الخارج، وهو بالحل عبارة عن استكشاف متردد للقوى وحساب لها، ومواجهة لها بالتعب وبالحدود التي يمكن أن يفرضها هذا الأخير. وكان بوفون أحد لأوائل الذين عبرو عن مثل هذه المسائل، منذ عام 1749، بأكبر قدر من الوضوح: «الإنسان المتحضر يجهل قواه، ولا يعرف كم يخسر منها بسبب الدعة، وكم يمكنه أن يكتسب منها بالاعتياد على التمرين القوي»، خصوصا وأنه يعيش في «مجتمع يعمل فيه الذهن أكثر من الجسد، وحيث لا يمكن لعمل اليد إلا أن يكون من مهام أسافل الناس»[603]. وهذه ملاحظة أساسية تكشف عن ترغب تقييم أكثر

(602) .Pierre Rosanvallon, L'État en France, de 1789 à nos jours, Paris, Seuil, 1990, p. 45.

(603) Georges-Louis Leclerc Buffon. De l'homme (1749), Œuvres complètes, Paris, 1836, t. IV. p. 100.

دقة فيما يتعلق بالقوى البدنية، ويحسنها المنظور، ويحددها أيضًا؛ وتأسف، بالقدر نفسه، على عدم تقييم أكثر الأعمال «يدوية»، وهي تلك المتأتية من «الطبقة الأخيرة» للمجتمع، مع إهمال إحصائيات فوبان القديمة، المحصورة للغاية في عمليات تقليب الأراضي في الورشات الألزاسية.

إنها مسألة أكثر انفتاحًا، في النهاية؛ إذ إن الأنوار قد انتصرت للزمانية الجديدة زمانية التقدم، والمستقبل الواعد، والخصوصية «الإنسانية على وجه التحديد» التي حددها روسو، وهي «القدرة على اكتساب الكمال»[604]. ومن هنا كانت الشرعية غير المسبوقة إلى حد كبير الممنوحة لـ«الأكثر»، و«الأفضل»، ولفضيلة التجاوز والأريحية: هذا الفضول الحين دائمًا والذي يتساءل «إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يذهب»[605]؟ وهو ما يغير النظرة إلى الأشياء، وإلى أفعال كل واحد.

والحصيلة أن هناك عالمين يرتسمان، ولا يتوقفان عن التقاطع، بل يتجاهل أحدهما الآخر أحيانًا. التعب الذي يعاني منه العاملون، والتعب الذي يقيِّمه المراقبون، أحدهما يُشعَر به، والآخر يتم فحصه؛ وجهان من نفس «الحد»، وجهان يُستكشفان بلا نهاية.

مساءلة «الحد»

ثم نشأ انشغال غير مسبوق؛ إذ جرى البحث عن الإنجاز «الأقصى»، والإمكانيات المجهولة. يتعلق الأمر بانتظارات جديدة، واكتشافات جديدة، ولكن أيضًا بمصادر جديدة توسع هذا الفضول: رحلات الاستكشاف، الانفتاحات المتكررة على الخارج، وعلى «الآخرين»، وعلى الجغرافيات[606].

---

(604) Jean-Jacques Rousseau, Discours sur l'origine de l'inégalité (1755), Paris, Flammarion, 1931, p. 93.

(605) Isabelle Queval, S'accomplir ou se dépasser, op. cit., p. 125.

(606) عن أوائل الأبحاث من الصنف الأنثروبولوجي، انظر:

Jean-Nicolas Démeunier, L'Esprit des usages et des coutumes des différents peuples, Londres, 1776, 3 vol., « Le genre humain offrira désormais un spectacle monotone », t. I, p. V

وهذا ما تظهره رسالة بوفون في الإنسان بشكل واضح في منتصف القرن الثامن عشر: «شَيّالو القسطنطينية» بوصفهم مراجع قصوى في الشيل، مع هذا العدد غير المحتمل «900 رطل»[607] (450 كلغ) ترفع وتحرك من لدن الأشخاص؛ و«شطار أصفهان» بوصفهم مراجع قصوى في السباق؛ حيث يقطعون مسافة «ستة وثلاثين فرسخا في أربع عشرة أو خمس عشرة ساعة»؛ والهوتنتو بوصفهم مراجع قصوى في النزوح:

عبر الرحلات الطويلة التي يقومون بها سيرًا على الأقدام في أشد الجبال انحدارًا، وفي أصعب البلدان حيث لا يوجد طريق معلوم، ولا مسار محدد، يقال إن هؤلاء البشر يقطعون مسافات من ألف واثني عشر فرسخا في أقل من ستة أسابيع أو شهرين. هل توجد حيوانات ما عدا الطيور تمتلك بالفعل عضلات أقوى من جميع الحيوانات الأخرى؟ وهل هناك، كما أقول، أي حيوان يمكنه تحمل هذا التعب الطويل[608]

يوجد حدّ المقاومة في صميم السؤال. كما يوجد طلب العدد في قلب الاستقصاء، حتى العناية بالمعتقدات، من قبيل معتقدات «زنوج لوانغو» مثلا، هؤلاء الذين يؤمنون بأن المخلفات التي يحملونها في حقائبهم «تقلل من تعبهم»؛ حيث تجعلهم «أخف وزنا»[609].

كان جان ديزافوليه، عالم الميكانيكا البروتستانتي الذي هاجر إلى لندن، أحد الأوائل الذين حاولوا بالفعل، في بداية القرن الثامن عشر، مقارنة الأوزان المرفوعة، والمسافات المقطوعة، والسرعات، والمدد الزمنية. لقد أجريت الملاحظات، ولاحت الأعداد: «يمكن لشيال حمل 200 رطل والمشي بمعدل ثلاثة أميال في الساعة؛ ويمكن لشيال الفحم الحجري أن يحمل 250 رطلاً، لكنه

(607) Georges-Louis Leclerc Buffon, De l'homme, op. cit., p. 100.
(608) Ibid.
(609) Jean-Nicolas Démeunier, L'Esprit des usages et des coutumes des différents peuples, op. cit., t. III, p. 66.

بعد ذلك لا يستطيع النحاب بعيدًا لتفريغ حولته، رغم أنه من ناحية أحرى غالبًا ما يصعد درجات بهذا الوزن»(610). وهي مقارنة تجريبية بلا شك، لكنها غير مسبوقة؛ حيث تضفي صيغة منهجية على تقارير فوبان؛ تلك التي تدمج، في النشاط نفسه، الأحمال التي يجري نقلها ليس لأن هذا التعب محدد عدديا بوضوح هنا، ولا حتى لأن الطرق خاضعة للمُعيرة بشكل واضح، ولكن، في المقابل، يتم التفكير في عتبة «المحتمل» وفقًا لمعايير أكثر تنوعًا؛ إذ تجمع بين القوة والسرعة والوقت المستغرق. ويستقر التفكير لفترة طويلة، متعاملا مع الجوانب المتعددة للفعل نفسه، كما هو الحال مع عديد الصفات الجسمانية، من السرعة إلى القوة، ومن التحمل إلى الحذق.

بدء تحقيقات

تكشف مثل هذه المسائل بالتدريج عن طموح أكبر. فتنفتح الحساسية أكثر على البيئة المحيطة والأعمال والحقائق الواقعية. ويقترح العمل مزيدًا من التقصي. ويكتسب تحليله مزيدًا من الصرامة، مدفوعًا بالقلق من «الانحرافات»، التي تأتي من الحيل، بل من «التشوهات»، التي حملها أيضًا التثمين الجديد لـ «النفعية»(611)، ولـ «الطاقة»(612)، مثل «صورة الإنجليزي [...] نموذج الإنسان النشط، من فولتير إلى السيدة دو ستيل»(613) ويمكن أن يوجد عالم العمل، الذي طال إهماله، بشكل مختلف، إلى درجة تغيير وضعه. ويرى الاقتصاديون أنه عامل للثروة: فقوة السواعد، فيما وراء تأثيراتها الوحيدة على الأرض أو التجارة، تصبح قوة اجتماعية،

(610) Jean-Théophile Désaguliers, Cours de physique expérimentale (1717), Paris, 1751, t. I, p. 259.

(611) انظر:

Daniel Roche, «L'Encyclopédie et les pratiques du savoir au XVIIIe siècle», in Roland Schaer (dir.), Tous les savoirs du monde. Encyclopédies et bibliothèques, de Sumer au XXIe siècle, Bibliothèque nationale de France-Flammarion, 1996, p. 370.

(612) Michel Delon, L'idée d'énergie au tournant des Lumières, 1770-1820, Paris, PUF 1988.

(613) Ibid., p. 237

وموردًا جماعيًا؛ «كل شيء يحدث كما لو كان العمل شيئًا يتم اختراعه بطريقة مجردة وأداتية»[614] يوجد فيه فجأة احتياطي من القوة يفترض أن يغير العالم، إنها واقعية فائقة، وبراغماتية واعية. لم يعد الأمر يتعلق بـ«المعرفة» وحدها لدى الكلاسيكيين، بل بـ«فعل» التجريبيين وبفاعليته المنتظرة.

ومن ثم يتسلل الإرهاق لا محالة إلى الأوصاف، المرتبط بالمهارات، والعقبات المادية، والمقاومة الطبيعية، حتى لو استمر مفتشو المصانع، أصحاب السلطة، في تركيز الانتباه إلى حد كبير على النتائج المحققة أكثر من الصعوبات التي تتم مواجهتها: «إن الواقع المؤلم الذي يعيشه كل هؤلاء الأشخاص [...] لا يكاد يجذب تعاطفهم»[615]. وحصل التغيير مع ذلك في موضع آخر، وفي موضع آخر أيضا تجددت الصور القديمة لـ برنانتيو راماريني، المقتصرة على اعتلالات كل شغل على حدة، من أجل صور أوضح تمتد لتشمل الإرهاق المعتاد؛ وفي موضع آخر، أخيرًا، يتم تصحيح يقين بارونة أوبيركيرش، هذه الأرستقراطية المقتنعة بسهولة بالسعادة التي تلوح من وجه الفلاح. وهذا «الموضع الآخر» هو موضع الأدباء والأطباء والموسوعيين والعلماء المتعطشين للتطبيق[616]. تكشف لديهم «منطقة» جديدة غير معروفة من قبل، وتتصل بالأعراف والمهن والإنهاكات الجسدية، بعيدًا عن الاهتمام الوحيد الذي خص به فوبان الشيالين أو الحفارين. وتظل التجريبية مركزية، بلا شك، وكذلك التجريب. لكن مواقف العامل، «المجزأة مثل خطى الراقص»[617]، تخضع للتعميم بشكل مختلف. إنها تتم على يد

---

(614) .Dominique Méda, Travail : la révolution nécessaire, La Tour-d'Aigues, Éditions de l'Aube, 2013, p. 49.

(615) .Philippe Minard, La Fortune du colbertisme : État et industrie dans la France des Lumières, Paris, Fayard, 1998, p. 188.

(616) . انظر

Hélène Vérin, La Gloire des ingénieurs : l'intelligence technique du XVIe au XVIIIe siècle, Paris, Albin Michel, 1993.

(617) .Jacques Proust, Le Recueil des planches de l'Encyclopédie, L'Encyclopédie Diderot et d'Alembert : planches et commentaires présentés par Jacques Proust, Paris, EDDL, 2001, p. 14.

«نخبة» تروم القيام بدور «المهندس» أو «مُنظِّر العمل»، الذي لا يزال مجهولاً، وهي مهنة تخمينية إلى حد كبير، بينما تكشف عن تجديد حقيقي للاهتمام. إن الموسوعة تجعل دراسة «الفنون» وسيلة وصول أساسية إلى المعرفة في ذلك الوقت: «ينبغي البحث عن أروع البراهين الدالة على الفطنة لدى المهنيين»[618]. وقد اتخذت الأكاديمية الملكية للعلوم من «وصف الفنون والمهن اليدوية هدفا رئيسيا لمهمتها»[619]. ويجعل المعجم المُحكَم الشامل للفنون والمهن من تحليل الفنون الميكانيكية تجديدًا للثقافة: «جميع الكتابات التي لدينا عن الفنون الميكانيكية قليلة الشأن للغاية مقارنة بنطاق الموضوع وخصوبته»[620]. تبدأ الاستكشافات، وتتقاطع النتائج، وتشرع الاستنتاجات في الظهور، وكلها أكثر تواضعا لأنها لا تزال إلى حد كبير عبارة عن كلام أشخاص متبحرين.

ثمة مقارنات بين الحركات، قبل كل شيء، وبين الأدوات، والإجراءات، لأجل استحضار تلك التي تخفف القوى، وتحد من التعب، وتعزز الفعالية؛ إنها مواقف متنوعة ومتباينة تتصل بالعمل اليومي. وهو نهج متردد، لكنه متحول. ويتسم الطموح بطابع «عملي» لا نظير له من قبل. وتتضاعف الأمثلة. يلاحظ دوهاميل دو مونصو أن استخدام المَحَاشّ الطويلة والثقيلة في حصد القمح، وهي المستخدمة عادة في حصد الشوفان، يؤدي إلى «انتكاس مؤلم جدًا للجسم»[621]، ومن ثم كانت التوصيات التي تضبط وجوه استخدامها في كتابه مبادئ الزراعة. وتتصل ملاحظاته، في موضع آخر، بإهمال ضارّ، وهو تجاهل إنشاء سطح مستوٍ

(618) Jean Le Rond d'Alembert, « Discours préliminaire », in Jean Le Rond d'Alembert et Denis Diderot, Encyclopédie, op. cit., t. I, p. XIII.

انظر أيضا النص المرسل إلى المساهمين (1751): «هناك أمور كثير لا يمكن تعلمها إلا في المعامل»، ص. 2.

(619) انظر المائة وثلاثة عشر مجلدا التي نشرتها الأكاديمية الملكية للعلوم في موضوع مثل هذا من 1761 إلى 1788

(620) Abbé Jaubert, Dictionnaire raisonné universel des arts et métiers, Paris, 1773, t. I, p. XIV

(621) Henri-Louis Duhamel Du Monceau, Éléments d'agriculture, Paris, 1763, t. I, p. 376.

على منحدر السقف، مع بوح خشبي رسلم، وهو أمر ضروري لاعتماد «الوضع الأكثر ملاءمة»[622]، ومن هنا كانت توصياته في كتاب صناعة السقّاف. وفي موضع آخر أيضا، يقارن هولو دعسات الخراط ليختم حديثه بالدعسة التي تبدو «أكثر ملاءمة»: مقومة أقل، وحركة أسهل، بفضل جهاز «عارضة التوازن». وتقارن الموسوعة ضربات المجذاف، وتصر على ضرورة تجنب «دوران المجذاف حول محوره»[623]، تحت طائلة التعب غير المجدي. ويقارن شارل كولون ضربات المِسْحاة مع التشديد، للسبب نفسه، على ضرورة «تجنب رفع الأداة أعلى من اللازم»[624]. وحتى الزحف العسكري كان موضوع رؤية ما فتئت تزداد حدة خلال العصر، إذ جرى تحليل التنقل، وتم الاهتمام بتدبيره، وسادت الدقة في الوصف. واكتسبت الحركة وضوحا: «إذا رفع الجنود أرجلهم أكثر من اللازم، فإنهم سيضيعون الوقت ويتعبون أنفسهم بلا داع»؛ أو أيضا: «إذا تم الضرب عند وضع القدم، فستؤدي الحركة الأخيرة إلى إرهاق الجنود بلا داع»[625]. وهذا جاك-أنطوان دو غيبير، في كتابه الجامع في التكتيك، الذي نُشر عدة مرات في نهاية القرن الثامن عشر، يحول السير إلى اختبار لـ«الضبط» الذي تم تجاهله تمامًا حتى ذلك الحين، بوصفه رمزًا للنظرة «معدلة لبعد» تجاه التقنية، وأرقامها، و«مفاصلها»: «عندما تتقدم القدم اليسرى بمقدار اثنتي عشرة بوصة، ستذهب إلى الأرض؛ سيجد الجسم المنقول إلى الأمام نفسه مدعومًا بالكامل تقريبًا على القدم اليسرى، وسيتم دعم القدم اليمنى قليلاً عند نقطتها، وسيتم رفع الكعب

(622) Id., L'Art du couvreur (1766), Descriptions des arts et métiers faites et approuvées par Messieurs de l'Académie royale des sciences, p. 34.

(623) Hulot père, L'Art du tourneur mécanicien (1775). Descriptions des arts et métiers faites et approuvées par Messieurs de l'Académie royale des sciences, p. 271.

(624) Jean Le Rond d'Alembert et Denis Diderot, Encyclopédie, op. cit., art. « Rame ».

(625) Charles Coulomb, « Résultats de plusieurs expériences destinées à déterminer la quantité d'action que les hommes peuvent fournir par leur travail journalier », Mémoires de mathématiques, 6 ventôse an 6, p. 423.

ويكون جاهزًا لبدء الخطوة الثانية»[626]. إنه الضبط بلا شك، وهو مطلب شاق أيضًا، ولكنه ذو توجه دقيق: التأكد من أن المشي سيكون «أكثر راحة وأقل إيلامًا»[627]. ولا شك أن التجديد يبدأ بهذه البادرة الأساسية

حساب «كمية العمل»

جرى تنقيح عديد التقييمات الملموسة في منتصف القرن من أجل مقارنة النتائج والمدد الزمنية. وحلت الساعة، لأول مرة، محل العقوبة وتتكرر الملاحظات لضمان المعطيات. وتوفرت الأرقام التي تحدد الأعمال الشاقة، من بين أمور أخرى، وقام «المهندسون» بإعدادها وتنبيه الوكلاء والإداريين عليها. ويذكر القليل من التعب، بلا شك، ولكن يجري، مرة أخرى، وضع حدود وإمكانيات، والبحث عن معايير قابلة للنقل، بالنسبة إلى الحمولات، وتكسير الحجارة، وإزالة الأنقاض، والمسافات. مثل إنشاء مسارات شبه موقوتة:

لهذا الغرض اتخذ متوسط طول الفرسخ، وتم قياس الوقت الذي تستغرقه العربة في سيرها؛ وتكررت العملية عدة مرات، والنتيجة المجمعة بشكل جيد أعطت نحو ساعة وعشرين دقيقة من المشي. وبمجرد إثبات هذه المعلومات، اعتُقِدَ أنه من الممكن اعتبار هذه النتيجة مقياسًا دائمًا وثابتًا يجب أن ترد إليه جميع النتائج الأخرى؛ ومن ثم وُضِع جدول من النسب، يمكن للمهندس التنفيذي، من دون أن يخشى الخطأ على الإطلاق، أن يستخلص منه جميع المسافات الممكنة في الأعمال العادية[628].

توجد أيضًا محاولات، أكثر استفاضة، منذ منتصف القرن، لحساب مقدار الاستثمارات الأكثر فاعلية، ومقارنة الجهود، وترتيب النتائج؛ وبعبارة أخرى،

---

(626) .« Règlement concernant l'exercice et les manœuvres de l'infanterie », Lille, 1791, p. 28-29.

(627) .Jacques-Antoine-Hippolyte de Guibert, Essai général de tactique, op. cit., p. 30.

(628) .Ibid.

لتقييم العمل بدقة لا مثيل لها من قبل. ويحرص المشروع، الجديد تمامًا، على افتراض صنوف الاختلاف أو التكافؤ، في دائرة الجهود البدنية المتنوعة: من قبيل تحديد أتعاب متساوية بالنسبة إلى أعمال مختلفة، وجعل التعب موضوعًا قابلًا للمعايرة والمراقبة، ومعرفة ما «يكلف» في الأحوال المتباينة؛ ويتركز الهدف، في نهاية المطاف، على كفاءة العمل.

كان دانيال برنولي أول من اقترح، في عام 1753، تكافؤات رياضية من خلال استئناف حدوس ديزاغولييه التي سبق ذكرها[629]. ودشن معايرة بين تعب «ميكانيكية»، وتساءل عن تطابقات محتملة، وافترض، على سبيل المثال، أنه بالنسبة إلى التعب المتساوي، يلزم عن التباين في الوزن الذي يتم حمله تباينًا صارمًا في المسافة المقطوعة. يمكن نقل الحمل «الأثقل» إلى مسافة أكثر «بعدًا»، بنسبة مرعية على الدوام. وتغيير أحد الأمرين ينتج عنه، في المقابل، تغيير الأمر الآخر: يسمح العبء الأقل، على العكس، بنقلة زائدة، بالنسبة إلى جهد ثابت. وتكمن الأصالة الحاسمة في المعيار المتحدي، كما في محاولة «علاج التعب»، وفي الحفاظ على مقداره المتساوي على الرغم من العمل المتحول: رفع «20 رطلًا إلى علو 3 أقدام كل ثانية»، سيعادله، في الوقت نفسه «رفع 60 رطلًا إلى علو قدم»[630]؛ فالأمر يتعلق بنسبة ثابتة ومحكمة ومن ثم ابتكرت «وحدات العمل»[631] (هنا

(629) .AD Calvados, C 3372, Mémoire concernant la manutention des corvées dans la généralité de Caen, 1762, art. 4. cité par Anne Conchon, La Corvée des grands chemins au XVIIIe siècle - économie d'une institution, Rennes, Presses universitaires de Rennes, 2016, p. 61.

(630) .Yannick Fonteneau, « "Les ouvriers [...] sont des espèces d'automates montés pour une certaine suite de mouvements" fondations d'une représentation mécanique du temps laborieux (1700-1750) », in Corine Maitte et Didier Terrier (dir.), Le Temps du travail : normes, pratiques, évolutions, XIVe-XIXe siècle, Rennes, Presses universitaires de Rennes, 2014, p. 321.

(631) .Daniel Bernoulli, Recherches sur la manière la plus avantageuse de suppléer à l'action du vent sur les grands vaisseaux, soit en y appliquant les rames, soit en y employant quelqu'autre moyen que ce puisse être, Recueil des pièces qui ont emporté le prix de l'Académie royale des sciences, t. 7 1769, p. 10.

60 رطلا إلى علو قدم) وتطابقاتها المحتملة؛ ومن ثم، أيضا، الارتباط الصارم بين فعلين لهما جوانب متناسبة، وبالتالي، الاستنفاد اللازم. وسيكون التوافق ثابتًا تتوافق القوة والمسار، وسيكون الوزن والمسافة مترابطين. ونجد هنا إمكانية غير مسبوقة للحساب: «نتيجة لذلك، يُرجح إضافة العمل وطرحه وتقسيمه، وبإجمعه، أن يكون موضوعًا لجبر اقتصادي»[632]. وكان هذا بالفعل هو التقدم الحاسم بالمقارنة مع حسابات فوبان[633]. ملاحظة القوى والتنقلات المتناسبة على الدوام فيما بينها. وهذا يضفي الشرعية على الطموح الهادف إلى جعل التعب «وحدة تكلفة». تحديد جهود بدنية ثابتة لأعمال متباينة مع ذلك، وصيانة تطابقات في الجهد على صعيد مجموعة متنوعة من الأشغال؛ إنه الهدف الوحيد، في النهاية، الذي «يجب وضعه في الاعتبار» إنه موضوع مركزي، يجمع أكثر من أي وقت مضى بين المقاومة والكفاءة. مع فارق بسيط واحد، لكنه حاسم: إن تعريف هذا التعب يظل مقصورًا على «المحكوم عليه». لا يزال الجهد البدني نفسه غامضًا، والفيزيولوجيا في منتصف القرن الثامن عشر لم تضف عليه الطابع الموضوعي بعد، ولم يكن في الوسع تحديد الخسارة العضوية في عام 1753. ويقيس برنولي الفعل، لكنه «يقدر» الإنهاك فقط، ويفسره، ويقيمه بشكل شبه ذاتي. وهذا ما يقوله ضمنيًا: «أقدر كل العمل اليومي الممكن برجل متوسط القوة والطول ليتمكن من رفع 172.800 رطل إلى علو قدم يوميًا من غير أن يصاب في صحته. وأنا أبني هذا التقدير على عدد كبير الملاحظات»[634] إن وحدة العمل المقدرة عدديا، وذات الطابع العام، تذكر لأول مرة، ولكن في المقابل لا نجد ذكرا لحساب التعب، ولو كان موضوع اختبار. وإنما تذكر أهميته وحدها، وهنا بعد مع ذلك

(632). انظر:

Barthélemy Durrive, « Deux ouvriers-machine, avant et après Taylor », L'Homme et la société, vol. 3, no 205, 2017, p. 57

(633) .François Vatin, « Le "travail physique" comme valeur mécanique (XVIIIe-XIXe siècle) », Cahiers d'histoire. Revue d'histoire critique, no 110, 2009. p. 9.

(634) .Daniel Bernoulli, « Recherches sur la manière la plus avantageuse de suppléer à l'action du vent sur les grands vaisseaux », op. cit., p. 4.

أمرا جديدا بقدر ما هو ملفت للنظر. وينبغي أن نشير كذلك إلى «حدود» أخرى؛ ذلك أن برنولي لا يبحث عن «رفاهية العاملين» بل عن التحسين الفاتر للوسائل الميكانيكية»[635]، ممتنعا عن أي وصف للقوى العضلية العاملة.

ولقد واصل شارل كولون، عالم الميكانيكا المكوّن في المدرسة العسكرية، التفكير المنطقي في ثمانينيات القرن الثامن عشر، مضيفًا فكرة جديدة: «كمية العمل»، أو «الكمية الناتجة عن الضغط الذي يمارسه الشخص، مضروبا في السرعة والزمن الذي يستغرقه ذلك العمل»[636]. ويوحي الموضوع، المسمى على هذا النحو، بشكل أكثر وضوحًا بفكرة «بذل» البدن، بل فكرة «استهلاك» الذات. وهكذا تنامى الاهتمام «بالمحرك» البشري خلال القرن، بينما لم يتغير الهدف المركزي، وهو أمر حاسم في تاريخ الإجهاد العملي، حتى لو كان دائمًا بالصورة نفسها التي كان عليها عند برنولي: «إثبات التعب الذي يمكن أن يتحمله الإنسان في كل يوم من دون الإخلال بوظائفه الحيوانية»[637]. ويتوخى الرهان البساطة واليسر: «التحقيق أقصى استفادة من قوة البشر، يجب تنمية الأثر من غير زيادة في التعب»[638]. وهي، في صميم عصر الأنوار، رغبة في تنظيم الفعالية، مع مراعاة عتبة بدنية معينة. وتحضر ذلك أمثلة ملموسة، وموضوعات للملاحظة والاستنتاج. كذلك الحال في صعود قمة تينيريف من بلدن رفقاء المواطن جان شارل بوردا، صديق كولون، والذي قدم أرقامًا ومعارنات محتملة: علو 2923 مترًا قطعه في يوم واحد أشخاص يبلغ متوسط وزنهم 70 كلغ؛ وهو ما «يعادل 204.610 كلغ مرفوعة إلى علو متر»، أو «205 كلغ مرفوعة إلى علو

(635) نفسه، ص 7.

(636) Yannick Fonteneau, « "Les ouvriers [...] sont des espèces d'automates montés pour une certaine suite de mouvements" », op. cit., p. 321.

(637) Charles Coulomb, « Résultats de plusieurs expériences destinées à déterminer la quantité d'action que les hommes peuvent fournir par leur travail journalier », op. cit., p. 382.

(638) Ibid., p. 381.

كيلومتر»[639]. وثمة حالة أخرى، و«تجربة» أخرى، وهي صعود سلم بحمولة 68 كلغ، نُفّذت في ظروف مختلفة تمامًا: فالارتفاع هو 12 مترًا، ويتكون من درجات متتالية، وتم عبوره عدة مرات. لا يمكن إنجاز سوى 66 رحلة خلال النهار، وفقًا لشهادة الشغالين المعنيين، وهذا يعرب عن إجهادهم، من حيث هو حد ذاتي. ويتبع ذلك حساب مقدار الحركة ومسافة العبور والوزن والمدة:

أضف إلى هذه الحمولة [68 كلغ] وزن جسم الشخص الذي افترضنا أنه 70 كلغ: سيكون لدينا، لمقدار الحركة المقدّمة في كل رحلة، 138 كلغ مرفوعة إلى 12 مترًا؛ وبما أن الشيال يقوم بـ66 رحلة خلال اليوم، فسيكون لدينا لكمية الحركة المقدمة خلال اليوم الأعداد الثلاثة 138 و66 و12 مضروبة معًا، أو 109 كلغ مرفوعة إلى علو كيلومتر، والتي تعطي النتيجة نفسها[640].

وهنا ملاحظة لا مفر منها: فالنتيجة مع الحمولة التي يبلغ وزنها 109 كلغ إلى علو كيلومتر واحد، أقل بكثير من تلك التي حصل عليها مشاة تينيريف من دون حمولة، «205 كلغ مرفوعة إلى علو كيلومتر واحد». والخلاصة: إن الزيادة في الوزن لا ليست ضارة فقط، بل يمكن قياس عجزها كميا. ويمتد السؤال: ما عساها تكون الحمولة «الأكثر» وزنا التي يمكن نقلها، مما يتيح، من غير تعب، أفضل نتيجة بين المسافة والمدة؟ تزودنا القاعدة المجردة تمامًا لـ «الحدين الأقصى والأدنى»[641] بالنتيجة. وتقارن صيغتها الجبرية بين مجموعة من «المحملات» الممكنة، مع تحديد إحداها على أنها الأكثر «توازنًا»: تلك التي تسمح بأكبر قدر من الحمل في الوقت نفسه وبالتعب نفسه؛ ويتعلق الأمر بمثال «متوسط» و«نظري»؛ وبعبارة أخرى، حيث يمكن تجنب كل تعب لا يمكن التغلب عليه.

(639) Ibid., p. 388.
(640) Ibid., p. 390.

(641) انظر عرض مشروع كولون في بداية القرن العشرين:
Jules Amar, Le Moteur humain et les bases scientifiques du travail professionnel, Paris, Dunod, 1914, p. 236.

ويحدد كولون هذا الحد القياسي عند 56 كلغ؛ أي 12 كلغ أقل من الوزن الأول. ويجب إضافة ملاحظة أساسية هنا، على الجانب الآخر من النتيجة التي تم الحصول عليها: تقتصر العملية على مسافة «العلو» المقطوعة، متجاهلة لاختلافات التي يحتمل وجودها بين صعود منحدر بركاني وسلالم حضرية.

ويتم الحساب نفسه، مرة أخرى، على المرافق؛ حيث يجري سحب الأحمال بالضغط على المقابض. وتتم مقارنة المسافات والأوزان، ويتم قياس عدد اللفات والمدد. وهناك ملاحظة جديدة: «المرفق أفضل من مدق الركائز»[642]. ومع ذلك، لا يسمح أي واحد من هذه الإجراءات بالوصول إلى «205 كلغ مرفوعة إلى علو كيلومتر»، والتي تقابل الصعود من دون حمولة. ثم هناك ملاحظة أخرى: فاعلية استخدام جاذبية الجسم بوصفها «محركا»، لأنه من المفترض أن ينتج الحد الأقصى في «كمية الفعل»؛ وهذا الامتياز الممنوح للجهاز حيث يمكن للشخص أن يتسلق مسافة بدون حمولة، قبل أن «يلقي بنفسه بأي وسيلة عن طريق جر ثقل يساوي تقريبًا وزن جسمه ورفعه»[643]. وهكذا يروم الحساب مقارنة التعب في وضع «تجريبي» أكثر مما فعل برنولي، مما يضمن، علاوة على ذلك، إضفاء الشرعية على الاستخدام «المفيد» لوزن الجسم.

وعلى الجانب الآخر من الحدس و«الملاحظات الفريدة»[644] وغير المتكررة أيضا، والتي تمنع استخلاص أية قيمة متوسطة من المقارنات المتتالية، لا يزال هناك «الحضور الحتمي للتقديرات الشخصية، وهي حدود مماثلة لتلك الخاصة بتدليل

(642) .Charles Coulomb, « Résultats de plusieurs expériences destinées à déterminer la quantité d'action que les hommes peuvent fournir par leur travail journalier », op. cit., p. 417.

(643) .Ibid.

(644) .Jules Amar, Le Moteur humain et les bases scientifiques du travail professionnel, op. cit. Les expériences « de Coulomb, toujours tirées d'une observation unique, et parfois empruntées à des observateurs peu sûrs, n'ont pas assez de poids, malgré l'autorité hors de pair du célèbre physicien », p. 237.

برنولي: التقييم الذاتي لتعب، تقديره الظرفي، والمراقبة المقتصرة على البيان الوحيد للعاملين. إن النظرة، في هذه الحالة، تتجه إلى الفعل، أقل من اتجاهها إلى ما يحكمه أو يسمح به، أقل من اتجاهها إلى الكائن الحي الذي ينهك وينحل. لم يُذكر أي شيء عن «حالة» رفقاء بورد/ الذين قاموا بمسح تينيريفي، أو حالة الشيالين الذين يذرعون السلالم. وتنفي الكمية الميكانيكية، وليس كمية التدهور الجسدي، تكشف بالمناسبة كل الصعوبة المتمثلة في استيعاب «التناقص» النوعي والداخلي للجسم. يُضاف إلى ذلك أخيراً أن كل عمل، وكل «وحدة» يتم إنتاجها، في المجموع المتنوع من الحركات، كما في التشتت الشديد للمواقف، لا يمكن أن يقتصر على «التجربة الأساسية لرفع وزن إلى علو معين»[645].

ومهما يكن من أمر، يعد مسعى شارل كولون مشروعا «حديثا» للغاية، إذ حاول حصر الحد الأدنى من التعب لتحقيق أقصى قدر من الفعالية، وهذا مقصد كبير. وستظل نتائجه أساسًا للحساب لدى ميكانيكيي بداية القرن القادم. إنه مطلب دقيق ومستجد، لكنه أقرب إلى الوعد والإعلان منه إلى التحقق الملموس.

حساب كمية الأكسجين

ونجد القدر نفسه من الطموح في مسعى أنطوان لوران لافوازييه، خلال عام 1777، والذي لم يلجأ إليه كولون. فالأصالة هنا تكمن في طلب العدد لا في النتيجة الميكانيكية، ولكن في البذل العضوي. ويقتضي الأمر اكتشاف الأكسجين من أجل قلب الحسابات وتجديد المعطيات، إلى درجة إزاحة تمثلات الجسم. ويمكن أخيرً، ولأول مرة، إضفاء صبغة موضوعية على «الخسارة» العضوية وتقديرها حسابيا. إنها ثورة عظمى. يقوم لافوازييه بتقييم استهلاك هذا «الغاز الحيوي» بحسب النشاط الذي يتم القيام به. وعلى هذا النحو، يُستهدف «التعب» الفيسيولوجي، للمرة الأولى، وتُضفى عليه صبغة مادية: يصبح داخل الجسم

---

(645).Yannick Fonteneau, « "Les ouvriers [...] sont des espèces d'automates montés pour une certaine suite de mouvements" », op. cit., p. 312.

خارجا قابلًا للقياس[646]. وثمة عُدّة غير مسبوقة تسمح بذلك: الغرف محكمة السد التي تلتقط مدخلات ومخرجات الأفراد المنخرطين في العمل، فتشير إلى السائل الذي يتخلل رئاتهم. وهذه الغرف وتركيباتها تتيح ملاحظة جديدة بقدر ما هي مركزية. وهي أن امتصاص الأكسجين يختلف وفقًا للمجهود المبذول، تمامًا كما توجد تكافؤات للأنشطة المتباينة. ويذكر لافوازييه ذلك في شهادة مفصلة لا تخفى دقتها بسبب طولها البتة.

يؤدي هذا النوع من الملاحظة إلى مقارنة استخدامات القوة التي يظهر أنه لا توجد علاقة بينها. يمكننا أن نعرف، مثلا، مقدار الوزن الذي يتوافق مع مجهود شخص يقرأ خطابًا، أو موسيقي يعزف على آلة موسيقية. بل يمكن للمرء تقييم ما هو ميكانيكي في عمل الفيلسوف الذي يفكر، والأديب الذي يكتب، والموسيقي الذي يؤلف. فهذه الآثار المعنوية البحتة تنطوي على شيء جسماني ومادي يسمح لنا، في هذا الصدد، بمقارنتها مع الآثار الخاصة بالعامل[647].

لأول مرة، تجري مماثلة النشاط بالجهود الفيزيولوجية القابلة للحساب، تمامًا كما تمتص النار «كمية» من الأكسجين وفقًا لـ «كمية» الاحتراق الناتج. فالجسم عبارة عن موقد يمكن قياس استهلاكه. ولأول مرة، يتم التعبير عن العمل من حيث الخسارة الخاصة للمعايرة: التكلفة المتوقعة، والتكلفة المعبر عنها كميا. كل عمل «إضافي» يستلزم «إضافة» مستهلكة، وكل زيادة في الجهد تؤدي إلى زيادة في النار. إنها نتيجة حاسمة. وأكثر من ذلك، تقدم غرفة لافوازييه أرقاما في هذا الشأن؛ وهذا يقلب تماما التقييمات والأهداف الخاصة بها. ويلوح هنا بالفعل، من دون تسميته حقًا، المفهوم الجديد لـ «المردودية»، حيث تقارن المدخلات

---

(646) انظر:
François Dagognet, Écriture et Iconographie, Paris, Vrin, 1973, p. 87 et 89.
(647) Antoine-Laurent de Lavoisier, « Expériences sur la respiration des animaux et sur les changements qui arrivent à l'air en passant dans les poumons » (1777), cité par François Vatin, «Le "travail physique" comme valeur mécanique », op. cit., p. 45.

بالمخرجات: فعالية النشاط المرتبط بالأكسجين الممتص، واستغلاله، وكميته، والحد الأدنى من الاستخدام، هنا مرة أخرى، لتحقيق أقصى نتيجة. ومع ذلك، فإن الاكتشاف لم ينفتح بعد على مثل تلك التباينات المحتملة، تلك التي تشير إلى أن «معدل» التعب يمكن أن يكون طابعا فرديا بحتا، وهي إشارة مرتبطة بالصفات العضوية، وبالظروف، والعادات السابقة، وأشكال أكثر أو أقل فعالية من تعبئة الأكسجين. ومن هنا غياب هذا الحساب في أوضاع العمل الأكثر تنوعًا، على الرغم من مركزية المبدأ الذي كُشف عنه.

لا يعني ذلك أن مثل هذا الاكتشاف ظل من دون تأثير؛ فهناك عدة تجارب عملت على تمديده. وهذا جوزيف بريستلي منافس لافوازييه، يعزل الغاز بجهد جهيد في سيمون زجاجي، ويستنشقه بكثرة ويعلن أنه «إكسير الحياة»، مدعيًا أنه عثر فيه على قوة مجهولة: «بدا لي أن صدري كان حراً بشكل فريد وسهل الاستخدام بعض الوقت»[648]. وقد وصفت مجلة الصحة، في بداية الثمانينيات من القرن الثامن عشر، «آلات» غير مسبوقة تهدف إلى عرض المرضى المنهكين على الدفق. ومع ذلك، لا يوجد شيء بسيط: إذ من الصعب التعامل مع السائل، وظل استخدامه هشًا، وسيئ الإتقان. وبصعوبة استمرت المحاولات خلال القرن، تمامًا كما استمرت الاستكشافات في شأن العمل واستهلاكه بصعوبة. ولم يحن الوقت بعد لرؤية تجمع بين الميكانيكا العضوية والحرارة، وتركيز الطاقة على كل إمكانات الجسم «الاحتراقية»، والسعي بوضوح للبحث عن مورد مادي مجهول في الرئتين. لم يحن الوقت الذي تُطلب فيه من المردودية أن تكشف عن فعاليتها بقدر تعقيدها.

---

(648) Joseph Priesley, Expériences et observations sur différentes espèces d'air (1774), Paris, 1777-1780, t. I, p. 126.

الفصل السادس عشر

التعب «المُعانى»، بله التعاطف

هذا الاهتمام الجديد بالممارسات وبالحركات، مع مجيء عصر الأنوار، قد خلّف مع ذلك مزيدًا من الآثار. وكان لهذا الفضول المزيد من التأثيرات. وأسفر النظر في الحركات، وفي طرائق اشتغالها، عن ظهور موضوعات أخرى، منوّعَ الأسئلة، وخلق دهشة محتملة، ومفاجأة، وأحيانًا عاطفة. وقد أمكن للتركيز الجديد على الصناعة أن يغيّر رؤية المراقب نفسه. كما أمكن لتعاطف غير معروف أن ينشأ، بعيدًا عن مجرد البؤس، متمثّلًا في العمل نفسه، ما جرى إهماله تقليديًا. ثم إن النظر في شأن التعب قد فرض نفسه من زاوية أخرى؛ فما عاد الأمر يتعلق بالإحساس الداخلي الذي ينتجه التعب، ولا بالحساب البارد الذي يبتغي السيطرة عليه أو تجنبه، بل بتأثر المراقب بما ينتج عنه من ضرر. إنها لحظة عظمى في النظر إلى العمل.

نشأة تعاطف

لقد تنامى الاعتراف بجهودٍ طالما تُجوهِلت، كما تنامى إدراك ضروب من المعاناة طالما أُغفِلت. وتقف الشهادات مليًا على هذه الأمور، فتثير حقلَ اهتمامٍ جديدًا؛ وهو حقل الأفعال الهامشية في الظاهر، لكنها تفرض نفسها فجأة على الأنظار. ويبرز عالم المجهولين الغامض، فينفتح على ألوان المعاناة، ويكشف عن الآلام. ومن ذلك مثلًا نشاط الشيالين الذي ذكره لوي-سيباستيان ميرسييه في مشهد باريس عام 1781: «منحنون قليلًا، ومدعومون بعصا تَسْيار، يشيلون أثقالًا من شأنها أن تهلك حصانًا»[649]؛ ومنه أيضًا حمّالو المحفة: «أجراء أقوياء، متمرّنون للعتالة ويستندون على أحذيتهم الحديدية العريضة»[650]؛ وكذلك أنشاء المحملات

(649) Louis-Sébastien Mercier, Tableau de Paris, op. cit., t. I, « Portefaix », p. 789
(650) Ibid., « Chaises à porteurs », p. 1312.

بالأعمال: «لا نرى عمل عضلاتهن كما هو الحال عند الرجال، فهو أخفى؛ ولكن يمكن استشفافه من حلوقهن المنتفخة وصعوبة تنفسهن. ويخترقك شعور الشفقة بالغا أعماق روحك»[651]. وتنضاف إلى ذلك الأعمال الشاقة التي أدينت من دعاة الإنصاف، منذ منتصف القرن، بوصفها أمورا «تعسفية» «فأشغال الطرق لكبرى تعد أبشع أنواع السخرة التي يمكن تحملها ويتم إجبار شغيلي المياومة على إنجاز شغلهم وإعاشتهم بما يفوق كل قواهم»[652].

ومن شأن هذا أيضا أن يعدل وجهة الحجة التي تبرر تكاثر الآلات. لا يعني ذلك بالطبع أن مثل هذا المشروع متعاطف بشكل خالص. إن التجديد الاقتصادي، وتعميق حركة التصنيع، واستبعاد الموارد الريعية الوحيدة، كل ذلك يؤيد المكننة. إن الاختراعات تخترق مجتمع الأنوار. مع ذلك، يبقى توجه بعض «الميكانيكيين» الصريح إلى التخفيف من الأعمال الشاقة ملحوظا. وقد ذكر ذلك كلود-فرانسوا بيرتيلو عندما أشار، في عام 1782، إلى رافعته «المناسبة لتحميل وتفريغ السفن»:

إن النظر في الأخطار التي يتعرض لها باستمرار هؤلاء المتاعيس، اللذين حملتهم الضرورة المحزنة على كسب قوتهم بهذا النوع من العمل، جعلت المؤلف يطبق محرك المطاحن التي سبق وصفها، والدواسات التي تحركها، على جميع أنواع الرافعات[653].

ومثل هذه الالتزامات لا تغير على الفور من صميم الممارسات. بل إن لها تأثيرا ضئيلا أو معدوما على حياة الشغالين. وهو ما سيحصلون عليه لاحقًا، في نهاية

(651) .Ibid., « Portefaux » (Femmes), p. 791

(652) .Antoine-René de Voyer d'Argenson de Paulmy, lettre d'octobre 1749, citée dans François Cadilhon (dir.), La France d'Ancien Régime : textes et documents, 1484 1789, Bordeaux, Presses universitaires de Bordeaux, 2002, p. 396.

(653) .Claude-François Berthelot, La Mécanique appliquée aux arts, aux manufactures, à l'agriculture et à la guerre, Paris, 1782, t. I, p. 19.

القرن الثامن عشر والقرن التالي. هناك مكننة بلا شك، لكنها بطيئة، ولم تقلب بعد كل الحركات، فهي تشهد هنا على تنامي الحساسية في ثقافة القرن الثامن عشر أكثر من حدوث انقلاب في المهن؛ إنه تغيير في الشعور، وصقل له، مما يمكن رصده في عديد «المواضع» الأخرى. وهو الشعور نفسه الذي جدد صورة الطفولة، والاهتمام بمواطن «ضعفها»، و«هشاشتها»، والتي كان كتاب إميل لـ جان-جاك روسو أحد الشهود عليها عام 1761[654]؛ وهو الشعور نفسه الذي جدد أيضا صورة العنف، وإعادة النظر في التعذيب أو «السؤال»، والتي يعد نص سيزار بيكاريا، في الجنح والعقوبات، أحد الشهود عليها في عام 1764[655]؛ وهو الشعور نفسه الذي جدد كذلك صورة الاستعباد، والتنبيه عن حال هذه الكائنات «المحكوم عليها بالعيش في وضع مروع [...] والعمل المستمر في كل الأرخبيل الأمريكي [...] تحت تهديد سوط مرفوع دائمًا من سائق شرس»[656]؛ وهذا ما يشهد عليه نص الأب غيوم رينال في عام 1770. هناك تحول بطيء في عتبة التسامح على صعيدي الأخلاق والسلوك، وتغيير في وضع المقبول وتشديد على «ما لا يطاق». ومن الواضح أن هذا لا يستبعد عديد الأحكام التي شجبت لاحقًا بوصفها ضربا من «اللامبالاة». فهذا غابريال جار، المراقب المدقق للمناجم الأوروبية في عام 1774، يراكم زيارة وحلات الاستغلال، ويعنى بكل عملية تساعد على توفير النفقات والجهود، ومع ذلك يرى أن وجود أطفال صغار جدًا مفيد في الآبار، بل ضروري: فأحجامهم الصغيرة تناسب الأنفاق المنخفضة للغاية أفضل من غيرها، بما أن الأمر يتعلق بممرات لا تحتوي بعد على «طرق

(654) Jean-Jacques Rousseau. Émile, op. cit ; voir « Que faut-il penser de cette éducation barbare qui charge un enfant de chaînes de toutes espèces ? », p. 61

(655) Cesare Beccaria, Des délits et des peines (1764), Paris, 1766 , voir « Qui ne frémirait d'horreur en voyant dans l'histoire les supplices barbares et inutiles inventés et appliqués froidement par des hommes qui se prétendent sages », p. 125.

(656) Guillaume-Thomas Raynal, Histoire philosophique et politique des établissements des entreprises et du commerce des Européens dans les deux Indes (1770), Paris, 1775, t. IV, p. 150.

مجهدة»[657]. إن عمل هؤلاء الأطفال في ظلام السراديب عادي ومبتذل، وستكون معاناتهم المحتملة «غير مرئية» كذلك. وهكذا يختلط الشعور الحقيقي لعدد من المراقبين إزاء عمل لبسطاء بما سيظهر لاحقًا أنها صنوف ممكنة من «عدم الإحساس» تجاه طائفة منهم.

ومع ذلك، يسود «تعاطف» غير مسبوق، ينضاف إليه عدد أكبر من الاحتجاجات ضد أشغال «السخرة». في حين أن «ملاك الأراضي القدماء» أجبروا «المسخرين على تولي العربات وأشغال السواعد بإرادة السيد»[658] وبدأت إعادة النظر، متصاعدت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. مثل العمل الطويل الذي قام به سكان أنغومو، الذي رام في عام 1765 وضع حد لحقوق الكونت شارل-فرانسوا دو بروي التي تشمل أكثر من ثلاثين خرزتية، ورفضه قضاء وكالة أنغوليم في 18 ديسمبر 1768، لكنه يشهد على عزم جماعي مقصود. وحصل عمل مماثل على بعض النتائج ضد حقوق أسياد الأزراس، المقيدة بشدة بمرسوم صادر في 24 ديسمبر 1783[659] وقام شارل-ألكسندر كالون، المراقب العام للمالية تحت حكم لوي السادس عشر، بتقليل السخرة وبدل الأشغال الشاقة بضريبة من الفضة، خلال عام 1787، وهو القرار الذي رحب به في الوقت نفسه الكونت لوي-فيليب دو سيغور بوصفه علامة على «نهاية قرون من البربرية»[660].

---

(657) Antoine-Gabriel Jars, Voyages métallurgiques, Paris, 1774, t. I, p. 268.

(658) .Claude Henrys, Œuvres, contenant son recueil d'arrêts, ses plaidoyers et harangues, Paris, 1708, t. I, p. 303.

(659) انظر:

Jean-Baptiste Denisart, Collection de décisions nouvelles et de notions relatives à la jurisprudence (1754), Paris, 1775, art. « Corvées ».

(660) .Louis-Philippe de Ségur, Mémoires, ou Souvenirs et anecdotes (1824), Paris, 1827 t. I, p. 230.

هناك أيضًا المزيد من الاحتجاجات في عالم العمل. وقد ساد الطلب الوحيد على الأجور بلا شك مع أعمال الشغب التي اندلعت في ليون عم 1786، «والتي أطلقها شغالو الحرير، وانضم إليهم صناع القبعات والنساجون»[661]، ولكن تم أيضًا استهداف «الاستبداد» و«العبودية» اللذين كان التجار يخضعونهم لهما. ويتكرر هذا في الأغنية الساخرة للنساجين الإنجليز، خلال التواريخ نفسها، والتي تندد باللجوء إلى تخفيض الأجور حين يحمل هؤلاء التجار أنفسهم الشغالين عى دفع ثمن الغزل الذي تم شراؤه من الشركاء. ومن هنا تم تمديد الساعات لتعويض الخسائر. إنها «بهجة الحَوّاكِ»، التي يسخر منها الإنجليز: «إرهاق الغزّالين مقابل راتب زهيد»[662]. ومن ناحية أخرى، إن الهدف المزدوج المتمثل في «تحسين الأجور وتقليل ساعات العمل»[663]، هو بالفعل موضوع «حركات» هذه المرة في مصانع الأقمشة الملونة في بوفيه (أكثر من ألف عامل) في عام 1778 والشيء نفسه نصادفه مرة أخرى مع «التجمع العام» للورقين الممتد من أوفيرني إلى الجنوب الغربي في 1780[664].

ذكر مدة العمر

يستحيل كذلك تجاهل علامة دليلية خاصة جدًا في هذا النصف الثاني من القرن، وهي موجودة لدى عديد الوجهاء والموسوعيين والعلماء: ذكر البِلَى الجسدي، والتقدير شبه المحسوب لمدة العمر، والربط المسهب بين قصر أيام العيش والإنهاك الناتج عن مزاولة المهن. لقد كان ديدرو واثقا بأن: «هناك عددا من المهن في المجتمع التي يتجاوز فيها التعب حدوده، والتي تستنفد القوى بسرعة

(661) .Pierre Goubert et Daniel Roche, Les Français et l'Ancien Régime, t. II, Culture et société. Paris, Armand Colin, 1991, p. 338.

(662) .Paul Mantoux, La Révolution industrielle au XVIIIe siècle , essai sur les commencements de la grande industrie en Angleterre, Paris, Georges Bellais, 1906, p. 57

(663) .Pierre Goubert et Daniel Roche, Les Français et l'Ancien Régime, op. cit., p. 338.

(664) انظر نفسه.

وتقصر الحياة»[665]. ونجد النتيجة نفسها، وبصورة أدق، لدى الجمعية الملكية للطب، في عام 1778، والتي استطلعت مرسيليا وضواحيها، ووصفت أحوال الفلاحين البروفنساليين «المنهكين من العمل الشاق والمفرط [...] والذين يموتون قبل سن الخامسة والأربعين ويعيشون أقل»[666]، أو لدى بوفون الذي يقارن باريس وريفها، ويصف من يعيش في القرى من «الناس الأكثر إرهاقًا، والأقل تغذية، والذين يموتون في وقت أبكر بكثير من سكان المدينة»[667]. ومن هنا تلك الجداول العريضة المرقمة التي وضعها عالم الطبيعيات، والتي تقارن لأول مرة، في عام 1749، أوضاعا ومهنًا وأوساطا مختلفة وآمالا في الحياة. ويضيف التحقق قدرا من الصرامة على المستجد: «يوجد في باريس، بالنسبة إلى ساكنة مماثلة، ضعفا عدد البالغين سن الثمانين، وأربعة أضعاف عدد البالغين ما يزيد على سن التسعين»[668]. ونجد الإشارة نفسها في شأن المناجم من خلال بعض تقارير نهاية القرن، وقد لطفت من لامبالاة غابرييل جار البادية في تقاريره لعام 1774. ولا ترتبط المحن المعيشة تحت الأرض بالمواد المستوعبة والكوارث المحتملة والعفونات ولأهوية والمياه، بل ترتبط كذلك بالتنقلات والأوضاع والحركات القسرية، ومن ثم بصنوف الإجهاد الحيوي: «في عديد السراديب لا يمكن المرور إلا بالمشي على الركب والأيدي. وعلى العموم، يجب أن يكون المرء منحنيا بشكل مستمر بل مترفصا [...] وبما أن هذا الوضع القسري لا يمكن إلا أن يضر بالوظائف الحيوانية ويقصر من عمر الشحالين، فإنه يجب منح السرداب بأكمله ارتفاعًا أكبر»[669].

---

(665) .Denis Diderot, « La réfutation d'Helvétius » (ms. 1783), Œuvres complètes, op. cit., t. 11, p. 458.

(666) .François Raymond, « Topographie médicale de Marseille », Histoire de la société royale de médecine, Paris, 1777 1778, p. 127

(667) .Georges-Louis Leclerc Buffon, De l'homme, op. cit., p.353.

(668) .Ibid., p. 293 sqq.

(669) .Jean-François d'Aubuisson, Rapport XVIIIe siècle, AN F14 7822.

ويمكن للعاملين أنفسهم إبداء مثل هذه الملاحظات، وهو أمر أكثر إثارة للانتباه. يذكر فنسان-ماري فوبلان، في نهاية القرن، اعتراف فلاحي غران-سان-برنار «بعدم العيش طويلًا» بسبب «التعب المتكرر الناتج عن الصعود الجبل والنزول منه»[670]. أما أرباب المصانع، البعيدون عن العالم القروي، فإنهم، في مواجهة التقدم الذي أحرزته الطريقة الجديدة في التسويد، بواسطة «التحريك اليدوي للحديد الذائب لإزالة الكربون منه»، والتي ابتكرت في عام 1780 في بريطانيا العظمى، لاحظوا «البذل العضلي» الكبير؛ بحيث «لا يسمح للمشغالين بالبقاء في مناصبهم بعد أربعين عامًا»[671]؛ وكذلك جُزّازو الأجواخ، المجبرون على إنجاز «أصعب عمل [...]»[672]، باستخدام أثقل مقص، وفقًا لـ دوهاميل دي مونسو، فإنهم يحسبون أنفسهم أيضًا «غير قادرين على القص بعد سن الخمسين؛ إذ إن هذا العمل يتطلب قوة ومهارة يدوية وحدّة بصرية»[673].

لقد تنامى الوعي بمدد العمر مع القرن، كما تنامى الوعي بتأثير المهن على التقصير المحتمل لسنوات العيش.

تقسيم العمل

لكن الأمر تطلب عالمًا آخر لنقل أنواع التعب إلى مسافة أبعد في نهاية القرن الثامن عشر، وهو عالم تقسيم العمل. وكان آدم سميث أول من وضع هذه النظرية

(670) Vincent-Marie Viénot Vaublanc, Mémoires, Paris, 1857, p. 353.

(671) انظر:

Corine Maitre et Denis Woronoff, « Les mondes ouvriers », in Corine Maitre, Philippe Minard et Mathieu de Oliveira (dir.), La Gloire de l'industrie, XVIIe-XIXe siècle : faire de l'histoire avec Gérard Gayot, Rennes, Presses universitaires de Rennes, 2012, p. 253.

(672) Henri-Louis Duhamel Du Monceau, « Art de la draperie », Descriptions des arts et métiers faites ou approuvées par Messieurs de l'Académie royale des sciences, t. XXIII, Paris, 1761, p. 111.

(673) Gérard Gayot, « Les "ouvriers les plus nécessaires" sur le marché du travail des manufactures de draps aux XVIIe-XVIIIe siècles », in Philippe Minard et Gérard Gayot (dir.), Les Ouvriers qualifiés de l'industrie (XVIe-XXe siècle) : formation, emploi, migrations, Villeneuve-d'Ascq, Revue du Nord, hors-série, no 15, 2001.

في عم 1776. ويظل المثال عياريًا. صناعة الدبابيس، المقسمة إلى ثمانية عشر عملية مختلفة، وهي مذكورة بوصفها نموذجا يوافق المطلوب. فلا يمكن للعامل وحده، «مهما كان ماهرًا»، أن ينتج سوى دبوس واحد في اليوم، في حين أن تقسيم العمل إلى «عدد كبير من المهام معظمها بشكل عدد من المهن الخاصة»، وتخصص الشغالين، وتبسيط الحركات، والتنسيق فيما بينها، يجعل من الممكن مضاعفة النتيجة: «لقد رأيت مصنعًا صغيرًا من هذا النوع»؛ حيث تمكن عشرة شغالين من إنتاج «ثمانية وأربعين ألف دبوس في اليوم»(674). إنها مقارنة قصوى لقد أصبح العدد غير متناسب مع ما ينجزه العامل المعزول. بل أمكن لـ آدم سميث أن يستحضر التعب خلسة، رابطا بين تبسيط الحركات وبين التفكير الصياني:

لاحظ أحد هؤلاء الصغار، وقد رغب في اللعب مع رفاقه، أنه متى وضع حبلا على مقبض الصمام الذي يفتح هذا الاتصال [بين المرجل وأسطوانة المضخة البخارية]، ومتى ربط هذا الحبل بجزء آخر من المضخة، انفتح هذا الصمام وانغلق من دونه، وصار حرا في اللعب بسهولة. ومن ثم، كان أحد الاكتشافات التي أسهمت أكثر من غيرها في إتقان هذه الأنواع من الآلات منذ اختراعها، مدينا لطفل سعى للتخلص من المتاعب لا غير(675).

ومع ذلك، تكمن أصالة المسعى في موضع آخر: اختفاء الوقت الميت، ومكننة المهام، والكثافة الإنتاجية. وهذا على الرغم من أن الجانب العكسي المحتمل لمثل هذا «الاقتصاد في الجهد»(676) يبقى، في الواقع، قائما في الظل: «إبطال الشعور والعقل»، وسقوط «المهارات الفكرية واليدوية»(677). والنتيجة غير المتوقعة هي: ظهور إرهاق جديد تماما، إرهاق لم يعد ناجمًا هنا عن جهد عضلي صرف، ولكن

(674) Adam Smith, Recherches sur la nature et les causes de la richesse des nations (1776), Paris, 1880, p. 8-9.
(675) Ibid., livre 1, chapitre 1.

(676) انظر:

Jean-Pierre Séris, Qu'est-ce que la division du travail ?, Paris, Vrin, 1994, p. 55.
(677) Ibid., p. 91

بسبب الاهتمام المستمر، وثبات الموضع، والرتابة الطويلة. وهذا يحول النشاط الفردي القديم المرتبط بورشة العمل إلى نظام جماعي وموحد وخاضع للإشراف الصارم؛ كما يحول المبادرة المحتملة إلى قسر معياري أيضًا. وهكذا ظهر مثل هذا الإجراء في إنجلترا في نهاية القرن، قبل أن ينتشر إلى أوروبا في بداية القرن التالي.

لقد «شددت» المهمة وصارت «محددة لغاية ومتماثلة على الدوام»،(678) فحصرها رجل الصناعة عن قصد وسعى في طلبها، حتى إن بولتون، في مصنعه بلدة صوهو في ثمانينيات القرن الثمن عشر، قصد أن يتعرف، من خلال ضجيج العجلات والمطارق، على أدنى حادثة أو توقف(679). إن الإنهاك الناجم عن «ميكانيك بلا روح»(680) وعن ديمومتها اليومية لا يزال بلا اسم كما أن له مكانًا ضئيلًا، إن لم يكن لا مكان له في كتابات «المهندسين»(681). وهو ينتج مع ذلك ألوانا من المقاومة، والرفض، وكسر الآلات، والعنف، حتى ولو ارتبطت أيضا بتعاسة حظ المهنيين المحرومين من الشغل. وتنامت التجمعات والاعتداءات؛ وهذا ما ذكره جوزايا ويدجوود، رجل الصناعة اللانكستري، في عام 1779: «هناك خمسمائة منهم، أخبروني أنهم دمروا للتو عددًا قليلاً من الآلات وأنهم يعتزمون فعل الشيء نفسه في جميع أنحاء البلاد»(682). كانوا يعدون بالآلاف، بالقرب من كورلي، في عام 1780، مصحوبين باللافتات والطبول، أو في عام 1796 مرة أخرى في يوركشاير. وكان القمع وحشيا: إرسال القوات، والسجن، وإعدام الزعماء. وكذلك التهديدات: فقدان العمل، وتشغيل النساء و لأطفال.

---

(678) .Paul Mantoux, La Révolution industrielle au XVIIIe siècle, op. cit., p. 392.
(679) .Samuel Smiles, Lives of Boulton and Watt, London, 1865, p. 482.
(680) .Paul Mantoux, La Révolution industrielle au XVIIIe siècle, op. cit., p. 426.
(681) انظر مع ذلك،
Jean-Rodolphe Perronet, Recueil de planches sur les sciences, les arts [...], vol. IV, 1765, p. 52.
حيث يبدي المؤلف انزعاجه من «التعب الناتج عن تكرار الحركات نفسها بوتيرة متصلة».
(682) .Samuel Smiles, Josiah Wedgwood, F.R.S. : His Personal History, Londres, 1894, scène de 1779, cité par Paul Mantoux, La Révolution industrielle au XVIIIe siècle, op.cit., p. 418.

أو تجديد القانون، مثل قانون 1799 الذي يحظر «تحالفات الشغاليين بهدف الزيادة في الأجور، أو تخفيض ساعات العمل، أو أي تحسين آخر في ظروف العمل»[683]. لقد نشأت إكراهات مضاعفة؛ حيث اكتشف ميشليه «اللعنة التي تثقل كاهل إنجلترا»[684].

وبعبارة أخرى، إن المصنع يخترع قسوة جديدة. ولا يخلو هذا من مفارقة في قرن الحساسية: «كان الإحسان أمرا مألوفا، ولكنه، بالنسبة إلى عديد المصنعين، قد توقف عند باب المصنع. إن تعاطفهم مع الزنوج في المستعمرات، والذي كان يكلفهم القليل، قد استنفد رصيدهم من الإنسانية»[685]. لقد دُشِّن وبُنِي نموذج أدى توسعه المتنامي وغير المسبوق في القرن التاسع عشر إلى إرساء نظام للإنهاك يتسم بالنوعية بقدر ما هو قابل للتعميم.

(683).Michel Beaud, Histoire du capitalisme, 1500-2010 (1980), Paris, Seuil, « Points Économie », 2010, nouvelle édition mise à jour, p. 105

(684) .Jules Michelet, Le Peuple, Paris, 1846, p. 45

(685) .Paul Mantoux, La Révolution industrielle au XVIIIe siècle, op. cit., p. 398

الفصل السابع عشر

التعب «المطلوب»، بدء التحدي

من وِزاء البحاريات إلى نَصَب الشغالين، اكتسى الجانب الاجتماعي للتعب إذن طابع «الانفتاح» المتنامي خلال القرن الثامن عشر. لقد اتسع نطاقه، وكشف عن الاهتمام بالمشاعر التي تكاد تكون ملطفة للأثرياء، فضلاً عن الانتباه إلى معاناة المحرومين المثارة حديثًا كما تضمن، خلال نهاية القرن، أشكالاً حادة ارتبطت بإيقاع المصانع، وبصنوف المراقبة المُعَزَّزة. وهكذا نجد طيف الإرهاق قد شدد بشكل مشترك على قطبيه، جامعا بين الحساسية والقساوة.

وفي أوساط الأقليات الأكثر يسارا في المجتمع، أو في صفوف الأقليات المستنيرة، لم تزل هناك صور وعي جديد، وهي التي صنعت خلال القرن فضاءات أخرى من الإجهاد، وأنواعا أخرى من السلوك، ولعبت دورها إزاء تطور الفردية، والرغبة في الاستقلال الذاتي، والرؤية الجديدة للجسد، مثلما هو الحال إزاء الرؤية الجديدة للزمن: تجربة العضوي بشكل مختلف، وتحسين الإنجازات، وتحديد الآفاق الممكنة، وتوسيع نطاق إجراءات الإثبات الشخصية. وهذا ما أدى، لأول مرة، إلى تحويل التعب إلى محل لمغامرة تتم مواجهته عمداً، والموافقة عليه، والسعي وراءه، ويتخذ فرصة للاكتشاف، وموضوعا لسبر العالم والذات. لم يعد الأمر متعلقا بـ «تعب الفداء» وندباته القديمة، بل بـ «تعب التحدي» وندباته المستقبلية.

تحدي السفر

تميل عديد الممارسات هنا إلى عكس معناها بإثرائه. ومن ذلك السفر، لا بمعنى أن هذا الأخير فقد جانبه المخيف مسبقًا، كما هو مذكور بانتظام في الرسائل، مثل

رسائل السيدة دي ديفان، والتي تجعل من «تعب السفر»[686] مدعاة للخوف باستمرار، ولكن أمكنه أيضًا، لأول مرة، أن يكشف عن جانب «مُجدِّد»، يعيد القوة، ويثير الحماس. حتى إن ديدرو عبر عن دهشته عندما استحضر رحلته الطويلة إلى روسيا عام 1773:

كان المشي في غابة بولوني سيتعبني أكثر من تلك الثمانمائة فرسخ من البريد عبر المسالك المفزعة. ينبغي أن تكون الحركة جيدة بالنسبة إلي، وأن تكون الحياة المستقرة والمثابرة هي السبب الحقيقي وراء توعكاتي في باريس، كنت أنام منهكًا، وصادفة ما كنت أقوم منهكًا أكثر مما كنت قبل خلودي إلى النوم. ولم أشعر بشيء من هذا القبيل، حتى بعد ثمان وأربعين ساعة من القيادة المستمرة، لأنه حدث لنا عدة مرات أن سرنا ليلًا ونهارًا[687].

إنها صورة مركزية: فالهزات والصدمات هي التي أعادت القوة المرتقبة إلى رجرجة المركبات هي التي ردت للألياف نعمتها المفقودة، بينما كانت مثل هذه الحركات في السابق تولد صنوف شديدة من الضعف. وحكم بأن «الارتجاج»، الذي كان يعد فيما مضى متعبًا بذريعة أنه يَصُدّ الأخلاط، مُقوٍّ لأنه يثبت الألياف ويحفز مقاومتها وإمكانياتها. يسود هنا الشعور بنشاط حميم، وبحرية جديدة، مما يعزز الشعور بالمقاومة والمواجهة. وأكثر من ذلك، إن التعب نفسه، الذي تمت مماثلته تقليديًا بـ«الخسارة»، بصرف النظر عن العداء الديني المحدود، هو هنا عبارة عن فائدة وربح وتحول للذات. ومن هنا هذا البيان، الذي يعكس الأحاديث التقليدية للمسافرين: «أنا لا أصل بشكل أفضل أبدا، ولا أكون في أحسن أحوالي البتة إلا على الطرق العظمى»[688]. أو هذه الحادثة، في عام 1785، التي عدها جان-باتيست بريسافان، الجراح الليوني، وعضو المؤتمر الوطني

---

(686) .Mme du Deffand, lettre du 26 juin 1771, Lettres, op. cit., p. 441.

(687) Denis Diderot, lettre à Mme Diderot, 8 octobre 1773, Œuvres complètes, op. cit., t. 10, p. 1079.

(688) .Denis Diderot, lettre du 15 octobre 1773, Œuvres complètes, op. cit., p. 1085

لاحقا، «نموذجية»: قصة «بخارية» باريسية، منهكة من الوناء، وقد علمت بأنه يجب عليها تسوية مسألة ميراث على وجه السرعة في بوردو. وكانت الرسالة مُلحة، والمغادرة ماغتة، والمغامرة إجبارية، إلى درجة أن المسافرة المستقبلية اضطرت إلى اللجوء إلى سيارة مستأجرة على الفور، وكانت غير مريحة، ومعلقة بشكل سيئ. ويخلق الوصول مفاجأة: لقد اختفى التعب، وعاد «الحزم». ونصادف التفسير نفسه دائمًا: فالرحلة هي بلا شك تعب، لكن الجسد المهزوز والمرتج والمزاحم يجد في ذلك أيضًا بعض «الصلابة». ويبدو التغيير منعشا. ويتحول اللين إلى تصلب، والتصغير إلى تكبير[689]. ومن ثم اخترعت الآلات التي توفر التذبذبات والصدمات، ويفترض أن تعكس صنوف الوناء. ومن ذلك «الكنبة الميكانيكية»، و«الحصان الميكانيكي»، و«كرسي الركوب»، وعديد الآلات غير المسبوقة التي ذكرتها الموسوعة أو الملصقات، والإعلانات والإشعارات المختلفة[690]، بما في ذلك الرجاجات والرافعات والتروس، التي يحركها خادم مثابر بشكل مناسب، والتي تثبت مستعملها في حركة متجددة بقدر استمرارها، في قلب «شقته»[691].

تحدي المدد

وتطلب الحدود أيضًا بطريقة مختلفة: لقد حولت المسافات والمدد إلى تحديات، وإصرار على المبادرة وتأكيد محفوف بالمخاطر. لم يعد الأمر مجرد اهتمام بالسرعة، ولا بمجرد التدوين شبه الميكانيكي للسرعة بين مكانين، من قبل التفاصيل التي كان يقدمها السعاة في القرن السابع عشر، ولكنه رهان على هذه السرعة بالذات، و لإثارة التي تحدثها، والبحث عن مزيج دائم التحسن بين المسار والزمن. إنه

(689) انظر:

Jean-Baptiste Pressavin, L'Art de prolonger la vie et de conserver la santé, Paris, 1784, p. 154.

(690) انظر:

« Tabouret d'équitation », Affiches, annonces et avis divers, 1761, p. 185.

(691) Jean Le Rond d'Alembert et Denis Diderot, Encyclopédie, op. cit., art. « Équitation ».

تأكيد فردي تمامًا، ويجب تكرار هذا القول: اليقين من القدرة على مواجهة «المستحيل»، للوصول إلى «الحد الأقصى»، في شكل «أداء» أو «إنجاز» محسوب. ومثل هذا الرهان، الأول في فرنسا، حدث في 1694؛ حيث راهن الدوق هنري ديلبوف على قدرة «طاقمه على الخروج من باريس إلى فرساي والعودة إلى باريس في أقل من ساعتين»[692] وربح سبع دقائق، مستجيبا، أكثر من أي وقت مضى، لحساب دقيق للزمن نفسه. وتتابعت المحاولات في القرن الثامن عشر، ولا سيما بعد منتصفه؛ إلى حد الحصول على بعض الطابع الرسمي عندما تسبب تحدي الميلورد بوسكول، في نوفمبر 1754، وهو الذهاب من فونتينلو إلى باريس في أقل من ساعتين، في صدور قرار ملكي؛ الأمر الذي أعطى «للشرطة لرفع جميع العقبات على الطريق والتي يمكن أن تسبب للعداء أدنى عائق»[693]. وهناك مستجد آخر، وهو أن بوسكول سيعلو «بساعة عامة بذراعه اليسرى حتى يتمكن دائمًا من رؤية الوقت أثناء العدو»[694]، وضبط عملية تقدمه، وتحويل لزمن إلى «هوس»، قبل أن يكسب اثنتي عشرة دقيقة. وهذا لأمر يجعل الاختبار لكن بساطة عبارة عن حدث، وعلى هذا النحو يصفه كل من لوي-سباستيان ميرسييه وديفور دو شوفيرني كما ينبغي. «لقد تحدثنا عنه لمدة ستة أشهر، ولكم بدأت الأرواح تشتعل في السباقات»[695].

إن التعب والتحدي المرتبط به موجودان بالتأكيد في مثل هذه المحاولات. يتم التفكير في طائفة من الترتيبات، ويتم إعداد أماكن، ويجري تهيىء خيول لأجل المناوبة. بل تم ترتيب سرير لدى «صانع ليموناده»، عند نقطة الوصول، حين راهن الماركي شارل-نويل دي سايان، في 6 أغسطس 1722، على «اللعاب

(692) Henry Lee, Historique des courses de chevaux, de l'Antiquité à ce jour, Paris, Fasquelle, 1914, p. 89.
(693) Louis-Sébastien Mercier, « Jockeys », Tableau de Paris, op. cit., t. II, p. 272.
(694) Jean-Nicolas Dufort de Cheverny, Mémoires (ms. XVIIIe siècle), Paris, Perrin, 1990, p. 166.
(695) Ibid.

مرتين من باب سان-دوني إلى شاتو دو شانتيه؛ أي مسافة ستة وثلاثين فرسخًا، في أقل من ست ساعات». ويركب الفارس على التوالي ستة عشر حصانًا، ويكسب خمسًا وعشرين دقيقة ويستريح لمدة ساعة ونصف في الموضع المتفق عليه؛ وهذا «قليل جدًا»[696] في نظر الشهود. وتشدد مذكرات إدمون-جان-فرانسوا باربييه على المزايا التي جرى إثباتها على هذا النحو: «هذا ليس سباق خيول، بل سباق رجال»؛ وأولئك الذين رغبوا في متابعته «فقدوا أنفاسهم»[697]. إنه سعي غير مسبوق، بالتأكيد، حيث أصبحت مقاومة التعب، لأول مرة، مناسبة للرهان بقدر ما هي مناسبة لتحقيق إنجاز معبر عنه بالأرقام.

وبعد منتصف القرن اكتست الأمثلة صبغة منهجية. يركز دوق دو كروا على العروض التي تثير الأنفاس بصورة جلية. ومنها سباقات التزلج على القنوات المتجمدة: «لقد تعلمت هناك أن المتزلجين الجيدين قطعوا ضعف طول القناة، أي ثمانمائة قامة في ست دقائق». ويربطها بوحدات زمنية: «هذا ما يعطي، إذا اتصل الأمر، ستة فراسخ ونصف في ساعة واحدة»[698]. وقد تعجب من بعض النتائج: «السرعة التي كان عليها في سباقه في فلاندر، حيث كان يسير، على متن مركبة، بسرعة من خمسة إلى ستة فراسخ في الساعة، وهو أمر مذهل»[699]. نلقى هنا جِدَّة عظمى تمامًا؛ حيث جرى ربط المسافة المقطوعة، لأول مرة، بوحدة زمنية. وليس الأمر سوى اختراع ثبات معين. وتم التخلي النهائي عن عالم «ما يقرب من»: لم يعد مدار الأمر على المدة النسبية للوصول إلى مكان ما، ولكن على المدة القياسية لقطع مسافة. ما عاد يُعَبَّر عن السير بحديث للمخاطر التي تكتسي صبغة النوادر،

(696) انظر.
Edmond-Jean-François Barbier, Chronique de la Régence et du règne de Louis XV, Paris, 1858, t. I, p. 230.
(697) Ibid.
(698) Emmanuel de Croÿ-Solre, Journal inédit du duc de Croÿ (1718-1784), Paris, Flammarion, 1906-1921, t. I, p. 154.
(699) Ibid., t. II, p. 212.

بل بجدول مجرد يقابل بين وحدتين: المكان والزمان. ومن ثم أمكنت المقارنة بين السرعات، وبين المقاومات أيضا.

تحدي الاكتشافات

هناك ضرب آخر من التصدي الإرادي للإرهاق والألم خلال عصر الأنوار، ورحلة أخرى أيضا تختلف عن الإثارة المعززة التي سبق ذكرها: يتعلق الأمر بالعبور الكبير، وغَوْر البحار، وتحدي المهالك والمخاطر. ما عاد الأمر يتعلق بالعواصف، والأعاصير، وعوارضها، ابتغاء نيل بعض المغفرة أو بعض الفداء، مثل الحج إلى الأرض المقدسة ومجاهيلها منذ فترة مديدة، أو ابتغاء السيطرة بشكل أفضل على الأراضي أو المتاجرة في الغلال، كما كان حال رحلات الغزو لفترة طويلة كذلك. وإنما هي الأهوال نفسها وقد رامت تحقيق مشروع أكثر ابتذالا، وأشد «حداثة»: معرفة العالم بشكل أفضل، وابتغاء استكشاف المجهول، وبلوغ مناطق غير معروفة. إطلاق التحدي من أجل مزيد رفعة، واختبار الخطر من أجل مزيد إثبات للذات. لقد تغيرت مخاطر المغامرات العظيمة. لقد تحول رهان المغامرات العظمى، وتغير مقصدهم. السفر من أجل فهم أفضل، والتحدي من أجل إحاطة أفضل، والعمل الكادح من أجل معرفة أفضل، إن لم يكن من أجل وجود أفضل. وعندئذ تبدو المعاناة أكثر سخاء واحترامًا:

بحلول عصر الأنوار تغير كل شيء. إن الجهد الاستثنائي المبذول في توضيح وتنظيم علوم الطبيعة، والأرض، والمادة، التي شكلته الموسوعة، قد أعطى الرحلات محتوى علميًا منهجيًا تقريبًا(700).

(700) Jeanne Beausoleil (dir.), Jean Brunhes autour du monde : regards d'un géographe, regards de la géographie, Boulogne, musée Albert-Kahn, 1993; voir « Introduction », Michel Lesourd, « Appropriation du monde », p. 17

كانت رحلة جيمس كوك الثانية، بين عامي 1772 و1775، تهدف إلى «تحقيق اكتشافات في نصف الكرة الأرضية الجنوبي»[701]. وأنجزت رحلة بوغانفيل، بين 1766 و1769، جولة حول العالم، وقد توقفت طويلا عند أرخبيل أوقيانوسيا[702]. ورامت رحلة لابيروز، من 1785 إلى 1788، استكشاف المحيط الهادئ برمته بقدر ما رامت أيضا «حل للمشكلات العلمية التي أثارتها أواخر الإبحارات الشهيرة»[703]. إن «المعرفة» توجد في صميم المغامرة، وتعميقها يتعزز بفضل الجهود الإرادية. ومن شأن هذا أن يزيد بالمثل من أوصاف الإرهاق. ويقدم إيف-جوزيف دو كيرغيلين دو تريماريك أفضل مثال على ذلك؛ حيث يذكر المطبات والتحديات التي تمت مواجهتها خلال رحلته الطويلة في بحار الشمال خلال 1768-1769:

إن المصاعب التي واجهتها خلال رحلة إبحار؛ حيث كان يتحتم محاربة التيارات، وتحمل العواصف المتكررة، والمناورة وسط كتل الجليد، وحيث تثير اختلافات البوصلة، في كل خطوة تقريبا، شكوكًا مستمرة فيما يتعلق بتقدير الطرق، وبكلمة واحدة، إن العقبات التي كان عليّ التغلب عليها، تجعلني آمل أن تكون هذه المذكرات، التي أمرت بنشرها، مفيدة بدرجة ما[704].

---

(701) James Cook, Voyage dans l'hémisphère austral et autour du monde, fait sur les vaisseaux du roi L'Aventure et La Résolution, en 1772, 1773, 1774 et 1775, Paris, 1778, Paris, « Introduction », p. VI.

(702) Louis-Antoine de Bougainville, Voyage autour du monde par la frégate du roi La Boudeuse et la flûte L'Étoile en 1766, 1767, 1768 et 1769, Paris, 1771. Voir l'envoi de Bougainville au roi : « Sous votre hospice, Sire, nous sommes entrés dans la carrière, des épreuves en tous genres nous attendaient à chaque pas, la patience et le zèle ne nous ont pas manqué ».

(703) Édouard Charton, « La Pérouse, navigateur français », in Voyageurs anciens et modernes, op. cit., t. IV, p. 440.

(704) Yves-Joseph de Kerguelen de Trémarec, Relation d'un voyage dans les mers de Nord, aux côtes d'Islande, du Groenland, de Ferro, de Schettland, des Orcades et de Norvège, fait entre 1767 et 1768, Paris, 1771, p. V

ولعل إصرارًا خاصًا يشدد بالاهتمام على هذه النقطة في النصف الثاني من القرن العشرين؛ إذ يمجد «المشروع الجريء والخطير» الذي جرى تقديمه لنا من رحلة، هو «استكشاف البحار التي لم يتم عبورها أبدًا»(705)، بالخصوص أندرس سبارمان، رفيق جيمس كوك العرضي بقدر ما كان مغامرًا منفردًا في جمع نباتات، التقييم المزدوج للمعرفة المكتسبة والمحن المرهوبة. «لذلك، لم أحسب مجهوداتي ولا وضعت مجال معرفتي بفضل المال، وإنما أعكس ذلك، كما يقال، بفضل عرق جبيني والمجازفة بحياتي»(706).

تحدي القمم

وهناك تحدٍ آخر، أخيرًا، يجدد موضوعه أفق الإنهاك: إنه تحدي الجبل الطافي خلال عصر الأنوار، والتعب الخاص جدًا الذي يسببه، والمتصدى له من أجل تقدير أفضل للمسارات والرحلات. وقد حدث انقلاب هنا مرة أخرى؛ فالثلوج، والنتوءات، والمشارف، والشعاب، التي يتم مقتها تقليديًا، والمكرسة لعدم الجدوى أو للمخاطرة بدون هدف، تحرك الانتباه، وإرادة المعرفة، والحساسية الجمالية، و«التباهي» الشخصي تقريبًا. وتثير على الخصوص الرغبة في الاقتراب من مثل هذه الأماكن، وعبورها، ومواجهتها، بوصفها انتصارات حميمة، «في صفوف الطبقات الميسورة من السكان»(707) ولا سيما الذين يملكون الوقت وإمكانيات الحركة. وتتحول النظرة: فالأخاديد والثلوج مغيران مظهرهما. وكان هذا هو اعتراف ويليام ويندهام في عام 1741، وهو نبيل إنجليزي بدأ استكشاف الأنهار الجليدية على الرغم من التحذيرات المختلفة، وحتى الانتقادات: «انتصر فضولنا، وقد وثقنا بقوتنا وشجاعتنا»(708). أو كلمات تيودور

(705) .Henri Wilson, Relation des Iles Pelew (1788), Paris, 1793, p. 2

(706) .Anders Sparrman, Voyage au cap de Bonne-Espérance et autour du monde avec le capitaine Cook, Paris, 1787, t. , p. XXXV

(707) .Marc Lonol, Le Temps de la fatigue, op. cit., p. 60.

(708) .Lettre de William Windham, 1741, in Henri Ferrand, Premiers Voyages à Chamouni. lettres de Windham et de Martel, Lyon, 1912, p. 17.

بوري، قبل صعوده إلى مون بلان في عام 1784: «نحن مندهشون لأننا لم نجرب كل شيء [سابقا] من أجل هذا»[709]. ومثل هذه التجربة ترمز إلى الثقافة الجديدة: أهمية القرار الشخصي، والاهتمام برسائل الحواس، ورهان الاتصال بالأشياء، وبالعالم، والإيمان الأدنى أيضًا بالقوى الغامضة، وبالتهديدات الخفية. وهناك ثقافة جديدة للأرقام أيضًا: يلاحظ هوراس-بنيديكت دو سوسير، أحد المتسلقين الأوائل لمون بلان، أنه في جبال الألب والجورا، توافق ساعة واحدة من المشي صعودًا رأسيًا بأربعمائة متر. وهذا ما يمزج التعب على الفور بمثل هذه الحسابات، وهو شرط لا مفر منه للنجاح المرتقب: «وأخيرا، بعد ثلاث ساعات وثلاثة أرباع من المشي، بلغنا قمة الجبل، حيث استمتعنا بمشاهدة الأشياء الأكثر إثارة للدهشة»[710]. إنه العياء الذي أصبح «جزاء»، لكنه لم يعد «جزاء» الفداء، بل هو بعكس ذلك «جزاء» المتعة المحسوسة واللذة الدنيوية: «لم أصدق عيني. بدا لي الأمر وكأنه حلم»[711]. حتى إن الوهن يمكن أن يتحول بحد ذاته إلى رفاهية، وهو وضع أصيل بما يكفي «لجعل أعظم صنوف التعب محبوبة»[712]. ولا شك أن الموقف أساسي؛ حيث يجري البحث عن المتعة في صميم الجهد مع تحويل هذا الأخير إلى موضوع للدراسة والفصول. يعطي سوسير التفاصيل، مازجًا ملاحظاته بالأرقام: «هؤلاء الرجال الأقوياء، الذين لا تعني سبع أو ثماني ساعات من المشي التي أمضيناها للتو شيئًا على الإطلاق بالنسبة إليهم، لم يرفعوا خمسة أو ستة معاول من الثلج، حتى إنه قد تعذر عليهم متابعة السير»[713]. فلا يزال التفسير يجهل أمر الأكسجين ويتمسك بـ«نقص الهواء»، وبضغطه المنخفض، مع التركيز على التنفس وصعوبته: «سيتضح أن الكثافة يجب أن تعوض بتردد

(709) Marc-Théodore Bourrit, Nouvelle Description des glacières et glaciers de Savoie, particulièrement de la vallée de Chamouni et du Mont-Blanc, Genève, 1785, p. 158.

(710) Lettre de William Windham, in Premiers Voyages à Chamouni, op. cit., p. 41-42.

(711) Horace-Bénédict de Saussure, Voyages dans les Alpes, Paris, 1787, t. III, p. 147

(712) Marc-Théodore Bourrit, Nouvelle Description des glacières et glaciers de Savoie, op. cit., p. 154.

(713) Horace-Bénédict de Saussure, Voyages dans les Alpes, op. cit., t. III, p. 144.

الشهيق»[714]، حتى المحاولة الرامية، هنا مرة أخرى، إلى الاقتراب من العلامة العددية: «لم يكن في وسعي أن أخطو خمس عشرة أو ست عشرة خطوة من دون أن أستعيد أنفاسي»[715]. وهكذا استجدت دراسة تعب خاص جدًا، مصاحبًا لمبادرة خاصة أيضا، هذه التي كانت تعد من قبل «سخيفة». وأخيرًا، هناك تقدير أكثر موضوعية، إن لم يكن أكثر وثوقا، لما ظل لفترة طويلة يمثل تهديدًا مرعجًا وبالتالي مرفوضًا.

لقد غير الإنسان وضعه إزاء الكون، ومواجهته بالعناء هو جزء من إثباته لذاته.

(714) .Ibid., p. 147

(715) .Ibid., p. 146.

الفصل الثامن عشر

بدء المران، مراجعة الزمن

ونجد هذه الصور من الفضول المجدد إلى حد كبير ما يوافقها من الدفعات التي تجددت هي أيضا. لا يبقى مبدأ المقاومات هو نفسه عندما تتغير رؤية الجسم، ورؤية الألياف والتوترات ولا يعود هو نفسه أيضًا عندما تتغير رؤية الزمن، ورؤية التقدم، وسيره قدما. إنها آفاق طائفة الأثرياء، بلا شك، أولئك الذين يملكون زمام المعرفة والقرار، ولكنها آفاق تؤثر بشكل نهائي وحتمي على الثقافة والممارسات اليومية: مكونات جديدة معروضة، وعادات جديدة، وطموحات اجتماعية جديدة أيضًا.

المقويات

تشير صورة الألياف وثباتها أولاً إلى تجديد الموارد، حتى لو لم يتم التخلي دائمًا عن الإحالة القديمة على الأخلاط. وسود مبدأ محدد: تقوية الألياف التي تعد ضعيفة، وليس، كما كان الأمر من قبل، لتكملة السوائل التي يقال إنها «متسخرة». إن استخدام الكهرباء، كما رأينا، حتى لو كان نادرًا، بل ومحدودًا، يتوفق بالفعل مع وضع مثل هذه الصورة. إن دستور الأدويه الأكثر شيوعًا وابتذالا ينظم «التقوية» بالقدر نفسه. ومن ذلك «الأدوية التي تمنح المواد الصلبة الصمة التي يجب أن تمتلكها لتفي بوظيفتها»[716]، أو تلك التي «تقوي الأعصاب وتضفي نبرة على ألياف الجلد»[717]. وتتكاثر المواد القابضة أو المقربة. يوصي لوي ديبوا دو

---

(716) Louis Desbois de Rochefort, Cours élémentaire de matière médicale, Paris, 1789, t. II, p. 27

(717) Antoine Baumé, Éléments de pharmacie théorique et pratique (1762), Paris, 1770, p. 812.

روشفور، أستاذ كورفيزار، بـ «أقراص النعناع الموجودة في المتاجر»[718]، كما يوصي جوزيف ليوتو، كبير أطباء لوي الخامس عشر، بفتون الدماغ عن النسس وبرادات الحديد، والتي من شأنها أن «تعيد للأوعية المرونة والنبرة التي فقدتها»[719]، وكذلك دورية لاڤان-كورور العلمية لعام 1760، فإنها توصي بـ «براعم الصنوبر الروسي» لمحاربة «تباطؤ الألياف»[720].

وتنوع الموسوعة من الخيارات. البرتقال المر «الهاضم والمنشط»، والنعناع الإنجليزي «المريح وصديق الأعصاب»، والدردي المنقى «المنشط العام للجسم»، وماء الملبسة «لخفقان القلب ومكامن الضعف»، وماء بلاروك الذي ينشط «قدرة المعدة والأمعاء»[721]. وتتكرر اللازمة المهيمنة، والتي تم التشديد عليها بوضوح في قاموس الصحة المحمول في عام 1760 : «شد جميع الألياف»[722].

وتبقى هناك وصفات فردية، تجريبية إلى حد كبير، لكنها دائمًا ما تكون منشطة. ويشيد دوك دو لوين بالوردة التي «تنعش عصارتها القوى»[723]؛ كما يثني جيمس بوسويل، المحامي الإنجليزي العاشق للقارة، على «مرق لحم العجل»، والذي يفترض أن «يمنح المزيد من الطاقة ويهدئ الأعصاب»[724]؛ وكذلك دوق دو كروا، فإنه يثني على الشوكولاتة، وقد كان يتناولها باستمرار في رحلته الشاقة إلى أراس من أجل تقديم تقرير إلى حاكمي داميان عن أقارب «قاتل الملوك»[725].

---

(718) Louis Desbois de Rochefort, Cours élémentaire de matière médicale, op. cit., p. 35.

(719) Joseph Lieutaud, Précis de la matière médicale, Paris, 1766, p. 173.

(720) L'Avant-Coureur, 18 février 1760.

(721) انظر

Jean Le Rond d'Alembert et Denis Diderot, Encyclopédie, op. cit., à chacun des articles concernés, « Orange », «Menthe », « Tartre », « Eau de carme », « Eau de Balaruc », etc.

(722) Dictionnaire portatif de santé, Paris, 1760, art. « Épuisement ».

(723) Charles-Philippe d'Albert de Luynes, Mémoires sur la cour de Louis XV (1735-1758), Paris, 1860-1865, t. I, p. 137.

(724) James Boswell, Journal intime d'un mélancolique, 1762-1769 (ms. XVIIIe siècle), Paris, Hachette, 1986, p. 116.

(725) Emmanuel de Croÿ-Solre, Journal inédit du duc de Croÿ, op. cit., t. II, p. 369.

وأخيراً، تنطوي الإشارة إلى التعب الجنسي، وإمكانية التغلب عليه شعشعة الألياف والأعصاب، على دلالة كاشفة. وهذا ما تعد به «أكاسير الحياة التي تنتج تأثيرات رائعة»[726] في مذكرات كازانوفا. يفترض في «صَحفَةَ الخمس» والقهوة القدرة على «إثارة»[727] الأبدان، كما يفترض في النبيذ الفاخر والملبسات القدرة على إطالة الليل. وهناك عدد لا يحصى أيضا من عمليات استعانة الأشخاص الساديين بمثل هذه «المثيرات». وتنطوي الكلمات على الإشرة العصبية. «سوائل محفزة برائحة الياسمين»[728] تسقي الأشخاص المشاركين في العربدة. وجرعات خاصة تسبب «النوبات العصبية» أو «التشنجات»[729]، في حين أن «ماء الحياة المعتق للغاية»[730] يفترض أن يهيّئ للهو الليل ولذلك تكررت الإشارات، مثل «مساحيق الفرح»، التي تحيي «أهل العربدة الضعفاء والمنهكين»[731]، كما يصورهم الماركي ولا شك في أنها موارد قديمة، لكننا نجد أن الإشارة إليها أكثر تكراراً، كما نجد أن الإجراءات المرتبطة بها تركز عن قصد على الشبكات العصبية إنها تحديدا تلك «المنبهات» التي يتحدث عنها «الجاسوس الإنجليزي»، والذي يحكي عن العلاقات الحميمة بين لوي الخامس عشر و«جان بيكي»، كونتيسة دي باري: «إن ارتباط الملك [بها] متأتٍ من الجهود الهائلة التي جعلته يبذلها بواسطة عماد [حقنة] العنبر الذي كانت تعطر بها نفسها داخليًا كل يوم. نضيف أنها أضافت إلى هذا سرًا لم يكن قد استخدم بعد في المجتمع الراقي»[732]. ولا نلفي

---

(726) .Giacomo Casanova de Seingalt, Mémoires (1825), Bruxelles, 1860, t. VI, p. 10.

(727) Ibid., t. V, p. 60 ou Ibid., p. 84.

(728) انظر

Eugen Duehren, « La prostitution et la vie sexuelle au XVIIIe siècle », in Michel Camus (dir.), Sade, Obliques, no 12-13, 1977, p. 270-271.

(729) .Donatien Alphonse François de Sade, L'Histoire de Juliette (1797), Œuvres complètes, Paris, Tête de Feuilles, 1973, t. 7, p. 512-513.

(730) .Ibid., t. 9, p. 508.

(731) .Eugen Duehren, « La prostitution et la vie sexuelle au XVIIIe siècle », op. cit., p. 270-271.

(732) انظر:

أية إشارة إلى الخلاصة أو المادة المستخدمتين؛ ومن هنا «السر»، والإلحاح في المقابل على التأثير الذي يجمع بين الإثارة والأعصاب، من أجل «شهوانية» هي نفسها تستحضر أكثر كما يتم تأكيدها بدرجة أكبر.

التقوية بالبارد

هناك أيضًا الرطب، أو البارد، والتي يتمثل تأثيره في «شد» الأبدان لمساعدتها على المقاومة بشكل أفضل. وهذا ما ذكرت السيدة ديبناي أنها بحثت عنه في رحلتها إلى سويسرا: «البرودة الشديدة هنا تقويني وتناسبني بشكل أفضل من الطقس المعتدل في فرنسا»[733]، أو الجراح لاري، خلال الحملة المصرية، وقد غاص في المياه الباردة لنهر النيل: «هذه الحمامات كانت تريحنا وتقوّي عضلاتنا»[734]، بخلاف الحمامات الساخنة التي كانت تعد مريحة في القرن السابع عشر؛ أو بيير بوم أيضا، هذا الذي غمر لعدة ساعات مرضاه الذين كانوا يعانون من العلل البخارية، مدعيًا أنه يحارب بواسطة البارد رخاوتهم و«يعيد إليهم نشاط أجسامهم الصلبة»[735]. أما الحرارة، فهي، على العكس من ذلك، «تطيل الألياف، وترخيها، وتورث الخور والوهن»[736]، فتلين الأبدان، وتضعف الأخلاق، والحرارة إنتهى، «بخلاف الحال في الأشخاص الذين لديهم أعصاب دقيقة»[737]. والممارسة الجديدة تضمن العكس. إنها تجدد وتقوي. وتستطيع أكثر من ذلك أيضا. يؤكد لوي-سباستيان ميرسييه على دورها في معارضة عالم عد

John Davenport, Aphrodisiacs and Anti-Aphrodisiacs: Three Essays on the Powers of Reproduction, Londres, 1869, p. 94.

(733) .Mme d'Épinay, Les Contre-Confessions, op. cit., p. 1282.

(734) .Dominique-Jean Larrey, Relation historique et chirurgicale de l'expédition de l'armée d'Orient en Égypte et en Syrie, Paris, 1803, p. 11.

(735) .Pierre Pomme, Traité des affections vaporeuses des deux sexes, Lyon, 1763, p. 18.

(736) .Charles-Augustin Vandermonde, Essai sur la manière de perfectionner l'espèce humaine, op. cit., t. I, p. 189.

(737) .Georges-Louis Leclerc Buffon, lettre du 14 juillet 1783, Correspondance, op. cit., p. 167.

بالماء، بل معارضة أرستقراطية غدت منحطة، حين يقابلها بتلك الشابة التي تغمرها الأبخرة، فتجرجر نفسها «من حوض الاستحمام إلى مرحاضها، ومن مرحاضها إلى حوض الاستحمام»[738]، وقد أنهكتها اللامبالاة والرطوبة.

صار البارد في إثر ذلك مرجعاً رئيسياً لخبراء حفظ الصحة والمربين في النصف الثاني من القرن. إنه يستجيب لمخاوف من التدهور العضوي والتعاسة الاجتماعية الناجمة عنه. ويوفر «حماية» دائمة، ويضمن المقاومة والحزم، ويحمي من التعب في المستقبل. أما تلميذ روسو المتحمس، جان-لوي دو فوركروا، المستشار المجهول للملك في محكمة كليرمون، فيشرح بإسهاب كيف أن الحمامات الباردة، التي كانت تعمل بانتظام منذ الأشهر الأولى من الحياة، قد زادت بشكل كبير من قوة أبنائه: «تأثير منشط على الجلد»، «حرارة طبيعية أكثر نشاطاً»، «درع مقاوم للهواء»[739]. بل إن فوركروا يجري مقارنات؛ لقد حكم بأن أحد أبنائه أكثر مقاومة، لأنه استفاد من خبرة الأب؛ فكان غالباً ما يغمسه في البارد. وإلى مثل هذا لجأت السيدة دو ماريز، المثابرة على قراءة أطباء عصر الأنوار، والمتعاونة مع أوبيركامبف، مُصنِّع الأقمشة للصورة؛ كانت بورجوازية نشطة ومغامرة، وخلفت مراسلات طويلة، إلى جانب الاعتبارات الصناعية المتعددة، تأديب الأخلاق «المومنة» في وقتها، ووصف بإصرار الممارسات التعليمية حيال أطفالها وأبناء إخوتها: طعام «طبيعي»، وتمارين، وحمامات باردة، بل الأسف على عدم غمر الرأس[740]. ويسوق ويليام بوكان هذه الاعتبارات إلى نقطة نهائية؛ حيث مدد، لأول مرة، اللجوء إلى البارد لفترة طويلة، متخذاً درجات، مستهدفاً مراحل، وباحثاً عن التقدم: لا يتعلق الأمر بمياه النهر التي تطوق مباشرة الجسد

(738) Louis-Sébastien Mercier, « Les vapeurs », Tableau de Paris, op. cit., t. I, p. 634.

(739) Jean-Louis de Fourcroy, Les Enfans élevés dans l'ordre de la nature (1775), Paris 1783, p. 96.

(740) انظر

Une Femme d'affaires au XVIIIe siècle : la correspondance de Mme de Maraise, collaboratrice d'Oberkampf, présenté par Serge Chassagne, Toulouse, Privat, 1981, p. 74.

المش، ولكن بدرجة حرارة منخفضة بشكل غير محسوس، ويعمل على «الأقل»، من أجل التعويد بشكل أفضل وتحقيق نجاح أكثر. ما هي إلا رؤية جديدة للتقدم مطبقة على مسعى متواضع؛ وهو الحمام، وقد أصبح طريقة تعليمية. مبدأ مهم بشكل مضاعف:

على الرغم من أن الماء البارد مفيد جدًا في تقوية مزاج ضعيف ومتراخ، إلا أنه إذا حاولنا استخدامه مبكرًا جدًا، فقد يكون تأثيره على سطح الجسم قويًا جدًا، بينما القوة الفاعلية على صعيد الداخل ستكون ضعيفة جدًا، الأمر الذي قد يؤدي إلى أوخم العواقب[741].

ينضف إلى التركيز غير المسبوق على التقدم الحاصل ببطء، تركيز غير مسبوق أيضًا على مقاومة «داخلية» معززة.

مراحل وتدرجات

تتغير رؤية التمارين، أخيرًا، مع هذه الصياغات المتجددة. وتحظى الممارسة نفسها بمزيد من التفصيل والاستحسان، بما أنها تقوي الألياف، وتوفر الصلابة. وحتى المراجع الدينية تساهل أيضا مع الرقص وإغراءاته المنبوذه منذ فترة طويلة، إلى درجة أنها رأت فيه بعض الاسترخاء المجدد. وهذه هي النصيحة التي وجهها جان بونتا، الدكتور في القانون الكنسي، إلى كهنة الاعتراف في منتصف القرن:

إذا حسبنا الرقص بمثابة استرخاء للروح، وبمثابة تحول يمنعنا من الوقوع في الانحطاط الذي يمكن أن يسببه الانشغال المفرط، أو الانتظام الشديد في أفعال

(741) William Buchan, Le Conservateur de la santé des mères et des enfants (1803), Paris, 1805, p. 109.

الحياة العادية، فيمكننا القول إنه كذلك مستثنى من كل ذنب بشرط أن يكون عاملا بجميع الشروط أو الظروف التي تقتضي براءته[742]

و لأهم من ذلك، أن مقاربة التمرين نفسه مصممة بشكل مختلف؛ بحيث توفر عتبات، وتراعي تدرجات، وتروم تحسينات منظمة. إن الأساليب القديمة للماريشال دو بروسيكو، التي تكرر بلا كلل الحركات نفسها، قد تعرضت للتضحية. لقد انطلق ببطء شديد التفكير في التقدم التدريجي في التعلمات البدنية، وفي مراحل الاستعدادات الأكثر تنوعًا. وتسمح رؤية الزمن الموجهة بشكل متزايد نحو المستقبل بالبناء التدريجي؛ وهي جهود تتشكل من تقدمات متتالية مركزة على المستقبل؛ فهو يشير إلى «المزيد»، وآفاق تشير إلى «الأفضل». تجري دراسة طائفة من التطورات، وترتقب لحظات ثمة تغيير كبير: تعد مسارات؛ وترتب مدد طوافهم وسعاة هم، بالفعل، معيون بشكل مختلف. ينبغي أن يجعل الحصان «على تمام التهيؤ». ويتم حساب التسلسلات عندها قبل التصدي للرحلة: «سنقطع أولاً مسافات قصيرة؛ أي نسير في اليوم الأول مسافة ستة فراسخ عادية، وستزيد المسافة في اليوم الثاني، ومن ثم، شيئًا فشيئًا، سنسير أربعة عشر فرسخًا في اليوم»[743]. وتظهر كلمة جديدة في إنجلترا، وهي «ترينين» (training)، مشيرة إلى تدرج محسوب للعادات والتأثيرات. ويشكل الملاكمون المحترفون، وتحدياتهم خلال نهاية القرن الثامن عشر، الأمثلة الأولى على ذلك. وهناك نص من عام 1789 يقدم لهم سباقات ورميات متكررة، والتي يجب أن تتوقف عندما «يشعرون بالتعب»[744]، وهي الضمانة الوحيدة للتحسن والتقدم. وبعض

---

(742) Jean Pontas, Dictionnaire des cas de conscience, ou Décisions des plus considérables difficultés touchant la morale et la discipline ecclésiastique (1715), Paris, 1743, édition revue et corrigée, art. « Danse ».

(743) François-Alexandre-Pierre de Garsault, Le Nouveau Parfait Maréchal, ou La Connaissance générale et universelle du cheval (1741), Paris, 1755, p. 114.

(744) « The Art of Manual Defence, or System of Boxing », Londres, 1789, in John Sinclair, The Code of Health and Longevity, Édimbourg, 1807, t. II, appendice IV, p. 163.

انظر أيضا:

النصوص التي تركز على التمارين والألعاب من نهاية القرن الثامن عشر لا تزال توضح ذلك، مثل رياضة الشباب؛ حيث يجب أن تكون أي بداية «إعداد» «ضعيفة» وأن تكون الوثبات الأولى «منخفضة جدًا»(745). وتعطي السيدة دو جونليس الصورة الأكثر اكتمالا عن ذلك، في ثمانينيات القرن الثامن عشر فالتمارين البدنية التي تقدمها لأطفال الدوق دو شارتر، التي عينت «واليا» عليهم في عام 1773، تقوم كلها على الحساب العددي. طريقة «نظامية» تستجيب لمثل أعلى جديد لتحسين. وتعاير الكونتيسة «تدريجيًا» وبدقة السبقات، والخطوات، والقفزات، وحمل الجرار، والأثقال أو البكرة. تقوم بتكييفها، لإحراز تقدم، وفقًا لقدرات تلامذتها. وتلاحظ المقاومة والمراحل والتطورات. إنها تبحث عن «تحسين» دائم. ومن ثم يصبح تمرين حمل «جرار الماء» الذي يخضع له تلامذتها سمة مميزة. والمسار دقيق: 190 خطوة تضاف إليها 40 درجة للعبور. وأدت الرحلات الاثنتان والعشرون التي تم إجراؤها ذات يوم من عام 1788، مع فقدان المياه، إلى استخدام جرار «أصغر»(746). وبعد بضعة أيام، دونت خمس وعشرون رحلة. وبعد ذلك أيضا، أضيف وزن إضافي إلى جرار الأخ الأوسط المولود عام 1775. وأخيرًا بعد عام واحد، كان أمكن للأكبر، المولود في عام 1773، وهو لوي-فيليب المستقبلي، أن يحمل جرارا تزن 56 رطلاً (28 كلغ)، كانت في السابق تزن 40 رطلاً (20 كلغ). ويتم قياس «الأفضل» من خلال التدريبات الأكثر بدائية، ويمكن أن يذهب هذا «الأفضل» إلى أبعد من ذلك؛ حيث يُقال إن هذا التمرين الأخير قد تم إجراؤه بغير صرامة ومن دون فشل(747). ولا شك أن الأرقام تافهة، بل مستطرفة، لكن كل أهميتها تكمن في

André Rauch, « La notion de training à la fin du siècle des Lumières », Travaux et recherches en EPS de l'Insep, no 6, 1980, p. 61-67.

(745) Jean-Augustin Amar Du Rivier et Louis-François Jauffret, La Gymnastique de la jeunesse, Paris, 1803, p. 72.

(746) Stéphanie-Félicité Du Crest de Genlis, Journal des princes (mss. fin XVIIIe siècle), Chantilly, musée Condé.

(747) Ibid.

متخيل جديد للتدرجات، مثلما هي رؤية جديدة لضروب التعب المملود على الدوام.

وتحول الجيش، في نهاية القرن الثامن عشر، إلى مثل هذه التدريبات المكونة من التدريبات المعايرة. فالمسيرات معدودة مثل تكرارها وأوقات راحتها ومددها. ويسود أحد المبادئ بين خبراء حفظ الصحة الجدد في المعسكر والحامية: الانتباه إلى صور الإرهاق «القابلة لأن تتجنب» و«المتجنبة». ومن هنا هذه النصائح السائرة نحو الشيوع:

يمكن الأمر بمسيرات صغرى قبل اشتداد حرارة النهار وتوقيف السرايا من وقت لآخر. ومثل هذا السلوك لا يجهد السرايا، بل يساهم بشكل لا نهائي في الحفاظ على صحتها [...]، ومن الأفضل تكرار هذا التمرين غالبًا في الصباح الباكر، قبل أن ترتفع حرارة الشمس بدرجة معينة، بدلاً من القيام بذلك نادرًا، ولمدة أطول في كل مرة [...] ينبغي تجنب التعب غير المجدي[748].

يتمثل الرهان حقا في «التصليب المتدرج»[749]، وفي التدريب على مواجهة الإجهاد المحتمل والمبرمج. ويكمن الرهان على الخصوص في حساب هذه التمرينات ابتغاء جعلها «أكثر إفادة للسرايا»[750].

بفضل موضوع التقدم، وبفضل «القيس الكمي» للأفعال، ابتكر عصر الأنوار اعتيادًا جديدًا تمامًا على التعب وعلى آثاره. والخلاصة الحاسمة هي: «إن كمال الإنسان لا يزال بلا حدود»[751].

---

(748) John Pringle, Observations sur les maladies des armées, dans les camps et dans les garnisons (1753), Paris, 1771, t. I, p. 212-213.

(749) Jourdan Lecointe, La Santé de Mars, Paris, 1793, p. 339..

(750) Jacques-Antoine-Hippolyte de Guibert, Essai général de tactique, op. cit., p. 39.

(751) Jules-César Boissat, Des causes physiques du perfectionnement de l'espèce humaine, Paris, 1800, p. 5.

القسم الرابع

القرن التاسع عشر وتحدي العدد

على الجانب الآخر من اختراعات عصر الأنوار، والتي قلبت الرؤى السابقة، وعلى الجانب الآخر من التشديد على الوجه المزدوج من التعب، ذلك الذي يتصل بالملاحظات «الداخلية» و«الخارجية» معا، مع تمحور كليهما حول حدود الفعل والشعور بالذات، وعلى الجانب الآخر أيضا من «تعب التحدي» الذي أطلق مبادرات غير مسبوقة حتى ذلك الوقت، جدد القرن التاسع عشر ثمانا الأشياء التي جُعلت في الحسبان، كما جدد المقولات، والتفسيرات، وصولاً إلى الأعداد التي تحاول تحديد ما لم يكن موجودًا بنظام: من الجهود البدنية إلى الجهود الذهنية، ومن المبادئ الميكانيكية إلى المبادئ الطاقية، ومن تأثيرات الحساب إلى تأثيرات الأحلام والأفكار. لقد حوّل عصر «الوضعية» التعب إلى موضوع جديد، وشجع البحث المتأني عن «الدليل». ويضاف إلى ذلك التأكيد المتزايد للفرد، مع الحاجة المتنامية بالقدر نفسه إلى قياس «موارده» و«عجزه» معا.

ثمة تعب جرى تثمينه بوضوح وفرض نفسه لأول مرة مع بداية القرن، وهو تعب المهن التي يُفترض أنها تسهم في السعادة الاجتماعية، مدفوعا بطموح إلى تحقيق المساواة، وتحويل كل عياء إلى حركة مفيدة، ووضع الجهد في خدمة الجميع

وليس في خدمة السادة «المتعسفين» لفترة طويلة. إنه تعب «إيديولوجي»، نوعا ما، قريب من «تعب الفداء» القديم ويختلف عنه، ومن شأنه توجيه الحماسة الجماعية نحو مسارات جديدة؛ وهذا ما يشير إليه بلزاك في عام 1842، منذ «استهلال» الكوميديا الإنسانية: «وجود عالم أخلاقي جديد»(752)

ويتغاير هذا التعب «المثمن» على الخصوص، بشكل دائم، مع التعب «غير السعيد»، المدمر؛ ذلك الذي ولّده المجتمع الصناعي الأول، فأدى إلى إرهاق الأجساد وإثارة قلق المراقبين، ودفعهم إلى إعادة اختراع القياسات والملاحظات؛ ويتعلق الأمر أيضا برؤية أكثر انتباهاً للحرمان الذي لم تسلم منه، في الماضي، عديد الأرياف المكروبة. وقد استجابت له المقاومات الأكثر تنوعا، بل الأكثر عنادا، وكذلك الأبحاث: جهود بدنية سرعان ما تحددت، ومواقيت روقبت بشكل أفضل، وألوان من الوقاية قد أحسن تطبيقها. وهو ما خفف المعاناة من غير أن يمحوها مع ذلك؛ الأمر الذي أدى أيضًا إلى نقلها، وجعلها في بعض الأحيان موجودة بشكل مختلف.

وأخيرًا، استحدثت مساع أكثر شخصية في نهاية القرن، وهي تعارض مشاعر الضعف المكثفة: وعود للمرء غير محتملة ومتنوعة، بل مفترضة ليس إلا، بـ«أن يصبح أقوى»، «ليشق طريقه في الحياة»، ولينمي «الثقة في نفسه»، وصولا إلى تطوير وتعميق نوع من «الرياضة النفسية» التي يُفترض أن تعزز من شعور كل واحد بالأمان. إنها جميعا علامات على تجدد الثقافة: إقرار بهوس غير مسبوق بتعب أصبح أكثر انتشارًا، وإيهام غير مسبوق أيضًا بإرادة أصبحت أكثر قلقًا، وأكثر تطلبًا، إن لم تكن أكثر حزمًا.

(752) Honoré de Balzac, La Comédie humaine (1845-1855), Marcel Bouteron (éd.), Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1969, « Avant-propos », p. 12.

الفصل التاسع عشر

المواطن والإصرار

إن أمثلة المثابرة، وحتى التضحية بالنفس، تفرض نفسها في المقام الأول. لقد ابتكر نموذج غير معروف في مستهل القرن التاسع عشر ومشروعه الديموقراطي، وهو نموذج «المواطن الجديد»؛ ذلك الشخص النوعي المتذرر لمصير «حري» بالضرورة، المجتهد، والحساس لـ «التقدم». فكل مبادراته مفيدة، وكلها تستحق الاهتمام، وتعبه، المصنوع من الاستثمار البدني والإصرار الداخلي معا، إنما يخدم قضية الجميع ومعه يستيقظ عالم. ويُنظر إلى عمله، على الخصوص، بشكل مختلف: شرعيته اجتماعية أكثر مما هي دينية، ومسؤولية سياسية أكثر مما هي أخلاقية، «ويعترف بها الآن كأساس للجمهورية، التي هدفها النهائي هو الازدهار الاقتصادي»[753]. وللثورة آثارها الثقافية: إن مشاركة الجميع في المجتمع، حتى ولو كانت مكلفة بدنيا، تصبح واضحة لا غبار عليها بقدر ما يجري تثمينها.

في خدمة الجميع؟

ستكون الفعالية مطلوبة، ولا مناص من قهر التعب. ثمة دينامية فرضت نفسها. لقد غير المجتمع اتجاهه، إذ استهدف لرقاه الجماعي، مطالبا بالتزام الجميع. وأعادت المهن اختراع التعب الشائع، وجرى تقاسم الالتزامات مع تحرير بعضها لبعض. أما كتاب الفرنسيون مصورين أنفسهم، وهو عمل يروم تقديم «موسوعة القرن التاسع عشر الأخلاقية»[754]، فإنه يقرطها على نحو لم يسبق له

(753) Giovanna Procacci, Gouverner la misère : la question sociale en France (1789-1848), Paris, Seuil, 1993, p. 233.

(754) Les Français peints par eux-mêmes : encyclopédie morale du XIXe siècle, Paris, 1840, 9 vol.

مثل: المحامي يقوم «في الساعة السابعة صباحا، وملفاته مرتبة [...]، وفي الساعة التاسعة هو في قصر المحكمة [...]؛ فلا توجد قضية تثبط عزيمته، ولا يوجد اختصاص لا يليق به»[755]؛ والطبيب «يستيقظ في الساعة الخامسة صباحا»، ومنذ الساعة السابعة صباحًا «ينتزعه المستشفى بعيدًا عن العمل المكتبي»، وفي الساعة الحادية عشرة صباحا «لا يفتأ يرتدي بِزَّتَه»، قبل أن يقابل، لفترة لا نهاية لها بعد الظهر، زبناءه الخواص[756]؛ أو الصيدلاني «محضر الأدوية النزيه الذي لا يكل، والأسير الطوعي في معمله»[757]. ويوجد عاملون آخرون في مركز الاهتمام بقدر أكبر، ويتعلق الأمر بأولئك الذين يدعون لمراقبة العنف أو الاضطرابات. فمفوض الشرطة «سيتعب أكثر المصنفين جسارة» بمجرد «تعداد صلاحياته»[758]؛ والدركي يتحمل «أشق المهن»[759]، ويصبح الضامن الأول لقانون تم إصلاحه؛ ومراقب التجارة» لا يستطيع «النوم ليلا»، لذلك فهو يلاحق المجرمين الماليين، مكرسا أيامه للتأمل في «خططه المجرمية»[760]. ويتسع الأمر ليشمل الأنشطة الأقل وضوحا أو الأكثر تواضعا، وكلها تؤكد رهانا جديدا. إن العشاب «مشغول» أكثر من الوزير[761]. وزارع الخضراوات يعرف كيف يستيقظ عند الفجر، ولذلك يجب أن يكون «في وقت مبكر جدًا من الصباح من أجل العثور على نكتة لم تجتمع بلبها بعض العربات»[762]. والبقال، أيضًا، يجب أن يكون «أول من يستيقظ، وآخر من ينام»[763]. وجامع الخردة إنما ينجح بفضل «يقظة النمل»[764]. ويبرهن «رجل كل الأشغال» على امتلاكه «جاهزية غير

(755) .« L'avocat », ibid., t. II, p. 67-68.
(756) .« La journée d'un médecin », ibid., t. IX, Prisme, p. 179.
(757) .« Le pharmacien », ibid., t. III, p.319.
(758) .« Le commissaire de police », ibid., t. III, p. 349.
(759) .« Le gendarme », ibid., t. II, p. 50.
(760) .« Le garde du commerce », ibid., t. III, p. 262.
(761) .« L'herboriste », ibid., t. II, p.232.
(762) .« Les maraîchers », ibid., t. V, p. 325
(763) .« L'épicier », ibid., t. I, p. 3.
(764) .« Le chiffonnier », ibid., t. III, p. 335.

محدودة»[765]. وترى المتعبدة نفسها أنه من «الإجرام» أن «تهدر ساعة» من وقتها[766]. وإن نظرة بسيطة إلى «مصفف طابع» لتكشف أيضا عن قوة التقدير العددي، وكلها نظرية، بل أسطورية: «وجد حاسب متأنٍّ أن يد مصفف طابع، عند حمل الحروف من صندوقه إلى الطابعة، كان يقوم لمدة عام برحلة تعادل ما لست أدري كم من رحلة حول العالم»[767].

يبقى التعلم، بطبيعة الحال، وهو الذي يجعل الصلابة في قلب الطموح. هذا ما سيكتشفه النجار الشاب، في نص عظيم آخر ذي هدف اجتماعي بقدر ما هو أخلاقي، وهو الأطفال مصورين أنفسهم: «هذا اللوح الذي كان سيُرهقني كثيرًا منذ الأيام الأولى، لم يعد يبدو لي شيئًا اليوم، فقد استخدمت بأفضل المنشار والإزميل»[768].

إنها رؤية مثالية، بل مجردة، بطبيعة الحال، ولكن هذا العزم على الجثمان يؤدي إلى تشتت موضوعة الوجود المنتشر للتعب، بل وأكثر من ذلك، موضوعة المقاومة الحازمة له. ويواجه طيف الانشغالات الذي لا ينفك عن الاتساع مجهودات أكثر تميزًا على الدوام. وهي رؤية وصفية بحتة، كذلك، ويجري استحضارها بنحو العظمة الضرورية والمتصاعدة.

ويكفي أن نقول إن مثل هذه الرؤية لصنوف التضامن موجودة بالفعل في رؤية معارك الثورة، بل معارك الإمبراطورية. وهناك أسطورة تقحم ألوان التعب التي دائمًا ما يتم التغلب عليها، وتعد «مجدية»، ومستحسنة:

يجتازون السيول والجبال

---

(765) « L'homme à tout faire », ibid., t. II, p. 257.

(766) « La dévote », ibid., t. IV, p. 133.

(767) « Le compositeur typographe », ibid., t. II, p. 272.

(768) Alexandre de Saillet, Les Enfants peints par eux-mêmes, sujets de composition donnés à ses élèves, Paris, Desessarts, 1841, p. 69.

بلا راحة، بلا نوم، مرافقهم مثقوبة، بلا طعام

يمشون فخورين، مبتهجين رغم ينفخون في النحاس

مثل الشياطين[769].

هنا يكتسب التعب «الحكاية» القديم عمقًا، فيقارب الحد الأقصى، ويداني الموت، بينما يخاتل التضحية والهجران المسلم بها. بل إن الانسحاب من روسيا يصبح أمرًا عاديا هناك: فما هو بالذل بل بطولة، وما هو بالهوان بل عظمة. ويركز الرقيب بورغوني، الذي تحمل شهادته قيمة رمزية، على صنوف التعب ذات القيمة الجماعية، وتنطوي على دلالة بالغة بقدر ما هي «قصوى»، تلك التي يعانيها المقاتل من أجل الجميع: «يهدون الطرق في بيريزينا، ويعملون ليلاً، مغمسين في الماء حتى أكتافهم، وقد ضحوا بأرواحهم لإنقاذ الجيش»[770]، والأصدقاء مرهقون، لكنهم يدعمون شخصًا بورغونيا «لم يعد في وسعه المشي»[771]، والجنود منهارون، لكنهم يبذلون آخر ما في وسعهم، يرفعون رؤوسهم مرة أخرى ليقولوا «تقدموا من أجل الإمبراطور»[772] وفي قلب السرد يكمن التعب الجديد، لا ذلك التعب الذي اكتسى صبغة أكثر دقة، بل أكثر إيلامًا، من ضمير مؤكد بشكل أفضل، ولكنه التعب الذي أضفيت عليه صبغة أكثر جماعية، وحتى أكثر «ائتلافية»، من خلال رابط اجتماعي مفكر فيه بشكل أفضل. وتلعب الشجاعة والثبات الذي يرافقها دورًا غير مسبوق يمكن «للمدني» أن يستلهم منه.

(769) .Victor Hugo, les Châtiments, Paris, 1853, p. 82.
(770) .Sergent Bourgogne, Mémoires, 1812-1813, publiées d'après le manuscrit original par Paul Cottin, Paris, Hachette, 1909, p. 206.
(771) .Ibid., p. 205.
(772) .Ibid., p. 213.

المواطن الجديد و«الإصرار»

هناك صورة تفضلها مثل هذه الاستثمارات: النجاح المحتمل، والزهد الفعال، وما يتعلق منها بالمواطن المتحمس، ذلك الذي لا يستسلم أبدًا، مع رغبة في التقدم، وفي فتح أفقه، و«تغيير جلده». وهناك نقلة أعمق: ما عاد «شرط» كل واحد مقبولا بوصفه معطى، أو وضعًا يختاره الله، ولكن بوصفه حيًا «تطوريا» قابلا للاستهداف، وموضوعا للمبادرة والقرار. وتعبر المساواة كل شيء، فتسوغ الحراك والطموح معا. إنها بالفعل صورة جديدة، بعيدة كل البعد عن صورة رجل البلاط التقليدي الذي يستنفد نفسه باتباعه لكل حركة أو كل طلب يأتي من ملكه؛ وبعيدة أيضًا عن انكفاء برجوازيّ عصر الأنوار لتأكيد الخاص، محولا الاختبارات التي يمر بها إلى سرد، ومعرضا نفسه لتحديات حتى يشعر بشكل أفضل بأنه موجود. يتعلق التغيير الحاسم هنا بـ«التساوي»، وبالتكافؤ المجهول حتى ذلك الوقت، وتطابق الوضع بالنسبة إلى الجميع، مما يشجع على بذل الجهد، كما يتعلق بادعاء مثل أعلى مشترك، وهو مثل «الأمة» الذي اخترع حديثًا. وكانت لذلك عواقب كبيرة: حصول تقاطع بين الالتزام الفردي والالتزام الجماعي، وتثمين المعركة «المجيدة»، وهي بعبارة أخرى، معركة التعب الذي يستدعي الاعتراف، بل الإعجاب.

ومن هنا أيضا الأهمية غير المسبوقة التي تنسب إلى المنافسة، وإلى ثقافة المثابرة، والصعود الاجتماعي، وجهودها المبذولة، وصراعاتها. ويعد «السيد بودران» رمزا لذلك، في عام 1840، وهو مثال غامض ضمن مجموعة من الحكايات ذات العنوان الموحي: **الفضيلة والعمل**[773]. إنه مستخدم بسيط في مؤسسة تجارية، وسرعان ما سيكافح الرجل لتسلق المراتب والدرجات. وتتكشف أحزانه على شكل رواية: لقد «تمكن بقوة الإرادة الشديدة وحدها، من خلال العمل،

(773) .Gustave des Essards, Vertu et travail, Paris, Louis Janet, 1840.

والتعب، والسهر من السمو على الوضع الاجتماعي الذي قبضته له السن»[774]. وأدى نجاحه إلى الوقوع في إنهاك مخصوص، بسبب التقشف، والقسوة، مازجا بين «رفض الراحة»، وبين الدراسات التي يتابعها خلال «ليال كاملة»[775]. والنتيجة «صحية، ولكن مرسومة: أمكن للسيد بودوان أن يخلف رئيسه، وأسس شركة جديدة، فأطلق اسمه على ما أصبح يسمى «دار مصرفية»[776]. وفرضت مقاومته لكل تعب نفسها ولكن هذا الأخير يتكون من الاستنهار المادي بقدر ما يتكون من الاستنهار العقلي، ومن العذاب العضلي والعذاب المعنوي معا. وتلوح «عولمة» البذل الفردي للطاقة، بل ترتسم ملامحها هنا، وهي موجهة للتطورات المحتومة.

وهناك مثال آخر، في سلسلة الحكايات نفسها، قد طُمس من دون شك، ولكن يمكن إظهاره أيضا، وهو مثال الطفل المهجور تقريبًا والذي حقق الكرامة والوظيفة بفضل «العمل الدؤوب»، والحرمان من «كل المتع الصغيرة»، بل «حتى رفض ما هو ضروري»[777]. ويرتبط الرهان بالعناد، وتجاوز المعيقات، والصعوبات التي لا تنفك تظهر ويتم التغلب عليها دائما.

ولقد ضاعفت دورية الصانع، صحيفة الرئيس والعامل، الصادرة خلال أربعينيات القرن التاسع عشر، من صور هذه النجاحات، إلى درجة أنها كانت تقدم ركنا منتظما بعنوان «رجال اليوم»[778] وتلتقي هنا الصور المتباينة للمخترعين أو المهندسين أو رواد الأعمال، والذين سيكون مشتركهم الوحيد هو بعض المثابرة التي لا تعرف الكلل ابتغاء تحقيق التقدم: أنطوان بريلز، مبتكر مصابيح الإضاءة والقوارب البحرية، بعد أن عرف كيف «يقاوم النكد بجميع

---

(774) Ibid., p. 116.
(775) Ibid.
(776) Ibid., p. 117
(777) Ibid., p. 229.

(778) انظر:

Le Fabricant, journal du maître et de l'ouvrier, 19 mars 1842 et 11 juin 1842.

أنواعه»، وينخرط في كفاح «طويل ومؤلم» لكي يفرض مؤسساته في روان وباريس، أو الكيميائي غوستاف-أوغوستان كيفيل، الذي كان يضاعف حسب الرغبة أنشطة مدير المصنع، والباحث، والمكتشف، والكاتب. ونلفي موضوعة مماثلة، أخيرًا، في السلسلة الطويلة ذات العنوان الموحي، والمنشورة في ظل ملكية يوليوز، وهي صور الرجال النافعين وقصصهم. ويجسد أنطوان-جان بوفيزاج من جديد، وهو مثال من بين عدة أمثلة أخرى، حلم العمل المتواضع ـ «التحسينات والتجويدات»[779] والرجل هو قبل كل شيء «عامل صباغة». ويبدو مستقبله محدودا. وفي المقابل، يؤهله حماسه للعثور على رؤساء من المفترض أن يرشدوه بشكل جيد. وأعقبت ذلك فترة من النشاط المكثف «غالبا ما قطع خلالها أنطوان بوفيزاج نومه لتدوين ملاحظات»[780]، متغلبا على العثرة والعقبات «التي تتجدد باستمرار»[781]، قبل القيام باكتشاف حاسم: عملية كيميائية يمكن أن «تعوض الحشرة القرمزية». لقد انفتح المستقبل. ومع ذلك، تطول صنوف الألم والإجهاد إلى درجة التسبب في «التهاب شديد في المعدة». ومنذ ذلك الحين، قامت جهود مواصلة و«لا تصدق»[782] لتنفيذ العلاج الطبي المقترح، ثم لإنشاء المصنع والشركة المأمولين منذ فترة طويلة. وتمر الكلمة المفتاحية عبر هذه النصوص مثل لازمة. «السر الوحيد، الإنهاك»[783].

ما يتطلبه الطموح

إن الميزة الممنوحة للاستثمار المستمر، بل للعناد، تعزز على هذا النحو التعب «الاجتماعي»؛ وهو عبارة عن إصرار عنيد بصورة غير مباشرة. إنه موجود في غور الثبات: نائم في العزم، وفي استغلال كل لحظة. إنه يفرض ذاته في الوقت عينه

(779) « Antoine-Jean Beauvisage », Portraits et histoire des hommes utiles, Paris, 1837-1838, p. 369.
(780) Ibid., p. 370.
(781) Ibid., p. 368.
(782) Ibid., p. 370.
(783) Ibid.

الذي ينكر فيه نفسه، ويشتد في الوقت نفسه الذي ينسى فيه ذاته. وشخصيات عالم بلزاك الكبيرة تظهر ذلك، بفعل قيودها الداخلية الضمنية والصماء، ولكن المحددة. في رواية **طبيب الريف**، يقوم بيناسيس، وهو المنخرط بشكل كامل في اضطراب بلدته الريفية، بنشاط مستمر، فيضاعف المساعي، ويراكم المسارات، ويطلب المبادرات، كما يرافق المشاريع. وفي إثر ذلك، توحي النتيجة لوحدها بمجموع المصاعب التي تحمّلها. يتغير الفضاء الريفي، وتتجدد الطرق، وتتوسع العلاقات، وتتقاطع التبادلات، وتتقارب المدينة، وتتنوع الأسواق. كل شيء يقع في قرارة الأعمال. لا يقول بيناسيس شيئًا عن مقاومته أو صعوباته. ويتحدث فقط عن نشاط «لا ينتهي»[784]، ويعترف «بإنهاك حصانين في اليوم»[785]. أو ديروش في رواية **بيت نوسينغن**، وقد «اشتغل بجد من 1818 إلى 1822»؛ فهو رمز للحماسة المستمرة، إلى درجة أنه بمجرد توليه السلطة، أصبح «رعب كتبته»، هؤلاء الذين يخضعون هم أنفسهم لقيود متكررة على الدوام: «عدم هدر الوقت»[786]. أو ألبير سافاروس أيضًا، هذا الذي رام الفوز بتمثيلية إقليمية بعد فشل حملته الباريسية، وقد كان محاميًا مدققًا، شرهًا، وأكثر من المرافعات، ساعيًا وراء الحظوة بأي ثمن، «يستيقظ في كل ليلة بين الساعة الواحدة والثانية صباحًا، ويعمل حتى الساعة الثامنة صباحًا، ويتناول فطوره، وبعد ذلك، يواصل العمل»[787]. إن التعب المفترض يجد تعبيره في عد الساعات، وفي إيقاعها وشدتها.

ويجد تعبيره أيضًا في الاعترافات التي صارت أكثر ذاتية وشخصية، والتي أدلى بها ألبير سافاروس الذي أنفق كامل جهده: «إنني أقاتل منذ عشر سنوات [...]

(784) Honoré de Balzac, Le Médecin de campagne (1833), La Comédie humaine, op. cit., t. VIII, p. 352.
(785) Ibid., p. 359.
(786) Honoré de Balzac, La Maison Nucingen (1837), La Comédie humaine, op. cit., t. V, p. 618.
(787) Honoré de Balzac, Albert Savarus (1842), La Comédie humaine, op. cit., t. I, p. 766.

وهذه المعركة ضد البشر والأشياء، والتي بذلت فيها قوتي وطاقتي من دون توقف، واستهلكت فيها مضاء الرغبة كثيرًا، قد أهزلتني من الداخل، إن جاز التعبير. ومع مظاهر القوة والصحة، أشعر بالدمار. كل يوم يسلبني قطعة من حياتي الحميمة. ومع كل جهد جديد، أشعر أنني لن أتمكن من البدء مرة أخرى»[788]. وعندئذ يكشف موضوع التعب عن طابعه المنتشر؛ حيث يرد إلى القيود التي يشعر المرء بها، والعجز الذي يعاني منه، أكثر مما يرد إلى المشروع المحقق. ويمسي إحساسًا شاملًا، وتعبئة لعمق عضوي قلما ورد ذكره حتى الآن: «رنين دائم في الأذنين، وتعرق عصبي في الكفين، واضطراب محموم في الرأس، وفي البدن اهتزازات داخلية أشعر بها وأنا ألعب الشوط الأخير من لعبة الطموح»[789]. إنه مثال كبير عن الاحتدام الذي يدركه العامل، والعامل وحده، والذي يرتبط من دون شك بإنصات أكثر رهافة للإحساس الداخلي، بل بصقل غير مسبوق للوعي الذاتي، ولكنه يرتبط أيضًا بنضال اجتماعي جديد وأصيل تمامًا، وهو الأمر الذي صار ممكنًا بفضل الخيال الديمقراطي. ويعبر سافاروس عن ذلك بصورة أفضل في رسالة موجهة إلى المرأة المرغوبة؛ حيث يربط الإرهاق بمواجهة المنافسة، واشتداد الجشع: «إن ما يورث الإرهاق والهرم، أيها الملاك العزيز، هو هذه المخاوف من الغرور الخادع، وهذه المضايقات الدائمة للحياة الباريسية، وهذه الصراعات المتنافسة من الطموح»[790].

وهكذا تتشكل «صورة» جديدة، فيما وراء القساوة المادية للمهن. وتتجسد في الرغبات والطموحات. إنها مقنعة، وكامنة في الإرادات أكثر من الأفعال. وتتعلق بطريقة في تعذيب الذات: الإرهاق الناتج بالخصوص عن الجهد المبذول من أجل الصعود، الإرادة المبهمة بالتقدم. وهذا الذي يمكن، حسب بلزاك، أن يهم حتى الشغالين الذين تشكل أجسادهم مواردهم الوحيدة: «ثم إن رباعيي الأيدي

(788) Ibid., p. 814.
(789) Ibid.
(790) Ibid., p. 819.

هؤلاء بدؤو يسهرون، ويعانون، ويعملون، ويقسمون، ويصومون، ويمشون، وكلهم تجاوزوا وسعهم ليكسبوا هذا الذهب الذي يفتنهم»[791]. ويتعلق الأمر بإفراط ظل مجهولا حتى الآن سواء في تفسيره، أو في امتداده، أو في شدته.

وهذا على الرغم من أنه، في بداية القرن التاسع عشر، ظل وضع الخادم منفصلا، عالقا بالتقليد، مرتبطا بـ «الواجب»، ويعبره الالتزام: رجل أو امرأة «في الخدمة»، هذا الكائن الذي لا يفصله شيء عن سيده، وهذه الكينونة التي لا يؤهلها شيء حتى الآن لنيل الاستقلال الذاتي بمجال عائلي وحميمي؛ حيث ظلت الثقة المرعية محفوظة، حتى إن طموح «الخادم» يخضع لشيء واحد: طموح «السيد». وهذا ما يتم تكراره بشكل عالٍ في المعاهدات التي من المفترض أن تنظم سلوك «العبودية»: «كل لحظات حياتك ينبغي أن تخصصها لصالح الأشخاص الذين تخدمهم»[792]. وهو ما تؤكده أيضا الشهادات التي تتكرر بشكل لا ينتهي: «يجب أن يكون الخادم متفانيا بالكامل، وأن يضحي بنفسه من دون تردد وبلا سوء نية»[793].

ولا شك مع ذلك في أن مشهد التعب قد توسع، وتم رصده بعناية أكبر مع المجتمع الديمقراطي في أوائل القرن التاسع عشر، واكتسى صورا متنوعة بتنوع المهن، ولكنه كان بالمثل عرضة لتوتر غير مسبوق، منتشر، دفين، مكون إلى حد كبير من وقت معاد تصميمه، ومحسوب بقدر ما هو موجه.

(791) .Honoré de Balzac, La Fille aux yeux d'or (1835), La Comédie humaine, op. cit., t. V, p. 257

(792) .Claude-Ignace Busson, Instructions et conseils aux filles de service et à tous les domestiques en général, Paris, 1842, p. 168.

(793) .Pierre Guiral et Guy Thuillier, La Vie quotidienne des domestiques au XIXe siècle, Paris, Hachette, 1978, p. 27

إن هو إلا تعبير طال الثقافة، حصور معلم أصبح كبيرًا: استعمال الزمن، والاهتمام بتتابع الساعات، واقتصاد اللحظات. وفي إثر ذلك، يظهر التعب بوصفه أفقا إيجابيا لهذا الانشغال الموجه بوضوح. وهذا ما توحي به نظرة عامة شبه طقسية ملقاة على المهن. يوم الطبيب، على سبيل المثال، بتقسيمه الرسمي، وتنقلاته المكانية، من العيادة إلى المستشفى ثم إلى الزبناء الخواص؛ أو يوم المحامي، بمواعيده، ولحظاته المتمايزة؛ أو يوم الصحافي الذي يبدأ قراءاته «منذ الظهر»، ويستمر حتى المساء، قبل أن يعلق على المشاهد الليلية، ودائما ما يكون مشغولا في الساعة نفسها «التي يرتاح فيها الجميع»[794]. لقد انتشر تقسيم المدد على نطاق واسع. فمنها تلك الخاصة بزارع الخضراوات: الذي «لا تكاد تحين الساعة الثانية صباحا حتى يستيقظ»، ويذهب إلى السوق ليتحول إلى تاجر «إلى غاية الساعة السابعة صباحا»، ثم يعود إلى بيته، «ليستلقي على سرير حقير» سرعان ما يغادره «ليغرس، ويقطف ويسقي على الخصوص»[795]؛ ومنها تلك الخاصة بمتقصي الأخبار، الذي يسارع إلى قصر التويلري منذ الساعة السابعة صباحا قبل أن تقضي ساعة أو ساعتين في ساحة كاروسيل لمراقبة وصول السعاة، ثم يذهب إلى البورصة «لمعرفة أسعار الإيراد والأسهم»[796]؛ بل تلك الخاصة بالمستخدم، الذي ربما لا يتلقى ضغطا من مجرى يومه البسيط، والذي «يبدأ من الساعة العاشرة صباحا وينتهي في الساعة الرابعة مساء»، ولكن الزواج وانتظارات الأسرة وميلاد الأطفال يقيدونه أكثر من أي وقت مضى؛ ومن هنا سعيه وراء

(794) Gustave Planche, « La journée d'un journaliste », Paris, ou Le Livre des cent et un, Paris, 1832, t.6, p. 145.

(795) Émile de La Bédollière, Les Industriels : métiers et professions en France, Paris, 1842, « Le maraîcher », p. 19-20.

(796) Étienne de Jouy, L'Hermite de la Chaussée-d'Antin, ou Observations sur les moeurs et les usages parisiens au commencement du XIXe siècle (1812), Paris, 1816, t. 5, « Les nouvellistes», p. 156 sqq.

الأنشطة المربحة، وكفاحه ضد «البؤس»، هذا «العمل المستمر لسبع عشرة ساعة في اليوم»[797].

هذا بيان عادي، ولكنه حاسم: فالنشاط مقسم إلى مراحل، والعمل متدرج. ولا يعني ذلك أن مجرد التقسيم هو أمر جديد؛ فلطالما تولى الجرس تقسيم الزمن، ولطالما رافقت الإشارة الصوتية إيقاع الأيام والمدد. ولقد كانت الأديرة سباقة إلى تقسيم كل لحظة من أجل خدمة أفضل لله. إن الجديد يكمن في مكان آخر، إن توجه نحو تحسين محتمل، وفعالية غير محددة. وهو يرتبط بتفكير تراكمي، وبصيغة خاصة للدقة، تلك التي تجعل كل لحظة ثمينة، وتحولها إلى عملية مربحة، وتضمها إلى لحظات أخرى من أجل تجاوزها بشكل أفضل، ومن شأن هذا أن يوجه ألوان التعاقب لتشكل صنوفا من التقدم. وهو ما يؤكد التناقض القائم بين النظام القديم الذي يعد زمنه ساكنا، ويجمد في إطار غير قابل للتغيير، وبين عالم جديد يعد زمنه متحركا، ويغير إطاره الخاص، ويفصل كل تقدم. وفي إثر ذلك، يشتد الحاضر بتغيير اتجاهه، ليصبح جزءا من ديناميية أكبر وموجهة بشكل واضح. حتى إن الزمن ينخرط بصورة متنامية، بالنسبة إلى الصانع، والحرفي، والتاجر، في التوقع الدقيق والمنظم لساعات اليوم التالي: «إنه يحسب ولا ينام أبدًا في المساء، من دون أن يرتب جيدا أشغال يومه التالي»[798]. وقد قدم مارك-أنطوان جوليان نموذجا لذلك في عام 1808 بكتابه بحث في كيفية تنظيم استعمال الزمن بشكل صحيح، وهو الوسيلة الأولى للشعور بالسعادة ويرتبط الرهان بوضع كلمات حاسمة: معرفة «كلفة الزمن و[معرفة كيفية] استخدام المرء لكل لحظة زمنية لمصلحته ومن أجل كماله»[799]. وفي قلب الموضوع: الرغبة المشوشة في «استغلال» الممكن، والتشديد على بسائط الزمن، وترقب الكمال وهي أيضا طريقة لاقتراح التغيير

(797) « L'employé », Les Français peints par eux-mêmes, op. cit., t. I, p. 306.

(798) « Philosophie du peuple », Le Fabricant, journal du maître et de l'ouvrier, 18 juin 1842.

(799) Marc-Antoine Jullien, Essai sur une méthode qui a pour objet de bien régler l'emploi du temps, premier moyen d'être heureux, Paris, 1808, p. 28.

الحقيقي للثقافة. أن يجعل من التقدم تحديًا للمصير. لقد كان كتاب مارك-أنطوان جوليان ناجحًا، وأعيد نشره عدة مرات بين عامي 1808 و1830. وقد انتشرت تعاليمه، وتردد صداها في الإحساس اليومي: «كم يومًا ضاع في أوهام الحواس!»[800]، هكذا قال جوليان-جوزيف فيراي، في عام 1823، في نص يحمل بالغ الدلالة، وهو في القوة الحيوية. وأكثر من ذلك، إن مثل هذه التعاليم لها جانبها التربوي المباشر: «علينا أن نُثمّن الزمن؛ فلا ينبغي أن نعطي أية لحظة من لحظاتنا من دون أن نحصل على ثمنها؛ ولا يجب أن ندع الساعات تخرج من أيدينا إلا بتقتير، وبصورة مثمرة فقط»[801]، هذا ما يؤكد عليه نص «موجه إلى الشباب» في عام 1812. يوجد توتر ملفت للنظر وجديد بالفعل، في هذه الأشياء المتقنة في الظاهر: إرادة تشير إلى الصعود الاجتماعي، والعبور المحتمل للدرجات المغلقة في وجه العابرين حتى الآن، وإظهار لصنوف الصلابة، والمواصلة، والثبات، وكذلك التعب المتعمد إلى حد كبير.

أبناء العصر، تعب الوهم

تجديد للطموح، وتحول لاستعمال الزمن، وتوتر نحو تقدم مرغوب فيه بشكل غير محدد، ولكنه أيضًا غموض محتمل للوعود المخلوفة، والعوائق، والأحلام غير القابلة للتحقيق أو غير المحققة. إن مجتمع أوائل القرن التاسع عشر هو أيضًا مجتمع خيبات الأمل، والانتظارات التي لم تتحقق، والمثل العليا الفاشلة. إنه، بالنسبة إلى الكثيرين، مجتمع «الأوهام المفقودة»[802]، مع صنوف التعب المميزة الذي يمكن أن تسببها هذه الأخيرة. فلربما يكون الصد والهيمنة قد شوه الآمال. ولعل النزعة المادية والتشتت وضروب الفقر المختلفة[803] قد جدّدت المشاريع

---

(800) Julien-Joseph Virey, De la Puissance vitale considérée dans ses fonctions physiologiques chez l'homme et tous les êtres organisés, Paris, 1823, p. 423.

(801) Constant Le Tellier, Manuel mythologique de la jeunesse ou Instruction sur la mythologie par demandes et réponses, 1812, p. 392.

(802) Honoré de Balzac, Illusions perdues, Paris, 1837-1843.

(803) انظر

«يبدو أن المستقبل ينتمي إلى البشر»، لكن «قوة البشر الجدد»[804] اتضح أنها حصرية مثلها مثل قوة «البشر القدماء». ولقد رأى موسيه أنها بلاء.

رأيت زمن كانت قتوتي

على شَفَتَيّ دوما لا تَبيد

متأهبتين للشدو كطائرٍ

ولكن نالني رُزء شديد[805].

ويتخذ منه بلزاك موضوعا روائيا لا نهاية له. إن خيبة الأمل هنا جسدية تقريبًا، بل إنها أكثر إيلامًا من ألوان التعب القاتمة. وفي رواية الجلد المسحور، يغرق رفائيل في «مشروب أفيوني قليلاً»، ويحفظ على «النعاس الدائم»[806]، بعد «عمل قاس يصل الليل بالنهار»[807] ويعدم الجدوى بقدر ما هو متجاهَل. ويختبر لوسيان في «معاناة المخترع» شعورا حيويا بالفناء عندما تأتي «كارثة» لإلغاء كل أمل، إذ إن الجسد والروح قد «تحطما» بالفعل بسبب «صراع طويل ومؤلم». والمخرج الوحيد هو: أن يطلب من مضيفه «مساعدته لكي يستلقي على سريره طالبًا منه الصفح عن إحراجه بموته»[808]. وبمرارة، يرى فيني في ذلك مبدأ متكررا للخسارة والوهن: «إن الخيال الذي لا ينتج يورث الضعف»[809]. وهو العجز الذي حاول المشروع الكبير الذي تصدى له كتاب الفرنسيون مصورين

Eugénie de Keyser, L'Occident romantique, 1789-1750, Genève, Skira, 1965, « La souveraineté de l'argent alourdit la marche des hommes », p. 9.

(804) نفسه.

(805) Alfred de Musset, « La nuit de mai » (1835), Les Nuits, Paris, Meynial, 1911, p. 31.

(806) Honoré de Balzac, La Peau de chagrin (1831), La Comédie humaine, op. cit., t. IX, p. 243.

(807) نفسه، ص. 91.

(808) Honoré de Balzac, « Les souffrances de l'Inventeur » (1843), Illusions perdues, La Comédie humaine, op. cit., t. IV, p. 883.

(809) Alfred de Vigny, Journal, in Fernand Baldensperger (éd.), Œuvres, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1955, t. II, p. 990.

أنفسهم، في عام 1840، من غير أن يخلو الأمر من مفارقة(810)، أن يحصره بشكل مباشر، بل تافه: «قال كثيرون لأنفسهم: بما أن بعض العساكر قد أصبحوا ملوكاً، وبما أن ملازما في سلاح المدفعية قد أصبح سيدا لأوروبا، فلماذا لا أصبح جزالا أو وزيرا أو قنصلا؟»(811).

ويبلغ الأمر حد السخرية التي تصير كاشفة هنا. إن «المائة [مهنة ومهنة]» التي اجتازها روبير ماكير عند أونوريه دوميه في عام 1838، والتي قدمت بوصفها «ملحمة هائلة»، بدواهيه وأحداثها غير المتوقعة، ليست سوى مهالك «مضحكة» وإخفاقات لا هوادة فيها؛ فهي أوهام أو انتكاسات مشابهة لما حدث لدون كيشوت الذي يستحضره رسام الكاريكاتير بوضوح. إنها طريقة للاستهزاء بطموح جماعي غير مسبوق، وبهذه الإرادة العنيدة التي تروم الصعود، وتتوخى تغيير الحال، والمغامرة، والمخاطرة، والسعي بأي ثمن إلى «التميز عن العامي الذي يقطع جميع الطرق المؤدية إلى الثروة»(812). ونلفي البحث القلق نفسه مرة أخرى، والازدراء المتسلسل نفسه، في كتاب جيروم باتورو باحثاً عن مكانة اجتماعية لـ لوي ريبو في عام 1842(813). وتنتهي السخرية بسلم «نازل»، بدلا من سلم «صاعد»، وباستسلام البطل، «وقد تخلى عن عظَمته»(814). وفي كلتا الحالتين، يرتبط الرهان فعلا بتوتر غير مسبوق: انشغال متكلف، محبط، ومعذب يخترق معظم الأوساط، ونعب عديم الفائدة وخائب الأمل. ويعد ذمه بمثابة تأكيد: على حضوره المؤلم، وعلى جدّته كذلك.

(810) . عمل يدعم كذلك "المواطن الجديد" وجهوده التي يبذلها من أجل الجميع من دون كلل.

(811) .Pierre-François Tissot, « La jeunesse depuis cinquante ans », Les Français peints par euxmêmes, op. cit., t. II, p. XVII.

(812) .Maurice Alhoy, Louis Huart et Charles Philipon, Les Cent et un Robert-Macaire, composés et dessinés par M. Henri Daumier sur les idées et les légendes de M. Charles Philipon, Paris, 1839, « Robert Macaire et ses élèves », Livraison 75, p. 3

(813) .Louis Reybaud, Jérôme Paturot à la recherche d'une position sociale (1842), Paris, 1846.

(814) نفسه، ص. 453.

ذلك ما يوجه نحو متخيلات أخرى أيضا، ويؤدي إلى نشوء دفاعات أخرى: تلك المتعلقة بـ«التوقف»، والتعليق المؤقت، في صفوف النخبة على كل حال؛ ويتعلق الأمر بسعي متعمد لقلب التعب، خاصة وأن «الاضطرابات السياسية» قد وسمت مطلع القرن، كما أن الصراعات الجماعية قد أضافت إلى ذلك معضلاتها وانفعالاتها، وهي تأثيرات عميقة بما يكفي لتكون موضوعا لأطروحات طبية تتصدى لاستكشاف «الأمراض العصبية»[815] التي يسببها بعض التنامي الغامض لصنوف الانزعاج والتوتر.

وتَدَّعِي المدينة، في المقام الأول، أنها تبتكر على وجه التحديد أماكن للراحة، ومساحات للسيان، والانزواء. وكانت أول مبادرة كبرى، انتقائية حتمًا، داعية إلى الهدوء والاسترخاء. وستكون بصيغ مؤسسات للاستحمام، المستهدفة اجتماعيًا وثقافيًا، رمزا لذلك: حدائق للمتعة، وبنيان أنيق، ومقصورة صامتة، معزولة ومجهزة؛ نعومة السائل وعدًا بالهدوء، وسكينة المكان وعدًا بالتخلي. ولقد سمح التحكم الدقيق في المياه، وشبه التصنيع للمضخات، وأنابيب الرصاص الممتدة والمدونة بشكل غير محسوس، في بداية القرن التاسع عشر، بتطوير بعض هذه المؤسسات على ضفاف النهر، وكان عددها قليلا من دون شك، لكنها نهضت بدور معين. وما عاد الأمر مجرد فرار من الاضطراب، والنأي عن «الزوبعة» بمسافة، بل هو فرار من الانقباضات العصبية، والانشغالات المفرطة، والمضايقات المتحكم فيها بشكل سيء: الوقف اللحظي لـ«الضغوط». يقال إن حمامات تيفولي البرسية، بالقرب من شوسي-دونتان، على بعد شارعين من نهر

(815) انظر،

Jean-Auguste Boyer-Nioche, Coup d'oeil médico-philosophique sur l'influence de la civilisation dans la production des maladies nerveuses, Paris, 1818, p. 8.

السيى، نشفي من «آلام الأعصاب والتشنجات والرئتين وتشوش الدماغ»[816].
كل شيء هناك سيكون عكس: «زهرات نديّة وظلال منعشة»[817]، وعطور لطيفة، وسوائل معطرة، ووجبات خفيفة محسوبة، وذات «خواص مقوية»، مع «نبيذ صدري» و«شراب مرق العجل»[818]. أما حمامات فيجيه، قريبا من بون-رويال، المبنية على قرقاطة مرتفعة، والمتصرف فيها بعناية، والمُحاطة بمسارات مغطاة بالرمل وبالأشجار، حيث تصطف «أحواض من أشجار البرتقال، وشجيرات الورد، والسنط، والصفصاف البابلي، والسرنجة، وكومة من أغصان الليلك السميكة»[819]، فإنها تروم غاية مثالية، وتتمحور حول تصفية كل إرهاق داخلي، وهو مسعى يجري توضيحه والتعليق عليه بشكل غير محدود

تطمئن نفسك عند دخولك إلى هذه الإقامة الرائعة؛ تبتسم لنظام الأشياء الجديد بينما تمحى الجلبة المتعبة لباريس، وصخبها الذي لا يطاق، بعيدين بالفعل عن بالك. قدماك، وقد تعبتا من الشوارع المرصوفة بالحصى، تستشعران متعة العشب الأخضر، والأرضية البسيطة التي ستبدو لك أرضا للراحة. ورائحة الشجيرات والزهور وخرير المياه، كل ذلك يدعوك إلى الاسترخاء اللذيذ؛ ومشاهد الحياة، التي كانت بالأمس القريب شديدة الصخب بالنسبة إلى أولئك المصمورتين في قلب العاصمة، تصبح هنا هادئة وسلمية ومبهجة [...] ويسهم الأشخاص، والأشياء التي تحيط بك في جلب الهدوء إلى روحك من جديد[820].

---

(816) J. Paul-R. Cuisin, Les Bains de Paris et des principales villes des quatre parties du monde, Paris, 1822, p. 94.
(817) P. J. Marie de Saint-Ursin, L'Ami des femmes, ou Lettres d'un médecin concernant l'influence de l'habillement des femmes sur leurs moeurs et leur santé, et la nécessité de l'usage habituel des bains en conservant leur costume actuel, suivi d'un appendice contenant les recettes cosmétiques, Paris, 1804, p. 136.
(818) Ibid., t1, p. 95.
(819) Ibid., p. 49.
(820) Ibid., p. 50-51.

يُنظر إلى الحمامات الحرارية، ولا سيما تلك القريبة من المدن، بوصفها «ملاجئ»، كما هو الحال في أنغيان؛ حيث «ترتح الأعصاب، ويتفتح الدماغ، ويتعش الدم»[821]، مما يقضي على «الأمراض من النوع العصبي»[822]؛ أو في باسي، حيث تُنسى لأدواء «الناجة عن سكن المدن الكبيرة»[823]؛ أو في مون-دور، حيث تتم ببساطة إعادة تشكيل «القوى الحيوية»[824].

وتكتشف الرحلة أخيرًا مصيرًا مغايرا محتملًا، فيما وراء المواجهات المعتادة للمسرات وكان ستاندال أحد الأوائل الذين رأوا فيها مبدأ للنأي عن صنوف الإزعاج[825]. ويقترح جول جانان بصورة أقوى هدفًا جديدًا غير مسبوق: لا يتعلق الأمر بالانفعالات، بملذاتها، وفورانها أو مضايقاتها، بل يتعلق، على العكس من ذلك، بالبحث عن زمن خال من القيود، والانتهاء إلى الذات من دون التزام. ومن هنا هذا الشعور بالولادة الجديدة، والذي يوصف بالفراغ الطوعي المتعمد: يقرر جانان، «وقد شعر بالتعب في رأسه»[826]، وأنهكته المهام والخدمات المتكررة، أن «يغادر» لفترة معينة. وعندئذ يمكن أن يتغير كل شيء: «يستسلم للحركة اللاإرادية لكرسي العربة [...] ثم لا يفعل شيئًا، ولا يسمع صوتا، ولا يحكم على أي أمر [...]»[827]. تنشأ الجدة من إزاحة كاملة للأفق: المكانة المميزة الممنوحة لإلغاء أي انشغال، ولكل بلبال، والتي ما في الإمكان

(821) .Joseph-Henri Réveillé-Parise, Une saison aux eaux minérales d'Enghien, Paris, 1842, p. 99.

(822) .F. Damien, Aperçu topographique et médical sur les eaux minérales sulfureuses d'Enghien, Paris, 1821, p. 55.

(823) .Jean-Charles Chenu, Essai sur l'action thérapeutique des eaux ferrugineuses de Passy, Paris, 1841, p. 2.

(824) .Michel Bertrand, Recherches sur les propriétés physiques, chimiques et médicinales des eaux du Mont-d'Or, Clermont-Ferrand (1810), Paris, 1823, p. XXIV.

(825) .Stendhal, Voyages en Italie (1817-1826), Victor Del Litto (éd.), Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1973 , voir « Je suis de plus en plus content des voyages », p. XXXV.

(826) .Jules Janin, Les Catacombes, Paris, 1839, « Mon voyage à Brindes », t. II, p. 90.

(827) .Ibid., p. 91.

تصورها حتى ذلك الوقت. وهذا الاستملاك الخاص للغاية: «انفراد المرء بأحلامه، وتأملاته، وأفكاره»[828]؛ هذه «الذات» المؤكدة بما فيه الكفاية، مع الظهور البطيء للمجتمع المعاصر، من أجل تحمل الفراغ الداخلي، وجعله دفاعا ضد ألوان العذاب، التي تعد هي نفسها غير مسبوقة، من طموح، ومنافسة بين الأنداد، وصراعات. فإن هي إلا رؤية أصيلة إلى حد كبير «للعطلة» الطوعية، في مستوى شعور أصيل أيضا باشتداد صنوف «الضيق».

(828). Ibid., p. 391.

الفصل العشرون

عالم محسوب: من الميكانيكا إلى الطاقة

ما كان في وسع الآمال الضائعة، والاضطرابات، بل خيبات الأمل الاجتماعية أن تمحو، في بداية هذا القرن، الطموح الاقتصادي، والثقة في التكنولوجيا، وتوقعات الرخاء. بل إن مثل هذا اليقين قد تعزز، مفضلاً «المبدعين» و«الشجعان»: فقد احتدت فكرة التقدم، وتعززت إرادة تطوير «العلوم والفنون». إن عالماً متنامياً من ورشات العمل والآلات والمعدات والأشياء يوجه النظر بسرعة أكبر نحو التأثيرات المادية والإمكانات العضوية والمواءمات الحركية وفعاليتها. وهذا تجسيد لا يمكن إنكاره، وقد تشكل من العلم والتقنية، ويكشف من ثم عن تردد أعظم ومحدودية أكبر لألوان التقدم المتحققة في عصر الأنوار، مع تخصيص رائد لأعمال أهل الحساب والمهندسين. وهذا ما تؤكده المؤسسات التي نشأت عن الثورة. تقترح مجلة مدرسة البوليتكنيك «نشر معارف مفيدة للغاية» والمساعدة في «التطبيقات الناجحة»[829]. وتهدف المدرسة المركزية للفنون والمانفكتورات، المحدثة عام ١٨٢٩، إلى تطوير «معرفة تجريبية»[830]. وتتداخل المشاريع: «تحسين ظروف عيش الإنسانية»[831]، وتعزيز ادخار القوى واستغلالها بشكل أفضل. والرهان هو أيضاً رهان الجمعيات التقنية. والتعب هو تعب العمل البدني. ونلفي الرؤية نفسها لدى جمعية الطبيعيين والأطباء الألمان،

(829) Journal de l'École polytechnique, Premier cahier, 1794, p. III.

(830) Françoise Mayeur, « De la Révolution à l'école républicaine, 1789-1930 », in Louis-Henri Parias (dir.), Histoire générale de l'enseignement et de l'éducation en France, Paris, Nouvelle Librairie de France, 1981, t. III, p. 442.

(831) René Taton, « Les conditions du progrès en Europe occidentale », in Id. (dir.), Histoire générale des sciences, Paris, PUF, 1961, t. III, vol. I, Le XIXe Siècle, p. 617

التي أنشئت في برلين عام 1822، أو الرابطة البريطانية لتقدم العلوم، التي أنشئت في لندن عام 1831[832]. وتتجدد العناية بالعمل بصورة حتمية: اليقظة حيال الجهد، وتقييم النتائج. لقد حظي المعمل والورشة بمزيد من الاهتمام والكرامة ويفترض أن يؤازرهما العلم. وبطبيعة الحال، لقد تركزت دراسة التعب على الجهد البدني المبذول، وعلى عالم أشغال اليد والعضلات والأذرع. ويتجلى وجوده الكامل هنا في «الجهد». وتتعلق كينونته كلها بما هو عضوي.

وعلى نطاق أوسع، شجع التشديد على حضور الآلة، أي النقلة الاقتصادية والتصنيعية، في بداية القرن التاسع عشر، على المواجهة بين العدد وديناميّة الجسد. لقد انتشرت العدات، وتكيفت معها الحركات، واختلطت القوى العضلية بالقوى الآلية. وتناسلت الأسئلة حول مسالك العمل، وفعاليتها، وفي نهاية المطاف حول إمكان تخفيف الحركات المطبقة. إن هذا العالم لا يزال عالم مهندسين، من دون شك؛ حيث تدعي النظرية قدرتها على مضاعفة آثارها، ولكن حيث سيسهم التعب المتحكم فيه بشكل أفضل، في نهاية المطاف، في سعادة الجميع. تستولي الحركات والجهود على الاهتمامات على نحو لم يسبق له مثيل، وتستولي القوات والعمليات على الحسابات بصورة ليس لها نظير. وهناك أخيرا فضول جديد يسكن المتخيل الصناعي. إنه تعب الشغالين.

حساب القوة

من شأن أداة مبتكرة تمامًا، في المقام الأول، أن تؤدي بالفعل إلى ثورة في أمور الحساب. لقد توقع بوفون تصنيعها في ستينيات القرن الثامن عشر؛ إذ طلبها من إدمي رونييه، «صانع الأقفال» ذي المهارات المشهودة. وكان الرهان يتمثل في تنويع أنواع القوى المتصورة: لا يتعلق الأمر بمجرد الحمل، الذي درس لوحده حتى الآن تقريبًا، بل بالجر، والدفع، والضغط، والاستقامة، والمقاومة أيضا، ولا

(832) انظر نفسه، ص. 618.

بالظهر فقط، بل بالكل، والذراعين والساقين واليدين كذلك. وبعبارة أخرى، مضاعفة إمكانات تقييم المورد المهنية. ويقترح رونييه، بعد عدة مجازفات، الأداة الجديدة خلال نهاية القرن: «نبض بيضاوي الشكل، لا يفقد مرونته من فرط الاستخدام»[833]، بينما يكشف بواسطة شرة عن «كمية» القوة المعاة. ويجري قياس التمدد والضغط والمعارصات، كما يمكن إعلان الحسابات والملاحظات. ويعرض رونييه الملاحظات في مجلة مدرسة البوليتكنيك لعام 1798، مراكمًا البيانات في خدمة الحياة اليومية: يبدو أن «اليد اليمنى واليد اليسرى» تمتلكان قوتين غير متكافئتين، ويمتلك «الحداد وصانع الشعر» قوة يدوية متميزة تمامًا، تتراوح بين واحد واثنين، وللرجل والحصان كفاءة جر تتراوح بين واحد وسبعة، وللمرأة والرجل «قوة» عامة تتراوح بين اثنين وثلاثة[834]. لا توجد هنا إشارة واضحة إلى التعب على الأرجح، وإنما هناك تقييمات يفترض أن تتنبأ به، بل الوقاية منه، وتوزع إمكانات، وتصنيف كفاءات. انتشر «الديناموميتر» واستخدم على نطاق واسع في بداية القرن التاسع عشر. وكان بالنسبة إلى الكثيرين أداة للعب أو الرهان، واخترق المعارض والأعياد وخدم فرجة البهلوانات والمشعوذين، فقاس ضرباتهم على نوابض أو تماثيل خشبية. لقد أثار سخرية لابيدوليير ودومييه، ورسوماتهم التهكمية التي تعكس «الإطار» الذي تنحرط فيه «قوة بيضتيك»[835]. ولكنها أيضًا أداة فحص، من شأنها أن تقدر قوة الأعضاء بطريقة مختلفة، وخصوصيتها، وتصنف الديناميات التي ظلت مجهولة حتى الآن.

ملاحظات متواضعة ومتأنية، وسرعان ما غذت، بفضل طابعها العددي وتكرارها، ترسانة من المعالم والمعلومات. وقد تلقفها أدولف كوتلي في عشرينيات القرن التاسع عشر، محددًا ملامح «الإنسان العادي»، ذلك الشخص الذي من

---

(833) Edme Regnier, « Description et usage du dynamomètre », Journal de l'École polytechnique, an VI, p. 163.
(834) Ibid., p. 166.

(835) انظر

« Les banquistes », Les français peints par eux-mêmes, op. cit., t. V, p. 133.

٢

المفترض أن تكشف إحصائياته، الأكثر أهمية دائمًا في ما يسمى بالمجتمع «الديمقراطي»، عما يملكه من «مزايا» يتوقف عند مواطن القوة، ويراكم الملاحظات: الاختلافات بحسب المهن، وهو ما أكد عليه روزييه بالفعل؛ «البناؤون والنجارون»[836] يظهرون هنا بوصفهم أصحاب أياد وأذرع أسرع؛ والاختلافات بحسب ظروف العيش يجري التحقق منها دوما بواسطة الجهاز: «وفرة الطعام والتمارين المعتدلة تسهم في التطوير المفيد للمواصفات البدنية؛ بينما يؤدي البؤس والعمل المفرط إلى نتيجة معاكسة»[837]، وهذا يميل إلى إبطال بل إنكار المعايير التي لطالما كانت حاسمة، مثل الطول أو الوزن. تهذه كلها معلومات جديدة تفيد من يرغب في رسم عالم المقاومات وصنوف الصلابة.

ونكرر أن هذا لا يعني أن التعب قد تحدد هنا بوضوح، لكن الولع بالأرقام فرض نفسه، فضلا عن مبدأ محتمل للمواءمة، إن لم يكن اقتصادا للقوى المستخدمة. وأخيرا، هناك حساب للتحسينات المتوقعة. وممارسو الرياضة لوحدهم يظهرون ذلك، في بداية القرن؛ إذ يقدرون مكاسب القوة وفقا لتمارين شتى، مواصلين ومنوعين للحسابات التعليمية الأولى للسيدة دو جونليس التي أجريت في القرن الماضي ويؤكد بيتر كلياس ذلك في مؤسسته في برن، باستخدام مقياس الدينامومتر بحسبانه «مصادفة»، واصفا «الولادة الجديدة» التي عرفها، خلال عام 1815، شاب ضعيف يبلغ من العمر سبعة عشر عاما حين قام بتطبيق الحركات الأكثر تنوعًا على عدد من الآلات والأجهزة: تمدد الكل، وشد الذراعين، وضغط اليدين، كل هذه القوى تضاعفت في غضون بضعة أشهر[838].

---

(836) Adolphe Quetelet, Sur l'homme et le développement de ses facultés, ou Essai de physique sociale. Paris, 1835, p. 72

(837) .Ibid., p. 79.

(838) .Peter Heinrich Clias, Gymnastique élémentaire, ou Cours analytique et gradué d'exercices propres à développer et à fortifier l'organisation humaine, Berne, 1819, cité par Philippe- Joseph-Benjamin Buchez et Ulysse Trélat, Précis élémentaire d'hygiène, Paris, 1825, p. 306.

كما يؤكده فرانسيسكو أموروس في مؤسسته في باريس، في عام 1820؛ إذ أخضع طلابه لـ «جذاذة فسيولوجية» أولية؛ حيث جرى كما ينبغي، وبفضل مقياس الديامومتر مرة أخرى، قياس كل من «ضغط اليدين»، و«قوة الكليتين»، و«قوة الشد»، و«الحافز الرأسي للقبضة اليمنى»، و«الحافز الرأسي للقبضة اليسرى»، و«الضغط على الصدر»، و«القوة من أجل التحمل»[839]. لقد تم التخلي عن التقييمات القديمة المعنية بمجرد السرعة أو المطابقة، تلك التي انتصرت لفترة طويلة في شأن توزيع الجنود أو القادسين، ونبذت هنا بوصفها تقييمات عمادها التقريب؛ ذلك أن الاقتضاء الكمي قد تجاوزها.

اختراع «ميكانيكا صناعية»

لقد أدى محيط الآلات، ورهانها الظافر أكثر من أي وقت مضى، إلى ظهور مباعث لعلم جديد في بداية القرن التاسع عشر: «الميكانيكا الصناعية»، هذه التي أعادت توجيه مراقبة المهن، واستهدفت، بوصفها معرفة غير مسبوقة، الحياة اليومية للمعامل. وواجهت الأبدان والمحركات وأحزمة النقل والمواد الفولاذية. وتدعي اقتصاد الجهود والكفاءات. وعرّفها جيرار-جوزيف كريستيان، مدير المعهد الملكي للفنون والمهن، في عام 1822، قائلاً:

يتمثل عرض علم الميكانيكا في معرفة وطلب الوسائل التي تقوم مقام قوة الإنسان ومهارته البدنية، وتوفير وقته في تنفيذ الأشغال التي تستدعيها حاجاته وأذواقه. ونسمي هذا العلم الميكانكا الصناعية لتمييزه عن الميكانيكا العقلية، التي يبدو لنا موضوعها مختلفاً تماماً[840].

لا يقتصر المشروع على مدد الآلات، ولكنه يمتد ليشمل استجابة الأعضاء في مواجهة الأدوات. بل تم اختراع درس يبتغي تغيير ممارسات العمل. ولقد درس

---

(839) .Francisco Amoros, Manuel d'éducation physique, gymnastique et morale, Paris, 1834, t. I, p. 67

(840) .Gérard-Joseph Christian, Traité de mécanique industrielle, Paris, 1822, t. I, p. 1

تشارل ديبان تطورات مثل هذا المسعى في إنجلترا[841]، قبل نقله إلى المعهد الموسيقي نفسه خلال عام 1819، معززا بمرسوم من لوي الثامن عشر القاضي بتنظيم دروس عامة مجانية من أجل «تطبيق العلوم في الفنون الصناعية»[842]. تنشأت مبادرات مماثلة في ليل، وفرساي، وستراسبورغ بمبادرة من «مواطنين كرماء»[843]. وفي عام 1829، نشر كلود-لوسيان بيرجري «دروس[ا] الصناعية»[844] التي قدمها لشغالين في ميتز وكان المنظور إرادويا: «ترك الرتابة»، و«تدبر كل ظروف العمل»[845]. ويتوجه التوقع نحو هدف محدد: «سيكون لديك تعب أقل، ومع ذلك ستكسب المزيد»[846]. إجهاد محدود، وزيادة في الكفاءة. ويعاد النظر في عديد الأوضاع. طيف الحركات على وجه الخصوص: «الوقوف بذراعين»، و«الوقوف بساقين»، و«الجلوس بذراعين»، و«الجلوس بساقين»، و«الجلوس بذراعين وساقين»[847]. يفترض الوضع المنتصب اتجاهات عديدة، في حين أن وضع الجلوس، وهو أكثر تعقيدا، يفترض مسبقا وجود «نقاط ثابتة» تدعم الساقين والقدمين[848]. حتى إن بعض «شَرَد المؤلفين»[849] قد راموا

---

(841) .Charles Dupin, Géométrie et mécanique des arts et métiers et des beaux-arts. Cours normal professé au conservatoire royal des arts, Paris, 1826, t. I, p. V

«رأيت أن العلماء والأثرياء قد وحدوا جهودهم هناك لتزويد الشغالين الإنجليز والإسكتلنديين والإيرلنديين بتعليم جديد يجعل الرجال أكثر مهارة وأكثر راحة وحكمة».

(842) مرسوم إنشاء المعهد الوطني للفنون والمهن، في عام 1819، يسند إلى المؤسسة مهمة تعزيز "تعليم عام ومجاني من أجل تطبيق العلوم في الفنون الصناعية"، انظر

Eugène-Oscar Lami (dir.), Dictionnaire encyclopédique et biographique de l'industrie et des arts industriels, Paris, 1881-1883, art. « Conservatoire national des arts et métiers ».

(843) انظر:

Charles Dupin, Géométrie et mécanique des arts et métiers et des beaux-arts, op. cit.

(844) .Claude-Lucien Bergery, Économie industrielle, Metz, 1829-1831, 3 vol.

(845) .Ibid., t. I, p. 2.

(846) .Ibid., t. II, p. 4.

(847) .Gérard-Joseph Christian, Traité de mécanique industrielle, op. cit., p. 112-113

(848) .Ibid.

(849) ، انظر

Raymond Queneau, Aux confins des ténèbres. Les fous littéraires français du XIXe siècle, Paris, Gallimard, « Les Cahiers de la NRF », 2002.

مضاعفة الوسائل من أجل «تلافي التعب عند النشر والدق والدفع والسحب [...]»[850]، وهي اقتراحات تافهة في أكثر الأحيان، لكنها تؤكد الرغبة المتزايدة في التنظير للحركات، وفي اقتصادها أيضا.

وفي عقب ذلك أتت النقوش، كاشفة أكثر من أي وقت مضى، عن بشر مرسومين بدقة، مُخطَّطين بعناية، منتصبين، متكئين على أذرع الآلات الرافعة؛ وآخرين ممسكين، وهم مقوسون، ببراميل مشدودة على أسطح مائلة؛ وأيضا آخرين يستخدمون مَدَاكَّ ومشاويل؛ ثم أخيرًا، أولئك الذين يحسنون «النقل عن طريق الانزلاق»، أو «الدحرجة»، أو «السحب» أو بواسطة «العجلة»[851]. بل إن بعض النقاشين قد تخصصوا، مثل جان دوبليسي-بيرتو الذي يعرض ألبومه لعام 1822 مئات الحركات التي يجريها الحدادون وصناع البراميل وشاحذو السكاكين أو النجارون[852]. صارت القوى والمدد أكثر دقة، وتنوعت الحسابات والأجهزة، وفقا لنماذج أكثر خصوصية على الدوام:

على العموم، يلزم من أجل عمل مستمر يتطلب جهدًا من 8 إلى 10 كلغ، ومدة من ثماني إلى تسع ساعات، جعل المرء يتصرف في وضع مستقيم وبذراعيه فقط؛ فمن النادر أن نجد فائدة في اختيار أوضاع أخرى[853].

وتُستأنف إحصائيات كولون، لا بإزاء أعمال منعزلة، بل بإزاء أفعال متكررة. وتتضاعف الأعداد، كما تتضاعف الأشياء. وتتسع الميادين، وتُقنّن الأوضاع. وتُعاير أشغال السجناء الإنجليز على عجلات تجر الأرحاء أو تحرك آلات: «تتمثل

---

(850) انظر
P. dit F. Lutterbach, Révolution dans la marche, ou Cinq Cents Moyens naturels et utiles pour trouver le confortable dans les différentes manières de marcher, Paris, 1850, p. 520 sqq.

(851) انظر على الخصوص الأشكال التوضيحية الدقيقة التي يقدمها شارل دولوني في كتابه:
Charles Delaunay, Cours élémentaire de mécanique théorique et pratique, Paris, 1851.

(852) .Jean Duplessi-Bertaux, Recueil de cent sujets de divers genres composés et gravés à l'eau-forte, Paris, 1820.

(853) .Gérard-Joseph Christian, Traité de mécanique industrielle, op. cit., p. 111.

المهمة اليومية لكل سجين، في المتوسط، في تسلق 50 درجة من 0.2 متر في الدقيقة أو 3000 في الساعة، وفي تكرار هذا العمل لمدة سبع ساعات»[854]. وتقاس حركات المجرفة أو المسحاة عند المهندسين العسكريين الفرنسيين، في عام 1837، من حيث سعتها وزويتها وتكرارها: «يستطيع شخص بواسطة المجرفة أن يقلع ويحمل على متن عربة يدوية نحوا من 12 إلى 15 مترا مكعبا في اليوم. وحين يلقي هذا التراب على مسافة مترين على الأقل وأربعة أمتار على الأكثر، أو يرفع إلى علو 1.60 متر، أو يحمل على شاحنة قلابة، يجب تقليل عدد الأمتار المكعبة إلى 10 أمتار»[855]. وتم تعيين المسافات والأوقات الخاصة بالنقلة: 30 مترًا للمناوبات بالعربات اليدوية، و72 ثانية للذهاب والإياب[856]. ويستدعي المشي مرة أخرى، وقد صار موضوعا لتجارب لا نهاية لها، طائفة من المعايير والعتبات:

يستطيع الراجل قطع مسافة 6 كيلومترات في الساعة باتباع طريق طويل، وهو ما يعطي 100 متر في الدقيقة. ويقدر طول خطوة الطريق بثمانية ديسيمترات؛ وهكذا يلقي الراجل 125 خطوة في دقيقة واحدة و7500 خطوة في ساعة واحدة. وعلى هذا النحو يمكنه المشي لمدة ثماني ساعات ونصف في كل يوم والاستمرار في المشي كما يشاء، من دون الإضرار بصحته أو التقليل من قوته. ومن ثم تكون 51 كيلومترا هي متوسط المسافة التي يمكن للرجل أن يقطعها من دون إتلاف لقواه[857].

وتتكاثر التوصيات من أجل الحصول على الدرجات المتوسطة، وتجاوز الحالات القريبة، وإيثار المواجهات. إنه مشروع عقلاني كبير يهم العالم القروي نفسه، ويحدد ما يمكن للمرء «تفريغه من روث البهائم في عشر ساعات من

---

(854) .Jean-Victor Poncelet, Introduction à la mécanique industrielle, physique ou expérimentale (1828), Paris, 1841, p. 239.

(855) .Joseph Laisné, Aide-mémoire portatif des officiers du génie, Paris, 1837, p. 42.

(856) .Ibid.

(857) .Charles Dupin, Géométrie et mécanique des arts et métiers et des beaux-arts, op. cit., p.75.

العمل»، وكذلك الشأن في «زرع البر»، و«احتشاش» حقل معين، و«شتل» اللفت، وتحميل «الحزم على العربات»، و«التخزين في الحظيرة»، وتتم مراجعة الزمن أيضا «حين تنأى المراعي»[858]. ونصادف في المقابل نزعة تجريبية، حيث ينتصر «الشعور» أو «الحكم» على الدوام فيما يتعلق بتعيين الحدود؛ ويغلب التقريب على الحساب

يمكن للتجربة وحدها أن تُظهر لنا كمية العمل، أو إذا شئنا، التعب، الذي يمكن لكل نوع من المحركات، بل لكل محرك على وجه الخصوص، أن يتحمله يوميا، علاوة على الوقت الذي يحصل هذا التعب في نهايته، تبعا لنوع العمل[859].

يتعذر من دون شك تجاهل «المكاسب» التي قدمتها «الميكانيكا الصناعية» في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر. إنها تجعلنا ننسى مقترحات **كولون** في شأن الأشغال الفردية، أو اقتراحات الموسوعيين المتعلقة بالوصف الشبيه ولكن الشاق للفنون. كل قوة تهدف إلى الاقتصاد وكل نصيحة تهدف إلى النجاعة. ويعطي **جيرار-جوزيف كريستيان** مثالاً على ذلك مرة أخرى في مصنفه عام 1822: «سيتحمل الإنسان العمل لفترة أطول وبتعب أقل، وتكون جميع الأشياء الأخرى متساوية، حين يكون عمله منتظمًا وموحدًا، سواء في جهد الضغط أو في السرعة»[860]. تقترح التعليمات تجنب الاستخدام المتزامن لـ «جميع عضلات الجسم»، مع تقسيم القوة والمهارة «بالتدريج»، وإعطاء فترات راحة مكررة لإنعاش القوى[861]. إن الاقتصاد الحركي، وتأثيره المقوم، يوجدان في قلب النظرة. ومن ناحية أخرى، يظل التعب «مقاربا»، ويلاحظ بشكل شخصي أكثر مما يحدد بصورة موضوعية. يتعلق الأمر على الدوام بحكم عملي، واليقين إنما يأتي

---

(858) .Charles-François Bailly de Merlieux (dir.), Maison rustique du XIXe siècle, Paris, 1834, t. IV, p. 510-512.

(859) .André Guenyveau, Essai sur la science des machines, Paris, 1810, p. 256.

(860) .Gérard-Joseph Christian, Traité de mécanique industrielle, op. cit., p. 67

(861) .Ibid., p. 64.

من الاعتياد و«الاقتناع»: «إن العمل الذي ينبغي أن يطلب من كل نوع من الموجودات الحية، وعدد ومدة فترات الراحة، وهلم جرا، أمور لا يمكن تحديدها إلا بناء على تجربة طويلة»[862].

وبعبارة أخرى، لقد تعززت الميكانيكا، في حين ظلت الفيزيولوجيا موسومة بالطابع التقديري أكثر من القياس الكمي.

اختراع الطاقة

ومع ذلك، تحولت نظرة أهل الميكانيكا في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر نحو الفيزيولوجيا بشكل غير محسوس: انصرف الاهتمام إلى «المحرك»، إلى أصل القوى، وليس إلى نسق الحركات أو تصميمها فقط وتوجه البحث نحو الحالات الغامضة، تلك التي تجاهلها كولون متمسكا بالنتائج المرصودة فقط. لقد استؤنف نموذج لافوازييه، الذي طالما طُمِس بحكم أنه صعب «القياس» و«الإعداد»، وتمت مساءلته وجرى تعميقه. ويتفق الجميع على أن «التنفس هو أهم الوظائف في الجسم الحيواني»[863]، فهو ينتج الحرارة، ويشرط العمل، ويرود العضلات، والحوافز، والجهود المبذولة بـ «النار». وفي عام 1843، قام غابرييل أندرال وجولس جافاريت، وقد جهزا لشهيق والزفير بالأنابيب والسدادات، بمقارنة استهلاك الأكسجين بإطلاق ثاني أكسيد الكربون بحسب الأفراد، وسجلا إيقاعاتهم وامتزاجاتهم ومعدلاتهم، وخلصا إلى أن «كمية الحمض الكربوني الذي تلفظه الرئة تكون أكبر بقدر ما يكون التكوين أقوى والجهاز العضلي أكثر تضجا»[864]. وبالمثل، لاحظا انخفاضا «ابتداء من سن الخمسين» و«بقدر ما يتقدم

(862) André Guenyveau, Essai sur la science des machines, op. cit., p. 254.

(863) .Charles-François Bailly de Merlieux (dir.), Maison rustique du XIXe siècle, op. cit., p. [redacted]

(864) .Gabriel Andral et Jules Gavarret, « Recherches sur la quantité d'acide carbonique exhalé par le poumon dans l'espèce humaine », Comptes rendus hebdomadaires de l'Académie des sciences, 1843, p. 119.

الشخص في السن»[865]. في حين أن «الأفاضل» يعرفون كيفية حرق الأكسجين الممتص بصورة أفضل؛ وبالتالي كيفية استغلاله. وفي عام 1849، ميز فيكتور رينيو وجول ريزي استهلاكات من هذا القبيل بين الحيوانات تبعا للأنواع أو الوزن أو السن أو النشاط، وخصصا إلى النتيجة نفسها[866]. وأخيرا، واصل غوستاف إيرن المشروع في خمسينيات القرن التاسع عشر، حتى أجرى تجربة مباشرة على العمل نفسه. يقابل الهواء الذي يستنشق بأثره الميكانيكي «الإنتاجي» الملموس ويسهب على الخصوص في شأن الاختلافات التي تعد مفيدة. يقارن الميكانيكي الكولماري استهلاكاته الخاصة باستهلاك فتاة شابة على أفضل استعداد لبذل الجهد. الأمر الذي يوجه نحو نوعية «الموقد»، وأدنى قدر من التعب، كذلك، وقد قيسا بضيق التنفس وتبادل الغازات معا:

بينما كنت في حالة الراحة أتنفس ثماني عشرة مرة تقريبا في الدقيقة، لم تكن الفتاة السابقة تتنفس سوى اثنتي عشرة مرة تقريبا، وبينما كانت رئتاي تستنشقان مع كل نفس أكثر من لتر من الهواء، لم تكن تستنشق هي سوى نصف اللتر. لذلك كانت قدرة الأوعية الهوائية على الامتصاص أقوى عندها بكثير مما عندي. وهكذا كانت كمية 350 لترا من الهواء التي مرت عبر رئتيها في ساعة واحدة أكثر امتلاء بالحمض الكربوني من كمية 700 لتر التي مرت عبر رئتي[867].

وصعود الجبل يطيل المقارنة. ولقد استهلك إيرن، عند قياسه له، «أربعة أضعاف الأكسجين» بالمقارنة مع حالة الراحة، و«جزء كبير» منه لا يرتبط بالعمل ولكن ببذل السعرات الحرارية عبثا، وبالحركات غير المجدية، وردود الفعل المفرطة، والتوترات المختلفة. ونلفي العلاقة معكوسة لدى الفتاة؛ حيث القليل

(865) Jules Gavarret, Physique médicale. De la chaleur produite par les êtres vivants, Paris, 1855, p. 349.

(866) Henri-Victor Regnault et Jules Reiset, « Recherches chimiques sur la respiration des animaux de diverses classes », Annales de chimie et physique, t. 26, 1849, p. 514.

(867) Gustave-Adolphe Hirn, Théorie mécanique de la chaleur, Conséquences philosophiques et métaphysiques de la thermodynamique, Paris, 1868, p. 30.

من الحرارة الخارجية، والكثير من العمل. ومن هنا جاء التمييز غير المسبوق، والملزم، بين الأكسجين «الفعال»، الذي ينشأ عن احتراقه الفعل، والأكسجين «المنفلت» من خلال العرق أو درجة حرارة الجسم، والذي يؤدي احتراقه إلى تعطيل العمل. أما الأول فتمتصه الرئتان، وتحوله إلى تلف «إيجابي»، بينما ينسكب الثاني، ويتحول إلى «غليان» باطل. هنا يكمن كل الفرق بين «الحررة المتدثرة والحرارة الناتجة»[868]: إحداهما تتحول إلى دينامية «مفيدة» تنشط المحرك، والأخرى تتحول إلى تسخين «عديم الفائدة» يكبح المحرك. وكل الاختلاف أيضا مع ملاحظات لافوازييه التي تقتصر على زيادة استهلاك الأكسجين بموازاة العمل. بينما يتميز نوعان من ابتذل في هذا الصدد، تبعا لدورهما ولاشتغالهما: «فأكثر ما يختلف فيه شتى الأفراد إنما ينشأ عن مقدار فرط الحرارة غير الضرورية التي تنامت على هذا النحو»[869]. إنه التمييز الذي أيدته النظريات الجديدة، مثل نظريات سادي كارنو وجيمس جول، خلال الأعوام 1820-1840، في شأن المكافئ الميكانيكي للحرارة، والتي طبقت على المحركات البخارية: معدات «وضعت أمام أعيننا باستمرار مشهد العمل الناتج عن الحرارة وجلته إلى ممارستنا اليومية»[870]. وأكثرها فعالية تنهض بتقليل ألوان الهدر والإشعاع الناجمة عن الأنابيب والاحتكاكات والفتحات التي يتم التحكم فيها بشكل سيئ؛ وذلك ابتغاء تحويل أكبر قدر ممكن من الحرارة إلى عمل. وهذا يؤدي إلى تدقيق أوجه المقارنة مع «المحرك البشري»، الذي جربه غوستاف إيرن مرة أخرى بواسطة معدات ثقيلة في عام 1858: «غرفة صغيرة محكمة الإغلاق»، مع «ألواح الصنوبر المختومة»؛ حيث تتم مراقبة درجة الحرارة، والتنفس، والتبادلات، ويجري العمل

(868) Ibid., p. 35.

(869) Ibid., p. 41

(870) Edgar Saveney, « De l'équivalence de la chaleur et du travail mécanique », Revue des deux mondes, t. 45, 1863, p. 40.

المقوس على «عجلة مصعة ودرج متحرك»[871] وتتعمق الملاحظة: زيادة استهلاك الأوكسجين يمكن أن يكون وهميا ويصير «العمل» أقل عندما يكون التنفس محرجا، والحركة مضطربة، والتعرق زائدا. وينشأ التعب عن مثل هذا النقص حرارة مفرطة، وهناك قسري، وشعور بالخسارة والإسراف؛ وهو اضطراب قد ينشأ عن الآلات نفسها مرة أخرى:

إن الشخص الذي يلهث من قلة النفس، ويتعرق أثناء تسلق الجبل، يقلد بالضبط هؤلاء السخانين الخرق الذين يثقلون مواقدهم بشكل يفوق الحد، ثم يضطرون إلى التخلص من البخار بلا جدوى، في حين أن السخان الخبير لا ينمي في كل وقت سوى الحرارة اللازمة للأثر الدينامي المطلوب[872].

هكذا انقلبت النماذج، فالأمر يتعلق بقطيعة حاسمة، وثورة كبرى، إن لم تكن كاملة. لم يعد الإرهاق ناتجا عن بعض الضعف في الألياف كما كان الحال في القرن الثامن عشر، أو عن «ارتخاء» الأجزاء، ووهن الأعصاب، ولكنه ناتج عن بعض الاختلال في تبادل الطاقات نفسها، أو عن زيادة الحرارة من جهة، وغياب التكيف من جهة أخرى، أو وفرة الجيشان من جهة، وقلة الاحتراق من جهة أخرى، تليها جهود عبثية تروم التغلب على العجز. لقد غيرت الملاحظات موضوعاتها، وغيرت الخسائر شكلها وموضعها. ينشأ التعب عن نقص معين، وهو نقص النار، وعن التوترات غير المجدية، بل الآلام، التي تصاحبه. ينقلب التفسير رأسا على عقب، وتنزاح النظرة: هناك قوة نوعية ومادية للطاقة صارت تشغل صميم السيرورة:

إذا كان القرن التاسع عشر قد هَوِسَ بالتعب، فإن ذلك لم يكن علامة على سأم «حقيقي» للأفراد في المجتمع الصناعي فحسب، ولكنه كان أيضا ذلك الجانب

---

(871) Gustave-Adolphe Hirn, Recherches sur l'équivalent mécanique de la chaleur, Colmar, 1858, p.67

(872) Id., Théorie mécanique de la chaleur, op. cit., p. 42.

السلبي للجسم المتصور كآلة دينامية حرارية قادرة على حفظ الطاقة وتنميتها(873).

ولا يعني ذلك أن المتوسطات تُنال بسهولة أو أن كل عمل يوافق معدلا لتبادل الغازات يمكن التنبؤ به. وتشدد النتائج لا محالة على «الاختلاف الملحوظ بين فرد وآخر فيما يتعلق بقدرة الرئتين على الامتصاص»(874).

لكن الأمر المهم يكمن في موضع آخر، ويتعلق بإعادة توجيه صورة التعب العامل نفسها، وتفسيراته، وسبل الوقاية منه: تجنب كل بذل غير مجد، وكل توتر، وتعزيز مران الحارق، بل «تربيته» وهو استنتاج مألوف مسبقا، وقريب على ما يبدو مما اقترحته الميكانيكا الصناعية من خلال مواءمة الحركات وتهذيبها واقتصادها، وهو مع ذلك مختلف تماما: ما عاد الحساب يستهدف مجرد المرونة أو تنسيق الحركات، ولكنه يستهدف الاستهلاك وكيفياته، والاحتراق وفعاليته.

لقد تحولت النظرة بصورة نهائية. وفرض موضوع جديد نفسه: الصدر، الذي أصبح عبارة عن «موقد»، وعنصر حاسم في «المحرك»، وهيكل يُحمل محلا للقياس والحساب. ويجري تقييم أشكاله، وتوقع موارده. ويُذكر في ميداني حفظ الصحة والفيزيولوجيا بوصفه «رأس مال» عضويا. ولقد استهل غابرييل أندرال دروسه في العيادة الطبية، في عام 1823، بتعداد «أمراض الصدر»(875)، كما استهل دروس حفظ الصحة التي انبرى لها، في عام 1828، باستكشاف «الهواء الجوي والتنفس»(876).

---

(873) .Anson Rabinbach, Le Moteur humain , l'énergie, la fatigue et les origines de la modernité, op. cit., p. 91

(874) .Gustave-Adolphe Hirn, Théorie mécanique de la chaleur, op. cit., p. 40.

(875) .Gabriel Andral, Cours de médecine clinique. Paris. 1823. « Maladies de la poitrine », t. I, p. 1 sqq.

(876) .Id., Cours d'hygiène, ms., 1828, Paris, Faculté de médecine, notes prises par un étudiant, collection privée.

إنه هدف غير مسبوق. لقد فرض شكل القفص الصدري نفسه بوصفه دليلا على قوة التحمل، ويصدق ذلك على سعته بالخصوص. حتى إن ملوشال، طبيب التجنيد الإنجليزي في أربعينيات القرن التاسع عشر، قد رام أن يستبعد من ضباط الجيش البريطاني «الأفراد الذين لا يبلغ محيط صدرهم 31 بوصة [أو 75 سم]»[877]. وكذلك الحال لدى وايه الذي كان يتقصى من خلال شكل القفص الصدري عن علامات السل الرئوي[878]، أو لدى لوي لافران الذي حاول تحديد فارق كمي بين الأقوياء والضعفاء: 83 سنتيمترا في محيط الأوائل و77 سنتيمترا في محيط الثواني[879]. وهكذا يتجدد الانشغال بالمتوسطات العدديه على صعيدي الهيئات والملامح.

ويبقى فن التنفس الذي جعل موضع مساءلة أكثر من أي وقت مضى. حتى إن بعضهم عني بدراسته إلى درجة الهوس، مثل لوترباك، «أستاذ الطب الطبيعي التلقائي»، فانضم إلى حماس «مُرّد المؤلفين»، محاولا في بحث نشره خلال عام 1852 أن يميز نحوا من ثلاثين طريقة للتنفس[880]: من قبيل التنفس «المتموج» الذي يراد به «التخفيف من أتعاب الذهن»، أو التنفس «الإيقاعي» الذي يبتغي «التخفيف من أتعاب المشي»، أو التنفس «المتدرج» الذي يراد به «لتخفيف من أتعاب الجري»! وغير ذلك من الطرائق التي تروم غايات غير محتملة: فمن «النفضية» إلى «الممتلئة»، ومن «المترجحة» إلى «العائمة»، ومن «المطهرة» إلى «اللعابية»، ومن «الخاضنة» إلى «المتوقفة». إنه شهادة مهارة مفتراة على العلم،

(877) انظر
Michel Lévy, Traité d'hygiène publique et privée, Paris, édition de 1844, t. I, p. 236.

(878) Eugène-Joseph Woillez, Recherches pratiques sur l'inspection et la mensuration de la poitrine considérées comme moyens diagnostiques complémentaires de la percussion et de l'auscultation, Paris, 1838.

(879) Louis-Théodore Laveran, « De la mensuration verticale du thorax », Gazette médicale de Paris, 8 février 1846, p. 82.

(880) J.P. dit F. Lutterbach, Art de respirer, moyen positif pour augmenter agréablement la vie, Paris, 1852.

ومضللة إلى حد كبير، لكنه تكشف في حد ذاتها عن الرهان الذي أمكن للتنفس أن يصبح موضوعاً له في بداية القرن التاسع عشر

وأخيرا، كان اكتشاف «السبيرومتر» على يد جون هاتشنسن، خلال عام 1845، أكثر أصالة وفعالية؛ وهو جهاز يسمح بحساب الحجم الكمي للتنفس عن طريق الزفير القسري، أي كمية الهواء التي يمكن للرئتين استغلالها[881]. هناك جرس متحرك، يطفو على سائل تحتفظ به جدران، ويسجل ويحدد كمية الهواء الملفوظ على هذا النحو. ومن ثم انضافت إحدى علامات الصحة إلى العلامات السابقة؛ وجرى عرض «محتوى» ظل غامضا حتى الآن في جدول. هناك «داخل» قد فرض نفسه على الخارج. وسيكون الأفراد الأكثر مقاومة هم أولئك الذين تكون قدرتهم الاستيعابية هي الأكبر، والذين يضمن كل تنفس من أنفاسهم أقوى احتراق ممكن. ومن هنا هذا اليقين غير المسبوق بالحصول بهذه الطريقة على «مؤشرات ثمينة لقياس قوة الأفراد والوقاية من مرضهم الوشيك»[882].

إعادة اختراع الغذاء

ظل مسعى غوستاف إيرن متمحورا حول التنفس، وحول «الحارق» ودوره، والأكسجين المستهلك، بينما لا تفتأ رؤية الطاقة تحدد حتما دور الغذاء، والمواد «المحترقة»، والإيراد الذي يسهم في الاحتراق ومن ثم في العمل، وبالتالي توجيه ذلك العرض الكمي الذي جازف به ألبريشت تهار في عام 1830.

تتنوع كل من قوة الإنسان ونشاطه ومهارته إلى ما لا نهاية، وتعتمد كثيرا على التغذية وعلى درجة رفاهية عيشه المرتبطة بها. ويمكن للعامل الذي تناوله التي

---

(881) . انظر.

John Hutchinson, « Lecture on Vital Statistics, Embracing an Account of a New Instrument for Detecting the Presence of Disease in the Respiratory System », Lancet, no 1, 1844, p. 567-570.

(882) Michel Lévy, Traité d'hygiène publique et privée, Paris, édition de 1850, t. I, p. 241

عشر غروسا [gros] في اليوم أن ينجز غالبا من حيث الكم والجودة أكثر من ضعف العمل الذي أحصل عليه من شخص آخر يتلقى ستة غروسات [gros] في اليوم[883].

يبدو الاستنتاج تافها، ما دامت هذه الطعم تؤدي بشكل بديهي إلى صنوف الإرهاق والإنهاك. وعلى هذا النحو كان ميشيل ليفي متمسكًا بأبسط تقاليد حفظ الصحة من خلال التأكيد، في عام 1844، على أن «حد الإفراط يتمثل في الشعور بالتعب، وهو أسرع حدوثا لدى الأشخاص الضعفاء والذين يعانون من سوء التغذية بالمقارنة مع الأشخاص الذين يتمتعون بظروف عالقة»[884]؛ وهو تأكيد أصيل، مع ذلك، لأنه يحيل مباشرة على الأكسجين والنار؛ هذا الوجه المزدوج للاحتراق العضوي، الذي بينه الكيميائيون في الثلث الثاني من القرن: الغاز الحارق ومادته، واللهب ومادته. إنه انتصار للصورة، من دون شك، ولكنه ملموس على نحو متعمد. «تمَثّل الأغذية بالنسبة إلى جسم الحيوان كَمَثَلِ الوقود بالنسبة إلى المدفأة»[885]. وقد قسّم يوستوس فون ليبغ، خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر[886]، هذه الأغذية إلى فئتين: تلك التي تسهم في تجديد الأعضاء، «الأغذية التشكيلية»، وتلك التي تسهم في الحفاظ على الحرارة الجسدية، «الأطعمة التنفسية»، والأخيرة تحمل الكربون والطاقة الحرارية، «الدهون والنشا والصمغ والسكر والبكتين والسورين والنبيذ وماء الحياة ...»[887]. وهذا التحليل أكثر حسما، بل هو افتتاحي، بقدر ما يكشف، لأول مرة، عن التدهور العضوي الناجم عن الاحتراق: وجود حمض اللبن في الدم، الذي يشتد بالمران. إنه شرح رائد للمعاناة والألم الناجين عن التعب الذي تثيره الكيمياء.

---

(883) .Albrecht Thaër. Principes raisonnés d'agriculture, Paris, 1830, p. 149-150.

(884) .Michel Lévy, Traité d'hygiène publique et privée, Paris, 1844, t. II, p. 408.

(885) .Justus von Liebig, Chimie organique appliquée à la physiologie animale et à la pathologie (1837), Paris, 1842, p. 24.

(886). انظر نفسه

(887) .Michel Lévy, Traité d'hygiène publique et privée, Paris, édition de 1857, t. I, p. 700.

على هذا النحو، تستقر «الطاقة» بشكل نهائي في قلب السيرورة، ويتعزز تفعيل الآلة، وأدواتها، بالموارد المغذية. وإن هي إلا العلامة الدليلية الجديدة التي استخدمها الجغرافيون والإحصائيون في بداية القرن التاسع عشر، من أجل المقارنة بين المناطق الفقيرة والمناطق الغنية، وبين السكان الضعفاء والسكان الأقوياء، ووصم الأقاليم الواقعة في المركز، «ذلك الجزء من فرنسا حيث يُستهلك أكبر قدر من الكستناء: ذلك لأنه من جملة 2700000 هيكتولتر التي تُستهلك في فرنسا، تَستهلك هذه الأقاليم الخمسة 1.436.000 هيكتولتر»[888]. وهذا هو المعيار الذي اعتمده بلزاك أيضا في وصف عمل بيناسيس، «طبيب الريف»، الذي قام بتغيير وجه قريته الصغيرة، وكانت من قبل برية معزولة، عبر تعديل كامل للأغراس والغلال، متخليا عن «البطاطس ومنتجات الألبان»[889] ليتحول إلى اللحوم البيض والحمر بالأساس، وفي ذلك ضمان للموارد العضوية، فضلا عن صنوف المقاومة المستعادة: «لقد عالجت الفلاحين من أمراضهم التي كان من السهل مداواتها لم يكن الأمر يتطلب سوى إعادة القوة إليهم عن طريق تغذية وافية»[890]. أو المعيار الذي لجأ إليه أخيرا جون سنكلير في نصيحته للمزارعين الإنجليز: الدريس، الذي يعد أوفر «طاقة»، ويفضل على القش بالنسبة إلى خيول الجر، واليقين بأنه «بهذا الغذاء وجيتين من الحبوب في اليوم، لا تستطيع الخيول حرث ثلاثة أرباع أكر [30 آر] في اليوم فحسب، ولكنها أيضا عادة ما تكون مليئة بالحيوية والصحة عندما يبدأ موسم البذر»[891].

يبقى ثمة حد في هذه الخمسينيات من القرن التاسع عشر: إن رهان التقريب، الذاتي منذ البداية، أو الموحي بكل بساطة، لا يزال هو الغالب بالمقارنة مع المعيار العلمي. ويطغى الاقتناع على التحقق، واليقين على التجريب. واللحم، على وجه

(888) Adolphe d'Angeville, Essai sur la statistique de la population française, considérée sous quelques-uns de ses rapports physiques et moraux, Bourg, 1836, p. 49.

(889) .Honoré de Balzac, Le Médecin de campagne, op. cit., p. 7.

(890) .Ibid., p. 112.

(891) .John Sinclair, L'Agriculture pratique et raisonnée, Paris, 1825, p. 208.

الخصوص، وهو «الغذاء التشكيلي» وليس «المحترق»، بألفاظ ليبغ، يفرض نفسه بلا منازع في التدبير الصحي. فهو يجذب الانتباه، ويصير شريكا للأبدان، ويضفي صبغة مثالية على العضلات، ويحيل على الدم، من دون تقديم دليل على دوره الملموس. وهو وحده الذي يذكره بيير-أونوريه بيرار على الخصوص في تقريره عن النظام الغذائي الخاص بمدارس باريس الثانوية في عام 1852؛ حيث يذهب إلى حد تحديد المستويات والكميات:

بالنسبة إلى المعهد الكبير، 65 غراما لكل فرد ولكل وجبة

بالنسبة إلى المعهد المتوسط، 55 غراما

بالنسبة إلى المعهد الصغير، 45 غراما[892].

وهو الغالب أيضا في توجيه مجلس الصحة العسكري الصادر بتاريخ 5 مارس 1850، وهو الذي ينبغي، على وجه التحديد، «أن يحتل المرتبة الأولى في النظام الغذائي للجندي»[893]. وهو في الأخير الذي تشيد به النصوص العظمى المتمحورة حول «حفظ الصحة الغذائية» في منتصف القرن: «إنه يعيد القوى بقدر كبير، من دون أن يفرض على المعدة أية عملية هضم شاقة»[894].

ثمة عقبة بلا شك، إذ لا يزال هناك قصور في التقدير، ولكن ذلك لا ينتقص بأي حال من تجديد الاهتمامات خلال القرن، وتنوعها، وإثرائها: من التنفس إلى

---

(892) .Pierre-Honoré-Marie Bérard, Rapport sur le régime alimentaire des lycées de Paris (1852).

انظر،

Ambroise Tardieu, Dictionnaire d'hygiène publique et de salubrité, Paris, 1852, art. « Lycées».

(893) .Instruction du conseil de santé des armées, 5 mars 1850, voir ibid., art. « Militaire (hygiène)».

(894) .Jean-Baptiste Fonssagrives, Hygiène alimentaire des malades, des convalescents et des valetudinaires, ou Du régime envisagé comme moyen thérapeutique, Paris, 1867, p. 94.

الغذاء، ومن العضلات إلى الحركة، تغيرت صورة مقاومة التعب بالتأكيد، وصارت محل دراسة واستكشاف.

تحديد «التكوين»

ذلك ما يفرض أيضا تحدي ضبط معايير قهر التعب، ومعايير الصمود المحتملة، والتفريق بين الكائنات القوية وتلك التي ليست كذلك. وقد تراجعت الملاذات التقليدية في هذه الحالة. إن الانتباه إلى الأغشية العامة و«السحنة» و«الرؤوس المستقيمة» و«العيون النشيطة والفطنة»[895]، بل جس الأطراف، كما هو الحال بالنسبة لقادسي الملك المعظم، كل ذلك فقد أهميته. لقد عقدت الفيزيولوجيا وانطاقة القياسات. وتنامت مساحة الباطن الذي تحيل عليه الوظائف العضوية. وأدى استعلال الهواء والغذاء وكيمياء القوى إلى تغيير النظرة. وهناك على الخصوص لفظ فرض نفسه خلال القرن، وهو لفظ «تكوين» [constitution]، الذي يجمع عديد الصمات الخفية، ويحشد بيانات أكثر حميمية وأشد تعقيدا. وتركز عليه المعاجم الطبية بإصرار خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر، مشيرة به إلى «مجموع التنظيم الخاص بكل فرد». وقد منحه خبراء حفظ الصحة، نحو عام 1840، أوفى تعريف، قاصدين به «درجة القوة البدنية، والانتظام المثالي إلى حد ما في أداء الوظائف، ومقدار المقاومة لأسباب المرض، ونسبة الحيوية، وبالتالي فرص التعمير»[896]. وتجد فيه إمكانات كل واحد نظاما أكثر، وتفردا أيضا. ومن ثم كان التعريف معقدا؛ حيث تكون المعالم الظاهرة أقل وضوحا: «صحيح للغاية أن الناس ذوي البنية الرياضية لا يسترعون الانتباه لاستقرار صحتهم وانتظامها»[897] إن الجاذبية العضلية يمكن أن تضلل النظرة. ولا يمكن استخلاص «نسبة الحيوية»[898] على الفور.

(895) Dictionnaire de médecine et de chirurgie pratique, Paris, 1830, art. « Constitution ».
(896) Michel Lévy, Traité d'hygiène publique et privée, Paris, 1844, t. I, p. 232.
(897) Ibid., 1850, t. I, p. 241.
(898) Ibid., p. 232

وتبقى الأدوات التي اخترعت في بداية القرن التاسع عشر: الديناموميتر، والسبيرومتر، وكيمياء التنفس، وكيمياء الدم، وعلم الدم من بين أمور أخرى، هذا العلم الجديد الذي يقترح مؤشرات الصمود والفشل العضويين: «نعلم أن الكريات هي التي تشير في الدم، بحسب ارتفاع أعدادها أو انخفاضها، إلى ضعف أو قوة التكوين»[899]. يتعلق الأمر بأدوات علمية، وأجهزة تجريبية، لكن استخدامها ظل محدودا في الحياة اليومية. ومن هنا يأتي البحث عن معايير واقعية «قابلة للاستدلال»، وتستجيب لتمثلات جديدة عن الجسم يهيمن عليها الأداء، والطاقة، والقوة البارزة.

هذا ما يُظهره تقييم العسكريين، بعد أن صار أكثر انتظاما مع مجالس المراجعة وتمديد التجنيد الإجباري خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر. ويتم استخدام لفظ «تكوين» هنا أيضا، فمنه «السيء» و«الأعجف» و«الضعيف»، و«القوي»، مع لفت الانتباه إلى «الأعضاء الواقية تماما؛ أي الطليقة والخالية من أي خلل في التشكل، والأبدان المتينة، والعضلات واضحة المعالم، لا بالضخمة ولا بالبارزة، إلا ما كان على جهة الاعتدال»[900] إنها نظرة موجهة للعناية، مهما يكن من أمر؛ إذ تحافظ في المقام الأول على ما يضمن «انسجام» الوظائف نفسها، مع المحافظة خصوصا على مظهر الأجزاء التي عُدّت مهيمنة، وبالأخص الصدر الذي يجب أن يكون «مربعا»، وواسعا، ومقوسا، ورنانا، ومتحركا، وسهل التمدد»[901]. هناك يقين واحد يسود: الامتياز الممنوح للتنفس، والذي أصبح المعيار الأساسي في إيقاعاته، وحركاته، وحريته، إلى درجة أنه صار تقريبا علامة على التكوين. وثمة تقرير عن «وحدة فوج 1840» موجه إلى محافظ الشمال يقولها

(899) Gabriel Andral, Essai d'hématologie pathologique, Paris, 1843, p. 183.

(900) A. E. Coche, De l'opération médicale du recrutement et des inspections générales, Paris, 1829, p. 62.

(901) Pierre-Jean Moricheau-Beaupré, *Mémoire sur le choix des hommes propres au service militaire de l'armée de terre, et sur leur visite devant les conseils de révision, présenté à [...] Mgr le marquis de Latour-Maubourg*, Paris, 1820, p. 13.

بطريقته الخاصة: «مقتنعا بضرورة فحص التكوين العام بعناية، أعتقد أن قدرة الصدر وحالة التغذية يجب أن تجمعها قرارات المجلس في الحسبان أكثر من التشوهات الطفيفة»[902]. إن عبارات من قبيل «تكوين سيئ»، «بنيه ضعيفة»، «صدر معيب»، «انحناء العمود الفقري»، «الحديداب» تتداخل في جداول مجالس المراجعة التي تتراوح بين النحافة الشديدة والتهدل الشديد في الجذع، مع ما يترتب عن ذلك من نتائج طاقية معرضة، والتي تطال ما يقرب من ثلث أسباب الإعفاء من الخدمة (1188 من أصل 3851 في حالة الإقليم الشمالي خلال عام 1841[903])، وكان يفترض فيها كلها أن تعرقل مواجهة «أتعاب الحرب»[904]. لقد استعاد المظهر سيطرته خلسةً، لكنه مظهر أعيد فيه النظر بالكامل.

وتنتشر هذه العلامات الدليلية أيضا في الحياة اليومية، وتجري تقدير الأطياف بشكل مختلف، ويتجدد ترتيب الخطوط ويعيد الظاهر تعريف نفسه. وستكون الرئتان حاميتيه الأوليين؛ وهذا ما يكشفه منظفو البالوعات، في مواجهة ألوان الإجهاد، والروائح محصنين بـ«الصدر العريض»، بوصفه علامة على أفضل ضروب «العنفوان»[905] أو سكان الجبال، الذين يسيرون على المنحدرات رغم قلة الأكسجين، آمنين بفضل «صدر ضخم للغاية، متفتح جدا وأطول من المعتاد»[906].

وتثمن الموضة الرومانسية هذه الأشكال نفسها، ومنها الصدرية على وجه الخصوص، وارتداؤها العلني بالألوان وقد أصبحت «قطعة عصرية»[907]،

---

(902) Valentin Cazeneuve, Recrutement de l'armée, contingent de la classe de 1840, département du Nord, année 1841, adressé M. le préfet du Nord, Lille, 1842, p. 17

(903) انظر نفسه، ص 20-23.

(904) Ibid., p. 18.

(905) « vidangeurs », Les Français peints par eux-mêmes, op. cit., t. III, p. 194.

(906) James Cowles Prichard, Histoire naturelle de l'homme (1836), Paris, 1845, t. II, p. 180.

هنا يذكر بريتشارد الأنديين في أمريكا الجنوبية، ويصفهم بوصفهم من سكان الجبال.

(907) Louis Maigron, Le Romantisme et la mode, Paris, Honoré Champion, 1911, p. 69.

حيث تبرز الصدر بشكل بالغ وتظهر ملمحه «العلوائي»، إلى درجه أن لها قيمه الدلالة على الهوية: «أرني صدرية رجل وسأخبرك من هو»[908]. وكذلك الحال في الثنية، التي تمدد عرض الكتفين الذي ما فتئ يتسع. ويعكس مصنف الخياط صدى هذه الصور، الدقيقة و«المتينة» معا: «إن اللبس المصنوع وفقا لقواعد الفن في عام 1828 يجب أن يوسع الصدر والكتفين، ويجب أن يعطي الخاصرة شكلا مخروطيا وأن يكون هذا هو شكل الوركين أيضا»[909]. وقد غير دليل الخياط العملي لعام 1848 شكل الجزء العلوي من اللباس، محولا إياه إلى شبه منحرف متفلج ومنحن للغاية[910]. ملمحان لا ينفكان يتقابلان: ملمح البرجوازي ذي الحزام المترهل، والبطن الثقيل، وملمح العندور المتأنق ذي الحزام المحكم والجذع الوافر. وقد منحها جان-جاك غرانفيل، في عام 1845، صورة عبارية في كتابه مائة مثل: «ليس كل ما يلمع ذهبا»[911]، حيث يسخر الشاب الطافر، ذو الصدر المتفلج، وقد تأبط ذراع امرأة شابة أنيقة، من طالب زواج ثري ومسن، وذي بطن مكور وشحم مترهل.

(908) .Alexandre Dumas, Théophile Gautier, Arsène Houssaye, Paul de Musset, Louis Énault, et du Fayl, Paris et les Parisiens au XIXe siècle, Paris, 1856, p. 439.

(909) .Guillaume Compaing, L'Art du tailleur, Paris, 1828, s. p.

(910) .J. Coutts, Guide pratique du tailleur, Paris, 1848, planche no 11.

(911) Jean-Jacques Grandville, Cent Proverbes, Paris, 1845, p. 225.

الفصل الحادي والعشرون

عالم مُهدَّد: شقاوة الكدح

لا شك في أن مراقبة الأبدان لم تعد كما كانت من قبل. إن الصدور تخبر عن الطاقات. وتخبر عنها التدابير بالمثل؛ حيث تفصل بين ألوان الضعف والقوة؛ الأمر الذي يجدد صنوف الانتباه، وفي الوقت نفسه يجسم حقائقَ يميل التقليد إلى تجاهلها: المساكن الضيقة، ونقص الهواء، والرطوبة، والبرد، وانخفاض مستويات الاستهلاك وتدني الموازنات.

وعلينا أن نلاحظ أيضا كيف أن نظرة من هذا القبيل قد واجهت، في أوائل القرن، عالما غير متوقع، على ما يبدو، إن لم يكن مختلا. عالما نشأ في إنجلترا مع نهاية القرن الثامن عشر وسرعان ما انتشر على نطاق واسع، وهو عالم المصانع التي ضاعفت ترسانة الآلات، وأنهكت العاملين، وقيدت الحركات، وزادت في ساعات الشغل، وأثقلت كاهل الورشات. إنها جِدَّة جذرية قلبت المعايير المعتادة. وإن هي إلا ولادة لـ «التعب الشقي» الذي يفتقر إلى أفق، ويكشف عن عوائق أكثر مقاومة مما وعدت به التصاميم الهادئة للميكانيكا الصناعية. وإن هي أيضا إلا «يد عاملة فائضة، شبه معطلة، وبلا حماية»[912]، والتي تحولت بفعل المكننة. ومن هنا ألوان الفضول المُرَاجَعة على نطاق واسع، والمعروفة جيدا منذ ذلك الحين: «من بين جميع المشكلات التي تُثار اليوم، ليس هناك ما هو أكثر أهمية من تلك المتعلقة بتنظيم الشغل ومصير الشغالين»[913]. ومن هنا، أيضًا، هذه

(912) Edward P. Thompson, La Formation de la classe ouvrière anglaise (1988), trad. Gilles Dauvé, Mireille Golaszewski et Marie-Noëlle Thibault, Paris, Seuil, « Points », 2012, p. 368.

(913) Édouard Ducpetiaux, De la condition physique et morale des jeunes ouvriers et des moyens de l'améliorer, Bruxelles, 1843, « Introduction », p. I.

الأتعاب غير المسبوقة على ما يبدو، على الرغم من أنها ليست كذلك دائمًا، هذه الأحوال التي يسهم فيها عوز الشغالين العنيد في إنهاكهم بدرجة أكبر. فمعها ينشأ موضوع جديد للاهتمامات الاجتماعية، ينمي الصحافة، ويثير التحقيقات، ويوحي بأسئلة للمباريات، ويعيد رسم طائفة من المخاطر[914]، ويفرض بالقدر نفسه يقظة «قلقة لدى الطبقات المهيمنة حيال هذا الواقع الاجتماعي الذي تصنعه ويهددها في الوقت نفسه»[915].

وأخيرا، هناك تجديد آخر مأتاه من صوت ظل مجهولا حتى ذلك الحين: صوت بعض أولئك الشغالين الذين منحهم تعليمٌ أولي، ووعيٌ سياسي ناشئ، وثقافةٌ جديدة أيضا، صوتًا لم يكن موجودا من قبل. ومن ثم تلقي صنوف التعب نفسها، ولكن مستحضرة بشكل مختلف ومعروضة بشكل مغاير، وقد خبرها في أجسادهم أولئك الذين ما كان في مستطاع التقليد الاستماع إليهم حتى ذلك الحين.

بناءُ تعيشٍ عمالي

مالت التصنيفات الاجتماعية في المقام الأول نحو المزيد من الشمولية في بداية القرن التاسع عشر، والمزيد من الدمج، والمزيد من التطابق في صفوف «المعوزين»؛ خصوصا وأن النقابات القديمة التي كانت تحصر المهن وتفصل بينها قد اختفت مع مجيء الثورة. لقد أصبح شغالو المصانع أو الورشات، أولئك الذين لا يملكون سوى أذرعهم لكسب لقمة العيش، عبارة عن كتلة ملتبسة، ومجموعة متماثلة، وساكنة مبهمة ذات موارد قليلة للغاية وأخطار محتملة. ويرى فيهم بلزاك صنف الإنسان الذي يحرك «رجليه، ويديه، ولسانه، وظهره، وذراعه الوحيدة، وأصابعه

(914) انظر:

Philippe-René Marchand, Du paupérisme, Paris, 1845.

(915) Michelle Perrot, Enquêtes sur la condition ouvrière en France au XIXe siècle, Paris,, Microéditions Hachette, 1972, p. 10.

الخمسة من أجل العيش»[916]، بل هو ذلك الشخص الذي «يتعدى قدراته [...] ويتجاوز وسعه ابتغاء الفوز بهذا الذهب الذي يفتنه»[917]. إن الرأي البورجوازي، الذي يحفظ المسافة، ويميل نحو القلق، ويلغي كل فرق بين «العامل والفقير، والمعوز والمنحرف»[918]، يرى فيهم بالأحرى «طبقة خطيرة»[919]. وهو خلط عنيد قد عززته الصناعة من دون شك. إن التطور واسع النطاق الذي عرفته المصانع والمؤسسات المعتمدة على البخار، والذي أسفر عن تركيز الإنتاج، والتصنيع بتكلفة منخفضة، قد تسبب في انخفاض الأسعار، وأفقر المهن، وعمق صنوف الإجهاد والتفاوت بشكل متناقض، ودفع «الخاسرين» إلى تخوم البقاء. عجز زاحف ومتعثر يكتسب وضوحًا. ويكشف النساج التقليدي عن ذلك، بشغله وتعبه، حين لا يستطيع احتواء العوز والبؤس والتدني الدائم لأرباحه، في مواجهة آلات الصناعة الظافرة، هذه التي تصنع منتجات أقل تكلفة من منتجاته.

لا شك في أن أحوال هذه الطبقة من الشغالين هي الأكثر سوءًا، ذلك لأنها تشتغل من خمس عشرة إلى ست عشرة ساعة في اليوم، بل تشتغل أكثر من ذلك في كثير من الأحيان، وتواجه مشقة كبيرة في القدرة على العيش، ما دام أن هؤلاء النساجين، بسبب المنافسة القائمة بين المصنعين، يرون أجورهم تتناقص يوما بعد يوم[920].

---

(916) .Honoré de Balzac. La Fille aux yeux d'or (1835), La Comédie humaine, op. cit., t. 5, p. 256.

(917) .Ibid., p. 257

(918) .Thomas Fouilleron, Des princes en Europe : les Grimaldi de Monaco, des Lumières au printemps des peuples, Paris, Honoré Champion, 2012, p. 716 , voir « Interpréter le paupérisme », p. 708 sqq.

(919). انظر،

Louis Chevalier, Classes laborieuses et classes dangereuses à Paris pendant la première moitié du XIXe siècle, Paris, Plon, 1958.

(920) Alexandre Lesguilliez, Notice historique, topographique et statistique sur la ville de Darnétal. Rouen, 1835, p. 324

ذلك ما يظهره أيضا صناع الحرير في ليون، وقد انعزلوا في مناسجهم العائلية، عاجزين عن مقاومة الأنوال البخارية الموجودة في بعض المدن الفرنسية أو تلك «الموجودة في زيوريخ، وبرن، وكولون، وإنجلترا»[921]. وهو ما أكده رؤساء ورشات كروا-روس، في ليون، في عام 1832، بقياس الإرهاق على الساعات «المفروضة» أكثر من أي وقت مضى بتعويض القيمة المنخفضة للأشياء المنتجة: «منذ ذلك الحين أصبح البؤس عامًا، والعامل الذي يكرس نفسه للعمل الدؤوب لمدة ثماني عشرة ساعة في اليوم لم يعد قادرًا على تلبية متطلبات الحياة»[922]. يجري البحث عن ألفاظ للدلالة على تغيرات من هذا القبيل: لفظ «بروليتاريا» قبل كل شيء، وقد «نشأ مباشرة عن الثورة الصناعية»[923]؛ إذ يجمع الرجال والنساء الذين حددهم المصنع، «كتلة كبيرة من الأشخاص غير المهرة»[924]. ولفظ «بوبرزم» [paupérisme][925]، الذي ظل مستعملا خلال عشرينيات القرن التاسع عشر، قادما من إنجلترا، والذي يتميز عن حالة البؤس أو الفقر، ويصف «حالة العوز الدائم»[926]، والحرمان الذي «صار حالة مزمنة»[927]، ولكنه يمد على كل حال الصورة الشاملة لـ «الفقراء» الموروثة عن النظام القديم. وأخيرًا، تظهر «مآسٍ» تسوغ هذه المفردات، وكذا التمرد على الآلات، قبل كل شيء، هاته

(921) Louis Blanc, Histoire de dix ans, 1830-1840 (1841-1844), Lausanne, 1850, t. III, p. 44.

(922) Rapport fait et présenté à M. le Président du Conseil des ministres, sur les causes générales qui ont amené les événements de Lyon par deux chefs d'atelier, Lyon, 1832, p. 2.

(923) Claude Fohlen, Qu'est-ce que la révolution industrielle ?, Paris, Robert Laffont, 1971, p. 177.

(924) Brinley Thomas, Migration and Economic Growth . A Study of Great Britain and the Atlantic Economy, Cambridge, Cambridge University Press, 1954, p. 158.

(925) لفظ أورده ألان ري Alain Rey في عام 1823.
Dictionnaire historique de la langue française, op. cit., art. « Paupérisme »

(926) Michelle Perrot, Enquêtes sur la condition ouvrière en France au XIXe siècle, op. cit., p. 10.

(927) Édouard Ducpetiaux, De la condition physique et morale des jeunes ouvriers et des moyens de l'améliorer, op. cit., p. 4.

التي يفترض أن تحد من الإرهاق بينما يجري ببساطة اتهامها بتجويع الشعب»[928]. في لوديف أو سان-بونس أو كاركاسون، نحو عام 1820، اجتمع مئات الشغالين لمنع استخدام الآلات حين وصلت»[929]. وينتمي كسر وتدمير المحركات أو التروس أو العجلات المسننة إلى سياق شبه ثوري؛ حيث يشعر الطباعيون والنساجون وحتى الفلاحون، مع الدّرّاسات البخارية الأولى، بأن مهنهم مهددة بشكل مباشر. ويشكل تمرد نساجي ليون في نوفمبر 1831، أقوى مثال على ذلك، وهو أحد أكثر التمردات مأساوية بشعاره القائل «العيش بالعمل أو الموت بالقتال»[930]، وقد سحقته القوات المرسلة من باريس. إن التأثير جسيم، ويعزز الشعور بوجود تعارض بين «الذين يملكون والذين لا يملكون»[931]، ويعزز على الخصوص شعور الانتماء الواحد لدى الأشخاص الأكثر عوز: «لقد لوحظ اضطراب أكبر في العقول، وخصوصا في صفوف الطبقة العاملة»[932]

ارتفعت أصوات جديدة على الخصوص، ومصدرها أولئك الذين يدعون أنهم «لا يملكون شيئًا»[933]، وهم شغالون قد «نضجوا» بالفعل من دون شك، ويعرفون الكتابة، ولديهم حساسية تجاه المطالب أو الحوافز الثورية، بما في ذلك عام 1830 في فرنسا؛ وبذلك تعبر النخبة العملة عن نفسها لأول مرة فيما يتعلق بعملها وظروفها المعيشية. وتوجد الزيادة في الراتب في مركز الانتظارات،

---

(928) François Jarrige, « Grandeur et misère du progrès technique », Vivre avec les machines : les textes fondamentaux, Le Point, novembre 2018, p. 48. Voir aussi id., Au temps des « tueuses de bras ». les bris de machines à l'aube de l'ère industrielle, 1780-1860, Rennes, Presses universitaires de Rennes, 2009.

(929) Ibid.

(930) انظر:

Louis Blanc, Histoire de dix ans, op. cit., p. 54.

(931) Fernand Rude, C'est nous les canuts..., Paris, Maspero, 1977, p. 194..

(932) - حديث نائب أورده فرنان رود Fernand Rude، نفسه، ص. 222.

(933) Charles Béranger, prolétaire, ouvrier horloger, « Pétition d'un prolétaire à la Chambre des députés », Le Globe, 3 février 1831

وكذلك تقليل ساعات العمل أو تقليل التعب الذي يعتبر مفرطًا. وقد لخص غريغنون، وهو خياط، تحدث نيابة عن مهنته، مثل هذه النداءات في عام 1833:

نحن نعمل من أربع عشرة إلى ثماني عشرة ساعة في اليوم في أشد الأوضاع إيلامًا؛ جسمنا يتشوه وينكسر، وتتخدر أطرافنا ونفقد خفة حركتها وحيويتها؛ وصحتنا يطولها ولا نغادر الورشة إلا للدخول المستشفى. كيف يمكننا تكريس بضع ساعات من الحياة لتعليمنا؟ كيف نمارس ذكاءنا ونير عقولنا ونلين أخلاقنا؟ الجميع متفقون على ضرورة التعليم بينما يسعون لإثقال كاهلنا بعمل يلتهم في الوقت نفسه وقتنا وقدراتنا وملكاتنا. ويتفقون بالمثل على ضرورة العمل بينما يعيشون في أوقات الفراغ، وينغمسون في الأمور التي لا تنفع[934].

لم تعد الساعات ومدتها معاناة بسيطة؛ إنها أيضًا عقبات أمام المزيد من التأكيد: اكتساب المزيد من الاستقلالية، والحلم بمزيد من الاستقلالية. ويتم التفكير في التخفيف من حدتها بعبارات «الحرية»، كما يتم التفكير في تعبها «المخفف» بعبارات الثقافة الممكنة، إلى حد اقتراح بعض التقارب بين جميع الظروف من خلال إنهاك مسيطر عليه بصورة أفضل. إنه طموح غير مسبوق، تم التعبير عنه بشكل لم يسبق له مثيل، ويلوح التحرر في إطار الاهتمام بالمساواة: «لماذا يجب أن يتوقف هذا [التكافؤ] هنا؟»[935]، يعلن جان-لوي فيرين، خياط صبي يندد بـ«الأثرياء» في رسالة إلى أهل باريس، في عام 1831.

كان الطلب محدودًا بلا شك، قادمًا من هامش ضيق من الطبقة الشغيلة، لكن وجوده مع ذلك كشف عن حساسية متزايدة. ورقات مفردة، ورسائل موجهة

(934) Grignon, ouvrier tailleur, Réflexions d'un ouvrier tailleur sur la misère des ouvriers en général, la durée des journées de travail, le taux des salaires, les rapports actuellement établis entre les ouvriers et les maîtres d'ateliers, la nécessité des associations d'ouvriers comme moyen d'améliorer leur condition, Paris, 1833, p. 2.

(935) Jean-Louis Ferrien, « garçon tailleur », Première Épître aux Parisiens et aux membres de la République dispersée, Paris, 1831, p. 8.

إلى الغرفة، وإعلانات مصنوعة بتكلفة مخفضة، ونداءات منشورة في الصحف اليومية، مهما كانت قليلة، كلها تعبر عن الهدف نفسه: «تحسين وضعنا المزري»[936]. وتركز كلها على انتظار لتثقيف غير معروف حتى ذلك الوقت:

إذا وجد الفقراء والحرفيون والمزارعون أنفسهم، بدلاً من سحقهم تحت ضغط خمس عشرة ساعة من الشغل الشاق، قادرين خلال شغلهم على إعطاء قدر معين من الوقت كل يوم للثقافة، وتنمية ذكائهم [...] فلكم أن تحكموا، يا لها من مصيبة![937]

وأخيرًا، يعد استحضار وقت العمل أمرًا جديدًا، ويجري اقتراحه من صميم العناء نفسه، مازجا بين الأحلام والألم المعاني منه. وغابرييال غوني، النجار «الفيلسوف»، هو أحد أولئك الذين يستحضرون بمزيد من الحدة يوم العمل ومراحله ومدته: استشعاريتم حشده حتى قبل الخطوات الأولى التي يجب اتخاذها؛ حيث يشرك «قدراته الحِرَفِيَّة التي تعمل سلفًا»[938] في الطريق إلى المعمل؛ ثم تأتي المهام، «التي تضايق جسده، وتزعج أفكاره بانشغال مستمر»[939]؛ وعلى الخصوص الساعات، التي تحسب بدقة، وهي «تلتهم روحه»[940]، وتقاس وكأنها لا تتقدم. ويحول غوني هذا الانكشاف إلى هوس. «عضلات ضعيفة، وقد استراحت قليلاً بفصل النوم، تصر على العمل»[941]، و«أسى بين يدي الساعات العشر التي تتقدم»[942]، وتفاد صبره قبل الوجبة الأولى «حيث معدة الشغيل، وقد شحذتها الشهية التي يثيرها العمل المضطرب، لا تتغذى وفقًا لقواعد حفظ

---

(936) Ibid, p. 1

(937) Charles Béranger, « Pétition d'un prolétaire à la Chambre des députés », op. cit.

(938) انظر:

Jacques Rancière, Gabriel Gauny, le philosophe plébéien (1983), Paris, La Fabrique, 2017, p. 53.

(939) Ibid.

(940) Ibid., p. 54.

(941) Ibid.

(942) Ibid., p. 53.

الصحة ولكنها مليئة بأطباق مغشوشة إلى حد ما من متعهد سيء»[943]. واشمئزازه من «جرس مقيت يعلن أن الساعة بدأت»[944]. إنها رواية استثنائية بلا شك، وأول استرداد عمالي؛ حيث يمزج التعب بين الإحساس الجسدي والسحط، وبين التوتر العضلي والتهيج، وبين القوى المعبأة والرغبة المزدراة. وتكشف شهادة غوني، مع ذلك، عن تغيير في ثقافة الطبقة الشغيلة في بداية القرن التاسع عشر، وهي ثقافة أكثر العيان «تعليما». وهذه طريقة أخرى كذلك لجعل التعب العضلي تعبا ذهنيا أيضا، ومن ثم ربط «البذل» بألم أقل قبولًا ومحتملا بشكل سيء. وفي الأمر زيادة في مقدار الاهتمام بالذات، من دون أدنى شك، بل إحيازه في خضم الفعل المفروض أو المنجز. ومن هنا هذا الأذى الداخلي المباشر الحميم؛ تقاطع، لا يزال جنينيًا، بين الشكوى الجسدية والاضطراب المعنوي، والتعاء لن يسع الزمن إلا أن يعمقه، مع التأكيد المتزايد للفرد.

بنية «الفقير» غير المسبوقة

علاوة على هذه الشهادات القليلة «الحية»، ازدادت نظرة المراقبين حدة أيضًا. ما عاد الأمر يتعلق بالإحساس الداخلي للشغيل، ولكن بالاهتمام الذي يحظى به. لقد استأثر الإملاق بالوعي، وأقنع الحرمان الرأي العام. هناك صورة «قابلة للتحديد» قد فرضت نفسها. ستكون علامات هوية الشغيلة قابلة للتمييز، وستتجسد «التجاوزات» الخاصة بها، وهي قرائن تعبر الأجسام، وتنحف الأطراف، ونوهن الصدور، وتضاعف التباينات؛ وكلها علامات على تعب معين، كنقص في الطاقة لا يمكن التغلب عليه. ويتعلق الأمر بأوصاف جديدة أيضًا، قادمة من تجدد الفيزيوبوجيات وستقوم لامايو، «صانعة القمصان»، التي صورها أوجين سو في اليهودي التائه عام 1844، بالكشف عنها إلى درجة الابتذال، «مشوهة بصورة فظة»، «بخصرها المنحرف للغاية، وظهرها المقوس،

(943) .Ibid., p. 55.
(944) .Ibid.

وصدرها الأجوف، ورأسها الغارق بين الكتفين»[945]، مقيدة في تنفسها كما في حركاتها. أو شمال وغلاسكو، الذين فحصهم فريدريك إنجلز في عام 1845: «لا تتلقى رئتا السكان حصتهم الكاملة من الأكسجين: والنتيجة هي فتور جسدي وفكري ونقص في الطاقة الحيوية»[946]. أو نساجو سبيتلفيلدس، في لندن، الذين حولتهم مجلة نيو مانثلي ماغازين إلى مواطنين ينتمون إلى مجموعات عرقية غريبة بمظاهر منحرفة:

ساورتني الرغبة في السفر إلى تلك الأراضي المجهولة وغير المعروفة. وكان اليوم يوم عيد. وبالتأكيد، لو كنت قد سقطت من السماء، لما كان لدي أي داعٍ للدهشة [...] ما أدهشني قبل كل شيء هو الحجوم الضئيلة لمن يوجد حولي. لم أكن أرى سوى أشخاص صغار صحاء، ومرضى، ومشوهين، ولا يشبهون سكان لندن على الجانب الآخر من المدينة، كما لا يشبه اللابرتي الذي يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام الأمريكي العملاق. وبسبب العمل المفرط والبؤس في الشيخوخة المبكرة لشاب في العشرين من عمره، ولكن يبدو أنه في الأربعين [...][947].

تغيير في الملامح، وضيق في الجذوع، ونقص في المقاومة، كلها معايير أولية. ومن هنا أطلقت مسوحات مبتكرة، تولتها دولة وضعت في حسبانها أكثر مما مضى العناية بالصحة الجماعية وتكوين السكان. وكلفت أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية خلال عام 1835، في إثر العديد من المبادرات الإنجليزية، كلا من بينواستون دو شاتونوف ولوي-رونيه فيليرمي، وهما مؤسسا حوليات حفظ الصحة العامة، بإجراء مسح «شامل»: السفر عبر أقاليم فرنسا «بهدف التأكد،

(945) Eugène Sue, Le Juif errant (1844), Bruxelles, 1845, p. 118.

(946) Friedrich Engels, La Situation de la classe ouvrière en Angleterre (1845), Paris, Éd. Science marxiste, 2011, p. 145.

(947) انظر

The New Monthly Magazine, cité par Alban de Villeneuve-Bargemont, Économie politique chrétienne, Paris, 1838, p. 318.

بأكبر قدر ممكن من الدقة، من الحالة المادية والمعنوية للطبقات الشغيلة»[948].

وترسم رحلة فيليرمي «الوحة» تشمل جميع المناطق؛ حيث تحصي المدن والأرياف والمصانع والورشات، وتكرر الملاحظات نفسها: «البشرة الذابلة»، و«النحافة»، و«فقدان القوة»[949] في صفوف شغيلة مانفكتورات ميلوز، و«العمود الفقري المنحني»[950] بين الأطفال الشغالين في مدينة ليل، و«التشوه»، و«ضعف التكوين»[951] بين شغالي المصانع في أميان. ولا يعني ذلك أن هناك ضعفًا موحدًا يسرد في كل مكان، فلا شك أن العديد من المناطق فلتت من مثل هذا الحكم، غير أن هناك تقييمًا غير مسبوق لنقوى قد فرض نفسه في الواقع، وهو عبارة عن تقدير يحدد السمت المورفولوجي. كما فرضت نفسها رغبة غير مسبوقة في الوصف، وحتى التفسير. ولا يعني هذا، مرة أخرى، أن مثل هذه الاعتلالات لم تكن معروفة حتى ذلك الحين؛ ذلك أن العديد من الحالات المادية والعضوية في ظل النظام القديم كانت أيضًا سيئة بالتأكيد. ويستحيل تجاهل «الظروف الغذائية للإنسانية قبل عام 1730»[952]، كما يستحيل تجاهل الوجود المرعج للمجاعات، والمساكن غير اللائقة، وهشاشة البيولوجيات. هناك الكثير من الحقائق التي تقترب من درجة الابتذال، ومع ذلك تقل ملاحظتها. إن «قراءة الحقيقة» هنا ينبغي أن تمنع أي «تفسير خاطئ»[953]. ومن جانب آخر، تكمن الأصالة التي لا جدال فيها، خلال هذه السنوات 1830-1840، في توطين مظاهر الضعف هذه حول المصنع، ولكن أيضًا في طريقة تحويلها إلى صور من «النقص»، و«القصور»، وفي تعدادها، وفي التعليق عليها كذلك، إلى الحد الذي يحسب فيه البعض أن التعب نفسه مصدر محتمل للكوليرا التي اجتاحت باريس عام 1832، في جهل

---

(948) Louis-René Villermé, Tableau de l'état physique et moral des ouvriers employés dans les manufactures de coton, de laine et de soie, Paris, 1840, t. I, p. V.

(949) Ibid., p. 30.

(950) نفسه، هامش ص 87

(951) Ibid., p. 312.

(952) Jean Fourastié, « Doctrine et réalité », Arguments, no 27-28, 1962, p. 59.

(953) Ibid.

تام بسور بكتيريا الضمة الكولرية [Vibrio choleræ]، وفي اهتمام متزايد بـ «الشغل الذي يتجاوز القدرات الطبيعية» أو «السهر المفرط»[954].

أتعاب الكدح الصناعي المتعددة

تنفتح مثل هذه ملاحظات أيضا على شتى صنوف الإجهاد، المحددة لأول مرة. وتكتسب صور الضعف القديمة المزيد من الأوصاف، كما تكتسب الحركات المزيد من الخصوصية تتطلب الفيزيولوجيا الحديثة، التي تركز على الوظائف العضوية الرئيسة، دقة محققة، ولا تفتأ تنأى عن النظرة الكلاسيكية القديمة التي تمسح الجسم، جزءًا بعد جزء، ومن أعلى إلى أسفل، من أجل تقييم الآليات البيولوجية الرئيسة بالأحرى، من التنفس إلى الهضم، ومن الجهاز العضلي إلى الجهاز العصبي[955].

وتم قبل كل شيء تمييز المجهود بشكل نهائي عن أمراض الحرفيين، كما ذكرها برناردينو رامازيني في عام 1700، من خلال التمسك بالأماكن العضوية المرتبطة بكل مهنة، من أجل الانفتاح على المزيد من التأثيرات العامة. إن الخبازين المهددين، بحسب طبيب مودينا القديم، بـ «الطحين المتطاير الذي يستقبله الفم»[956]، والموعودين من ثم بالربو وفقدان التنفس، سيكون شأنهم كذلك أيضا، بعد قرن من الزمان، بحسب إميل-لوضست بيجان، وتحديدا في عام 1835، بسبب «وضع الوقوف»، و«عمل اليدين والذراعين»، و«التعرق

(954) François Foy, Choléra-morbus : premiers secours à donner aux cholériques avant l'arrivée du médecin, Paris, 1849, p. 45.

(955) . تركزت النصوص الكلاسيكية على أمراض "الأماكن": الرأس، والعنق، والصدر، والبطن، والساقان، إلخ. انظر:

Saint-Hilaire, L'Anatomie du corps humain avec les maladies et les remèdes pour les guérir, op. cit.

وقد حلت محلها في القرن الثامن عشر الكتب التي تركز على الأمراض المصنفة إلى "أنواع": الحمى، والأمراض الالتهابية، والتشنجية، والتنفسية، إلخ. انظر

François Boissier de Sauvages, Nosologie méthodique, op. cit.

(956) Bernardino Ramazzini, Traité des maladies des artisans, op. cit., p. 94.

المفرط»، وكل ذلك يهدد مقاومتهم لدرجة أن هؤلاء البشر «ماتوا جميعًا تقريبًا منهكين في سن الأربعين إلى نحو الخمسين»[957]. إن مهن الحديد والسبك، حيث أشار رامازيني بالأولوية إلى إصابة «أغشية العيون» بسبب «الجزء الكبريتي من الحديد الأحمر»[958]، أصبحت أكثر رعباً، وفقاً لـ بيجلان، مصيفا المعاناة التي تسببها «القوة الانقباضية في عضلات الأطراف العلوية»، وفظاظة الضربات على السندان، والصيانة الشاقة للنار، والإمساك الشاق أيضا بالأشياء[959]. وعمال التحجير المهددون، بحسب رامازيني، بامتصاص الجسيمات المعدنية، سيكون شأنهم كذلك، وفقًا لـ بيجين، بسبب أشغالهم المنتشرة والضربات المتكررة، والأوضاع الملتوية، لدرجة أن هؤلاء الشغالين «يصبحون محدبين في نهاية حياتهم»[960]. ما عاد التعب رفيقا عملا، أو كدحا اضطراريا تعيسا وغير مسموع، كما كان الحال منذ زمن طويل، إلى درجة أنه لا يكاد يذكر. لقد تمت تسميته قبل كل شيء. وتمت على الخصوص دراسته أكثر من ذي قبل في آثاره البدنية «العامة»، وفي تكييفه للأجسام بقدر أكبر، وتشكيلها إلى درجة تحويلها. ومن ذلك «الانحناء المستمر للظهر، لدى صانع البيذ»[961]، وآثاره المشوهة، وتكرار «حركة القدم اليمنى على المسحاة»[962]، لدى البستاني، والتي تتسبب في التواءات لا حصر لها، والتقلصات المستمرة لـ «الأطراف العليا»، لدى الحطابين، والتي تحدث آلاما لا حصر لها. أو شغل المنجمي مرة أخرى، والذي ذكره إدوار دوكبيتيو في عام 1843؛ فهو «مؤلم، ومتعب، وبغيض»، والشغيل «يفتقر إلى المساحة اللازمة»، مضطرًا، من أجل «قلع الفحم»، إلى الاستلقاء «بطوله كاملا على أرض وعرة،

(957) .Émile-Auguste Bégin, Le Buchan français, nouveau traité complet de médecine usuelle et domestique, Paris, 1839.
(958) .Bernardino Ramazzini, Traité des maladies des artisans, op. cit., p.45
(959) .Émile-Auguste Bégin, Le Buchan français, op. cit., t. I, p. 320.
(960) Ibid.
(961) Ibid., p. 321
(962) Ibid.

واضعا رأسه على لوح خشبي صغير»[963]. تُحدِّد القوة بحسب حركاتها. يجري تحديد الإنهاك تبعًا لاجتياحه وانتشاره. وهناك تغيير آخر حتمي: فالحماس الاجتماعي، وأمل التصاعد الناشئ مع القرن، وقبول «التعب السعيد»، كلها تفسح المجال للمراقبة؛ حيث لم يعد التعب سوى حالة تدهور، بل تَرَدٍّ. وأخيرًا، هناك نتيجة أخرى، تمت دراستها بشكل أكثر تحديدًا، وهي «التجاوزات الجسدية» على حالة القلب والرئتين وما يتصل بذلك من وظائف: «تهيج مرضي [...]، مرتبط بالتمارين المتعبة، وبالمهن التي تتطلب مجهودًا كبيرًا، وبالمشاعر المعنوية التي تثير خفقانًا قويًا»[964].

هذا يعني أيضًا أن مثل هذه الفروق قد شجعت على تلك التي جرى تبنيها في سجون ثلاثينيات القرن التاسع عشر. فالنظام هنا يريد أن «يسلم جميع المحكوم عليهم، مهما كانت رتبتهم في المجتمع، إلى أشق الأشغال، وهو الشغل الذي يسمى بالتعب الكبير»[965] وقد وصفها أوبير لوفيرني، طبيب سجن تولون، بإسهاب في عام 1841: تشغيل الروافع، وتحريك العجلات، والتوصيل بالعربات، ونقل الأثقال على الأكتاف[966]... فالجهد والقوة هما المستهدفان في المقام الأول، وكذلك الإرهاق، الذي «لن تكون لدى السجين فكرة عنه»[967]؛ فهي أشكال من العناء كثيرًا ما توصف بأنها «أمور تثير الفزع»[968]. بينما يبقى «التعب الصغير» وعداً لمن رد لهم «حسن سلوكهم» اعتبارهم. ويتغير الإطار:

(963) Édouard Ducpetiaux, « Travail du mineur », Annales d'hygiène publique et de médecine légale, 1843, t. XXIX, p. 147.

(964) Jean Bouillaud, Traité clinique des maladies du coeur (1835), Paris, 1841, t. II, p. 584.

(965) Maurice Alhoy, Les Bagnes, histoire, types, moeurs, mystères, Paris, 1845, p. 92.

(966) Hubert Lauvergne, Les Forçats (1841), André Zysberg (éd.), Grenoble, Jérôme Millon, 1992, p. 260.

(967) Maurice Alhoy, Les Bagnes, op. cit., p. 93.

(968) Ibid.

أشغال الورشات أو الصناعة؛ حيث يتعلق الأمر بحركات تجري في الداخل، وتتطلب المهارة أكثر من القوة.

ينبغي إذن أن نعود إلى المصنع، والذي من المحتمل أيضًا أن يحل محل القوى: هناك جوانب أخرى تعرض نفسها، جديدة تمامًا، أكثر تكتمًا، وغير متوقعة، ويسلط عليها الضوء أيضًا من خلال أوصاف محددة بشكل أفضل. هناك آلات أكثر عددًا من شأنها أن تقوم مقام قوة الجسد. لا توجد حركة مفرطة أو بذل ضخم منذ البداية، على سبيل المثال، ولكن أوضاع ثابتة إلى أجل غير مسمى، ومواقف، ومراقبات، وصنوف من الانتباه المستمر على الدوام. لا ضيق في التنفس، ولا انهيار مباغت، بل ألوان من التصلب، والخذلان غير المحسوس، والوهن الغامض. فالضعف يُفرض من خلال «عدم الحركة»، و«الثبات المديد»[969]، بل الحرارة؛ مما يؤدي إلى «نقص الطاقة المطلوبة لإزالة العرق المتدفق من جميع الجوانب»[970]:

منذ مجيء المحرك البخاري وانتشاره، أوشك العمل المتعب أن يختفي تمامًا من المانفكتورات [...] وقلة التمارين العضلية، أو عدم الحركة، أو الوقوف أو الجلوس لمدة اثني عشرة ساعة، يمكن بالأحرى التوسل بها لشرح عدم تطور العضلات، في كل تكوين[971].

ويمكن أن تؤدي حركة محدودة ومقيدة، تتكرر لفترة طويلة، إلى إحداث إصابة: إنها «عملية ميكانيكية بحتة ومملة ومرهقة»[972] ويصفها فيليرمي مازجًا لأول مرة بين التأثير النفسي والتأثير الجسدي: «شغل محدود بعدد قليل من

(969) .Louis-René Villermé, Tableau de l'état physique et moral des ouvriers employés dans les manufactures de coton, de laine et de soie, op. cit., t. II, p. 91

(970) .Flora Tristan, Promenades dans Londres, Paris, 1840, p. 103.

(971) .Valentin Cazeneuve, Recrutement de l'armée, contingent de la classe de 1840, département du Nord, année 1841, op. cit., p. 37

(972) .Eugène Buret, De la misère des classes laborieuses en Angleterre et en France (1840), Bruxelles, 1842, t. II, p. 108.

الحركات، والتي تتكرر بانتظام ساحق، داخل الحدود الضيقة للغرفة نفسها. لقد عُرض على أناس تعساء لا تُنسب حالة ضعفهم إلى أي سبب آخر»[973]. استنتاج غير مسبوق: «إن المرض الوحيد الذي تولده المانفكتورات هو الهحاس»[974]، بعيدًا عن الصور الأولية التي تستهدف البذل البدني وشدته. ومن ثم يتم بطريقة تلميحية، ولكنها مع ذلك واضحة، اقتراح المرافقة الذهنية المحتملة لعالم الكدح. إن أذى الحركة ليس «جسديًا» فقط، بل هو كذلك «معنوي».

وهناك أخيرا صنوف أخرى من التعب، تلك التي تنجم عن البيئة، وعن تأثيرات الاختلاطات، وأماكن الحياة، والبيئة المحيطة، والتي يتم تعدادها لأول مرة: أشكال الحجر، ودرجات الحرارة، والأثاث، مع قيودها المحتملة، وآثار الإرهاق المحددة المرتبطة بها؛ والمكان، على الخصوص، الذي خضع لمزيد من الاستقصاء، إلى درجة إثارة شعور بعدم الارتياح والاختناق لدى الزائر-المراقب:

علينا أن ننزل في تلك الممرات حيث الهواء رطب وبارد كما هو الحال في القبو، وأن نشعر بأقدامنا تنزلق على الأرض القذرة خائفين من السقوط في الوحل، حتى نكوّن فكرة عن الشعور المؤلم الذي يمر به المرء عند دخول بيوت هؤلاء الشغالين البائسين[975].

يسهب أوجين بوري، الذي قام بالتحقيق في إنجلترا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، في الحديث عن حجم الغرف، وحالة الأرضية، ووجود أو عدم وجود الخزائن والطاولات، ووجود أو عدم وجود سرير، مشددا، في منطقة بيثنال غرين، في لندن، على غرفة يسكنها «عشرة أشخاص»، ولا تبلغ «عشرة أقدام طولا

(973) Louis-René Villermé, Tableau de l'état physique et moral des ouvriers employés dans les manufactures de coton, de laine et de soie, op. cit., t. II, p. 222.
(974) Eugène Buret, De la misère des classes laborieuses en Angleterre et en France, op. cit., t. II, p. 117
(975) Ange Guépin et Eugène Bonamy, Nantes au XIXe siècle : statistique topographique, industrielle et morale, faisant suite à l'histoire des progrès de Nantes, Nantes, 1835, p. 485.

وسبعة أقدام علوا»[976]؛ وفي مانشستر، على غرفة يعيش فيها زوجان وثلاثة أطفال، بتجهيز «عار مثل عري أولئك الذين يعيشون فيه»[977]؛ وفي اسكتلندا، على «غرفة النوم التي يسكنها رجلان وزوجتاهما، ولا يوجد لدى أي منهما سرير»[978]. ونجد الملاحظة نفسها عند فيليرمي، بالنسبة إلى شرق فرنسا وشمالها، مع «هذه المساكن البائسة حيث تنام عائلتان في ركن، على قش ملقى على الأرض ومثبت بواسطة لوحين»[979]. وكلها طرائق في التقسيم ظلت غير معروفة حتى الآن. وهذا ما تقوله أيضا، وأحيانًا بشكل أكثر قسوة، الشهادات المباشرة، مثل الروايات الاستثنائية للشغالين خلال ملكية يوليو:

عثرت على شغل في مشروع شق سكة حديد لواباس بأجر ثلاثة فرنكات في اليوم. تناوبنا من الساعة 6 مساءً حتى منتصف الليل ومن 6 صباحًا حتى 11 صباحًا. وتحت هذا النفق، تسربت المياه عبر الصخور واخترقتا حتى العظام ولقد ارتكبت حماقة حين اشتريت قباقيب كبيرة مغطاة أدخلت فيها خُفَّين مبطنين. في المساء، كنت أعود مبللاً إلى سكن خاص بشغيلة التهيئة يقع على بعد كيلومترين من النفق، على هضبة سان-جرست. وأي سكن! غرفة باردة لم تشعل نار التدفئة فيها على الإطلاق! وكانت مؤثثة باثني عشر سريرا، كل واحد منها يتكون من فراش من القش وملاءات من الكتان تغسل مرتين فقط في السنة. كان لا مناص لي من الاستلقاء هكذا، مبللا بالكامل، على هذا السرير الحقير ذي الرائحة الكريهة، وبجانبي رفيق سرير أيضا[980].

Eugène Buret, De la misère des classes laborieuses en Angleterre et en France, op. . (976) p. 239. cit.,

Ibid., p. 243., (977)

Ibid., p. 248., (978)

Louis-René Villermé, Tableau de l'état physique et moral des ouvriers employés (979) manufactures de coton, de laine et de soie, op. cit., t. I, p. 27. dans les

Norbert Truquin, Mémoires et aventures d'un prolétaire à travers la Révolution · (980) la République argentine et le Paraguay, Paris, Maspero, 1977 (1re éd.), p. 128-129. l'Algérie,

وعلاوة على الشغل، هناك أسباب أخرى لإرهاق الشغالين، مثل قلة النوم، ومواجهة البرد، وعباب الملابس، والرحلات التي تتم القيام بها، والموازنة المتدنية، والتي ذكرت بدقة متزايدة خلال السنوات 1830-1840. وجميعها مؤشرات مادية هنا، ولكنها أكثر عدد من ذي قبل. مثل «أرقام» لامايو، التي لا تترك لها نفقاتها التي لا يمكن تجنبها من «خبز وشموع وبطاطس وبقول» أكثر من 91 سنتيما في الأسبوع لأجل «السكن، والملبس، والتدفئة»[981]. أو «أرقام» شغالي نانت، في دراسة استقصائية أجريت عام 1835، والتي لا تترك نفقاتهم السنوية من أجل الخبز والإنارة والوقود والإيجار سوى «حياة مروعة [...] و46 فرنكًا لأجل شراء الملح والزبدة والملفوف والبطاطس»[982].

من تعب إلى آخر، ومن عجز إلى آخر، تتشكل رؤية في خطاب المراقبين نفسه، رؤية البلى الذي لا تعوضه الراحة أو تجَدُّدُ القُوى. وتستقر الأعراض بمرور الوقت، مما يؤثر على المقاومة والصحة. إنها تتحول إلى «سقام»[983]، وهو تهديد تراكمي يؤثر على القوى البدنية، ويصيب المجتمع، و«يفسد» الأحفاد، ويتلف الأجيال. وهي بالفعل ملاحظة موروتون إيدن في إنجلترا خلال نهاية القرن الثامن عشر: «أعزو ظهور طبقة جديدة من الناس، يشار إليهم من الآن بالفقراء في الهيئة التشريحية، إلى مجيء المانفكتورات، وإلى التحرر الذي نتج عنه»[984]. إن الحد هو حد الكفاف: الصيانة المستحيلة للإمكانات البدنية، وخسارتها المحتومة. ويلقي إحالة على الطاقة مرة أخرى، تلك المتعلقة بجسد يؤثر عدم توازنه على

(981) Eugène Sue, Le Juif errant, op. cit., p. 119..

(982) Ange Guépin et Eugène Bonamy, Nantes au XIXe siècle, op. cit., p. 489..

(983) لفظ استعمله على الخصوص أوجين شنيدر دوتان.

Eugène Schneider d'Autun dans son Rapport présenté au nom de la commission chargée d'examiner la loi du 22 mars 1841 sur le travail des enfants dans les manufactures. Paris. 1846, p. 15.

(984) .Morton Eden, État des pauvres, ou Histoire des classes travaillantes de la société en Angleterre (1798).

انظر:

France. op. cit., p. 48. Eugène Buret, De la misère des classes laborieuses en Angleterre et en

«المدخلات» و«المخرجات»، وهو الجسد الذي لا يملك القدرة على تغذية محركه، فيكون مآله من ثم هو الانحطاط الذي لا مناص منه.

منطق «الفائض-القيمة»

يُوَلِّد، حتما، هذا الحرمان ذي النمط المجهول معارضة وانتقادات جديدة. ويفصل الفقر التعريفات العامة وأشكال السخط والمواجهات. وتشجع الوضعية المشتركة بين الأكثر فقرا على الاحتجاج ومعارضة من لدن الملاك (الأثرياء). وهو ما يكشفه هدوء ميمريل، النائب الفرنسي في منتصف القرن التاسع عشر قائلا: «إن مصير العمال ليس سيئا: عملهم ليس مفرطا لأنه لا يتجاوز ثلاث عشرة ساعة [...]، والشخص الذي يجب أن يُشْفَقَ عليه هو رب المعمل الذي تكون أرباحه منخفضة»[985]. وهو ما يظهر، ثورة المارشال بيجو، بعد الأحداث العنيفة لعام 1848، في رسالة إلى تيير في 7 أبريل 1849: «يا لها من وحوش شرسة! كيف يسمح الله للأمهات بإنجاب مثل هؤلاء! آه هؤلاء هم الأعداء الحقيقيون وليس الروس والنمساويون»[986].

تزداد المواجهة شدة، وأصبحت صراع «طبقات»، الشيء الذي ضاعف من التأويلات والنظريات؛ حيث تتناوب المقاومة والانتقام. وسيتشكل فكر اشتراكي من باكونين إلى إنجلز، ومن برودون إلى بلانكي، وهو الفكر الذي من المفترض فيه أن يفضح الفقر المدقع للبروليتاريين. ويعرض كارل ماركس قراءة له أكثر قلقا، وكذلك أكثر شمولا، منذ منتصف القرن، والتي سيتم نشرها أحيانا حتى الكاريكاتير، حيث تكون الإحالة إلى التعب أكثر حضورا مما يبدو. والسوق، حسب قوله، هو الذي يوجد في صميم القضية. التعاقد بين رجل الأعمال

(985).Pierre-Auguste-Rémi Mimerel, industriel et député, cité par Michel Beaud, Histoire du capitalisme, op. cit., p. 155.
(986).Thomas-Robert Bugeaud cité par Michel Beaud, Ibid., p. 156.

والعامل، بعده فاعل «خاضع»، فلا يبيع «عمله» فقط، بل يبيع «قوة عمله[987]»، يعرض قهره باعتباره هو الفائدة المتوقعة من «مشترٍ» (قوة العمل). فلا ربح، على سبيل المثال، ولا يوجد منتج حقيقي، إذ كانت قيمة هذه القوة يجب أن تتوافق مع «تكاليف الحفاظ على العامل وعائلته[988]» فقط سيكون «الرأسمالي» تقريباً هو «الخاسر» في هذا، لأنه لا يخلق أية قيمة سوى «الحفاظ» على «التابع له». إنه بحاجة للحصول على المزيد وتحقيق الربح وزعزعة هذه القوة، والفوز بميزة من هذا السوق الذي يهيمن عليه. وهناك نتيجة ضرورية: إجبار العامل على «إنتاج أكثر من قيمة قوة العمل الخاصة به[989]»؛ أن يتجاوز كفافه لإطالة، بعبارة أخرى، العمل أو تكثيفه، من أجل السماح بوجود «فائض-القيمة[990]». فليس لرأس المال «سوى ميل طبيعي فقط، ودافع وحيد لامتصاص [...] أكبر جزء ممكن من العمل الإضافي[991]». وهو ما يؤدي من حيث المبدأ إلى زيادة التعب، واللعب بين ما يمكن تحمله وما لا يطاق، والفاصل لتحقيق و«أكثر من اللازم»؛ الشيء الذي يخلق منطقاً صارماً يمدد يوم العمل:

يتجاوز الرأسمال، في هوسه الأعمى والمفرط، وفي شراهته للعمل الإضافي ليس فقط الحدود الأخلاقية، ولكن أيضاً الحد الفيزيولوجي الأقصى ليوم العمل. ذلك أنه يسلب منك الوقت اللازم لنمو صحة الجسم وتطويرها وصيانتها. إنه يسرق الوقت الذي يجب قضاؤه في التنفس في الهواء الطلق والاستمتاع بأشعة الشمس. إنه يبخل في وقت تناول الوجبات [...]، ويقلل من وقت النوم الذي يهدف إلى تجديد القوة الحيوية وإنعاشها، إلى حد أدنى من ساعات من الغفو

---

(987).71 Karl Marx, Le Capital (1867), in Maximilien Rubel (éd.), Œuvres, Paris, Gallimard, «Bibliothèque de la Pléiade », 1965, t. I, voir « Troisième section La production de la plus-value absolue », « L'usage et l'emploi de la force de travail », p. 727

(988) Michel Beaud, Histoire du capitalisme, op. cit., p. 167

(989) Ibid.

(990) Karl Marx, Le Capital, op. cit., voir p. 737

(991) انظر

Karl Marx, Morceaux choisis, Paris, Gallimard, 1934, p. 309

الخيال؛ النوم الذي بدونه لم يعد البدن المنهك يعمل[992].

وبالتالي فإن التعب المطلوب، والمكثف، هو جزء من العقد، إنه «زائد» في استثمار الجسم. ينضاف إلى ذلك مطلب آخر، «فاصل» إضافي، يؤدي إلى تحليل أصيل للتعب، بمجرد النظر في المصنع وآلته والحركات التي ينسقها الاثنان معا (المصنع وآلاته). وتلك صورة حاسمة أكثر من أي وقت مضى؛ حيث من المفترض أن يعبر الحديد الصناعي البدن، محركا ورشة العمل بأكملها بحركة واحدة، ناشرا انتظاماته الميكانيكية في ردود الفعل المدنية، مكافئا في الآن نفسه بين هياكل الصلب وأعضاء البدن. وهو ما يصنّعُ الحركة إلى حد تشويهها، مهاجما «الفرد في صلب الحياة ذاتها[993]». رؤية جذرية عن وعي؛ حيث يرتبط التعب على الفور بالسياق التقني، وحيث يغدو إكراها غريبا على منطق الأعضاء، وديناميكية «تشل العامل، وتجعل منه شيئا وحشيا عبر تنشيط (الإحساس) بتطور وهمي لبرعة التفاصيل، والتضحية بعالم كامل من الاستعدادات والغرائز المنتجة[994]». فلم يعد العياء ينجم فقط عن الإنفاق، عن الانهاك البدني، ولكن عن طريقة في الوجود، عن ضريبة غامضة يتم فيها جعل العمال غائبين عن أنفسهم، وغير متحسسين للانضباط المطلوب، «مدمجين في آلية ميتة موجودة بشكل مستقل عنهم[995]». أي لا شيء آخر سوى «قوة شيطانية» تؤدي إلى بعض من «الرقص المحموم والمدوخ لأجهزة التشغيل التي لا حصر لها[996]».

هناك، في الأخير، عقد آخر يؤدي إلى إطالة يوم العمل؛ أي اللعب مع استنزاف الآلة نفسها، والالتزام بتكثيف استغلالها خلال الأوقات الأولى من وجودها، من

---

(992).Karl Marx, Le Capital, op. cit., « Troisième section . La production de la plus-value absolue », p. 800.

(993).Karl Marx, Le Capital, op. cit., « Quatrième section La production de la plus-value relative », p. 907.

(994).Ibid., p. 903.

(995).Ibid., p. 955.

(996) Ibid., p. 925-926.

أجل الاستفادة منها بشكل أفضل، في حين أن تآكل الآلة يضعف من قيمتها. مما يجعل «الفترة الأولى من حياتها، هي الفترة الحادة لإطالة العمل[997]». يصر ماركس فجأة على أقصى الأمثلة، «الموت بسبب الإفراط في العمل»: «ماري آن وكلي، البالغة من العمر عشرين عاما، عملت ستا وعشرين ساعة ونصف الساعة دون انقطاع مع ستين فتاة صغيرة أخرى[998]»، أو حدادو ماريليبون، الذين «يموتون في السابعة والثلاثين بدلا من الخمسين عاما[999]» وكل أشكال «الابتزاز الوحشي، التي بالكاد تجاوزتها قسوة الإسبان تجاه الهنود الحمر في أمريكا[1000]».

تشغيل الأطفال، صورة من الذبول

تبقى هناك المفاوضات، والمقاومات، والملاحظات الأكثر حدة من أي وقت مضى، والضغوط المتزايدة لتغيير ذلك. ويبقى هناك، قبل كل شيء، هدف لا يرحم ودوما خاضع للتعديل. ويعد النقاش حول تشغيل الأطفال المثال الرئيس عن ذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مع الإشارات الخاصة التي تضمنها حول التعب «المبكر».

يتعلق الأمر في البداية بالتحول في النظام الصناعي، وتبسيطه للحركات، وتخفيفه للجهد؛ وهي أشياء شجعت على تجنيد الفتيان والفتيات صغارا، حتى قبل إتمام عامهم الخامس، منذ ظهور المصانع. وكانت المبررات قبليا «تافهة»، تقول بمتطلبات المنافسة و«السمات» الخاصة بالجسم الطفولي، ومردوديته المالية المحتملة:

إن عمل الأطفال ضروري في المصانع؛ فمرونة أطرافهم، وسرعة تحركاتهم،

---

(997).Ibid., p. 944.
(998).Ibid., Annexe 1, « La journée de travail », p. 1256, 91
(999).Ibid., p. 1258.
(1000).Ibid., p. 1245.

وصغر حجمهم لا يسمح باستبدالهم بالبالغين في جميع عمليات التصنيع دون ضرر كبير (على التصنيع). إن هذا العمل يوفر الخبز للعائلات، ويحمي الأطفال من الكسل والتشرد، ويلهمهم عادة النظام، ويعلمهم مبكرا أنه يمكن للجميع العيش على ما يكسبه[1001].

لا يعني ذلك أنه تم ابتداع مبدأ مجهول قبل تلك الفترة حول العمل المبكر، الجديد بالأحرى هو إزالته من الأسرة؛ من الفضاء المنزلي وجانبه الحميمي، عبر إنشاء مكان منفصل ووضع تنظيم خاص به، مع حركات وجداول زمنية مرقمة تقريبا. ويعد «اختفاء النسيج المنزلي[1002]» أحد الأسباب التي خلقتها المصانع الأكثر عددا، مثل مصانع الكتان والصوف والقطن، وذلك لفائدة رجال الأعمال الذين يفكرون في خفض تكاليفهم، أو مصلحة الآباء الذين يفكرون في زيادة أرباحهم. يستحضر ميشلي أصل ذلك، بعد بضعة عقود، بطريقة جليدية:

في عنف الحرب الكبرى بين إنجلترا وفرنسا، عندما أخبر المصنعون الإنجليز بيت أن الأجور المرتفعة للعامل تجعلهم غير قادرين على دفع الضريبة، قال (لهم) هذه الكلمة الرهيبة: «خذوا الأطفال»[1003].

ورأى جان دي سيسموندي في ذلك، بعده أحد الأوائل، انحرافا اقتصاديا محتملا. دفع رواتب الأطفال يؤدي إلى انخفاض في رواتب الآباء، من أجل زيادة

(1001).Recueil général des lois et ordonnances, t. 11, année 1841, loi relative au travail des enfants, rapport lu à la Chambre des députés par Augustin-Charles Renouard, député de la Somme, le 25 mai 1840, discussion les 21, 22, 23 24, 26, 28, 29 décembre 1840.

(1002).Patrice Bourdelais, « L'intolérable du travail des enfants, son émergence et son évolution entre compassion et libéralisme, en Grande-Bretagne et en Angleterre », in id. et Didier Fassin (dir.), Les Constructions de l'intolérable, études d'anthropologie et d'histoire sur les frontières de l'espace moral, Paris, La Découverte, 2005. p. 95.

(1003).Jules Michelet, cité par Patrice Bourdelais, « L'intolérable du travail des enfants », op. cit., p. 91

إجمالية في العمل[1004] وهو ما سيؤكده ماركس بجملة قصيرة: «تزيد الآلة، من خلال زيادة المادة البشرية القابلة للاستغلال، في الوقت نفسه درجة الاستغلال[1005]».

تكمن الجدة أيضاً في اعتبار هذا التغيير بمثابة تهديد للأجيال «التلف» التدريجي، والتجفيف البطيء للطاقات. وهي علامات في طور لتفاقم «ملامح شاحبة وضعيفة، وأعراض لنهاية (موت) مبكرة[1006]». وأحلاق في طور الانحدار، وذلك على غرار «ابنة التصنيع» التي تحدث عنها بلزاك: «أرسلت في السابعة إلى مطحنة الغزل [...]، ففقدت صحتها متدهورة في الثانية عشرة، وصارت أمّاً في الثالثة عشرة، ورأت نفسها مرتبطة بكائنات متدهورة بعمق[1007]».

إنه الواقع نفسه الذي، ومنذ ذلك الحين، مع زمنه المبكر رشدته، هو ما أثار المقاومات، مما يمثل عتبة في رؤية أشكال التعب الخاصة. وولد «سخطاً عاماً[1008]» في إنجلترا منذ عام 1802؛ مما تسبب في تصويت على تسعة مشاريع قوانين لصالح «الحماية» قبل عام 1833. وانصب النقد على الثقافة بقدر ما انصب على الصحة العامة أيضاً؛ وهو ما كشف عنه ظهور أدب اجتماعي في القرن التاسع عشر، والتعمق في الإحالة إلى الأسرة؛ الشيء الذي أثار التعاطف مع «الأحزان»

(1004) Jean-Charles-Léonard Simonde de Sismondi, Nouveaux Principes d'économie politique, 1819, t. I, p. 353 : « Depuis que les enfants gagnent une partie de leur vie, le salaire des pères a pu être réduit », conduisant à « une augmentation de travail ».

(1005) Karl Marx, Le Capital, op. cit., « Quatrième section », p. 940.

(1006) Charles d'Haussez, La Grande-Bretagne en mille huit cent trente-trois, Paris, 1834, t. II, p. 92

(1007) Honoré de Balzac, Splendeurs et misères des courtisanes (1838), La Comédie humaine, op. cit., t. 5, p. 807

(1008) انظر.

Suzanne Touren, La Loi de 1841 sur le travail des enfants dans les manufactures, Paris, 1931, thèse, faculté de droit, p. 21

الطفولية[1009]: أحزان فاديت الصغيرة[1010]، وديفيد كوبرفيلد[1011]، وأحزان العمال الشباب الذين يتحملون انتعال «الأحذية المعدنية الكبيرة»[1012]، حتى لا يؤدي التعب إلى ثني ركبهم. انظر كتاب الفرنسيون مصورين أنفسهم، في عام 1840 الذي عرف نفسه، كما رأينا، بأنه «الموسوعة الأخلاقية للقرن التاسع عشر»، وجود تشريع وقائي يقضي بأن يمحو «البربرية»: «نحن نعلم أن قانونا يحيل إلى إلغاء الاتجار البغيض بالأطفال في المصانع قد قدم إلى البرلمان في هذه الدورة الأخيرة»[1013].

لا يعني ذلك غياب معارضة بشكل مطلق لمشروع قانون (مثل هذا)، فقد ساوى تيودور باروا، في هذه الفترة نفسها، في كتاب مذكرات عن الحالة الجسدية والمعنوية للشغالين العاملين في مصانع الغزل وبخاصة حالة الأطفال أدنى مساءلة لمثل هذه الحقائق بـ «طغيان مرعج قليلا»[1014]. أما وزير التجارة بيير لوران بارث إرليمي دي سان كريك، فقد مهى سنة 1828 بين أي اقتراح وقائي ولو كان بسيطا مع سوء فهم اجتماعي: أي نسيان الحالات الاستعجالية «الإنتاجية»[1015].

التحدي في نظر مؤيدي القانون، وعلى عكس ذلك، هو تحديد حالات الانتهاك

(1009). انظر بالخصوص.

Françoise Mayeur, « De la révolution à l'école républicaine », op. cit., p. 105.

(1010). انظر.

George Sand, La Petite Fadette, Paris, 1849.

(1011).Charles Dickens, The Personal History, Adventures, Experience and Observation of David Copperfield the Younger, Londres, 1849-1850, 3 vol.

(1012). Suzanne Touren, La Loi de 1841 sur le travail des enfants dans les manufactures, op. cit., p. 14.

(1013).Arnould Frémy, « L'enfant de fabrique », Les Français peints par eux-mêmes, op. cit., t. 10, p. 258.

(1014). انظر:

Suzanne Touren, La Loi de 1841 sur le travail des enfants dans les manufactures, op. cit., p. 51.

(1015). انظر:

Francis Hordern, La Loi de 1841 sur le travail des enfants, point de départ de la législation sociale, Institut régional du travail, université Aix-Marseille-II, UER, IRT, 1980.

بغاية إدانتها بشكل أفضل. وهو ما حققته الأبحاث الاستطلاعية الإنجليزية بوصفها الأولى التي سألت أرباب المصانع ورؤساء العمال أو الأطفال؛ حيث تتابع الأسئلة والأجوبة بنصيبها من الدقة والجدة:

– هل تشعر بالتعب بعد أعمالك؟

– متعب حتى الموت، وخاصة خلال أشهر الشتاء [ ] دون معرفة ما أفعله، عندما أصل إلى المنزل، أرمي نفسي على الأرض. منهك جدا [...]، أشعر بالإرهاق وأعاني كثيرا من الاضطرار إلى البقاء واقفا لفترة طويلة [...]. أحيانا لا أعرف كيف أقاوم، وأشعر بالتعب في الصباح كما لو أنني لم أنم[1016].

وتستحضر أماكن من الجسم في مثل هذه الشهادات: الأقدام المتورمة «التي تجعلك تبكي»، والألم في الخاصرة «الذي لا يفارقني»، والصداع «الذي يمنعك من إغلاق عينيك ليلا»[1017]، و«معاناة مفاصل العرقوب والظهر والكلى»[1018]، التي تحد من الحركة؛ وهي كل الإحالات التي تؤكد زيادة الانتباه إلى «مواقع» بدنية، وإلى أمراضها، وإلى المضايقات التي تمليها. بل وحتى الساعات تم مساءلتها ووصفها من المشرفين أنفسهم: «لم أعرف أبدا طفلا واحدا يعمل في المصنع ولا يشتكي من وقت العمل الطويل جدا[1019]». ومنه جاءت الشكاوى التي تم الاستشهاد بها بشكل منظم: «إنها طويلة جدا ولا يمكننا تحملها»[1020]. ومن هنا أيضا خطاب فيليرمي الذي كرس خصيصا للموضوع نفسه، في جلسة علنية للأكاديميات الخمس في 2 مايو 1837:

من أجل جعلك تشعر كم هو طويل جدا يوم عمل الطفل في ورش العمل،

(1016) Factory Inquiry, First Report, 1840, cité par Édouard Ducpetiaux, De la condition physique et morale des jeunes ouvriers et comment l'améliorer, Bruxelles, 1843, p. 56.
(1017) Ibid., p. 62.
(1018) Ibid., p. 61
(1019) Ibid., p. 59.
(1020) Ibid.

فهل لي أن أذكّر هنا أن العرف والقوانين تحدد لجميع الأعمال، حتى بالنسبة لأولئك المدانين بالأعمال الشاقة، يوم العمل في اثنتي عشرة ساعة (فقط)، وأن أذكر أن وقت الوجبات انخفض إلى عشرة، بينما بالنسبة للعمال الذين يهموننا، فمدة العمل اليومي هي من خمس عشرة إلى خمس عشرة ساعة ونصف، والتي يوجد فيها ثلاث عشرة ساعة من العمل الفعلي[1021]

وصولاً إلى العمال أنفسهم الذين سنة 1830 صار بإمكانهم أن يشكو من «فصل الأطفال (عن آبائهم)، وتفكيك الأسر، واختفاء كل تلك الروابط التي تجمع بين قلوب الناس [...][1022]».

وسيتم اتخاذ قرارات أساسية أخرى في بداية الثلث الثاني من هذا القرن بصدد العمر ومدة العمل؛ وكل منها يكشف عن الجِدّة الشاملة بقدر ما يكشف أيضاً عن بعده الواضح عن حساسية اليوم. ففي 29 أغسطس 1833 سيحدد القانون الإنجليزي في التاسعة الحد الأدنى لسن الولوج إلى «مصانع القطن أو الصوف أو الكتان أو القطن أو القنب أو الحرير، والتي تستخدم محركات بخارية أو عجلات هيدروليكية»، وفي ثماني ساعات أو على الأكثر تسع ساعات في اليوم عمل الأطفال دون سن الحادية عشرة[1023]. وفي 22 مارس 1841، حدد القانون الفرنسي الحد الأدنى لسن الولج إلى «المعامل أو المصانع أو الأوراش» في ثماني سنوات، والحد الأقصى لوقت العمل في اليوم بثماني ساعات للأطفال دون سن الثانية عشرة[1024]. وفي كلتا الحالتين، تتم المطالبة بتعليم إلزامي. وفي كلتا

(1021).Louis-René Villermé, « Sur la durée trop longue du travail des enfants dans beaucoup de manufactures », Annales d'hygiène et de médecine légale, 1837, t. XVIII, discours prononcé en séance publique des cinq académies de l'Institut de France, 2 mai 1837, p. 168.

(1022).Peter Gaskell, The Manufacturing Population of England, Londres, 1833, p. 7.

(1023). انظر:

« Nouvelle loi rendue par le Parlement britannique, le 29 août 1833, pour régler le travail des enfants [...] ». Bulletin de la société industrielle de Mulhouse, t. VIII, 1835, p. 53.

(1024). انظر:

الحالتين، يُطْلَبُ إجراء فحص طبي.

تلك كانت تشريعات رائدة مهما قيل: بوصفها «المثال الأول على تدخل الدولة في المسائل الاجتماعية»[1025]، أو حتى «شهادة ميلاد بقانون العمل»[1026]. فقد دشن القانون الاعتراض على قرار الآباء الذين لا يبحثون سوى عن مكسب إضافي، وكذلك قرار رجال الأعمال الذين يبحثون عن توفير أكثر. إنه قانون اخترق فضاء الأسرة؛ أي الفضاء الخاص، واستهدف التعب ومدة المهام والعمر المعني، رغم أنه ظل «قانونا انتقاليا» أو حتى «محدودا»، وفقا لمقاييس قادمة ستركز على المصانع مع تجاهل فضاءات أخرى من الإرهاق. مثل تلك الخاصة بالمنجم، والتي ذكرها تقرير إنجليزي سنة 1840 وتناولها فيليرمي سنة 1843؛ حيث تم تشغيل العديد من الأطفال في سن الرابعة، وتحميل الأصغر منهم مسؤولية أثناء مرور العربات عبر ممرات المنجم، وفتح أو إغلاق أبواب التهوية المصممة لمنع «التيارات الهوائية الخطيرة» وعواقبها المحتملة على «الحوادث الرهيبة»[1027]. فهؤلاء الصيادون يحتلون، وفقا للكلمة الإنجليزية، «نوعا من العش؛ حيث يبقى الطفل بمفرده وفي كثير من الأحيان في الظلام»[1028]. ويواجه آخرون، أكبر سنا، حالات من الجهد المطول، وصفها أصحاب التقارير بدقة:

ينحني هؤلاء تحت وطأة الأحمال الماثلة التي يحملونها على ظهورهم [...]. هم عراة جزئيا أو حتى عراة تماما، ويتم تسخيرهم، مثل الحيوانات التي تجر العربات لجر عربات ثقيلة مثبتة على عجلات صغيرة ومليئة بالفحم، يسحبونها في كهوف المنجم التي غالبا ما تكون منخفضة جدا؛ بحيث لا يمكنهم الوقوف فيها، وعليهم من أجل السير قدما، استخدام اليدين والقدمين، أو، كما يقول التعبير

Francis Hordern, La Loi de 1841 sur le travail des enfants, op. cit., p. 16.

(1025).Ibid., p. 1.

(1026).Ibid.

(1027).Louis-René Villermé, Enquête sur le travail et la condition des enfants et des adolescents dans les mines de la Grande-Bretagne, Paris, 1843, p. 5.

(1028) Ibid.

الحيوي والمبلل في الآن نفسه، المشي على أربع[1029].

تلك قوانين انتقالية، محددة زمنا، وهو ما يجب أن يقال مرة أخرى، لنصوص في سنوات 1830-1840، في إنجلترا وفرنسا، ستتم مراجعتها لأنها ستظهر قريبا جزئية. ومع ذلك فقد وضعت هذه النصوص في الواجهة نقاشا أصبح حساسا في منتصف القرن؛ وهو نقاش أشكال تعب العمل، وساعات العمل ومدده.

«العرقلة» الدائمة للساعات

أصبحت الساعات، على نطاق أوسع، صراعا ومريا، مع إثبات المجتمع الصناعي لنفسه، وعلامة على وعد بالتخفيف المحتمل من التعب والمهام، بل وحتى تحرير محتمل من متطلبات أرباب المصانع، وتجربة هائلة حيث يمكن أن يهيمن تحول في الحساسية، على الرغم من أن التقليد سيظل، ولفترة طويلة، دون تغيير دائم.

وستتم الموافقة على عدد، هو عشر ساعات في إنجلترا، بواسطة قانون عام 1847، «بعد ثلاثة عقود من تمرد شديد، وفي مواجهة معارضة مهمة[1030]». وهي مدة «مدمجة» ووحدة «كاملة»، يرى ماركس فيها إثباتا وفقه، و«لأول مرة [...]، وفي العلن، سيتراجع الاقتصاد السياسي للبرجوازية أمام الاقتصاد السياسي للطبقة العاملة[1031]». وعلامة على نفس القدر من الأهمية؛ حيث تقع مدة العمل تحت سلطة الدولة وليس تحت سلطة رجال الأعمال، الشيء الذي جعل من القوة العمومية للمجتمعات «الحديثة» هيئة مسؤولة عن صحة المواطنين.

أما في فرنسا فكان التقدم أبطأ، إلا أنه يوضح قيمة العمل التدريجي على الوعي. تم اقتراح الساعات العشر لأول مرة في مذكرة ضباط المنلمسة، في فرنسا سنة

(1029).Ibid., p. 3.
(1030).Edward P. Thompson, La Formation de la classe ouvrière anglaise, op. cit., p. 395.
(1031).Karl Marx, Selected Works, 1942, t. II, p. 439.

1837: «تم تحديد يوم للعمل ويوم لركوب الحصان، من خلال التجربة في عشر ساعات عمل»[1032]، وهو ما تم فرضه حتى عندما أصدر المفوض المحلي الشاب للحكومة المؤقتة، إميل أوليفيه، في 6 أبريل 1848 قرارا بيوم العمل المحدد في عشر ساعات في برش دو رون[1033]. وسبقت هذا القرار حوادث دموية في روان، في مارس، قبل أن يخفض مفوض الحكومة المؤقتة، فريدريك ديشان، ساعات العمل في المصانع[1034]. وستليها حوادث أخرى في ماي ويونيو في مرسيليا عندما تم تهديد مرسوم إميل أوليفيه بالإلغاء، فتم نصب الحواجز، وتم اقتياد مائة وخمسين عاملا إلى المحكمة، وأدين القادة المتزعمون[1035]، وساد «إحساس كبير بالقلق[1036]» كما هو الحال في باريس. ومع ذلك، لا يجب إغفال «توقف» مدة عشر ساعات على القرارات الأوربية لثورة 1848، والتي طالب بها مائتا «مندوب عمال»، والتي أكدها إعلان لويس بلان، عضو الحكومة المؤقتة: «لا يدمر العمل اليدوي الذي تطول مدته للغاية صحة العامل فحسب، بل يمنعه من تنمية ذكائه أيضا، ويقوض كرامة الإنسان[1037]».

من المستحيل، رغم ذلك، الالتزام بمثل هذه الاتفاقات في مناخ من العداء المستمر بين الرؤساء والعمال، في مناخ من بعض القلق الإنتاجي، أو في مناخ حيث ينعدم الإحساس بأشكال التعب التي يسببها العمل الشاق. والملاحظة الوحيدة هي أن «مسألة العمال صارت تحتل اليوم العالم بأكمله[1038]»، هذا دون أن يوجد

(1032).Edward P. Thompson, La Formation de la classe ouvrière anglaise, op.cit., p. 41
(1033). انظر:
Georges Duveau, La Vie ouvrière en France sous le Second Empire, Paris, Gallimard, 1946, p. 93.
(1034).Ibid., p. 80.
(1035).Ibid., p. 93.
(1036).Ibid

(1037). انظر:
Nicole Samuel, Étapes de la conquête du temps libre en France, 1780-1980, Paris, ADRAC, 1981, p. 11
(1038).La Réforme sociale, 1889, t. 17, p. 81

توافق على الساعات. والشيء الوحيد الواضح هو أن هناك جدلا لم ينته عبر العُقود. وفي 9 سبتمبر 1848، ألغت الجمعية التأسيسية الباريسية المراسيم السابقة، بأغلبية 617 صوتا مقابل 57، وحددت الحد الأقصى ليوم العمل في المصانع باثنتي عشرة ساعة، دون تطبيقه على أوراش العمل؛ حيث يتواصل العمل لأكثر من اثنتي عشرة ساعة في اليوم. وهناك أمر أكثر أهمية؛ وهو أن المرسوم الصادر في 17 مايو 1851 يزيل أي ضمان عن مدة العمل، الشيء الذي سيتسبب في عواقب متكررة؛ حيث إن العمال «المثقلين بأيام عمل طويلة جدا، والذين يجرون رئيس العمال هذا أو ذاك إلى العدالة، تفاجأوا بأنه ليست لديهم أية حماية قانونية[1039]». وظلت لبضعة عقود أخرى مدد يوم العمل دون تغيير.

لن يحقق «التخفيف والتخفيض [من مدة العمل]» إلا في نهاية القرن؛ حيث سيُسمح هنا أو هناك، وفقا لترتيبات [وظروف] محلية، بمدد تتراوح بين ثماني وعشر ساعات، على الرغم من أن القانون بصددها لم يصدر بعد.

Georges Duveau, La Vie ouvrière en France sous le Second Empire, op. cit., p. 237.(1039)

الفصل الثاني والعشرون

عالم المردودية

يفسر كل من التوتر الصناعي الذي عَبَرَ القرن التاسع عشر، وهي، الآلات والمنتجات التوتر حول عدد ساعات العمل؛ حيث تزايدت توقعات المردودية، مثلما تارب مجاة ردود أفعال العمال؛ الشيء الذي فاقم من وجود نظام قاس من الصدام.

أذاع القاموس الموسوعي للصناعة، في عام 1887، كلمة أعطتها الأنشطة الصناعية معناها التام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ ألا وهي «المردودية»، الكلمة التي تمكّن هذا المعجم بتعريفها بدقة، بكونها «العلاقة بين نسبة كمية العمل المفيد الذي تقوم به الآلة أو أي جهاز لاقط، مع كمية الطاقة التي يستعملها لإنجاز هذا العمل[1040]»؛ [مما يدل على] الانتصار المتزايد للحساب بغاية الظفر بانتصار متزايد على مستوى النتائج ويحتل المفهوم قلب المشروع الموسوعي لجوليان تورغان الذي استكشف، بين عامي 1863 و1884، جميع «المصانع الكبيرة»؛ حيث ركز على الفعاليات، وعلى «انخفاض التكاليف»، وعلى التطور؛ وعلى الإصرار، من بين أمور أخرى، لأجل تعرير مؤسسات دولفوس-ميج، التي تمكنت من تخفيض استهلاك البخار[1041] لإنتاج أفضل؛ أو لتعرير شركة حافلات باريس، التي تمكنت [بدورها] من تقليص الاستثمار في المركبات لزيادة الفعالية؛ حيث «أصبحت سياراتها أخف وزناً، حتى

(1040). Eugène-Oscar Lami (dir.), Dictionnaire encyclopédique et biographique de l'industrie et des arts industriels, op. cit., art. « Rendement » (1887).

(1041). « Établissements Dollfus-Mieg et Cie », Julien Turgan, Les Grandes Usines de France, Paris, 1860, t. IV, p. 8.

وهي تضم المزيد من أماكن جلوس الركاب، ويمكن جرها بحصانين فقط؛ كما تم تمديد الخطوط أيضا[1042].

لقد قرَّض «الناظر»، عموما، خارج الرغبة في البحث عن التوازن بين المدخلات والمخرجات، تَقَشُّهُ، وفرض التحفيز (الإنعاش) اللاعدود البحث عن «الأفضل»؛ وهو ما أثار ليون بوانكاري في واحدة من رسائله الأولى عن «النظافة الصحية الصناعية»؛ حيث يقول: «تتطلب أشكال تقدم المجتمع الصناعي الإنتاج السريع، والكثير وبتكلفة منخفضة[1043]»؛ الشيء الذي فرض، بالإضافة إلى أشكال مقاومة العمال، مضاعفة البحوث [العلمية] عن التعب والتحكم فيه؛ بحيث صار كلاهما [أي التعب وكيفية التحكم فيه]، بشكل مفارق، موضوعين أساسيين. مثلما لا يزال دور العضلة مهما، فالعديد من العربات التي تعبر جسور نهر السين في نهاية القرن التاسع عشر مازالت تدفع بقوة السواعد، وكانت شحنات الأجر لبناء المنازل الباريسية، في العصر نفسه، مقسمة إلى 40 كلغ لمن كان «قوي البنية»، ومن 27 كلغ إلى 31 كلغ للمنتمين «للفئة الثانية»[1044]. وتتطلب التقنية الفيزيائية الصلابة وتفترض انتائج جهدا. وهكذا يبقى البدن (إذن)، في قلب الصناعة، آلة أساسية.

المنطق الصناعي

يمثل عمال المناجم في رواية جرمينال «إراطا» حتميا، مثل عملية قص الصخور في منجم جان بارت؛ اي أن يُقَصَّ أكبر قدر ممكن من الفحم في أقصر وقت ممكن، ليكون الأجر تابعا للكمية (المستخرجة من الفحم):

(1042) « Les omnibus de Paris », ibid., t. II, p. 51

(1043).Léon Poincaré, Traité d'hygiène industrielle, à l'usage des médecins et des membres des conseils d'hygiène, Paris, 1886, p. 240-241

(1044).Jules Amar, Le Moteur humain et les bases scientifiques du travail professionnel, op. cit., p. 575.

لم تكن لديهم سوى فكرة واحدة هي ملء أكبر عدد ممكن من ناقلات الفحم. وقد اختفى كل شيء في هذا الهوس بالربح المتنافس عليه بشدة. لقد توقفوا عن الإحساس بالماء الذي ينساب ويورم أطرافهم، وعن الإحساس بتشنجات وضعيات الجسم القسرية، وعن الإحساس بالظلام الخانق؛ حيث امتقع لونهم مثلهم مثل النباتات الذابلة [النابتة في كهف/ المحروسة في صناديق][1045].

يصور إميل زولا مسألة أساسية، وهي التنقيب دائمًا عن المزيد، عن «مردودية أكبر»، وعن تجاهل الألم لانتزاع راتب بائس؛ وستقع مآسي منجم جان-بارت بسبب تجاهل أهمية الدعامات الخشبية في الأنفاق، من أجل حفر أكثر [لاستخراج الفحم]: مثل الصراع مع الشركة لضمان الأرباح حينما أسس النظام الجديد لزمن، تقريبًا غير مدفوع الأجر، للقيام بأعمال تدعيم جدران الأنفاق بالأخشاب، والإضرابات العنيفة، وتدخل قوات الشرطة، واستئناف العمل، والانهيارات المحتمة للحفر المنجمية، والعذابات المتجددة.

يمكن أن يقود «الهيجان» المنتج هنا إلى مآس وبالقدر نفسه إلى إنهاكات مهملة، مثلما يمكنه أن يقود إلى معاناة المصنع نفسه: يشعر هينيبو، مدير جان-بارت، بـ «اليأس» أمام الصعوبات التي يواجه؛ لأنه «في كل يوم بلا قيمة، مهدد ومضطر إلى إبداع عمل مبهر، إن كان يريد الحصول على عطف المسيرين[1046]». أو دونلان، المنافس الذي أصبح أكثر ضعفا بسبب إضراب [عمال] منجمه والذي «كان يأمل أن يموت فيه أولاً، وقد احتقن الدم في وجهه، واشتد خناقه بسبب سكتة دماغية[1047]». يركز المصنعون، زيادة على ذلك، أساسا على تعبهم، [كـ] «مجهود» يتجدد دائمًا، والذي يعتبرونه أكثر مشقة، حتى وإن كان مختلفا عن مجهود

(1045).Émile Zola, Germinal (1884), in Armand Lanoux et Henri Mitterand (éd.), Les Rougon-Macquart (1872-1893), Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1964, t. III, p. 1174.
(1046).Ibid., p. 1428.
(1047).Ibid., p. 1174.

العمال؛ «فأن تكون ربًّا لمصنع صغير أو كبير، هو أن تكون محكومًا عليك بالعمل المتواصل الذي، من عدة جوانب، يكون شاقًا للغاية أكثر من يوم من العمل اليدوي، الذي بات يلتمسه كثير من الناس اليوم»[1048]. وهو الإكراه الذي أُثير، وإن كان في ذلك بعض التضخيم، في كل شركة كبرى، بما في ذلك قناة السويس، التي انتهت في عام 1869 بعد جمع استثنائي للتبرعات ودبلوماسية أبلى فيها صاحب فكرة القناة نفسه. ولا يمكن أن يكون للإنهاك عند «المنعش الاقتصادي»، المعنى الاجتماعي أو الشخصي نفسه الذي يكون عند العامل، حتى وإن حملا الإنهاكين على معنى «الإفراط»:

يعلم الجميع ويتذكر المجهودات الرهيبة التي كان على السيد فرديناند دي ليسبس إثباتها عندما تصور مشروع ثقب برزخ السويس. ونحن نعلم أيضًا كيف تمكن بعد مجهودات خارقة، من تحقيق هذا العمل الضخم[1049].

إن رواية زولا نفسها قد استلهمت من صراعات العصر: من أنباء أحداث متسلسلة من العنف حول مدة العمل ونسبة الأجور[1050]. وقضية مولماوس هي مثال واحد من بين أمثلة أخرى، بضعة أيام قبل حرب عام 1870؛ حيث هاجمت عصابة مكونة من مائتين إلى ثلاثمائة مضرب عن العمل وادي ماسيفو، مطالبة بزيادة في الراتب وتخفيض عدد ساعات العمل، مجبرين بالقوة وقف جميع الأنشطة. وسيتم إرسال حملتين من المشاة من بلفور لاستعادة النظام، في حين أن إعلان الحرب في المساء نفسه «نزل على المضربين كحمام ماء بارد، سيتفرقون وسيحمل جنودنا حقائبهم على ظهورهم وهم ذاهبون لكي يُقتلون في سولتز-سر-لافوري[1051]». وتشكل حالتا أنزان أو ديكازفيل بدورهما مثالين؛ ومثال

(1048).« Le travail national et la réglementation », La Réforme sociale, 1890, t. 19, p. 754.

(1049).Charles Virmaître, Paris-boursicotier, Paris, 1888, p. 97

(1050).Voir Michelle Perrot, Les Ouvriers en grève. France, 1871-1890, Paris, Mouton, 1973, 2 vol., t. I, p. 260 sqq.

(1051).Cf., Donat Béchamp, « Un groupe d'usines de la vallée de Masevaux (Alsace-Lorraine) », La Réforme sociale, 1883, t. 6, p. 114.

ديكازفيل على وجه الخصوص، في يناير 1886؛ حيث كان ثمة مطلبان مزدوجان من لدن عمال «باطن الأرض»: الأول هو المطالبة براتب محدد في 5 فرنكات يوميا لعمال المنجم، وعمال الدعامات الخشبية والحفارين، و3.75 فرنكا للعمال اليدويين، أما الثاني فهو المطالبة بمدة مخفضة إلى ثمان ساعات في اليوم، «بسبب سوء هواء ونيران المنجم»؛ الشيء الذي أثار إضرابًا تخللته اعتداءات: فأمام الرفض المتكرر للسلطات، هاجم ألفا مضرب مقرات العمل، ورمو نائب المدير جول واترين من النافذة؛ حيث سيجهز عليه الحشد فيما بعد بمجرد ما أن سقط على الأرض[1052]. ويمثل تعليق مجلة الاشتراكي صورة لهذا الحماس البارد للتمرد: «إنه النصر، لقد تدفق الدم، وخلافا لجميع الحوادث للمنجمية السابقة، لم يتدفق سوى دم أرباب العمل؛ إنه الدم الرأسمالي[1053]».

إن منطق المردودية منطق عنيد منطق شاعت قوته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مازجا بين الحمى الإنتاجية والتمردات والإنهاكات.

المنطق الفزيولوجي

لا يمكن، رغم ذلك، تجاهل المجهود (في هذا العصر) إلى الأبحاث والتقويات التي تنامت كثيرا؛ فقد تزايد، في مقابل التقدم البارد لـ «الفائض»، علاوة على رحود فعل العمال، بجهودُ التحكم والقياس الموضوعي.

لقد تم اختراع أدوات لعد، وتنسقت آليات تجريبية، وتضاعفت النتائج العددية، نقلت معها التعب إلى منطقة جديدة من العلم التطبيقي، بما هو مجال من البحث الشاسع، انشغل استثناء هنا بما هو عضوي (فيزيولوجي)، بغاية تعزيز التحقق التجريبي وبلوغ نتائج دقيقة، معبأ في ذلك أطباء وعلماء الميكانيكا [مخترعو الآلات الميكانيكية]. وأصبح التعب موضوعا في حد ذاته، ومجالا

(1052).Voir Émile Levasseur, Questions ouvrières et industrielles en France sous la Troisième République, Paris, Arthur Rousseau, 1907, p. 650-651

(1053).Cité par Émile Levasseur, ibid., p. 651.

للتجارب والملاحظات، وفي ذلك انزياح مهم حيث تتم دراسة وجوده ومظاهره أساسا بواسطة أدوات للمختبر العلمي؛ مما يثبت الاهتمام المتزايد به، ومما يؤكد أهمية مكانته الثقافية والاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر. فلم يكن التعب فقط نتيجة للدراسة الاقتصادات الحركية، التي اخترعتها الميكانيكا الصناعية، أو نتيجة لدراسة اقتصادات الطاقة (الأحفورية)، مثلما تمكن علماء الطاقة من تحديدها رقميا، ولكن نتيجة للمؤشر ت المباشرة للتعب وطريقة دراستها كموضوع؛ (أي)، وبمعنى آخر، إبداع، ما أسماه أنسون رابيناك، بـ «علم التعب[1054]».

تعد آلة «الإيرغوغراف»، التي اخترعها أنجيلو موسو، أفضل مثال على ذلك إبان تسعينيات القرن التاسع عشر. وهي آلة جيدة للتقويم، وإن كانت امتدادا للدراسات التي أجريت في القرن السابق على عضلة ضفدع منفصلة ومستثارة، لتقدير لحظات أشكال المقاومة وردات الفعل. لقد كانت الآلة معقدة جدا، وأقرب إلى الحياة، وأكثر ارتباطًا بالسلوك البشري، حتى ولو تعلق الأمر بعضلة واحدة، هي عضلة الإصبع، مثل عضلة ثني الأصبع الوسطى. فائدة الآلة هي أن تسجل على أسطوانة كربونية، وفقًا لمونتاج مدروس للغاية، نشاط هذه العضلة نفسها عندما ترفع وزنا ما بانتظام؛ حيث تعبر المنحنيات التي نحصل عليها عن القُوَى. إنها تعبر أيضًا عن صيرورة هذه القوى، وعن «مراحل» [يقطعها تنفيذ] المهمة، ومكافئتها: [أي] «التعب التدريجي» مع الانعطافات المتتالية للخطوط، و«التعب التام» الذي به تختفي تماما هذه الخطوط؛ «فحينما يكون المرء متعبًا، لن ينجح أبدا، رغم كل مجهوداته، في رفع الوزن[1055]». لقد كانت التجربة معيارية، وقد حددت رقميا، لأول مرة، التعب وفقاً لرسم بياني متدرجاته.

(1054) Anson Rabinbach, Le Moteur humain : l'énergie, la fatigue et les origines de la modernité, op. cit., p. 121

(1055) Arnando Maggiora, « Les lois de la fatigue étudiées dans les muscles de l'homme », Archives italiennes de biologie, 1890, p.129.

ضاعف موسو، مثبتا جدة آلته، ملاحظاته إلى حد أنه ادعى أنه بإمكانه وضع «قوانين للإنهاك[1056]»، الذي هو مصطلح، حقيقة، وإن كان مدشنا (أوليا)، إلا أنه أساسي أيضا. بدءًا من صورة منحنيات العياء، التي هي صورة لا تقبل التعميم:

يسقط البعض فجأة، والبعض الآخر بالتدريج، بينما يقاوم البعض الآخر بعد أن يضعف بسرعة [...]. وهكذا يمنحنا الإيرغوغراف تسجيلا لإحدى الظواهر الأكثر حميمية والأكثر خصوصية للذات: أي الطريقة التي نتعب بها، وتظل هذه السمة الخاصة ثابتة[1057].

يهم الجانب الشخصي مُذ ذاكَ، التقدمَ شبه-المادي للتعب، وكيف يعمرنا، وكيف يخترق العضلات والبدن. لكن تظل هناك، مع ذلك، بمجرد تسجيل هذه الاختلافات، نتائج عامة جدا: تأثير التكرارات أولاً؛ حيث يُحَسِّنُ الاستخدام المنتظم للإيرغوغراف، بشكل لا يمكن تجنبه، مقاومة العضلة، كما ترسمه الخطوط العمودية المثلثة: انتبه «البروفسور أديكو»، زميل موسو، «بعد شهر، تضاعف العمل مرتين مقارنة مع ذاك الذي حقق في البداية[1058]». تنضاف إلى ذلك العلاقة التناسبية دائما بين وزن الحمولة وتكرر الاندفاعات: «تكون أعضاء الجسم، بقوة متساوية، محمية بشكل أفضل ضد التعب، لاسيما حين تعمل بحمولة أقل وبسرعة أعلى[1059]». وتطرح سرعة الحركات شروطها، وعتبة بلوغ الانهاك أيضًا. تنضاف إلى ذلك الاختلافات العرضية؛ حيث تتغير المنحنيات وفقًا للمواسم وفترات اليوم والطعام والأحاسيس والأمراض، ويُسر استعمال اليد اليمنى أو اليسرى، والحالة الصحية العامة[1060]؛ الشيء الذي يترك هامشًا

(1056) Angelo Mosso, La Fatigue intellectuelle et physique, Paris, Alcan, 1894, p. 91.

(1057) Ibid., p. 61.

(1058) Ibid., p. 63.

(1059) Cf., de Jules Lefèvre, Chaleur animale et bioénergétique, Paris, Masson, 1911, p. 773.

(1060) Amando Maggiora, « Les lois de la fatigue étudiées dans les muscles de l'homme »,

واضحًا للتغير، الذي هو مجرد شيء مُتَصَوَّر، في الحقيقة، أكثر مما هو نتيجة دراسة. يضاف في الأخير إلى ذلك تأثير الاستراحة، واختيار فترات هذه الراحة على وجه الخصوص. ويُظهر التقويم الأول الحاجة إلى فترة توقف عن العمل لمدة ساعتين بعد عمل «منهك» حتى تعود المنحنيات إلى تخطيطها الأول[1061]. ويُظهر التقويم الثاني الحاجة إلى توقف مؤقت قبل أي حور حاد جدا للقوى؛ بحيث يكون تأثيرها المفيد مضمونا أكثر. إن العمل المجزء، بعبارة أخرى، يؤجل الإنهاك بشكل أفضل :

لنفترض أن ثلاثين انقباضا كافية لإنهاك العضلات، أما إذا قمنا فقط بخمسة عشر انقباضا، فإنه يمكن تقليص وقت الراحة للسماح للعضلة بالعودة إلى حالتها الأولى (أقل من ساعتين) [...] بتكرار التجارب طوال اليوم، أي خمسة عشر انقباضا متبوعة بنصف ساعة من الاستراحة، في رفع وزن لا يتغير، نحصل على خطوط متساوية فيما بينها. ونرى أن العمل المتعِب أكثر أهمية إذا لم يصبنا الإنهاك أبدًا[1062]

وهكذا يكرر موسو، بطريقة «عصرية» هذه المرة، الرغبة القديمة في صياغة مثالية؛ تلك التي تعد بتنظيم قياس الكد [العمل الشاق] الأكثر فعالية، والذي ننجزه بانتظام وبشكل دائم دون أن يصير التعب مصدر قلق. وهكذا ستكون طرائق بلوغ التوازن قد تمت «البرهنة» عليها.

وهناك مؤشر نهائي هو رفض أي تشابه صارم بين الجسم البشري والمحرك البخاري: «تحرق القاطرة كمية من الفحم لكل كيلوغرامتر من العمل. أما عندنا، فحينما يكون الجسم متعبا، تكون لكمية قليلة من العمل تأثيرات كارثية[1063]».

---

op. cit., p. 187 et sq.

(1061). Angelo Mosso, La Fatigue intellectuelle et physique, op. cit., p. 91.
ساعتان من الراحة ضروريتان لكي تختفي كل علامات التعب من عضلات اليد المنقبضة.

(1062). ibid., p. 91-92.

(1063). ibid., p. 92.

ولا تشابه أبدا بين الحالتين في عملية «إعادة الشحن». ومنه ظهر التحدي الحاسم المتمثل في الاهتمام الدقيق بالتعب والتنبؤ به والوقاية منه

بل ومن الأفضل أن تسمح وضعية المختبر بإمكانية تجريب بعض من «التأثيرات» التي تم استشعارها لحد الآن أكثر مما تم تحليلها. لقد أصبح المتعب فأر تجارب؛ فقد ضاعف شارل فيري تدخلات المثيرات الخارجية لتحديد مدى تأثيرها المحتمل على المنحنيات «رقميا». وتم تسليط الألوان والأصوات والروائح موضوع الاختبار، في اللحظة نفسها التي تنخفض فيها انقباضات عضلاته، لقياس «زيادة النشاط» المحتمل، من أشياء مختلفة جدا، متباعدة ومتنوعة، وهي في الواقع أشياء مادية أكثر مما هي نفسية أو معنوية: «خلاصة القرفة»، و«فاليريانات الأمونياك»، و«الزجاج الأحمر»، و«الحليب»، و«إيقاف مباغت للعمل» وبالتالي يتم قياس العديد من النتائج على نحو دقيق: تستعيد المادة المثيرة جزئيا الإيقاعات والشدة، في حين أن الاستخدام المتكرر لهذه المثيرات يؤدي إلى عدم القدرة على العمل «دون مثير»[1064]. هناك أيضا فروق دقيقة تميز بين اللحظات؛ حيث يُنظر إلى الرائحة على أنها مثير بدل أن يُنظر إليها على أنها [مجرد] إحساس[1065]؛ أو فروق دقيقة تميز بين المحفزات؛ حيث «يتزامن الشعور المؤلم مع انخفاض كبير في العمل»[1066]. وبالتالي يتم، ولأول مرة، تقويم «الوسط [وسط العمل]»، في علاقة مباشرة مع التعب ونتائجه السلبية المحتملة. ونتساءل بالتالي مجموعة من التساؤلات عن «أجواء العمل»، وعن الدور المحتمل للإنارة [الضوء]، واللون والصوت والروائح، وعن الأجواء المحيطة التي من المفترض فيها أن تعمل على تحسين فعالية [العمل] أو تقييدها.

(1064).Charles Féré, Les Variations de l'excitabilité dans la fatigue, Paris, Reinwald, 1901. p.69.

Ibid., p. 78..(1065)

Ibid., p. 83..(1066)

لا شك أن هذه المنهجية قد تبدو مجردة، وأن اللجوء إلى المختبر يوحي بالطابع المصطنع [للنتائج]، وأن المطالبة بحركة واحدة يثبت الطابع الخاص [للتجارب]. لا شك أيضا أن حالة العمل اليومي أكثر تعقيدًا من مجرد تنشيط عضلة واحدة. كما أن عتبات التعب أكثر التباسا وأكثر تنوعاً أيضاً من الإنهاك الذي يصيب عضلة بسبب انقباضها. إنه، رغم كل ذلك، منهج وضعي للغاية، إلى درجة أن موسو، كما أظهر ماركو ساراسينو، يقترح أن تكون الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) نفسها أساس إصلاح لاجتماعي[1067]. ويعبر ذلك عن يقين شبه سياسي عند هذا العالم الإيطالي (حينما يقول)

إنها ليست قضية حزب أو أداة للتحريض، إنها قناعة عميقة، وشعور مقدس بالأخلاق العالية التي تدفع للدراسة ووسائل التقسيم العادل للملكية، من دون عنف، بدون سفك الدماء، بغاية أن يصير العمل مرتبطا بالقوانين التي تحكم الإنسانية، حتى لا يصبح العامل عبداً، والجنس البشري، وقد هلكه التعب، منحطا[1068].

على الرغم من حدود هذه المنهجية، فقد ضاعف موسو طموحاته، علاوة على إيمانه بالميزات شبه الاجتماعية للمختبر، مجددا حساباته، وأعاد إبداع معايير من قبل: تفريد البروفايلات، والتأثيرات المحددة رقميا بصدد نشاط منتظم ومتكرر، والآثار المحددة رقميا لفترات الراحة، والتأثير المحدد رقميا للمثيرات المباعثة[1069]، والعلاقة، المحددة بدورها رقميا، بين السرعة المعتمدة والحمولة المرفوعة. لقد أظهرت هذه المنهجية، قبل أي شيء، الأهمية الثقافية والاجتماعية التي تنسبها بالتأكيد للتعب، من خلال جعله موضوعا خاصا للتعميم. الحاسم

(1067) Marco Saraceno, De la mesure du corps à la politique des corps . une histoire des sciences du travail (1880-1920), thèse, université de Pise, 2013, p. 171.

(1068) Angelo Mosso, La Fatigue intellectuelle et physique, op. cit., p. 180, cité par Marco Saraceno, ibid.

(1069). Voir les analyses de Charles Féré, ci-dessus, p. 220.

هنا هو تبجيل هذه المؤشرات فقط لأنها خضعت لتجربة العالم؛ حيث يدعي «عتبر» وأجهزة العالم أنها تمنح درسا لتوجيه استخدام أوراش العمل، ومع ذلك هناك صمت تفضحه الحاجة إلى المزيد من تعميق البحث وتعقيده: أي الصمت عن وضعيات العمل اليومية وتنوعها، وعن مصدر القُوى (البدنية) وصيانتها، وعن ذاك المتعلق بالرهانات النفسية التي سبق أن تمت ملاحظتها سلفا.

المنطق الحركي

يدفع هذا، علاوة على ذلك، إلى نمط آخر من الدراسة الموضوعية، بل حتى نحو معيار رقمي: اختيار وضعيات يومية ومتعددة، خارج المختبر، والتركيز على الحركات المعقدة، وكذا الانغماس في المعامل والأوراش، واليقين بأن المردودية يمكن قياسها عن طريق المدة والمسافة والوزن. وقد أعطى فريديريك وينسلو تايلور مثالاً «شهيرا» على ذلك؛ فقد ركز بدوره، في بداية القرن العشرين، على «الطابع المادي» الملموس؛ أي البدني للشغل. اقترح مهندس فيلادلفيا، في قلب العالم الصناعي الأمريكي، «مبادئ للتنظيم العلمي» للعمل، وهو التعبير الذي وضعه عنوانا لكتابه. التركيز على العمال أولاً، وحركاتهم، التي تَعِدُ بزيادة صافية «في المردودية» دون زيادة «تعبهم»[1070]: التركيز على المصنعين في مرحلة ثانية، وعلى أنماط توجيهاتهم (للعمال)، الشيء الذي يَعِدُ برؤية «منهجية» دقيقة، دون مضاعفة توترهم. ويشكل هذا طموحا كبيرا، بأن نضمن «للمشغل وكل عامل أقصى قدر من الرخاء»[1071]، مع تجنب أي استنفاد وأي إنهاك [قد يصيبهما معا؛ أي المشغل والعامل].

يقول تايلور، الذي كان مجرد عامل قبل أن يترقى إلى رتبة مهندس، إنه [قادر على أن] يقيس كل وضعية بأدق تفاصيلها وأدق تغيراتها. وقد كان مطلبه

(1070).Henry Le Chatelier, préface à Frederick Winslow Taylor, Principes d'organisation scientifique des usines (1912), Paris, Dunod, 1927, p. 2.
(1071) Frederick Winslow Taylor, Principes d'organisation scientifique des usines, op. cit., p. 23.

مزدوجا. أولا محص الحركات ومدتها، لتقليصها بشكل أفضل، ثم الاحتفاظ فيما بعد بأفضل الإنجازات المضمرنة «من دون تعب»، لتحويلها إلى أفضل نماذج يحتذى بها. وقد ضاعف أبحاثه من حمل سبائك الحديد، وأشغال البناء، وطريقة استعمال المجرفة، إلى التحقق من سلاسة الكريات الفولاذية. وفي كل حالة، تكون وسيلة توثيق ذلك هي كرونومتر بعد أعشر الثانية، وأيضا بوسيلة قياس أقل كمية من الحركات و(كيفية) الاقتصاد منها، وهي منهجية صارت منذ ذاك، أكثر دقة وأكثر تجريبا حتى من «الميكانيكا الصناعية» ومن «تطبيقها لعلوم على التقنيات الصناعية»، حتى وإن كانت تركز وتقيس عملها عند حدود كل فعل؛ لأنها لم تكن مبالية بـ «كيلوغرامترات» كولومب. تبقى فقط دراسة الفعالية هي التي لا تنتهي: أي للنتائج المستهدفة على شكل عدد الكمية المنتجة وفي السرعة المضاعفة [في إنجاز العمل]. فما يفرض نفسه هو فقط الرقم؛ أي الآثار الإجرائية، وأشكال التقدم المحرزة. ومنه تم التركيز على النتائج وطرائق التقدم في آخر تجارب طويلة: يمكن للعامل نفسه، إبان يوم عمل، نقل 47 طنًا من سبائك الصلب على مدى عشرين مترًا يفصله عن العربة، بدلاً من 12 طنًا مثلما كان الشأن في بداية التجربة؛ وسيتم كذلك تقليص حركات البنّاء (مرتب الآجر)، ومن نسبة التعب نفسه، من 18 إلى 5؛ كما (صار بالإمكان) تغيير حجم حمولة المجرفة، وقياس مكيالها كما لم يحدث من قبل.

من خلال اختيار اثنين أو ثلاثة من عمال المجرفات، ودفع مكافأة لهم حتى يعملوا بجدية وبضمير، وتغيير حمولة المجرفة تدريجيًا وملاحظة لعدة أسابيع، من قبل عمال ذوي خبرة، لجميع ظروف العمل الإضافية، تم اكتشاف أن عامل المجرفة الجيد يحصل على أقصى مردودية بحمولة تبلغ حوالي 10 كيلوغرامات

و¼ من الواضح أن هذا الحمولة ليست هي نفسها بالنسبة إلى باقي عمال المجرفات، ولكنه يتباين بين 1 أو 2 كيلوغرام تقريبًا[1072].

يضاف إلى ذلك إنشاء هيئة اجتماعية تتكون من «أناس خاصين»[1073]، تم تكوينهم حديثًا، من المفترض أن يقوموا بدراسات أولية وأن يجددوا النماذج المطلوبة. يصر تايلور على هذه الطبقة الجديدة من «المصممين»، الذين يمكن أن تحتاج أبحاثهم للصبر؛ حيث يمكن أن تمتد أحيانًا لعدة سنوات، (لتكون أبحاثًا) جد دقيقة: «فالحاجة ماسة لوجود إنسان يشغل فقط بإعداد العمل وآخر مسؤول عن تنفيذه»[1074]. إنه لابتكار كبير، يعد في المستقبل بإرساء «أطر»، وإداريين و«مختصين» كلهم مسؤولون عن دراسة أنقص الصيغ المطلوبة في الحركات والأدوات والسلوكيات والتدابير، التي تتلاقى أدوارها لتحسين العمل بأقل تكلفة. تم إنشاء «علم» غير مسبوق: «التنظيم العلمي[1075]»، مع التركيز على كلمة «تنظيم»، بما هو ترتيب يتوافق فيه العمال والمناخ العام للعمل، بعيدًا عن «الميكانيكا الصناعية» القديمة، التي بقيت مسجونة في (دراسة) القُوى والرافعات.

مع رسم حدود واضحة أيضًا، تأكد كيف يقاوم موضوع معقد هو العمل أيّ دراسة تهدف إلى الإحاطة به في شموليته. لكن تايلور لم يوضح عتبة التعب المتحمل، من خلال الاقتصار فقط على آراء للفاعلين، وتجاهل أيضا لمقدار الطاقة [البدنية] المطلوبة التي تصرفها، أو ردة الفعل النفسي عند كل واحد، بل وحتى ردة الفعل التي أثارتها سلف الدراسات، بل ويجهل «الراحة الوظيفية للحركة غير

(1072) Frederick Winslow Taylor. Principes d'organisation scientifique des usines, op. cit., p. 57.

(1073).Ibid., p. 40.

(1074).Ibid.

(1075).Ibid., p. 46.

المفيد»[1076]. وقد تم العثور على العديد من الثغرات [في تصور تايلور]، على الرغم من إضافته الدقيقة للعديد من التفاصيل؛ فالكثير من الأمور البارزة غابت عنه، وهي التي كشفها معاصروه أنفسهم:

يعود تايلور إلى رأي العامل، وهذا الرأي ليس له أية قيمة علمية، فلا يمكن للعامل خداع الملاحظ فحسب، بل هناك شيء أكثر خطورة، بسبب العواقب البعيدة للتعب، وهو أنه يمكن أن ينخدع هو نفسه[1077].

لاسيما أنها ثغرات «مضرة» بالدقة التي «صرف تايلور نظره عنها أو تراجع عنها» بدون مراعاة «أن [العمال] الأكثر عادا لا يرغبون في بذل أي جهد»[1078]، مع تجاهله للجانب الانفعالي. وفي ذلك طريقة لتجاهل شخصية العامل، على الرغم من أنه قد تأكدت بصحته سلفا (العديد من) التساؤلات. وقد لا تقاوم سوى تلك التساؤلات التي تُعد هي الأقوى والأكثر تصميما، وتلك التي ستكون الأكثر «تكيفا» هي التي ستستخدم كأمثلة، لاسيما أنها فجوة تم التأكيد عليها في النهاية، إلى درجة أن هناك العديد من الانتقادات تبقى قاسية، وأكثر إحساسا من ذي قبل بالإشارات النفسية، محددة العمال بأنهم قد تحولوا إلى «آلات سُلب عقلها»، كما وصفتهم مجلة الحياة العمالية، في عام 1913؛ «كامتداد بشكل أدق ولاواع للآلة[1079]».

دفع هنري فورد بعيدا وبشكل غير مسبوق هذا النوع من المكننة في مصانعه في ديترويت، منذ العقد الأول من القرن العشرين. التخلص في أقصى درجاته من

(1076).Alain Corbin, « La fatigue, le repos et la conquête du temps », in id. (dir.), L'Avènement des loisirs, 1850-1960, Paris, Aubier, 1995, p. 280.

(1077).Jean-Maurice Lahy, Le Système Taylor et la physiologie du travail professionnel (1916), Paris, Gauthier-Villars, 1921, p. 62.

(1078).Frederick Winslow Taylor, Principes d'organisation scientifique des usines, op. cit., p. 47

(1079).Alphonse Merrheim, «Le système Taylor », La Vie ouvrière, 20 février 1913, p. 214-215 et 224.

الحركات، والتقليص الأقصى لأي تنقل: «فلا ينبغي أن يكون لدى أي شخص أكثر من خطوة واحدة للتحرك [...]؛ فالشخص الذي يركب برغيا لا يضع صمولة؛ والشخص الذي يضع الصمولة لا يبرمها»[1080]. افتتح السلسلة (في العمل المتسلسل) تدبيرا «تبسيطيا»؛ حيث تحمل قطعا تسير من «أمام العامل»[1081]، وقد حملتها «ناقلات ميكانيكية»[1082]، تسمح بزيادة في المردودية من خلال الربط بين حركات متتالية، تكون دائمًا مقلصة، مختصرة، ويتم تنفيذها من عمال مختلفين ومتجاورين؛ حيث لم يكن التعب، إلى جانب ذلك، هو الأفق المباشر لمبدع ديترويت، في حين فرضت الزيادة في الإنتاج نفسها، وأيضا تقليص الزمن، وكذا الانتقال من «تسع ساعات و54 دقيقة لتجميع المحرك» في أكتوبر 1913، إلى خمس ساعات و56 دقيقة صباحًا بعد ستة أشهر[1083]. وهو ما يقود إلى «نجاح» متزايد ممتزجا بمقاومة صماء للعمال الذين يبدو أننا متخلصون من «الحق في التفكير»[1084]، نجاح مكون من استسلامات فردية، ومن رفض للمهمة، ومن تجديد مستمر للعمال، بدرجة كان على قطاعات معينة من المصنع أن توظف ثلاثمائة شخص سنويًا، فقط لملء مائة منصب[1085]. واللامبالاة أخيرًا، والفاقدة لأي إحساس، فيما يخص ضمان سير العمل: «فلا يجب أن تكون جريئا عند (فورد)، لأنه إذا كنت كذلك سيتم طردك على الأقل بعاملين، وسيتم استبدالك بأقل من اثنين من العمال أيضًا»[1086]، وكان رد هنري فورد في عام

(1080).Henry Ford, avec la collaboration de Samuel Crowther, Ma vie et mon œuvre (1923), Paris, Payot, 1930, p. 90-93.

(1081).Ibid., p. 94

(1082).Ibid., p. 100.

(1083).Ibid., p. 93-94.

(1084).Thierry Pillon, Lire Georges Friedmann. Problèmes humains du machinisme industriel : les débuts de la sociologie du travail, Paris, Ellipses, 2009, p. 330.

(1085). انظر:

https://fr.wikipedia.org/wiki/Henry_Ford.

(1086).Louis-Ferdinand Céline, Voyage au bout de la nuit, Paris, Gallimard, 1932. Voir id., « Voyage aux usines Ford », Le Un, « Le travail nuit grave », 10 juin 2015, p. 3.

1914 هو الزيادة في الرواتب وتقليص في زمن العمل اليومي من تسع إلى ثماني ساعات؛ وفي تلك طريقة لجذب المزيد (من العمال) من خلال إغرائهم بالأجر والمدة.

ولقد ظلت الدراسات حول التعب في العمل جزئية، إذ لم تقل «منشطرة» في بداية القرن العشرين، كل منها يعرض ما لم يتوفر في سابقاتها، وكل واحدة منها تصمت عن شيء ما؛ إما عن تعقد الحركات، أو عن الجهد البدني، أو تصمت عن الغياب أو على عتبته، أو بالنسبة إليها جميعها تقريبًا، عن الألفة (مع العمل)، واضطراباتها، وتقلباتها، على الرغم من أن بعض النقاد قد شرعوا في إثارة هذه المشاكل الأخيرة.

المنطق الطاقي

حدث، مع ذلك تغيير آخر، وذلك في نهاية القرن التاسع عشر، ساهم في إغناء بشكل جذري، وذلك لكل من دراسات هيرن، ودراسات تايلور أو فورد أو موسو، مع الحفاظ بصرامة على المقاربة الفيزيولوجية.

يعود أصل هذا التغيير إلى رؤية راجعت (مفهوم) الطاقة إلى حد كبير. فقد أعاد العلماء والمهندسون استثمار الجهد العضوي (للجسم)، فاحصين بشكل غير مسبوق تقلبات المحرك الحي (=البدن)، واستهلاكاته، وآثاره، وقد نسبوا للطعام الحصة الحاسمة على النتائج. من الواضح أن التحدي سيبقى هو عمل «الآلة البدنية»، ولكن عمل هذه الآلة سيحدد دائمًا بدقة؛ حيث ستتم إعادة النظر في الطعام والحرارة، كما سيتم عد الأرباح والتبذير، وخاصة الغذاء، وذلك بأدق التفاصيل. وتم تغيير مختبرات تسعينيات القرن التاسع عشر؛ حيث ركزت عمدًا على الخسائر العضوية وأسبابها، على الموارد وشروطها. ويبدو أن هذه الإجراءات الجديدة، للوهلة الأولى، هي امتداد لمعرف «المعلقة» القديمة في نهاية القرن الثامن عشر، ولكنها تهدف، بالإضافة إلى التبادلات النفسية التي درسها لافوازييه،

بالإضافة إلى أشكال فقدان الحرارة التي درسها غوستاف هيرن، (دراسة) جميع مدخلات الجسم ومخرجاته، وجميع انبعاثات السعرات الحرارية، وكل القوى التي تم إعمالها. ولا شيء آخر غير التركيز على مجموع المواد الموضوعة تحت خدمة الآلة. والأدوات يتم تحويلها، وستتنوع الموضوعات، والانتظارات أيضًا، من خلال خلط بين الفيزياء والكيمياء، وتحليل الآليات والتدفقات. ويعد «الكالوريمتر التنفسي»[1087]، الذي ركب في ميدلتون (كونيكتكت) في عام 1898 من لدن أتوافتر وروزا، المثال الأكثر رمزية على شكل آلة كبيرة ذات عبوات متراكبة ومضبوطة، تجمع بين مرشّحات ومجسات، وألواح المقاومة لتسرب التنفس، وبممرات دقيقة تسجل «العمل الميكانيكي، والحرارة المشعة، والحرارة الكامنة في ما يتبخر من الجلد والرئتين»[1088]، وتبدلات غازية بقدر عدد المواد المبتلعة والمواد الملفوظة. وستمتد الملاحظات على مدى عدة أيام، وسيتناوب المشاركون في التجريب. «المعزولون» على أكمل نحو، والمراقبون بدقة، على الأنشطة، من كتابة وقراءة وتشغيل دراجة إرغونومية (مثبتة)، والقيام بأي شيء عاد، والراحة. وفي الأخير، هناك مبدأ حاسم: تحديد غياب التعب، على المدى الطويل، من خلال مؤشر جديد، وهو أن «موضوع التجربة لا يتغير لا في وزنه ولا في طبيعته»[1089]، وهو تقويم من المؤكد أنه قد شجعت عليه الممارسة الجديدة لعملية قياس وزن الجسم، واستخدامه الوظيفي، وصيغه البسيطة، وجزاءاته المتكررة[1090]. سيجد الانتظار القديم والأساسي والتقريبي دائمًا، انتظار «اللا-تعب»، لأول مرة هنا جوابًا رقميًا: الحفاظ على وزن الجسم [بما هو] مؤشر أكثر حسماً مما قد يبدو.

(1087) .Cf. Wilbur Olin Atwater et Edward B. Rosa, « A New Respiration Calorimeter and Experiments on the Conservation of Energy in the Human Body », The Physical Review, vol. 9, no 214, 1899.

(1088).Jules Lefèvre Chaleur animale et bioénergétique. op. cit., p. 165.

(1089).Armand Gautier, L'Alimentation et les régimes chez l'homme sain et chez les malades, Paris, Masson, 1904, p. 83.

(1090).Georges Vigarello, Les Métamorphoses du gras histoire de l'obesité (2010), Paris, Seuil, «Points Histoire ». 2013, « La diffusion des pesées », p. 218.

يعيد الجهاز تركيب جداول غوستاف هيرن بإضافة الطعام، وخاصة عبر مقارنة الطاقة المنفقة بالراحة ومقارنة الطاقة المنفقة بالعمل، خاصة وأن هذه الأخيرة، أي الطاقة، يمكن «ترجمتها» إلى سعرات حرارية منذ العمليات الحسابية لقسطنطين ميكولسكو في عام 1892[1091]، بما يتناسب مع المكافئ الميكانيكي لسعرة حرارية بقوة 425 كيلوغرامتر، مقترحا آنذاك عدد السعرات الحرارية التي يجب تناولها للتعويض عن العمل المنجز.

وهكذا فإن الجدة تتعلق هنا بتقويم المواد الغذائية المستهلكة وتوزيعها: 107 جرامًا من الألبومينويدات، و64.5 جرامًا من الدهون، و407.5 جرامًا من الكربوهيدرات، يقابل حصة راحة تبلغ 2602 سعرة حرارية. ويمثل الألبومين «الأطعمة البلاستيكية» لـ «لييبج»[1092] التي من المفترض أن تحل محل «الأجزاء» التي فتتها الاشتغال البدني، بينما تمثل الدهون والكربوهيدرات «أطعمة الجهاز التنفسي» التي من المفترض أنها تجسد وقودا (للبدن). يتضاف إلى ذلك اكتشاف آخر، أصيل بدوره، إبان العمل وهو: أن زيادة استهلاك الألبومين من الجسم تقتصر على 1 جرام، من 107 إلى 108 جرامًا، بينما ينمو استهلاك آخر بقوة بمجرد بلوغ 192000 كيلوغرامتر على الدراجة؛ «وهو أمر بالغ الأهمية، يدل على أن عمل العضلات لا يزيد من استهلاك الأزوت[1093]»، لا سيما أنه أكثر أهمية حتى من هذا اللاتمثل الخلوي الضعيف أثناء الجهد، والذي يحد من الدور الذي نمنحه تقليديًا للبروتينات واللحم (الألبومين)، مانحا، على خلاف ذلك، القيمة للمواد الكربونية وقوتها الاحتراقية أثناء ممارسة جهد ما. وستتم مراجعة حصص العمل مرة أخرى؛ وهي رؤية غير مسبوقة بصدد المواد التي من المفترض

(1091).Constantin Miculescu, « L'équivalent mécanique de la calorie », Annales de chimie et de physique, 1892.

(1092).Voir ci-dessus, p. 190.

(1093).J. Lefèvre, « Dépense et besoin d'énergie. Introduction critique et expérimentale à l'étude des bilans d'Atwater », Paris, 1er Congrès international d'hygiène alimentaire, 1904, p. 5.

أن تقاوم التعب، مبعدة صيغ طبيب الريف التي بجلتها رواية بالزاك عام 1833 بتركيزها على «اللحوم البيضاء والحمراء» كأول علاج دفاعي، وذلك لصالح مواد أخرى؛ أي السكريات والأطعمة النشوية على وجه الخصوص.

تكاثرت الدراسات، في بداية القرن العشرين، التي تدعي أنه (بإمكانها) إعادة التوازن بين المواد الغذائية، مثل ملاحظة بيير فوفيل، من خلال معاينة شخص يبلغ وزنه 67.5 كيلوغرامًا ولا يتغير وزنه لمدة خمس سنوات، رغم أنه يقوم «بدون تعب، بالسير مائة إلى مائة وخمسين كيلومترًا في اليوم بالدراجة»، مع الحد من استهلاكه من الألبومين إلى 60، أو إلى 70 جرامًا في اليوم(1094). سنجد الملاحظة نفسها تنسحب على الحالات العديدة التي درسها راسل شيتندن لعدة أشهر:

قلل هؤلاء الأشخاص تدريجيًا من نظامهم الغذائي الكلي، وخاصة نظامهم الغذائي من الألبومين، وتوقفوا عن أن يصبحوا آكلين للحوم ليصبحوا نباتيين. لم يعانوا فقط، ولكن تطورت قوتهم، وزاد وزن العديد منهم، وزادت كتلة عضلاتهم(1095).

وهو ما دفع جوزيفا إيوتيكو وفاريا كيبياني في عام 1907، إلى البحث في أشكال تباين المقاومة الجسدية وفقًا للأنظمة الغذائية المعتمدة: قياس القوى بواسطة الدينامومتر، والتعب بالإيرغوغراف، والتنفس بواسطة السبيرومتر؛ وكان الاستنتاج هو تفضيل النظام الغذائي النباتي؛ حيث «يزيد العمل الميكانيكي [به] بنسبة 50٪(1096)». وهي نتيجة بالتأكيد تقريبية، فالكثير من الأشياء تغيب هنا، وهي نتيجة صعبة، ببحث واسع النطاق، لكنها تكشف عن اهتمام مرابطة

(1094).Cité par Marcel Labbé, Régimes alimentaires, Paris, Baillière, 1910, p. 11.

(1095).Russell Henry Chittenden, Physiological Economy in Nutrition, Londres, Heinemann, 1907, cité par Marcel Labbé, ibid., p. 12.

(1096).Josefa Ioteyko et Varia Kipiani, Enquête scientifique sur les végétariens de Bruxelles - leur résistance à la fatigue étudiée à l'ergographe, Bruxelles, Lamertin, 1907, p. 50.

بالنظام الغذائي، وباللحم، وبالتأثير الطاقي للأغذية المستهلكة. وحكاية جيل لوفيفر في عام 1904 أكثر تفصيلاً؛ فقد وصف الرجل، وهو عضو بأكاديمية الطب، بإسهاب أحد جهوده الخاصة:

في نهاية رحلة جبلية مجهدة بين 4 ساعات و½ و 6 ساعات و½ في المساء، نزلت من بيك دو بيغور في لوز وهو ما يعني أكثر من 20 كيلومترًا من السباق، و2200 متر من الهبوط؛ أي ما يعادل 250.000 كيلوغرامتر في ساعتين؛ أي بقوة 125000 كيلوغرامتر ساعة لمدة ساعتين[1097].

يقول إنه «لم يشعر بالتعب»، طالما بقي «في النظام الفسيولوجي»، في حين أعلن رفاقه، على الرغم من «مِعَيِهم»، أن الإنهاك قد أصابهم، للدرجة أن البعض منهم لم يستطع اللحاق به. وهذه شهادة لا يمكن تجاهلها، (خصوصا أنها) للفاعلين (أنفسهم). لكن جيل لوفيفر استحضر أيضًا وزنه واستقراره على المدى الطويل، وهي علامة شاملة وجديدة، كما رأينا، على «عدم التعب»، مع حمية يومية مطبقة بإحكام «لمدة ثلاثة عشر عامًا» «حصة راحة وحصة عمل بآزوت (نيتروجينيا) ضعيف، لا تتجاوز بشكل عام 60 جرامًا من البروتين في أربع وعشرين ساعة»، وغنى، على خلاف ذلك، من «الكربوهيدرات، وخاصة من هيدرات سكرية[1098]». الاختلاف النوعي في الحصص الغذائية يؤثر على الفرق الكمي في المقاومة (البدنية)، كما أنه يصنع الفرق بين ملاحظات غوستاف هيرن، في منتصف القرن التاسع عشر، التي اقتصرت على معاينة «القوى التنفسية»[1099]،

(1097).Jules Lefèvre, « Dépense et besoin d'énergie », op. cit., p. 20.

(1098).Ibid., p. 21

(1099). انظر:

Cf., Barthélemy Durrive, « Deux ouvriers-machine, avant et après Taylor », L'Homme et la société, vol. 3, no 205, p. 53-86.

وقد اهتم هيرن بالتنفس" انظر ص 65 "لأنه من أجل التفكير في قياس المكافئ الميكانيكي للحرارة على البشر، هنا مع الجسم أن قياس الأثر المتبادل فيه، أي في الحرارة، بشكل مباشر أمر غير ممكن، يجب أن نكون مقتنعين بأن كل شيء يحدث هنا مثلما يحدث في المحرك البخاري"

وملاحظات جول لوفيفر، بضعة عقود فيما بعد، لتي امتدت إلى القوى القابلة للاحتراق على وجه التحديد. وفي هذا انتقال ملحوظ للملاحظات؛ حيث فرض، منذ الآن، حساب «المادة» التي تغذي المحرك نفسه.

بين الحركة والطاقة

يمكن إذن لدقة الحركات التي درسها فريدريك تايلور، والقياسات الإيرغوعرافية التي درسها أنجيلو موسو أن تتم إعادة تصورها بعد إضافة المقاييس الطاقية. وقد فكر في مثل هذا التوليف، الجديد تمامًا، جول أمار، وقد دشن ميلاد، سنة 1912، كرسي «العمل المهني» في المعهد الوطني للفنون والحرف. فقد حكم بدوره، هو أن المعايير والمقاييس تكون متغيرة تبعا (لطبيعة) الأنشطة، كما أنه اعتبر من الضروري إجراء معايرة دقيقة للحركات والأزمنة، كانتظار دقيق بغاية تحسينها الإجباري. ينضاف، مع ذلك، تقويم لأشكال استهلاك السعرات الحرارية، لتعزيز الحفاظ عليها بشكل أفضل، وتقويما لحصص الغذاء، لتعزيز مردوديتها بشكل أفضل. ولقد تنوعت التجارب عمداً، بل وغدت متباينة؛ حيث لكل عمل خصوصياته: «السير بحمولات ثقيلة، استعمال مسحج، أو مطرقة، استعمال منشار، الاشتغال بمفصات التعليم، أعمال النجارة، أعمال صقل الزجاج، العمل بالمجرفة، أو بالآلة الكاتبة [...]»[1100]. لقد هدفت الأرقام، على عكس ذلك، إلى أن تكون قابلة للاستغلال وأن تكون لها قوة اقتراحية.

يعد «استعمال المسحج» واحدا من أكثر الأمثلة المتعمقة، بينما لا يمكن تغيير الهدف، وهو «البحث عن أقصى إنتاج في العمل اليومي [...] بتعب ثابت»[1101]؛ حيث هناك ضرورتان، وقد شدد عليهما «الضغط» الصناعي: استقرار الإنفاق

(1100) Jules Amar, Le Moteur humain et les bases scientifiques du travail professionnel, op. cit., p. 469, cf., « Le travail professionnel », p. 439 sqq
(1101) Ibid., p. 491.

وارتفاع النتائج. وقد تزايدت المقاييس هنا أيضاً، فلم يسبق أبداً تحديد البيانات المادية بدقة على هذا النحو؛ حيث تمت معايرة وزن الأداة (أي المسحج) وطولها، وتم تحديد «جانبها الحاد»، وتم وزنُ البرادة المنتجة. وتم تسجيل كل حركة وتأثيرها على آلة مخططة تشبه إيرغوغراف موسو؛ كما يسجل دبداب إيقاع التنفس؛ ويسجل آخر النبضات المماثلة لأجهزة ماري[1102]، ويمر الأكسجين وثاني أكسيد الكربون من خلال اصمام بمصراع مزدوج[1103] متصل بقناع. وتسمح العديد من المؤشرات، من ثم، من التعبير عن التعب: إضعاف تواتر الحركات، كتواتر نقلها الذي يوفره الإيرغوغراف، وتسارع عمل الرئتين، وتسارع الدورة الدموية الذي توفره الدبدابات، والزيادة الكبيرة من إنفاق الطاقة، الذي يوفره تحديد التدفقات كمياً، وعجز البدن ككل؛ الشيء الذي تعرضه وضعيات الجسد (الحركية)، وشهادة عامل المسحج نفسه في الأخير، بتحديد آلامه المحتملة، وكثافتها، وموقعها في بدنه؛ وفي ذلك ربط بين البعد الموضوعي والبعد الذاتي (في الدراسة).

تكررت التجارب، وسجلت المعدلات. ومن هذه السلسلة الطويلة من الاختبارات، التي قادت نحو ملاحظة رئيسة: الرقم 70 ضربة في الدقيقة التي يجريها عامل المسحج، التي من المفترض منها (أي الضربات) أن تضمن أعلى النتائج وأقل نسبة متحكم فيها من التعب:

(1102) .Cf., Étienne-Jules Marey, La Méthode graphique dans les sciences expérimentales et principalement en physiologie et en médecine, Paris. 1878.

سمح اقتراح أجهزة تسجيل جديدة في 1870 بتحويل الظواهر الفسيولوجية وأفعالها إلى منحنيات أو رسوم بيانية أو جداول أو مخططات؛ فصار الجواني برانيا. انظر أيضا:

Christian Pociello, La Science en mouvement : Étienne Marey et Georges Demenÿ (1870-1920), Paris, PUF, 1999.

(1103) Jules Amar, Le Moteur humain et les bases scientifiques du travail professionnel, op. cit., p. 531

يتطلب العمل الأمثل بسبعين ضربة، راحة لمدة دقيقة واحدة بعد خمس دقائق من العمل. وتكون العلاقة، بشكل عام، بين فترات الراحة والنشاط هي من دقيقة إلى خمس دقائق. لذا علينا أن نضمن أنه بعد ساعة من العمل يكون الشخص في حالة طبيعية قريبة جدًا من وضعية الراحة: حيث لا يرتفع عدد حركات التنفس إلا من 20 إلى 25 % فقط، والنبضات إلى 20٪ في المتوسط، بدون أي اضطراب في الوظائف الفيزيولوجية للبدن[1104].

يمكن للعمل أن يستمر دون أي تغيير محسوس، بما يظل وزن الجسم هو نفسه على مدار عدة أيام. وهذا لا يمنع بأي حال من الأحوال تعديل النتائج وفقًا لأدوات العمل وشكلها وقوامها ووزنها. والمثال البسيط للمسحجات الأقصر، مثال دال؛ حيث تتطلب متوسط 150 حركة[1105]، وتغير جميع المعطيات فورًا، ويؤكد كيف تفرض كل حالة عمل خصوصيتها[1106].

بقي «استخدام» المسحج الأول الذي درسه جول أمار، ليقود الأمر إلى الإصرار على الطاقة: السعرات الحرارية التي تستهلك في الراحة وبالساعة هي 85911؛ وهناك 621218 سعرة حرارية تستهلك أثناء العمل في الساعة، ليشير ذلك إلى استهلاك بسبب الجهد: 218,621 85,911 132,71[1107]. وبالتالي فإن السعرات الحرارية التي تستهلك في الراحة خلال أربع وعشرين ساعة هي 85,911 x 24=2061,864. والسعرات الحرارية التي تم استهلاكها في أربع وعشرين ساعة في عمل يمتد ثماني ساعات ونصف (مع ساعة واحدة ونصف للراحة) ستكون هي:

(1104).Ibid., p. 546.

(1105).Ibid., p. 552.

(1106). Barthélemy Durrive, «Deux ouvriers-machines», op. cit., p. 74.

«عريزي أمار، من المهم أن يوافق العمل القابل للقياس الكمي (المقاس بالكيلوغرام) بالتمام وبقدر الإمكان مع المهمة المحددة بجسم في مهنة محددة».

(1107).Jules Amar, Le Moteur humain et les bases scientifiques du travail professionnel, op. cit., p. 536.

z 061,864 + 2 990,834 = 928,97 + 2 061,864 − (132,71 x 7).

يضاف إلى ذلك التجارب الكاشفة على عامل متدرب في مرحلة التكوين، وهو شخص ما زال لم يكتسب مهارة العمل، بحركات «سريعة ومتشنجة»، والذي «يغلبه التعب سريعا»، والذي يقوم «بعمل مهم[1108]» من أجل نتيجة تكون دائما ضعيفة. ويمكن أن يبلغ استهلاكه من السعرات الحرارية ضعف تلك التي يستهلكها عامل متمرس (حوالي 2000 سعرة فوق حصة الراحة المخصصة له، وأقل من 1000 للعامل الأكثر مهارة)، ويكشف ذلك عن العديد من الظروف العكسية. ويظهر، ماتالي، أن ذلك ليس «مواتياً لا لصحة العمال، ولا لتقدم الصناعة التي تشغلهم[1109]».

تعبر الاختلافات بين المتدرب والعامل المتمرس في مرحلة أولى عن نفسها بمصطلحات المهارة والطاقة، كما تعبر عن نفسها فيما بعد بمصطلحات الحصص الغذائية الضرورية، التي صارت فجأة أمرا جديدا. عاد جول أمار إلى أحدث الدراسات التي تم إنجازها على «الاحتراقات»، متناولا «الفئات الست من النظام الغذائي للعمال، من حيث قيمتهم الطاقية[1110]» التي اقترحها تيغرشتيدت في بداية القرن:

من 2000 إلى 2500 سعرة حرارية

من 2500 إلى 3000 "

من 3000 إلى 9500 "

من 3500 إلى 4000 "

من 4000 إلى 4500 "

(1108).Ibid., p. 547

(1109).Ibid., p. 551

(1110).Ibid., p. 594. Cf. Robert Tigerstedt, Physiologische Übungen und Demonstrationen, S. Hirzel, 1913

من 4500 إلى 5000 "

من 5000 وما فوق.

توافق بالتالي حصة العامل المتمرس مع الفئة الثانية، في حين تناسب حصة العامل المدرب مع الفئة الرابعة؛ حيث يكون على الأول استهلاك 464 غرامًا من الكربوهيدرات[1111] و104 غرامات من البروتين، والثاني 556 غرامًا من الكربوهيدرات[1112] و136 غرامًا من البروتين وفقًا لأرقام تواتر[1113]. يستهلك الأول، بالتالي، أقل من أجل نتيجة أعلى، والثاني يستهلك أكثر من أجل نتيجة أقل. وهكذا كوّن جول أمار، لأول مرة، سلسلة من الأسباب والنتائج، تبدأ من الوصف الأكثر دقة للمهمة إلى التعب الذي تنطوي عليه، إلى الحصة الغذائية التي تتطلبها. وأضاف إليها الاختلافات بين «العمال المتدربين» و«ذوي الخبرة»، وطرائق التحسين، والتكاليف التي تشترطها.

لا شك، بالإضافة إلى الاختلافات الحتمية التي تفرضها مهام ما (في العمل)، أنه لا تزال هناك «نقائص» لا مفر منها أيضًا. أثارها أمار بنفسه حينما أشار إلى «الاستهلاك العصبي» وتقويمه الذي لم يزل يدرس بشكل جيد كموضوع؛ أي تقويم الاضطرابات المختلفة، والتقديرات الجيدة، والتوترات الفردية التي «لا يستبعد احتمال وجودها»[1114]. وكشف أرماند إمبرت أيضًا، وهو عضو أكاديمية العلوم وأحد أوائل المروجين «الفيزيولوجيا العمل»، في بداية القرن العشرين أن الحركات والممارسات لا تقوم فقط على الميكانيكا دائمًا، بل وتختلف تبعًا «للشعور» بالراحة وانطباع الاقتصاد الشخصي والذاتية. وهو ما تكشفه اختيارات السير في

(1111).Jules Amar, Le Moteur humain et les bases scientifiques du travail professionnel, op. cit., p. 536.

(1112).Jules Amar, Le Moteur humain et les bases scientifiques du travail professionnel, op. cit., p. 536.

(1113).Ibid., p. 595

(1114).Ibid., p. 583.

مسارات جبلية، والمنطق الحدسي لدى الأفراد المعاينين؛ حيث كل واحد منهم يفضل «طريقا مباشرا بدقة ولكن على ارتفاع أكثر خشونة، وطريقا أطول ولكن مع انحدار أقل»[1115] تجم هذا القرار عن الأحاسيس والتقويمات الغامضة، من الألم الذي «شعرنا» به وقد امتد، وعلى نطاق واسع، «المجال» النفسي مع نهاية القرن التاسع عشر، عبر تسجيل الاضطرابات الصحية المحتملة، والأعراض الخاصة، والسلوكات غير المناسبة التي تم تجاهلها لفترة طويلة[1116]. وهو ما وصفه جان موريس لاهي، إبان العصر نفسه، على أنه «ميدان» لبرنامج قادم، مازال غير واضح بعد، داعيا البحوث الموجهة هذا الميدان إلى أن تتعمق وأن تطول:

نحن مقتنعون بأن ظروف العمل الخارجية، مثل السرع والمشاعر التي تصاحبه، والملل والوتيرة المفروضة، والإكراه المعنوي، هي الأسباب التي تفلت من البحث المختبري، والتي تحدد الحوادث الأخطر على العامل ومن بين هذه الحوادث، أعتقد، أنه من الضروري، في نظري، إعطاء مكان للأمراض الذهنية[1117].

يشغل الإصرار على «الذهني»، رهن المشاشة العصبية، والإنهاك العصبي إبان الانتقال إلى القرن العشرين، دورًا رئيسًا في الثقافة، دون أن يتمكن ذلك من بلوغ عالم العمل، ولكن «الميل للدراسة السيكولوجية» في طريقه، مهما كانت الظروف، وكل شيء يظهر أنه ميل يتعين عليه أن يتضح (علميا) أكثر خاصة وقد تشكلت الثقة في خصوصية التعب الذهني: فقد أظهر ألفريد بيني أنه من غير الممكن الربط

(1115).Armand Imbert, Mode de fonctionnement économique de l'organisme, Évreux, Hérissey, 1902, p. 13.

(1116). انظر الكتاب المهم لجاكلين كاروي (وآخرون):

Jacqueline Carroy, Annick Ohayon et Régine Plas, Histoire de la psychologie en France, XIXe-XXe siècles, Paris, La Découverte, 2006.

(1117).Jean-Maurice Lahy, Le Système Taylor et la physiologie du travail professionnel, op. cit., p. 210.

بين زيادة الجهد الذي يبذله أطفال المدارس خلال فترة الامتحان، باستهلاك الحبر[1118]؛ وبه صارت لهذا التعب خصائصه الفريدة.

(1118) Alfred Binet et Victor Henri, La Fatigue intellectuelle, Paris, Schleicher Frères, 1898, cité par Marc Loriol, Le Temps de la fatigue, op. cit., p. 74.

الفصل الثالث والعشرون

عالم التعب «الذهني»

لا يخلو السعي المنهجي للترقيم من عواقب (سلبية)، وذلك بالتركيز على الميكانيكا وعلم وظائف الأعضاء، ومن المماثلة بين الجسم والأجهزة الآلية. وقد خرجت آلاف الملاحظات، في نهاية القرن التاسع عشر، من الأشياء الموضوعية التي ظلت غائبة حتى ذلك الحين: حول الحركات والاستهلاك، وحول القُوى والطاقات، والإيقاعات والمدد الزمنية، وأخيرا حول (كيفية) الحفاظ على وزن الجسم. (وبهذا) فرضت طريقة معينة في التقويم نفسها.

وفي المقابل كان هناك القليل من علم النفس، والقليل من الحساسية أيضًا. ومع ذلك، كشف الجانب الحميم (الشعوري) عن نفسه من خلال تحوله إلى جانب ضروري، وبطء، وإن كان لا يمكن إنكار أنه كان موضوع تعليقات منذ عصر الحداثة؛ فقد مال القرن التاسع عشر إلى جعل العالم الذهني أكثر حضورا. وهذا ما أثاره أنجيلو موسو، مشددًا على أن هناك «منطقة»، بمجرد ما أن تتفلت من القياس، حتى تستطيع التخلص من حساب الميكانيكيين ودارسي الطاقة، مع البقاء:

من خلال دراسة المظاهر المختلفة للتعب؛ حيث ستلفت ظاهرتان انتباهنا بشكل خاص: الأولى هي انخفاض القوة العضلية، والثانية هي الإحساس الداخلي بالتعب [...]. إذن لدينا واقعة مادية (بدنية) يمكننا قياسها ومقارنتها، وواقعة نفسية تتفلت من القياس[1119].

Angelo Mosso, La Fatigue intellectuelle et physique, op. cit., p. 93..(1119)

سيثار هذا الأمر الأخير حتى مع نهاية القرن، بل تم تعميقه والإحاطة به إلى درجة ظهور بعض التعريفات التي عرضها بعض العلماء، متجاوزين حقل اشتغالهم للإمساك بشكل أفضل بالتجارب اليومية: «يعرض التعب نفسه للوهلة الأولى كمظهر للملكة الإحساس، كإحساس خاص[1120]» يمكنه أن يصير بعد ذلك «علامة» وتنبيها، ودفاعا للبدن ضد موقف مقلق؛ وهو الشيء نفسه الذي يمكن أن يوضح سبب الاهتمام الجديد بآليات الوعي، وذلك بإضافة دور جديد للعياء وأخطاره.

وقد زاد سياق معين من الحاجة إلى مثل هذا الاهتمام، إلى حد التسبب في ثورة ذهنية. وهو سياق عَبَرَ سنوات السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر، وكشف عن عالم عُدَّ أكثر «إرهاقا»، وأكثر «صعة»: طفرة في وسائل النقل، وفي الآلات البخارية، وفي الآلات الكهربائية، وفي التلغرافات، وفي المعلومات والاشهارات، (في إطار) فحص لحساسية تكون أحيانا مغمورة. فقد اتخذ «تمرد» «النبلاء»، أو تجار العصر الكلاسيكي، وتراكم الأعمال أو الانشغالات، هنا منعطفًا جديدًا، مستهدفا جمهورًا أوسع، ومُثبِتًا أيضا لتوتر أكثر انتشارًا، بل وغير متوقع ومغاير، قادمًا من المناطق المحيطة ومن البيئة.

سيتم، من ذلك، وبشكل أفضل، تحديد أصلين محتملين للتعب، وسيتم التعليق عليهما بشكل أدق، ويخص ذلك ما يؤلم العضلة، وذاك الذي يحدث للتفكير. وقد استدعي، بالأخص، نظامين من الوصف، وقد تمت معالجتهما بشكل أدق: التعب منظورا إليه من «الخارج» ومن «الداخل»؛ وسرعان ما سيصبح الأخير أكثر أهمية مما يبدو، مثبتا ذلك الشعور المتزايد بالاستقلالية عند فرد متنبه دائما لذاته، ساعيا وراء معرفة عيوبه، و(أسباب) ضيقه، وحدود إمكانياته. خاصة وأن المجالين يمكن أن يتقاطعا أيضا؛ أي الجهد البدني والجهد النفسي، فكلاهما من المرجح أن

[1120] Paul Dupuy, De la fatigue musculaire, Paris, 1869, p. 3.

يمتد إلى انحرافات داخلية لا نهاية لها. الشيء الذي يؤدي إلى رؤية أكثر شمولية من أي وقت مضى للتعب، ملتمسة الأجزاء الحميمة (النسبية) لكل شخص.

يشكل هذا في الأخير، بديلا مركزيا، لأنه يسمح دائمًا بتعبئة أقل الاستعارات الجسدية في الحديث عن التعب والمزاج والتيارات العصبية، ونار الطاقة. وتم إنشاء حقل يعين آليات داخلية ظلت مختفية إلى حد كبير.

ثورة أدبية

وجد الأدب أولاً، في هذا، فضاء جديدا تمت دراسته بأناة. وظهر، بعد «قصة» التعب القديمة، التي ابتدعت في القرن الثامن عشر، والتي وحدت مراحل الإرهاق التي تركز على الأفعال والوضعيات، (ظهر) مرجعٌ آخر أكثر فردية وشخصية بشكل مباشر أيضًا، يخوض بشكل أقل في الظروف والانطباعات وانحراف الأحاسيس والخيال والعواطف والمعتقدات والأوهام. تلك التي تصدر عن شهود «أحياء»، سينقل الأدب صوتهم، وتلك التي عبَّر عنها بعض العمال بالفعل في سنوات الثلاثينيات من القرن التاسع عشر

لا شيء آخر، إذن، سوى تصور، معاصر، لكنه نقيض لما يثير، الميكانيكي والمهتم بالطاقة. وفي ذلك وعي باستحالة معينة. [أي] التمسك بالفيزيولوجيا لوحدها. مثل عياء رامونتشو، الذي وصفه بيير لوتي، و«إحساس» الهرب، وهو يمزج بين الواقع والحلم، بعد سباقته وتحدياته ضد الرماة الإسبان، كـ «حالة» عامة، وذلك بجر الحس الشامل نحو الخيال، وجر الانحراف من انحراف عضلي إلى انحراف ذهني:

لقد حلت راحة جميع حواسه [...] مع نوع من الفتور الهنيء، تحت أنفاس الصباح البكر، جسده الغض، تاركة روحه في نصف الحلم، ولقد كان على دراية

تامة بهذه الانطباعات والأحاسيس [...] بعد رحلات التهريب (التي يقوم بها)[1121].

هو عينه الإجهاد الذي عاشته كاثرين مرة أخرى، المشرفة على «دفع» الناقلات المنجمية، في رواية جرمينال، في عام 1884، والغارقة في الخيال، وهي تمرع بعيدًا بواسطة السلالم عن منجم جان-بارت، وسلالم كابلات الصعود قد تقطعت. تظهر لديها الإحساس، أولا، بتصلب «الساقين والذراعين[1122]» بعد قطع عدة درجات؛ وإحساس بالحرارة بعد ذلك، وبـ «وخزات» على الجلد مباشرة، وبإدراكات مشوشة يزداد غموضها بالتدريج، وإحساس بالاتصال المتكرر مع «الحديد والخشب» تحت القدمين وعلى اليدين، وإحساس، قبل كل شيء، بـ «ألم»، أكثر «حرقا»، ثم «الدوار»، والشعور القارّ، وصور مفاجئة ومقلقة تغزو (الذهن)، والعودة الخانقة لحكايات قديمة عن أطفال سقطوا في الحفرة بعد أن أفلتوا الإمساك بالقضبان، وأخيرا الانهيار الذي لا يمكن كبحه، وفقدان الذات: «لم تعد على وعي بحركاتها. وحينما ترفع نظرها إلى الأعلى، ترى المصابيح تدور في شكل لولبي تدفق دمها، وشعرت أنها تموت، وأن أدنى نفس سيعجل بنهايتها[..] لقد كانت تحلم في إغمائها[...]»، وبعد لحظات قليلة، أخيرًا، (ستحس) بـ«وهج الشمس»، «بالجزء العلوي من الحفرة الذي وصلت إليه بفضل أكتاف المارين الآخرين، مجهولين وحانقين، وبهذا الضوء الذي لا يمكن استيعابه على الفور، للدرجة أنها شعرت بوجودها يهرب[1123]». لا يتعلق الأمر، (إذن في هذا الوصف) على ما يبدو، بكليات الميكانيكيين، وإنما بإثراء (وصفي) هائل لعالم الجهد.

بل يعد هذا الوصف حاسما، بعد غاص نص زولا لأول مرة في أبلغ ثنايا التعب ذاتية، مدققا في جانبه الشخصي المحتم، إلى غاية الذعر والقلق وانحرافات التفكير

(1121) .Pierre Loti, Ramuntcho, Paris, 1897, p. 25-26.

(1122).Émile Zola, Germinal, op.cit., p. 1406.

(1123).Ibid., p. 1406-1407.

والانهيار؛ مقدما صورة مناقضة عن ريبن داخلي، لا يمكن للبحث الجاف عن الأرقام والحساب سبر أغواره.

التوغل نفسه، في جانب آخر، في تعب البحارة في رواية عمال البحر، الذي أثاره **فيكتور هوغو** عام 1866: عبر التوسع المستمر في سبر المجال النفسي والعاطفة والمفاجأة وأثرها على المقاومة الطوعية. وهو ما قاد جيليات، البحار، وقد أصلح قطعة من مركبه الذي غرق ظلما، لأن يضع، ربما على الرغم منه، فعله في عالم ذهني يتجاوزه. وقد تغذى تصميمه على الانتقام ممن كسر الهيكل وألواحه رصاريته. سيمتد غضبه، وحركته ستتاخم الكون، وجهده سيسمو «للكونية»، ومنه الإلحاح في تجاهل التعب الشديد، وأيضا السمو عبر تغيير الأفق: «عادة ما يكون العياء المادي خيطا يسحبنا نحو الأرض؛ لكن تفرد العمل الذي قام به جيليات أبقاه في نوع من المنطقة المثالية والغسقية. يبدو له في بعض الأحيان أنه يدق الغيوم»[1124]. تلامس حركاته اللانهاية، يخترع تعبه «العظمة» بحثًا عن قوى غير متوقعة تحت الأرض، تختلط إرادة عمالية صلبة مع ثوران شديد للبحر؛ ثوران شخص يريد الانضمام إلى هذا البحر عن طريق محاكاته. لقد استنفد جيليات نفسه من خلال الإحساس بذاته في حركاته، كما لم يحدث له من قبل، مستكشفا ما يحتويه الإنهاك مما لا يمكن وصفه (للآخرين)، ومما يمكن، مع ذلك، تقاسمه معهم.

لقد تم استحضار الكثير من العناصر الذاتية (في التعب)، وعلى نطاق واسع؛ كالسباق على سبيل المثال، وذلك في نص ذي نفحة فزيولوجية، حول تعب راكبي الدراجات، في عام 1897 تعب يحال إليه لحظة تلو الأخرى، ملاحظة بعد أخرى، صورة بعد أخرى خلال رحلة لمدة اثنتي عشرة ساعة؛ (وذلك عبر) مراقبة «الانطباعات»، وصل في تغيراتها وانحرافاتها: ففي الساعة السابعة، «لا يرى (راكب الدراجة) أحدًا، ولكنه يسمع صوت طفل ينادي عليه»، وفي الساعة الثامنة، «تسيطر عليه فكرة هذيانية؛ حيث يعتقد أنه على كوكب آخر طريقه هو

(1124) Victor Hugo, Les Travailleurs de la mer, Paris, 1866, p.308.

المدار. المدرب هو الشمس، والعشب، والمسار الكسوفي [...]» وفي وقت لاحق، سيعتقد أنه قد «ركِّب في ظهره أيرومتر[1125]». وبالتالي يتجاوز النظرة الداخلية مع الأوهام والجهد، ويتجاوز فيه الانفلات من الوعي مع التعب؛ إنه حقل جديد حيث تهيمن الظواهر الداخلية بيقينها وتخمينها في الآن نفسه.

اختراع الإجهاد

في نهاية هذا القرن اكتُشِفَ شيء جديد يخص «المجال الذهني»، وهو شيء عميق بدوره، يكمن في شعور «بضغط» غير مسبوق؛ وهو المعادل على المستوى الداخلي الحميم لما يبدو هو المردودية على المستوى المادي- انفعال معين ناجم عن السياق الحضري والصناعي والاقتصادي في نهاية القرن؛ فقد ولد التعب في بيئة نظر إليها على أنها ظهرت فجأة. إنه مصدر غير مسبوق «للألم»، يتعلق بكيفية شغل المكان والزمان.

تكشف شهادة باتيست ساندر ذلك: ففي ثمانينيات القرن التاسع عشر، اكتشفت يوميات هذا الأخير من لدن منى عزوف في عام 1979. لم يستحضر هذا الشخص الذي كان معلمًا من نمط خاص، فقط للمكانة الخاصة التي يحظى بها المدرس داخل جماعة قروية أو حضرية إبان الجمهورية الثالثة، و«الاعتراف» به كسلطة محلية، وبمسؤوليته «المتعددة»، ودوره كسكرتير للعمدية (البلدية)، وتنشيطه لـ «المؤتمرات الشعبية»، ومساهمته في «المسح الخرائطي»، إلى «ضبطه لمسارات الطرق»، إلى «أعمال الأكاديمية» المحلية، و«(كتابة) المراسلات الخاصة»، و ما إلى ذلك، بل استخدم أيضًا تعبيرًا لم يكن تقريبا معروف آنذاك. لقد اعترف بـ (أنه عاني من) «إرهاق»[1126]، به كشف عن شعور بحمل زائد، وإضافة المهام التي يجب إنجازها في غضون فترة زمنية محدودة؛ (أي) الإحساس، بتعبير آخر، بـ

(1125).Philippe Tissié, La Fatigue et l'entraînement physique, Paris, 1897, p. 44-46.

(1126) .Mona Ozouf (éd.), La Classe ininterrompue : cahiers de la famille Sandre, enseignants, 1780-1960 - Bertrand, Baptiste, Joseph, Marie Sandre, Paris, Hachette, 1979, p. 414-415.

«إجهاد مفرط»، من الانتظار والعمل والسلوك. لكن لا شيء مفاجئ، للوهلة الأولى في ملاحظة هذا الإفراط، حتى لو كان متعلقا هنا بالمكانة الاستثنائية للمعلم في المدرسة العامة الإلزامية. ومع ذلك هناك فروق دقيقة لا يمكن تجاهلها، وأشياء جديدة أيضا؛ حيث يصر المعلم على تصور جديد للزمن، والحاجة إلى التصرف بشكل مكثف وسريع، وضرورة السيطرة على حالات الطوارئ والإكراهات، وتلك المتعلقة بمقاومة المهام المشتتة. الجدة توجد هنا، بعيدا عن الكلمة نفسها؛ حيث تعكس العلاقة بين التراكم وغياب فترة استراحة والسرعة. لم يكن سوى شاهد رئيس على تغيير عميق في الثقافة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

سيعرض المصطلح نفسه، بالأخص مع سباق الخيل، أولاً في السنوات 1860-1870؛ حيث طبق «على الفارس الذي، خلال الجزء الأول من السباق، سيقود حصانه بسرعة كبيرة، مقارنة بالمسافة التي عليه قطعها[1127]». وهو الشيء الذي سيؤكده إميل ليتري (في معجمه) بشكل جد عادي في عام 1870: «الإفراط في إتعاب دابة حمل أو أي دابة أخرى، بأن يجعلها تسير بسرعة كبيرة أو لمدة طويلة[1128]»؛ الشيء الذي يولِّد إفراطا، في حالة الأبدان، للمواد الضارة، لأنها لا تتفكك. و«السرعة الكبيرة»، علاوة على ذلك، شيء أساسي، مرتبطة بشكل مباشر بديناميكية تحضر فيها بشكل دائم أحسن النتائج والأرقام القياسية؛ وهو مطلب أصبح يرمز لعالم وزمن (جديدين). وحلبات الفروسية هي المثال الأول عن ذلك، والتي كانت موضوع «أشغال كبرى[1129]»، مثل حلبة لونجشان الباريسية، التي تم تشييدها في عام 1854، والتي كانت تجذب المراهنين بقدر ما تجذب محبي الإنجازات (الرياضية) الكبرى. وقد كانت السرعة في النصف الثاني

(1127).Ned Pearson, Dictionnaire du sport français, Paris, 1872, art. « Surmener ».
(1128).Émile Littré, Dictionnaire de la langue française, 1863-1872, t. IV, 1870, art. « Surmener ».
(1129).Henry Lee, Historique des courses de chevaux, op. cit., p. 270.

من القرن شيئا مبهرا؛ حيث (كان الناس) يقارنون بين أرقامها ويعلقون عليها. رقاموس التاريخ الطبيعي العام لـشارلز دوربيني الذي يمجد «(الخيول) الأصيلة» التي تكون دائما «مبهرة»، وهي تعبر 80 قدمًا في الثانية؛ «ما يعني سرعة تقارب 9 ميريامتر أو 23 فرسخا في الساعة[1130]». وهي ملاحظة، بالتأكيد، «مثالية»؛ حيث تقابل 9 ميريامتر 90 كيلومترًا في الساعة[1131]. تشبه مجلة ألمانا دو ماغزين بيتوريسك سباق خيل إيبسون بـ «عبد وطني»، وركض الفرسان بـ«عاصفة»[1132]. والفرس الحقيقي يجب عليه أن «يطير[1133]»، رشيقا وممشوقا.

تتعدد الأمثلة وتتقاطع مستحيبة لشعور سببه ظهور مفاجئ، فقد تعمم «الإسراع»[1134]، بما في ذلك تقليص المسافات، وإغناء التقنيات (بأخرى جديدة)، وتكاثر المحركات، وفورية التلغراف، وانتشار الهاتف؛ حيث يعرض الإسراع «مجتمعا ماديا جديدا[1135]»، مغيِّرًا بذلك (معنى) المكان والزمان، مع ترسيخ (فكرة) «هرولة الحياة[1136]»؛ أي هرولة أناس هم مفاجأة وعن وعي «مستعجلون[1137]». بل ابتكر القاموس الموسوعي للصناعة عام 1888، في المقارنة بين 72 سرعة مختلفة لتقدير أهميتها وخصائصها بشكل أفضل: من السير إلى الركض، ومن الخبب إلى العدو، ومن القطار إلى الترامواي، ومن الرياح إلى الإعصار، ومن الكرة إلى النبلة، ومن الزورق الشراعي إلى زورق طوربيد، ومن

(1130).Charles Dessalines d'Orbigny (dir.), Dictionnaire universel d'histoire naturelle (1841- 1849), Paris, 1861, art. « Cheval ».

(1131). يساوي كل ميريامتر كيلومترا واحدا.

(1132).« Le derby d'Epsom », Almanach du magasin pittoresque, année 1883.

(1133).Ned Pearson, Dictionnaire du sport français, op. cit., art. « Voler ». « L'action légère le fait ressembler à un oiseau qui s'envole. »

(1134).Marie de Manacéine, Le Surmenage mental dans la civilisation moderne . effets, causes, remèdes, préface de Charles Richet, Paris, 1890, p. 134.

(1135).Alain Beltran et Patrice A. Carré. La Fée et la servante la société française face à l'électricité, XIXe-XXe siècle, Paris, Belin, 1991, p. 64.

(1136).Marie de Manacéine, Le Surmenage mental dans la civilisation moderne, op. cit., p. 134

(1137).Jules Claretie, La Vie à Paris, 1905, Paris, Eugène Fasquelle. 1906, p. 368.

الضوء إلى الصوت، ومن الميكانيكا إلى الكهرباء[1138]. وكل هذا إحصاء لا ينتهي يؤكد على عمق انشغال. هو التسارع الحتمي الذي صار يؤثر على اليومي.

نشأ «الإرهاق» عن مثل هذه الاعتقادات، فقد ولد أيضا من هموم مقلقة: أي قلب فوائد العجلة، و«إفراطاتها» المنتشرة، الغامضة، التي غزت كل مكان. أكد (زعم) ألبرت ماتيو، أخصائي الصحة الغذائية، متخصص في أمراض المعدة، مرب في وقت فراغه، أن به تعبا مختلفا وجديدا ولد من (الحياة) الحضرية، من هذه المدينة التي توسعت بشكل مفرط في القرن التاسع عشر، مضاعفة مصادر الإثارة والتدفقات: «تراكم الحياة الاجتماعية في المدن الكبرى، كما شيدتها الحضارة، أسباب لإرهاق العصب[1139]». فلم يعد الأمر هو «الاضطراب» القديم؛ أي ذاك الذي عرفه التنوير، أو التكدس أو «الزريبة»، و«الدوحة» الناجمة عن تزايد الألفة الاجتماعية، ولا حتى «التحفيز» البسيط على الفعل، ولا صدى العوائق والضوضاء، ولكن الزيادة الهائلة في الرسائل، والتعرض المتكرر للإضاءة والحركات، والإشارات، والوفرة الزائدة في المعلومات والمطالب الملحة، والشعور بـ(أنك) «مغمور»، وباضطراب شبه ذهني؛ (حيث) «يمكن لأية إثارة حسية طويلة أو عنيفة أن تتسبب بالتعب[1140]». وهذا إنما إحساس ناجم عن عالم مضطرب يتحكم في هذا التعب، وهذا الظهور الداخلي هو الذي يجعله مختلفا. وبالتالي، فإن «الإرهاق» إنما هو نتيجة لهذا الفائض، وإنهاك للقوى من خلال الإفراط في الحث والإعلانات والاتصالات والنداءات. وهو ما عينه بإصرار موريس دو سيلبور إبان المعرض العالمي (إكسبو باريس) لعام 1889:

العرض، والتقديم، والملصق، والنشرة الدعائية؛ الدعاية بجميع أشكالها على ظهر شخص، وهو يطوف في سيارة ويصرخ بشدة ماذا تريد؟ مشعلا غازات

(1138).Eugène-Oscar Lami (dir.), Dictionnaire encyclopédique et biographique de l'industrie et des arts industriels, op. cit., art. «Vitesse» (1888).

(1139).Albert Mathieu, Neurasthénie (épuisement nerveux), Paris, 1892, p. 17

(1140).Philippe Tissié, La Fatigue et l'entraînement physique, op. cit., p. 108.

الطقوس، وعرلا الأكشاك إلى مهرجين (بأثواب) مشرقة، ومناديا على أشعة الكهرباء لمساعدتنا! هذا هو الازدهار الحديث الكبير الذي يحرك خلية النحل المشكلة من أناس في عجلة من أمرهم، والذين يتلاقون فيما بينهم، ويتصادمون، يمرون بجانب بعضهم البعض، ويحيون بعضهم البعض، ويشتمون بعضهم البعض، يبيعون ويشترون ويسددون، ويستدينون بالأخص[1141].

صارت الكهرباء «الجنية والخادمة[1142]»، إلى جانب أشياء أخرى، أكبر مثال على هذا الغزو المؤذي، الذي يخلط شلالات من الإشارات والملصقات والدعوات والفتن. يصف زولا بازارا، في عام 1883، (في رواية من أجل سعادة النساء) قائلا مع «توهج فرنه [...] مشتعلا مثل منارة، (صار) يمثل لوحده ضوء المدينة وحياتها[1143]». أو عند إميل فيرهايرين، في عام 1895، واصفا إياها بقوله: لقد صار بـ «أبراجه من نار وضوء»، يظهر كـ «وحش ينفجر بضوضائه[1144]».

انضافت إلى ذلك أيضا ظروف أخرى وممارسات أخرى. الصحافة على وجه الخصوص، التي من المفترض فيها أن تقلب العالم الحميمي، وتنشر الطوارئ والمعلومات اليومية وتأثيرات التحذير، من خلال الزيادة من المفاجآت والعواطف، ومراكمة الكل في أقصر زمن. وأيضا الضغط على الكاتب، من خلال عمل «معروض على المدى القصير من لدن المجتمع[1145]». والضغط على القارئ، من خلال نصوص تتحدى أي استيعاب متحكم فيه: «يعتاد الأشخاص الذين يقرؤون كثيرًا على تعاقب سريع من المشاعر والعواطف والأفكار المختلفة جدًّا، ثم يتوقعون أن يجدوا نفس الوضع في الحياة الواقعية[1146]». ويتقع العديد

(1141).Maurice du Seigneur, Paris, voici Paris, Paris, 1889, p. 1-2.

(1142).Voir le titre du livre d'Alain Beltran et Patrice A. Carré, La Fée et la servante, op. cit.

(1143).Émile Zola, Au Bonheur des Dames (1883), Paris, Garnier-Flammarion, 1971, p. 65.

(1144).Émile Verhaeren, Les Villes tentaculaires, Paris, 1895, p. 60.

(1145).Aimé Riant, Hygiène du cabinet de travail, Paris, 1883, p. 116.

(1146).Marie de Manacéine, Le Surmenage mental dans la civilisation moderne, op. cit., p. 157.

من الأشياء الجديدة الموعودة، وذلك بعد بضعة عقود، بأبسط وبأتفه الابتذالات، لكنها أشياء عيشت، على الفور، كأنها إسراع لا يحتمل، كضغط جديد، بالمخاطرة بكل طمأنينة. ستتساءل ماري دي ماناسين، وهي عَلَّامَة روسية، في عام 1890 عن (معنى) «الحضارة الحديثة»، مركزة على الزيادة المستمرة والرقمية للصحف: من 780 في عام 1833 في ألمانيا إلى 2500 في عام 1855، ومن 132 في عام 1827 في فرنسا إلى 1637 في عام 1866[1147]. مع (ما سيرافق ذلك من) نتائج حسية حتمية: «الاضطرابات البصرية، والدوخة، والتعاقب السريع للأفكار وارتباكها[1148]». ومنه هذا «الإرهاق الفكري» المرتبط بالخلط المنكور بين «مشاكل لا حصر لها من جميع الأصناف[1149]»، من معلومات ضخمة، مجتاحة وغير منظمة، وهي ما تندد به أيضًا إميل زولا قائلا: «قد يكون من الجيد عدم حمل كل ضجيج القرن في الجمجمة. فقد صار رأس الإنسان ثقيلا اليوم للغاية بسبب كومة الأشياء المروعة التي تضعها فيه، مختلطة، الصحافة يوميًا[1150]».

عديدة هي الحركات والمهن التي سيتم استهدافها؛ من الأنشطة الليبرالية إلى الأنشطة الفكرية، من الممارسات التجارية إلى الممارسات الإدارية: «لم تعد هناك أية راحة ممكنة؛ حيث يجب أن تأخذ لقسم في جميع الأوقات للإجابة. في هذه الحياة الخالية من الهدنة، لم تعد هناك أية لحظة للراحة، ولا أية ساعة للاسترخاء [..][1151]». وقد هيمنت النماذج الأمريكية مؤكلة على الغلبة المتزايدة للعالم الجديد، بما هو «نموذج» لـ«الحياة الحديثة»، والتي تم وصفها بإلحاح في تسعينيات القرن التاسع عشر؛ «(حيث) يقوم خمسة عشر شخصًا بخمس عشرة عملية

(1147).Ibid., p. 145.
(1148).Ibid., p. 170.
(1149).J. A. Corelli, La Neurasthénie : histoire, symptômes, pathogénèse, traitement, thèse de médecine, Lausanne-Turin, 1895, p. 34.
(1150).Émile Zola, préface au livre de Charles Chincholle, Les Mémoires de Paris, Paris, [illegible]
(1151).Aimé Riant, Le Surmenage intellectuel et les exercices physiques, Paris, 1889.

مختلفة[1152]، في الآن نفسه وفي المكان (المبنى) نفسه؛ وتمر ثلاث أو أربع عربات في الآن نفسه[1153]، في كل دقيقة ومن المكان نفسه. وقد جعل ثيودور روزفلت منها عنوانًا لكتاب الحياة المكثفة [strenuous][1154]. هناك صورة ترفض نفسها؛ إنها صورة المُصَنِّع الذي يزعم بأنه لم يعد يتبقى له أي وقت لنفسه، فهو منشغل طوال الوقت دون أدنى راحة. ينضاف إلى ذلك، أكثر من دي نيل، اعتبارات نفسية، واستحضار الهواجس، والمثابرة، و(مجموعة من) الأفكار الملازمة:

أعكف على عملي من الساعة الـ 8 صباحًا حتى الـ10 مساءً. بالكاد لدي وقت لتناول الطعام؛ حيث أتناول في معظم الأحيان طعامًا باردًا لا طعم له. أما في المساء في الساعة الـ 10، فأشعر بتعب شديد لدرجة أنه لا يمكنني معرفة جنيهاتي إلا بصعوبة كبيرة. خلال الليل، يسيطر العمل على تفكيري حتى إنني لا أتمكن من الحصول على قسط من الراحة إلا في الصباح فقط. عندما أستيقظ أشعر بالإجهاد ويجب علي أن أشرب بعض أكواب الكونياك الصغيرة حتى أتمكن من العودة إلى العمل[1155].

لم يعد الإرهاق مجرد إتلاف للحواس أو فقدان للأعصاب، بل إنه أيضًا توغل نفسي، حفاظ لا يُقهر على الأفكار المقلقة والمتكررة. ومن هنا هذا التسلسل الممكن الذي قد يعرفه التعب الجسدي والإرهاق الذهني: من الاضطرابات الصحية الشخصية، وفوضى المشاعر، والمعاناة الحميمة؛ والتشابك الذي يزيد من حدته تعميق الحميمي (الداخلي). حتى المتبضعات في رواية سعادة النساء واجهن، في «الكاتدرائية» التجارية الجديدة التي ذكرها إميل زولا، إثارة

(1152).Paul de Rousiers, La Vie américaine, Paris, 1892, p. 380.

(1153).Louis-Laurent Simonin, Le Monde américain : souvenirs de mes voyages aux États-Unis, Paris, 1876, p. 36.

(1154).Theodore Roosevelt, La Vie intense (1902), Paris, Flammarion, 1903.

(1155).Ralf Wichmann, Die Neurasthenie und ihre Behandlung : ein Ratgeber für Nervenkranke, Berlin, 1899, p. 5.

«منهكة»: الاختيار ممكن دائمًا، ولكنه اختيار مفرط، والحساب دائمًا ضروري، ولكنه مزعج، فقد أتعب زائرات لوغراند مكاران الخافية المتزايدة (للمكان) بالقدر نفسه الذي أتعبتهن إمكانية نفقاتهن (استهلاكاتهن) المحدودة: «كانت رغبتهن المشبعة تتمتع بهذا النهج المؤلم، الذي تزيد من إثارة فضولهن[1156]». ها هن، في نهاية اليوم، وقد «جلسن وقد أرحامهن التعب[1157]»، مبهارات وغير قادرات على مغادرة المكان.

«الصراع من أجل البقاء»

يضاف إلى قلب هذه الإكراهات الدور الجديد المنسوب إلى «الصراع من أجل البقاء»؛ ذاك الذي أذاعته قراءة سطحية لـتشارلز داروين بلا شك في نهاية القرن؛ ذلك الصراع الذي حرّرته الديناميكية الديمقراطية ووعدها بالمساواة: «(كان) التسابق قويا جدا، والمنافسة شرسة للغاية، في جميع الوظائف، الليبرالية والتجارية والصناعية. نريد أن نسمو نحو الأعلى، دائمًا إلى الأعلى[1158]». وهذه إشارة مشكوكة لـداروين، الذي من المؤكد، أنه لم يزعم أبدًا أن «التطور عن طريق التكيف البيئي» قد يقود إلى «الاكتمال»[1159]، لكن تلك إحالة تم تقاسمها لتستقر بما يكفي، وبشكل دائم في الوعي العام. سيعود التعبير للتركيز على التوترات التي تسكن المجالات الاجتماعية والانتظارات والسلوكيات، سيعود أيضا لتبرير الشعور بالاستعجال، وللهرع نحو الفعل، وللحيوية التي لم تكن معروفة آنذاك، الشيء الذي شدد عليه تعميم الرأسمالية التنافسية «كل تأخير، كل تأجيل قد يفقده نصيبه في الصراع الذي تنخرط فيه جميع الكائنات باستمرار[1160]».

(1156).Émile Zola, Au Bonheur des Dames, op. cit., p. 264.

(1157).Ibid., p. 269.

(1158).Albert Mathieu, Neurasthénie (épuisement nerveux), op. cit., p. 17

(1159).Yvette Conry, L'Introduction du darwinisme en France au XIXe siècle, Paris, Vrin, 1974, p. 39 et 310.

(1160).Marie de Manacéine, Le Surmenage mental dans la civilisation moderne, op. cit., p. 134.

وهكذا عزز «الكفاح من أجل الحياة[1161]» من شرعية كلمة «إرهاق»؛ (حيث صار أمر وجوده) يقينا عند الأطباء النفسيين في نهاية القرن التاسع عشر، وهم ينبهون إلى التهديد الذي يمثله الإنهاك العصبي:

لا يستطيع، لسوء الحظ، التنظيم الاجتماعي الحالي، القائم على منافسة اقتصادية غير مقيدة، سوى أن يساهم في إبقاء الفرد في حالة من النشاط العصبي المفرط المستمر، الذي هو منبع لا ينضب من العصاب والانحطاط[1162].

نظم انتشار الدرجات الاجتماعية، مع النصف الثاني من القرن، والتسلسل الهرمي للتقنيات والمهارات والمسؤوليات، المجال الجديد من الشهوة والتنافس. وهناك مثال يمكنه لوحده أن يمثل للمؤهلات المهنية والتدرج المهني، وذلك في شركة السكك الحديدية في نهاية القرن التاسع عشر؛ حيث (كانت الشركة تتوفر على) 14 عاملا للإدارة، و28 للأعمال والسكك، و43 عاملا «للمعدات وللجر»، و64 عاملا للتشغيل[1163]. ويتكون «مسار» المهنة من مراحل بطيئة وشاقة وملزمة. كما يتضح من وصف «الفئات» التي تحيي وتميز بين الكتبة في رواية زولا من أجل سعادة النساء.

لقد كانوا كلهم، في الرف، من المبتدئ الذي يحلم بأن يصير بائعا، إلى الأول الذي يغبط ذاك الذي يملك وضعية أسمى؛ فلم يكن لدى الجميع سوى هوس واحد، هو طرد الزميل الذي فوقه ليتسلق خطوة نحو الأعلى، والتهامه إن صار عقبة أمام صعوده؛ وصراع الرغبات هذا، وهذا التدافع بين البعض، كان مثل

(1161). أثار بيير دوكوبرتان Pierre de Coubertin في رسالته إلى ناخبي مقاطعة هافر سنة 1898 "الكفاح من أجل الحياة"، وأكد أنه سيجعله أكثر أمانا وأكثر فعالية بالنسبة إلى الرياضة.

(1162).J. A Conelli, La Neurasthénie, op. cit., p. 34.

(1163).Yves Lequin (dir.), Histoire des Français, XIXe-XXe siècles, Paris, Armand Colin, 1983- 1984, t. II, p. 329.

التشغيل السليم للآلة، مما يثير من سعار البيع ويشعل موجة السعاج هذه التي أدهشت باريس[1164].

(هناك أيضا) درجات، على صورة اللمقرطة الأولى التي شهدها القرن التاسع عشر، ولكنها مختلفة وأكثر تعقدًا وأقل «تضامنا». يبدو أن كل واحد بدأ يتحرر أكثر فأكثر من «الصالح العام» كي يستطيع تخيل، بشكل أفضل، مساراته الشخصية ومزاياه الفردية. (لقد ظهرت)، بعبارة أخرى منافسة غير مسبوقة، أكثر شخصية، إن لم تكن «أنانية»، كعلامة على تزايد إثبات الذات في المجتمع الديمقراطي، والذي عُدَّ أمرا أكثر خطورة أيضا، الشيء الذي فحصه مطولا أدريان بروست وجيلبرت بالي متسائلَيْن، في نهاية القرن، عن وهن الأعصاب:

كانت الطبقات (الاجتماعية)، في الماضي، كما لو أنها مسجونة خلف حواجز لا يمكن القفز عليها، القليل فقط من الأقوياء هم من كانوا يسمون للخروج من الوسط، حيث وضعتهم الفرصة. يحاول الجميع، اليوم، السمو أكثر من أسلافهم؛ فقد نمت المنافسة، وتضاعف تضارب المصالح والأشخاص في جميع فئات الحالات (الاجتماعية) [...]؛ حيث يفرض حشد من الأفراد على أدمغتهم عملا فوق قوتهم [...]، وينتهي المطاف بالجهاز العصبي، بسبب ضربات التهييج الدائم، إلى الإنهاك[1165].

خلقت هذه الآثار انقسامات جديدة، تصم البعض بـ «الضعفاء»، ومفصلة تخيلا من القوة والصلابة، إن لم يكن من الفحولة. ومنه جاءت محاولة التقليل من مقاومة النساء، اللواتي اعتُبِرن «أكثر تعرضًا لهذا النوع من الإنهاك العصبي»[1166]؛ أو وصفن بأنهن «كائنات نظامها العصبي ضعيف ومضطرب»،

(1164) Émile Zola, Au Bonheur des Dames, op. cit., p. 190.
(1165) Adrien Proust et Gilbert Ballet, Hygiène du neurasthénique, Paris, 1900, p. 10.
(1166) Léon Bouveret, La Neurasthénie épuisement nerveux, Paris, 1890, p. 14.

الشيء الذي شجع على السقوط «في مكافحة عدد لا يحصى من المنافسين»[1167]. وبالتالي فقد استهدف بعض «الضحايا» أكثر من غيرهم. صار يمزج الإرهاق، أو بعبارة أخرى، القلق الكبير لعالم في حالة تسارع، وإن كان لا يخلو هذا المزج من بعض الارتباك، بين المعدمين و«المتقاعسين»، والذين يعانون من الهشاشة والمتهورين.

هناك، أخيرًا، طريقة أخرى للعثور على تناقضات تقليدية جدا، وأقصد النقد الخفي لأولئك الذين يطمحون في «الرقي»، في التميز، وفي النجوء إلى المعرفة لإثبات وجودهم. مثل هؤلاء الجنود من أصول شعبية الذين درسهم أنجيلو موسو في تسعينيات القرن التاسع عشر، الذين كانوا كلهم «بنية صلبة»، لكنهم يسقطون في الامتحانات، و«يتعرقون بقطرات كبيرة تسقط على أوراقهم»[1168]، أو هذا البحار «الذي يقل تعليمه عن المستوى الابتدائي»، والمعروف باسم فليب تيسي، الذي طمح في النجاح في «اختبارات قبطان المسافات الطويلة»، لكن أصابه «الإرهاق»، وغلبته صعوبات التعلم، وصار عاجزا، و«أصابه الهزال، واصفر لونه، واضمحل جسمه»، وصار يصل إلى غاية الإرهاق، قبل أن «يحتقن الدم في جسمه» و«يموت بالسل على سرير مستشفى»؛ هو الذي كان «البريتوني (من إقليم البروتاني) المشرق»[1169]؛ أو هذا الخادم الخاص الذي يبلغ «أربعين سنة»، والذي ذكره فرانسيسك سارسي سنة 1895، خادم منزلي غامض يرغب في تعلم القراءة، ولكنه سرعان ما كان ضحية جهوده، وغير قادر على السيطرة على صعوباتها، على الرغم من «قوة إرادته»:

يستمع لي بتركيز شديد؛ ورأيت تحت الجهد الذي يقوم به تصخم عروقه صدغيه والعرق يتصبب من جبينه. يستمر الدرس ساعة في اليوم، ويبقى، بعد

(1167).Marie de Manacéine, Le Surmenage mental dans la civilisation moderne, op. cit., préface de Charles Richet, p. IX.

(1168).Angelo Mosso, La Fatigue intellectuelle et physique, op. cit., p. 77

(1169).Philippe Tissié La Fatigue et l'entraînement physique, op. cit., p. 122.

الحصة، هذا البائس، تائها، ولم تكن لديه الرغبة في فعل أي شيء. لم يعد يعرف ما كان يفعله، وبعد ثمانية أيام صار يعاني من حمى في الدماغ[1170].

سيكون الإرهاق تهديدا لمجتمع تنافسي يميل نحو الاكتمال. ولهذا أكد إميل زولا قائلا: «نحن مرضى، هذا أمر لا شك فيه، مرضى من التقدم؛ فقد حدث تضخم في الدماغ، ونمت الأعصاب على حساب العضلات»[1171]. يبقى أن الإنهاكين معا، البدني والذهني، تقاربا، وتقاسما المخاوف والعذابات. هناك يقين أساسي أثاره الكثيرون، في نهاية القرن التاسع عشر وهو: إدانة «جيل متعب»[1172].

الإرهاق المدرسي

من المفترض أن تكون المدرسة في خطر من ذلك. إن انتشارها الكبير في القرن التاسع عشر، ومعارفها المتزايدة وإبداعها للبرامج والامتحانات والجزاءات، عزز، بالقدر نفسه، من وجود صورة مماثلة عن «لإفراط»، فقد أقلق ابتكارُها بسبب طموحه، وتعليمها أقلق بتوسعه.

لقد صدم تطور المعارف المفاجئ أولا، منذ بداية القرن، الناس. ومضاعف وجود النصوص ذات بعد «شامل»: موسوعة شعوب العالم[1173]، والموسوعة الحديثة[1174]، وموسوعة المعارف المفيدة[1175]، والموسوعة المنزلية [1176]،

(1170).Francisque Sarcey, « Les illettrés au régiment », Le Petit Journal, 4 avril 1895.

(1171).Émile Zola, « La littérature et la gymnastique », Mes haines (1866), Paris, Charpentier, 1879, p. 57

(1172).Philippe Tissié, La fatigue et l'entraînement physique, op. cit., p. 34-35.

(1173).Encyclopédie des gens du monde, 22 vol., Paris, 1833-1843.

(1174).Encyclopédie moderne, 26 vol., Paris 1823-1833.

(1175).Encyclopédie des connaissances utiles, 19 vol., Paris, 1832-1837.

(1176).Encyclopédie domestique : recueil de procédés et de recettes concernant les arts et métiers, l'économie rurale et domestique, 3 vol., Paris, 1822.

والموسوعة الكاثوليكية[1177]، والموسوعة الصغيرة للأطفال[1178]، وموسوعة الشباب الجديدة[1179]؛ وذلك فقط في الأعوام بين 1820 و1830. وقد ازدادت إحالاتها حجماً، وإضافاتها تنوعاً؛ حيث شهدت الموسوعة الحديثة سنة 1846 «زيادة حجمها تقريباً إلى الضعف[1180]» مقارنة بطبعة 1823؛ وبيير لاروس، في عام 1866 الذي سيؤكد أنه «لم يسبق للفكر أبداً، وقد هيجته باستمرار الاكتشافات الجديدة، أن عالج كما كبيراً من الأسئلة والمشكلات الجريئة[1181]».

ومنه جاءت (ضرورة) تعبئة للخيال، والخوف من اكتساب معارف لا سلطة لها، وعدم الشك في أشكال مهددة للدراسة، ومن التعليم «القسري»؛ (حيث) «يراد إدخال الكثير من المعارف إلى رؤوس أطفال»، مثلما كان يشكو أدولف تيرز في البرلمان في 13 يوليو 1844. «إن أطفالنا يوم كامل من العمل أطول من العامل البالغ»، يضيف فيكتور دوروي، بدون أي تحقق فعلي من كلامه، بعد بضع سنوات[1182].

ومنه الضرورة الملحة: العديد من الدروس، المتسرعة، والعمل المبكر أو ما قبل الأوان. و سيندد فيكتور دي لابراد، بمثل هذه «الإجراءات»؛ حيث كان الأول الذي لجأ في عام 1868، إلى استعمال فعل قاعدي استخدم حديثاً في مجال الخيول: سيؤدي العمل المدرسي إلى «إرهاق surmener عقولهم»، وسيوتر

(1177).Encyclopédie catholique répertoire universel et raisonné des sciences, des lettres, des arts et des métiers, formant une bibliothèque universelle, Paris, 4 vol., 1839.

(1178).Petite Encyclopédie des enfants, 1 vol., Paris, 1825.

(1179).Nouvelle Encyclopédie de la jeunesse, ou Abrégé de toutes les sciences, 1 vol., Paris, [illegible].

(1180).Léon Renier (dir.), Encyclopédie moderne, 44 vol., 2e éd. 1846.

(1181).Pierre Larousse, préface, in id. (dir.), Grand Dictionnaire universel du XIXe siècle, 17 vol., t. I, p. LXIV, Paris, 1866.

(1182).Cités par Gustave Lagneau, Du surmenage intellectuel et de la sédentarité dans les écoles, Paris, 1886, p. 6.

جسدهم[1183]. وسيعرض جان ماري غيو صورة فيزيولوجية، بعد بضع سنوات، مُدينا كل تسرع تربوي:

إن الدماغ، الذي يكون أثناء الطفولة ذا حجم نسبي، ولكن نظامه يظل ناقصا، سينظم نفسه إذا جعلناه ينجز وظائفه مع الكثير من النشاط، بطريقة أسرع مما يناسب عمره؛ لكن النتيجة أنه لن يصل لا إلى الأبعاد ولا إلى القوة التي وصل إليها (الآن)[1184]

حرك مثل هذا القلق المجتمعات الغربية في نهاية القرن التاسع عشر، قلق يرمز إليه التعبير الإنجليزي «الضغط الزائد في المدارس[1185]»؛ الشيء الذي تسبب في نقاش في مجلس اللوردات في 21 يوليو 1883. وبعث النقاش تحقيقات وأبحاث، مثل أبحاث هرتل في الدنمارك الذي اختبر28 114 من تلاميذ المدارس سنة 1885، و«وجد أن 29 ٪ من الأولاد و41 ٪ من الفتيات يعانون من فقر الدم أو من التهاب الغدد اللمفاوية أو من الأمراض العصبية[1186]»؛ أو أبحاث رودولف فينكنبرج في ألمانيا، مؤكدا أن الشباب «الذين حصلوا على تعليم عالٍ، 80٪ منهم غير صالحين للخدمة العسكرية [1187]»؛ أو أبحاث جان بابتيست فونساجريفز في فرنسا، واعدا بانهيار لا مفر منه بالنسبة إلى «أولئك المتعطشين للمعرفة، والذين كانوا يدهشون الناس وهم في السن العاشرة بمعرفتهم الموسوعية [1188]»؛ في حين خصصت أكاديمية الطب عامين لمناقشة الموضوع نفسه بين عامي 1886 و1887.

(1183).Victor de Laprade, L'Éducation homicide plaidoyer pour l'enfance, Paris, 1868, p. [illegible]

(1184).Jean-Marie Guyau, Éducation et hérédité : étude sociologique, Paris, 1889, p. 96.

(1185).The Medical Times and Gazette, 21 juillet 1883. p. 74 et 94.

(1186).Niels Theodor Axel Hertel, Overpressure in the High Schools in Denmark, Londres, 1885.

(1187).le Rapport sur les écoles publiques supérieures d'Alsace-Lorraine, Gex, 1884, p. 11.

(1188).Jean-Baptiste Fonssagrives, L'Éducation physique des garçons, Paris, 1870, p. 144.

كما كانت المباريات الأكاديمية والجامعية أيضاً محط استهداف؛ فقد كانت تثير الإعجاب بمطلبها الملح. وكانت انتقائيتها تقلق وتخيب الآمال، في حين كانت «الأمة الديمقراطية، والقائمة على المساواة»[1189]، تلزم بها. وانتقدت جريدة الباريسي، في عام 1881، في هذا المباريات خلق «ذكاءات محمومة في أجسام ملغومة وضعيفة لا تقف منتصبة إلا بفضل صغر سنها»[1190]. ينتقد يوجين دالي مباراة مدرسة سانت سير، والتي قد تتسبب في «تقلص محيط الصدر»[1191]، بسبب إفراط في الديمومات الليلية، وغياب الضروريات. كما انتقد جورج دوجاردين-بوميتز مباراة المدرسة العليا للمعلمات في منطقة السين، التي تقتصر على خمسة وعشرين مقعداً لخمسمائة مرشحة، الشيء الذي قد يضاعف «آثاراً مرضية»، «حيث يمكننا ملاحظة، خاصة وقت الدخول للمباراة، وبعد المشاعر والتعب الذي تسببه، العواقب المقلقة للإرهاق الفكري»[1192].

ستزداد المخاطر على الفتيات، وفقًا للرؤية الثقافية السائدة في القرن التاسع عشر. يرى روبرتسون دو مانشستر في ذلك أنه سبب «الوفاة (للنساء) إبان الولادة»[1193]. ويرى ألفونس دي كاندول في ذلك سبباً للأمراض العقلية، معبراً عن تفاجئه من «نسبة الفتيات الصغيرات اللواتي كن موجهات لمهنة المعلمات، والموجودات في مؤسسات الرعاية الصحية للمرضى العقلانيين»[1194]. حتى إن الكونت شافتسبري اقترح رقماً، قارن به بين 145 امرأة و38 رجلاً «من الذين

(1189). Gustave Lagneau, Du surmenage intellectuel et de la sédentarité dans les écoles, op. cit., p. 39.

(1190). Le Parisien, 21 décembre 1881.

(1191). Eugène Dally, « De l'exercice méthodique de la respiration dans ses rapports avec la conformation thoracique et la santé mentale », Bulletin général de thérapeutique, 15 septembre 1881, p. 20.

(1192). Georges Dujardin-Beaumetz, Compte rendu de la séance de l'Académie de médecine, 14 septembre 1886.

(1193). Voir le compte rendu de l'Académie des sciences morales, 1864, p. 11.

(1194). Alphonse de Candolle, Histoire des sciences et des savants depuis deux siècles, Lyon- Genève, 1873, p. 392, note.

دخلوا المصحات العقلية» بين المعلمين في ويلز في عام 1882 [1195]. يصف مراسل ميديكال تايمز عددا بينهن وقد انهرن [broken down] في السنة الثانية أو الثالثة من دراساتهن الخاصة[1196]. ومنه (ظهور هذا) التفسير الثابت: «يعد الجهاز العصبي «الأنثوي» أكثر قابلية للتأثر[1197]».

لا يزال هناك، وبشكل عام، علم أمراض منتشرا، يتوافق مع فيزيولوجيا العصر. تتدفق الدم إلى الدماغ أولاً، يستجيب للمجهودات الفكرية، ويتبعه صداع رأس لا يطاق، وآلام الأسنان بسبب «فرط الدم» (تدفق الدم)، ونزيف الأنف وتضخم الغدة الدرقية والتهاب السحايا والاحتقان وأمراض العيون. وزعم موريس دي فلوري، طبيب باريسي، وكان مهتما بـ«آلام النفس»، أنه لاحظ شيئا مقلقا: لاحظ «طفلا يبلغ من العمر ثماني سنوات، تمت دعوتي لأكشف عليه، قد ابتدع من تلقاء نفسه، الاستلقاء على السجادة لإزالة احتقان رأسه المصاب بفعر الدم[1198]».

يتبعه الضعف الجسمي والعجز الذي يزيد من العدوى، وفقًا لتقلبات العالم الميكروبي المكتشف مع نهاية القرن، وحتى التيفوئيد والسل الرئوي و لأمراض المزمنة المتعددة، والعدوى المختلفة. والإرهاق العصبي أخيرا، الذي يتشكل من العجز والارتخاء، الذي شرحه مطولًا الأطباء النفسيون في نهاية القرن:

مد شخص في مكتبه من سهره ليلا. وقد ركز اهتمامه لساعات طويلة على موضوع دراسته. ذهب إلى النوم حوالي الساعة الـ 3 أو الـ 4 صباحًا، لكنه لم يستطع النوم. عجزت إرادته عن تعديل النشاط غير المنظم لوظائف الدماغ. فهو لم ينم فحسب، بل عانى من أحاسيس مؤلمة من البرد في الأطراف ومن انقباض

(1195) The Medical Times and Gazette, op. cit.

(1196) Ibid., 21 juin 1884.

(1197) Gustave Lagneau, Du surmenage intellectuel et de la sédentarité dans les écoles, op. cit., p. 760.

(1198) Maurice de Fleury, Le Corps et l'âme de l'enfant, Paris, Armand Colin, 1899, p. 196.

في الرأس وبانكسار في أعضاء الجسم، ويشد في المعي غالبًا ما يهدئ نوم الليل القوى المنهكة، ولكن إذا تكرر التعب الدماغي، فيمكن هذه الأعراض أن تتكرر، ويمكن أن يعاني المريض من الوهن الدماغي والإرهاق العصبي الدماغي [...]. ويوضح المثال المذكور كيف، تحت التأثير الحصري للإرهاق في الدماغ، يمكن أن تتطور اضطرابات جميع الوظائف، وخاصة الهضم والدورة الدموية [...][1199].

ويعد هذا صورة متشائمة، بل قل مثيرة للقلق، تعكس الاهتمام القوي بالأعراض الجسدية، ومفاجآتها وتنوعها و«الحاجة للراحة»، وأشكال الضعف المختلفة، وتشدد الاضطرابات، من «وخز وتنمل، وخدر»[1200]؛ (حيث) يُحكم على ظهور الفرد المعاصر، بعيدًا عن كل تعال، بأنه «مغلق» على نفسه، عبر العثور في الجسد ورسائله على أول شهادة على وحدة الذات. ومنه جاءت محاولة جد منهجية لمحاصرة ما يتسبب في الاضطراب، وفي الإصرار (بالجسم) ويعذب ويعرقل، ومنه هذه الطريقة في استهداف التعب في أكثر القرائن سرية، بل والأكثر تنوعا. وهي صورة متشائمة أيضا تعكس في جانب هام مدى الشعور بأن التقدم، في نهاية القرن التاسع عشر، مع وفرة وتسارع الآلات، وإيقاعها وهيمنتها، يمكن أن يحمل معه نقيضه: ظهور المشاشة، والإحساس بالإجهاد، أي بسوء التكيف؛ تكيف ضار وغير متحكم فيه يظهر الإرهاق وعواقبه الخاصة في هذه الحالة، مع صعوبة تبني تحولات عالم (جديد): عالم حيث صارت السرعة «المفرطة (المتطرفة)» مبدأً مفرطًا ومفروضا في الآن نفسه. وهو ما حول التعب، لأول مرة، إلى أسلوب حياة، وشرطا حتميا للوجود وللمصير.

(1199) .Léon Bouveret, La Neurasthénie épuisement nerveux, op. cit., p. 13.

(1200).Ludwig Hirt, Pathologie et thérapeutique des maladies du système nerveux, Paris, 1894, p. 184.

بلحص ألم نوعي، واسم جديد أيضًا، مجموع هذه الاضطرابات: إنه «الوهن العصبي»، بما هو قمة الإرهاق، والضعف الذي دخل قلب المقاومة العصبية، وعجز يضرب أية مبادرة، وأيه ردة فعل. وستتراكم الدراسات الوصفية إبان ثمانينيات القرن التاسع عشر [1201]. مثل هذا العقيد في الجيش الإنجليزي، الذي وصفه فيرجيل بوريل في عام 1898، الذي كان ضحية «تهلل جسدي كبير»، وغير قادر على «تركيز انتباهه»، منهك للدرجة أنه «يتصور شكوكًا حول وجوده»، كل ذلك بعد أن أقدم على «أعمال فكرية مبالغ بها وطويلة الأمد»، وعلى «حالات تعب جسمي كبير»، تخللتها «أحزان عميقة» [1202]. وكان هناك إجماع على هذه الصورة [1203]، وانتشرت، وحددت بدقة المخاوف، والأهوال، وخدمت التنديدات، وحشدت الكراهيات، وكانت خلف القلاقل من التنكس بسبب «تردي الجهاز العصبي». ربما قد تكون الصورة تقريبية، أو حتى رديئة. وقد استخدمها تشارلز فيري للتمثيل لـ «العائلات العصابية» في عام 1894، على نمط، وعن إصرار، ساخر وعدواني: «يعد التاريخ المرضي للعرق اليهودي مناسبا لمراقبة هذه الظواهر [...]. وفقًا لهنري ميج، فإن أسطورة اليهودي التائه ليست سوى ترجمة شعبية لها [1204]» وهي طريقة هنا للتوحيد، حول الضعف، بين الأكثر سوداوية والأكثر ترويعا من الأفكار

(1201).Le mot est utilisé pour la première fois en 1869, voir George M. Beard, « Neurasthenia, or Nervous Exhaustion », The Boston Medical and Surgical Journal, 29 avril 1869, p. 217-221

(1202).Virgile Borel, Nervosisme ou neurasthénie : la maladie du siècle et les divers moyens de la combattre, Lausanne, 1894, p. 98-100.

(1203).Le Journal de médecine et de chirurgie lui consacre plusieurs articles par an avec la fin des années 1880.

(1204).Charles Féré, La Famille névropathique : théorie tératologique de l'hérédité et de la prédisposition morbide et de la dégénérescence, Paris, Alcan, 1894, p. 105. Voir aussi Henry Meige, Étude sur certains névropathes voyageurs : le juif errant à la Salpêtrière, Paris, 1893.

ستمين الصورة أيضًا إلى المجال الأدبي، عبر استدعاء صور أكثر صرامة وعمقًا، مما يؤكد على رهانها الأساسي في ثقافة نهاية القرن. يقدم جوريس-كارل هويسمان نسخة دقيقة وشبه رمزية مع بطل الرواية جان دو إيسانت؛ البطل الذي سيهدده ضعفه المتزايد بعجز نهائي، وهو أن يضطر إلى «ملازمة الفراش»

إن المبالغات التي عرفتها فترة صباه، والتوترات المفرطة لدماغه، قد فاقمت عصابه الأولي، وقللت من الدم المستنزف سلفًا في انتمائه العرقي؛ كان عليه أن يخضع، في باريس، لعلاجات مائية، بسبب ارتجاف أصابعه، ولآلام مخيفة، ولآلام عصبية تشطر وجهه شطرين، وتضرب باستمرار صدغيه، وتحز جفنيه، وتتسبب في الغثيان الذي لا يستطيع مقاومته إلا من خلال التمدد على ظهره، تحت ظل[1205].

أصبح استدعاء (هذه الصورة) أكثر دقة وعمقًا، وسيلعب مع النقص والضعف، ليعرض معاناة تمزج بين الفراغ والمجهود، والقصور والألم، على شكل طريقة خاصة لـ «كي لا تكون موجودًا» مع «الإحساس بحيوية في حياة تنفلت منك[1206]». يستحضر دوموباسان، بأكبر قدر من الواقعية، هذا الفراغ الذي رسمه العجز والإنهاك والتلاشي والحامل للتثاقل

يتعبني اليوم ويزعجني، إنه وحشي وصاخب. أستيقظ بصعوبة، وارتدي ملابسي بعياء، أخرج (من المنزل) متأسفًا (على حالي) وكل خطوة، وكل حركة، وكل كلمة، وكل فكرة تتعبني كما لو كنت أرفع عبئًا ثقيلًا[1207].

(1205).Joris-Karl Huysmans À Rebours (1883), Paris, Gallimard, « Folio », 2012, p. 166.

(1206).Pierre-Henri Castel, Âmes scrupuleuses, vies d'angoisse, tristes obsédés : obsessions et contrainte intérieure de l'Antiquité à Freud, Paris, Ithaque, 2017, p.227.

(1207).Guy de Maupassant, La Nuit (1887), in Contes et nouvelles, op. cit., t. I, p. 600.

سيصبح الوهن العصبي، باعتباره مرض عالم، ومرض «ارتعاش حديث[1208]»، وعلامه على اضطراب في المثيرات وفي الانتباه، وكإفراط في الإلحاح، أحدَ الأعراض الرئيسة لعصر يحمم أعراضا وأنماطا من الوجود. «فقر الدم وضعف الجهر العصبي، ذلك هو وسم عصرنا [1209]». وهو علامة أيضا على قلق جديد، قلق البحث عن المتعة والتطور في قرن يقبل، بشكل غير محسوس، وبحرية أكبر المتعة واللذة، واستحالتها. هذا «البلوغ» الشديد والشخصي، رأى فيه أوكتاف ميربو سنة 1894 أنه «واحد من أكثر حقوق الإنسان إلحاحًا، ولكن قبل كل شيء واحدا من أعلى واجباته وأقدسها[1210]». يمكن أن يكون الوهن العصبي نتيجة ذلك، بقدر ما يكون ذلك نتيجة أيضا للعجز. ومنه القلق المحتمل. (في صورة) إحباط جديد ومعاناة مؤلمة، وداخلية (حيمة)؛ حيث ينضاف العجز إلى الشعور بالانمحاق، سيما وأن الأطباء أنفسهم لم يتوقفوا، منذ منتصف القرن، وهم يرافقون تحررا بطيئًا ويدينون المحرمات القديمة، اعن تكرار» تعابير واثقة: «إن عدم استخدام الوظيفة التناسلية هو اعتداء على الطبيعة[1211]».

إنه اضطراب كبير، على أي حال، في نهاية هذا القرن؛ ورسم جورج بيرد، وكان أحد الأوائل في ذلك منذ عام 1869[1212]، صورة عن الوهن العصبي. وقد اقترح بالأخص آلية أصلية، مستوحاة إلى حد كبير من تقنيات ذلك العصر؛ حيث قرن الجسم بمكثف كهربائي تكون قدرته محدودة حتمًا، أو بغلاية بخارية ذات

(1208).Pierre de Coubertin, Essais de psychologie sportive (1913), Grenoble, Jérôme Millon, 1992, p. 183.

(1209).Richard von Krafft-Ebing, Über Nervosität, 1884, préface.

(1210).Octave Mirbeau, « Mémoires pour un avocat » (1894), Contes cruels, Paris, Librairie Séguier, 1990, t. I, p. 112.

(1211).Alain Corbin, L'Harmonie des plaisirs. les manières de jouir du siècle des Lumières à l'avènement de la sexologie, Paris, Perrin, 2008, p. 117.

(1212).Cf., George M. Beard, « Neurasthenia, or Nervous Exhaustion », op. cit. Voir aussi id., American Nervousness, its Causes and Consequences, a Supplement to « Nervous Exhaustion » (1869), New York, 1881, p. 98.

حجم محدود أيضًا[1213] ويحدث وهن الأعصاب عندما يتسبب التدفق «المفرط» في انقطاع، يلغي كل الطاقة، ويمنع أي تفاعل. يلخص التعبير التالي ذلك. إنه «الإرهاق العصبي»[1214] . وتنتج هي الصورة نفسها التي للإرهاق، بحشده الزائد لجميع (ملكات الجسم)، وتجاوز قدراته، واختلافاته الفردية أيضًا، وفقًا لأشكال مقاومة وكذا هشاشة كل واحد؛ وككرب مرتبط ارتباطًا وثيقًا بـ «الحياة الحديثة»، أمر يجب التأكيد عليه مجددًا؛ أي تلك الحياة التي أكد جورج بيرد توجد بالخصوص في الحياة الأمريكية، التي وصفت بأنها «الانفعال العصبي الأمريكي»[1215]. وهو ما وافق عليه المؤلفون الأوروبيون، وذلك بتوسيع مجال (المفهوم)، مثل لودفيغ هيرت، الأستاذ في جامعة بريسلاو، الذي ماثل بين الوهن العصبي، و«مصدره» الأمريكي، مع «إبداع» للحداثة:

لقد اخترع، في الحقيقة، الوهن العصبي من خلال الحياة الحديثة. بسبب هذا التسرع للوصول إلى الثروة في أسرع وقت ممكن؛ وهو ما وجدناها أيضًا في هذا الجزء من العالم حيث نعمل، نعيش ونشيخ في أسرع وقت ممكن؛ حيث يكون الهيجان العصبي قد بلغ أعلى درجاته: إنها أمريكا[1216].

بقي سياق نفسي، يتم استحضاره بشكل واسع ودائم، يُشَكِّلُ من «تهيج»، ومن «نوم مضطرب»، ومن «وهن نفسي»، ومن «التردد»، و«الهوس»، ومن «رعب قوي»، ومن «انشغالات طويلة»، ومن «قلق مع توجس لا أساس له»[1217]؛ وهو عالم داخلي تم تفصيله بالتدريج، وتمييزه والتعمق فيه، ووُضِعَ في قلب الإرهاق

(1213).ibid., p. 99 . « Like the steam engine, its force is limited, although it cannot be mathematically measured.»

(1214).Voir le titre du livre de Léon Bouveret, La Neurasthénie épuisement nerveux, op. cit.

(1215).Voir le titre du livre de George M. Beard, American Nervousness, op. cit.

(1216).Ludwig Hirt, Pathologie et thérapeutique des maladies du système nerveux, op. cit., p. 483.

(1217).Fernand Levillain. Essais de neurologie clinique. neurasthénie de Beard et états neurasthéniformes, Paris, 1896, p 10.

كما تم تتبعه. وقد ضاعف الاستكشاف صوره، وارتبط، أي الاستكشاف، بالعواطف والحساسية، والقلاقل الشخصية، جاعلا من الكون الداخلي، بشكل غير محسوس، عالمًا بقيمة عليا.

وهكذا استقر شكل غير مسبوق من التعب، وأكثر اجتماعية، كما كان في الوقت نفسه أكثر حميمية (داخليا): «يبدأ كل شيء بإحساس بدني[1218]»، كل شيء يأخذ معناه بنبرة شخصية، أي «معنوية». يبدأ التعب بقصة جديدة، أي بمظهر داخلي شاسع؛ حيث يثير العجز عن الفعل ترددا، وانعداما للثقة، والهوس، والابتئاس، وحتى الذعر. وقد أعيد التفكير، إلى حد كبير، في (فكرة) «تعب النفس» القديمة؛ أي في تعب «مفكري» أو «نبلاء» العصر العظيم (عصر لويس الرابع عشر)، وذلك بتوسيع الجمهور (الذي يعاني منه) كما لم يحدث أبدًا، وبتجديد مجال إمكانية الإحساس به، مع خلق مكان القلق والتخوفات. وهو ما تمثله شخصية جول دوغوجين وإيمانويل غوكلر في عام 1911، الذي فجأة «تجاوزه الأمر» في وظيفته كمحاسب، وتجاوزته انتظاراته، وعانى من «إخفاقاته»، وكان ضحية شعور بالعجز أو عدم الجدوى، خاصة وأن هذه الوظيفة نفسها كانت مهددة بشكل واضح: «نومه أقل، وغالبًا ما يكون مضطربًا، وتعبره كوابيس تترجم، في الليل، مخاوف اليوم»؛ وهو انحراف لا يمكن التغلب عليه بعد ذلك «يصبح كل عمل فكري متعبًا، ومعه، كل عمل مستحيلًا»[1219] لا شك، أن الأمر لا يتعلق فقط بشهادة فردية، بل إن الأمر يتعلق بانهيار، و«ارتعاش[1220]» غامض، ومنفلت، من المفترض أن يصف، لأول مرة، الحداثة: «مرض جديد ولد من ظروف جديدة»[1221]. لا شك أيضًا، أن يتجلى في عجز عن العمل، وضعف شامل، يضاف إليه

(1218).Pierre-Henri Castel, Âmes scrupuleuses, vies d'angoisse, tristes obsédés, op. cit., p. 228.

(1219) Jules Dejerine et Ernest Gauckler, Les Manifestations fonctionnelles des psychonévroses, Paris, Masson, 1911, p. 370-372.

(1220).Pierre de Coubertin, Essais de psychologie sportive, op. cit., p. 183.

(1221).Dr Angelvin, La Neurasthénie, mal social, Paris, 1905, p. 20.

القلق والارتباك. إنه، في الأخير، حلقة مفرغة: «يولد التعب القلق، والقلق يبالغ في التعب[1222]»؛ التقدم نفسه، في سيره كما في سرعته، يغذي قلق نقيضه الممكن مثلما يغذي هشاشته. يقول فريدريش نيتشه: «تتميز هذه الحقبة بالتفكك؛ وبالتالي بعدم اليقين[1223]».

يبقى هناك، في نهاية المطاف، اهتمام متزايد ببعض الأعراض النفسية؛ حيث لم يتم وصف حالات الانهيار، ومنها «(الإحساس بـ) التثاقل»، حتى ذلك الحين. ما أطلق عليه بيير جانيت، في بداية القرن العشرين، اسم «(حالات) الوهن النفسي»؛ وهي أمراض تنجم عن اضطرابات داخلية (حميمة)، ومنها بالضبط دون غيرها. وهكذا ظهرت أوصاف جديدة غير مسبوقة، وملاحظات جديدة من «الظواهر الغريبة جدًا وغير المعروفة إلى حد ما»، والتي تم استدعاؤها «في (وصف) أزمات إنهاك قوية[1224]» مثل هذه المرأة البالغة من العمر ستة وأربعين عامًا، التي اعترفت بـ «معطف من التعب وقع عليها»، أو هذا الشخص الذي أعلن عن « شعورًا بإرهاق عضلي رهيب[1225]» بعد حساب ذهني بسيط. لا يتعلق الأمر، إذن، سوى بعلم أمراض خاص، تعين حديثًا، وأضاف إلى الصورة المتزايدة للتيهان والاضطرابات الشخصية؛ موحدا، لأول مرة، تعبا اتخذ له، من الناحية الثقافية، مسكنا (بين الناس).

«تنظير» التعب الذهني

نتيجة هذه الاستثمارات، يجعل التعب الذهني في قلب الانشغالات والسلوكات، هي أيضا جعله موضوعًا جديدًا للدراسة وفرصة للتجارب، ميدانا حيث تزدهر فيها الأفكار والتفسيرات والأجهزة والأدوات؛ مما يحول الشعور

(1222).Charles Fressinger, Erreurs sociales et maladies morales, Paris, Perrin, 1909, p. 284.
(1223).Friedrich Nietzsche, La Volonté de puissance (1903) voir ibid., p. 284.
(1224) .Fulgence Raymond et Pierre Janet, Les Obsessions et la psychasthénie, Paris, Alcan, 1903, t. II., p. 352.
(1225).Ibid., p. 353.

الغامض بالعياء الداخلي إلى تحدٍ للمعرفة، على أساس أهميته المتزايدة في الثقافة المشتركة، وأيضًا مع الأسئلة المتجددة حول الوعي وجوانبه. لا يتعلق الأمر بتعمق شبه أدبي في المحسوس، ولم يعد الأمر فقط هو استبطان «مشاعر» ذهنية، وغزو الوعي وتطوره وحالات ترتره، لكن بالتحليل الخاص لدوره المحتمل (أعني التعب)، ومحتواه وآثاره والإرادة الأكثر تأكيدًا لفهمه وتحديده.

تتمثل إحدى النتائج الأولى في إعطاء مكان متزايد للإحساس، إلى حد إعادة تدقيق، من خلال الاستبطان، وتأثيره على السلوك: «يتمثل هدف الإحساس بالتعب في تحذيرنا من خطر[1226]»، يقول مُصِرًّا عالم الفيزيولوجيا فرناند لاغرانج، سنة 1888، كأحد الأوائل الذين عرض دراسة نسقية حول هذه الموضوعات. وليس مجرد فعل وعي داخلي، أو مجرد صدى لجوانية ما، دقيقة كانت أو مباينة، ولكن كظاهره دفاع، وككيان حماتي، من خلال إحياء الإدراكات. ومنه ظهور معنى جديد: بالتحلي عن القيم «السلبية» فقط، تلك التي تكون على شكل عائق أو مخفف، لصالح قيم أكثر إيجابية، قيم التحذير أو الحماية. وهو ما يفسر وجود التعب «في المراكز العصبية بقدر ما يوجد في العضلات[1227]». وهو ما يفسر، قبل كل شيء، كيف أن التعمق في التساؤل عن الإحساس أثرى النظرة إلى العياء ومظهره وتطوره.

نتيجة أخرى هي تحديد بشكل أكثر دقة «التعب الذهني»، ذاك الذي تم إدراكه «في الداخل»، إلى غاية آثاره العضوية والوظيفية المحتملة. وقد تضاعفت الأعمال، من ثمانينيات القرن التاسع عشر، بصدد «علم نفس التركيز[1228]»، و«التعب الفكري[1229]»، و«صحة الدماغ والوظائف الفكرية[1230]» وقد عرف أنجيلو

(1226).Fernand Lagrange Physiologie des exercices du corps, Paris, 1888, p. 55.

(1227). Ibid

(1228).Théodule Ribot, Psychologie de l'attention, Paris, 1889.

(1229).Cf., Alfred Binet et Victor Henri, La Fatigue intellectuelle, op. cit.

(1230).Cf., Guyot-Daubès, Physiologie et hygiène du cerveau et des fonctions intellectuelles, Paris, 1890.

موسو، مخترع الإيرغوغراف، أيضًا كيف يستخدم هذه الأداة في إطار هذا المنظور، مقارنا بين انحناء المنحنيات والإنهاك العصبي: «لم يكتب أحد، على حد علمي، عملا كاملا حول التعب الدماغي؛ بدا لي أنه قد يكون من المفيد جمع وتصنيف الملاحظات[1231]». إنه دراسة، بعبارة أخرى، متأنية ومفكر فيها.

إن الاحساس بـ «إنهاك» ما بسبب القراءة أو الحساب أو التركيز أو التفكير، صار شيئا فشيئا موضوع تنظير. وصارت الإدراكات موضوع تحليل، وتم إحصاء التأثيرات رقميا، وتنويع المؤشرات؛ البدنية منها أولاً: درجة الحرارة الجسمية، ومعدل ضربات القلب، وضغط الدم، ومعدل التنفس، والهواء المقذوف (زفير)؛ وغدا الجسم موضوعا أساسيًا، وأكثر، بلا شك، الأشياء «سهولة» في الإدراك. وبه أُقِلَّت أرقام آلات الديناميتر، ومسجلات الذبذبات، وشرائط التمرير المختلفة، والآليات والمحوصلات بدورها غابت ملاحظاتها، كما لو أنه على المؤشرات البدنية أن تسود: تتسارع ضربات القلب، وتزداد درجة حرارة (الجسم)، ويزداد التنفس عندما تكون التمارين المطلوبة ممتدة. في حين أنه «يمكن للعمل المفرط أن يؤدي حتى إلى اضطرابات في القلب، وإلى عدم انتظام دقات القلب»، أو حتى «تقلص في الصدر مع الميل إلى الإعياء[1232]». إن «الجهد» النفسي يحرك الاقتصاد البدني، لدرجة أن تيوديل ريبو جعل من التركيز «قوة محركة[1233]»، وفرض «صمتٌ» على الحركات، يشبه صورة سانت كاترين (القديسة كاترين) التي رسمها سودوما في مدينة سينا بإيطاليا في القرن السادس عشر، وهي اللوحة التي عرفت تعليقات كثيرة وبإسهاب هنا. وذلك بالتركيز على جمودها الذي يشبه جمود الحجر. هذه الملاحظات والأرقام، بلا شك، لا «تقبل الاستخدام» إلا قليلا، ولا تقبل التعميم أيضا، إلا قليلا أيضا، لأنها تختلف تبعا لاختلاف الأفراد، ولكن ذلك يؤكد ماهية «العمل الفكري الذي لا يمكن القيام

(1231).Angelo Mosso, La Fatigue intellectuelle et physique, op. cit., p. 82.

(1232).Ibid., p. 123.

(1233).Théodule Ribot, Psychologie de l'attention, op. cit., p. 161

به دون أن يكون له تأثير على البدن[1234]»، وبالأخص إلى أي مدى «يتوسع تصور التعب [...] كعملية تزداد تعقيدًا كلما عملنا على فحصها[1235]».

ثم أيضا اللجوء إلى الشهادات، التي صارت مطلوبة أكثر، وموضوع تعليق أكبر. يسأل موسو زملاءه، ويجمع انطباعاتهم، وتجاربهم الحواتية؛ و«يسجل» ردود أفعالهم قبل أن يلقي درسا، وقبل اجتياز اختبار ما، وقبل إنجاز عمل كتابي. والفكرة التقليدية عن تدفق الدم إلى الدماغ، من خلال تشغيل الذهن تجعلنا نتخيل آلاما في الرأس وشعور «بالدوخة»، و«دوران الرأس»، واختلالات في التوازن، و«باحتقان في العينين[1236]»، و«باضطراب في الحركات[1237]»؛ لكن بدون أن يضمن ذلك (وجود دراسة) موضوعية. لكن اكتسبت، رغم ذلك، التوترات (بها) أعمق، والتأثيرات تنوعا.

وهكذا عملت القلاقل والمشاعر على حجب المفهوم الوحيد للجهد؛ وأضاف ارتباكها (أعني المخاوف والمشاعر) للتعب علامته الذاتية، وقوته الشخصية:

أتذكر الليالي الطوال من الأرق التي كانت بسبب التوجس من إلقاء خطاب، أو محاضرة. أنا أعرف كم يجعلك هذا الاضطراب تشعر بالعذابات. في أول أو آخر درس من حصصي، عانيت من أعراض التوتر، وأحسست بالحرارة تغزو وجهي، وصوتي يرتجف أو أشعر بالآلام في الرأس[1238].

وهكذا توضَّح التعب الذهني، حتى وهو يتعقد، إلى حد إعطاء لتأثر مكانًا غير متوقع، متبوعًا بعدد من الملاحظات التي من المفترض فيها أن تتشدد على خطره. لقد كان جان-مارتن شاركو، من الأوائل الذين تساءلوا عن «الصدمة» وعواقبها المحتملة وما يتبعها من اضطرابات مزمنة؛ بل إنه جعل من ذلك «نسقا» للتفسير؛

(1234).Alfred Binet et Victor Henri, La Fatigue intellectuelle, op. cit., p. 328.
(1235).Angelo Mosso. La Fatigue intellectuelle et physique op. cit., p. 74.
(1236).Ibid., p. 122.
(1237).Ibid., p. 126.
(1238).Ibid., p. 140.

ستا مبتكرا ورائدا. فقد ضاعفت دروسه «حول أمراض الجهاز العصبي»، والتي كان يلقيها في مستشفى السالباتريير بين ستينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر، الأمثلة عن هذه المشاعر الحية وآثارها. فالخوف الشديد والمعاناة من الانفعال «تجعل من المستحيل على الضحايا الذهاب إلى العمل أو أن يقدموا على اشغالاتهم لفترات تمتد لعدة أشهر أو لعدة سنوات[1239]». ولا وجود لأثر جسدي يمكن تعقبه، ولكن يظهر (إحساس بـ) ضعف مزمن يصعب القبض عليه، وتعب أصم، مؤلم وعام.

يصف هنري هوشارد، المتخصص في أمراض القلب في مستشفى بيشات، في عام 1899 دور الأسباب الحميمة «المحبطة» في «الاضطرابات العميقة للدورة الدموية»، والقلب حينما يشعر «بردة فعل معاكسة ناجمة عن تعب عضلي وكذلك عن تعب معنوي»[1240]. مثل هذا المصرفي الغني والبالغ من العمر تسعة وخمسين عامًا، «عمدة مدينة مهمة»، والذي انخرط في معركة سياسية لا ترحم قبل أن يسحقوه «الهزائم وخيبات الأمل»، ثم سيعاني «من مصيبة في أمواله والإحباط في طموحاته»، و«ستأخذه دوامة» من عرض «انقباض الوريد» مصحوبة بـ «إصابة مزدوجة في فتحة الأبهر[1241]».

تجنب فيليب تيسي مطولًا، في عام 1897، الاعتراف بالأحلام التي يمكنها أن تنتج التعب، وبالنوم المضطرب وآثاره : مثل حالة هذا الشاب الذي يحلم بأنه يواجه سباقًا يبلغ طوله ستين كيلومترًا، وهو اختبار مليء بالمزالق والسقوط والحوادث والنزاعات مع المنافسين له، مصحوبا بشعور شديد بالإنهاك يرافق الاستيقاظ «صداع نصفي شديد»، ويليه «تعب عضلي قوي يقع في الجزء السفلي

(1239)Jean-Martin Charcot, Leçons sur les maladies du système nerveux faites à la Salpêtrière, Paris, 1887, t. III, p. 251

(1240)Henri Huchard, Traité clinique des maladies du cœur et de l'aorte, Paris, 1899, t. I, p. 186.

(1241)Ibid., p. 189.

من الجسم[1242]»، كعلامة إضافية، وفقًا لـتيسي، على «التأثيرات الفكرية» على المياه الذي أحس به.

في عام 1895، عمل فرويد بدوره، بعناية، على تفصيل المزيد من هذه الأسباب «العميقة»: مثل حالة إليزابيث فون. ر.، من بين حالات أخرى اتبع معاناتها خطوة خطوة؛ حيث أحست في البداية بـ «تعب وألم في الساقين»، تبعه إنهاك سريع، والذي نُسِبَ في البداية إلى «نزهة طويلة من مشي لنصف ساعة، مارسته (المريضة) أياما قبل ذلك[1243]». سيتعمق أكثر هذا التفسير البسيط، رغم ذلك، بعد استحضار مرض الأب، والرعاية التي كانت تقدمها له الفتاة، وللذكريات المؤلمة: «الساق المتورمة» للأب التي انتقلت نحو ابنته «عندما غيرت ضماداته»، والأسف والغموض والإحساس بعدم الجدوى تقريبا، كل هذه من شأنها أن تحدد «مكانا» (في الجسم) للمعاناة. وفي هذا تعمق جديد (في فهم المشكل)، فـ «المعاناة» الذهنية هي التي ستسود (في التحليل)، إضافة إلى العلاقة التي تربط الآلام و«الإحباط» الشامل عند الفتاة، والخوف من أن تظل «فتاة عجوزا وحيدة»، والشعور النفسي والجسدي بـ«عجزها»، وأثر ذلك على مشيها وخَطْوِها، والانطباع الذي لديها على أنها «لا تستطيع المشي (التقدم)[1244]». وحدث تعمق جديد، آخر، في الذكريات المؤلمة للنزهات التي خرجت فيها مع صهرها، والذي كانت تحس نحوه بالحب؛ أي حب ممنوع تحول إلى ارتعاشات عصبية مزمنة.

إنها أقصى الطرائق للربط بين التعب البدني والتعب الذهني، من خلال تسليط الضوء على أشكال التلاقي المحتملة بينهما. وهكذا زادت المصادر النفسية [للتعب]، مع نهاية القرن، وتنوعت.

(1242).Phi#ppe Tissié, La Fatigue et l'entraînement physique, op. cit., p. 40-41.

(1243).Sigmund Freud et Josef Breuer, Études sur l'hystérie (1895), Paris, PUF, 1956, p. 112.

Ibid., p. 120..(1244)

الفصل الرابع والعشرون

مقاومات و«تضحيات»

انتشرت، عن شكل صورة عالم من تعب يزداد «شمولية»، أنماطٌ من المقاومات عبر توسعها وتنوعها، وشاعت مثل الكثير من البداهات تقاطعت الاستجابات وتكاثرت: من فاعلين يمارسون ضغطًا متزايدًا على تحديد ساعات العمل، أدى إلى بعض التغييرات في نهاية القرن، بما في ذلك إجازة يوم الأحد؛ ومن بحوث علمية حول القوى الجسمية، لتوجيه أفضل للتداريب و لأعمال؛ وبحوث، علمية أيضا، عن المنتجات الكيميائية المقوية وأيضا عن انتشاره (شهارها)؛ وفي الأخير، وانتشار دراسة سيكولوجية شبه «أولية» لتحديد أفضل لقدرة التحمل والصلابة.

بل قل إن سوقا انتظمت، احتلت المجلات والدوريات التي تعرض آلاف المنتجات التي تَعِدُ بالتغلب على أنواع الإنهاك أو العياء، وكل ذلك يترجم افتراض وجود مجتمع جديد

إعادة النظر في الحد

ازداد اليقين، أولاً، بالتقاطع بين التعب الذهني والتعب البدني، مما أدى فجأة إلى تغيير في مطلب ظل ناقصا إلى نهاية القرن؛ أي أخبار المطالبة بتخفيض عدد ساعات العمل: فالمطلب البدني هو نفسه مطلب نفسي. تُحَدَّدَ بدقة الانتظار؛ حيث تمس البدن و لإحساس بالقسر نفسه، فلم تعد الساعات مجرد ساعات جهد (عضلي)، بل صار (أي الانتظار) قضية الجميع.

ومنه جاءت المفارقة الأساسية التالية: حيث واجه يقين المسيرين والمهندسين الذين يؤكدون أن التعب أصبح يخف مع هذا القرن، مطلب العمال الذين

يؤكدون، على عكس ذلك، أن ما يجب أن يخفف أولاً وقبل كل شيء هو ثقل عدد ساعات العمل التي يجب أن تخفف. وتصور الحصيلة الطويلة لـألفريد بيكار، منظم إكسبو عام 1900، مدعيا أنه في هذه الحصيلة تتبع عقودا منذ الإمبراطورية الأولى بتقويم أشكال «التقدم» (التي حدثت الآن)، تصور هذا اليقين (الذي ترسخ آنذاك). وسيشكل مثال المناجم في نظره، مثالا مقنعًا، يكشف عن تطورات «جيدة» وحاسمة: مثل «النزول والصعود بواسطة ناقلات»، وتحسين «أدوات الاستخراج»، والتمدد الذي بواسطة «الثقب الميكانيكي»، و«النقل على السكك»، بدلاً من «النقل على الظهر»، والاتجاه صوب «استبدال المحركات الحية (البشر) بمحركات غير حية (الآلات)»، والعديد من الإجراءات الكفيلة بأن تقلل بانتظام من تعب العامل[1245]. الشيء الذي لا ينتقص من شعور الأخير بوجود إكراه أولي وشامل، لا يمكن إرضاؤه أبدا، لأنه يلف العامل بالكامل؛ وهو شعور عميق لدرجة أن التقدم التقني نفسه لا يمكن أن يمحوه. من دون شكل يعد هذا المثال أقصى الأمثلة، لكنه مثال رمزي، في نهاية المطاف، عن أي (نوع آخر من) العمل الشاق. هذا منطق متصلب؛ حيث يقود كل من شحذ للوعي والتقدم الاقتصادي صوب طلب لا مفر منه؛ إنه تقليل الأعباء.

وهكذا أصبح شيئا عاديا، على الرغم من التقدم، الانشغال بعدد ساعات (العمل)، والإصرار على ضرورة تخفيضها، حتى ولو لم يكن بإمكان مطلب مثل هذا، ولفترة طويلة، تغيير القانون؛ حتى ولو كان روبرت أوين في إنجلترا، كواحد من الأوائل الذين «طالبوا بيوم عمل من ثماني ساعات (فقط) في عام 1833»[1246]. إنها حقا مسيرة بطيئة، في أوروبا كما في فرنسا، مثلما يظهره اقتراح تشريعي لـمارتن نادو في 26 مايو 1879 لتحديد يوم العمل في عشر ساعات،

Alfred Picard, Le Bilan d'un siècle, 1801 1900, t. 4, Mines et métallurgie, industries (1245) de la décoration et du mobilier, chauffage et ventilation, éclairage non électrique, fils, tissus, vêtemens, Paris, imprimerie nationale, 1906, p. 1-22.

Alain Corbin, « La fatigue, le repos et la conquête du temps », op. cit., p. 288.. (1246)

لمدة ستة أيام في الأسبوع، أي باستثناء يوم الأحد، وهو الاقتراح الذي رفضه مجلس النواب في عام 1881 و1886 و1896 قبل قبوله، فيما يخص عدد الساعات في 30 مارس 1900؛ حيث اقترح «ميلرون إحدى عشرة ساعة، خفضت في ست سنوات إلى عشر ساعات»[1247]. وقد فرضت، عكس ذلك، ديناميكية اجتماعية نفسها، وجد ملموسة في مسار أشكال الوعي (الجماعي). من إنشاء «نقابات العمال» سنة 1867، والتي وصلت إلى «500 جمعية في عام 1884»[1248]، واجتمع مؤتمرات دولية، وتنسيق المطالب. وطالب المؤتمر الوطني لحزب العمال الفرنسي، الذي أسسه جول غويسد في عام 1880، في برنامجه الانتخابي، في العام نفسه، بتخفيض قانوني ليوم العمل إلى ثماني ساعات للبالغين[1249]. وقام المؤتمر الدولي في لاهاي في 28 فبراير 1889 بتنويع المقترحات. وطالب جول غويسد، متحدثا باسم 138 نقابة، بالإضافة إلى يوم عمل من ثماني ساعات بـ:

حظر عمل الأطفال دون سن الرابعة عشرة، وخفض اليوم إلى ست ساعات بالنسبة إلى العمال الذين يقل عمرهم عن ثمانية عشر عامًا، والراحة الإجبارية ليوم واحد في الأسبوع، وحظر العمل الليلي، إلا في بعض الحالات التي تحددها احتياجات الإنتاج الميكانيكي الحديث[1250].

(1247).Émile Levasseur, Questions ouvrières et industrielles en France sous la Troisième République, op. cit., p. 442.

(1248).Alfred Picard, Le Bilan d'un siècle. 1801-1900, t. 5, Industrie chimique, Industries diverses, économie sociale, Paris, Imprimerie nationale, 1906, p. 280.

(1249):انظر

Émile Bottigelli (éd.), La Naissance du Parti ouvrier français : correspondance inédite de Paul Lafargue, Jules Guesde, José Mesa, Paul Brousse, Benoît Malon, Gabriel Deville, Victor Jaclard, Léon Camescasse et Friedrich Engels, Paris, Éditions sociales, 1981

(1250).Émile Cheysson, « La réglementation internationale du travail », La Réforme sociale, 1890, t. 19, p. 91.

أعد مؤتمر برلين، الذي جمع خمس عشرة دولة في 4 فبراير 1890، تناول مثل هذه الاقتراحات دون الحصول على انضمام إنجلترا أو فرنسا، مطالبا باستقلالية العامل: «يجب أن يبقى البالغ سيد ذاته وأن يحدد عدد الساعات التي تناسبه»[1251]. الشيء الذي سينضاف إليه غموض التعريف العلمي، الذي اعترف به أخصائيو الصحة، وأشهر كعربون على «الحرية»: «إلى غاية الآن لا يمكننا أن نستند على بيانات علمية لوضع حد لعدد ساعات عمل العمال»[1252]. تبقى هناك معالم تشريعية لا يمكن إنكارها، تؤكد وجود تحديد في الحساسية: مثل قانون عام 1874 الذي يحظر تشغيل الأطفال دون سن الثانية عشرة، أو قانون عام 1892 الذي حدد الحد الأدنى لسن التوظيف في ثلاثة عشر عاما للفتيان وثمانية عشر للفتيات، وتم خفض يوم عمل المرأة إلى أحد عشر ساعة[1253]. ويبقى بالخصوص اقتناع، يعاد صياغته كل مرة، يهم ضرورة تخفيض (ساعات العمل). بل استحضر *الإصلاح الاجتماعي* حتى الحفاظ على العرق، في عام 1890، وفقًا للمعايير البيولوجية للقرن التاسع عشر: فقد «تدخل القانون في جميع البلدان تقريبًا للحد من مدة عمل العمال، لأنه من الضروري فعلا، في مصلحة العرق، حماية العمال، ومن أنفسهم أيضا، وضد المشغلين»[1254].

هناك معلم آخر، ويتعلق بتقويم مدد زمنية أخرى (التي تقضيها في العمل). مثل مدة العمل في السنة أولا، وتأسيس، شيء كان نادرا، عطل تتخلل دورة الأشهر: كتوقيف العمل بين يونيو وستمبر، مثلا، بالنسبة إلى السككيين في

(1251)Arnold t'Kint de Roodenbeke, « La réglementation du travail et la conférence internationale de Berlin », La Réforme sociale, 1890, t. 20, p. 155.

(1252) Jules Arnould, Nouveaux Éléments d'hygiène (1881), Paris, Baillière, 1907, p. 790.

(1253) انظر:

Yves Tyl, Les Enfants au travail dans les usines au XIXe siècle, Paris, Institut coopératif de l'école moderne, 1984:

https://www.icem-pedagogiefreinet.org/sites/default/files/172_Travail_Enfants.pdf

(1254) Ibid.

مقاطعة سين-أويز في عام 1853، وفقًا لنظام موقع وفقا للقانون من لدن المحافظ[1255]. ويشكل هذا آلية استثنائية، بلا شك، بل وجدير بالملاحظة. والأهم من ذلك هو مراعاة الرمن المتعلق بكامل «الحياة النشطة»، ومراكمة «السنوات»، والاستنزاف، غير المحسوس، بسبب عمل «طويل الأمد»، استنزاف اعتبر أنه «يستحق» الحماية منه. وهو تقنين زاد من تنقيح آلية تقليدية مقصورة، رغم ما تحتويه من أخطار، فقط على «موظفي الدولة[1256]»، آلية حددت منذ 9 يونيو 1853 معاشًا لجميع الموظفين، لتثير خوفا من عبء لا يمكن التغلب عليه و«غير محدود» عند بعض المدافعين عن (المحافظة) على التقليد[1257] وكان الكل محددا كمي: (بتمييز) نظام (التقاعد) بواسطة توزيع (المساهمات): 30 سنة من الاشتراكات (أي 5٪ من الراتب)، و60 سنة لسن التقاعد، و25 سنة من الاشتراكات و55 سنة لسن التقاعد في حالة ممارسة «أعمال شاقة» هذا التعبير الأخير ملفت للنظر؛ حيث يضع اختلافًا غير مسبوق بين «(العمال) المستقرين» و«(العمال) النشطين»، مع تحديد هؤلاء الأخيرين في الفقرات الأولى من القانون: «موزعي البريد وحاملو الصناديق، وحراس الغابات، ومسؤولو الجمارك ورؤساء مصالح الضرائب [1258]»، والذين سيضاف إليهم المعلمون في عام 1876، و«الحراس في إدارة السجون» في عام 1898 وهي لائحة مركبة، بل ومتنوعة، تكشف لوحدها عن صعوبة التدليل الواقعي على الضرر على المدى

(1255). انظر
« Règlement général pour le service des cantonniers », département de Seine-et-Oise, 1853, p. 15-16.

(1256). انظر:
Thierry Tauran, « Les initiatives ponctuelles de l'État (1604-1853) », in id. (dir.), La Sécurité sociale, son histoire à travers les textes, op. cit., t. VII.

(1257).Léon Say (dir.), Nouveau Dictionnaire d'économie politique, Paris, 1892, art. « Retraites ».

(1258). انظر:
« Présentation de la loi sur les pensions civiles du 9 juin 1853 », Adrien Carpentier, Codes et lois pour la France, l'Algérie et les colonies, Paris, Marchal et Billard, 1908, p. 491

الطويل. فالمهنة وحدها، وفقًا لتحديد «ملائم» هنا، ستعبر إذن عن التعب – وبشكل أقل عن الحركة – وعن استمراريته، والإحاطة به. يبقى المعاش نادرا، مهما كان الحال، في العقود الأخيرة من هذا القرن؛ حيث اقتصر على 4.35٪ من كبار السن العاملين في الصناعة عام 1898، خارج المناجم حيث كانت هناك مساهمة إلزامية منذ 29 يونيو 1894[1259]. لكن تكشف، من زاوية أخرى، بعض الحالات عن أهميتها: حالة سان جوبان، الذي كان يخصص للذين يبلغون من العمر 55 عامًا، ربع رواتبهم التي تقاضوها في الأخير، والذين قضوا 25 عامًا في الخدمة[1260]؛ وحالات أخرى أيضا افتُرِض فيها الحفاظ على يد عاملة أكثر تأهيلًا (في مهن) أفران الصهر، والأفران، وصناعة الأنابيب المختلفة...). وهي وضعية جد نادرة، لاسيما أن معدل العمر، في نهاية القرن، أصبح 48.5 سنة للرجال و52.4 سنة للنساء.

تكشف وضعية عمال السكك الحديدية، التي تم تنظيمها في 21 يوليو 1909، بوضوح محاولة التمييز بين أشكال الإنهاك المختلفة، بقدر ما تقترب فيما بينها: الحق في المعاش بعد 25 سنة من الانتساب (وفقًا لـ 5٪ من الراتب)، والتقاعد في 50 سنة بالنسبة إلى الميكانيكيين، و55 لوكلاء الخدمة النشطين، و60 سنة للعاملين في المكاتب[1261]. ويتعلق الأمر هنا بتسلسل هرمي مؤسساتي، أنشأته بعض الشركات سلفا في القرن التاسع عشر[1262]، بين الأعمال البدنية والأعمال المستقرة (التي نمارسها دون أن نضطر إلى التنقل).

(1259). انظر:

Robert Fonteneau (dir.), La Protection sociale minière du XVIIIe siècle à nos jours, Paris, Association pour l'étude de l'histoire de la sécurité sociale, 2009, p. 97 et 127

(1260). انظر:

Leyla Dakhli, Histoire des régimes spéciaux de retraite. Le Mouvement social. 2007، http://mouvement-social.univ-paris1.fr/document.php?id=1060.

(1261) .Thierry Tauran (dir.), La Sécurité sociale, son histoire à travers les textes, op. cit., t VII, p.64.

(1262). انظر:

معلَم آخر هو التغير في الثقافة العمالية نفسها، وتوسع المطالب إلى درجة الطوباوية، وتخيل عالم، من لدن البعض، قد تحول بالكامل. فمناجاة بول لافارج، كواحدة من عدة نصوص أخرى، في عام 1883، مصرا على الحق «في الكسل»، حينما سيتمكن البروليتاريون من الحصول على «عدد كبير من السلع[1263]، الموجودة»، وحينما سيعملون لصالحهم، وحينما سيحصلون على «وسائل إنتاج حديثة وعلى قوتهم الإنتاجية غير المحدودة[1264]»، وحيث ستتغير فترات العمل: بأن يتم تنظيم العمل «بشكل حكيم، وسيقتصر على ثلاث ساعات كحد أقصى في اليوم[1265]». أو تسخطات مجلة الأب بينار، لسان حال الأناركيين في تسعينيات القرن التاسع عشر، التي نددت بـ«المهام المميتة والمثيرة للاشمئزاز»، حالمة بزمن آخر:

إذا كان المجتمع، بدلاً من كونه ساحة معركة حيث نتطاحن، توليفا اجتماعيًا حقيقيًا، فإن المرء الطيب قد يستطيع، بدون أرباب العمل أو أسياد، تحقيق حياة آمنة وممتعة قدر الإمكان[1266]

وهناك علامة فارقة أخرى، قد تبدو عادية لكنها داله، ويتعلق الأمر بقانون 29 دجنبر 1900، المستوحى من نص إنجليزي، يعني تنظيم «تدبير» بعض الأعمال النسائية:

يجب أن تكون المتاجر والمحال التجارية ومبان أخرى تابعة لها؛ حيث يتم نقل السلع والأشياء المختلفة أو عرضها للجمهور بواسطة مجموع العاملات، وأن

Maxime Tellier, «À l'origine, le régime spécial des cheminots a été une volonté patronale ». France Culture, 5 décembre 2019:
https://www.franceculture.fr/histoire/a-lorigine-le-regime-special-des-cheminots-a-ete-une-volonte-patronale.
(1263).Paul Lafargue, Le Droit à la paresse réfutation du droit au travail de 1848, Paris. 1883. p. 21
(1264).Ibid., p. 26.
(1265).Ibid.
(1266).« Miracles industriels », Almanach du Père Peinard pour 1897, p. 26.

تحتوي (أي هذه المتاجر) في كل قاعة، على عدد من المقاعد يساوي عدد النساء العاملات هناك[1267].

بل إن ذلك لم يستثن حتى الخدم من أن تكون لهم مطالب، والذين يصعب عليهم تحمل الخضوع؛ فهناك رسم مصور لبول غيوم في جريدة المصور الوطني في 23 نوفمبر 1902، يؤكد ذلك؛ حيث يسلط الضوء على كلام كل من «الخادمة» و«ربة البيت»:

- ولكن بما أنك راضية على أجرك، لماذا تريد أن تتركينا يا جوستين؟

-لأن ربة البيت لا تترك لي أية أمسية، فإذا بقيت فسوف ينتهي بي الأمر بفقدان كل علاقاتي[1268].

يبقى من الضروري أيضا العودة إلى التغيير الرسمي البطيء: فلم يتم تعميم ثماني ساعات من العمل اليومي إلا بموجب قانون 23 أبريل 1919، ولم يتحقق نجاح النواب المؤيدين لذلك إلا خطوة بخطوة. 90 صوتًا في مناقشة عام 1896، و115 صوتا في مناقشة عام 1900[1269]؛ لأن هناك حساسيتان ومصلحتان تتناقضان. فلم تكن معايير التعب المهني هي نفسها عند أولئك الذين يعانون منها وعند أولئك الذين يدبرونها.

كان الحصول على قسط أسبوعي من الراحة يوم الأحد هو الإثبات النهائي على ذلك. فـ «فكرة الأسبوع الإنجليزي»، وبعبارة أخرى، إجازة يوم السبت بعد الزوال تضاف إليها إجازة يوم الأحد، تطبق في بريطانيا منذ منتصف القرن التاسع عشر[1270]. وقد جعله مؤتمر رانس للديمقراطية المسيحية في برنامجه عام

(1267) Jules Arnould, Nouveaux Éléments d'hygiène, op. cit., p. 792.

(1268) Illustration de Paul Guillaume, L'Illustré national, 23 novembre 1902.

(1269) Cf., Émile Levasseur, Questions ouvrières et industrielles en France sous la Troisième République, op. cit., p. 442.

(1270) Robert Beck, Histoire du dimanche : de 1700 à nos jours, Paris, Éd. de l'Atelier, 1997, p. 321

1896[1271] وضمه ألبرت دي مون إلى مشروع قانون في نهاية القرن[1272].
وكانت الحجة متميزة: أي تجنب «الاثنين المقدس» و«إفراط المشروب فيه الذي هو نتيجة لتوقف النشاط يوم الأحد عند الزوال[1273]». ومع ذلك نمى التوافق، بينما بقيت مقاومات ادعت، بشكل متناقض، الدفاع عن الحرية: «أليس في ذلك تخليصها (أي الحرية) من المسؤولية عوض إجبارها، في ذلك اليوم، عن الامتناع عن أي عمل؟ [1274]». وسيكون هناك مشروع جديد سنة 1902، مشروع تقدم به نائب اشتراكي مستقل اسمه ألكسندر زيفايس، مقترحا جعل الراحة الأسبوعية إجبارية لمأجوري القطاعين العام والخاص، مع تجنب «تحديد اختيار هذا اليوم [1275]»، خوفًا من ربط بين الراحة (الأسبوعية) والدين، وهو تردد وضح لاسيما أن «عطلة يوم الأحد» حامت «لتعكس إضفاء الطابع الدنيوي على الزمن[1276]». وستتفق النزعة النقابية والاشتراكية في نهاية المطاف على الأسبوع الإنجليزي في السنوات الأولى من القرن العشرين. وستنتشر الحجة بذلك أكثر، أي تلك المتعلقة بـ«الراحة البدنية ومصلحة الأسرة[1277]». وجاء القانون أخيرًا في عام 1912، الذي أدخل الأسبوع الإنجليزي إلى «مؤسسات الدولة الصناعية[1278]»، قبل أن تنتشر الآلية، موجهة، بشكل غير محسوس، يوم الأحد نحو

(1271).Fernand Boulard, Premiers itinéraires en sociologie religieuse, Paris, Éditions ouvrières, 1966, p. 27

(1272).Bruno Béthouart, « Les syndicats chrétiens et le repos du dimanche (1887-1964) », Histoire, économie et société, 2009, no 3, p. 99-108.

(1273).Ibid.

(1274).Léon Say (dir.), Nouveau Dictionnaire d'économie politique, op. cit., art. « Dimanche et jours fériés ».

(1275).Bruno Béthouart, « Les syndicats chrétiens et le repos du dimanche », op. cit.

(1276).Alain Corbin, « La fatigue, le repos et la conquête du temps », op. cit., p. 289.

(1277).Confédération générale du travail, XVIIIe Congrès national corporatif, compte rendu des travaux, Le Havre, L'Union, 1912, p. 22-24

(1278). انظر:
Robert Beck, Histoire du dimanche, op. cit., p. 324

أوقات فراغ أكثر من تخصيصه للدين. ومنه جاءت هذه الأبيات من مسيرة العمال المسيحيين، والتي سرعان ما ستصبح أشعارا لاثكية ومنتشرة على نطاق واسع :

نريد، من لدن النقابة الحقيقية،

المطالبة بحقنا بجرأة بدون حسد.

نريد، عبر عقد حر،

راتبا محددا يناسب كلفة المعيشة.

لنطبق الثماني ساعات في كل مكان !

الأسبوع الإنجليزي للتجارة والصناعة !

وبالنسبة للراحة الأسبوعية بالأخص،

هيا أيها الأصدقاء، لنتاصل إلى النهاية[1279]!

وهو ما لا يمكن تصوره بدون وعي حكومي جديد، ومراجعة لرؤية تنظيم الكل، ولمنظور غير مسبوق يمكن تبعا له أن يؤدي «خفض نفقة عامة للطاقة» إلى تعزيز «الحفاظ بشكل أفضل على مخزون الطاقة الوطني[1280]»، وبالتالي التوجه نحو أقل خسارة ونحو فعالية أكبر.

اختراع التمرن

اخترعت الرياضة في قلب نشاط جديد، بما هي «إنفاق» بدني تم تصوره في البداية كوسيلة للاسترخاء والمتعة، بشكل متناقض في نهاية القرن التاسع عشر، أكثر الطرائق بلورة لمقاومة التعب والجهد. وقد سمحت آلاف الظروف

(1279) Augustin-Fabien Declercq, « Le vocabulaire de Rerum Novarum dans les hymnes populaires de la CFTC », Revue du Nord, vol. LXXIII, no 290-291, 1991, p. 431.

(1280) Anson Rabinbach, Le Moteur humain : l'énergie, la fatigue et les origines de la modernité, op. cit., p. 127.

بظهورها، ومكنت آلاف التحولات الاقتصادية أو الاجتماعية من تطورها. من التمكن، بشكل محتشم، من التمتع بوقت الفرغ، إلى «ثورة» في وسائل النقل ستسمح بتحقق اللقاءات في «أماكن بعيدة»، وانمحاء الحدود بين المناطق وأشكال عزلتها[1281]، وانفتاح اللقاءات «الأي آت»، «للبطولات»، وهو انفتاح ارتبط بالمجتمع الديمقراطي، دون تمييز بسبب الانتماء أو الوضع الاجتماعي، «بطولات» تم تصورها على أعلى مستوى، بعيدًا عن المسابقات الظرفية أو القروية القديمة؛ وستكتسب الرياضة حضورًا اجتماعيًا، أي رؤية لم يكن من الممكن أن تحصل عليها الألعاب التقليدية[1282].

ينضاف إلى ذلك في الأخير، وبشكل أعمق، مراجعة شاملة للهدف من هذه الممارسات، وعلاقتها الحميمية بالثقافة الصناعية، وتعزيزها رقميا، مع مقارناتها وصياغتها عدديا (عبر) خلق أفضل الأداءات، وجرد الأرقام القياسية وأفضل الانتصارات، وعد البطولات وتقويمها وتدوينها. والنتيجة الرئيسية لذلك هي أن صار «الأقصى (ما يمكن)» هو القاعدة، بقدر ما صار تبريرا لا جدال فيه. ومن هنا جاءت هذه الكلمة الجديدة وهي كلمة «إفراط excès»، التي شرعنها بيير دي كوبرتان بينما كان التقليد يحث على القياس و«الاعتدال»: «إن الرياضة آلية قوة، جهدها هو الرافعة الرئيسية، والميل إلى الإفراط هو سبب وجودها الأول[1283]». ومنه بالأخص تقديم التعب كمرافق ضروري لـ «الحدود»، أو ببساطة، كمرافق يثير المتعة لأنه مرتبط حتمًا بالنجاح :

(1281). انظر:

Eugen Weber, La Fin des terroirs : la modernisation de la France rurale, 1870-1914, Paris, Fayard, 1983.

(1282). انظر:

Georges Vigarello, Du jeu ancien au show sportif : la naissance d'un mythe, Paris, Seuil, 2002, « La naissance des grands spectacles », p. 94.

(1283).Pierre de Coubertin, « La bataille continue... », Bulletin du Bureau international de pédagogie sportive, Lausanne, 1931, no 5, p. 7

هل أعجبت بعنادهم أمام التعب وبالتعبير عن الجرأة الذي يظهر في سمات وجوههم التي تتقلص بالجهد (الذي يمارسونه)؟ يجب أن تكون قد فهمت أن في ذلك متعة، بالتأكيد مريرة، والتي قد لا يكون ممكنا تذوق لذاتها بسرعة، ولكنها أعلى بكثير من كل تلك التي تمنحها المتع المتصنعة، والتسليات التافهة، والتمارين التي تريح[1284].

يجد هنا من جديد التحدي القديم للسياح الأوائل، ذاته، الذين جعلوا تعبهم موضوع رضى في تسلق القمم، ولكنه تجد أعيد توجيهه، وتركيزه صوب التغلب على الذات، وتم تبرير هذا التحدي أيضا (بضرورة) البحث عن «تجاوز (الذات)[1285]». من هنا ثقة بيير دو كوبرتان قائلا: «إن هذه الألعاب لا تقود فقط صوب العادة، ولكن إلى حب التعب[1286]». وهو ما حولته العديد من الشهادات إلى بداهة: «لقد كان عملاً شاقًا انغمست فيه بحماس شديد. وكم كانت بهجتي كبيرة حينما وصلت أخيرًا إلى الهدف![1287]». وهو ما حولته أيضا شهادات أخرى إلى موضوع احتفال، مثل مرور عدّائي سباق فرنسا للدراجات التي شاهدته كوليت في عام 1913 قائلة: «ظهور سوداء وصفر، بأرقام بالأحمر، ثلاثة كائنات يمكن للمرء أن يقول عنها إنها بلا وجه، عمود فقري مقوس، رأس بين الركبتين، تحت قبعة بيضاء [...] اختفوا بسرعة كبيرة، هم وحدهم الذين كانوا صامتين في (هذا) الضجيج[1288]».

(1284) Pierre de Coubertin, « L'éducation athlétique », Association française pour l'avancement des sciences, compte rendu de la 18e session, Paris, Masson, 1889, in Norbert Müller (dir.), Pierre de Coubertin, textes choisis, Zurich, Weidmann, 1986, t. I, p. 168.

(1285) انظر:

Isabelle Queval, S'accomplir ou se dépasser, op. cit

(1286) Pierre de Coubertin, Pédagogie sportive (1921), in Pierre de Coubertin, textes choisis, op. cit., p. 571

(1287) J. H. Rosny, Les Joies du sport, Paris, 1910, in Gilbert Prouteau, Anthologie des textes sportifs de la littérature, Paris, Défense de la France, 1948, p. 359.

(1288) Colette, Dans la foule (1913), Œuvres complètes, Paris, 1949, Flammarion, t. IV, p. 443.

متلعب، بالتالي، المواجهة بين الرياضة والتعب دورًا حاسمًا: بالاستثمار في «أقصى (ما هو ممكن)» ورقمه، وهو هدف ننتظره مهما كانت الاعتبارات، وهو الأمر الذي يستدعي (وجود) مهمع استباقي، ويضع القياس ودرجاته. لكن لا يعني ذلك أن الميل إلى «التقدم» ظل مجهولاً إلى هذه اللحظة، بل إن حاملي سلاح الفرسان الإنجليز كانوا يعرفون، ومنذ فترة طويلة، كيف يمكنهم الزيادة في سرعة خيولهم وقوتها. فقد كانت كونتيسة جينليس، في القرن الثامن عشر، تعير مراحل تمارين طلابها بشكل عددي تقريبا. وسيوضح أنجيلو موسو، قرنا بعد ذلك، وبشكل أكثر دقة كيف يزيد تطبيق الإيرغوغراف، بمرور الوقت، صلابة عضلة معينة. ومع ذلك، يظل التصور الذي ابتدعته الرياضة مختلفا تمامًا؛ حيث يريد التكرار (من التمارين) أن يكون متدرجا، إلى درجة أنه تكرار ينزع نحو لمس غير المحسوس بغية تحقيق تقدم أفضل. والسبب هو التنظيم الجديد للألعاب مثل: المباريات المتتالية والمؤسسة والمبرمجة والمتبعة بشكل منهجي، من مقابلة (لقاء) لأخرى، في الفضاء وفي المدة. وقد اخترع هذا الاجراء، أي «التمرن» فجأة، بشكل جد أصيل: «إنجاز كل يوم، وبدون أي كلل، جهد أكبر من الأمس[1289]». وإنْ شكّل هذا إضافة ضئيلة، إلا أنها منتظمة، وتطورا محدودا إلا أنه تطور يومي، مقيد، محصي رقميا، الشيء الذي غير (جذريا)، في النهاية، من النتائج التي كانت متوقعة، بـ «الزيادة في مقاومة التعب إلى آخر حد ممكن[1290]»، لاسيما أن التقدم يسمح لك بالتحكم في الأحماض التي ينشرها الجهد في العضلات؛ حيث تصير كميتها أقل بسبب الاقتصاد الحركي الطبيعي»، ويتم دراكها بشكل أقل بفضل طول التعود. وهذه الممارسة لم يسبق لها مثيل، وآثارها الاستباقية غير محدودة أبدا؛ حيث يوجهها أفضل أداء يركز على التجاوز (النتائج المسجلة): بـ «السماح للجسم

(1289) Philippe Tissié, La Fatigue et l'entraînement physique, op. cit., p. 3.

(1290) Fernand Lagrange, Physiologie des exercices du corps, op. cit., p. 195.

بالقيام بمجهودات تكون في العادة مستحيلة [1291]». يحيل فيليب تيسي بوضوح إلى المسابقات، لشرح المنهجية بشكل أفضل، في أحد النصوص الأولى حول «فيزيولوجيا التعب»، في عام 1897 قائلا : «لم يكن التمرن موجودًا في فرنسا قبل ثماني سنوات. وظهور [بطولات] الدراجات الهوائية هو الذي تسبب في وجوده [1292]».

وقد ضاعفت الرياضة البرامج، وزادت من المؤشرات الرقمية: «حصص-نماذج» في التمرن[1293]، و«مواثيق» في التقدم[1294]، و«نموذج متدرج» للتقوية[1295] وقد دفع نجاح بعض الأبطال إلى إذاعة تقدمهم المحسوب، بما في ذلك جان بوين، صاحب الرقم القياسي في السباق بعد استعداد محسوب بالأرقام بالكامل[1296]. فهذا فرناند لاغرانج، في عام 1888، الذي يتتبع يوميا، من الشروق إلى الغروب، التمارين المتدرجة لصبي الحرار الذي أصبح مجلفًا [1297]؛ وهذا راؤول فابنز مُفصّلا في عام 1905، «الجرعات المتدرجة بمهارة[1298]» من العمل المنتظم للعداء الذي يستعد لسباق يبلغ ستة عشر كيلومترًا وتقلت جريدة

(1291).« L'hygiène des sports », Annuaire général des sports illustré . encyclopédie universelle du tourisme, de tous les sports et jeux de plein air, commerce et industrie sportive, 2e année, 1905- 1906, p. 127

(1292).Philippe Tissié, La Fatigue et l'entraînement physique, op. cit., p. 2.

(1293).Georges Hébert, Ma leçon-type d'entraînement complet et utilitaire, Paris, Vuibert, 1913.

(1294).Eugen Sandow. Strength and How to Obtain it. Londres. 1897 « Sandow's Chart of Measurements », p. 28.

(1295). Bernarr Macfadden, Muscular Power and Beauty, New York, 1906, p. 21.

(1296). انظر

Bernard Maccario, Jean Bouin : héros du sport, héros de la Grande Guerre, Paris, Chistera, 2018, « Une conception novatrice de l'entraînement », p. 111 sqq.

(1297).Fernand Lagrange, Physiologie des exercices du corps, op. cit., p. 195.

(1298).Raoul Fabens, Le Sport pour tous, Paris, Armand Colin, 1905, p. 44.

الحياة في الهواء الطلق، وهي أول أسبوعية رياضية في بداية القرن، خطوة بخطوة، سنة 1914، أسبوع لاعبي كرة القدم المحترفين[1299].

هناك إذن الكثير من طرق التقدم الدقيقة، والعديد من المبادئ التي تتبنى ما يكفي من التعداد الرقمي والجدة التي ستجعل فيليب تيسي يرى فيها في عام 1897 «مجموعة من الإجراءات التي تشكل علمًا حقيقيًا»[1300]، وطريقة لخلق معرفة جديدة حول التعب والسيطرة عليه. ويضيف إلى ذلك النظام الغذائي، المستوحى من البحوث البيولوجية في نهاية القرن التاسع عشر، كشيء «مهم جدًا في التمرن»[1301]، مع الحفاظ على «جاذبية» بالنسبة إلى «اللحوم والبروتينات: «130 جرامًا من الألبومينويد، و404 جرامًا من الكربوهيدرات، و84 جرامًا من الدهون»[1302] وهو نقاش ظل، رغم ذلك، محتدمًا بين «المدربين» والأطباء، في بداية القرن العشرين؛ حيث يعود من جديد، وبطريقة جديدة، استهلاك الألبومين وملاءمته والتخفيض المحتمل لكميته «120 جرامًا، ثم شيئًا فشيئًا، قبل عشرين عامًا، 110 و100 و80، بل وحتى 60، بل وأيضًا عدد أقل من جرامات الألبومين في اليوم»[1303]. وهكذا نشأت رؤية جديدة حاملة تمارين ولـ «تخطيط»، ولحسابات وتنبؤات؛ حيث يصبو الأداء الجيد إلى «اللامحدود»، بينما سيكون على الإنهاك أن يكون «متحكمًا» فيه بشكل أفضل.

(1299)La Vie au grand air, 14 mars 1914. Voir aussi, sur ce thème, Alfred Wahl, Les Archives du football, sport et société en France, 1880-1980, Paris, Gallimard, « Archives », 1989, p. 140-141.

(1300)Philippe Tissié, La Fatigue et l'entraînement physique, op. cit., p. 1.

(1301)Ibid., p. 24.

(1302)Ibid.

(1303)Pierre M. Besse et Jean Anex, « L'alimentation dans l'entraînement et l'entraînement dans l'alimentation », Congrès international d'éducation physique, Paris, 17-20 mars 1913, compte rendu, Paris, Baillière, t. III, p. 167. Voir aussi, dans le même congrès, Édouard Maurel, « L'alimentation dans les sports », p. 162.

إن ذلك نهج جديد – ربما يجب تكرار ذلك مرة أخرى – يثبت تثمين الإنجاز الفردي، مع فرض الاختلافات في الإنجازات كما هو الحال بالنسبة إلى المراحل المنتظرة: فمن المستحيل توحيد إيقاعات كل الأفراد، ومن المستحيل التفكير في تساوي الجميع. يقترح التقدم (في الإنجازات) إحداث مقارنات، ويفرض النسبية، واللجوء إلى الميزات الخاصة والتفردات. وما يعرفه حتما مؤسسو التمرين هو أنه: «يجب تدريج الجهد من خلال حالة مقاومة كل ذات؛ (لأن) حالة المقاومة هذه متغيرة»[1304]. ومن هنا جاء المنزع التجريبي، والمحاولة الضرورية لتحديد الإحصاءات والتطورات.

إعداد تصنيفات

صار التفرد، بما هو مطلب لا محيد عنه، فجأة أكثر مما كان متوقعا. ومال منظمو دورة الألعاب الأولمبية لعام 1900 لتوضيح هذا التحول بواسطة عملية مؤسسة؛ (أي عبر) الملاحظة المورفولوجية الصارمة لجميع المشاركين[1305]، بسيل من القياسات، وصيغ تأخذها المسافات، والقامات والصدور والأوزان والأنفاس والأحجام. مع ما تبع ذلك من نتائج عديدة ومشتتة ومتنوعة للغاية؛ بحيث لن تكون منظمة إلا قليلا، وأقل استغلالا. لكن بقي مع ذلك انتظار القيام بالتقصي، وبقيت الرغبة في التوزيع والتوجيه. و(لهذا) أعد فيليكس رينيو، سنة 1910، تصنيفًا يقوم على قيم ثلاث تخص الفضاء: «الطول والامتداد والسمك»، وفقًا لهيمنة أحد أقطار الجسم، الطول والعرض والسمك وعرض الكتفين بالمعنى الأولي الذي تهدف إليه هذه الأبعاد الثلاثة[1306]. يضع كلود سيغو صورة أكثر شمولية، تقوم على أشكال خارجية ووظائف فيزيولوجية: «التنفسي»،

(1304).Philippe Tissié, La Fatigue et l'entraînement physique, op. cit., p. 16.

(1305) .Daniel Mérillon (dir.), Concours internationaux d'exercices physiques et de sports: Exposition universelle internationale de 1900 à Paris; rapports, Paris, Imprimerie nationale, 2 vol., 1901-1902

(1306).Félix Régnault, « Les types humains d'après les principales proportions du corps », Revue scientifique, 1910.

و«العضلي»، و«الهضمي» و«الدماغي»[1307]. وسيتم تحديد المجالات الخاصة وأشكال المقارمة بشكل أفضل. وسيتعارض بطن «الهضمي» مع الصدر البارز «للتنفسي»، مثل الانحناء «العضلي» الذي سيختلف عن الجفاف الجزئي عن «الدماغي». وبالتالي ستمتلك الحالة الطبيعية «المرئية» العديد من الصيغ المحتملة التي تؤكدها الأرقام والرسومات والصور؛ حيث ستجتمع التفضيلات والإمكانيات معًا. وستتنوع التخصصات والتوصيات: من السباق إلى القوة، ومن الثقل إلى الخفة، ومن العجز إلى القدرة؛ حيث يكمن التحدي في تعزيز «تحليل علمي للفرادة»[1308]. وهو ما جسده كتاب **المورفولوجيا الطبية لـليون ماك-أوليف وأرغست شايو** بشكل غير مسبوق سنة 1912، جامعا لعدد كبير من الأفراد الذين صوروا على ورق بمربعات صغيرة لتحديد أصنافهم واختلالاتهم[1309].

وتمنع التمرن وتنويعاته بالنجاح نفسه في الجيش:

لا يجب أن نفرض على جميع الأشخاص التعب نفسه بمجرد التحاقهم بالفوج، لأنهم لا يملكون جميعا القارمة الجسدية نفسها ولا يمكنهم منح، بدون خطر، مقدار الجهد نفسه [...] ذاك هو كل السر في التمرن التدريجي، الذي ينظم ويقاس بحكمة[1310].

و«سر» مثل هذا، و«براعة» مثل هذه لابد أن تُترك للضباط المدربين، الذين يفترض فيهم معرفة الاختلالات المطلوبة. وستتحسن، من ناحية أخرى، التصنيفات الأولى، وسيتم تنظيم الإمكانات، مثلما هو الشأن بالنسبة إلى الرياضة.

(1307) .Claude Sigaud, La Forme humaine, t. I, Sa signification, Paris, Maloine, 1914.

(1308) Marco Saraceno, De la mesure du corps à la politique des corps, op. cit., p. 128.

(1309) .Auguste Chaillou et Léon Mac-Auliffe, Morphologie médicale, étude des quatre types humains, applications à la clinique et à la thérapeutique, Paris, Doin, 1912.

(1310) .Pierre-Joseph Bonnette, Du choix des conscrits, indices de robusticité physique, utilisation méthodique du contingent, service armé, service auxiliaire, dépôts de viriculture extra-régimentaires pour les malingres, Paris, Doin, 1910, p. 4-5.

هذا هو الأهم منذ عام 1889؛ حيث «ستصبح الخدمة، في الحقيقة، شاملة، بما في ذلك بالنسبة إلى طلبة المعاهد الدينية[1311]». ومن ثم ظهرت المناقشات التي لا تنتهي حول المقاييس المحتملة، وظهرت المقارنات الدولية والمستويات. وتمت مراجعة العمر والوزن والصدر بإسهاب، للفصل بين ما يقبل وما لا يقبل التكييف[1312]. بل وتمت مساءلة القوة نفسها، وتم فحصها باستخدام دينامومتر[1313]. والأهم من ذلك، أن تم التفكير في التقاطعات بين المعطيات، مما عزز من الحسابات والملاحظات. وقد وقف موريس-تشارلز-جوزيف بينيت، وهو رقيب مساعد في فوج المشاة الخامس والثلاثين، في بداية القرن العشرين، على تقويم يمنح ثلاثة مقاييس حاسمة: الحجم والوزن ومحيط الصدر. والحجة كانت إحصائية؛ حيث تم الجمع بين الكثافة الفيزيائية وسعة الجهاز التنفسي. وجمعت المصادر؛ وانشطر التقدير إلى مرحلتين: في اللحظة الأولى: إضافة المحيط والوزن (78 على سبيل المثال للمحيط و 54 على سبيل المثال للوزن = 132)، اللحظة الثانية: «طراح هذا المجموع [132] من عدد السنتيمترات في الحجم، على سبيل المثال 154 سم [..] فتكون نتيجة الطرح هي: 22[1314]». وهو إجراء جد صوري، بلا شك، لكنه واقعي من حيث الاستعمال، و«مبرر» بفضل عدد الحالات التي تمت ملاحظتها، ومقنع في الأخير، بدرجة كافية، لكي يعتمده الجيش لاحقا ومن هنا جاء اقتراح تصنيف «بقيل القياس»: «الرقم الذي تم

(1311) Anne-Marie Sohn, La Fabrique des garçons : l'éducation des garçons de 1820 à aujourd'hui, Paris, Textuel, 2015, p. 86.

(1312) انظر:

Alphonse Laveran, Traité d'hygiène militaire, Paris, 1896.

(1313) Eugène-François Ravenez, La Vie du soldat au point de vue de l'hygiène, Paris, Baillière, 1889, p. 25.

(1314) Maurice-Charles-Joseph Pignet, « Valeur numérique de l'homme », Archives *médicales d'Angers*, 1900, p. 346.

الحصول عليه أكبر لاسيما أن البنية البدنية أسوأ[1315]»، ومن ثم هيكلة ما يسمى بمقاييس «الصلابة الجسدية».

أقل من 10 = بنية قوية جدًا

من 11 إلى 15 = بنية قوية

من 16 إلى 20 = بنية جيدة

من 21 إلى 30 = بنية جيدة (متوسطة)

فوق 35 = بنية ضعيفة للغاية[1316].

وبالتالي سيصنف الجنود وفقًا لمبدأ إحصائي عن المقاومة (البدنية). وستصنف أعمالهم، مثلما ستصنف ميولاتهم. وسيتم، لأول مرة، وضع فهرس، ملخص في شكل رقمنة مبسطة، والذي على الأقل سيجسد محاولة انتشرت على المستوى الوطني، وهي التنبؤ «كميًا» بردة الفعل الممكنة لدى كل واحد ضد تعب الجيش.

كيمياءات «واقية»

كانت هناك طرائق أصلية في منح الأمل؛ أي «إعادة إنعاش» الانقاذ (الحماسة) المفقود؛ الرد على كلام «المتعبين» الذي يصاغ زيادة على كل مرة: «دكتور، أنا مجهد؛ لا يمكنني جر رجلي، جئت بحثًا عن الراحة لأتعالج[1317]». وذلك دليل، إن وجد، عن تحذير شديد مع القرن، ينعش إحساسًا بالهشاشة (الضعف). وقد اقترحت مواد «كلاسيكية» في البداية، وتمت إعادة التفكير فيه تحت أسماء

(1315).Ibid., p. 347

(1316).Ibid., p. 351.

(1317).Marcel Craponne. Les Neurasthéniques aux villes d'eaux, Paris, 1914, p. 4.

المهيجات أو المنشطات: فقد عُدَّ إكليل الجبل أنه «يوقظ ويقوي النفس»[1318]، واعتبر نبات اللويزة منعشاً للغاية[1319]، واعتبرت الفانيليا «مثيرة للوظائف الفكرية وتزيد من طاقة النظام الحيوي»[1320].

انتشر استخدام التركيبات الكيميائية، فيما بعد والتي تم مزجها في النصف الثاني من القرن، مزودة بمنتجات لا شيء يدل على خطورتها، وبالأخص الكوكايين، الذي تم اكتشافه في عام 1855، وانتشر استعماله من لدن المجتمع الطبي بعد عام 1880[1321]. وتنصح به غوستاف جيلي ممزوجا بالنبيذ «في كأس المسكرات»، «يتناول في كل وجبة»، والذي يفترض أن:

يمنح بسرعة تنظيما للنوم، وزيادة في قوة العمل، وخاصة الاختفاء شبه الكامل للشعور بانحطاط القوى، والضعف المؤلم للغاية في الوهن العصبي[1322].

سيتبع ذلك توليفات أخرى، سرعان ما تم اكتشف خطورتها، مثل «زرنيخ الإستركنين»، و«مستخلص بيلادون»، ومسحوق الأفيون، ونبتة الجوز السام مخلوطة على شكل حبوب أو بُرشام[1323]. يضاف إلى ذلك رزنيخ متنوع من المنتجات التي تعتبر منشطة، في نهاية القرن، والتي يفترض أنها «تعيد خلق» صلابة الدم أو قوة النار: النبيذ بجميع أنواعه، ودمج مستخلصات من اللحوم، ومن الحديد أو شراب الكينا أو حتى الكوكا، مثل نبيذ ماريناي الذي وزعه مخترعه على نطاق واسع؛ وأقراص أو حبيبات جعلها اسمها الغريب، وغرابتها أو مصدرها

(1318) Septimus Piesse, Des odeurs, des parfums et des cosmétiques (1865), Paris, 1877, p. 172.
(1319) Ibid., p. 207
(1320) Ibid., p. 203.
(1321) Voir Michel Hautefeuille et Dan Véléa, Les Drogues de synthèse, Paris, PUF, « Que sais-je ? », 2002.
(1322) .Gustave Geley, « La cocaïne contre la neurasthénie », Journal de médecine et de chirurgie, 1894, p. 860.
(1323).« Traitement de la céphalée des neurasthéniques », Journal de médecine et de chirurgie, 1894, p. 116.

من الدماء، تشتهر، مثل أسماء «جيلسيوم سامبر فيرن»، أو «كلومبر»، و«كبسولات بريبين» المواتية لـ «الأمراض العصبية بشكل عام»، و«الحديد الخالص لكيفين، وكاسين أدريان، و«مسحوق شرائح لحم البقر الخالص». أو المتحات التي من المفترض أن تقضي على نقط الضعف المنتشرة والمتنوعة (في البدن): حبوب بلانكار، «التي اعتمدتها الأكاديمية الطبية»، للقضاء على «فترات التعب والإرهاق، وفقر الدم[1324]» وكان هناك قلق دائم، وهو البحث عن «منشط قوي يجدد القوة[1325]»، وأن نعاكس «انهيار القوى الحيوية[1326]»؛ الشيء الذي يكشف عن ثقافة وعن زمن أكثر مما يكشف عن مواد مقترحة (لتقوية البدن). لقد أكدت الممارسة الطبية في نهاية القرن التاسع عشر نفسها، وهو أيضًا تأكيد للوعود ولتقنيات كاذبة. فقد غامرت الكثير من التجارب المتهورة، والتي ارتبطت بمخيال عن القوى وعن أنماط من الفحولة، وعن قوى الأعصاب، وعن تقنية الحقن، التي لم يسبق لها مثيل، يأيرها الفولاذية الدقيقة. اقترح قسطنطين بول في عام 1892 «تحاقن الأعصاب» لمكافحة الوهن العصبي: «حقنة، كل أربعة أيام، تحت الجلد، ثلاثة إلى أربعة سنتيمترات مكعبة من دماغ الخروف»، تم تُنقَع أولا «في الجلسرين وتصفى في جهاز أرسونفال. كل شيء يكون بإضافة مادة عصبية. وكل شيء يعطي الأمل في تحسن مهم[1327]». هناك ممارسة أخرى، في جانب آخر من الجسم؛ حيث عرض الدكتور كرلونج في مدينة فيشي، في بداية القرن العشرين، «ديناموسكوب» يفترض فيه أن يهتز مع «أعصاب الدماغ والنخاع

(1324). انظر الصفحات الإشهارية في le Journal de la santé publique : annales de l'hydrothérapie scientifique des années 1880.

(1325) Publicité placée en quatrième de couverture des Guides pratiques Conty : la Méditerranée, Paris, 1908.

(1326) Ibid.

(1327) « Transfusion nerveuse pour combattre la neurasthénie », Journal de médecine et de chirurgie, 1894, p. 201.

»[1328]، لتعريجها بشكل أفضل. هناك إذن الكثير من المؤشرات الكيميائية أو الميزيائية، والإشارات العلمية، والإجراءات المغامرة التي تعيد صياغة الوعود في مطلع القرن، إلى درجة اقتراح تسلسل هرمي بين المياه الحرارية وفقًا لمحتواها من «التوتر الكهربائي» أو «مادة إشعاعية [1329]»، تم اكتشاف وجودها للتو في عام 1896. وقد أجاب عن القلق من بعض «الإنهاك العصبي [1330]»، الناجم عن خيال تحمس فجأة للتقنيات وللتطور، واستهار جد متنوع، هو نفسه ناجم عن خيال، في ممارسات دناعية وحائية.

إعادة تقويم وسط العمل

متضمن الحركات والتمارين، وإن بشكل مبتذل، وبشكل متكرر أيضًا، عملية التجديد. ملتجأ مجلة الأمراض العصبية والعقلية إلى «الدراجة»، وهي آلة اخترعت حديثًا في تسعينيات القرن التاسع عشر، كفرصة لقياس الجهود، والتنقلات المتنوعة (في الأمكنة)، و«التغيير المستمر للمناظر الطبيعية [1331]»، والتي، «الحسن الحظ»، تؤثر (إيجابًا) على الحساسية. وهي نتيجة لا جدال فيها: «لقد شفي بسرعة أولئك الذين كانوا يعانون من الإنهاك العصبي، الذين استخدموا الدراجة، أكثر من أولئك الذين لم يستخدموا هذه الأداة [1332]». ويضمن المشي أيضًا، البطيء والمطول والمحسوب، حدًا أدنى من استعمال العضلات. المشي الذي أثاره أوكتاف ميربو في وصفه لـ «علاجه» الخاص، والذي ينظم بالنسبة إلى أولئك الذين يعانون من الوهن العصبي «دوامة

(1328).Les Annales du bioscope, de la bioscopie et de la biothérapie pendant la cure thermale de Vichy, Vichy, 1903, p. 3.

(1329).Marcel Craponne, Les Neurasthéniques aux villes d'eaux, op. cit., p. 9.

(1330).Hugh Campbell, Nervous Exhaustion and the Diseases Induced by It, Londres, 1873.

(1331) .«Le bicycle dans le traitement des maladies nerveuses», Journal de médecine et de chirurgie pratiques, 1892, p. 578. Cf., The Journal of Nervous and Mental Disease. 1892.

(1332).Ibid.

ضجرهم»[1333]. وهو ما استحضره مارسيل كرابون الذي (في نظره) به تستعيد ببطء «الثقة عند الذين يعانون من الإنهاك العصبي، في رسائلهم الخاصة وفي طاقتهم»[1334]. وهو المشي الذي نظمته المدن ذات الينابيع المعدنية (الحمامات) و«علاجها الميداني»[1335]، والتي تعمل على تدريج مسارات المشي، وفقًا لقوى كل واحد، من «طريق مسطح»، إلى «طريق منحدر قليلاً»، وطريق «أكثر انحدارًا»، و«طريق بمسار حاد»[1336].

ستصير بعض الحامات، بالضبط، متخصصة، وأخرى ستتم إعادة توجيهها، والتفكير فيها، لتفيدَ الذي يعاني من الوهن العصبي، بوسط صمم من أجله: السكينة في مقابل الإثارة، والنشاط مقابل عدم الحركة (السكون)، والانتظام مقابل الاضطراب، والآفاق الممتدة في مقابل الآفاق المحدودة. فلم يعد الأمر يتعلق بـ «بُعد» المسافة الفيزيائية فقط وتقسيمه، والذي اقترحته سلفه، لصالح «مرضى الأعصاب»، بعض المؤسسات في بداية القرن التاسع عشر، ولكن الأمر يتعلق بإعادة تنظيم دقيق للمكان والزمان: «بأن نُشْغَل [المريض] من الصباح إلى الليل، ساعة بساعة [...] وألا نترك وجها لوجه مع الخمول»[1337]. ذاك هو البرنامج الذي تم عرضه بطريقة ساخرة من لدن شخصية ألفريد غيلون، وهو يلعب، في مسرحية بالبولفار (باريس)، دور طبيب حامة في عام 1886.

تستيقظ كل صباح في الساعة الـ 6، تأخذ حماما بماء بارد [...] بأكثر برودة ممكنة [...]، المشي في حي رابيرا، ثم غرغرة [...]، ثم الذهاب إلى عين ماهورة [...]، ثم العودة إلى الفندق. غذاء: بيضة نصف مسلوقة، بدون نبيذ أو توابل

(1333).Octave Mirbeau, « En traitement » (1897), Contes cruels, op. cit., p. 222.
(1334).Marcel Craponne, Les Neurasthéniques aux villes d'eaux, op. cit., p. 10.
(1335) .Fernand Lagrange, La Médication par l'exercice, Paris, 1894, p. 254.
(1336).Ibid., carte d'une ville d'eaux, p. 260.
(1337).Marcel Craponne, Les Neurasthéniques aux villes d'eaux, op. cit., p. 10.

[...]. بعد الغداء العودة مرة أخرى سيرًا على الأقدام إلى رابيرا [...]. يجب إتعاب الوحش [...] [1338].

كان الجسم، وعلى نطاق أوسع، موضوع أشكال عديدة من الرعاية، من تدليك وحمامات ودشات وكمادات، وحقن شرجية، ومشروبات واستنشاق (مواد)، وانقباضات وارتخاءات، وتمارين مختلفة[1339] . وفي قلب هذه العملية: (نجد) تهذيبا لـ «شعور» بدني. وفي قلب هذا الانتظار: تحويل هذا «الشعور» إلى وعد بإحياء (القوة). لا شيء آخر هنا سوى بلوغ الهدف نفسه: ذاك الذي تَبَنَّى ولادة علم النفس في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم جديد جعل من الجسد وعيه المبدأ الأول؛ ثم قول تيودول ريبوت في كتاب **أمراض الشخصية** سنة 1885، واصفا الجسم بأنه «الأساس المادي لوحدة الأنا[1340]». وقول **هنري مودسلي** الصريح، وهو أستاذ في جامعة لندن: إن «الأنا ليست سوى وحدة البدن وقد انكشفت للشخص[1341]» (كل هذا يعبر) عن طريقة لجعل الإدراكات البدنية أساسًا لإعادة الثقة (في الذات) و«استعادة قوتها».

ومن هنا جاء الخوف من الانحرافات التي تنجم عن نقاط الضعف التي تكاد تكون كلها بدنية، ومنه أيضًا الثقة في عمليات استرجاع القوة الناجمة عن أشكال من الوجود المُنَعِّشة. وتعد علاجات الحمامات عند سيباستيان كنيب أكثر الأشياء تعبيرا في نهاية القرن التاسع عشر : (مثل) الماء والبرد والإحساس المدروس في أدق تفصيله، وحمامات بكمادات، وسكب الماء على مكان من الجسم، وأبخرة رطبة، و«المشي حافي القدمين»، و«المشي في العشب المبلل»، و«المشي في الثلج المتساقط حديثًا». الكثير من الإجراءات الخاصة بالمرضى الذين «دمروا صحتهم

(1338) Alfred Guillon, Aux eaux : saynète en un acte, Paris, 1886, p. 11.
(1339) Pierre-Henri Castel dans Âmes scrupuleuses, vies d'angoisse, tristes obsédés, op. cit., p. 228.
(1340) Théodule Ribot, Les Maladies de la personnalité, Paris, 1885, p. 93.
(1341) Henry Maudsley, Physiologie de l'esprit (1870), Paris, 1879, p. 210.

بسبب العمل الزائد والتعب»، وبضحايا «ضرر شامل، للجسم وللروح [لكونهما] في حالة يرثى لها[1342]». لقد نشأ الإنهاك العصبي في سياق، وسياق آخر سيدعي أن بإمكانه بالإطاحة به.

سيكون الوسط، في الأخير، هو الفضاء الداخلي (الحميم)، والدائرة الشخصية و«المنعزلة»، والمجال العائلي كتعهد باستعادة (القوة) والراحة، والفرصة أيضًا لتطبيق التعبير الجديد، المسمى «رفاهية»، والتناقض المتنامي بين الفضائين العام والخاص. ومنه هذه الأوصاف التي تبدو تافهة ومع ذلك فهي معبرة في نهاية القرن التاسع عشر، تلك التي تعطي قيمة «للداخل» مقارنة مع «الخارج»، والإصرار على إطار معين، خفي، صمم «للذات نفسها».

بعد يوم من التعب والعمل، من الطبيعي جدًا أن تستريح، في بدلة منزلية، وتدلك في شبشب ساخن. فلتذهب إلى الجحيم الأعمال والمنغصات! نحن نملك أنفسنا، نحن كلنا ملك لأولئك الذين نحبهم[1343]

ومنه مرة أخرى، كل هذا الأثاث المعاد تصميمه، بإبراز الأحجام الممتلئة، والمواد المرنة، والإطارات المحيطة المفتوحة لتحتوي شكل الجسم (مثل): كنبة مريحة، وكرسي ممتد مناسب للاسترخاء، فلا يتعلق الأمر فقط بدعم أعضاء الجسم، ولكن بتلبية مطالبها الملحة، وبالتحديد تكييف إطار المقعد، وخفض الزوايا، و«شد» شكل الجسم لبلوغ الراحة[1344]. ومنه، أخيرًا، هذه الدعوات الجديدة للاسترخاء، حيثما ستظهر كلمة «مسترخ[1345]» مع العقود الأخيرة من القرن

(1342).Sébastian Kneipp, Ma cure d'eau, ou Hygiène et médication pour la guérison des maladies et la conservation de la santé, Strasbourg-Paris, 1890, p.393.

(1343).Jules Rengade, Les Besoins de la vie et les éléments du bien-être, Paris, 1887, p. 550.

(1344).Georges Vigarello, « Le fauteuil », in Pierre Singaravélou et Sylvain Venayre (dir.), Histoire du monde au XIXe siècle, Paris, Fayard, 2017

(1345).Alain Rey situe l'apparition de ce mot dans la seconde moitié du XIXe siècle , voir Alain Rey, Dictionnaire historique de la langue française, op. cit., « Détendu attesté dans la deuxième moitié du XIXe siècle ».

التاسع عشر. وهو ما سيتلقفه الأدب فيما بعد، مثل أبطال هويسمان في السنوات 1880-1890: «جلسوا، وكان الموقد المشتعل ينفث حرارته، وأحس دورتال فجأة باسترخاء روح باردة، غارقة تقريبا في حمام من السوائل الدافئة[1346]». وهو ما ستتلقفه الإجراءات البدنية أيضا. فقد تمكن في الولايات المتحدة، في نهاية القرن، ستيل مكاي[1347] من جعل «الاسترخاء» منهجا معروفا ومنتشرا. وهو بلا شك، استجابة «للتوتر العصبي الأمريكي»، لشعور منتشر بالتوتر، ولألف موقف يشعر به الجميع «ربما بالصين[1348]»، وأنه «قلق وتوتر[1349]»؛ حيث ستصير التمارين (البدنية) أكثر منهجية مع الأساليب التي تم الترويج لها حوالي عام 1900. وسيضاعف يوستاس ميلز، في عام 1904، أمثلة عن «الاسترخاء» لتطبيقها في الحياة اليومية مثل: لا تشد على حاجبيك، واجعل فمك يسترخ وكذلك العينين والأصابع والقدمين، والمشي والحديث والكتابة، وتناول غذاءك «بلطف» (على مهل)، وألا «تجعل كل جسمك يتوتر[1350]». وفي حالة اجتياح معترض لمحسوس ومثير، فإن استجابة ستثمن إضعافه، بل حتى محوه.

تنظيم (الذات/ الاستعظام)

هناك جانب آخر أساسي مهم بالقدر نفسه، ولا محيد عنه، وهو انتصار المثابرة، وهو الأمر الذي لا يتعارض مع الاسترخاء، فكلاهما جزء من الانتباه إلى الذات. ذلك هو الدور المحدد لـلمجال «الذهني»، بالإصرار (على البحث عن) الحل،

(1346) Joris-Karl Huysmans, Là-Bas (1891), Paris, Gallimard, « Folio Classique », 1985, p. [illegible].

(1347).Percy MacKaye, Epoch . The Life of Steele MacKaye, Genius of the Theatre, In Relation to His Times and Contemporaries, New York, Boni and Liveright, 1927. Voir aussi, Annie Suquet, L'Éveil des modernités : une histoire culturelle de la danse, 1870-1945, Pantin, CND, 2012, p. 151.

(1348).Eustace Miles, Cassell's Physical Educator, Londres-Paris-New York, Cassell and Company, 1904, p. 159.

(1349) Ibid., p. 651.

(1350).Ibid., p. 652-653.

والصيغ العامة التي تكشف عن بدايات أولى لعلم النفس، والتفسير الملائم لبعض الإثبات الداخلي الممكن (للذات): بالانقلاب على التعب بالإرادة، ورفض الضعف عبر تنظيم الذات. وكتاب مقام الهيبة والسبيل إلى اكتسابه[1351]، وهو كتاب الـ «إرادوي» فليبالد جيبهارث، والذي عرض منذ 1890 سلسلة طويلة من النصوص، التافهة أحيانًا، حيث تتسلسل قوانين النجاح، وتبسيط (قواعد) ألعاب جبازية أولي أو، ببساطة، اللجوء إلى العبث الذي اكتسبته حديثا التأثير-الذاتي وتقنيات الإرادة[1352]. واستأنف «الدعائي» الألماني التمارين التي سبق التعرف عليها في يخص التنفس ووضعية الجسم والحركة، بمنحها معنى جديدًا، بالمزج بين البحث عن الثقة واليقين في وجود قوة داخلية:

تمكنت تمارين الجهاز التنفسي، فقط بعد فترة قصيرة، من تحقيق انتعاش استثنائي للشعور بقواه، وبحالة عامة من الرخاء والقوة النشطة، التي لن يشك فيها أولئك الذين يلازمون بيوتهم، وأولئك الذين يعملون فقط بفكرهم. إن الشعور بالتعرق الذي يرافق المهارة وخفة الحركة، هو شعور يزداد، ويزداد مع الثقة في الذات[1353].

انتشرت تمارين «الإرادة»، مازجة بين الأمن في قوانين النجاح والتمرن: «يمكن للإنسان أن ينتصر بالإرادة عن طريق التمرن كل يوم أكثر، وبالتالي يتمكن يوما بعد يوم من التحكم أكثر في نفسه»[1354] بل يتحدث بول إميل ليفي عن ما أسماه

(1351).Willibald Gebhardt, L'Attitude qui en impose et comment l'acquérir (Leipzig, 1895), Paris, 1900.

(1352). انظر:

Hervé Guillemain, La Méthode Coué , histoire d'une pratique de guérison au XXe siècle, Paris, Seuil, 2010.

(1353).Willibald Gebhardt, L'Attitude qui en impose et comment l'acquérir, op. cit., p. 131.

(1354).Philippe Tissié, « La fatigue dans l'entraînement physique », in id. (dir.), L'Éducation physique, Paris, Larousse, 1901, p. 17

«الجهاز النفسي»[1355]. وستكون الدقة والحسم في قلب المبادرة وسيكون العناد والمعاندة امتداداً لذلك: أي تحويل «الإرادة» إلى عمل[1356]. الكثير من الإحالات التي تشير إلى التأكيد الذاتي، وتبني أملا في السيطرة (على الذات): الموضوعات الرئيسية لشركات المنافسة والمباريات» بالتركيز، وبشكل معاكس، على الإحساس بأن «ضعف الرغبة» هو «أعظم أمراض عصرنا[1357]». وهكذا تتلاقى في المشروع أدبيات جديدة، في بداية القرن العشرين، تحدد بـ «الثقة بالنفس»[1358]، بالتفصيل في الطريقة التي بها «تصبح أقوى[1359]»، طريقة أن «تشق طريقك إلى الحياة[1360]». بل إن «حيوية فائقة» سيتم تأطيرها واستدعاؤها في بعض النصوص الأمريكية لتحويل «ضعف القوى[1361]» إلى مقاومة أفضل للتقلبات، وللعنف ولما لا يتوقع في الحياة. سوف ينهزم تعب الحداثة أمام الإرادة.

(1355).Paul-Émile Lévy, L'Éducation rationnelle de la volonté : son emploi thérapeutique (1898), Paris, Alcan, 1907, p. 79.

(1356).Frédéric Rauh et Gabriel Revault d'Allonnes, Psychologie appliquée à la morale et à l'éducation, Paris, 1900, « Éducation de la volonté », p. 303.

(1357).Paul-Émile Lévy, L'Éducation rationnelle de la volonté, op. cit., p. 147

(1358). أول هذه النصوص هو نص أمريكي، ترجم مؤخرا إلى الفرنسية، انظر:

Ralph Waldo Emerson, La Confiance en soi et autres essais (1844), trad. Monique Bégot, Paris, Payot-Rivages, 2000

(1359).J. de Lerne, Comment devenir plus fort, Paris, 1902.

(1360).Silvain Roudès, Pour faire son chemin dans la vie : moyens et qualités qui permettent d'arriver au succès et à la fortune, Paris, 1902.

(1361).Bernarr Macfadden, Muscular Power and Beauty, op. cit. voir en particulier la publicité de fin d'ouvrage, « Vitality Supreme for Men and Women ».

القسم الخامس

القرنان العشرون والحادي والعشرون والتحدي السيكولوجي

إذا كان القرن التاسع عشر قد استكشف التعب في آثاره العضوية بشكل غير مسبوق، من الميكانيكا إلى (دراسة) الطاقة، ومن الأكسجين إلى الطعام، ومن ضرر العضلات إلى الضرر العصبي، وذلك بأن حدد الأفق النفسي والذهني، واخترع الإرهاق، والوهن العصبي، فإن القرن العشرين، قرن «استكشاف الذات[1362]»، والذي جعل من التعب ظاهرة عامة، (تتكون) فعلا من إضعاف بدني أو حتى عصبي، ولكنها تمطي كل الكائن (البشري)، تحرك القلق وعدم الارتياح وعدم القدرة على تحقيق الذات، وتقلب وجود كل واحد. سيتركز الاهتمام عن الآثار المتعددة، وذلك فحص رهان التحكم «الداخلي» والثقة الشخصية، والبروفايل النفسي. في حين أن تنويع المجالات العلمية لم يضف سوى نتائج أخرى: المكانة التي حصلت عليها، بواسطة الكيمياء الحيوية (البيوكيمياء) المتطورة، والهرمونات والجزيئات «المعجزات»؛ والتحول إلى ممارسات غير مسبوقة: إلى غاية إلى الاعتقاد الذي يبقى هشًا، بـ[إمكانية] «تجاهل» كل ما يجد ويقد.

(1362). Élisabeth Roudinesco, « Les prédateurs sexuels sont aujourd'hui considérés comme des malades », Le Monde, 28 février 2020.

الشيء الذي انضافت إليه الظروف المادية التي تحولت مع القرن: التخفيف النسبي للأعباء الدنية، ورهان متنام للعلائقي، وتدفقات المعلومات التي غطت على تدفقات الطاقة، ومهن «التواصل» التي غطت على مهن «التحويل». ومنه القطيعة الممكنة بين مظاهر التعب نفسه: بإزاحة أوضاع التوتر، والتعب المتركز على التبرم، ونفاد الصبر والصراعات، واستتباب «قلق حديث[1363]»، والإنهاك الذي يؤدي إلى الكثير من الخور مثل العجز والانفعال.

لا يمكن، في الأخير، تجاهل آثار الزيادة في المجال النفسي نفسه في المجتمعات الغربية المعاصرة، وآثار اقتصاد أكثر فردانية، وآثار ديمقراطية أكثر تطورًا، مع ما يحملان من هشاشة ممكنة. فقد تغير كل شيء مع ممارسات استهلاكية مضخمة ومع رفاهية منتظرة، وكل شيء تغير مع تكاثر الخدمات والأدوات، ومع تزايد الثقة الجوانية، وتعميمها الاجتماعي في الأوساط الغربية، والشرعنة الظاهرية للاختيارات، بما في ذلك الرغبة الفردية. بل إن «عالم الإنترنت» قد شجع لوحده أفقًا حد ذاته أفقًا «مرسومًا» للظروف، مثل منح الثقة المتزايدة، «للمستهلك لتحديد معايير تفضيلاته بدقة[1364]». ينضاف إلى ذلك ديمقراطية، تزداد ثقتها في نفسها يوما بعد يوم، تؤسس للمساواة «على أساس تساو غير محدود ومستمر للنسيج الاجتماعي[1365]». ويضاف إلى ذلك في الأخير، أشكال جديدة من منطق اجتماعي ومهني: فقد تغيرت وحدات الإنتاج، التي نشأت عن قطاع الخدمات، والمجال الرقمي، وأنماط التصنيع. فقد تواتر على المجموعات الصناعية الكبرى المتحدة جنبًا إلى جنب، العديد من العمال، في العقود الأخيرة من القرن، والعديد

(1363).Madeleine Aveline, Des remèdes à l'anxiété et à l'angoisse modernes, Genève, Farnot, 1979.

(1364).Daniel Cohen, « Où va le travail humain ? », in id., Raymond Depardon, Jacques Donzelot, Antoine Garapon et al., France : les révolutions invisibles, Paris, Calmann-Lévy, 1998, p. 117.

(1365).Pierre Rosanvallon, Le Sacre du citoyen, histoire du suffrage universel en France, Paris, Gallimard, 1992, p. 14-15.

من خلايا العمل الصغيرة التي فضلت المسافة والانفصال بقدر الشعور بالاستقلالية والحرية:

يشعر كل واحد، في الوقت نفسه، بالعزلة أو أنه محبوس في مجموعات ضيقة، في الوقت ذاته الذي يكون مسؤولا أكثر عن نفسه، ويخضع لضغوط غير مسبوقة، لا سيما أشكال تسيير عُقَد العمل التي زادت، من جهتها، في تخصيص العلاقة بين الأجير ومقاوله(1366).

أما نتائج ذلك فقد كانت أعمق مما قد يبدو: عدم الاعتراف بأية هيمنة، ورفض أي تأثير على الهوية، والتنبيه المستمر بـ«التحرش»، الكلمة، التي تم اختُرعت في الثمانينيات، والتي تكشف لوحدها كل شيء. كما قاومت بشكل أكبر المجتمعات الأكثر مساواة، وضعيات التحكم والسلطة، ولفظت بشكل أكبر أيضا التبعية والخضوع. ونشأ التعب، بالتالي، من التهديدات التي غدت جديدة: كبح السلامة الشخصية، أي كبح الانتماء إلى الذات، والمعاناة من انفتاح متزايد وموعود به دائما، مثلما هو الحال دائما؛ والسخط المنتشر، والذي غدا عياء (تافها-عاديا). وهو ما تجاوز التمرين أو العمل الذي غزا الفضاء اليومي، والذي اخترق اللحظات، والذي اصطدم بمتطلباتنا التي تغيرت هي أيضا، وهي ظاهرة ثابتة ولازمة. يمكن بعد ذلك إنشاء دينامية جديدة، ليست هي فيزياء الوضعية التي ترعج الذهن إلى حد إرباكه، ولكن هي سيكولوجيا الوضعية التي ترعج الذن إلى حد إنهاكه.

لم يسبق أبدا أن ولج التعب، أبدا، وبشكل أعمق، اليومي (الحياة اليومية)، حتى إنه لم يعد بإمكان هذا اليومي التفكير في ذاته بدون التعب.

(1366). Pierre Rosanvallon, « Les utopies régressives de la démocratie », in Daniel Cohen et al., France : les révolutions invisibles, op. cit., p. 210.

الفصل الخامس والعشرون

كشف النفس

لقد أحدثت الحرب العالمية الأولى، بدمارها الصناعي، وأضرارها واسعة النطاق، وصدماتها التي لا تحصى، والتي كانت شديدة بعدما تم تقويمها مؤخرا، أشكالا من التعب الشديد، وأشكالا من الإنهاك لم تسبق معرفتها سلفا. فقد انقلبت التساؤلات حول التعب رأساً على عقب: بأبحاث نوعت الأسباب، وتعمقت في الآثار. (وبهذا) فتح مجال جديد في التجريب؛ حيث تمت دراسة حالات العمل بشكل مختلف. كما ظهرت أنماط جديدة من التعب، لأنه نُظِر إليها بشكل مختلف، بهدف معرفة، بطريقة غير مسبوقة، آثاره (أي التعب) على الشخصية برمتها.

وتم تجديد الوضعيات كلية بواسطة تقنيات أحدث ثورة، من ثلاثينيات القرن العشرين، في الفضاءات والمدد (الزمنية) مثل: السيارة، والطائرة، (وكميات) الشحن؛ الشيء الذي اتبعه التنقيب الشديد والمضاعف في السلوكيات، وأشكال اليقظة، والانحرافات التي يتسبب فيها التركيز لمدة أطول. وهو عالم خاص؛ حيث يصير التعب، بعد أن ينتقل مما هو بدني، أكثر نفسية، وينشر، بشكل غير مسبوق، أخطاره؛ أو أخيرا، حينما تنتقل (هذه) الدينامية مما هو بدني إلى م هو جواني، فتتصاعد وتزداد تعقيدا، إلى درجة أنها تنعكس (بأن تعود من النفسي إلى البدني) في بعض الأحيان.

الخنادق، الخط للعتبة

أخضعت الحرب العالمية الأولى المحاربين لتجربة تعب عُدَّت، للتو، لا مثيل لها. فقد تحدثت الأبحاث والتقويمات عن أقصى ما يمكن (من التعب)، و(كيفية)

التغلب عليه (بتعابير من قبيل): «احتراق الجثة (الحد)[1367]»، و«تجارب بدنية ونفسية غير مسبوقة في تاريخ النشاط الحربي الغربي[1368]»، و«وعي مزعج لكابوس[1369]» يتعلق الأمر بـ«حالة» جديدة تسجلت هنا في الزمن: الشهادات المتقاطعة، والظروف الأكثر تفصيلاً، والإحالات إلى الجوانية أيضًا؛ فقد تمت «ملاحظة» التعب و«الإحساس» به أكثر من أي وقت مضى.

وهيمنت (في فهم التعب) أولا بعض الخصائص وهي: الوسط المضطرب للمحارب، والرحلات التي لا تنتهي والتي تفرضها انعراجات المسارات، والفضاءات الممزقة، وفقدان المعالم أثناء الرحلات، ومشي المحاربين «ساعات كاملة في متاهة الخنادق[1370]»، بعد أن جمعوا (في أنفسهم) بين الخوف والإجهاد، وضرورة الزحف (على بطونهم)، وأن «تصير غير مرئي»؛ وهو جواب تكتيكي وكذلك بدني، بعيدًا عن الغارات، «الكتف على الكتف[1371]» كما في القتال التقليدي، (أضف إلى ذلك) اكتشاف أشكال من الإنهاك غير المعروفة، مثل «أيد عرقة، ونزيف الركبتين، وكسر المرفقين[1372]». وهي محن مختلفة بشكل لا نهائي، تهم الجسم على وجه الخصوص، مدة جهوده المكثفة وسكونه المطول، والملابس التي لم تغير، وعشوائية (وقت تناول) الوجبات، والبقاء في الرطوبة، «"قدم الخندق" [...] الذي هو التهاب يمكنه أن ينتكس إلى غرغرينا، كنتيجة لظروف

(1367) Anne Duménil, « Le combattant », in Stéphane Audoin-Rouzeau et Jean-Jacques Becker (dir.), Encyclopédie de la Grande Guerre, 1914-1918 histoire et culture, Paris, Bayard, 2004, p.322.

(1368).Stéphane Audoin-Rouzeau, « Massacres, le corps et la guerre », in Alain Corbin, Jean-Jacques Courtine et Georges Vigarello (dir.), Histoire du corps, t. III, Les Mutations du regard: le XXe siècle, Paris, Seuil, 2006, p. 293.

(1369).Antoine Prost, « Le bouleversement des sociétés », in Encyclopédie de la Grande Guerre, op. cit., p. 1178.

(1370).Stéphane Audoin-Rouzeau, « Les tranchées », in Encyclopédie de la Grande Guerre, op. cit., p. 250.

(1371).Id., « Massacres, le corps et la guerre », op. cit., p. 284.

(1372).Erich Maria Remarque, À l'ouest rien de nouveau (1929), in 1914-1918, Français et Allemands dans les tranchées, Paris, Le Livre de Poche, 2013, p. 621

المعيشة البغيضة التي كان على المقاتلين العيش فيها[1373]؛ أضف إليه أيضا اضطراب في الأوقات، في غياب الراحة، وحالة التأهب المتكررة.

بسبب النقصان المتكرر للنوم عند المحاربين ظواهر من الإنهاك. اضطراب الإيقاعات البيولوجية عن طريق قلب الإيقاعات المراقبة – حيث لا تتم الأنشطة في الخنادق إلا ليلاً – واستحالة الاستفادة من الانتظام في تناوب مراحل النشاط ومراحل النوم؛ وهو ما يزيد من تفاقم التعب[1374].

يتضاف إلى ذلك، في الأخير، ارتجاجات القصف المستمر، وتأثيراته «المرهقة»، التي يترجمها المقاتلون بقولهم دائمًا: «إنه تونر نميت [...] أرجلنا تنفلت منا، وأيدينا ترتجف [...]، ليس لدينا لا بدن ولا عضلات»[1375]. وآثاره «العصبية»، والتي تم تقويمها بشكل سيئ أيضا، وإن تم رصدها بشكل رصين في معجم لاروس الطبي سنة 1916 (واصفا إياها بأنها) «مشاعر صدمة» بسبب «الانفجارات»، التي يمكنها أن تؤدي، خارج «الذهول» (الذي تثيره)، إلى «اضطراب مصحوب بهذيان مهلوس»[1376]. وهي أشياء دونتها في الأخير تقارير الأطباء أو الضباط والتي غالبًا ما تكون مرتابة أمام حالات الخمول تلك.

يتخذ الشاهد، في لحظات قليلة، مظهر رجل متعب جدا؛ شاحب ووسنان وبلا قوة. يعاني من (آلام في) الرأس، وفي حالة غريبة وغبية من الخرس[1377].

لا تكمن الأصالة هنا فقط في (سرد) الوقائع ولكن في تحليلاتها وفي نتائجها. وتكمن أيضا في صدى دقيق ومتناه: وذلك باستحضار التقاطع، لأول مرة، بين التجربة البدنية والتجربة النفسية، كمرجعين ممتزجين خلقًا شدة لا مثيل لها قبل

(1373).Stéphane Audoin-Rouzeau, « Les tranchées », op. cit., p. 249.

(1374).Anne Duménil, « Le combattant », op. cit., p. 325.

(1375).Erich Maria Remarque, À l'ouest rien de nouveau, op. cit., p. 606.

(1376).Émile Galtier-Boissière (dir.), Larousse médical illustré de guerre. Paris. Larousse. 1916, art. « Maladies nerveuses ».

(1377).Maurice Boigey, Manuel scientifique d'éducation physique, Paris, Payot, 1923, p. 432: «tarissement de l'énergie bien observé par de nombreux officiers ».

الآن. فقد وسع التعب من أمثلته، وصار موضوعا رئيسيا، وحدد مجالات الاهتمام: «كان لابد من الحرب بما تحتويه من فترة عملها المكثف والشديد، لطرح مشكلة [التعب] بطريقة قوية وضرورية، مع الحاجة الفورية لحله عمليا[1378]». (مثل) تأثير القتال وإرهاقه المفرط، وتأثير مصانع الأسلحة وتحدي الطوارئ الشديدة. لذلك، من المستحيل تجاهل الاحالات، كما كان الأمر سابقًا، بالتركيز على المنظور النفسي، والاعتراف بـ«مراكز عصبية معتوهة[1379]»، وتحديد تعابير مثل: «الكآبة»، و«لجة (نفسية)»، و«اكتئاب»؛ وهي الكلمات الجديدة التي تم البحث عنها للإحاطة بالمجال الجواني، وتحديد فتور لا يمكن التغلب عليه، يسكن قلب الضُّعاف. وقد فرضت المخاوف المربكة نفسها أيضا: مخاوف مرتبطة بالإنهاك الذي يجمع بين الجسدي و«الذهني»، وانفصال المجال الشخصي، وحدوث نوع من البتر في الذات، وهي الأشياء التي ذكرت بشكل دائم: «لم تكن نملك حتى الوقت للوضوح الكافي لكي نتخيل، أو حتى لكي نتخوف من أي شيء [...][1380]». مثل تأكيد أندريه بيزارد في معارك أركون: «إن أولئك الذين يتأملون معاناتهم [...] يتم القضاء عليهم[1381]» أو الوصف الطويل لغابرييل شوفالييه، لنوع من الإنهاك الذي يمنع أي تفكير.

أعيش مثل وحش، وحش جائع (لكنه أيضا) متعب. لم أشعر أبدًا بالبلاهة الشديدة، والخلو من أي تفكير، وفهمت أن الإنهاك البدني، الذي لا يترك للناس وقتا للتفكير، والذي يمنعهم من الإحساس بأي شيء سوى الحاجات الضرورية فقط، هو أفضل وسيلة للهيمنة. وفهمت أن العبيد يخضعون له بسهولة، لأنه لم يترك لهم أية قوة للتمرد ولا حتى الخيال لتصور هذا التمرد ولا الطاقة اللازمة

(1378).Victor Dhers, Essai de critique théorique des tests de fatigue, thèse, Paris, 1924, p. 6.
(1379).Gabriel Chevallier, La Peur (1930), in 1914-1918, Français et Allemands dans les tranchées, op. cit., p. 929.
(1380)Ibid., p. 790.
(1381, André Pézard, Nous autres à Vauquois, 1915-1916 (1918), Paris, La Table ronde, 2016, p. 214.

للتخطيط له. وفهمت حكمة هؤلاء المهيمين، الذين يسلبون أولئك الذين يستغلون استخدام أدمغتهم، من خلال إرغامهم على مهام مرهقة. وأشعر أحيانًا أنني على حافة هذا السحر الذي يمنحه التعب والرتابة، وعلى حافة هذه السلبية الحيوانية التي تقبل كل شيء، وعلى حافة الخنوع الذي هو تدمير للفرد[1382].

هذه شهادة أكثر حسمًا هنا لأنها تكشف عن تحول ثقافي كبير، وديناميكية نفسية متنامية بشكل غير محسوس، دشنت مع التنوير: الإرادة الملحة لتملك الذات، وإرادة إثباتها؛ الأمر الذي يغير من وضعية التعب نفسه، التعب الأقوى، والأثقل، الذي يجتاح الفرد ويخرقه: فلم يعد ألم الإنهاك فقط، أي الحد الذي يعيق الحركة والفعل، ولكن ألمًا آخر، أكثر قوة، يعيق البعد والتقدير، يكبح حرية الشعور والتفكير، مهددًا كل امتلاك للذات، عقبة، لأول مرة، تم الاعتراف بها وتحديدها. إن الإحالة هنا نفسية طبعًا، ولكن على نمط جد معقد أكثر مما كان عليه (التصور القديم) للتعب الذهني. فقد غدت الجوانية أمرًا، في الآن نفسه، جد ملح ولا يمكن بلوغه: كملاحظة «الاستلاب» خاص، وجذري بعيدًا أيضًا عن الوهن العصبي، ومعبدًا عن عودته المؤذية للذات، وعن قلقه، وعن شعوره اللامتناهي بالنقص. بل على العكس من ذلك، يفرض هنا ضغط الخنادق، ضغطًا لا يمكن وصفه، شعورًا مرتبكًا و«مُسَوَّرًا» شعور استحالة وجود أي تحليل، وأي تفكير أو أي انتباه. ضغط انطلاقًا منه، لن يتوقف عمل النفس عن تعقب أي تحليل للتعب، حتى في شداته أو في جوانبه المختلفة.

بما أن «تعب الحرب» قد صار مثالاً على جميع الحدود الممكنة، وموضوع ملاحظات باعتبارها معارف جديدة، فإنه قد انفتح على موضوعات أكثر شمولية، وعلى المزيد من التأملات (الأفكار) لأكثر نوعية، موجهًا بشكل نهائي،

(1382) Gabriel Chevallier, La Peur, op. cit., p. 906.

صوب رؤية أكثر أنثروبولوجية، للتعب وآثاره. وهذا تغير أساسي؛ حيث لم يعد من الممكن نسيانه أبدا.

مسالك «التعميم»

لقد مالت العديد من الأبحاث، من أجل تجديد عميق للتساؤلات، في فترة ما بين الحربين (مثل): الوعي بالعواقب التي تتعدد كل مرة بلا انقطاع، أي الآثار النفسية الخاصة جدا.

اتسعت الحلقة أكثر لتقتحم المناطق التي كانت جد خفية في الفرد. وهي فكرة أساسية وجديدة مفادها أن التعب تتداعى معه، فورا، الشخصية بأكملها؛ حيث يصل الجهد إلى طبقات غير جديدة (من الشخصية)، (فالذات) تنخرط بكل «جوارحها». وهو نجاح للاهتمام المتزايد بالفرد وبكيانه الممكن كذلك. يستحضر تشارلز مايرز بإلحاح، وإن كان ذلك مع شعور بالارتباك، في أعمال «مجلس أبحاث التعب الصناعي»، الذي يحمل هنا عنوانا دالا، وهو المجلس الذي أنشأته السلطات الإنجليزية بعد الحرب سنة 1920 (يستحضر) ما يلي:

لا يمكن عزل التعب العضلي في ورش العمل، كما هو الحال في المختبرات، عن التأثيرات النشطة، مثل المهارة والذكاء اللذين يعتمدان في حد ذاتهما على الأداء الطبيعي للمراكز العصبية العليا [...]. يمكن أن تؤدي الزيادة في الاهتمام أو الإثارة أو تأثير العاطفة أو الاستثارة – كما هو معروف – إلى محو مظاهر التعب؛ أي التسبب في إنعاش النشاط الذهني والعضلي[1383].

يشرعن مثل هذا اليقين الإحصاءات الجديدة، (لهذا) ضاعف أخصائيو الصحة ما سموه بـ «الأسباب المشجعة»، وذلك للتدقيق في البروفايلات والحكايات والفرادات: (أي) «الحالة السابقة للذات»، و«حالة الجهاز العصبي قبل أو أثناء

(1383).Charles S. Myers, Industrial Psychology in Great Britain (1926), Londres, Jonathan Cape, 1933, p.45.

الجهد»، و«الظروف التي ينجز فيها هذا الأخير (أي الجهد)»، و«الشدة والسرعة والمدة»، و«العلامة المهيمنة على الجهاز العصبي».. [1384]؛ مما يكشف عن جوانب جد متنوعة من الصدمات التي قد تسبب فيها «حالا الضعف والوهن العقلي[1385]». تجعل العديد من هذه المؤشرات صعبا تحديد تعريف ثابت للتعب؛ «حيث تتخذ الظاهرة أشكالًا مختلفة، ولا تقبل المقارنة بينها إلا قليلا، والتي تعتمد، قبل كل شيء، وبشكل كبير على الظروف المتعددة في ممارسة النشاط[1386]». وهو ما أدى إلى أبحاث تميز، دائما وبشكل أكبر، بين للمواقف والظروف والأوساط.

نربط بمراجعة الأسباب هذه مراجعة للآثار. فقد دقق **كورت غولدشتاين**، في ثلاثينيات القرن العشرين، في ردود الفعل «الشاملة»: «لقد تمكنا حتى من إثبات أن البدن، بتأثير هذا اللون أو ذاك، يتصرف بشكل مختلف وبشكل محسوس حتى في مورفلوجيته[1387]». يؤكد **موريس بوجي** ذلك من خلال ملاحظته للرياضيين: حيث يتأثر الرياضيون الذين يخضعون «لاختبارات بدنيه متتالية» في سلامتهم العامة (العصبية والبدنيه)، بعيدًا عن مجرد آثار أو آلام عضلية، فـ «يتعمم» التأثير: فلا تتحدد الأعضاء (البدنيه) الأقرب إلا بشكل أقل، ووضع وشكل للجسم يدل على ثقة أقل، ووعي غامض[1388]؛ وصار، بعبارة أخرى، التمزق المركب هو المحرك في منتصف القرن؛ حيث «يلج التعب، بالتالي،

(1384).Paul Sédallian et Roger Sohier, Précis d'hygiène et d'épidémiologie, Paris, Masson, 1949, p. 112.

(1385).Arthur Van Gehuchten, Les Maladies nerveuses, Louvain, Uystpruyst, 1920, p. 627

(1386).Georges Friedmann, Problèmes humains du machinisme industriel, op. cit., p. 66.

(1387).Kurt Goldstein, La Structure de l'organisme, introduction à la biologie à partir de la pathologie humaine (1934), Paris, Gallimard, 1983, p. 224.

(1388).Maurice Boigey, Manuel scientifique d'éducation physique, op. cit., p. 443-448.

حتى أعمق السمات النفسية[1389]؛ إنه يخترق الشخصية، ويتجاوز التأثيرات التي كانت معروفة آنذاك.

إنها الإحالة نفسها التي سيفحصها إليوت سميث سنة 1928، في سلوك العمال «المتعبين»، وكلهم قد وصلوا إلى «عدم القدرة على التفكير بوضوح»، متخيلين «بسرعة الظلم [...] والمواقف العنيفة»، وقد استسلموا «للغضب» أو «للاكتئاب»[1390]، الشيء الذي جرب حتى انفعالاتهم. نجد الإحالة نفسها أيضا، في تساؤل موريس فيتيلس، في عام 1932، عن *رجال الأعمال* «المتعبين»، وقد أصبحوا جميعهم «طغاة مكدرين عاطفيا»، بأن عذبوا محيطهم، مما أدى إلى مضايقة «الرفاهية الاجتماعية»[1391]. إنها اختلافات دقيقة، من دون شك، بين المسيطرين والمسيطر عليهم، والبعض مال إلى باثولوجيا التفوق، والبعض الآخر إلى باثولوجيا الخضوع؛ و(صار) الإيذاء «مركبا» أكثر فأكثر في الحالتين معا، مما حول من أنماط الفهم والحاجة إلى البحث. فأصبحت رؤية «المتعب» عامة، وصارت الثقة يقينا: فقدنا للتأثير البدني المتنوع، تأثير أعمق من أي وقت مضى. (يتعلق الأمر إذن) بظاهرة «كامنة»؛ حيث يتنزل التعب لـ «يلج» جوانية الفرد بشكل أكبر. ولم تتوقف رحلة الانتقال من البدني إلى الذهني عن التنوع، والجهود والإفراغات من أن تترك صداها، بشكل دائم في الوعي لنفسه.

تعيين «التعب الصناعي»

ستتعمق تساؤلات سنوات 1920-1930، بالأخص، حول العمل، إلى درجة إنشاء آليات مؤسساتية، بما في ذلك «شهادة الطب الصناعي» التي تمنحها

(1389).Georges Friedmann, Problèmes humains du machinisme industriel, op. cit., p. 72.

(1390).Elliott Dunlap Smith, Psychology for Executives . A Study of Human Nature in Industry, New York-Londres, Harper, 1928, p. 101-102

(1391).Morris S. Viteles, Industrial Psychology, New York, Norton and Company, 1932, p. 440.

كلية لطب بجامعة هارفارد عام 1918[1392]، أو شهادة «حفظ الصحية الصناعية وطب العمل» التي تمنح في فرنسا عام 1933[1393]. وهناك تجديدات نظرية أيضًا، تلك التي أعطى تشارلز مايرز صورة واضحة عنها من خلال التمييز بين نوعين من الوضعيات البدنية المتعبة: التي تؤدي إلى تقلص العضلات، وتلك التي تهم أيضا وضعيات البدن وهيئته. الأول من نمط «ارتعاشي»، والثاني من نمط «تشنجي». يمكن التعرف فورا على الأول، (لأنه) مرتبط بأي (عملية) استهلاك، أي مجهود أو أي جهد، والثاني لا يتعرف عليه، لأنه جد صامت، ومقنع وأعمق. إنه متعلق بوضعيات التحكم، وبأشكال وضعية الجسد الثابتة، مما يتسبب في تقلصات وارتجاجات متكررة، و«مثبطات[1394]» لمنع أفضل للحركات غير المفيدة، أو «منع الاندفاعات غير المرغوب فيها[1395]»، مع ما ينشر ذلك من (إحساس بـ) توترات ومضايقات. ثم إنه يقتصر على النفسي، من خلال أشكال التعطيل المطولة هذه، هذا الاضطراب لـ «توتر» هو نفسه «سبب انتظام والتوازن[1396]»، فالمصنع وأعماله تطلبه (من جهة) وتجعله يضطرب (من جهة ثانية)، حتى عندما حلت الآلة محل القوة البشرية، مما أدى إلى محو، بالتدريج، كل نقل يدوي للبضائع. ومع هذا التأكيد على «العام (في التعب)» وعلى تأثيراته.

لا شك أن الأمر ليس جديدا في حد ذاته. وتشغيل الأطفال مثل على ذلك، قرنا قبل ذلك، (مثل) فترات الراحة طويلة الأمد، والحركات المتكررة والمحددة، ومراقبة الحركات الميكانيكية؛ الشيء الذي يستثني القيام بأي جهد معين. إن تحديد الأعراض هو الأمر الجديد، ومكانة النفسي واكتشاف الاضطرابات التي

(1392).Camille Simonin, «Évolution de la protection médicale des travailleurs», in id. (dir.), Médecine du travail (1950), Paris, Maloine, «Les précis pratiques», 1956, p. 770.

(1393).https://fr.wikipedia.org/wiki/Histoire_de_la_m%C3%A9decine_du_travail.

(1394).Charles S. Myers, Industrial Psychology in Great Britain, op. cit., p. 50, « nervous impulses must be inhibited».

(1395).Ibid., p. 42 ; « blocking the transmission of the impulse ».

(1396).Georges Friedmann, Problèmes humains du machinisme industriel, op. cit., p. 76.

تخترق السلوك. إنه الاهتمام بترابطات جديدة: الأثر السلبي للتوتر الذي يغرس تشلا في تحكم (في الذات في نفسها)، ويخفض من الشدة، ويحدث «تصدعات» عضلية، وهو ما يتبعه الخوف والقلق. إنه انتقال مرة أخرى، من البدني إلى النفسي؛ حيث تتبع ذلك «لأفكار المؤرقة، وعلى المدى الطويل، حالات من القلق وحالات عصابية[1397]»، مما يزيد من العياء نفسه، الذي صار محددا أكثر، وهي علاقة غدت ملحة وبارزة بين التعب «والعصاب النفسي[1398]». وهكذا تمت الإحاطة بمفهوم جديد؛ ألا وهو «التعب الصناعي[1399]»، الذي اقترحه تشارلز مايرز والباحثون من مجلس أبحاث التعب الصناعي: عياء يخلط البدني بالنفسي، مما يسبب في الآن نفسه الضعف والقلق، وعدم الراحة والكآبة، في حين لا الجهد ولا إنفاق (طاقة) العضلات أمر معتبر بشكل قبلي. أما التكرارات المؤلمة، والمدة المرهقة فقد كانت في صميم (عملية) الاستدلال: (من) تآكل شخصي وتدهور غير محسوس، قليلا ما يتم التغلب عليها، وقليلا ما يتم تعويض (ضررها). ومن هنا جاءت هذه الفكرة الجديدة عن «التعب المتبقي (المترسب)»، الذي يحيل على ما يدوم (في الذات) دون ترميم:

إن الترميم الذي تمنحه راحة النهار أو الليل غير كاف [...] نظرا لعدم استرداد احتياطيات الطاقة، الشيء الذي تتبعه بقية من الآثار العامة عن العمل، آثار بدنية ونفسية؛ ويبدو أن مفهوم التعب المتبقي، هو الأهم، عمليا، اليوم للدراسة المكثفة[1400].

يوجد هنا، في شكل مختلف وأكثر حدة وأعمق أيضًا، وبشكل أبعد التفكير فيه تمامًا، موضوع «الضيق»، الذي لمح إليه في منتصف القرن التاسع عشر بالنسبة إلى عمل الأطفال. يضاف إلى ذلك الجانب النفسي بصدد الاضطرابات الداخلية

(1397) Ibid., p. 77

(1398) Charles S. Myers, Industrial Psychology in Great Britain, op. cit., p. 51

(1399) Ibid., p. 40 sqq. « Indusrial faigue ».

(1400) Georges Friedmann, Problèmes humains du machinisme industriel, op. cit., p. 79

والتوجس والخوف[1401]، والتعب «بعيد الأثر[1402]»، الشيء الذي جدد بالتالي التساؤلات والانشغالات.

مراجعة الأوقات والأمكنة

هذا الاهتمام الأكثر حدة الموجه صوب أشكال من التعب الشديد وعدم الراحة، والتشنجات المزعجة، بل والآلام، كان في أصله اهتماما ظرفيا، سواء أكان هذا الظرف ملموسا أم ماديا، (لكنه) سمح بتوسيع مجال الأبحاث. فقد تنامى الفضول وانصب على الظروف والفضاءات والأوقات ومواقع العمل، دون أن يعني ذلك أن الوسط قد تم نسيانه. فلطالما احتلت أشكال قساوته تحليل المهن: الأرضيات الخطرة والجسيمات المنتشرة والمباني الرطبة والهواء الذي لا يمكن تنفسه أو الهواء الفاسد. وتمثل أنفاق المناجم، من بين أشياء أخرى، المخاطر الرئيسية. وكان التحدي منصبا على الأمراض، وكانت الأوساط تقلق بشأن الآلام التي تسببت فيها: من الالتهاب الرئوي إلى السل، ومن مصل الدم إلى أنواع من الفتق، ومن الدوالي إلى «تصلب الشرايين».

إن الوسط هذه المرة، في فترة ما بين الحربين العالميتين، هو الذي يعتبر بالأساس السبب المحتمل للتعب الشامل وليس فقط سبب لأمراض معينة، مثلما يفترض أن تفعله الروائح العفنة (الناقلة للأمراض) والجسيمات والجفاف والرطوبة. إنه تحول كبير سيسلط الضوء على الأهمية المتزايدة التي غدا يكتسيها التعب نفسه، مما يزيد من تمييز ظروفه وأصوله وخصائصه. ستضيف الآليات المادية تأثيرها: مثل «التدفئة والإضاءة والتهوية، والتي لها أثر معين على الراحة الجسدية والحالة

(1401). انظر:

Charles S. Myers, Industrial Psychology in Great Britain, op. cit., p. 51. « anxious moods, disorderly unreasoned fears ».

(1402).Georges Friedmann, Problèmes humains du machinisme industriel, op. cit., p. 79.

النفسية وتوليد تعب العامل[1403]». تضاعفت الأبحاث، وتنوعت الملاحظات بعيدا عن العمل «المتسلسل» لهنري فورد في عام 1910، (الذي يضع سلسلة تمر من) «أمام العامل» لزيادة راحته، وإن كان العمل هنا يدور حول «السرعة» وبشكل أقل حول الإنهاك. بينما قام جان موريس لاهي، على خلاف ذلك، بتفصيل عام 1927 (مدى) «تأثير الإضاءة على المردودية[1404]»، وفي ذلك (بحث عن) فعالية صناعية، بلا شك، لكن التعب كان في الأفق بما أنه قد افترض في الموزعات الكهربائية «إيرلين» أن توفر ضوءًا ناعمًا لا يتعب البصر[1405]. «كما قام دونالد ليرد بقياس تأثير الضوضاء على ضغط الدم وتوليد التعب[1406]» في عام 1934، وهو بالتأكيد إثبات لنجاح إجراءات عزل الصوت أو الدعامات المطاطية أو الجدران المبطنة. كما لم يعد الهواء، مرة أخرى، مجرد سبب للأمراض من خلال مواده، ولكنه عامل إنهاك بسبب درجة حرارته أو بسبب رطوبته: «يبدو أن السبب الرئيسي للتعب هو ركود الهواء الذي يمنع سلاسة تبادل المسارات الحرارية، بين الجسم إبان العمل والوسط المحيط[1407]».

والحدة الأهم في ذلك هي أن «وسط العمل»، مع السنوات العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، هو أيضًا وسط الصناعة «الخدماتية»، الفضاء هو فضاء المكتب، والتعب هو لا تناسب الاستجابات مع الآلات وأثاث (المكتب). كما سعت الإشهارات ومعارض البيع إلى تحقيق الهدف نفسه: تخفيف وضعيات (الجسم)، وتقليص التنقلات، وتجنب أي تعب عضلي أو انقباضات (عضلية). وامتدت المنضدة، مضاعفة المستويات والدرجات، وصارت المقاعد

(1403).Ralph Mosser Barnes, Étude des mouvements et des temps (1937), Paris, Éditions d'Organisation, 1949, p. 191

(1404).Jean-Maurice Lahy, « L'influence de l'éclairage sur le rendement », Mon bureau, septembre 1927.

(1405).Mon bureau, publicité Ilrin, mars 1930.

(1406).L. Blumenthal, « L'organisation de l'entreprise, le bruit et le rendement », Mon bureau, juillet 1934.

(1407).Georges Friedmann, Problèmes humains du machinisme industriel, op. cit., p. 87

تبص بالحياة مفصلة الارتفاعات و(القدرة على) التنقل، والقدرة على تغيير وجهتها، كي تم ترتيب الأشياء بالتقريب بين المسافة والجاهزية. تمت إعادة التفكير في تخطيط (الفضاء)؛ حيث عدت منضدة «مديرلي» (قادرة على) «تجنب الحركات والأعصاب[1408]»؛ واعتبرت أرفف «شوفان»، «توفر المساحة والوقت[1409]»؛ وقيل إن أدراج «سترافور» تطيع «أقل حركة[1410]»؛ وعدت «عربة لوبران» وتشغيلها الكهربائي قادرا على محو «السبب الرئيسي للتعب في الآلة الكاتبة[1411]». فرضت مجلة مكتبي، في قلب عشرينيات القرن العشرين، نفسها كمجلة مميزة لهذا الكون الجديد. «لإنتاج الأجهزة التي لا يتسبب استعمالها سوى في حد أدنى من التعب لمستخدميها[1412]».

تغيير آخر مهم أيضا وبالقدر نفسه، وهو حالة حركة الجسم لعدد من الوظائف المستحدثة؛ حيث تستهدف هذه الحركات أشياء إن لم تكن أخف، فهي أكثر دقة. تلك الخاصة بصناعة الآلات والماكينات والتي نشرت الأدوات اليومية على نطاق واسع أدوات تستخدم يوميا وهو ما حول من مفهوم «مكتب العمل»، واستدعى يقظة خاصة بصدد «الحركات-الجزئية[1413]»: (على شكل) تنسيق حركة اليدين، وتسوية (حركة) الأصابع، وهو توليف «مقيد» سيتطور. وستتبع دراسة تدبير الأحمال الثقيلة، تدبير عملية تنسيق الحركات. وستلي دراسة حول «كمية» الطاقة، دراسة «كمية» التركيز وهو ما تؤكده الوضعيات التي تمت دراستها «علميًا» بواسطة رالف موسر بارنز في عام 1937[1414]: (مثل)

(1408).Mon bureau, publicité Moderny, 15 mars 1921
(1409).Id., publicité Chauvin, février 1934
(1410).Id., publicité Strafor, 15 mars 1922
(1411).Id., chariot Le Porin, mars 1937.
(1412).Id., « Le machinisme dans le bureau », mars 1938.
(1413).R. M. Blakelock, « Micromotion Study Applied to the Manufacture of Small Parts », Factory and Industrial Management, vol. 80, octobre 1930.
(1414).Ralph Mosser Barnes, Étude des mouvements et des temps, op. cit.

«التحكم في شفافية القوارير»، و«تغليف الصناديق» و«طي الأغطية»، و«تجميع أجزاء أزرار الأبواب»، و«تجميع أجزاء المدماع»، و«تجميع أجزاء مماثن مطاطية».

ستتغير طرق التقويم أيضًا، والتي ستلجأ إلى الفيلم، والتخطيط الضوئي للأطراف، ومدد ردات الفعل المقاسة، (وذلك عبر) كاميرا ثابتة، مثبتة على الساعدين للسماح بتحديد دقيق لصورة تلو الأخرى، كل إزاحة ولو كانت جد صغيرة. وتلك منهجية، بالتأكيد، صارمة: عبر فصل بشكل قاطع الرشاقة، واللمسة عن خفة اليد القديمة، بتحويل غير المرئي إلى مرئي، والحركة العفوية إلى حركة «مُقاسة»، وتحويل ما كان بالكاد تخمينه إلى «موضوع» ومنه التساؤلات الجديدة أيضا، التي تقود فضول دينامية النظر، والتنسيق بين الحركات والعين. وقد حولت هذه الاستنتاجات صورة الجسم إلى آلة عصبية؛ (حيث) «يجب تقلص حركات العينين ونقاط ثبات النظر[1415]»؛ أو أيضا: «الوتيرة ضرورية لإنجاز تلقائي و«سلس» لعملية ما[1416]».

يبقى هناك مفهوم التعب، الذي، طبعا، سيضطرب معياره، ومعلمه صار غامضا ومشتتا، بمجرد ما أن تزيل أشكال الإنهاك العضلي المباشر أو التوترات التشنجية وكيميائيتها للصعوبة. ذلك هو استنتاج بارنز في دراسته الأساسية «للحركات والأوقات»؛ (حيث) «يظهر الشعور بالعياء بشكل عام أثناء العمل على المدى الطويل. إنه، بالأساس، إحساس ذاتي، وبالتالي لا يمكن ملاحظ قياسه[1417]». وقد شجع التركيز على جسم (بما هو) «آلة عصبية»، وبشكل أقل عليه (كـ) «آلة قوة»، على إعادة تنظيم محيطه[1418]، مثلما شجع ظهور علم نفس هذا هو الاستنتاج التام للكتاب الأساسي معجم طب العمل لكاميل سيمونين في

(1415).Ibid., p. 240.
(1416).Ibid., p. 230.
(1417) .Ibid., p. 183.
(1418) Archibald Vivian Hill, Living Machinery, New York, 1927.

عام 1950 (قائلا): «من الضروري مراعاة الحساسية الشديدة لظواهر التعب أمام التغيرات في الحالة الحسية-النفسية[1419]».

يضاف في الأخير التركيز على الفضاء بفضل أبحاث فترة ما بين الحربين والتساؤلات حول الوسط، والتركيز الجديد على الزمن، (عبر) دراسات تجريبية أكثر دقة والمقارنة بين الفترات و(كمية) الإنتاج. (لهذا نجد) هذه البرهنة التي قد تبدو عادية، وهي برهنة تشارلز مايرز: «تزداد المردودية بشكل ثابت مع تقليص (مدة العمل في) اليوم[1420]». وبقيت ثماني ساعات هي الخيار المهيمن، وحدث الاعتراف به، حتى ولو أكد مدير مجلس أبحاث التعب الصناعي أن العامل يعرف كيف يكيف وتيرته الخاصة (في العمل) مع المدد المختلفة (للعمل) («يتكيف مع طول المدة[1421]»).

إن الأكثر أصالة، (أيضا) هو دراسة فترات الراحة، التي بصددها تضاعفت الأبحاث، بين أوروبا والولايات المتحدة مما سيجعل التجارب والحسابات تهيمن. مثل أبحاث إدوارد ديفيد جونز، من بين باحثين آخرين، لتي سلطت الضوء في عام 1919 على زيادة «نتائج» العمال أثناء التعديل التدريجي «(لفترات توقفهم)». يكشف الرقم هنا عن دقة لا مثيل لها، حتى ذلك الحين: 16 قطعة تم إنتاجها في غياب فترة استراحة، لكل شخص وفي الساعة في مصنع للمعادن، و18 قطعة مع فترة راحة لمدة 5 دقائق كل 25 دقيقة، و22 قطعة مع فترة راحة لمدة 3 دقائق كل 17 دقيقة، و25 قطعة مع فترة راحة من دقيقتين كل 10 دقائق[1422]. الملاحظة نفسها في إنتاج براشم في مصنع للصلب؛ حيث يتم إنتاج 600 برشام في يوم واحد لكل عامل، و1600 عند استراحة لمدة دقيقتين بعد

(1419).Bernard Metz, « Aspects physiologiques et psychologiques de la fatigue », in *Médecine du travail*, op. cit., p. 158.

(1420).Charles S. Myers, *Industrial Psychology in Great Britain*, op. cit., p. 46.

(1421).Ibid., p. 47.

(1422).Edward David Jones, *The Administration of Industrial Enterprises*. New York, Longmans, 1919, p. 221.

الانتهاء من مجموعة من 10 برشامات[1423]. وجميع الأرقام الدقيقة دائما، تركز على الفعالية، والتي يضاف إليها حساب اللحظات المختارة للتوقف عن العمل. يؤكد المعهد الوطني لعلم النفس الصناعي في لندن، بعد استطلاع شمل 1050 مصنعًا في عام 1939، على الحاجة إلى وضع لحظات التوقف عندما تصل «المردودية إلى حدها الأقصى[1424]»؛ حيث يضعها آخرون حينما يبدأ المنحنى في الانخفاض («في الانخفاض[1425]»)، والبعض الآخر يفضل اختيارات العمال لعدد محدود من فترات الراحة في اليوم[1426]. والكثير من التقارير التي تميل إلى الاتفاق بينها، جديدة من حيث إحصائياتها، لكنها تظل محدودة بأثرها الإنتاجي فقط: استيعاب المردودية أكثر من السلامة الجسدية والذهنية للعامل، التي هي سلامة أصعب، من دون شك لتحديدها، بل وحتى لضمان وجودها.

لقد كانت الأبحاث التي استهدفت فترات أخرى من الراحة، أكثر دلالة بل وحسيا؛ أي تلك الأبحاث التي حدثت بسبب التغيرات في التقنيات في الثلث الثاني من القرن، (مثل) القيادة بالمحركات والشحن ذي المسافات الطويلة، واليقظة طويلة الأمد، وآلات أكثر مرونة وسرعة في فترة ما بين الحربين، موجهة نحو مقاومة متزايدة ضد الدقائق والساعات والأيام

نرى (هنا) كيف أن قيادة حافلة حديثة أو قطار، وقد غدت أقل إتعابا، صارت— إن كان بإمكاني أن أقول ذلك- أكثر جلوانية ولا يمكن أن يعهد بها إلا لرجال تظل جميع أنشطتهم النفسية- الحركية والذهنية في حالة تأهب دائم[1427].

(1423).Harold Ernest Burtt, Psychology and Industrial Efficiency, New York, Appleton and Company, 1931, p. 174.

(1424).J. Ramsay, R. E. Rawson et al., Rest-Pauses and Refreshments in Industry, Londres, The National Institute of Industrial Psychology, 1939, p. 5 et 42.

(1425).Harold Ernest Burtt, Psychology and Industrial Efficiency, op. cit., p. 191.

(1426).Elton Mayo, « Revery and Industrial Fatigue », Journal of Personnel Research, vol. 3, no 8, 1924, p. 273.

(1427).Jean-Maurice Lahy, « Recherches expérimentales sur des activités simultanées de force et de précision », Le Travail humain, vol. 8, no 1, 1940, p. 45.

استشهد جان موريس لاهي سنة 1937 بحالة غير معروفة حتى ذلك الحين؛ أي بالعمل الذي يتجاوز بكثير الساعات الثماني اليومية التي سنت في عام 1919: رحلة الذهاب-الإياب، وأكثر من خمسمائة كيلومتر، بواسطة جرار ومقطورة توصيل تزن أربعة عشر طنًا، بين ثلاث مدن فرنسية، يقوم بها وبانتظام نوع جديد من شركات النقل[1428]. تعممت العملية، لكنها ركزت على المخاوف والأخطار؛ (حيث) يتناوب سائقان خلال مراحل لمدة إجمالية تبلغ خمسا وثلاثين ساعة، أثناء المشاركة في التحميل والتفريغ. يسيرون ليلاً ويأكلون على الطريق وينامون في شاحنتهم. يظل استطلاع جان موريس لاهي أصيلا، وذلك لأنه وضع خطة لتتبع الشاحنات بسيارة، والقيام باختبار كل ثلاث ساعات، وبالاستماع إلى الفاعلين (أي السائقين). ومنه تعقب أشكال العياء، تلك التي تبل كل شيء، تحدث بين «منتصف الليل و الخامسة صباحًا»، وتسجيل «الهلوسات النعاسية»، وهذا «الشعور بفتح العينين ورؤية الطريق» بينما لم تعد اليدان، في الحقيقة، «تشعر بالمقود» ولم تعد تسمع «زمجرة المحرك[1429]». ينضاف إلى ذلك الشهادة التي تسرد قصص حوادث (السير). مسارات «تصف التعرجات»، والمقطورات «التي تنتقل من جانب واحد من الطريق إلى الجانب الآخر»، إلى غاية حدوث صدامات (ارتطامات) جد مأساوية.

وبالدقة نفسها توقفت الأبحاث الأمريكية عند أشكال العجز الحسي عند سائقي الشاحنات الذين يقومون برحلات طويلة: (ومنها) طول مدة ردات الفعل، وتقليص دقة التنسيق بين العين واليد، وانخفاض سرعة حل المشكلات الحسابية، وقدرة أقل على البقاء في وضعية الوقوف[1430]. وهو ما يوجه الأبحاث الجديدة التي تحاول تحديد الخصائص الإجرائية التي لم تتم دراستها حتى الآن إلا

(1428) Id., « Les conducteurs de "poids lourds", analyse du métier, étude de la fatigue et organisation du travail », Le Travail humain, vol. 5, no 1, 1937, p. 35.

(1429) Ibid., p. 38.

(1430) A. H. Ryan et Mary Warner, « The Effect of Automobile Driving on the Reactions of the Driver », The American Journal of Psychology, vol. 48, no 3, 1936.

قليلاً: (مثل) التحكم الحساس، والتحكم في الحركات القصيرة، والمقاومة العصبية، والتمييز بين التحذيرات والتشويرات. وهي طريقة جديدة أيضًا لاختيار السائقين: «سيكوتقنية[1431]»؛ أي باسم جديد يسمح، عبر استخدام اختبارات مناسبة، لاختبار أولئك الذين يقاومون مثل هذه المدد، وهي وضعية خاصة، بتعبير آخر، حيث يهيمن التركيز والحفاظ عليه، على الصفات الأخرى[1432].

يتمثل التحدي هنا، إلى جانب ذلك، في تحديد خصائص هذا النوع من الإنهاك، بالتعبير عن عديد السلوكات القديمة، التي، وبلا شك، سبق أن تم الحديث عنها: «هلوسات» ليبية، ورحلات لا نهاية لها، وأحداث على طول الرحلة، ولكن ستعبر عن نفسها هنا لأول مرة؛ بالنظر إلى أن حدتها ستزداد مع الآلات ذات محرك، ومع الحوادث المميتة، والمفاهيم النفسية وكلام السائقين المقلق. لا شك في أن عالما مثل هذا، عالما من «أشكال من الوهن»، يعتبر جديدًا، تحدد بشكل خاص، ويثير الخوف بشكل خاص يحث جان موريس لاهي على ضرورة أخذ قسط من الراحة لمدة يوم أو يومين لتقسيم مثل هذه الرحلات. وبالتالي، (نحن في لحظة) وعي حاسم، أتى من ازدياد حساسية بقدر ما أتى من ازدياد في التقنية.

الوقائع نفسها متطابقة مع الاستخدام الذي صار شائعا للطائرة رحلات فردية، وقيادة الطائرة في حالة حذر دائم. تحدث هنري مينيث، مخترع الطائرة المسماة بو-دي-سيل في عام 1932، عن الفترات التي تركز انتباهنا فيها بشدة، و«الهلوسات» والمفاجآت، والمقاومة في فضاء بدون معلم وبلا حدود: «يجب أن تمسك أعصابك؛ حيث تتوقف حياتك (فقط) على انتباهك [...] لا فترة استراحة ولا فشل [...]؛ بل حتى نهاية الرحلة تترك الربان متعبا ومنهكا، جامدا، غير

(1431). انظر مثلا العنوان الفرعي لمجلة العمل البشري (1933): "فيزيولوجيا العمل والبسيكوتقنية"

(1432)Anson Rabinbach, Le Moteur humain : l'énergie, la fatigue et les origines de la modernité, op. cit., p. 445, ou Marc Loriol, Le Temps de la fatigue, op. cit., p. 68.

مبالٍ تقريبًا بالأشياء (حوله) [...](1433)». تمثل شهادة تشارلز ليندبرغ في عام 1927 في أول عبور له للمحيط الأطلسي، هذا الشعور بحالة من الجدة الكلية. وهو إحساس يتجدد ساعة بعد ساعة لمدة ثلاث وثلاثين ساعة، والذي جعل الرحلة تبدو «طويلة جدا» وأضاف ليندبرغ التفاصيل (التالية): أشكال من المقاومة المتضادة، وأحلام مزعجة لا تطاق، و«فتور» يتهددك، يشبه «جرحا دملا[1434]». أما قلة النوم وآثاره فتهيمن على القصة: «صارت عيناي ثقيلتان مثل الحجارة، وعضلات جفناي تسحبهما نحو الأسفل بقوة بالكاد يمكن مقاومتها[1435]». والتعبير من ثم وبدقة، عما لم يتم ذكره إلى ذلك الحين. «إن الجهد الذي تبذله للبقاء مستيقظًا، يجعلك وسنانا بشدة[1436]»؛ أو التبلد التدريجي للحساسية، بل حتى «أملاح الشمSels » التي تشمها (لإنعاش الجسم) لم تعد تُرى تقريبًا[1437]، أو «الآلام الصامتة» التي تجتاحك كلك[1438]، في حين ينهار البدن (هيكل البدن) بمجرد الوصول.

تلك هي من بين الكثير من الشهادات الأساسية، التي تربط أشكالا من التعب «غير المسبوقة» بحداثة التقنيات، وبتغير كبير في الأوضاع اليومية، وبالتشديد على الحساسيات أيضًا، في حين يمكن أن يعطي تعميق التحليل نفسه، وضرورته المتزايدة، وتدقيقه مع مرور الوقت، نبرة جديدة لما كان ربما موجودًا بالفعل من قبل، مع سعاة (البريد) الليليين مثلا، ومقاومة النوم من بين أمور أخرى ظلت حتى ذلك الحين لم تثر إلا بشكل سيء أو قليلا.

(1433).Henri Mignet, Le Sport de l'air, Paris, Taffin-Lefort, 1934, p. 21.

(1434).Charles Lindbergh, Trente-Trois Heures pour Paris, Paris, Presses de la Cité, 1953, p. 287.

(1435).Ibid., p. 212.

(1436) Ibid., p. 213.

(1437).Ibid., p. 389.

(1438).Ibid., p. 214.

بزيادة الاهتمام بفضاء (العمل)، خلال فترة ما بين الحربين العالميتين، وبزيادة الاهتمام بالوقت، وجهت أسباب التعب الجديدة والمتشابكة،الأبحاث نحو تعميق جديد لعلم النفس، وغدا التحدي هنا هو الشبكة العلائقية وأشكالها وعقباتها ودعائمها. قام إلتون مايو بأشهر استطلاعاته في ضواحي شيكاغو بين عامي 1927 و1932، في معامل هوثورن، المسؤولة عن توريد المعدات الهاتفية لشركة بيل[1439].

تم اختيار خمس مستخدمات، يعملن في تجميع مرحلات الهاتف، ليتم تتبع مردودية عملهن، بشكل أدق، ولأطول مدة. جُمعن في قاعة واحدة، غرفة الاختبار، وخُضِّعن لمتابعات دقيقة؛ (من قبيل) إمكانية التواصل مع بعضهن البعض، وتوصيتهن بألا يتنافسن فيما بينهن، وفترات راحة مختلفة، ووجبة خفيفة في منتصف الصباح، وتخفيض مدة العمل. يلعب الشعور لديهن بالرضى والاسترخاء دورًا؛ حيث تزداد مردوديتهن، وإن كان ذلك ببطء وعلى مدى عدة سنوات. والأهم من ذلك أن هذا المردود نفسه يهوي عندما تتأثر سلبا مشاعر الشابات تجاه بعضهن البعض، وتجاه المشرفة عليهن، وتجاه الفريق نفسه؛ أي جميع «الروابط السلبية»[1440]، يؤكد مايو. والأهم من ذلك أيضا، أن مردوديتهن تنخفض عندما تظهر مشاكل عائلية، أو ترتفع (أي المردودية) حينما تتوقف هذه الأخيرة (أي المشاكل العائلية)؛ حيث تظهر مشاكل الزواج، من بين أمور أخرى، في قلب ورشة العمل، بل تجعل العمل يضطرب أحيانا[1441]. وبالتالي فإن الجانب

(1439).Elton Mayo, The Social Problems of an Industrial Civilization, Boston, Harvard University, 1945.

(1440) .انظر الملخص الشامل لتجربة مصانع هاوثورن في
Thomas North Whitehead, The Industrial Worker : A Statistical Study of Human Relations in a Group of Manual Workers, Cambridge, Harvard University Press, 1938, t. I, p. 198, «negative correlations», ou, p. 215, « neighbor relations and distant relations.«

(1441).Ibid., p. 139, «marriage, attitude towards».

الحميمي بتسبب، «بشكل واقعي»، في أشكال من التعب: «العلاقات بين-شخصية في العمل، والأوضاع الشخصية خارج (مكان) العمل[1442]». هذا ولأول مرة، تتحدد بشكل واضح دينامية (جديدة) تنتقل مما هو نفسي إلى ما هو بدني.

وسع الباحثون استطلاعاتهم، وضاعفوا من المقابلات، وسجلوا «المشاكل» التي تذكرها هيئة العاملين: الأجور، والأوساخ، والتعب، والتغذية، والأثاث، وأدوات العمل والتوجيه (في العمل).. (أي أن)العمال يتحدثون. وبرزت حالات الاستياء، وأحاديث تتلوها آثار: فالشعور بالاعتراف الشخصي يزيد من الراحة والأداء، والتعبير الحر جدا يشجع على المردودية. ملاحظة أخرى: «تؤثر العلاقات بين الأطر ومجموع العاملين بشكل أكبر على نوعية موقف الأجير ومعنوياته ورضاه وكفاءته أكثر من أي سبب آخر معزول[1443]». ومنه الإصرار على الحاجة «إلى تحكم مرن ومتفهم»، مع مراعاة «الوضعية المعنوية والاجتماعية للعامل»؛ أي بجعل، بعبارة أخرى، «الوسط أكثر جاذبية[1444]» وملاحظة عامة في الأخير، وهي تراجع حدود التعب تحت تأثير العلاقات النفسية والشخصية، وهو ما ستؤكده بعد ذلك تجارب أخرى، تمت في الوقت نفسه في البلدان الأوروبية[1445].

(1442).Fritz Jules Roethlisberger et William J. Dickson, Management and the Worker . An Account of a Research Program Conducted by the Western Electric Company, Cambridge, Harvard University Press, 1939, p. 160.

(1443).M. L. L pman, « Improving Employee Relations », Personnel Journal, no 8, 1930, p. 325.

(1444). انظر

Georges Friedmann commentant l'expérience d'Elton Mayo, Problèmes humains du machinisme industriel, op. cit., p. 299.

(1445). انظر-

«salaire proportionnel» et la rétribution fondée directement sur les résultats de l'entreprise, Eugène Schueller, La Révolution de l'économie, Paris, Denoël, 1941. Cf., Gérard Bardet, « Une expérience de collaboration ouvrière à la direction d'une usine », cité par Jean Coutrot,

انضافت إلى معايير التعب التي كشف عنها علم وظائف الأعضاء، معايير أخرى كشف عنها الابتئاس أو الشعور بعدم الراحة النفسية: أي الذهني الذي، من دون شك، أدراك على نمط «اكلينيكي» (سريري) وفردي، وتم استيعابه من خلال ملاحظة محددة ودقيقة ومستفيضة، على شكل بحث ومقابلة، خارج الإحالة الأدبية فقط أو الإحالة العاطفية اللتين سبقت الإحالة إليهما. الشيء الذي يحدد الأعراض التي تتجه صوب تفسيرها: أشكال عدم الرضا، و«أحلام متشائمة»، و«استبدال العمال»، وتصرفات «غير تعاونية»، والشعور بعدم الاعتراف (بعدم تقدير عمل العمال)، وتثبيط العزائم والملل والرتابة والاكتئاب، أي هذا الجزء الغامض و«السلبي» لـ «المناخ النفسي»(1446).

من المهم أيضًا ألا نهمل حدود هذا الاهتمام بـ «الانفعالات»، وكذلك الاهتمام بالعلاقات بين-شخصية في الشركة، علاوة على أن إهمالها كان يمكن أن يكون متعمدًا باسم الفعالية. ذلك أنه يمكن لكثير من المشاكل أن تظل، على الرغم من أشكال تدخل العلاقات (بين العمال) مثلما أكد مايو، بل إن عددًا من الصعوبات تلك التي اعترفت بها شهادات في ذلك الوقت. «ينقص شيء ما في التجارب الذكية لأرباب العمل الشباب. الانخراط الكامل للعمال الذين يريدون ضمهم إلى جهودهم(1447)». ينقص أيضًا وفقًا للحكم الدقيق لجورج فريدمان في سنوات الستينيات من القرن العشرين(1448)، مراعاة ما يتجاوز الشركة بشكل بارز، أي (ما يكون الـ) «خارج» الواسع، وأقصد ما يتعلق بالعالم والوسط: أي

L'Humanisme économique, Paris, Éditions du Centre polytechnicien d'études économiques, 1936, p. 38.

(1446). انظر:

Thomas North Whitehead, The Industrial Worker, op. cit., t. I, « The establishment of routines and sentiments », p. 108.

(1447) Michel-P. Hamelet, Le Figaro, 23-26 avril 1946.

(1448). انظر

Georges Friedmann commentant l'expérience d'Elton Mayo, Problèmes humains du machinisme industriel, op. cit., p. 305.

العالم الاقتصادي، والحالة الاجتماعية، والشعور بالنقص الذي يرافقها، والاستياء الناجم عنها. تلك هي عديد العقبات المرتبطة بوضع راسخ يصعب التخلص منه وبهم تبعية العمال، والذي انتشر الوعي به، وعمق وازداد إبان القرن العشرين. فلا يمكن عكس الأدوار في الشركة *قبليا*، مثلما لا يمكن محو عدم التماثل بين «صناع القرار» و«العمال»، تمامًا مثلما لا يمكن «للعنف» أن يختفي، فجأة، من وسط مثل هذا، عنف يستحق أن يثار مثلما كانت عملية الاستحضار الأولى والواضحة لـ (المجال) النفسي.

«اكتئاب» عمالي؟

وهكذا صارت دراسة عالم العمل أكثر من أي وقت مضى خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. وكان ذلك في واقعه المباشر، المادي، بل وحتى التافه فيه. وهو ما ضاعف من الشهادات والملاحظات، وهو ما أظهر قبل كل شيء تغييرًا محتوما في الحساسية: إرهاق ومنصبة أكثر من تمرد، ضرر معنوي أكثر من ضرر بدني.

(لذا لابد من) تقويم منهجي أولاً «تقاس روح عصرنا بواسطة القوة الميكانيكية[1449]». وهو الإقرار الذي يريد أن يكون هنا وصفيًا ومرئيا بالقدر نفسه. وتعد الصور الحديدة، تلك التي علق عليها العديد من المؤلفين في ذلك الوقت، والتي جمعها فرانسوا كولار[1450] في ما بين 1931 و1934 بعد أن طاف فرنسا، مثالا لا نظير له، (أضف إلى ذلك) الاستقصاء الشاسع، والذي يشبه على ما يبدو بحث فيليرمي قربا قبل ذلك، رغم أنه ركز أكثر على الصورة والإرادة العنيدة في تعقب التغييرات. كان بإمكان العمل أن يتغير، وأن تتراجع القوة: (بفضل) سيارات المناجم التي تجرها روافع كهربائية في المناجم، ومكابس

(1449).« Les métiers du fer », La France travaille. Paris, Éditions des Horizons de France. « Le visage de la France », 1932, t. I, p. 130.

(1450) . انظر الصور التي تشتمل عليها مجلدا كتاب فرنسا تعمل الصادر عن منشورات أوريزون دو فرانس بين 1932 و1934، وهو البحث الوحيد التصويري في فرنسا في فترة ما بين الحربين.

هيدروليكية من عدة أطنان، تقوم بلي المعدن، و«كسارة الخرسانة» بهواء مضغوط، والذي احتل العمل بالفأس، ومطارق بخارية تدق الأوتاد بدون تدخل لليد... و(من تم) اتجه توظيف البدن بشكل مباشر (في العمل) نحو الاختفاء: فقد «عملت المكننة على إزالة الحركات البشرية وقلصت من التعب البدني[1451]». ذلك أنها اكتسحته مواجهة، في كتاب **فرنسا تعمل**؛ أي تلك التي حدثت بين «قبل [...] والآن»، «سابقًا [...] واليوم»، بأن فرضت اللازمة التالية: «أيديهم [...] تُسقِط الأداة[1452]».

من الواضح أن وضعا مماثلا لا يمكنه محو الوضعيات التي يبقى فيها التعب البدني مهيمناً، وهي الوضعيات نفسها التي نقلتها صور **فرانسوا كولار**: هذه الموانئ حيث يحمل عمال نقل وتفريغ الشحنات مرتدين قبعاتهم، وأكياس السكر[1453]؛ وهذه السفن عبر-أطلسية حيث «ينزل تعب العمال من القريبات باتجاه القاع»، بإجبار «الفحمين» على وضع الفحم في «عالم من بيلات وصفائح معدنية لامعة[1454]»؛ وهذه المناجم حيث «يُسرع» كل بئر العمل، والذي تنافسه «سعر تكلفة أحواض أخرى[1455]»؛ وسفن الصيد حيث تتضاعف أعمال لا نهاية لها وذلك بفرض «فرقة مهنية[1456]». وتثبت رسوم دورية **فلوريال، الأسبوعية المصورة لعالم الشغل**[1457]، بين سنوات 1920 و1923، ذلك بتفصيل الصور «الملحقة للنص» عن «عمال التهيئة الترابية»، و«الحجارين»، و«المسقفين» و«الخشابين» أو «نجاري البناء»؛ حيث يجفف بعضهم جبهته (من العرق)

(1451).La France travaille, op. cit.

(1452) .Ibid.

(1453) .Ibid., p. 192.

(1454).Ibid., p. 199.

(1455).Ibid., p. 31.

(1456).Ibid., p. 140.

(1457).Floréal, l'hebdomadaire illustré du monde du travail, 1920-1923.

علانية[1458]، وكلهم يعملون إما بفؤوس أو بمجارف أو بمناشير، على الرغم من هيمنة المحركات والكهرباء (آنذاك).

تكشف أمثلة أخرى كيف يمكن للتطوير التقني أن يولد أشكالا جديدة من التعب، حتى لو لم تثر إلا قليلا إبان ظهورها: (مثل) المطرقة-الثقابة التي خلفت الفأس، لكنها تسببت ارتجاجات نادرا ما كان يذكر؛ وقناع الصباغ الذي يحمي من الروائح (المنبعثة من الصباغة)، لكنه يمنع (سلاسة) التنفس، وهو شيء نادرا ما يُذكر أيضا؛ والأحزمة التي تعلق عمال البناء في الفراغ، إلا أنها تسبب وعكات صحية محتملة، والتي نادرا ما تُستحضر؛ و«الدق باستعمال اليد» في الأخير لصقل أجزاء معينة في مصنع الحديد، على الرغم من استخدام المطرقة-المدقة. أو ببساطة، وبسبب المزيد من أنماط المراقبة والتسريع الميكانيكي سيبدأ علم النفس، الذي لا يزال في طور التشكل، في عملية ملاحظتها (أي المراقبة والتسريع الميكانيكي) :

يخفف استخدام الآلات-الأدوات شبه الأوتوماتيكية أو الأوتوماتيكية من مهمة العضلات؛ لكن هذه الآلات، بسبب سرعة طاقتها الإنتاجية، وبسبب التركيز المستمر الذي تطلبه، تسبب تعبا عصبيًا كبيرا[1459].

الأهم من ذلك والأكثر دلالة أيضًا، هو المكانة المتنامية الذي منحها الفاعلون أنفسهم، «التحكم» العمل في السلوك؛ وهو استلاب جواني هيمن على الوعي. يبدو أن التعمق في الحاجة النفسية عمق الشعور بعدم امتلاك الذات، وغياب الأفق، وفقدان الذات. وهي درجة من المعاناة في العمل لم يسبق أن كانت، ربما أكثر خصوصية من الوهن العصبي، وأكثر عمقا أيضًا من التأثير الوحيد للعلائقية ومناخها الشعوري. وفي هذا، بلا شك، أوضح تغيير خلال هذه السنوات من فترة ما بين الحربين؛ (حيث) تأكدت فعلا صحوة شخصية تقريبا وآثارها على

(1458).Ibid., 20 février 1921, « Le monde du travail : les terrassiers ».

(1459).Frédéric Bordas, La Prophylaxie de la fatigue et ses avantages sociaux, Paris, Institut général de psychologie, 1927, p. 5.

شكل بتر محسوس وواضح. مثل كلمات **كونستانث مالفا**، وهو عامل منجمي في بوريناج خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، «مكتئب ومتعب جسديًا ومعنويًا» : «أنا معطل الإحساس (بسبب قلة) النوم، وحلقي جاف، ولا رغبة لي في أي شيء[1460]»؛ أو كلمات **موريس ألين**، العامل في شركة رونو: «أن ترى أنك ستقوم بكل هذا طوال حياتنا يعتبر محبطًا [1461]»؛ أو تركيز **ألبرث سوليلو** على كلمات عامل في شركة فورد في عام 1933: «كما لو أن دماغه قد تأثر سلبا هو أيضا بهذا الإنهاك[1462]». وهي حالة حددها العامل نفسه، وقد اختلط عليه الأمر في التمييز بين العضلة والعاطفة، بين تعبئة (القوة) البدنية والتعب المعنوي. ربطت **سيمون فايل** عن حق بين ملاحظة «الحركات التي تؤلم» و«الشعور العميق بالإحباط[1463]». (كما) أشار **جورج نافل** إلى ذلك اليائس الذي يصل إلى أقصاه: «إنني أجر معي [كآبتي] لمدة طويلة. حينما أستسلم أكون منهكا، وأرغب في الموت[1464]».

يجعل ذلك، وبشكل أفضل، قياس المسافة التي قطعها (المجال) النفسي في غضون بضعة عقود ممكنا. يفترض الضرر، في القرن التاسع عشر، تكاثر الأضرار البدنية، قبل أن يتحول إلى مرحلة من الانهيار (النفسي) أو الابتئاس: (مثل) إفراط في الجهد بين عمال المناجم الذين ذكرهم **زولا**، واصفا «عملية دفع المقطورات في المنجم»، والإفراط في إنفاق (المجهود) العصبي عند المصابين بالوهن العصبي، الذين ذكرهم **جورج بيرد** واصفا «التأثر العصبي الأمريكي». فقد تسلل

(1460).Constant Malva, Ma nuit au jour le jour (1937), Paris, Maspero, 1978, p. 41. Nombre d'exemples qui suivent sont tirés du livre majeur de Thierry Pillon, Le Corps à l'ouvrage, Paris, Stock, 2012.

(1461).Maurice Alline, Quand j'étais ouvrier, 1930-1948, Rennes, Éd. Ouest-France, 2003, p 118.

(1462).Albert Soulillou, Les Temps promis : Élie ou Le Ford-France 580, Paris, Gallimard, 1933, p. 41.

(1463).Simone Weil, La Condition ouvrière, Paris, Gallimard, 1951, p. 121.

(1464).Georges Navel, Travaux (1945), Paris, Gallimard, « Folio », 1979, p. 69.

الاضطراب البدني إلى الوعي، واستنبت فيه تعبا شاملا. إن الإرهاق أو الابتئاس المذكورين في ثلاثينيات القرن العشرين، إنها يتعلقان بالمعنى ويستهدفان القيمة ويتغذيان من إحساس: فقد تسلل الإحساس بالتدهور أو الاقصاء الذي يمكن لبعض الأعمال أن تؤدي إليه، أيضا إلى الوعي، واستنبتا فيه أيضًا تعبا شاملا، بل حتى قبل أية مقارنة بالجهد، لقد نشرا الألم قبل أي ألم بدني. ومنه أتت الأهمية المتزايدة للنفسي، التي جاءت بعد عمل طويل من الشخصنة في المجتمع الغربي.

إن كلمات مثل «الاكتئاب» أو «الكآبة» هي استمرارية لكلمات بعض المقاتلين في سنة 1914، التي حددت بوضوح (طبيعة) الإحساس بالضياع. لا وجود لأي معنى علمي في هذه التعابير، بل الميل لإثارة إنهاك خاص: أي حالة حيث لم يعد التعب مرتبطًا بنقص ما في التحفيز أو التنشيط أو الإثارة، مثلما اقترحت مؤشرات سابقة، ولكن الحالة حيث يهيمن غياب الهدف، وإلغاء المنظور. ومنه اتسع الأفق النفسي، ومن ثم فإن بعض استهلاكات الطاقة تعتبر غير مقبولة، بل حتى بمثابة حقارة: «ماذا فعلت للرب لأستحق هذه العقاب؟[1465]». إنه موقف عمالي غير مسبوق، بل قل أكثر حدة من أي وقت مضى؛ حيث صار التعب يرتبط بانتظار جواني مُلّح، منفلت ولا يمكن تحقيقيه: الشعور بغياب مستقبل، وتكرار قسري، وانعدام للتغيير. إنها المرة الأولى، بلا شك، التي أكد فيها الوعي العمالي، بهذه القوة، على عجز في تجسيد ذاته وفي تحديد غائية. إنها المرة الأولى أيضا التي تكون فيها، في إطار كهذا، الأسبقية بأناة للنفسي على البدني.

هناك فرادة أخرى في نهاية ثلاثينيات القرن العشرين، إنه الإصرار على الخصائص الثقافية للعمل النسوي. فقد تم فحص «تعب ماري تافيرنييه» في رواية كلود بيجي سنة 1938[1466]: الانفعال العصبي (الذي يثيره) «المكتب»، والرد على المكالمات، ولا مبالاة الرفيقات، وتراكم الأشغال المنزلية، وتقلص يوم الأحد

(1465).Maurice Alline, Quand j'étais ouvrier, op. cit., p. 73.

(1466).Claude Pigi, La Fatigue de Marie Tavernier, Paris, Les Livres nouveaux, 1938.

بسبب «الأعمال الصباحية لربة البيت»، و«النزهة العائلية»، في حين يزداد «وزن القدمين»، و«فقدان الاهتمام» بالذات الذي تشعر به ماري اتجاه نفسها[1467]؛ و«عدد لا يحصى» من المهام التي ذكرت بعناية: إنها «زوجة متعبة»، و«أم مرهقة»، ولم يعد لماري سوى رغبة واحدة فقط: «راحة طويلة بعيدة عن الجميع[1468]». لكن كل شيء سيتغير، رغم ذلك، عندما تبدأ العلاقة مع زميل شاب، تواصل سرعان ما سيصبح حميميًا، كعلامة على تحرر غير محسوس في القيم، بالقدر نفسه فيما يتعلق بالمكانة التي صارت متنامية (للمجال) النفسي: «يلزم الكثير من الفرح لنسيان الكثير من التعب[1469]».

لا يزال تمييز الحداثة أمرا واجبا؛ فبقدر ما تكشف رواية كلود بيجي عن وعي أكثر حدة بالمهام الأنثوية، كتسامح أكبر تجاه ما كان من الناحية الإيروتيكية جهنميا، بقدر ما يهدف الحديث بشكل أقل إلى تغيير وضع المرأة من خلال العمل عبر إصلاحه أو تخفيف وطأته، وإلى تغيير من خلال الاعتراف العاطفي والوصول إلى العلائقي والحب. لقد غير التقليد (الموروث) مكانه دونما تغيير حقيقي، وتبقى المرأة مجرد انفعال أكثر مما هي فعل. وهو ما أكدته ماري كلير في عام 1937، معلنة نهاية أشكال الإنهاك وآلام العاملة التي تعيش الوحدة، وقد استرجعت حب الشباب:

هكذا وذات يوم رأت مستخدما جديدا في المنزل حيث كانت تعمل، وعلى الرغم من السنوات، والتعب والفشل الذي كان يظهر على وجهه، (استطاعت أن) تتعرف عليه. لقد كان جارها القديم، وحبيبها المجهول الذي كانت تبكيه[1470].

(1467) Ibid., p. 11..

(1468) Ibid.

(1469) Ibid., p. 117..

(1470) Marie Claire, 12 mars 1937..

إن ذلك علم نفس، بلا شك، ولكنه لا يزال «موجهًا» بالنسبة إلى النساء نحو ما هو عاطفي أكثر مما كان موجها نحو ما هو «عملي».

الفصل السادس والعشرون

من الهرمونات إلى الضغط النفسي

إن التحليل الأكثر نوعية بصدمات ما بعد الحرب العالمية الأولى، مثله مثل علم النفس، علم أكثر مفاهيمية، والذي بدأ يثبت وجوده بشكل متنام، وجها (أي تحليل الصدمات وعلم النفس الناشئ) نحو طرح أسئلة تهم الشخصية، عبر تعقيد الابتئاسات والآليات (النفسية) الجوانية؛ ومن تم عقد بالقدر نفسه العواقب المحتملة للتعب. وشكل تحديد أمراض جديدة أمرًا حاسمًا أيضًا، كشفت عنها الثورة البيوكيميائية في عشرينيات القرن العشرين، مما أثرى لأول مرة (اكتشاف) نطاق الاضطرابات السلوكية؛ أي نطاق أشكال العياء القوية والصامتة، وبالأخص النطاق «العضوي» لأشكال من «البطء» البدني أو الذهني؛ غالبًا ما تكون الاضطرابات المنفصلة، تظهر شبه-طبيعية. وأعاد كشف الغدد الصماء، لوحده، صياغة التأويلات، وعرض انتظامات (هرمونية) كانت مجهولة، وعزز رؤية موحدة أكثر للبدن، وذلك بالاهتمام بـ«المزاج»، وأنماط ردات الفعل المشخصنة، الشيء الذي أدى في النهاية، إلى اختراع «الضغط النفسي»، وإلى حضوره العام، وآثاره الأكثر شمولية. ومن ثم ظهرت أنماط شاسعة من الهشاشة، بعيدًا عن جهود العضلات وحدها، وبعيدًا عن المجهودات العضلية والإرهاقات وأشكال التعب الذهني وحده، الشيء الذي كشف عن أنماط من الوجود والتوترات والحالات وطرائق العيش اليومي وأشكال قساوتها، مما عرض بالأساس، ولأول مرة طرقا «موحدة» في رد الفعل؛ حيث ستأخذ كلمة «بدن» معنى شاملا.

ليست هذه الإحالة الجديدة إلى الهرمونات، التي يبدو أنها تثبت هيمنة للفيزيولوجي، بل وقل فيها تركيز حصري على الميكانيكي، شيئًا آخر هنا، وهو ما

يجب ربما قوله مجددا، سوى طريقة للدفع بالتحدي النفسي ومصادره وتنوعه وآثاره بعيدا. لقد أثبت الفرد مع «الضغط (النفسي)»، نفسه في إطار وحدة سيكو-فيزيولوجية، وذلك بتحويل مشاعره إلى آثار بدنية وهذه الأخيرة إلى آثار شعورية، وفقًا لعملية تبادل لم يسبق أن تم استكشافها أبدًا.

حدث أساسي آخر، هو أن الهرمونات واستخدامها المتطور ولّد أملا في إمكانية الانفلات جزئيًا من التعب، وهي لحظة تمزج بين النجاح والمأساة، ومغامرة مدوية وجهنمية ومضطربة لا يمكن تجاهلها.

الهرمون والمزاج

حينما حاول الجراحون المبتكرون إزالة تضخم الغدة الدرقية في بداية القرن العشرين، فإنهم سمحوا، رغما عنهم، بإعادة تفسير ممكن لأشكال التعب العادي. فهناك أولا اضطرابات أساسية: «ضعف عضلي، وخزل، واكتئاب في جميع وظائف الأعصاب النفسية[1471]». لقد محا عملهم الغدة الدرقية التي كشف إفرازها الهرموني عن تأثيرها على الاستقلاب والتوازن الطاقي: تعب كثير وحط، وبذلك إبطاء الحركات والتفكير. وهذه حالة من أدناها إلى أقصاها مرضية دون أي شك، وتتعلق بالطب باعتباره أكثر العلاجات الشاقة. تلك هي «حالة المصابين بخزب»، بجسم لين ووجه مترهل وذهنية «متأخرة». لكن هناك أحيانا اضطرابات خفيفة، تنفلت من علم الأمراض: فقد عرض عمل هؤلاء الجراحين بديلا لاضطرابات بسيطة، وأعراض خفيفة. وحتى إن لم يكن اختلال التوازن في الإفرازات هائلاً، إلا أنه يؤثر على السلوك: «باثولوجيا صغيرة الصغير، والتي،

(1471) Mathias Duval et Eugène Gley, Traité élémentaire de physiologie, Paris, Baillière, 1906, p. 617.

بدرجات غير محسوسة، تنحدر إلى أمزجة الغدد الصماء حيث تنحل معظم الأمزجة التقليدية[1472]».

ارتسمت بعد ذلك صورة، في هذه السنوات 1920-1930، افترض فيها أنها تحدد الأشخاص وفقًا لبروفايلهم «الغددي»، وذلك بتوزيع «السمات»، و«الملامح» في تلك التي يكون التعب فيها ملحوظا بشكل عام، و«حيث يمكن أن يعاني المرء دون أن يكون مصابا بمرض ما[1473]». وتلك طريقة لوضع أنواع العياء في الشخصية. وهكذا ساق ليوبولد ليفي، الطبيب الذي وصف نفسه بأنه «طبيب الغدد الصماء[1474]»، الأمثلة التالية، في نص سنة 1929: «طفل، رخو، لا يثير اهتمامه أي شيء»... ولكن، بعد خمسة أسابيع من العلاج الكظري، تزود بـ «حاجة للنشاط؛ حيث بدأ يلعب بشويكته على المائدة[1475]»؛ وصار قادرا «تحت الضغط»، في المقابل، حيث يعود سبب نشاطه الفوار لشدة الغدة الكظرية، على (أن يعبر عن) حماس دؤوب؛ «فصار هو أول المستيقظين وآخر من يخلد للنوم»، فأنهك «محيطه الذي لا طاقة له عليه[1476]»؛ (وصار) «ذو عزيمة»، ويحيا على نمط «متسارع»، و«مبادر وغير صبور[1477]»، مدفوعًا بنشاط الغدة الدرقية. تمتد هذه الترسانة إلى «المهيمنين»، و«المستبدين»، و«المتربصين»، و«الوسنانين» و«المترددين»، و«مرضى الصداع النصفي»، و«المكتئبين»، «ومرضى الالتهابات الجلدي»، و«مرضى الآلام (البدنية)[1478]»؛ وبروفايلات متنوعة ومتباينة، تتوقف حقيقتها على الارتباط بين الغدد الصماء ومقاومة التعب، أكثر مما تتوقف على بعض التجارب المؤكدة. لا شيء في الأخير، إلا «انحرافات صامتة للمزاج

(1472).Léopold Lévi, Le Tempérament et ses troubles : les glandes endocrines, Paris, J. Oliven, 1929, p. XVI.

(1473) .Ibid., p. 10.

(1474).Ibid., p. XV.

(1475).Ibid., p. 110.

(1476).Ibid., p. 91.

(1477).Ibid., p. 74.

(1478).Ibid., p. 73-118.

الطبيعي، الذي يخضع هو نفسه لعمل الغدد الصماء[1479]». وهكذا ترغب الإحالة إلى العنصر الكيميائي (في هذه الدراسات)، كعنصر سري ومنفلت، في تجديد خطابها حول الشخص قويا كان أو متعبا.

هرمون وحيوية

هناك هرمون فرض نفسه، إنه هرمون التستوستيرون، وذلك بسرعة كبيرة كواحد من الأصول المحتملة «لطاقتنا الحيوية[1480]». بل وفرضت محاولة «زيادة» معدله في الأبدان الضعيفة نفسها أيضا بسرعة. وولدت فجأة حكاية خاصة جدا، هائجة، منفعلة؛ حيث اضطربت وعود المقاومة على ما يبدو، وحيث ربما بالإمكان مواجهة أساس التعب نفسه بشكل مختلف؛ وتلك خطوة أساسية في تصور «التخفيف» (من التعب)، وهي خطوة مهيمنة ومؤثرة في الآن نفسه، قبل أن تنكشف على أنها مضللة ومخفقة. قام **تشارلز إدوارد براون سيكار**، خليفة **كلود برنارد** في الكوليج دو فرانس، أمام مفاجأة زملائه، في عام 1889، بحقن نفسه بحقنة تحت الجلد بمستخلصات من خصيتي كلب وخنزير غينيا الأليف. وقام بوصف الآثار، مدعيا أنه لاحظ، وهو في سن الثانية والسبعين، قواه المتحولة[1481]. إنها قناعة قوية بلا شك، ولكنها مجرد وهم بالتأكيد: فلا يمكن أن يبقى الهرمون الجنسي موجودًا في مستخلصات مائية.

ادعى، من جهة أخرى، **سيرج فورونوف**، وهو جراح ألف تطعيم العظام خلال حرب 1914-1918 أنه حقق نجاحا مضمونا جدا: تطعيم خصيتين على البشر انطلاقا من أعضاء حيوانية. تم تنفيذ العملية الأولى في 21 يونيو 1920، في جهل تام بظواهر رفض الجسم (لأعضاء خارجية عنه)، ولا زالت بعد الحدود

(1479).Ibid., p. X.

(1480).Serge Voronoff, Les Sources de la vie, Paris, Fasquelle, 1933, p. 1.

(1481).Charles-Édouard Brown-Séquard, « On a New Therapeutic Method Consisting in the Use of Organic Liquids Extracted From Glands and Other Organs », British Medical Journal, juin 1893, p. 1145-1147.

بين الأنواع الحية غير معروفة. يشرح فورونوف بدقة منهجه، وحالة الحيوانات التي اختارها، ولماذا تم تفضيل القردة لقربها من البشر، وصحة الأشخاص الذي تلقوا زراعة العضو، وعملية شق الأعضاء، وتجديد أشكال مقاومة (البدن) والسلوك. وتم زرع أجزاء رقيقة من خصيتي الشمبانزي أو قُردوح (البابون) في كيس الصفن للشخص المستقبل. وكيف امتزج اللحم بغيره، وهذه ديناميكية جديدة قد انطلقت. وقيل عن الأثر يكاد يكون «معجزة»: «الأثر الثابت للتطعيم على القوة العضلية ونشاط الدماغ [...]، وزيادة في القوى البدنية، والتحسين الموازي في الملكات الفكرية»[1482]. وتم حساب الحالات والتعليق عليها وتوضيحها بعدد من الصور التي تم التقاطها «قبل» و«بعد». مثل M. E. L.، رجل يبلغ من العمر أربعة وسبعين عامًا، «رجل عجوز وبدين وممتلئ، بملامح مترهلة، وبنظرة ذابلة»، تحول فجأة و«فقد نصف وزنه الزائد»، استعاد هيبته وحيويته: «أنا واقف طوال اليوم وبدون تعب [...] أصعد دون تعب السلالم»؛ أو هذا المهندس المعماري البالغ من العمر ستين عامًا، الذي يسير «بمشية ثقيلة»، (وكان يعاني من) «نقص في الطاقة»، الذي استعاد حماسه، (ويستطيع الآن) «السير بخطوات طويلة» كانت مستحيلة في السابق[1483]؛ أو هذا الموظف «المهمل» الذي قال إنه يعاني من «تعب أقل» ومن «تشنج» زائد[1484]. كما تم إجراء عمليات زرع المبيض في 1923-1924 على النساء «المنهكات»، اللواتي وصفن بأنهن كأنهن وجدن «مرحهن ودافعهن الحيوي»، بما في ذلك السيدة C. K. التي خضعت للزراعة في يونيو 1924[1485].

(1482).Serge Voronoff, Quarante-Trois Greffes du singe à l'homme, Paris, Octave Doin, 1924, p. 48 et 51.

(1483).Ibid., p. 117.

(1484).Ibid., p. 98.

(1485).René Prédal, L'Étrange Destin du docteur Voronoff : en quête d'une jeunesse éternelle ?, Paris, L'Harmattan, 2017, p. 135.

من الواضح أن الآلية لا يمكن أن تكون عملية، وفرض الرفض نفسه على الرغم من يقين الممارس. ومن ثم فإن الجزء المهم في الاعتقاد في شهادات «الأفراد الذين خضعوا للعمليات الجراحية»، والدليل غير المباشر على الآثار النفسية على التعب المعترف به كآلية ثمينة، سيزداد الاهتمام بها. وهو ما لم يمنع، لمدة طويلة، من نجاح الجراح الذي شيد «مزرعة قردة» على المرتفعات المشمسة في ميتون. وقد حصل على وسام جوقة الشرف، واستفاد من التعليقات المادحة على صفحات الصحافة الوطنية. فقد «لاحظت» جريدة **ليليستراسيون** في 22 نوفمبر 1924 ثبات «زيادة القوى الفيزيائية، يوازيه تحسن في الملكات الفكرية بعد عملية الزرع»[1486]. وصار يطلبه «زبناء» مرموقون، **ويلي** (زوج **كوليت**)، **ومارسيل أكارد**، **وجان رينشبين**، **ويليام بتلر ييتس**[1487]، وقد اعترف به من لدن زملائه: سبعمائة جراح صفقوا لأدائه في المؤتمر الدولي للجراحة في عام 1923[1488].

لكن لا يمكن لهذا الاعتقاد أن يطول في وجه «وهم» التجديد. فقد أدان العديد من الجراحين المنهج، ولاحظوا عدم جدواه، وأكدوا بطلان الآثار المرجوة. فقد شبهت **كينيث ووكر**، من المستشفى الشمالي الملكي، العمليات الجراحية الفرنسية بعمليات «الساحرات أو سحرة السيرك[1489]»، فانتشر هذا النقد عند العموم. ستسخر مجلة **تايم** من المنهجية[1490]. كما سخر **بليز سندرار**، في قصته القصيرة عام 1935 المعنونة بـ**الأميرال**، (متحدثا عن) «عجوز شكس» «تم حقنه بحقن فورونوف لكي يتمكن من مضاجعة فليسيا على الأقل مرة واحدة»، أما زوجته الجديدة فلا «ترضي» متعتها أبدا[1491]. ستتوقف عمليات الزرع في الثلاثينيات.

(1486).L'Illustration, 22 novembre 1924.

(1487) .Jean Real, Voronoff, Paris, Stock, 2001, p. 205.

(1488).https://en.wikipedia.org/wiki/Serge_Voronoff.

(1489).« Medical Monkey Business », The Cincinnati-Kentucky Post, 5 novembre 1998, p. 22.

(1490).René Prédal, L'Étrange Destin du docteur Voronoff, op. cit., p. 148.

(1491).Blaise Cendrars, L'Amiral (1935), Paris, Gallimard, « Folio », 2014, p. 75.

لكن صدى المشروع منح، بالمناسبة، قوة أكبر لرؤية إعادة تشبيب (الجسم) أكثر من التركيز على أشكال مقاومة التعب. وتوفي سيرج فورونوف في 3 سبتمبر 1951 في سرية شبه تامة.

لقد كان بالإمكان أن يساهم اكتشاف الهرمونات في عشرينيات القرن العشرين في التمييز بين الأمزجة، والتمييز بين نقاط الضعف، والمساعدة في التغلب عليها؛ واستطاعت أن تمنح الأمل في استعادة القوى، لكن التلاعب الخطير بها خان، في بعض الأحيان، هذا الأمل. بقيت، مع ذلك، الإحالة إلى المبادئ الكيميائية لقوة غير مسبوقة، بل وأكثر من ذلك، بقيت طريقة لإنشاء بيوسيكولوجيا لم تكن معروفة آنذاك. بقي، بالأخص، تمثل جديد للجسد، ضَخَّمَ بشكل غير مسبوق، من اندفاع المراكز العصبية، مجددا خيال المقاومات والصلابات. ستستمر الحكاية إذن بتغيير المنتوجات.

من الهرمونات إلى الأمفيتامينات

انفتح باب (جديد) عبر البحث عن تأثير هرموني معين في سنوات العشرينيات من القرن العشرين، على مواد عضوية أخرى، وعلى جزيئات أخرى، ومواد كيميائية أخرى، وفي النهاية، على أحلام أخرى لقهر التعب. ذلك سراب بالتأكيد، و(مجرد) وهم إلى حد كبير، الذي أيقظ آمالا قديمة، ولكن الأهم من ذلك أنه حشد الجماهير وكان له آثار جد مقلقة وملموسة جدا.

كل ذلك جاء من شيء مستحيل: وهو تناول الأدرينالين عن طرق الفم؛ الهرمون المستخرج من الغدة الكظرية، والذي من المفترض أن يساعد في تخفيف صعوبات الجهاز التنفسي. تبع ذلك عدد من الأبحاث التي أجريت على النباتات والمكونات النشطة والتوليفات المختلفة، وتم في سنة 1927 اكتشاف بنية جزيئية لم تتحلل بواسطة الهضم، وهي تماثل الأدرينالين من خلال آثارها؛ وتمت تسمية

هذه المادة بـ«الأمفيتامين»، التي عثر عليها فريق لوس أنجلوس، الذي دشن هذا التنقيب الحاسم[1492].

بل والأهم من ذلك هو أن الجزيء تحول بسرعة إلى «محفز». ويؤثر، ليس فقط على التنفس، بل على المراكز العصبية، ويلغي الشعور بالتعب، ويبعد النوم، ويوقف القلق. وكشفت الاختبارات حتى عن إمكانية البقاء لمدة ثمانية وأربعين ساعة دون نوم، وإطالة المهام دون فقدان التركيز، والحفاظ على الثقة والنشوة. ومن ثم ازداد الاهتمام بهذا الجسيم عشرة أضعاف؛ حيث أغرى كل أولئك الذين يهمهم التعب، بل إنه أوحى بأمل جديد: تعديل أشكال المقاومة اللصيقة بالإنسان الحديث، وذلك عبر المؤثر العقلي.

حصلت شركة أمريكية على براءة الاختراع، وسوقت المنتوج وعرضته للبيع دون وصفة طبية، وذلك في ثلاثينيات القرن العشرين، تحت اسم «بينزيدرين»، فدشنت بذلك تاريخًا متجددًا كلية. وانتشر استخدامه، ولجأ إليه الرياضيون، ودرسه الجيش، وسخر منه المثقفون، واستخدمه الأطباء النفسيون على مرضى الخمول[1493]. وتقاطعت الشهادات: فقد قال الشاعر **ويستان هيو أوذين** إنه كان يبدأ أيامه لفترة طويلة بأخذ الجزيء[1494]. ويقول **نوربرت وينر**، مخترع السبرنتيقا، إنه كان يلجأ إليه بانتظام[1495]. وفي مجال الابتكار أيضا، أكدت المصانع الألمانية تيملر Temmler أنها تمكنت من تجويد الاكتشاف الأول، واخترعت «ميثامفيتامين»، وسمي البيرفيتين، الذي يفترض أن يحفز «النفس

(1492).G. Alles, G. Pines et H. Miller, Journal of American Medicine Association, 1930.
(1493).https://fr.wikipedia.org/wiki/Amph%C3%A9tamine.
(1494).https://www.atlantico.fr/pepite/333888/benzedrine-drogue-grandement-influence- amerique-vingtieme-siecle.
(1495).Norbert Wiener, I Am a Mathematician : The Later Life of a Prodigy, New York, Doubleday, 1956.

والقلب[1496]»؛ وهو الاختراع الذي انتشر على نطاق واسع بواسطة دعاية قوية. وستكون هذه البراشم مصدرًا منشطًا بنفس قدر «علاج شامل[1497]»، وأدوات جديدة للطاقة، تم توفيرها للمنازل الألمانية.

بقي «الواقع» وجانبه الأسود المحتمل؛ حيث يخفي الأمفيتامين التعب، لكنه لا يخلصنا منه؛ إنه «لا يحسن أبدا المردودية في الجهد، ولكن يحسن تصورنا لصعوبته[1498]». وتم إحصاء الأحداث (الناجمة عن تناوله)؛ ومنها أولئك الذين يعانون من قصور في القلب على وجه الخصوص: مثل متسلقي الجبال، في عام 1939، الذين قاموا بعملية الصعود مدعمين جهدهم بالبيرفيتين، فماتوا بعد وصولهم[1499]، أو هؤلاء الضباط الذين استولت عليهم حالات إغماء خطيرة[1500]، ومثل هؤلاء الطلاب من جامعة ميونيخ الذين اختُبِروا بجرعة زائدة، وأجبروا على العزلة، إلى أن أصبحوا «جثثا من بيرفين[1501]». ينضاف إلى ذلك اضطرابات في استخدام اللغة، وعيوب في التركيز، وآلام مختلفة، بل والإدمان أيضا. وهي المخاطر التي قاسها ليوناردو كونتي، رئيس الصحة العامة في الرايخ، والذي نبه إلى مخاطر «تدهور القوى البدنية والذهنية بشكل غير مرئي، إلى غاية الانهيار الحتمي[1502]». و«مخدر الشعب» «أعلن رسميًا أنه منتج مخدر» في

(1496) .Norman Ohler, L'Extase totale : le IIIe Reich, les Allemands et la drogue (2015), trad. Vincent Platini, Paris, La Découverte, 2018, p. 47.

(1497).Ibid., p. 46.

(1498).Jean-Pierre de Mondenard, Dictionnaire du dopage : substances, procédés, conduites, dangers, Paris, Masson, 2004, p. 750.

(1499).Ibid., p. 754.

(1500).Norman Ohler, L'Extase totale, op. cit., p. 110.

(1501).Ibid., p. 67.

(1502).Leonardo Conti, « An die ehrenamtlichlen Mitglieder der früheren RfR », 19 octobre 1939, BArch-Berlin R36/1360, cité par Norman Ohler, ibid., p. 79.

ألمانيا عام 1941[1503]. سيقول نوربرت وينر لاحقًا أيضًا «إنه أهمل آثار الدواء على بدن[ـه][1504]».

لكن وصل نجاح الجزيء ذروته أثناء معارك الأربعينيات: «إن الخصم [...] هو التعب. إنه عدو غريب ومراوغ، الذي يهلك الجنود بانتظام ويصرعهم ويجبرهم على الراحة[1505]»؛ حيث سيصير البرفيتين هو الحماية الجديدة. لقد بات ضمانة لـهاينريش بول، الذي سيفوز بجائزة نوبل فيما بعد، خلال الأسابيع الأولى من الحرب: «أنا فعلا متعب جدًا [...] ولكن يجب أن أتمكن من البقاء مستيقظًا، وسيعمل البيرفتين عمله قريبًا وسيساعدني في التغلب على التعب[1506]». وهو ما ستعد به مصانع تلمير، التي ستنتج ما يقرب من مليون قرص يوميا، فـ«غزت» الفيرماخت وليتفواف استجابة لـ «طلبات ضخمة»[1507]. وهو ما أكده هاينز جودريان، محرضا جنوده، أثناء عبور منطقة الأردين: «ألزمكم بألا تناموا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال إذا لزم الأمر[1508]». «وبالتالي دُعِّمَت حرب بارقة (خاطفة)»، وذلك لأول مرة بعقار معمم: «فقد بدأ تنفيذ الحرب البارقة بفضل الميثامفيتامين، إن لم نقل إنها تأسست على استخدام الميثامفيتامين[1509]».

كشفت مراحل أخرى من القتال عن استهلاك هائل (للعقار) بالقدر نفسه في صفوف الحلفاء: «ففي هجوم العلمين، في عام 1942، استفاد سائقا دبابات اللواء الرابع والعشرون من جرعات ضخمة من البنزدرين، الذي وزع عشية

(1503) .Norman Ohler, L'Extase totale, op. cit., p. 125.

(1504).Norbert Wiener, I Am a Mathematician, op. cit.

(1505).Norman Ohler, L'Extase totale, op. cit., p. 62.

(1506).Heinrich Böll, Lettres de guerre, 1939-1945 (2001), trad. Jeanne Guérout, Paris, L'Iconoclaste, 2018.

Norman Ohler, L'Extase totale, op. cit., p. 84..(1507)

(1508). نقلا عن:

Karl-Heinz Frieser, Le Mythe de la guerre-éclair (1995), trad. Nicole Thiers, Paris, Belin, 2003, p. 209.

(1509). نقلا عن:

dans La Pilule de Göring, film documentaire de Sönke el Bitar, Arte, 2010.

الهجوم»، فتحقق الاختراق، لكنهم خسروا 80٪ من قوتهم[1510]؛ أو معركة إنجلترا في 1940–1941، حيث وزعت وزارة التموين البريطانية على طياري الحلفاء 72 مليون قرص من البنزدرين، لتعزيز اليقظة، والتسديد ليلاً، والتفوق على القاذفات الثقيلة في ليتفاف؛ وبالتالي ظهرت تعبيرات جديدة للعقارات: «مساعد الطيار»، و«إيقاظ»، و«فتاحات العيون»[1511]؛ فتم بشكل كبير تجاوز الصورة القديمة للإمكانات الطاقية (الكامنة في الفرد) نحو الإمكانية الكيميائية. وظهر عالم جديد من المحفزات، استبدل جزئياً الإحالة إلى الآلة النارية الثقيلة، لإفساح المجال لمرجع آخر: أي نحو مواد أكثر دقة، أتت من صقل للبيولوجيا، يفترض أنها ستحدث ثورة في المراكز العصبية، هذا قبل أن تفشل.

من الهرمونات إلى «الضغط»

لقد أغنى اكتشاف الهرمونات، أي على جانب آخر من الكيمياء الحيوية، رؤيةَ التعب خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. بل وقاد إلى ثورة فكرية، محولا النظر وموجها صوب أشكال جديدة من الانتظارات، والمصادر، والأشياء، ملتقطا ما كشفه المجال النفسي سلفا لاقتراح رؤية أوسع، هذا إن لم تكن متجددة.

لاحظ **هانز سيلي**، وهو عالم الأحياء الذي سيكتشف في عشرينيات القرن العشرين عمل الغدد الصماء في جامعة مونتريال، كثافة خطيرة للإفرازات الهرمونية والاضطرابات الداخلية في حالة الصدمة، أو اعتداء أو وضعية «مؤلمة». وهي أحداث يجب قياس تنوعها أولاً: إصابات الجسدية، وآلام، وأحاسيس جوانية، واضطرابات متنوعة، وأضرار مختلفة. فقد تشكلت فورة مُحِطَّة معنويا، لأنها عنيفة وفوضوية، بل حتى «تعفن» محتمل بسبب زيادة الخلائط التفاعلية والهرمونية. ووصفت المقالة التأسيسية، المنشورة في مجلة **ناتير Nature** في عام

(1510). انظر:

Alliés et nazis sous amphétamines, documentaire de Steven Hoggard, 2018.

(1511). انظر:

Jean-Pierre de Mondenard, Dictionnaire du dopage, op. cit., p. 752.

1936 مصادر هذا الاضطراب بكونها «عوامل ضارة[1512]». و«فئران التجارب» التي أجريت عليها الأبحاث هي جردان. والحالات التي ذكرت، في هذه الحالة بالذات، متعددة: «التعرض للبرد، وممارسة مفرطة للأنشطة، والتسمم، والإصابة بجروح، وضرر جراحي...[1513]». فكانت ردود الفعل هي نفسها: «زيادة في الغدة الصعترية، وتعديل الغدة الكظرية، وفقدان القوة العضلية، وانخفاض درجة الحرارة...». وخلق التأثر نفسه تمزقًا وانحرافًا، وفقدانا للتكيف؛ في حين ستنشأ بعد ذلك ردة فعل منقذة، وسلوكات ميل جنسي ستعزز، في وقت لاحق، عملية التحمل وستعيد التوازن: عودة النظام واستعادة الحياة السوية؛ أي أن البدن يحمي نفسه. أما الاضطرابات، من ناحية أخرى، فلا يمكن التغلب عليها بمجرد ما أن تطول الأضرار بشكل منهجي؛ حيث اختفت سلوكات الميل الجنسي، و«استسلمت المقاومة»، وتشكل «الإنهاك»، وهلك الحيوان بعد أن استولت عليه أعراض تتعزز (ذاتيا) بشكل لا يمكن مقاومته. وكان الإنهاك الذي لا يمكن علاجه ينتظر في نهاية الطريق، ليرمز لـ «تعب» قد تمكن من الجسم بشكل نهائي.

تم اقتراح كلمة «ضغط نفسي» هنا لأول مرة، لتدل على الاضطرابات بجميع أنواعها، والتي تظهر بسبب «اعتداء على الوظائف البدنية أو الذهنية»، أو «الصدمة» لفترة طويلة جدًا. وهناك سياق هو الذي شجع على اختراع المصطلح: سياق المهندسين الذين حددوا الضغوط التي تمارس على المواد في بداية القرن العشرين، مثل الخرسانة والألياف والمعادن المركبة والفولاذ الممدد، مثل طرائق العَصْرِ والّلي والتمديد التي تخضع لها مواد لكي تحدث فيها تغييرات صغيرة قبل

(1512) Hans Selye, « A Syndrome Produced by Diverse Nocuous Agents », Nature, 4 juillet 1936, p. 32.
(1513) Ibid.

استعادة استوائها، أو تستسلم بشكل نهائي تحت دافع لا يمكن مقاومته[1514]. لقد صارت الكلمة صورة، إلى حد أنها غيرت ميدانها، وتحددت بنفسها، وصارت مصطلحا عالميا وتعريفا سيمتد إلى «البدن»، لتدل على المواد والتوترات «الضارة»، وكل أنواع الأضرار التي تخترق الفرد تحت الضغط، والتي يمكنها أن تؤدي إلى إنهاكه.

سيصبح التشابه (في هذا) مع البشر أمرا شائعا. والفرادة الحاسمة هنا هي النظر إلى الكائن البشري «المصاب» كـ«كل»: ككل عام للنوع البشري؛ سواء في طريقة تحمل تدهور الوظائف أو في ردات الفعل عليه. وتعمَّم مصدر التعب، مما عمق من الرؤية «العامة» التي بدأتها فعلا تحليلات معينة. وهي صورة أساسية؛ حيث اقترن العضوي والذهني، وحيث سيستخدم والتر كانون لأول مرة تعبير «حكمة الجسم»، قاصدا سلوكات عامة[1515]. تضاعف تنوع «الضغوطات» الممكنة، التي يُنظر إليها من جهة كونها «صدمات»، بأناة، وذلك بخلط الأضرار البدنية والنفسية؛ أي إصابة جسدية وعاطفة حميمة، التعب العضلي والتعب المعنوي، أو، وعلى نطاق أوسع، مجال الصدمات مترامي الأطراف... حيث يمتد مجال الإنهاك ونطاقه، ويستفيد من فشل المقاومات، والتي لم ترمم. وتضاعفت سجلات السلوكات المعنية بالضغط بشكل غير مسبوق، وصارت المهن صعبة للغاية وقد تدفع «للجنون»[1516]، و«الشيخوخة المبكرة» الناجمة عن «الضغط المستمر والمنهك للحياة»[1517]، وانقطاع الطمث الذي ينجم عن انفعالات

(1514). Herbert Fisher Moore et Glen N. Krouse, « Repeated-Stress (Fatigue) Testing Machines Used in the Materials Testing Laboratory of the University of Illinois », University of Illinois Bulletin, vol. 31, no 30, 1934.

(1515).Walter B. Cannon, The Wisdom of the Body (1932), New York, Norton, 1989 : voir l'effet global d'un «traumatic shock», p. XIII.

(1516).Hans Selye, Le Stress de la vie : le problème de l'adaptation (1956), trad. Pauline Verdun, Paris, Gallimard, 1962, p. 229.

(1517).Ibid., p. 151.

متكررة[1518]، وسلسلة «الاضطرابات العصبية» الناجمة عن نقص التكيف مع وضعيات جديدة وغير متوقعة؛ أي أن الأمر يتعلق بأي اضطراب يهز السلوك وتوازناته.

أراد مصطلح «الضغط»، بما هو صورة غير مسبوقة، في الثلث الثاني من القرن العشرين، أن يكون شاملا، أكثر عمومية من التعبيرات التي سبقته؛ ومن ثم ضاعف المصطلح مصادر الإنهاك المحتملة، ووضع الفرد أيضًا في قلب القضية، وموحدا بين كل الأشياء التي تؤثر على سلامته، وكل ما يجعله يتضرر، وكل ما يهدده أو يدمره.

(1518).Hans Selye, L'Histoire du syndrome général d'adaptation (1952), trad. Dr Tchekoff et Pierre-Jean Caplier, Paris, Gallimard, 1954, p. 34.

الفصل السابع والعشرون

من الإنسان الجديد إلى الإنسان «المأساوي»

بقدر ما أدى مفهوم الضغط النفسي إلى [فهم] الاضطرابات المعاصرة تقريبًا، محددة ومنوعة أشكال العجز أو الصدمات، ومفضلة السلامة الفردية، ملقية الضوء على نقاط ضعف هذه السلامة إلى غاية الاضطرابات الشعورية التي (صار يعاني منها الانسان) اليوم؛ بقدر ما تمكنت، مع ذلك، الفترة نفسها من السنوات 1920–1930 من توجيه (النظر) نحو مسارات مختلفة بالدفع نحو تقوية أشكال المقاومة، منبهة إلى أشكال ضعف الفرد، وملهبة القوة الجماعية، ومُعيدة رسم «الفحولي» على أساس استبعاد تراجيدي لكل ما ليس «فحوليا». وهو ما مثلته الدول الشمولية، التي تميزت بتعصب المعتقدات، وأنكرت أي فشل، وروجت لـ «إنسان جديد» أكثر صلابة، وقادت التعب بذلك نحو أبعاد غير معروفة.

هناك سياق يفسر، بالتأكيد، ظهور سياسات «عامة» مثل هذه: صعود الفرد والمخاوف التي يمكن أن يسببها هذا الصعود؛ تلك التشتتات الجديدة أو الصراعات الديمقراطية التي تهدد النظرة الطوباوية «لأمة» تم تخيلها متراصة، وحدتها منصهرة، حمايتها شبه دينية، والتسامح غير المسبوق تجاه الأفعال الوحشية المحتملة نحو «(أولئك) غير المرغوب فيهم»؛ الشيء الذي شجع عليه انفجار الحرب العالمية الأولى، وتوفر «وسائل هائلة للتعبئة الجماعية[1519]»، والتنظيم الذي وعدت به الثورات التقنية المتاحة للسلطات، والتخطيط على أوسع نطاق، الذي كشف عنه الصراع العالمي الأول، وأشكال التحكم فيه الجديدة، أو، بشكل

(1519).Marcel Gauchet, La Condition historique, entretiens avec François Azouvi et Sylvain Piron, Paris, Stock, 2003, p. 303.

أدق، وبحسب تعبير مارسيل غوشي، إن هذه «الأداة الجديدة»: «الدولة شاملة»، التي ترعى «حربا شاملة»؛ مما جعل «ممكنًا (وجود) دولة شمولية»[1520].

هناك إحالة، أقل هامشية مما قد يبدو، تبقى ثابتة: التعب، وتجاوزه الضروري أو استغلاله الضروري، وازدراء «عيوبه»، والتناقض المتكرر بين «القوة» و«الخور». وبالتالي غيرت القوة والضعف من لغتهما، فلم تبقيا موضوعًا العالِم وتِقْنِيِّهِ، ولكن موضوعا السياسة وأتباعها، على نطاق كان مجهولا إلى ذلك الآن: (أي) اعتقاد راسخ في عظمة محصنة (منفلتة من أي عقاب)، وهيمنة من الفظائع. ومن هنا جاءت القطبية المزدوجة، الحتمية والقاتلة: مقاومة استثنائية وُعِدَ بها الأقوياء، وتدهور استثنائي وُعِدَ به الضعفاء. إن العنف، في هذه الحالة الثانية، شديد للغاية، لدرجة أنه خلق لائحة جديدة لشهداء التعب: (وهي) وحشية فظيعة لا يمكن نسيانها. أي «إنسان جديد»؟

شجعت العديد من الظروف، المختلفة أيضا، في ثلاثينيات القرن العشرين، على استياء جماعي وأنبتت بذوره المهيجة:

ازداد، حجم الأشخاص الذين يعانون من خيبة الأمل واليأس بسرعة في ألمانيا وفي النمسا بعد الحرب العالمية الأولى، عندما أدى التضخم والبطالة إلى تفاقم التفكك بعد الهزيمة العسكرية؛ وكانت منهم نسبة كبيرة في جميع الدول التي خلفتها، ودعم هؤلاء الأشخاص الحركات المتطرفة، في فرنسا وإيطاليا، منذ الحرب العالمية الثانية[1521].

طارد الانتقام والعنف وإرادة القوة للسلطة مخيال هذه المجتمعات المنحرفة. وقد غذى الصعود والقوة والاستبعاد قناعاتهم. ومنه جاءت صورة الحلم بـ «إنسان جديد»، وبكائن متحول، «ديناميكي، فحل، صارم، فعال، وصلب

(1520).Ibid.

(1521).Hannah Arendt, Les Origines du totalitarisme (1951), trad. Pierre Bouretz, Micheline Pouteau et Martine Leiris, Paris, Gallimard, « Quarto », 2002, p. 624.

بفضل تربية على نمط مدينة إسبارطة، وبفضل أثر سام من الصرامة المكتفية بذاتها[1522]»؛ مثل غلاف العدد الأول (1 مايو 1919) من مجلة **الأممية الشيوعية**[1523] البلشفية، الذي عرض «رجلًا بعضلات قوية وهو يكسر بقوة مطرقته السلاسل التي تغلل العالم[1524]»؛ ومثل استعراضات **موسوليني** كاشفا «نصف جسمه العاري، قويا وقد اكتسب خبرة في جميع المهام وفي جميع التمارين البدنية[1525]»؛ وهي رؤية أكثر «مكابدة» مرة أخرى مع النموذج الألماني، والتي تمحورت حول الشباب، والتي مجدتها الدعاية النازية التي استعملت استعارات الحديد والصلابة:

يجب، في نظرنا، أن يكون الصبي الألماني في المستقبل حيويًا وماهرا، سريعًا مثل سلوقي، مقاوما مثل الجلد وصلبا مثل فولاذ شركة كروب. حتى لا يختفي شعبنا بسبب أعراض الانحطاط الذي يشهده عصرنا، يجب أن نربي إنسانا جديدًا[1526].

إن الضعف، وعلى نطاق واسع، هو الذي يوصم مثل هذه الأشكال من الحماس المفرط (السعار)، على شكل تناقض بين كائنات «قوية» وكائنات «هشة»، الراسخ في الاصطلاح الألماني (الضعيف das Schwache)[1527]. يلخص **جاك دوريو**

(1522).Pierre Milza, Mussolini, Paris, Fayard, 1999 : voir « Le mythe de l'homme nouveau », p. 781.

(1523).Illustration de Boris Koustodiev. La revue est publiée à Moscou sous la direction de Grigori Zinoviev, en russe, anglais, français, allemand.

(1524).Thierry Pillon, « Virilité ouvrière », in Alain Corbin, Jean-Jacques Courtine et Georges Vigarello (dir.), Histoire de la virilité, Paris, Seuil, 2011, t. III, p. 308.

(1525).Pierre Milza, « Mussolini, figure emblématique de l'"homme nouveau" », in id. et Marie-Anne Matard-Bonucci (dir.), L'Homme nouveau dans l'Europe fasciste (1922-1945) : entre dictature et totalitarisme, Paris, Fayard, 2004, p. 77.

(1526).Adolf Hitler, discours de Nuremberg, 14 septembre 1935, cité par Éric Michaud, « L'homme nouveau et son autre dans l'Allemagne national-socialiste », in L'Homme nouveau dans l'Europe fasciste, op. cit., p. 307.

(1527).Éric Michaud, « L'homme nouveau et son autre dans l'Allemagne national-socialiste », op. cit., p. 314.

بدقة أيضا، هذا المطلب الذي، عبر العمل التشاركي فقط، يقيم مواجهة بين من يتعب ومن لا يقهره التعب:

يجب أن يعبر الشخص بحركة واحدة عن صفات استثنائية من الفهم الفكري والمقاومة المعنوية والمثابرة وحتى المقاومة البدنية. الحقيقة هي أن أدنى ضعف فكري، وأقل (إحساس) (بال) تعب، وأدنى سوء فهم للمعنى العميق والحقيقي للحركة يضعف احترام الانضباط واحترام الطقوس التي تميزه. إذا تفاقم سوء فهم عميقا للحركة، يصبح الانضباط واحترام الحركة لا يطاق للأشخاص المتعبين(1528).

تلك بلا شك مصطلحات غامضة، بل وسخيفة أيضا، بل حتى وإن حولت خطط الهيمنة استخدام الإنهاك إلى برنامج محدد؛ أي ما صارت قرارات السلطة السوفيتية مثالا عليه، والتي نصت، حسب الحالة، على إيقاعات لا يمكن تحقيقها، أو مُنْهِكة في الإنتاج. (وهناك) هدف وحيد: هو إدانة، بشكل أكثر صرامة، المسؤولين أو العمال، حسب الحالة، «حتى يمكن بدء عملية تطهير جديدة(1529)». وانكشف التعب، بما هو سلاح إيديولوجي، منذ ذاك الحين، كسلاح سياسي.

الدعاية «الشمولية» وقهر التعب

اتخذ هذا السلاح (أي التعب) ثقله الشامل في العالم البلشفي في ثلاثينيات القرن العشرين، بإنشاء سجلات الأرقام القياسية، والربط بين الأداء والراتب، وأسطورة مقاومة الجهد. أدى إبراز إنجاز في عام 1935 وحده إلى تحويل معايير الإنتاج والمجهودات البدنية المنتظرة؛ فقد كشفت الصحافة أن عاملا منجميا، (حقق)«صدمة»، ويدعى **أليكسي ستاخانوف**، ليلة 30 إلى 31 غشت

(1528).Jacques Doriot, Le Mouvement et les hommes (1942), in Bernard-Henry Lejeune, Historisme de Jacques Doriot et du Parti populaire français, Amiens, Les Nouveaux Cahiers du CERPES, 1977, t. I, p. 68-68.
(1529).Hannah Arendt, Les Origines du totalitarisme, op. cit., p. 767.

(أغسطس)، فقد استخرج 102 طنًا من الفحم في خمس ساعات وخمس وأربعين دقيقة؛ أي حوالي أربعة عشر ضعف الحصة المطلوبة والمتحققة يوميًا. فقد انطلق الرجل «بمطرقته-الحفارة يهاجم 85 مترًا من الطبقة الأرضية[1530]»، مراعيا التوصيات التقنية بدقة، متجاوزا كل الحواجز التي كان يخضع لها الجميع آنذاك، مثبتا تأكيد ظهور «الإنسان الجديد» الذي روج له السوفييت. لكن هناك صمت مطبق، دون أدنى شك، عن الظروف الحقيقية لإنتاج «مضاعف»: فوجود فريق كبير يحيط بالعامل المنجمي، مثل فريق الخشبيين الذين يواكبونه، والفريق الذي يساعده في إخراج الفحم من المنجم. ومع ذلك، أثارت هذه النتيجة دعاية فورية، ورفعت من عظمة العامل السوفييتي، ورسخت نموذجا يقبل التعميم، وذلك بأن انتشرت المنافسة في جميع أنحاء البلاد. وتعليقات ستاخانوف تم انتقاؤها بعناية: بالإصرار على استخدام الأدوات المناسبة؛ و«عمل متوتر ولكنه يقظ وممتع[1531]»؛ إنجاز سلس، تحقق بدون إنهاك: «لم أشعر بأي تعب وكنت على استعداد لتقشير الصخر مرة أخرى، إن كان هناك المزيد من الخشب[1532]». وهنا، (نحن أمام) تجديد مهم مقارنة بالنزعة الشمولية؛ لأنه تجديد سياسي تمامًا.

هذا مثال على الكمال واللَّاكَلَل؛ حيث إن عمل ستاخانوف يفترض «طقس عبادة الشخصية على شكل صورة مصغرة[1533]»، صورة «إنسان متحول»؛ حيث سيفرض وجهه نفسه، وسيشغل الملصقات والصور، وستسمى الساحات والشوارع باسمه، بل حتى مدينة في أوكرانيا ستحمل بدورها إسمه. وستكتسح الحملة الدعائية الرأي الدولي، وستضع الاتحاد السوفييتي بقوة أكبر في قلب المنافسة بين الشرق والغرب، مُعَظِّمة الإنتاج السوفييتي، وذلك باللعب على

(1530).Thierry Pillon, « Virilité ouvrière », op. cit., p. 311.

(1531).Jean-Paul Depretto, « La réalité du stakhanovisme ou Staxanov par lui-même », Revue des études slaves, vol. 3, no 54, 1982, p. 348.

(1532).Ibid.

(1533).Anne Applebaum, Rideau de fer : l'Europe de l'Est écrasée (2012), trad. Pierre-Emmanuel Dauzat, Paris, Grasset, 2014.

انخراط العمال في النظام الستاليني، الشيء الذي أقنع مجلة تايم مكازين بتخصيص غلافها في 16 ديسمبر 1935 لعمال مناجم دونباس. وصارت «نزعة ستاخانوفية» نمط حياة، ورسخت «(فكرة) الزائد» في روسيا في ثلاثينيات القرن العشرين، بل وأدت إلى مزايدات لا نهاية لها: 200 ٪ من الحصص اليومية، أو 1000٪ من الحصص اليومية[1534]. يتعلق الأمر، مرة أخرى، بإيديولوجيا خالصة تنكر أي تحليل دقيق أو تحقق بأدوات:

ادعى المنظرون الماركسيون (وربما كانوا يعتقدون؟) في الفترة الستالينية، أن رفضهم طرح مسألة التعب الصناعي من الناحية العلمية، سيزيل التعب نفسه[1535].

في حين انتشر واقع أكثر سوداوية: (مثل) تدهور وضعية العمال، وانخفاض مستوى معيشتهم، وهرمية أشكال عدم المساواة[1536]. بل يمكن أن تتسبب العملية، أيضا، في «تدهور سريع للمعدات بسبب الإيقاعات القسرية»[1537]. وعلى نطاق أوسع، كانت نتيجة التسارع المكثف للمردودية، واحتقار العمل الجماعي، وتداول أرقام يتعذر تحقيقها «تفكك كارثي في توازن الصناعة الفتية[1538]».

تسمح مثل هذه الآلية في الأخير، وربما قبل أي شيء، بجزاءات غامضة ضد أولئك الذين لا يبدو أن انخراطهم قد تحقق، مما يهدد التضامن المفترض، مثل البحث الذي أنجز عام 1950 بصدد قطاع البناء في دولة المجر: فقطاع كامل،

(1534).http://www.histoire-fr.com/mensonges_histoire_stakhanov.htm.

(1535).Georges Friedmann, « La civilisation technicienne », Arguments, no 27-28, 1962, p. 50.

(1536) .Éric Vigne, « Stakhanov, ce héros normatif », Vingtième Siècle, no 1, 1984, « Histoires de l'avenir. 1984 au rendez-vous d'Orwell », p. 26.

(1537).http://www.histoire-fr.com/mensonges_histoire_stakhanov.htm.

(1538).Hannah Arendt, Les Origines du totalitarisme, op. cit., p. 632.

يضم العديد من مئات العمال، «من عناصر عدوة» بعد «انهيار سد»[1539]. وسمحت الستاخانوفية هنا بتغيير صورة مبنية عن قصد، تُعظِّم «الإنسان الجديد»، مخلوق حزبي، بغاية محو «الإنسان المنحط» بشكل أفضل، والذي دائمًا ما يكون مسحوقًا.

أضف، في الأخير، هذا التناقض الذي يفصل بين الاشتراكية والنازية؛ حيث تفترض الأولى صعودها وشرعيتها على اللاكلل في العمل، والثانية على اللاكلل في العرق والدم.

إنهاك ومحق

يقوم منطق النظام «الشمولي»، وفي كلتا الحالتين، رغم ذلك، على استبعاد أي فرد قد يهدد «وحدة منصهرة»، تلك التي تم استيهامها من لدن سلطة فُوِّضَت لها جميع الحقوق. بل ويكمن الرهان في «القضاء، ببطء أو بسرعة على العناصر التي تعتبر ضارة، من الناحية العنصرية أو الاجتماعية[1540]». يكون للإنسان الجديد هنا «نقيضه»: الإنسان المتردد، أو الكائن المنحط أو «الخطير» الذي هو وعد ببؤس الضعفاء. (أي) عالمان لا يمكن التوفيق بينهما؛ وهو ما يضفي شرعية على الإنهاك المحتمل كسلاح سياسي. ومن ثم إنشاء معسكرات، والتهميش، وهذا السور حيث سيتم فصل، بل إبادة، أولئك الذين يحكم عليهم هذا النظام بـأنهم «غرباء» عنه.

بل قد لا تكون كلمة «معسكر» مناسبة دائمًا: فإبادة اليهود بالغاز، عند وصولهم، لا يخضع للنظام السجني-الاعتقالي. فلا شيء في بلزيك وشيلمنو

(1539).Anne Applebaum, Rideau de fer, op. cit.

(1540). Eugen Kogon, L'Enfer organisé : le système des camps de concentration (1946), Paris, La Jeune Parque, 1947, p. 118.

وسوبيبور وتريبلينكا[1541]، قد أعد لاستقبالهم أو إطعامهم أو إيوائهم. الوظيفة الوحيدة هي إبادة كائنات تعتبر غير مقبولة الاندماج، وعرقيا أدنى مكانة.

ولـ «مركزة الاعتقال»، على العكس، وتشييد المعسكر وظيفة أولى: «عزل جزء من الجسم الاجتماعي كإجراء وقائي؛ أي كل أولئك الأفراد أو مجموعات الأفراد المشبوهين، إن لم يكن ضارين[1542]». فلا توجد أية رؤية اقتصادية في هذه الحالة، ولا ننتظر أي عمل من «منبوذين». أما الغاية فهي في شيء آخر: في الإذلال، والإضعاف، وفي المعاناة أيضًا، والاختفاء البطيء أو، كما في الحالة السوفيتية على وجه الخصوص، في الهدف الغامض في تحويل «المذنب/ المتهم»، وفي تجديده. ويوجد في قلب هذا النسق وصم (عنصري واجتماعي) بقدر ما يقوم على التطهير. ومن هنا ضرورة العمل الشاق الممكن، ولكنه غير نافع وعقابي. (وهنا يمكن استحضار **هيرمان لانغبين**: «يتم حمل الأحجار بخطى سريعة من مكان إلى آخر، مكدسة بعناية، ثم تتم إعادتها، دائما بهرولة، إلى حيث كانت في الأول[1543].» الإنهاك دوما «متاح»، وبديهي، وأعمى، وضخم.

ومع ذلك سيتغير اتجاه المنظور في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين، بصدد مدة الحبس، وحالة الحرب، وفقدان اليد العاملة؛ حيث يمكن للعمل بعد ذلك تغيير الأشياء، وتغيير الوجهة. قرر **هيملر** ووزير عدل الرايخ تسليم المعسكرات «بهدف إبادة بالعمل»، كل «السجناء الاحتياطيين»: اليهود والغجر، والروس والأوكرانيون والبولنيون[1544]. وقد وُعِدَ «النزلاء» بالسحق **بالعمل**. ألا يزال

(1541). Joël Kotek, « Camps et centres d'extermination au XXe siècle : essai de classification », Les Cahiers de la Shoah, vol. 1, no 7, 2003 : voir « Trois types de camps ».

(1542). Ibid.

انظر:

« À quoi sert un camp ? ».

(1543). Hermann Langbein, Hommes et femmes à Auschwitz (1980), trad. Denise Meunier, Paris, UGE, 1994.

(1544). Wolfgang Sofsky, L'Organisation de la terreur : les camps de concentration (1993), trad. Olivier Mannoni, Paris, Calmann-Lévy, 1995, p. 55.

من الضروري تعقيد مفهوم الإنهاك هنا؟ «يتعلق» الإنفاق البدني بعدد من الأضرار الأخرى التي تضاعف التعب عشرة أضعاف: سوء النظافة، وأشكال من العنف والجوع والبرد والأمراض[1545]. بل واخترعت السلطة السوفيتية آلية تسرع التدهور: «كل أولئك الذين يعملون بشكل سيئ يأكلون أقل. وقد حكمت هذه العملية على مئات الآلاف من الأشخاص بالموت والإعاقة، مما دفع الغولاج إلى تجربة طرائق جديدة «لتحفيز» اليد العاملة[1546]». وهناك ممارسة أخرى؛ حيث قامت سلطة (فيلق الحماية) SS بالأساس بتسريع الإيقاعات، في إطار تحد للإنتاجية والتحكم والهيمنة؛ بحيث يتم التفريغ جريا، ويجب أن يتم صعود المنحدرات بعربات يدوية هرولةً، كما أن الجوع سيزيد عاجلا من عقبة لا يمكن التغلب عليها من المهام المفروضة[1547]، ثم سيكون متوسط العمر في مصانع أوشفيتز هو بضعة أشهر[1548]. إنها يد عاملة «انتقالية»، يد عاملة أدانها حكم «الضرر اليهودي[1549]».

صار ثقل التعب حاضرا، أخيرًا، لدرجة أن تم اختباره في بعض الأحيان خصوصا، عندما أصبح «التزيل» فأر تجربة بصدد ما يمكن تحمله وما لا يمكن تحمله. وتم إنشاء «كوماندو مشاة» في معسكر ساكسينهاوزن، سنة 1936، شمال برلين؛ حيث يخضع السجناء لنظام خاص: «المشي لساعات ودون توقف لاختبار

(1545).Alexandre Soljenitsyne, L'Archipel du Goulag (1973), trad. Geneviève Johannet, Paris, Seuil, 1974.

(1546).Juliette Cadiot et Marc Élie, Histoire du Goulag, Paris, La Découverte, 2017.

(1547). من بين الشهادات المطابقة، انظر شهادة جورج سنايدرس:

Georges Snyders, « Grands entretiens », INA : https://entretiens.ina.fr/memoires-de-la-shoah/Snyders/georges-snyders/transcription/3.

انظر أيضا:

Jan Sehn et al., German Crimes in Poland, Londres Paperback, 1946, t. I, p. 53.

(1548).Raul Hilberg, La Destruction des Juifs d'Europe (1985), trad. Marie-France de Paloméra et André Charpentier, Paris, Gallimard, « Folio », 1991, t. II, p. 806.

(1549).Christian Ingrao, Croire et détruire : les intellectuels dans la machine de guerre SS (2010), Paris, « Pluriel », 2011.

مدى مقاومة نعال صناعة الأحذية الألمانية[1550]». بل وتم اعتماد تدقيق صارم يميز النتائج وفقًا لحالة التربة التي نمشي عليها (رمل أو طين أو حصى أو أحجار)، وحجم الأحذية المعتمدة، وثقل الأحمال المنقولة. وتجربة أخرى أكثر صرامة أيضا؛ حيث تم إنشاء «دورية للبراشم» في عام 1944، طالبت بها البحرية الألمانية، لتقويم آثار مُرَكَّب «منشط» تم اختراعه حديثا. وادعى التقرير النهائي استبعاد أي تردد:

أن تحافظ على الناس مستيقظين وقادرين على الخدمة، إما من خلال عدم منحهم أو منحهم مدة قليلة من النوم لمدة أربعة أيام وأربع ليال، يعود إلى مجال الممكن بواسطة المواد A و D. (لكن) يجب تفضيل المواد B و c[1551].

أصبح التعب، في المجتمع الشمولي، بالتأكيد سلاحًا سياسيًا بقدر ما أصبح موضوعًا للحساب المأساوي والاستكشاف القصي على المشتبه فيهم والمستبعدين، وهي طريقة لتجريب جميع الاختبارات الممكنة على أولئك الذين تبقى أجسادهم آخر شيء يمكن استغلاله.

«وقت الفراغ» بين الشمولية والديمقراطية

يُأخذ خطر التعب، وعلى العكس، بعين الاعتبار بطريقة إيجابية على ما يبدو في حالة العمال «الوطنيين»؛ بحيث تم دعم عالم الإنتاج و«تبجيله»، بل وتم تنظيم «وقت فراغ» في ألمانيا النازية في الثلاثينيات، بهدف تخفيف آثار جهد طويل الأمد، ولزيادة فعالية العمل بشكل أفضل: «وظيفة وقت الفراغ وعطل العمل هي القضاء التام على التعب الطبيعي الذي لا مفر منه. ويعتمد الإنجاز الكامل لهذه

(1550).Norman Ohler, L'Extase totale, op. cit., p. 243.

(1551).H.-J. Richter, Journal de guerre, 16 et 20 novembre 1944, cité par Norman Ohler, ibid., p. 246.

المهمة على استقرار القدرة الإنتاجية[1552]». ينطبق المنطق على «الإنسان الجديد»، في حين أنه ينعكس تمامًا، مثلما رأينا سابقا، لتتم إدانته: فـ «توقف» قصير سنوي للعمل قد يكون له أثر يُصان عبر تقوية «صلابة الأعصاب[1553]» للعمال الألمان. وهو ما ينخرط، في الآن نفسه، في ديناميكية أوروبية أكثر شساعة: مفهوم الـ «إجازة»، وانتظار وقت فراغ غير مسبوق، الذي تعزز بعد الحرب العالمية الأولى، ونشأ كمطلب في قلب المجتمعات الصناعية، بهدف الحد من تأثيره. وطلب الوفد السويدي إدراج هذا السؤال على جدول أعمال مؤتمر العمل الدولي الأول عام 1919 : إن «فترة الراحة المطلقة كل عام ضرورية للحفاظ على الصحة البدنية والمعنوية للعمال[1554].» وتم تقديم مشروع قانون في 11 يوليو 1925 في مجلس النواب في فرنسا: «أصبح تعميم الإجازة ضروريًا للحفاظ على قدرة العمل وصحة العمال [...فـ] تجعلهم أكثر إنتاجية في العمل[1555]». إنه مشروع طموح، لم يكتمل بعد في هذا التاريخ، ولكن سرعان ما أصبح أكبر وأكثر تعقيدًا، متجاوزا المصطلح الوحيد الذي هو «استراحة» الذي تمت دراسته حتى ذلك الحين.

انزلق الوعد بسهولة إلى مجتمع شمولي، مندفع دائمًا لتوجيه أي نشاط وقيادته، كما هو الحال في إيطاليا الفاشية أو ألمانيا النازية. والرحلات البحرية السنوية المخصصة للعمال الألمان من قبل حركة كرافت دريك فرويده (القوة من خلال الفرح)، وهي مؤسسة أخذت مكان النقابات في عام 1933، خير مثال

(1552). حديث فقيه قانون نازي يعلق عليه جان-كلود ريشي وليون ستروس:
Jean-Claude Richez et Léon Strauss, « Un temps nouveau pour les ouvriers : les congés payés (1930-1960) », in L'Avènement des loisirs, op. cit., p. 387.

(1553). حديث منسوب إلى هتلر، نقلا عن جان-كلود ريشي وليون ستروس:
ibid., p. 388.

(1554).Conférence internationale du travail, Washington, 1919, Société des Nations, rapport préparé par le comité d'organisation de la Conférence internationale du travail, Washington, 1919.

(1555).Roger-Henri Guerrand, La Conquête des vacances, Paris, Les Éditions ouvrières, 1963, p. 54.

كاريكاتوري: فالوجهات لا يختارها المستفيدون، و«الجداول الزمنية لا يتم تعيينها إلا في اللحظة[1556]»، وتوصيات تنص على طبيعة الملابس التي يجب ارتداؤها، والسلوك الذي يجب احترامه، والزهور التي يسمح بالتقاطها، ووقت الخلود للنوم[1557]، والحفلات، التي في الأخير، تنخرط كلها في الإيديولوجيا؛ «حيث وُضِعَ الفولكلور »مقارنة بـ «الفن المنحط[1558]». ومن هنا جاءت الرؤية شبه المتناقضة بصدد «راحة» مثل هذه، والتشبع إجباري للضمائر التي مالت إلى محو أي استرخاء.

لا يوجد شيء مماثل في المجتمعات الديمقراطية، فالفردية ليس لها نفس المكان هنا، وعبارة «وقت فراغ» ليس لها المعنى نفسه. وتكمن الجدة في (توفر) «وقت للذات»، و(حالة) فراغ جديد وخاص، والذي، في الأصل، لم يكن في متناول الجميع دائمًا. مثل عامل المعادن في تولوز الذي أجاب في استطلاعات جانين لارو في الخمسينيات: «أوقات فراغ؟ أنا لم أفكر في ذلك من قبل[1559]». ومع ذلك تغير كل شيء في فرنسا عندما صوتت الجبهة الشعبية لأول مرة، في 12 يونيو 1936، على أسبوع الأربعين ساعة وأسبوعين من الإجازة مدفوعة الأجر. وأصبح

(1556).Jean-Claude Richez et Léon Strauss, « Un temps nouveau pour les ouvriers : les congés payés», op. cit., p. 403.

(1557). انظر:

https://fr.wikipedia.org/wiki/Kraft_durch_Freude.

(1558).Anne-Marie Thiesse, La Création des identités nationales : Europe, XVIIIe-XXe siècle, Paris, Le Grand Livre du mois, 1999.

انظر أيضا:

aussi Anne-Marie Thiesse, « Organisation des loisirs des travailleurs et temps dérobés (1880-1930) », in L'Avènement des loisirs, op. cit.

وعلى الخصوص:

« Organisations officielles soumises à une mystique nationale », p. 316.

(1559).Janine Larrue, « Loisirs ouvriers : chez les métallurgistes toulousains », Esprit, juin 1959, p. 955, cité par André Rauch, Vacances en France, de 1830 à nos jours, Paris, Hachette, 1996, p. 100.

الرهان «رمزا[1560]». وقد رأى البعض في ذلك «السنة الأولى من السعادة[1561]»، والبعض الآخر «الصعود إلى حياة بشرية أسمى، وأكثر إنسانية»، متجاوزة «تعويضات عن التعب[1562]» فقط، ولا يزال البعض الآخر يرى فيها شكلًا غير مسبوق من الحرية:

أن لا تذهب إلى المصنع، وأن تكون قادرًا على البقاء في منزلك، وأن لا تكون مجبرا على الاستيقاظ عند الفجر، والركض للوصول في الوقت المحدد، والانفلات من مطالب رئيس العمال ومن الإنتاج، ومن التهديد بالعقوبات الموزعة عند أدنى عثرة في نظام ورشة العمل أو انخفاض المردودية [...] في حين أن هذه الحالة من الحرية، الحرية المعترف بها قانونًا (لأنه في حالة الإضراب أيضًا يكون المرء حرا)، هي المرة الأولى التي وجدت فيها. وهذا الفراغ الذي لا يؤدي إلى عقوبة في الأجرة لم يسبق له مثيل، بل إنه أمر غريب. وقد شعر بذلك الجميع بشكل مكثف، كيفما كانت الطريقة التي كانوا يملؤون بها وقتهم الحر[1563].

تلك هي أيضًا ملاحظة الفيلسوفة **سيمون فايل** التي رافقت «قوافل العمال الطويلة» المتجهة إلى محطة القطار بليون: «لقد كانوا يصرخون من شدة الفرح، ويغنون ويقولون أشياء ساذجة مثل لتحيا الحياة[1564]». وهي أيضا شهادة الرسم

Ibid.(1560)

.(1561)

Madeleine Léo-Lagrange, « 1936, An I du bonheur », Janus. L'homme, son histoire et son avenir, no 7, « La révolution du loisir », juin 1965.

(1562).Joseph Daniel, Semaines sociales de Rouen, 1938, cité par Jean-Victor Parant, Le Problème du tourisme populaire : emploi des congés payés et institutions de vacances ouvrières en France et à l'étranger, Paris, Librairie générale de droit et de jurisprudence, 1939, p. 37.

(1563). حديث أحد العمال خلال 1936، نقلا عن:

Rolande Trempé et Alain Boscus, « Les premiers congés payés à Decazeville et Mazamet », Le Mouvement social, no 150, 1990, p. 72.

(1564). **سيمون فايل Simone Weil**، نقلا عن:

Françoise Cribier, La Grande Migration d'été des citadins en France, Paris, Éditions du CNRS, 1969, p. 48.

الصباغي، كما في لوحة **الفجر** لـ**كرستو هيغدوسيك**، في عام 1936[1565]، بهؤلاء السياح الذين يسافرون بدراجاتهم الهوائية، مغامرين في أفق لا حدود له، أو لوحة أوقات الفراغ لـ**فرناند ليجي**، التي تمزج بين الشواطئ وأقمصة السباحة والدراجات والعدائين، بين حمام وزهور، مما يؤكد الاختراق الثقافي لهذه المرافق الاجتماعية (للمجتمع)[1566]. والكثير من الرسوم التوضيحية أو اللحظات، في صيرورة طويلة الأمد.

(1565).Krsto Hegedusic, L'Aube, peinture huile, 1936, collection privée.

(1566).Fernand Léger, Les Loisirs, 1948, Musée national Fernand-Léger, Biot.

الفصل الثامن والعشرون

وعود الرفاهية؟

لقد استغلت كل من الشمولية والديمقراطية، وفقا لاستخدامات متباينة بشكل مطلق، المرجع السياسي للتعب. بقي أن الاعتراف «الفَرِحُ» بوقت الفراغ، أي الاعتراف «بوقت الفراغ»، وتنامي التَّفرُّد، وظهور مجتمع استهلاكي في البلدان الديمقراطية، قد فضل طرح قضية التعب هذه، وذلك بإنعاش أهميتها. ووعدت (كل هذه التحولات) بتخفيف التعب، وتدبيره، وحمايته. وتدعي مبادرات دولة-الرفاهية أنها تسير في هذا الاتجاه. واعتبرت كل من العطل والتأمين الاجتماعي والمعاشات وساعات العمل جزءا من هذه الرفاهية، إلى درجة أن التعبير الجديد، أي «الرفاهية»، ربما نشأ في هذه البلدان نفسها في أواخر الخمسينات؛ وهي صيغة افترض منها أن تحدث ثورة في الحياة اليومية، وتخفيف الإكراهات، وتبسيط أنماط الحياة. وكان أول اعتراف مُؤَسَّسِي هو الأخذ بعين الاعتبار، وبشكل متزايد، بما هو نفسي. بمعنى آخر: «إيديولوجيا حديثة[1567]» يجب قياس أهميتها التاريخية وآثارها بعناية.

جَعْلُ الإجهاد شيئا ملموسا

من المستحيل أولاً تجاهل الأجوبة الإدارية والاجتماعية الجديدة، وحتى السياسية منها، أي تلك التي ترد، بعد الحرب العالمية الثانية، على محن الإجهاد والكد. تم تثبيت التأمين الاجتماعي في هذا الصدد سنة 1945، وهو نظام مساعدة أريد له أن يكون «عاما». وهذا تغيير أساسي، و«أيام سعيدة» حتى إنها

(1567) .Jean Baudrillard, La Société de consommation : ses mythes, ses structures, Paris, SGPP, 1970, p. 208.

وعدت بنصوص تأسيسية، بما يضمن، من خلال مساهمة كل واحد، تعميمَ نظام التأمين:

استوجب التأمين الاجتماعي، من هذه الزاوية، تدبير منظمة وطنية واسعة من المساعدة المتبادلة الإلزامية التي لا يمكن أن تحقق فعاليتها الكاملة إلا إذا كانت ذات سمة عامة جدًا فيما يتعلق بالأشخاص الذي تشملهم أولا، وفيما يتعلق بالمخاطر التي يغطيها (من جهة ثانية). إن الهدف النهائي الذي يجب تحقيقه هو وضع خطة تغطي جميع سكان البلاد ضد جميع عوامل انعدام الأمن، وهي نتيجة لن تتحقق إلا على امتداد سنوات عديدة من المجهودات الدؤوبة، ولكن ما يمكن القيام به اليوم هو تنظيم الإطار الذي ستحدث فيه هذه الخطة تدريجيًا(1568).

أصبح «بعد فترة العمل» لكل واحد، آلية دقيقة. ويبقى عمر «التقاعد» هو 60 سنة، على أساس «معدل 20٪ من الراتب السنوي الأساسي»، والذي تضاف إليه مزايا تدريجية في حالة التمديد حتى 65 عامًا، والهدف كان هو الحفاظ على «الحد الأقصى لعدد العمال النشطين للانتصار في معركة الإنتاج(1569)». وهو قياس «حد»، في الحقيقة، في حين أن متوسط العمر كان في الوقت نفسه هو 69.2 سنة للنساء و 63.4 للرجال(1570).

وتقوم، من ناحية أخرى، الأصالة الأولى هنا على استحضار «الأنشطة خاصة الشاقة منها والتي من المحتمل أن تسبب الإجهاد المبكر للبدن(1571)»، وتخصيص

(1568). انظر:

Conseil national de la Résistance (CNR), « Plan complet de sécurité sociale ».

(1569). انظر:

ordonnances, Silo-Agora des pensées critiques :
https ://silogora.org/une-histoire-de- lordonnance-4-octobre-1945/

(1570). انظر:

Institut de recherche et documentation en économie de santé :
https ://www.irdes.fr/EspaceEnseignement/ChiffresGraphiques/Cadrage/IndicateursEtat Sante/Es peranceVie.htm

(1571).Ordonnance d'octobre 1945, art. 64.

مساهمة مالية إضافية لمن يهمهم هذا المشكل. والهدف كان (إذن) مزدوجا: الاعتراف بشكل صريح بوجود تعب طويل الأمد، وتحديد طبيعته وفقًا لقائمة تم وضعها بعد التشاور مع المجلس الأعلى للتأمين الاجتماعي(1572). لكن هناك فرق دقيق، من ناحية أخرى، لأن الربح يتعلق هنا، واستثناء، بنسبة المعاش وليس بتقليل الضرر بحلول موعد التقاعد. وذلك برهان، إن وجد، على صعوبة تعديل الأعمار والعتبات.

هناك فروق دقيقة أخرى، مهمة هذه المرة، حيث يمكن ربط «الإجهاد المبكر» بالتعب بقدر ما يرتبط بالعديد من التأثيرات الأخرى، مثل خطورة المنتجات التي يتعامل معها العامل، أو مخاطر مرتبطة بالوسط الذي يواجهه العامل. لا شيء في هذا سوى طريقة في جمع، تحت نفس المصطلح، ما يمكنه أن يقلص، في العمل، الحياة أو يعرضها للخطر، وتوجيه الضرر صوب رؤية تتجاوز بشكل نهائي الرؤية القديمة لـ**رامازيني** التي اقتصرت على الأمراض فقط؛ وجعل التعب يتلاقى مع أشكال من الضعف الأخرى؛ وتوحيد ما يضر «الحيوية».

نجد جدة أخرى ذات أهمية في هذا النص لعام 1945: «وجود عدد من الأنظمة الخاصة فيما يتعلق بالقانون العام(1573)»، والحفاظ، بعبارة أخرى، على «الفترة المبكرة» لسن التقاعد فيما يخص مهنا معينة، قد تتسبب في «تعب» أو «عجز بدني»، والتي كانت تحظى منذ فترة طويلة، بتنظيم القانوني: تلك الخاصة «بمؤسسات الدولة الصناعية»، و«شركات التعدين»، وشركة السكك الحديدية الفرنسية، و«المصالح النشطة للدولة»، و«شركات استغلال نقل وتوزيع الغاز والكهرباء»(1574)، إلخ. فقد عززت هذه الآلية مبدأ «الإنصاف» مقارنة مع مبدأ

(1572).Ibid.

(1573).Frédéric Buffin et Thierry Tauran, « La consolidation des régimes spéciaux (1945 à nos jours) », in Thierry Tauran (dir.), La Sécurité sociale, son histoire à travers les textes, op. cit., t. VII, p. 218.

(1574).Ibid., p. 219.

«المساواة»: الحفاظ على حقوق أولئك الذين يفترض أنهم «يستحقونها»، وذلك عبر «تعقيد للنظام[1575]» الخاص بمعايير نوقشت بشكل دائم، وتمويلات تُنعش بشكل دائم (أيضا). بقي أن تعريف «الإجهاد» هنا تم بالمهنة أكثر مما تم بالنشاط نفسه، وذلك بالكشف عن الصعوبة الكبرى في فهم خصوصية وآثار «الضرر» على المدى الطويل.

أدى التفاوت التدريجي في عدد المساهمين مقارنة بعدد المتقاعدين إلى قرار حكومي هدفه تقييدي، بشكل واضح، في عام 1953؛ حيث تمت تسمية الإجهاد بقدر ما تمت مناقشته، هذا إن لم تتم إعادة تقويمه :

اعتبارًا من 1 سبتمبر 1953، لا يمكن لمجموع العمال [...] التابعين لأنظمة خصوصية أو استثنائية، والذين يشغلون وظائف لا تحتمل أن تتسبب طبيعتها في الإجهاد المبكر للبدن أو لا تخضع لصفات بدنية محددة [...] التقدم بطلب للتقاعد قبل السن الذي يمكن فيه للموظفين العموميين المطالبة بمعاش تقاعد، ولا أن تتم إحالتهم على التقاعد تلقائيًا قبل الوصول إلى الحد الأدنى للسن المطبق على الموظفين المدنيين العموميين[1576].

ومن تم، في حالات كثيرة مسماة الخدمات «النشطة» على وجه الخصوص، فإن التقاعد يكون عند 60 عامًا بدلاً من 55 عامًا. ومنه أيضا المقاومة القوية للفاعلين المعنيين: الحركات الاجتماعية، وإضراب الموظفين، إضراب لمدة ثلاثة أسابيع في شركة السكك، وأشكال أخرى من الرفض. ومنه بالتالي، تراجع الحكومة، بعد بضعة أسابيع: «إنه أمر مكتسب عدم المساس» بخدمات التقاعد الخاصة[1577]. لقد كانت اللحظة حساسة، عرضية، (أي) كاشفة عن مدى «أهمية الحالة النفسية

(1575).Bastien Urbain, Le Système de retraite à l'épreuve de son financement, Issy-les-Moulineaux, LGDJ, 2019, p. 124.

(1576).Décret no 53-711 du 9 août 1953 relatif au régime des retraites.

(1577).Alain Grangé, « Le régime spécial à la SNCF », in Thierry Tauran (dir.), La Sécurité sociale, son histoire à travers les textes, op. cit., p. 234.

في هذا المجال[1578]»، ومتمردة على الملاحظات المحتملة أو البراهين الكمية، وكاشفة (أيضا) بالأساس عن مقدار «تصور الأنظمة الخاصة على أنها عنصر حقيقي (معبر عن) الوضع الاجتماعي[1579]»، بل قل، كعامل رئيس للهوية.

لذلك تعاقبت التعديلات. وهو ما يكشفه إنشاء تأشيرة على السيارات في 27 يونيو 1956، التي من المفترض فيها لأول مرة أن تغذي صندوق تضامن وطني يعوض عن عدد من أشكال العجز المحتمل[1580]. يبقى، وهو ما ينبغي التأكيد عليه، مع قوانين عام 1945 في فرنسا، اختراع «حماية» واسعة النطاق؛ حيث يقال إن التقاعد يستجيب لإجهاد محدد بوضوح وأحيانًا محدد كمّيا، حتى لو كان خاضعًا لمراجعات أو تعديلات أو صراعات حتمية.

اختراع الإرغونوميا

تستدعي مثل هذه المؤسسات مؤسسات أخرى، والتي من المفترض أن تزيد ضماناتها. ولهذا تزايدت الحاجة إلى الخبرة، مثلما ازدادت الحاجة إلى تحديد الأضرار، وأشكال الإنهاك وتقديرها أو حتى تقنينها. فقد اتخذ الطب المهني، العشوائي الطويل، غير المنتظم والجزئي، بعد الحرب العالمية الثانية، شكلاً غير معروف حتى تلك اللحظة. وقد أنشأ هذا التخصص الطبي، الذي أثبت وجوده بشكل أفضل في قلب «الإجهاد»، محورين للبحث: التعب، وعلم أمراض الشغل الشاق. ومنه الاهتمام العلمي للغاية بـ «الإصابات» الناجمة عن «الأوضاع والحركات المهنية، والتشنجات وتشوهات الهيكل العظمي، والتهاب الزليل

(1578).Jacques Doublet, « Âge de la retraite et prolongation de la vie humaine », Droit social, 1961, p. 172.

(1579).Bastien Urbain, Le Système de retraite à l'épreuve de son financement, op. cit., p. 61.

(1580). انظر:

« L'apparition de la vignette », Caradisiac.com, https://www.caradisiac.com/L- apparition-de-la-vignette-51019.htm.

الوتري، وأعراض متعددة...[1581]»؛ والاضطرابات المرضية التي تعود لتعب متفرد بشكل خاص، خارج الحوادث والتسممات أو الأمراض.

جعل قانون 28 يوليو 1942 الخدمات الطبية والاجتماعية في الشركات إلزامية[1582]. بحدود مهمة: الاعتراف بسلطة طبية تساعد على تقويم المخاطر والعدوى بشكل أفضل، وكانت المنشآت مصحوبة بخاصية تمييزية، خاصية موجهة في المقام الأول نحو تقدير مهارات العاطلين عن العمل، لتقييد واستخدام احتياطيات اليد العاملة بشكل أفضل[1583]. ويختلف قانون 11 أكتوبر 1946، والذي سيليه مرسوم 26 نوفمبر 1946، في تعميمه الخدمات الطبية، مع ضمان «في الآن نفسه استقلاليتها وأيضا استقلالية سلطة الأطباء المسؤولين عن هذه الخدمات[1584]». وتختلف أشكال هذا الحضور، بالطبع، تبعا لحجم الشركة أو وفقًا «للأعمال الخطرة» التي يمكن أن تستوعبها الشركة (مجار، ومذابح، وقصابة التغذية الحيوانية، وغرف التبريد، وروائح مختلفة...). ودور هذا القانون، من ناحية أخرى، وبشكل صريح، دور وقائي:

- *تحسين ظروف العمل الصحية والوقائية؛*
- *تجنب التعب والإجهاد المبكر من خلال خلق الانسجام بين متطلبات العمل ومهارات العمل الحسية-النفسية (توجه بيولوجي لليد العاملة)؛*
- *إدخال موارد الصحة الذهنية في المصنع[1585].*

(1581).Camille Simonin, « Pathologie générale », in Médecine du travail, op. cit., p. 171.

ibid.(1582)

(1583). انظر:

https://fr.wikipedia.org/wiki/Histoire_de_la_m%C3%A9decine_du_travail.

(1584).Camille Simonin, « Évolution de la protection médicale des travailleurs », in Médecine du travail, op. cit., p. 774.

(1585).Camille Simonin, « Fonctionnement des services médicaux du travail », ibid., p. 785.

إنه لدور مهم، خاصة وأن الإحالات العلمية المعبأة هنا تتزايد بشكل واضح: «الطبية والنفسية-العاطفية والفسيولوجية والصحية والتقنية والاجتماعية»[1586].

يتعلق أولها بانشغال حديث ظهر بعد الحرب العالمية الثانية: «الإرغونوميا[1587]»، والذي تأكد من خلال إنشاء جمعية الأبحاث في الإرغونوميا[1588] بلندن خلال عام 1949؛ وهو مصطلح جديد يعني في أصله الاشتقاقي «قانون القوة». ولا يعني هذا أن القانون كان مجهولا، بل على العكس من ذلك، لقد اخترعه علماء الميكانيكا في القرن السابع عشر، وقد عمقه علماء «الميكانيكا الصناعية» في القرن التاسع عشر، وقام مهندسو عشرينيات القرن العشرين بتنظيمه. وتمكن الجدة هنا في عدم تفضيل النتيجة العملية على راحة «العامل» ورفاهيته، وذلك بحماية الذات والوقاية قبل العمل؛ وهو ما يشرح المشروع (على الشكل التالي):

جميع المعارف العلمية المتعلقة بالإنسان، والضرورية لتصميم الأدوات والآلات والأجهزة التي يمكن استخدامها بأقصى قدر من الراحة والأمان والفعالية[1589].

إن الديناميكية القديمة، التي يفترض منها تهيء الحركة، قد صارت أكثر شدة في نمط جديد. ويكمن التحدي في اختراع إفادة «ملائمة»، وهي «امتياز» يتمحور حول الفاعل نفسه، وتدعم موافقته، وتعزز أحاسيسه، إلى غاية الآليات العادية جدا. وشكلت الحركات ووضعيات البدن الأهداف الأولى، و«الدفاع عن

(1586).Ibid.

(1587). انظر:

Antoine Laville, L'Ergonomie, Paris PUF, 1976, p. 5.

(1588). W. F. Floyd et A. T. Welford (dir.), Symposium on Fatigue, Londres, H. K. Lewis, 1953, p. 1.

(1589).Antoine Laville, L'Ergonomie, op. cit., p. 12.

النفس» يسبق «الفعالية الذاتية»: الحمالون خصوصا؛ حيث يؤثر أي رفع «بظهر معقوف» بسحق «الأقراص الفقرية[1590]»، وبالتالي تم الإلزام بأن يتم رفع الأشياء «بظهر مستقيم»، وأن تكون وضعيات البدن «المنعقفة بشدة[1591]»، إنما تقوم بمجهودات غير مفيدة، ومن تم ضرورة أن يكون الجسم في وضعية عمودية، و«إبقاء الذراعين أمام البدن أو في جنبه[1592]»؛ مما يضاعف التوترات المفرطة، وبالتالي ضرورة تقريب الأشياء (من البدن). أو وضع الرافعات، «عند ارتفاع الكتفين حينما نعمل واقفين [...] وعند ارتفاع الكوع عند العمل جالسين[1593]». والغرض من الإنجاز (هذه الأعمال) هو أن يكون إنجازا «سهلا»، إن لم يكن ممتعا. ومنه استكشاف ألم، لم يكن يعرف، آنذاك، والدعوة لتصحيح وضعيات البدن التي لم يكن أحد يسائلها إلا نادرا؛ وكذلك المطالبة بمراجعة فضاء الجسم مثلما نراجع الفضاء المحيط؛ واستكشاف جديد للضوضاء والرطوبة، والضوء والحرارة والاهتزازات والأرضيات؛ وكذلك الإصرار على الحاجة إلى «مراعاة الخصائص البشرية المتعددة، الحسية والفكرية والحركية والتكيفية، وكذلك الأبعاد وآثار جو العمل على أشكال الأداء[1594]». وهو تنوع سبقت مواجهته، ولكن تمت مواجهته بشكل أكثر منهجية وموجها عمدا نحو الوقاية.

(1590).Étienne Grandjean, Précis d'ergonomie : organisation physiologique du travail, Paris, Dunod, 1969, p. 33.
(1591).Ibid., p. 27.
(1592).Ibid., p. 28.

(1593). انظر:

Frans Thomas Kellermann et al., Vademecum d'ergonomie destiné à l'industrie, Paris, Dunod, 1964, p. 67.
(1594).Wesley E. Woodson, Peggy Tillman et Barry Tillman, Human Factors Design Handbook : Information and Guidelines for the Design of Systems, Facilities, Equipment, and Products for Human Use (1966), cité par Henri de Frémont et Michel Valentin, L'Ergonomie : l'homme et le travail, Paris, Dunod, 1970, p. 8.

كما تم استكشاف وضعيات الجلوس، خصوصا، أكثر من ذي قبل، الشيء الذي كشف في هذه الخمسينيات، عن الحضور المتزايد للمهن التي لا تحتاج للقوة. ومن ثم الاختراع الذي لم ينصب لأثاث يفترض منه أن ينشط خطة عمل تكون في متناول اليد: «مقعد دوار»، و«مقعد معلق»، و«مقعد بذراع متحركة»، و«مقعد منزلق»، و«مقعد قابل للسحب[1595]». أو لوحات التحكم هذه التي فحصت بأكبر قدر ممكن لتبسيط وتوضيح أفضل لعملية تطبيق واستخدام الأوامر والإشارات المعطاة[1596].

تقاطع بين النماذج الفيزيائية

لكن يبقى من المستحيل، بعيدا عن الإرغونوميا، تجاهل أشكال التقدم العلمي، وتقاطع النماذج الفيزيائية، والإحالات التي جددت، بعد الحرب العالمية الثانية، مجموع المعالم العضوية (البدنية). فالكل صار يتعمق، ويخضع للهرمية، ويتلاقى، وأعاد تعريف، كما لم يحدث من قبل، صورة «وحدة» بيولوجية، مع نتائج فورية على رؤية الدفاعات الجسدية، وتوفير أكبر عدد ممكن من المعايير التمثيلية التي تعطي معنى لعمل الجسم.

يأتي إنفاق الطاقة في المقام الأول، (على) صورة مألوفة للنار، وديناميكية تستمد قوتها من «أكسدة ونزع الهيدروجين[1597]». وتكمن الجدة، من ناحية أخرى، أي الدقة المتزايدة للأرقام، في تقييد هذه الطاقة نفسها، تلك الخاصة بتصنيفها المتزايد، إلى غاية وضع معايير عالمية تقريبًا. وقد وضعت منظمة الأغذية والزراعة للأمم

(1595).Camille Simonin, « Prévention de la fatigue », in Médecine du travail, op. cit., p. 1024-1025.

(1596).Frans Thomas Kellermann et al., Vademecum d'ergonomie destiné à l'industrie, op. cit., « Panneaux », p. 74.

(1597).Pierre Bugard, La Fatigue : physiologie, psychologie et médecine sociale, Paris, Masson, 1960, p. 20.

المتحدة[1598] من الناحية الإحصائية، في عام 1945، حصة «عامل متوسط» عند 3200 سعرة حرارية، وهو تقويم مشابه تقريبًا لتقويم بداية القرن العشرين، مع التركيز على التفاصيل؛ حيث يعتمد هذا القياس الكمي على الحفاظ على الوزن كمعيار صحي؛ ويتعلق الأمر بشخص يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا يزن 65 كيلوغرامًا؛ وهو ينخفض إذا تعلق الأمر بالمرأة (تنخفض 500 سعرة حرارية)، وإذا كان وزن الجسم أكبر (إضافة 350 سعرة حرارية لكل 10 كيلوغرامات إضافية)، وإذا كان الشخص يمارس الرياضة (إضافة 500 إلى 1000 سعرة حرارية). وهو ما يحافظ، على التمييز بين الرجال والنساء، مع دمج وجود أنشطة ترفيهية جديدة. (لكن مع) توضيح إضافي: وهو أن الأفراد الذين لم يتناولوا طعاما لمدة أربع وعشرين ساعة يكونون مكرهين على زيادة سرعة نبضهم وتنفسهم. بهذا تضمن التغذية، بمعنى آخر، وتثبُتُ «المردودية». ليس الأمر جديدا؛ (لأنه) لا يمكن للعضلة أن تعمل بدون تستقبل، «فلكل وحدة زمنية، طاقة معينة[1599]».

إن هذا النموذج، وقد تمحور حول العلاقة بين المدخلات والمخرجات، يرتبط بنموذج بآخر، وهو نموذج الشبكة الكيميائية، وهو صورة أولية تنمو مع القرن العشرين: بتنظيم الجسم وتعديله المستمر ورسائله الداخلية وقوته الوسيطة، فكلها تشارك في «مد الطاقة» للمجموع. مثل الهرمونات المتباينة، وتنسيقها «للوظائف العضوية[1600]»، و«توازنها» أو «اختلال توازنها» الذي يؤثر حتمًا على التعب. وتتحد الأمثلة إلى درجة (أنها تشكل) نظاما : (مثل) الأنسولين الذي يعزز دخول السكر إلى الخلايا، والثيروكسين الذي «يعزز وظائف الجهاز التنفسي

(1598).Bernard Metz, « Principes physiologiques d'alimentation des travailleurs », in Médecine du travail, op. cit., p. 129.

(1599).Jean Scherrer et Hugues Monod, « Point de vue physiologique sur la fatigue », in Léon Chertok et Michel Sapir (dir.), La Fatigue, IIIe Congrès international de médecine psychosomatique, Toulouse, Privat, 1967, p. 18.

(1600).Encyclopædia Universalis, Paris, 1968, art. « Hormones ».

والدورة الدموية[1601]»، والبيتويترين الذي يساهم في «تقلص العضلات الملساء[1602]»، ويتم استكشاف جميع الإفرازات بشكل لا ينتهي بواسطة علم وظائف الأعضاء. والمعادن، بعد ذلك، والحديد، تعزز أكسدة وعملية «الحرق»، والكالسيوم، لصالح تمتين الهيكل العظمي وتخثر الدم[1603]. والفيتامينات، أخيرًا، كمواد تم تحديدها حديثًا، تضاف إلى التنظيم بجرعاتها الصغيرة والحيوية: فيتامين س يساعد في الأكسدة[1604]، فيتامين ب يساعد على التخلص من نفايات العضلية [1605]، كما يساعد فيتامين E على التقوية العصبية، والذي «بالكاد نعرف مصدره[1606]». (والنتيجة هي أن) أنظمة (الحمية الغذائية) قد تغيرت جذريا.

لم يسبق أن أخذ جدول الحصص (الغذائية) هذا النموذج الشبكي، مضاعفا من خاناته، ومضيفا ملاحظة نوعية تقريبًا إلى الإحالات الكمية فقط. وصاغ المجلس القومي للبحوث، تحت هذه الصورة، في نهاية الحرب العالمية الثانية، توصياته بشأن جرعات الفيتامينات والمعادن، مستكملا أعداد السعرات الحرارية التي لم تتغير، 3000 بالنسبة إلى «النشاط العادي»، و4500 لـ «العمل المضني[1607]». وتتأرجح مصادر التعب هنا حول المكونات وأشكال نقص التغذية. وأصبحت التقويات أكثر تعقيدًا وازدادت المراقبات. فبات من المستحيل الالتزام فقط بالمؤشرات، والتي كانت دقيقة منذ طويلة، على الكربوهيدرات والبروتينات والدهون، مثلما اقترحت الأنظمة (الغذائية) للتعاونيات؛ حيث يجب إضافة الفيتامينات والمعادن. ومن ثمة الانتقادات

(1601).Georges Bresse, Morphologie et physiologie animales, Paris, Larousse, 1953, p. 784.
(1602).Ibid., p. 809.
(1603).Ibid., p. 460-461.
(1604).Henri Coutière, Connais tes outils : diastases, vitamines, hormones, Paris, C. Béranger, 1943, p. 79.
(1605).Ibid., p. 69.
(1606).Ibid., p. 99.
(1607).National Research Council, Reprint, no 122, Washington, Office of Medical Information, 1945.

الجديدة التي وصمت «بعض مقاصف» المصانع، التي اعتبرت مهملة لمثل هذه الجرعة «النوعية»، مما يسبب «حالات غير معروفة من التعب[1608]».

بقي هناك نموذج أخير، الشبكة العصبية، الذي يفترض فيه أن يهيمن على الكل، وذلك بأن فضل القيادة والتحكم، من فوق في الأعضاء والوظائف. بيير بوجارد، الذي درس سباق التجديف في أوائل الستينيات، ولاحظ زيادة في «إفراز البول من 17 سيتسترويد[1609]»؛ وهو هرمون يعزز تدهوره عمل العضلات، ومع ذلك كانت النتيجة متطابقة بالنسبة إلى موجه دفة القارب وإلى المجدفين، في حين أن الأول لا يمكنه القيام بنفس الجهد. ومن هنا النتيجة الحتمية: وهي أن «العوامل النفسية[1610]»، تلك الخاصة بأفعال إرادية و(اتخاذ) القرارات، وتعبئة الإمكانات، و«القوى»، وإن كانت عديمة الفائدة، وبالاستجابة «لعوامل ضاغطة»، تصدر ردود أفعال وتصلب ضدها. ودرس برنارد ميتز الرياضيين والعمال الذين يتناولون «كميات بروتين أعلى بكثير[1611]» واستخدامها المحتمل والذي يحسن مع ذلك أداءهم، والذي يكشف، بالتالي، «تأثيرا نفسيا-فيزيولوجيا[1612]» أكثر مما هو فيزيولوجي. ويظل «الجهاز العصبي المركزي» هو «الجهاز ذو الأولوية[1613]»، وهو نموذج يحتوي أو يتحكم في نموذج الطاقة، مثل ذلك النموذج الخاص بالكيمياء.

يظهر في الأخير، أن دورا رئيسيا لا يقل أهمية في (حالة) الاختلالات، بمضاعفة الاضطرابات والانحرافات حينما تتجاوز التغلب على المقاومات

(1608).Pierre Bugard, La Fatigue, op. cit., p. 265.
(1609).Pierre Bugard, L'Usure par l'existence, op. cit., p. 17.
(1610) .Ibid.
(1611).Bernard Metz, « Aspects physiologiques et psychologiques de la fatigue », op. cit., p. 132.
(1612).Ibid.
(1613).Pierre Bugard, L'Usure par l'existence, op. cit., p. 22.

العصبية، أو حينما يتم تخطي القوى التفاعلية، وهو ما يفترض أن تظهره الكثير من أشكال التعب.

التفكير في موضوع «عام»

يمتد هذا التداخل بين النماذج الفسيولوجية بتداخل آخر: تداخل محددات خارجية، بتعدديتها، وتمثيلها في نسق. وهو تنوع شديد من أجل تفاعل عضوي هو نفسه أكثر توحدا من ذي قبل. وهو ما كشفته بالفعل فكرة «البدن» في العقود السابقة: إرادة (بلوغ) نظرة عامة، يمثلها «الضغط (النفسي)» أو مبدأ الاستتباب. ومنه اللجوء المتزايد والمتعمد لأكثر المقاربات تنوعًا، والرغبة في زيادة برنامجها كما لم يحدث من قبل.

وتكمن الجدة في أن نضاعف أكثر من أي وقت مضى «التأثيرات» الممكنة، مع تسجيل الأصداء (يعني الآثار) الأكثر تنوعًا والأعمق، مثلما (قد) تكون هذه الأصداء متقاربة، إلى غاية الأكثر غموضاً، واللجوء إلى العلوم الإنسانية والعلوم البيولوجية، وتحديد التواطؤ بين ما هو عضوي وما هو اجتماعي، لجعل التعب موضوعا «عاما»:

لقد تم تصور دراسة الإجهاد الإنساني في العالم الحديث في إطار روح نفسية-جسدية: فهي لا تهدف كثيرًا إلى الكشف عن الآليات الفيزيولوجية أو البيولوجية أو النفسية بشكل منفصل، بل إلى إظهار كيفية عملها كلها من خلال الشخصية العامة[1614].

إن الغرض من المصطلح «النفسي-البدني» هو أن يكون إطار برنامج في هذه الخمسينيات، بتفضيل «أثر النفسي والعمل العميق جدا لأحدهما على الآخر[1615]»، وتوسيع المسببات المرضية مع توحيدها. وهو ما يشير حتمًا إلى

(1614).Pierre Bugard, L'Usure par l'existence, op. cit., « Avant-propos ».

(1615).Henri Desoille, « Introduction », in Léon Chertok et Michel Sapir (dir.), La Fatigue, op. cit., p. 7.

تاريخ كل منها؛ حيث تعد دراسة ما هو فردي هي ما تطلب مقاربته بشكل أفضل: التجارب الأولى، والنقائص (الثغرات/ العيوب)، والعجز غير المتوقع أو المتكرر؛ والطريقة الأصلية للغاية للشعور بأنك خائر (القوى). مثل هذا التذكير الحاسم، صيغ لأول مرة وبوضوح: «إن التعب هو صيرورة قديمة، يجد من قبضة الإنسان على العالم؛ وفي وقت مبكر جدا من طفولته، يشعر الفرد بأن التعب هو حاجز يفصله عما لا يستطيع استيعابه[1616]». وهي تجربة تقع في قلب الكائن البشري، لا شك أنها مألوفة، ولكنها دائمًا جوانية ومرتبطة دائمًا بماض ما. والتعريف الأول، الأنثروبولوجي تقريبًا، يجعل التعب بشكل نهائي الرفيق الإلزامي، إن لم يكن رفيقا استفزازيا، لأي وجود ولأية تجربة. ومن هنا جاءت الإشارة، الواضحة جدا، إلى الشعور «الأصلي» تقريبا بالعجز:

لذلك من المثير للاهتمام أن نقترب من إرهاق الإنسان الراشد، كنكوص، وكعودة إلى التبعية، واستذكار لتجارب طفولية مؤلمة[1617].

ومنه الحذر الجديد، كالغنى الممكن في التفسير: «يشكل البدن كلا، وهذا هو السبب في أن التعب واحد ومعقد[1618]». أو بشكل مباشر أكثر: «يتعلق بمفهوم عام، يشكك في مكانة الفرد بأكمله في وضعه الوجودي[1619]». وهكذا ضاعفت الدراسات التساؤلات، وذلك بالدفع بعيدا ما كان قد اقترحه مصطلح الضغط (النفسي)؛ وذلك بإحداث تشابك، بين «الأعباء» و«الضغوط»، وبإنشاء لوائح[1620]، غير تامة تقريبًا، من محددات ممكنة: سوابق (تاريخ) عائلية، وسوابق

(1616).Pierre Bugard, L'Usure par l'existence, op. cit., p. 13.

(1617).Ibid., p. 46.

(1618).Henri Desoille, « Introduction », op. cit., p. 12.

(1619).Michel Sapir, M.-J. Flouest, Françoise Lugassy, « La fatigue du cadre supérieur, de l'ouvrier spécialisé et de l'étudiant », in Léon Chertok et Michel Sapir (dir.), La Fatigue, op. cit., p. 251.

(1620).Michel Duc, H. Viniaker, Dominique Barrucand, « La fatigue symptôme et la fatigue syndrome, leur diagnostic différentiel en milieu hospitalier », in Léon Chertok et Michel Sapir (dir.), La Fatigue, op. cit., p. 65.

شخصية، وظروف نفسية-اجتماعية، وصحة الحياة، وقِدَمُ التعب، وظروف ظهوره، شدته، وعلاماته المباشرة، والعلامات المصاحبة له إلخ. مثل تعب الربان، الذي لم يعد مرتبطًا فقط بالتعديلات الهرمونية أو الأحاسيس التي نشعر بها، وهو ما توضحه شهادة ليندبيرغ الطويلة، ولكنه مرتبط بـ «صدمات انفعالية» ويتعددها الذي قد يكون غير محدد، وبـ «الخوف من حادث»، وبالرغبة في الحضوة وعقباتها أو نجاحاتها، بـ «الظروف الاجتماعية غير المواتية» وبـ«صعوبات (مشاكل) أسرية»[1621]. الإحالات نفسها بالنسبة إلى السائق سيارة أو سائق الشاحنة. مثل حادث سائق تسبب انزلاقه في إصابة خطيرة للغاية، بعد رحلة مستمرة لستمائة كيلومتر، والذي استجوبه جاك فيسارد وكريستيان ديفيد، و(بدا) التفسير مترددا (بين): مدة الجهد؟ إكراه وقت الوصول؟ التوتر المضاعف بسبب المواعيد اللاحقة، والمخطط لها، في الوقت نفسه تقريبًا، مع العشيقة والزوجة؟ (لذلك) تبقى الاحتمالات متعددة؛ (بحيث) لا يمكن للاستنتاج أن يحسم: «(هل) هي الحوادث، أو ما هو نفسي-جسدي (بسيكوسوماتيكي)، الإرغونوميا، فهي مصطلحات تختلط وتتداخل فيما بينها باستمرار[1622]». أو «تعب المسير» أيضا، والذي يأخذ بعين الاعتبار الصراعات الخاصة والعلاقة مع نجاحه الخاص، والإفراط الممكن في اعتداد بالذات، وكذا الشعور «المحتمل بالذنب»[1623]. ويعود التحدي، كما يؤكد كلود فايل وهو يستكشف «الإنهاك» في عام 1958، إلى «التقاء فرد وموقف[1624]» أو، بشكل أفضل، إلى التجربة التي نواجه بقدر ما يعود إلى الشخصية المعنية. ومنه جاء

(1621).R. A. McFarland, « Operational Fatigue in Aviation », Aero-Medical Association, 1958, cité par Pierre Bugard, La Fatigue, op. cit., p. 185.

(1622).Christian David et Jacques Fessard, « Fatigue et accidentéisme routier », in Léon Chertok et Michel Sapir (dir.), La Fatigue, op. cit., p. 195.

(1623).Pierre Bugard, La Fatigue, op. cit., p. 171 sqq.

(1624).Claude Veil, « Les états d'épuisement » (1958), Vulnérabilités au travail : naissance et actualité de la psychopathologie du travail, Toulouse, Érès, 2012, p. 178.

التحليل الإلزامي للحاضر والماضي، ولبروفايل (الذي يتطلبه) المنصب مع الأجير.

ضاعفت الدراسات موضوعاتها، مستكشفة الخصائص الشخصية وأنواع الفضول، والأشياء المباغتة. ومنه هذا السؤال الذي يتكرر، من بين أسئلة أخرى: لماذا يحس العامل نفسه، من يوم إلى آخر، بتعب مختلف في عمل هو نفسه (لا يتغير)[1625]؟ فالأحاسيس، من بين أخرى، قد تكون علامة على ذلك، (أضف إلى ذلك) أرجلا أثقل، وحركات أبطأ، وزيادة في الخمول[1626]، مما كشف عن الاهتمام المتزايد بالجوانية. وكانت الأسباب على وجه الخصوص متنوعة بشكل لا نهائي: تغيير الوضع العام أو الضوضاء أو الحرارة أو الرائحة أو الرطوبة؛ وتغيير تقدير العمل من خلال التشجيع أو التوبيخ؛ والتكرارات غير المرغوب فيها، وإنجاز تقرير، وتقديم حساب، وتفاعل مزعج؛ والتغيير أيضا في وضع الذات تحت التصرف، وتصنع «الثقة في الذات»[1627]، لأسباب أكثر تنوعًا. وحيث يزداد حتما تحليل العمل تعقيدا، بأن يهدف إلى مقاربة «شاملة[1628]»؛ فلا ينبغي تجاهل أي جانب له تأثير.

صارت الدراسة الطويلة جديدة ونموذجا، تلك التي أجريت على التعب في إطار غير معتاد، ولكنه إطار دال للغاية، أي للبعثات القطبية الفرنسية في نهاية عام 1950[1629]. وقد تغيرت البيانات المحتفظ بها إلى أن يكون البحث شاملا،

(1625).Samuel Howard Bartley et Eloise Chute, Fatigue and Impairment in Man, New York-Londres, McGraw-Hill, 1947, en particulier « Personnal Factors in the Work Situation », p. 324 sqq.

(1626).Ibid., p. 331.

(1627).Ibid., p. 336.

(1628).Ibid.

انظر:

« Job analysis », « The worker is viewed holistically », p. 337.

(1629).Claude Nègre, La Fatigue en régions polaires, Paris, Publication des expéditions polaires françaises, 1961.

وذلك بفرض ثقل العمل البدني، المتعلق بالارتفاع والبرد، والمتعلق أيضا بالظروف النفسية أو العاطفية والدوافع، وبماضي الجميع أو حساسية كل واحد. فقد تركت الإقامة لمدة ستة أشهر، أولا، آثارا بدنية: فقدان الوزن، والاضطراب الهرموني، وعدم انتظام دقات القلب، وسرعة التأثر. وتفاقمت جميع الأعراض عند إضافة الشعور بالبعد، أو بظروف الاختلاط المزعجة، أو حينما يغدو البروفايل النفسي سببا للقلق، أو تزيد حالة القلق من الشعور بعدم الراحة أو الكآبة. وهكذا تصبح البعثة القطبية مختبرًا رمزيًا تقريبيًا من خلال التقاطع الشديد الذي يحدث بين الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى الإنهاك.

شجب «العمل المفتت»

وهكذا صارت المقاربات تعددية وأكثر تنوعًا في منتصف القرن العشرين. وهو ما لا تظهره دراسة العمل نفسه، مع مراعاة الآثار التي صارت معقدة أكثر من أي وقت مضى.

لا يعني أن التقليد يختفي على الفور؛ إذ لا يمكن لنقل بضائع ثقيلة، ولأعباء بدنية وأحمال مختلفة التخلي عنها في عديد من المهن بعد الحرب العالمية الثانية، (بل) ظلت حاضرة جدا تلك الممارسات «التي تهيمن عليها تعبئة القوة البدنية[1630]». ومع ذلك، حدث تغيير أول في مكان آخر: تحول في الحساسية، وتزايد نفور عند العديد من الناس من أعمال معينة تعتبر «صعبة» للغاية، تفضل، عن حق أو عن خطأ، الابتعاد عنها. وقد شجعت جميع الاضطرابات التقنية والجوانية (نفسية حميمية) ، والتي يمكن تحديدها بوضوح، على هجرة أجنبية، هجرة من بلدان الجنوب خصوصا، إلى البلدان الصناعية الأوروبية في الستينيات. فقد غير «الألم» مكانه ثقافيا واجتماعيا. وظهر فاعلون جدد. وانعكست أشكال التعب. ومثال - من أمثلة أخرى - هو رحلة فيليكس مورا الطويلة، وهو يطوف خلال هذه

(1630).François Dubet, Le Temps des passions tristes, Paris, Seuil, 2019, p. 22.

السنوات نفسها منطقة سوس بالمغرب، لاختيار، وذلك «بمساعدة السلطات المحلية، رجال شباب للعمل في تعدين الفحم[1631]». وقد تمت دراسة (أثر) الأصول الجغرافية لهذه الإضافة منذ فترة طويلة والتي تعكسها الأرقام التالية: كان عدد الإسبان على الأراضي الفرنسية 289000 في عام 1954 و607000 في عام 1968؛ عدد البرتغاليين 20000 في عام 1954 و759000 في عام 1975. يمثل هؤلاء 22 ٪ من السكان الأجانب في فرنسا في ذلك التاريخ؛ أي الأقلية الأولى. وبعدهم جاء الجزائريون الذين بلغوا 711 ألفًا عام 1975[1632]. قوة عاملة أكثر صمتا، وأكثر صبرا على الأعمال الشاقة، وكتومون على التعب الذي يعيشونه. لا شيء سوى «علاقات عمل غير مستقر عند أجراء مستقرين ونظاميين (قانونيين)[1633]». تنضاف إلى ذلك إذن «أشكال من التعب العام» من النادر جدًا أن تم استكشافه، في خلط بين «الإجهاد البدني»، و«عدم الاستقرار العاطفي» و«صيرورة التثاقف»[1634]. مثل هذه الأشكال من «الوهن على المدى الطويل» عند العمال الأجانب، تم رصدها منذ الخمسينيات، والتي تعود لفقر في الاندماج الدينامي لشخصيتهم[1635]. وأشكال من العجز العديدة والمعقدة؛ حيث تتضاعف «العناصر التفاعلية مع الأحداث المعيشة[1636]».

(1631).«Travailleuses et travailleurs immigrés en France», Marie-Christine Bureau, Antonella Corsani, Olivier Giraud et Frédéric Rey (dir.), Les Zones grises des relations de travail et d'emploi, Buenos Aires, Teseo, 2019 :
https://www.teseopress.com/dictionnaire/chapter/229/

(1632).musée de l'Histoire de l'immigration, Paris, https://www.histoire-immigration.fr/.

(1633).« Travailleuses et travailleurs immigrés en France », op. cit.

(1634).E. Elser-Falik et H. M. Raveau, « Fatigue-symptôme de l'acculturation des Africains en France», in Léon Chertok et Michel Sapir (dir.), La Fatigue, op. cit., p. 173.

(1635).Ibid., p. 177.

.(1636)Pierre Bugard et Pierre Bernachon, « Étude psychosomatique d'une asthénie au long cours », in Léon Chertok et Michel Sapir (dir.), La Fatigue, op. cit., p. 180.

هنالك تحول، وهو تحول مهم في هذه السنوات نفسها، إلى التطوير على نطاق واسع للعمل المتسلسل: «تقسيم المهام في أكثر فروع الإنتاج تنوعًا[1637]». وقد انتشر اختراع هنري فورد القديم على نطاق واسع، وأصبحت الرغبة في «التقليص لأقل درجة من المهارة[1638]»، في منتصف القرن، أولوية. وتراكمت الأوصاف: خمس وستون محطة عمل متباينة في شركة ميدلاندز لصنع سترة واحدة، وحركات بسيطة قام بها شخصان مختلفان على سلسلة قارورات، وترتيب الورقة التي تشير إلى العلامة (التجارية) في الأول، وإلصاق نفس الورقة بواسطة العاملة التالية؛ أو رؤية «الأسطورية» لزائر معمل تعليب عام 1948، (قائلا): «تدفق العلب المدفوعة في حركة مستمرة وصاخبة، على قضبان متشابكة، والتي تمر بمحاذاتنا أو (تمر) منتشرة فوق رؤوسنا[1639]».

تراكم النقاد أيضًا. إن انتشار الحركات الجزئية، والشعور بأنها صارت شبه كونية، جدد حتماً التحليلات حول أشكال العياء المعنية (هنا). لم يعد فقط الاهتمام موجها لبعض التعب «التوتري» الذي ذكره تشارلز مايرز في سنوات الثلاثينيات، ولم يعد هناك إصرار وحيد على «الضجر» و«الرتابة»، وإنما الاهتمام بشكل عام بمعنى الحركة، وبدوره في الوعي الفردي، وتأثيره على صورة العمل نفسه. ومن هنا جاءت هذه الروابط الأولى في علاقة بـ «توزيع دقيق للحركة» والتعب الذي يشعر به (العامل): (أي) المكان المعطى للإحباط، وللمكان الآخر الممنوح للإحساس بعدم الرضا، وبالنقص. وفي هذا تفسير، تمت مراجعته، يربط أكثر من قبل استحالة تحقيق الذات الشخصية وتحدياتها، من خلال التعمق في معنى النشاط نفسه؛ حيث أصبح «العمل المجزأ» «متعبًا» لأنه يمحو أي التزام وأي قصد من لدن الفاعل. إنه «يفصلك عن جسدك»، علاوة على اليأس العمالي المثار

(1637).Georges Friedmann, Le Travail en miettes : spécialisation et loisirs (1956), nouvelle édition augmentée, Paris, Gallimard, « Idées », 1964, p. 32.

(1638).Propos d'un manager d'une grande usine d'automobile britannique en 1948, cité par Georges Friedmann, ibid.

(1639).Ibid., p. 33-48.

قبل بضعة عقود. إنه يهم الفرد كفرد، بينما ينفيه. إنه يُجهد بسبب الافتقار إلى المبادرة، ويكسر إلى أن يتم فهم الحقائق. ويعرض **جورج فريدمان** إحصاء كبيرا له في أوائل الستينيات؛ حيث يجدد إلى حد كبير الآثار التي تمت دراستها حتى الآن: الشعور بفقدان الشخصية، والشعور بالتبادل بين الفاعلين (العمال)، والشعور بعدم اكتمال الفعل(1640). حتى أن **كاميل سيمونان**، نائب رئيس المجلس الأعلى للطب المهني واليد العاملة في عام 1950، رأت فيه عودة للـ «عبودية التي زُعم أنها قد ألغيت(1641)». ومنه الباثولوجيا التي تم تشخيصها آنذاك: «الأضرار الفيزيولوجية والعصبية»، والتي زادت من شدتها استحالة «عمل الشخص بإيقاعه الشخصي»، والذي استنبت (في الذات) «سرعة الانفعال، والاضطرابات، والعصبية»(1642). والشهادات غير المسبوقة أيضًا التي تصف العياء بمصطلحات الغضب والأزمة، وحتى الثوران الشديد، يجمع بين «الانفعال/ التأثر» و«الأعصاب»، والسأم والتوتر. إنه مناخ المفاجأة، وردود الفعل المفاجئة وإن لم تكن عنيفة، الشيء الذي يثبت مرة أخرى مقدار «التعب العصبي الذي يجب أن يتعارض مع التعب البدني(1643)». مثل «الغضب الشديد/ السعار»، والانفجار العنيف لزميلة **ماري فرانس بيد-تشاريتون**: «التي تجاوزها التعب، والخوف من عدم القدرة على تحقيق مردوديتها، وردات الفعل المهينة لرئيس العمال [...] فبدأت بالصراخ، بعد أن بلغت نهاية صبرها، وإلقاء الحديد والبلاتين ومكونات (أخرى) بعنف(1644)». انفعال آخر لخراط تجاوزه إيقاع مفروض (في العمل): فـ «في غضون بضعة أيام، حدث لخَرَّاطَيْنِ انهيار عصبي؛

(1640).Georges Friedmann, Le Travail en miettes, op. cit., p. 248-250.
(1641).Camille Simonin, « Examens médicaux périodiques », in Médecine du travail, op. cit., p. 869.
(1642).Peter F. Drucker, La Pratique de la direction des entreprises (1954), trad. Bureau des temps élémentaires, Paris, Éditions d'Organisation, 1957.
(1643).Pierre Bugard, La Fatigue, op. cit., p. 56.
(1644).Marie-France Bied-Charreton, Usine de femmes (1978), Paris, L'Harmattan, 2003, p. 162.

فقد صار لونها شاحبا وشعرا أنها فقدا أنفاسهما»[1645]. أو، وبشكل أكثر إثارة للدهشة، الانتهاء في مستشفى بيلفيل للطب النفسي لرفيق نيكولاس دوبوست، لعامل في فلينز في السبعينيات؛ وهذا الاستنتاج الخالي من الأوهام: «غالبًا ما يكون للعمل المتسلسل تأثير على الأعصاب أكثر من تأثيره على التعب العضلي»[1646]. إنه يخون امتلاك الذات.

التأكيد على «الازدهار»

تلك، مع ذلك، مفارقة لا جدال فيها: ففي الوقت الذي مالت فيه العديد من حالات العمل نحو التفتت، مما يشير إلى بعض من فقدان المعنى، فقد تعهد المجتمع الغربي باكتشاف «فن عيش» جديد، أكثر سعادة، وأكثر «ازدهارا»؛ فن «الرفاهية»[1647]. وهو تعبير أساسي، مرتبط بقدر كبير بالارتفاع البطيء في الحاجيات الفردية، وكذلك بزيادة العرض الاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية. تمنح هذه «الرفاهية» نفسها على أنها «القيمة الأساسية في العصر الحديث»[1648] على حد تعبير برنار كازيس وإدغار موران وهما يكتبان مقدمة لعدد من مجلة أرغيمون في مارس 1961، الذي خصص لأول مرة، لهذا الموضوع. فقد غيرت الثورات التقنية، وتنظيم تدفقات الغاز والمياه والكهرباء في المنازل، واللجوء إلى الائتمان، وخفض التكاليف من عالم حركات الجسم؛ أي عالم الفضاء القريب أو البعيد؛ «(حيث) تكاثرت الأدوات اليومية وتضاعفت الحاجات»[1649]. وركزت الإعلانات الأمريكية للسنوات 1950-1960، التي ألهمت أوروبا بسرعة كبيرة، على «آلية» الأدوات المنزلية غير المعروفة حتى ذلك الحين: المطهيات التي تتم برمجتها في الأفران، وغسل الأغطية والملابس في آلات، وتحميص الخبز في

(1645).Tommaso Di Ciàula, Tuta blu (1978), Paris, Actes Sud, 2002, p. 29.

(1646).Nicolas Dubost, Flins sans fin, Paris, Maspero, 1979, p. 40.

(1647).« La nouvelle Belle Époque », Paris Match, 12 janvier 1963.

(1648).Bernard Cazes et Edgar Morin, « La question du bien-être », Arguments, no 22, 2e trimestre 1961, p. 1.

(1649).Jean Baudrillard, Le Système des objets (1968), Paris, Gallimard, 1975, p. 7.

«آلات محمصة»، وعصر الفواكه في معصرات (كهربائية). فقد تعزز «المنزل الحديث» بتيسير «سحري[1650]»، كما تؤكد العلامة التجارية لرينولدز ألمنيوم في عام 1956، عالم «جاذبية وفعالية[1651]»، كما تصر، في الوقت نفسه، العلامة التجارية ريبابليك ستيل كيتشينز. فقد تحولت «ربات البيوت»، فتراهن إما يتصلن بالهاتف أو يقرأن أو يتجهزن (للخروج)، أو حتى يراقبن آلاتهن تقوم من دونهن بمهامها. (يتعلق الأمر إذن) بأجهزة جديدة لن تكتفي بتبسيط حركات الجسم فقط، مثلما سمح بذلك تعاقب الاختراعات، منذ فترة طويلة، ولكن بأن تحتل مكانها، وأن تمحوها، محولة عالم المنزل بشكل لم يسبق له مثيل. في حين بقي تمثل المرأة هو نفسه لم يتغير، بما هي حارس المنزل الوحيد، وقد وُجِّهَتْ، وفقًا لهذه الرسائل، صوب أنشطة لا تزال تمنع استقلاليتها، حتى ولو كان العمل الأنثوي قد تأكد سلفا في منتصف القرن.

يُفترض في «الرفاهية»، التي روج لها خلال سنوات 1950-1960، علاوة على ذلك، أن تتجاوز المنزل، وذلك بتقليص الفضاء والزمن عبر تعديل المجهود اليومي عن طريق وسائل النقل، والاسترخاء المنتظم خلال أوقات الفراغ. وهي طريقة أخرى للتخفيف من التعب المنتشر، بل قل التعب اليومي، من خلال مكننة دائمة للوسط، ولتخفيف للآلام، و(نشر) لثقافة التسلية. ألحت افتتاحية **باري ماتش** في 12 يناير 1963 على «ازدهار جديد»: (أي على) «نوع من الرفاهية الناعمة والعميقة التي بدأت تسيطر تدريجياً على البلد، وجعلت المناطق المظلمة والتعيسة تتراجع، وإن ببطء، لكنه تراجع حتمي[1652]». بل حتى الأشكال المادية نفسها صارت تسمح بحلم محو بعض المجهود: الديناميكا الهوائية للآلات

(1650).Jim Heimann (dir.), 50s, All-American Ads, New York, Taschen, 2001, p. 398.
(1651).Ibid., p. 402.

انظر أيضا:

Susan Strasser, Never Done : A History of American Housework, New York, Pantheon Books, 1982.

(1652).« Éditorial », Paris Match, 13 janvier 1963.

والمحركات التي صارت تعد بخيال الطيران، والولاعة، التي يفترض فيها «أنها قد تعاقدت مع اليد[1653]»، صارت تعد بإلغاء حركة (الجسم واليد)، وسمك الأرضيات الداخلية (للمنازل والمنشآت) يعد بتلطيف الخطوة (أي خطوات الأقدام). وروجت الإعلانات والشعارات اضطرابًا في «الأشياء»: (أي) مرونتها المرافقة لجمالها وإمكاناتها مع القدرة على تطويعها. إنه «نمط حياة» لم يسبق له مثيل ومتقاسم اجتماعيًا، صار ينتشر ويوحد مع الحفاظ على الاختلافات وفقًا للثقافات الاجتماعية و«المستويات»، والبيئات: من العلامة التجارية للسيارات إلى حجم الشقق المنزلية، من اختيار العروض إلى أنواع الإجازات. مع الحفاظ، مهما كان الوضع، على مخيال المساواة. وهو ما يقترحه تأويل **فيليب بيرو** الحصيف:

ترافق مطلب المساواة، الذي كان في البداية مطلبا دينيا ثم صار سياسيا فيما بعد، وهو يشهد على الانتقال من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث، المجتمع الفرداني، (ترافق) بهوس مقارناتي، وبقهر محاكاتي - يولد أحلاما وطموحات وإحباطات - جديد تمامًا في طبيعته وكثافته وامتداده[1654].

ورغم ذلك تراكمت النتائج، واعتبرت أنها بمثابة فتوحات، بدءًا من الثلاجة إلى المكنسة الكهربائية، من الإلكتروفون إلى التلفاز، من آلية الراحة إلى آلية النقل، وكلها علامات على انغماس في الذات تمت مراجعته إلى حد كبير. بل حتى وجود «حرية جديدة» صار يستدعي، حتى لو كانت «عبئًا تحمله أمر رهيب ووجد الإنسان صعوبة في التعود عليه[1655]». [يتعلق الأمر في الأخير] بتعب[جديد] في اتخاذ قرار، بلا شك، وفي الاختيار، وفي توجيه الذات، وتعب من تحقيق الذات في «حرية» جديدة، وهو ما حدده **الآن ايرنبرغ** بوضوح بأنه «تعب كيف تكون

(1653).Jean Baudrillard, Le Système des objets, op. cit., p. 62.

(1654).Philippe Perrot, « De l'apparat au bien-être : les avatars d'un superflu nécessaire », in Jean-Pierre Goubert (dir.), Du luxe au confort, Paris, Belin, 1988, p. 46.

(1655).Michel Crozier, « Défense du bien-être », Arguments, no 22, 2e trimestre 1961, p. 47.

أنت[1656]». وهو ما وصفه **جورج بيريك** أيضًا في كتاب «الأشياء»، مع هذه الشخصيات التي «ينهكها العيش الأفضل [1657]»، وضحايا «المزيد» مزعج ولا يتوقف.

من المستحيل أن نتجاهل هنا أن «ميزة التطور التقني والصناعي هي خلق احتياجات جديدة باستمرار: يعني تحويل مفهوم الرفاهية وتوسيعه[1658]»؛ من المستحيل تجاهل قبل كل شيء كم، وفقًا لمستويات المعيشة، يستمر التعب في التعبير عن نفسه، ويختلف من مقياس إلى آخر، بلا شك، لكن يمكن تحديده دائمًا، مخترقًا اليومي، حتى في أشكال متحولة ومتباينة: (أي) الشعور بنقص لا يمكن مقاومته، بالنسبة للبعض، والذي ينجم عن الاستثمار المستمر في (البحث عن) شعور أفضل، وشعور بالإنهاك، بالنسبة إلى آخرين، آت من مهام غير متحكم فيها. وبالتالي، فإن «الرخاء»، الذي تم ترسيمه، لا يمكن أن يكون فجأة تاما، بل عزز شعورا بالنقص؛ ومن تم شعورا بالتعب. بل إن هذا الاقتناع الثابت بالتقدم، في منتصف القرن العشرين، كشف عن العياء تحت شكل جديد، عياء يتكرر دائما من جديد.

والمميزات توجد في تلك الأجوبة التي عبرت عنها شابات برجوازيات في استطلاع أجرته مجلة **رياليتيه** في ديسمبر 1961: «موضوع محادثتهن المهم هو التعب، والتحمل، وصحة أزواجهن، والانشغالات المنزلية[1659]». لم يعد الارتقاء القديم في المنافسة البلزاكية (نسبة إلى **بلزاك**)، ولا «الكفاح (القديم) من أجل الحياة» للعقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، ومصادرها الجماعية، ولكن

(1656).Alain Ehrenberg, La Fatigue d'être soi : dépression et société, Paris, Odile Jacob, 1998.

(1657).Georges Perec, Les Choses (1965), in Christelle Reggiani (éd.), Œuvres, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 2017, t. I, p. 126.

(1658).Bernard Cazes et Edgar Morin, « La question du bien-être », op. cit., p. 2.

(1659).Michel Drancourt, « Les femmes de la bourgeoisie vivent-elles mieux que leurs grand- mères? », Réalités, no 191, décembre 1961.

بشكل غير مسبوق من الفردانية، ومن البحث عن وعد، «غير محدد»، وعد روج له الاستهلاك على أنه حاجة، وأن تعمل أكثر وما هو أفضل دائمًا: «لا تتوفر على دقيقة واحدة لنفسها»، تستنتج جَدَّة إحدى المستجوبات.

السمة هي أيضا تلك التي توجد في الكلام، وذلك على مستوى أكثر تواضعا، لـ «بائع الملابس الجاهزة» في فيلم كريس ماركر: **ماي الجميل** في عام 1963، معترفا بسعيه لبيع المزيد لعيش المزيد وأكثر من أي وقت مضى إلى غاية العطل؛ حيث يقول فيها ويتأن إنه قد أُنهك: «ما زلت أعمل، أعمل، أعمل!»؛ معترفا، بالقدر نفسه، كيف أن شعور زوجته يسير في الاتجاه نفسه: «وعندما أصل في المساء إلى المنزل: كم أنا متعبة». «أقول لها: أنت على حق، أنت متعبة[1660]».

هناك سمة أخرى، في الأخير، وعلى مستوى آخر، وهي كلام عامل المصنع في عام 1963 **بيير دويلو**، وهو «مصمم النماذج» في شركة رونو. فقد تحدثت عنه مجلة **ليكسبريس** ووصفته بتعبير «عامل الرخاء[1661]»، (لأنه) يملك رفقة زوجته، ما يسمى بالراحة الحديثة: «المكننة» المنزلية، والسيارة والمرآب والتلفاز. و(لكن في المقابل) بعض وسائل الاستجمام غدت تتدهور: العطل في البحر مرة كل عامين (فقط)، والمديونية المفرطة، والسيارة التي تزين «النزهات». (لكن) لا شكاوى محددة حول العمل. بينما هناك عيوب: مثل الانتقال الذي يعتبر طويلا جدًا، من سكن بوندي إلى مصنع بولوني، المغادرة على الساعة 5:30 صباحًا، والعودة الساعة 7 مساءً، وحركة المرور الكثيفة جدًا يوم الأحد، والعياء الكلي المرتبط بمدة الأيام: «حوالي الساعة 9 مساءً يكون **بيير دويلو** متعبا جدا إلى درجة أنه يسارع نحو النوم»، والذي يضاف إليه انطباع أكثر مرارة؛ «حيث يدفع العياء **بيير دويوث** إلى النوم بعد زوال يومي السبت والأحد»[1662].

(1660).Propos reproduits dans L'Express du 11 avril 1963.
(1661).« L'ouvrier de la prospérité », L'Express, 29 mai 1963.
(1662).Ibid.

(ويبقى) الاستطلاع الذي أجري في أوائل الستينيات، بلا شك أكثر تعبيرا، كجزء من المؤتمر الدولي الثالث للطب النفسي-البدني: في البحث عن الاختلافات أو أوجه التشابه بين تعب الطالب، وتعب الإطار، وتعب العامل؛ حيث كانت الإحالات بدنية أكثر في بعض الحالات، وعصبية أكثر في حالات أخرى، وأكثر حميمية أيضًا في حالات أخرى، ويبدو أن كل واحد يواجه تعبا يطيل نشاطه الخاص. بل وهناك (نوع من) التقارب من ناحية أخرى بين واحد وآخر، وهو تقارب أساسي، سيتم التأكيد عليه بوضوح لأول مرة؛ حيث سيفرض التعب نفسه بقوة أكبر حينما «ستعاش الوضعية كأنها معاناة[1663]». وهو ما تتقاطع فيه الحالات الثلاث. وهو ما يتوافق قبل كل شيء مع «أذى عميق للأنا، مع شعور بالإفناء[1664]» في مواجهة ما يُنظر إليه على أنه «مفروض»، و«ملزم». ملاحظة حاسمة لأنها تكشف، من بين جميع الأسباب المحتملة للتعب، عما يبدو أنه أصبح مهيمناً تدريجياً: (أي) الاهتمام المتزايد بالفرد، وتأكيد وجوده، وإرادته في الاستقلالية؛ وهي حساسية غدت أكثر حدة من أي وقت مضى في القرن العشرين، مع نتائجها المباشرة على طريقة «التحمل» والوجود. لا شك أن مثل هذا التصور ونموه سيأُخذ بعين الاعتبار على طول هذا القرن: (أي على شكل) مراحل متتالية ومتميزة بوضوح لمطلب ملح، وفضاء داخلي يعاني من كل توغل غريب، وتعاسة نشعر معها بالضغوط وبالتعليمات. لقد صار التعب يرتبط، أكثر من أي وقت مضى، بفكرة أن تكون «مقيدا»، مما أبرز الفرق بين ما يعد «إكراها» وما ليس كذلك، مع منح قوة رائعة لما تم «اختياره»: «المجهود الرياضي، والنجاح في ترتيب ما، يجلب تعبا طيبا يخلص من التعب؛ لأنه يعاش كرضا باندفاعات متشابكة[1665]».

(1663).Michel Sapir, M.-J. Flouest et Françoise Lugassy, « La fatigue du cadre supérieur, de l'ouvrier spécialisé et de l'étudiant », op. cit., p. 262.

(1664).Ibid., p. 253.

(1665).Ibid., p. 263.

يجب على الفرد أن ينتصر في منتصف القرن العشرين، في حين ازدادت أشكال الارتياب في ما يجبره ويحتويه. لم يعد العجز عند منهك عصبي، وإنما هو اليأس لدى الشخص الذي يشعر أنه «مجبر» بشكل ظالم. ومن هنا قوته التفاعلية وشعوره بالمشروعية. وفي ذلك مدخل لا جدال فيه لما سيتباهى زمننا به، بقوة، مروجا له.

الفصل التاسع والعشرون

من الاحتراق النفسي إلى الهوية

تميل المسافة بعد هذا نحو الزيادة بين انتظار الاستقلالية الذاتية وأثره. وهو سؤال يكرر ذاته، وطرحته عدد من النصوص التي تستهدف «الإرهاق المعاصر»: «لماذا يشعر الكثير من ألمع وأفضل مواطنينا بعدم الرضا، ومفرغين جدا؟[1666]». وتتكرر الإجابة هي أيضا بالقدر نفسه، مستحضرة الوعد بـ «أهداف غير قابلة للتحقق[1667]»، تلك التي اقترحها طموح أكثر حزماً للاستقلال. وسيكون الانهيار نفسيًا أولاً، هذا قبل أن يتعمم.

ومع ذلك، يستحيل الاقتصار على هذه الاعتبارات النوعية. كما يستحيل تجاهل عدد من ظروف العمل الحالية التي تمنع بطريقة غير مسبوقة أي مثال شخصي: نقل مصانع المقاولات من بلدانها الأم، ونمو المهن غير المستقرة، ونمو المراقبات الرقمية، ونمو التعليمات مجهولة [المصدر] والبعيدة. وبالتالي، فإن المواجهة تتضاعف بين رغبة متزايدة في (الحصول على) الهوية والتطور المتزايد لمناهج أكثر دقة وتميل إلى إنكارها (أي إنكار هذا الهوية). وقد تمدد ذلك وتقاطعت فيه الكثير من الأشياء؛ تمدد يحمل من المعاناة بقدر ما يحمل من التناقض. لا شيء آخر، أكثر من التعب «المعمم» الذي تم التأكيد عليه أكثر من مرة، وصار أحد المنحدرات الإلزامية للوجود المعاصر، وأكثر بعدا أيضًا، عن المؤشرات البدنية وعن استعاراتها المأخوذة من الآلات والأداتيات.

(1666) .Herbert J. Freudenberger, L'Épuisement professionnel : « La brûlure interne » (1980), trad. Marc Pelletier, Boucherville, Gaëtan Morin, 1987, p. 22.

(1667).Ibid

لا شيء في الأخير (أكثر) من «هيمنة» نشرت حمولة مصطلح التعب نفسه، وانتشر استخدامه، وصار موجودا في كل الاتجاهات، مؤكدا على شعور مطول بالعياء أكثر من أي وقت مضى. وهكذا اخترقت الكلمة مختلف القطاعات، وصارت بداهة يومية مباشرة ولا تناقش: «التعب الديمقراطي[1668]»، و«التعب السياسي[1669]»، و«التعب البرلماني[1670]»، و«التعب الإداري[1671]»، و«التعب المؤسسي[1672]»... وهي ظاهرة منتشرة فرضتها أنماط وجودنا الحالية في شكل «حقيقة» لا مفر منها.

جدة «الاضطرابات العضلية-الهيكلية»؟

بينما ينمو اليوم وجود الاقتصاد «الخدماتي»؛ حيث شركة الخدمات توظف ما يصل إلى 79٪ من الأشخاص النشطين في فرنسا، وأكثر من 60٪ في البلدان الصناعية المتقدمة[1673]، مفضلة التجارة والإدارة والتمويل والرعاية الصحية والتعليم؛ بينما تبتعد «المهام الثقيلة»، التي تنقل بواسطة المكننة أو التشغيل الذاتي (الآلاتي)؛ فقد ظهرت عدد من الآلام الجديدة، كلها اعتبرت أنها أعراض للتعب أو الجهد «المفرط». وسماتها خاصة بقدر ما هي محددة: الآلام، والـ «انسدادات»، والالتهابات والتوترات، وأشكال من الضيق المزعج التي تشعر بها العضلات

(1668) .« Un syndrome de fatigue démocratique », Le Un, 4 juin 2014.

(1669).Daniel D. Jacques, La Fatigue politique du Québec français, Montréal, Boréal, 2019.

(1670).Charles de Montalembert.

انظر:

https://archive.org/stream/mdemontalemberte00mont/mdemontalemberte00mont_djvu.txt

(1671) . انظر:

Bruno Tilliette, « Fatigue administrative », Place publique, 8 janvier 2013, https ://www.place-publique.fr/index.php/le-magazine-2/articlefatigue-administrative/?Highlight=fatigue.

(1672) . انظر:

https ://www.linguee.fr/francais-anglais/traduction/fatigue+institutionnelle.html.

(1673). انظر:

https ://fr.wikipedia.org/wiki/Secteur_tertiaire.

والمفاصل وفي مناطق معظم الأطراف. وصار لها اسم جديد: «الاضطرابات العضلية الهيكلية»، الموجودة منذ نهاية عام 1980[1674]، مع ما يعادلها في الأنجلو-ساكسونية، أي «متلازمات الإفراط المهني[1675]». مثلما هي تسمياتها العلمية الجديدة: «آلام أسفل الظهر، وآلام الظهر، وعنق الرحم، والجلد، والتهاب الأوتار، والتهاب كيسي...[1676]». أو زيادتها الأخيرة: 15000 في عام 2000، و39000 في عام 2010[1677]، مما دفع هذه الاضطرابات (العضلية-الهيكلية) لتمثل أكثر من 70٪ من الأمراض المهنية المعلن عنها اليوم، وأصبحت «اليوم رهانا رئيسا في الصحة المهنية[1678]». أو مراحلها مرة أخرى، بدءًا من «آلام وأشكال من التعب» التي يتلاشى في المساء، إلى «آلام وأشكال من التعب» التي تمتد إلى (فترة) الراحة، أو مزعجة للنوم[1679]. في حين أن تحديد أسبابها، في النهاية، يختلف (بين المتخصصين) إلى حد كبير:

الحركات المكررة، مثل العمل المتسلسل؛ والمجهودات المكثفة والمستمرة، مثل رفع الأشياء الثقيلة جدًا ونقلها؛ والأعمال المنجزة في بيئة سيئة (مثل تلك المهام التي تُعرِّض المفاصل لتوترات شديدة للغاية؛ والعمل على المدى الطويل في وضع

(1674). انظر:

Jean-Yves Nau, « Les "troubles musculo-squelettiques" : des pathologies liées au productivisme », Le Monde, 19 décembre 2005.

(1675). انظر:

Ergonomie aux postes de travail : la prévention des troubles musculo-squelettiques (TMS), Paris, Cetim, 2012, p. 12.

(1676). انظر التقرير السنوي للتأمين الصحي لسنة 2018:

Le Rapport annuel 2018 de l'Assurance Maladie : risques professionnels, Paris, CNAM, 2018.

(1677). انظر:

Ergonomie aux postes de travail, op. cit., p. 9.

(1678). Le Rapport annuel 2018 de l'Assurance Maladie : risques professionnels, op. cit.

(1679). Ibid.

بدني ثابت)؛ والمهمة الصعبة جدا (مثل استخدام مطرقة)؛ والضغط النفسي (1680).

لذلك، لا شيء جديد تمامًا: (من غير) تكرارات أو مجهودات تخترق تاريخ العمل، أو اهتزازات (تلازم البدن)، أو ضغط نفسي اخترق العقود الأخيرة. إن وجود هذه الاضطرابات العضلية-الهيكلية، التي حتى وإن كانت تُنسب إلى ضرورة ناجمة عن «النزعة الإنتاجية(1681)»، فإنها ستكون «الاستمرارية» التي تكشف عن تدقيق في إدراك الاضطرابات التي يُحس بها، تدقيق في تحديد الإصابات الملاحظة. تستجيب الاضطرابات العضلية «الهيكلية»، بما هي أضرار تم الإحساس بها حديثًا، بلا شك، لمطلب متزايد من المراقبة الذاتية الشخصية، بقدر ما هي مراقبة موضوعية سريرية: تدقيق حتمي ومتدرج، وتعميق حتمي ومتدرج لإدراكات البدن، في شدتها كما في تنوعها.

أدى التحديد المتزايد للحركات في فضاء العمل، ووضعيات الجلوس، والحركات القسرية، وتقييد وضعيات البدن، وطرائق نقل (الأشياء) غير الملائمة، وشدة الإيقاعات، بدون شك، إلى تسريع الاهتمام بها. بل إن المطلب النفسي استهدف المواقف الاجتماعية المربِكة أو أشكال عدم الارتياح (الانزعاج) الشخصية، فزاد من تسريعها. وتكثيف للحساسية، وبالأخص إلى غاية الشعور ببعض التبرم المحتمل. وهو ما أظهرته الاستطلاعات التي كشفت تضاعف الأجوبة الإيجابية بين عامي 1984 و2016 على الأسئلة المتعلقة بالصعوبات الجسدية: (مثل) «البقاء طويلاً في وضع [آخر من غير الوقوف] مؤلم أو متعب»، و«حمل الأحمال الثقيلة أو نقلها»، و«القيام بتنقلات مشيا على القدام لمسافات

(1680) «Troubles musculo-squelettiques : qu'est-ce que c'est?», lefigaro.fr: https://sante.lefigaro.fr/sante/maladie/troubles-musculo-squelettiques/quest-ce-que-cest.

(1681) Jean-Yves Nau, « Les "troubles musculo-squelettiques" », op. cit..

طويلة أو متكررة». وانتقل متوسط الأرقام من 14٪ إلى 38٪[1682]، في حين أن الأشغال البدنية، بالمعنى الدقيق للكلمة، ستشهد عما قريب تخفيفا. وتشير استطلاعات أخرى، بدورها، إلى الدور الملحوظ «لغياب الاعتراف المهني» باعتباره «تدهورًا في العلاقات الجماعية»[1683]. واستدعت استطلاعات أخرى أخيرًا بشكل خاص نمو «المراقبات المتبعة أو المحوسبة» في فضاءات العمل، الشيء الذي يزيد من الضغوط النفسية، إلى غاية تضاعفها تقريبًا بين عامي 1984 و 2016، بنسبة 17 ٪ أكثر من 30٪[1684]. تزداد أشكال المعاناة المنتشرة مع «حالات عدم الشعور بالرضا» المنتشرة.

ومنه هذه الحالات التي تم تتبعها في تطورها البطيء، مثل حالة **آن ناسيرا**، صرافة تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا في سوبر-ماركت، التي ذكرتها **ماري جرينير بيزي**؛ حيث يبدأ كل شيء «بألم رهيب» يظهر إبان نقل «حزمة من ستة لترات من الماء»، وهو حلقة ذات عواقب دائمة، لا تتوقف عن إعاقة الشابة (ومضايقتها). وتم استدعاء سياق بسرعة: «بمجرد ما أن يظهر تفاهم بينك والصرافة المجاورة، إلا ويتم تغيير مكانك، لكي لا تضيعي الوقت في الدردشة[1685]». أو أيضا:

حينما تقوم بتفريغ رف، إلا ويكون هناك (أي المشرف)، وهو يُعِدُّ الوقت بدقة «سأعطيك خمس دقائق لإنهاء عملك»، في حين يعلم أن خمس دقائق غير ممكنة.

(1682). انظر:
Marilyne Beque, Aimée Kingsada et Amélie Mauroux, « Contraintes physiques et intensité du travail », Synthèse Stat', no 24, février 2019, p. 10.

(1683) Jean-Yves Nau, « Les "troubles musculo-squelettiques" », op. cit..

(1684) Marilyne Beque, Aimée Kingsada et Amélie Mauroux, « Contraintes physiques et intensité du travail », op. cit., p. 154.

(1685) Marie Grenier-Pezé, « La maladie du geste du travail », Performances, no 3, mars 2002, republié dans Les Cahiers de Préventique, no 7, « Les TMS, troubles musculo-squelettiques», 2006, p. 14.

وبما أنك بحاجة إلى العمل، ينتهي بك الأمر بقبول كل شيء، فالمشرف دائما هنا خلفك يراقب[1686].

وهذا يؤكد، في هذه الحالة، زيادة محتملة في تقليص الفترات الزمنية والإيقاعات المطلوبة. أو في حالات ألم الرسغ هذه التي لا تطاق، والمرتبطة بمعالجة الماسح الضوئي المفترض أن يسجل البضائع. فقط المناخ النفسي، وتوتره، ومدته يفسر وضعية مثل هذه: «من الضروري، لإيذاء ضفيرة عصبية شابة، العمل في مناخ من المعاناة من العنف الذي ينقلب إلى عنف ضد الذات[1687]».

عمق **إيف كلو** من مثل هذه التحليلات من خلال إعادة توجيه النظرة إلى حركات معينة؛ حيث لم يعد الاهتمام الوحيد هو تكرارها، و«تفتتها»، وعيب تجسدها، مثلما اقترحته تحليلات الستينيات، ولكن الاهتمام بحدها الذهني، وعدم انتشارها، وعدم تظافرها مع القصد أو الإرادة؛ حركات محصورة، أكثر مما هي تافهة أو مشتتة. لا شيء آخر، إذن، من غير انقلاب جديد اتجه صوب الناحية القراراتية والشخصية. مثلما تقوله لغة الخبير بهذه الكلمات الخاصة: «إن الاضطرابات العضلية-الهيكلية، في رأينا، هي أمراض الحركة، وبشكل أدق هي تطور مرضي للحركة من حيث إنها متخلفة، والتماس-مفرط للأنشطة لتملك وسط العمل من لدن الأفراد[1688]»، وشكل جديد من الإصرار على ما يقيد الفرد، أكثر تحديدًا، وأكثر تركيزًا. وانصب النظر، بشكل واضح، على الفاعل؛ على التقييد الحركي، وعلى الشعور بالمنع، عبر التأكيد على استحالة العيش في الفضاء وأن تحقق ذاتك فيه، (على شكل) «مشد للجسم والوقت[1689]». وبالتالي تباعد أساسي، بعبارة أخرى، ومنه معاناة بين «الفعل» و«الفكرة»:

(1686) Ibid..

(1687) Ibid.

(1688) Yves Clot, « Les TMS : hyper-sollicitation ou hypo-sollicitation ? », Les Cahiers de Préventique, no 7, 2006, p. 23.

(1689) Jean-Yves Nau, « Les "troubles musculo-squelettiques" », op. cit..

يشكل تحليل الفرق بين الواقع الميكانيكي-الحيوي (الحركات التي تم إنجازها فعلا)، والواقع النفسي (الحركات التي ندرك أنها يمكن القيام بها بطريقة أخرى، والتي لا يمكن القيام بها) طريقة لفهم ووصف صيرورة تدهور الحركة وآثارها على الصحة[1690].

لا يعني أن هذه الواقعة في حد ذاتها شيء جديد، وهوما يجب التنبيه إليه من جديد، بل إن الجدة تكمن بالأحرى في الملاحظة «الخارجية»، كما هو الحال بالنسبة إلى الإحساس «الداخلي». (يتعلق الأمر بـ) انتقال أساسي: فما كان في السابق سلبية مؤلمة، لأنها إكراه، صار أكثر معاناة أيضا، لأنه منفر، بشكل صامت، أو منكر (غير معترف به).

تعيين المشقة

هناك مصطلح آخر، هو «المشقة»، والذي مع العقد الأول من القرن العشرين، سيدعي أنه يضم وعلى نطاق أوسع في فرنسا ما كانت تسميه الوصفات الطبية لعام 1945 بـ «التدهور المبكر للبدن»، وعاهات خطيرة يمكن أن يسببها عمل ما على المدى الطويل. وكان للكلمة الجديدة أهمية، فاكتسبت عمقًا، وأشارت إلى المعاناة بشكل مباشر، وغدت أكثر رسوخًا في السلوك. إلى درجة أن شخصية العامل صارت معنية على الفور، ومحددة في «شقائها»، و«ألمها»، وهي (الأحاسيس نفسها) التي تحيل إلى البدني والنفسي، وإلى التعب وكذلك إلى المرض. تدعي الكلمة أيضًا أنها توحد الأضرار، وتتقاطع فيها مجموعة من أشكال العاهات انطلاقا من رؤية عامة: والتي ليست مجرد عياء عضوي ولكن ضعفًا شخصيًا، وتدهور الإمكانات. والكثير من الدلالات التي تكشف عن مقدار الإحالة العامة التي فرضت نفسها، كأفق للتعب والإكراه، وإشارة صامتة، تحتية وموسعة، وقد تأكدت من مع القواميس التي عرفت «الشاق» بأنه «المتعب

(1690). F. Bourgeois et al., Troubles musculosquelettiques et travail : quand la santé interroge l'organisation (2000), Paris, ANACT, 2006, p. 90.

والمرهق، والصعب»، أو بتحديده بواسطة «ما يسبب الألم والتعب[1691]». وصار الضرر شخصيا بشكل أعمق، بالإشارة إلى ما هو مدرك، بالأمر بما سيصبح تناقصا عامًا وعجزًا وتضاؤلا.

استخدمت الكلمة منذ عام 2003، «خلال الأشغال الأولى بشأن إصلاح المعاشات التقاعدية، والأعمال المنجزة بمبادرة من مجلس توجيه المعاشات التقاعدية[1692]»: بإثارة ما قد يعطي الحق في المغادرة المبكرة أو مزايا مختلفة. وستتوضح دلالتها بشكل أكبر مع مسودة الاتفاقية، في 31 يناير 2006، بين الباحثين والأطباء المهنيين والشركاء الاجتماعيين والجهات الفاعلة العامة، الشيء الذي أدى بهم، لأول مرة، إلى مناقشته وتحديد «المشقة» بأنها نتيجة «للمتطلبات البدنية والنفسية لأشكال معينة من النشاط المهني، والتي تترك آثارًا دائمة، يمكن تحديدها ولا تنمحي، على صحة الأجراء ومن المحتمل أن تؤثر على متوسط أعمارهم[1693]». وقادت التقارير أو المناقشات بعد ذلك إلى تحديد «ثلاثة عوامل للتعب الشاق[1694]»: 1) إكراهات بدنية و/ أو عقلية ملحوظة (الجهود، وضعيات البدن، حركات، إلخ.)؛ 2) وسط عدواني (بيئة معادية، منتجات خطرة أو محفوفة بالمخاطر)؛ 3) إيقاعات عمل معينة (ساعات عمل أو نوبات ليلية)[1695]. لا شك أننا يجب أن نصر على شيء جديد لا يمكن إنكاره: في حين

(1691). انظر:

Paul Robert, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Paris, Société du Nouveau Littré, 1962, art. « Pénible ».

(1692).Annie Jolivet, « Pénibilité du travail : la loi de 2010 et ses usages par les acteurs sociaux », La Revue de l'IRES, vol. 3, no 70, 2011, p. 33-60.

(1693). انظر:

Ibid

(1694).Ibid.

(1695). انظر:

Gérard Lasfargues, Départs en retraite et « travaux pénibles » : l'usage des connaissances scientifiques sur le travail et ses risques à long terme pour la santé, Paris, Centre d'études de l'emploi, 2005.

أن **برناردينو رامازيني**، في رسالته الافتتاحية حول «آلام» العمل، بتجاهل التعب من خلال التمسك بالأمراض، والمقاربات الحالية، في رغبتها في الانتباه إلى الشعور بالضيق، عكست النظرة، وذلك بإعطاء مثل هذا المكان للتعب وحساسيته؛ بحيث ينتهي بهما الأمر باحتواء كل شيء ودمج الأمراض.

يعد **جيرار لاسفارج** من الأوائل الذي طوروا وعلقوا على هذه العوامل الأولى، هذه العوامل في التعب الشاق في تقرير مفصل سنة 2005 : 1) الإيقاعات، ونقل البضائع، والأحمال وآثارها المحتملة اعتمادًا على مواقع من البدن، من الرقبة إلى الكتفين ومن المرفق إلى الرسغ[1696]؛ 2) «التعرض للمنتجات السامة»، وآثارها المحتملة على الصحة، المتعددة والمتنوعة أيضا، والمسرطنة، والتنفسية، والجلدية، والهضمية، والعصبية...[1697]؛ 3) ساعات العمل الليلي أو ساعات العمل المتأخرة، وآثارها المحتملة على «استعادة التعب البدني والحفاظ على السلامة النفسية[1698]». وقد وضع مرسوم في 30 مارس 2011 قرارا رئيسيا، جمع بين هذه العوامل في حول عشرة عناوين من المفترض أن تحدد «المخاطر المهنية التي (يجب أن) تُأخَذُ بعين الاعتبار في إطار الوقاية من التعب الشاق، وكذلك الحق في التقاعد المبكر بسبب المشقة»، والتي تم تجميعها نفسها في ثلاث مجموعات فرعية:

1 - فيما يخص القيود المادية المحددة :

أ- نقل يدوي للأحمال (يعني النقل اليدوي كل عملية نقل أو دعم لحمل، بما في ذلك الرفع والوضع والدفع والجر الحمل أو النقل، الأمر الذي يتطلب جهدا بدنيا من لدن واحد أو أكثر من العمال)؛

(1696).Gérard Lasfargues, Départs en retraite et « travaux pénibles », op. cit., p. 19.
(1697).Ibid., p. 25-28.
(1698).Ibid., p. 16.

ب- الوضعيات البدنية المؤلمة التي عُرِّفت بأنها وضعيات صعبة للمفاصل؛

ت- الاهتزازات الميكانيكية؛

2- فيما يخص الوسط المادي المضر:

أ- العوامل الكيميائية الخطرة، بما في ذلك الغبار والدخان؛

ب- الأنشطة الممارسة في وسط شديد الضغط؛

ت- درجات الحرارة القصوى؛

ث- الضوضاء؛

3- فيما يخص بعضا من إيقاعات العمل:

أ- العمل الليلي؛

ب- العمل في إطار فرق متناوبة متعاقبة؛

ت- العمل المتكرر الذي يتميز بتكرار الحركة نفسها، بمعدل إجباري، مفروض أو لا عبر نقل آلي لقطعة، أو بتعويض مادي لكل قطعة، مع وقت دوري محدد (1699).

وبالتالي صارت العناصر دقيقة ومتعددة ومصنفة، وغدا دورها جديدا: (أي) تحديد «عوامل خطر»، التي تم تعريفها هي نفسها، وذلك في نصوص أخرى، بواسطة عتبات الشدة؛ حيث يقود الكل إلى تنقيط خاص. ويتبع ذلك إمكانية فتح «حساب الوقاية المهنية» الذي يودع فيه الأجير «نقاطا طوال حياته المهنية لتمويل التداريب المهنية، والانتقال إلى دوام جزئي دون خفض في الراتب، أو التقاعد

(1699).Décret no 2011-354 du 30 mars 2011 relatif à la définition des facteurs de risques professionnels pris en compte dans le cadre de la prévention de la pénibilité ainsi que du droit à une retraite anticipée pour pénibilité.

المبكر[1700]». وهكذا تكون العملية قد دشنت الحصول على مزايا مختلفة، وإن كانت محدودة، من تقييم المشقة. (كما) تضاعفت أصناف وطرق العمل، وأصبحت الحركات والوضعيات البدنية مُجزَّأة. وهو ما يؤكد الرغبة المتزايدة في الاهتمام والتمييز.

ومع ذلك، فإن العناصر ناقصة، بل وناقصة بشكل مدهش، على الرغم من التقسيمات الفرعية المضافة. إنها تهمش الاضطرابات التي أكدتها الثقافة الحديثة على نطاق واسع، والتي سبقت إثارتها في نصوص عام 2006: تلك المتعلقة بالذاتية، ووجود «مشقة معيشة[1701]»، ومعاناة «داخلية» محتملة، و«شعور بضيق عام[1702]» من المحتمل أن يسبب «عاهات خلال الحياة النشطة (العمل)[1703]»، مع اضطرابات طويلة المدى؛ وأخيرًا تلك التي استخلصها تحليل أكثر تفصيلاً للاضطرابات العضلية الهيكلية. ومنه الملاحظة الشديدة (التالية): فقد تقلصت «الإكراهات البدنية والعقلية» المذكورة في الاستطلاعات الأولى حول المشقة، إلى إكراهات بدنية فقط بمجرد ما تدخل التقويم المؤسسي (الرسمي). فلا يتعلق الأمر بشيء آخر سوى بمقاومة تأخذ بعين الاعتبار ما يمكن لقياس، شبه رقمي، أن يتمكن بشكل سيء أو قليل من كشفه. ومن هنا المفارقة: فقد فقدت كلمة «المشقة» أصالتها، بعد أن تأكدت، بأن كشفت عن غموض، إن لم يكن تعقد،

(1700). انظر:

« Le compte professionnel de prévention : définition, principes et calcul des points », Ameli, 14 novembre 2019 :

https://www.ameli.fr/entreprise/votre-entreprise/outils-gestion-prevention-risques professionnels/compte-professionnel-prevention.

(1701).Gérard Lasfargues, Départs en retraite et « travaux pénibles », op. cit., p. 12.

(1702).Ibid.

(1703).Ibid.

ظاهرة التعب نفسها. وكانت هناك ضرورة أساسية، حتى وإن كانت حديثة: «فلا يمكننا الاقتصار في تقويم كل من الإجهاد البدني والتعب النفسي[1704]».

لاسيما وأن عددًا من التحليلات الحديثة تؤكد على ظهور مشقات أخرى، تلك، الصماء، التي تموضعت إلى حد كبير، وأتت من اللجوء إلى الشبكات الاجتماعية، تلك التي يمكن أن تحافظ عليها بمجرد «نقرة» أو تثيرها. فلا شيء أكثر نفسية، طبعا، من ذلك. يصر **أنطونيو كاسيلي** على غزوها التدريجي، ليس فقط في الوقت الذي تشغله (أي هذه المشقات)، ولكن من خلال المخاوف واضطرابات المزاج، وأشكال الإنزعاج الداخلية التي تتسبب فيها: من استياءات متكررة، وانشغالات للوعي، والحضور الدائم [للعمل] حتى حينما تتوقف الشاشات. يمكن أن يكون العمل عن بعد مثالاً، مثل الاستمارات «الطوعية» في الشبكة العنكبوتية، الذي وفي النهاية يقوم بتنسيق مشاق «جديدة»: (مثل الإحساس بـحالة من) «العمل القسري أن تكون موجودا على الأنترنت[1705]». ليس هناك شك في أن تقويم ذلك أمر صعب، على الأقل يؤدي إلى تعقيد مفهوم المشقة نفسه.

ما يثير الأسف أكثر من ذلك، تقييد آخر حدث مع إصلاح قانون العمل في عام 2018؛ حيث ستختفي أربعة عوامل من العشرة المحتفظ بها سابقًا: «التعرض لوضعيات بدنية مؤلمة، واهتزازات ميكانيكية، والمخاطر الكيميائية، بالإضافة إلى حمل الأحمال الثقيلة[1706]»؛ لأن تحديد ذلك موضوعيا أمر صعب، مثلما تزعم منظمات أرباب العمل المسؤولين عن «الوقاية من جميع المخاطر المهنية[1707]»،

(1704).Francis Marion, « On ne peut faire l'économie d'évaluer tant l'usure physique que la fatigue psychologique », Le Monde, 17 février 2020.

(1705).Antonio A. Casilli, En attendant les robots : enquête sur le travail du clic, Paris, Seuil, 2019, p. 187.

(1706). انظر:

Mireille Weinberg, « Retraite et pénibilité au travail : les quatre critères de la discorde », L'Opinion, 26 décembre 2019.

(1707). انظر:

وعن تشكيل ملف المستخدمين للاعتراف بمشقتهم؛ و«هو أمر ليس عمليا[1708]»، كما تدعي أيضًا وزارة العمل: حيث إن الكثير من العوامل، من الوضعيات البدنية إلى الاهتزازات، ومن المخاطر الكيميائية إلى الأحمال المنقولة تعتبر متفرقة جدا في الحياة اليومية، ومتنوعة جدًا بحيث لا يمكن قياسها «بشكل صحيح»، كما أنها ظرفية للغاية في الأخير. وهناك الكثير من العوامل التي من المحتمل أن تعالج «بعلاج خاص[1709]»، رغم ذلك، في حالة وجود أمراض مثبتة بوضوح. وهو ما يعد حتمًا موضوع نقاش، ويفتح حتما مفاوضات قادمة، ملحة دائمة، ستستأنف كل مرة.

لا تزال هناك شهادات فردية، أكثر عددًا، وأكثر إصرارًا، نبه إليها هذا التفكير غير المسبوق في المشقة. والأمثلة كثيرة، وكذلك تعقيدها؛ مثل العامل الزراعي الذي يتعرض جسمه لاهتزازات الآلات :

بعد يوم من العمل بالجرار، «يكون الألم على مستوى العقد النقية والرقبة والكتفين». «إن ذلك مثل صَغَرٍ بعد أن أكون قد عملت عشر أو اثنتي عشرة ساعة في أيام العمل»، ناهيك عن الأرجل الثقيلة. «فإن لم تكن هناك مشقة، لما كان لدينا ألم»، مثلما يعلق عامل استغلال[1710].

أو «نجارة الأسقف»، المهنة التي وصلت إليها الإناث مؤخرًا. **أنايس داليه**، التي تعمل في أورن، تشكو من معاناة متنوعة :

لم تكن تبلغ الأجيرة الشابة سوى ثلاثين عامًا فقط، لكنها عملت في البناء منذ ما يقرب من اثني عشر عامًا. والتي يهمها حساب المشقة، فهي تشعر بآلا م منتظمة

« La pénibilité au travail : ce qui change en 2018 », At Work Conseil, 16 janvier 2018, https://www.atworkconseil.fr/la-prevention-de-la-penibilite-en-2018/.

(1708).Ibid.

(1709).Ibid.

(1710). انظر:

Valentine Pasquesoone, « "Je ne pense pas tenir jusqu'à soixante-cinq ans" : l'inquiétude des salariés concernés par la réforme du compte pénibilité », France Info, 12 juillet 2017.

مرتبط بوضعيات بدنية مؤلمة، ولا تتخيل البقاء لأكثر من عامين في هذا المنصب[1711].

أو المساعِدَة الطبية التي تقوم بالرعاية الصحية بالمنزل، فتكون ضحية إصابات المفاصل، والتي أكدت على أن النساء غالبًا ما يكن الأكثر تأثرًا هنا دون أن يُعْتَرَفَ لهن بذلك: «لقد اعتنيت بالكثير من الحالات الثقيلة، وهناك حدث أضر بكتفي[1712].»

أو سائق المترو، أخيرًا، الذي لم يتم الحكم على مجهوده في القيادة أو أحس به، كما كان من قبل:

نسير سبع ساعات في نفق. وعندما تقود ست ساعات بالسيارة على الطريق السريع، ففي أية حالة تصل؟ فلا وجود هنا لضوء النهار، والضجيج يجعلك أصمًا، ويجب أن تكون يقظًا في كل محطة. أليست تلك وظيفة مؤلمة[1713]؟

تلك مشقة متنوعة، غير متجانسة ومعقدة دون شك، ودائمًا ما يتم «الاعتراف» بها، ولكن كل شيء يُظْهِر أنه يجب دائمًا تعريفها بشكل أفضل وبموضوعية، لاسيما أن أساسها هو حساسية عميقة، محفورة في الداخل وحادة كما لم يحدث من قبل.

يستحيل، في الأخير، تجاهل التغييرات التي تؤثر بشكل متزايد على أشكال العمل نفسه. أي تلك الخاصة بالوسط المباشر على وجه الخصوص؛ حيث لا يتعلق الأمر بتعديل الحركات، ولكن بتعديل الإشارات، ولم يعد يتعلق بدقة الحركات ولكن بدقة المعلومات. ذلك أن الاضطرابات الرئيسية أثرت على نسبة

(1711).Ibid.

(1712). انظر:

Maly Drazkami, « Pénibilité au travail : les femmes sont les plus touchées, et les moins reconnues », Révolution permanente, 5 décembre 2017, https://www.revolutionpermanente.fr/Penibilite-au-travail- les-femmes-sont-les-plus-touchees- et-les-moins-reconnues.

(1713).Jérôme Lefilliâtre, « Grève : à la RATP, "il faut que ce soit pire lundi" », Libération, 5 décembre 2019.

كبيرة من العمل الصناعي في العقود الأخيرة من القرن العشرين: «فقد هيمن العمل الآلي الذي يقوم على تكنولوجيا المعلوميات والتحكم الرقمي [...] في سنوات الثمانينيات[1714].» وقد تخربت واجهة الإنسان-الآلة بشكل لا يمكن إصلاحه: حركة المرافقة أو العمل، المرتبطة «تقليديًا» بالآلة، والدينامية البدنية، والدقة العضلية، كلها فسحت المجال إلى حد كبير لحركة رقمية، مع انزياحاتها المبتدئة، وأفعالها المخطط لها، وضغوطها الخفيفة، وأشكال تحكمها وتوتراتها الخفية، كل ذلك يختزل إلى التوجيه أو المراقبة (الآلية). وبعبارة أخرى، تم توجيه «العمل الصناعي» في «اتجاه إزالة العمل اليدوي[1715]»، وهيمنة تدوين المعلومات السائدة على استخدام البدن، وهيمنة التحكم شبه الذهني تقريبًا على المهارات الحركية. لا شيء سوى «التجريد[1716]»، إن استخدمنا تعبير **تييري بيلون وفرانسوا فاتين** في كتابهما الجديد **علم اجتماع العمل**. لقد تغيرت الكلمات نفسها؛ فمصطلحات «الحركة»، و«الطاقة»، و«التنسيق الحركي» تميل إلى الاختفاء من مفردات الإرغونوميا[1717]، في حين تطورت المصطلحات الخاصة بـ «الإدراك»، و«الكرونوبيولوجيا»، و«الشفرة»، و«الإشارة»، و«الاتصالات»، و«شاشة الإنسان-الحاسوب»[1718].

(1714).Jean-Pierre Daviet, « La grande entreprise : professions et culture », in Louis-Henri Parias (dir.), Histoire générale du travail, Paris, Nouvelle Librairie de France, 1996, t. IV, p. 292.

(1715).Ibid., p. 296.

(1716).Thierry Pillon et François Vatin, Traité de sociologie du travail, Toulouse, Octares, 2003, p. 221.

(1717) . أول استخدام لكلمة "إرغونوميا" كان سنة 1949 (مع تأسيس Ergonmic Research Society). ومما لا شك فيه أن التركيز على "الراحة" و"الفعالية" قد سمح بوجود مصطلح جديد: "مجموع المعارف العلمية الخاصة بالإنسان والضرورية لتصور أدوات، وآلات، وآليات يمكن استخدامها بأكبر قدر من الراحة، والأمن والفعالية". (Antoine Laville, L'Ergonomie, op. cit., p. 12).

(1718). انظر:

Maurice de Montmollin (dir.), Vocabulaire de l'ergonomie, Toulouse, Octares, 1995.

لم تعد الشحنة بدنية فقط ولكنها ذهنية أيضا. يتم التعبير عن صعوبة المهمة بكثير من المعلومات التي ننوي معالجتها؛ حيث «لا يمكن للدماغ البشري أن يقوم سوى بقدر محدود جدًا من الاختيارات الواعية في الدقيقة، والتي تتراوح بين 60 إلى 80 [1719]»، وغدت المشاكل المطروحة أقل فسيولوجية وأكثر نفسية، سيما وأن الأنظمة الآلية يمكن أن تشمل مناطق كبيرة؛ حيث ينضاف إلى استجابات الرتابة سجل ردود الفعل الكارثية التي يمكن التنبؤ بها ولكنها غامضة، إن لم تكن فوضوية، بالخلط بين ما هو غير متوقع مع التحذير، والمخاطر والخطر (القيادة، والنقل، وشبكات الآلات المتكاملة، والصناعة الكيميائية، وصناعة الطاقة...). وأصبح رهان «رد الفعل السريع» للعامل الميكانيكي الذي يعد أمرا شبه شخصي، فجأة أولوية. وصارت دراسته وتوقعه ومرافقته ضرورة. وهو ما أظهره بحث قديم لـ **يوهان فيلهلم هندريك كالسبيك** حول طياري الطائرات الخاضعة للتوجيه الرقمي: «بتقدير دور التسلية والتنافس والمخدرات والتعب والمخاوف بشأن استعداد الطيار[1720]»؛ حيث تنمو العوائق التي تتوسط بين المعلوميات وردة الفعل، وتتفتت عتبات التعب، ويزداد الوعي بالخطر. وخضعت «الهيئة المعلوماتية»، التي عدت شفافة، اليوم للسبر والاستدخال، والدراسة النفسية، وصارت متنوعة بشكل غير مسبوق. وقد كشفت الحمولة، بعد أن صارت ذهنية، أكثر من ذي قبل، عن المشكل الذي تطرحه الموارد، أو العيوب الأكثر تنوعًا لدى كل فرد.

من الضغط النفسي إلى الاحتراق النفسي

أصبحت المشكلة أكثر تعقيدًا في الأخير منذ أن نمت حصة ما هو نفسي نفسها، في الثقافة اليومية وكذلك في الوسط؛ حيث تزداد لحظة بعد أخرى، منذ بضعة

(1719).Pierre Bugard, Stress, fatigue, dépression : l'homme et les agressions de la vie quotidienne, Paris, Doin, 1974, p. 174.

(1720).Johan Wilhelm Hendrik Kalsbeek, « Standards of Acceptable Load in ATC Tasks », Ergonomics, vol. 14, no 5, 1971, p. 641-650.

عقود. هناك كتاب «افتتاحي» يحمل عنوان **الضغط النفسي في العمل**[1721]، ظهر سنة 1983، تبعه منذ ذلك الحين ما يقرب من سبعين مؤلفا، جميعها تحمل عنوانا أو عنوانا فرعيا مشابها تقريبًا؛ وتضاعف الرقم في اللغة الأنجلو-ساكسونية بعنوان **الضغط النفسي في العمل**[1722]. وهناك تغيير بيّن: الكتب، التي ظلت سائدة، حول «المحرك البشري»، والتي من المفترض أن تضع «الأسس العلمية للعمل المهني»، تفيض بدلائل «موضوعية» تتراوح من الحركة إلى التغذية، ومن الاستقلاب إلى الزمنية، ومن الأداة إلى التنظيم، وهي المحددات التي سيتم محوها إلى حد كبير من لدن تلك التي يفترض أنها أقامت «علم النفس المرضي للعمل[1723]» أو، في الآونة الأخيرة من لدن تلك التي يفترض أنها «ستتغلب على الإنهاك المهني[1724]»، والذي فهم نفسه وفقًا لجانبه «الشخصي»، أو «الذهني» أو «العاطفي» أكثر من جانبه «العضوي». وهو ما تؤكده استطلاعات تزداد عددا وتزداد دقة، أكثر من أي وقت مضى: «المشقة في العمل ليست جديدة، ولكنها تغيرت، وصار الضغط النفسي لا يطاق أكثر من التعب والإنهاك البدنيان[1725]».

فرضت قصص من جنس جديد نفسها: «معاناة أولئك الذين يكون الخوف لديهم هو ألا تمنح رضا»، الخوف لدى أولئك الذين يكون الألم لديهم هو الإحساس «بإكراهات الزمن، والإيقاع، والتدريب والمعلومة، والتعلم، ومستوى المعرفة والدبلوم[1726]». الجميع ينتظره تعب أصبح إنهاكا. وانتشر

(1721).T.-M. Fraser, Stress et satisfaction au travail : étude critique, Genève, Bureau international du travail, 1983.

(1722).Jacqueline M. Atkinson, Coping With Stress at Work, Northamptonshire, Thorsons, 1988.

(1723). انظر:

Claude Veil, Vulnérabilités au travail, op. cit.

(1724).Suzanne Peters et Patrick Mesters, Vaincre l'épuisement professionnel : toutes les clés pour comprendre le burn out, Paris, Robert Laffont, 2007.

(1725).Cercle Sésame, 2012-2017 : ce que veulent les Français, op. cit., p. 196.

(1726).Christophe Dejours, Souffrance en France : la banalisation de l'injustice sociale, Paris, Seuil, 1998, p. 28.

رفض الوضعيات التي نخضع لها، مثلما انتشرت الرؤية «النفسية-الجسدية» التي تأكدت في الستينيات، مع مراعاة المزيد من النقائص والإحباطات والمخاطر، بأن توسعت أكثر إلى مشاكل اليأس الأكثر تفصيلاً، مما سيوحي بمزيد من التفسيرات. وكلمة «معاناة» نفسها دالة، تشير إلى حلقات «داخلية»، وآثار على السلامة الشخصية، وعلى الهوية؛ مما استدعى مبادرات مؤسساتية وإنشاء وحدات استشارية أو للرعاية الصحية، ركزت بشكل خاص على «المعاناة في العمل[1727]». وصارت الحالات تعلق على نفسها، وتنوعت بعد سنوات 1980-1990. كما أنها امتدت من العمال إلى الأطر، ومن السكرتير إلى «المتدربين»، ومن المديرين إلى المنفذين. وكلمات «مستخدم» أو «أجير» نفسها، أصبحت مهيمنة إلى حد كبير مقارنة مع «عامل» أو «شِغّيل»؛ الشيء الذي يؤكد بشكل غير مباشر كيف أن المرجع البدني لم يعد هو أول الأشياء التي تحددها[1728]. سيؤدي الأمر بالسيد ب. B، الذي جلس للقاء مساعدة (نفسية)؛ «ثقيل، وبدين، وخائر»، ويحمل شهادة الأهلية المهنية CAP كخراط-موضب، بعد صعوبات متنوعة في التوظيف، (سيؤدي به الأمر) إلى أن يكون «عميلا تقنيا في البلدية»، ثم مستخدما في المقبرة البلدية، وبعدها ضحية عدة حلقات من الاحتقار، لأنه كان «غير مناسب» للمهام المقترحة، فانتقد بسبب بطنه، وتم وصمه بسبب إدانته، المبررة على ما يبدو، لأشكال الخلل التنظيمي. سيفقد السيد ب. الثقة، وسيواجه ضعفًا دائما، وسيكون ضحية «لارتفاع ضغط الدم الشديد وغير المعالج»[1729]. إنها مونيك، «المسؤولة عن تسيير شركة تصنع منتجات لتحضير الأدوية»، ستواجه «دمج-شراء» لهذه الشركة نفسها وستزداد مهامها،

(1727): انظر.

Marie Pezé, Ils ne mouraient pas tous mais tous étaient frappés : journal de consultation « Souffrance au travail », 1997-2008, Paris, Pearson, 2008.

(1728).عممت صحيفة لوباريزيان مصطلح "المستخدم": "الشخص الذي ينجز مهمة لصالح شخص آخر مقابل أجر".

(1729).Marie Pezé, Ils ne mouraient pas tous mais tous étaient frappés, op. cit., p. 33-44.

وعمليات جرد غير متوقعة، وحوسبة البيانات، وزيارات مواقع «سامة» وبعيدة، أوامر كثيرة وأكثر تعقيدًا، والتي ينضاف إليها عدم الاعتراف «بثقل» (هذه المسؤوليات) من لدن رؤسائها والحاجة إلى تحمل مسؤوليتها كأم عازبة: «بدأت مونيك شيئًا فشيئًا تستيقظ كل ليلة من عطلة نهاية الأسبوع [...] تعيد صياغة أولوياتها قبل استئناف العمل يوم الاثنين»؛ وشيئا فشيئا استدعى الإنهاك التفكير في إدخالها المستشفى[1730].

تقاطعت العديد من «الآليات» النفسية، في كل حالة من هذه الحالات، مما يشير إلى إحالات جديدة أيضا؛ وكلها توضح مدى كون الإفراط، الزائد، إلى غاية التصدعات الشخصية الممكنة، ليس بأي حال من الأحوال هو الأشياء الوحيدة المعنية. ينضاف إلى ذلك عدم الاعتراف بالمهمة المنجزة. وينضاف إلى ذلك أيضا، قبل كل شيء، بل وأكثر من ذلك، توقع هذا الاعتراف من جانب «المنفذ»، وتحويله إلى شيء ضروري، والإحباط الكبير يغيب هذا الاعتراف، الشيء الذي يوجه نحو تعب أكثر إلحاحًا وشعورًا. وكل شيء يتوقف على النفي؛ أي نفي الاستثمار الفردي ومبادرته الممكنة. وهي وضعية أقل قبولًا لأنها تتعارض مع شعورًا بديهي نمى في القرن العشرين، والذي تم التركيز عليه تدريجيًا: (إنه) الاستقلال الذاتي، والتفرد، والتملك الحاد للذات لحدودها وضماناتها. يُنظر إلى أي إنكار لمثل هذا الحكم الذاتي اليوم على أنه إصابة، وأي مقاومة لهذا الإنكار نفسه، ورفضه الغامض والمتعمد، سيعاش كأولوية. ومنه تأكيد **كريستوف ديجور**: «هذا الكتاب هو تمرد ضد جميع الأشكال، كيفما كانت، من التعالي والازدراء للذاتية[1731].»

هذا هو الفرق بين هذه الأشكال من «القطيعة» والإحالة إلى الفائض أو الفيض النظري منذ نهاية القرن التاسع عشر: لم يعد التراكم الوحيد للمهام، وتكومها

(1730).Ibid., p. 151-157.

Christophe Dejours, Souffrance en France, op. cit., p. 30..(1731)

المفاجئ، ودوختها المحتملة، ولكن التهديد الذي يجثم على عملية تسييرها، والعقبة أمام القرارات الشخصية، وعرقلة «الفعل»، وكل الكوابح التي يعزز إبرازها إمكانية وجود الإنهاك. (وفي ذلك) انزياح مركزي: فلم تعد «أشكال التبعية» المقبولة أو المسموح بها سابقًا كما هي، و«الفرامل» ضد الاستقلالية المتفق عليها مسبقًا أو المجمع عليها، (بدورها) لم تعد كذلك. الجانب الأول من هذا التهديد يخص شكلا علائقيا ظل مهملا منذ فترة طويلة، إن لم يكن مزدرى، والذي سمي فقط في التسعينيات، وأصبح قضية حق فقط في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أي «التحرش المعنوي»: «وهو سلوك مسيء يهدف، من خلال الحركات والكلمات والسلوكيات والمواقف المتكررة أو الممنهجة إلى تدهور الظروف الحياة و/ أو ظروف عمل شخص ما (ضحية المتحرش)[1732]». (تلك) هيمنة تقليدية، بلا شك، ولمدة طويلة لا أحد تحدث عنها، بل تم تجاهلها، وتم اكتشافها حديثًا ووصمها بشدة. يجب أن يقال إن هذا زاد من إعادة النظر الواضح للمجال النفسي نفسه. وتلك مرحلة إضافية في تأكيد الهوية، ومعاناة إضافية مرتبطة بإنكار التحرش. وبشكل أعمق، لم يعد المرجع البسيط هو «إرادة ما» نكشفها، بل هي الملاحظة الأولى والمُلحّة لـ «إرادة» ساخطة.

إن استنكار مثل هذه الحالات، و«خطورتها» ازدادت بشكل كبير في السنوات الأخيرة، مثل الإشارات إلى أشكال التعب المطابقة لها: «بائعات شابات يقاتلن ضد وضعهن» في يوليو 2019، قائلات بأنهن «قد عشن جحيما في متاجر الملابس أو الأحذية في مين-و-لوار، وهن يتعرضن للشتم، ولإشارات ذات طبيعة جنسية، وإهانات متنوعة ومتنوعة من لدن رئيسهن، بالإضافة إلى عبء عمل مكثف لسنوات عديدة»[1733]؛ والمستخدمون في شركة صغيرة يخضعون

(1732).Article 222-33-2 du Code pénal, 27 janvier 2002.

(1733).Mathilde Goanec, «De jeunes vendeuses bataillent contre l'apprentissage de l'humiliation», Mediapart, 26 juillet 2019.

«لتحرش فردي» لغرض وحيد هو «أعطى قيمة سلطة» إدارية[1734]؛ وقد اعترض الأساتذة الجامعيون الذين دفعوا إلى أخذ «إجازة طويلة الأجل»، على «سحب كل مسؤولية منهم»[1735]. ويؤكد مفهوم التحرش وتطبيقه القانوني كيف تغيرت «النظرة التي ينظر بها المأجورون إلى مواقف معينة معيشة في العمل[1736]».

يمكن أن ينتشر مثل هذا الشعور، وأن يجمع وقائع مختلفة، وأن لا يقتصر فقط على رهانات الهيمنة فقط، وأن يشير إلى استحالة أن «يتحقق»، وإلى العوائق التي تحول دون تحقيق الذات، وغياب «المكافآت المتوقعة[1737]». محو الغايات والأهداف: يواجه الفرد، بعبارة أخرى، بعضا من استحالة استعادة الثقة في الذات. تنوعت الاستطلاعات، مؤكدة على تعدد الأضرار، وتمددها. وهو ما يقوي ديناميكية أساسية مع القرن العشرين؛ حيث لم يعد التعب الجسدي يأتي لغزو الذهني إلى حد أن يستبد به، بل إن التعب النفسي هو الذي يغزو الجسد إلى حد تحطيمه؛ وهي صورة شاعت أكثر، بلا شك، عن التعب المعاصر.

تكمن الجدة أيضا في نعت أعيد التفكير فيه كلية؛ أي ذاك الذي يشير إلى أقصى نقطة: [أي] الإنهاك البدني والنفسي، ووهن لا يمكن التغلب عليه، وتدمير شديد لأنه أساسي. يعد **هربرت فرويدنبرغر**، أول من اقترح سنة 1980 وصفًا بقدر ما هو تسمية: «إنهاك مهني» أو «احتراق نفسي». ويضيف إلى ذلك صورة: يشبه الفرد «المحترق»، «مصباحا ينفجر[1738]». وضاعف الأمثلة التي كلها تقود إلى

(1734). انظر:

https ://fr.wikipedia.org/wiki/Harc%C3%A8lement_moral.

(1735).Communiqué du Snesup d'Évry publié le 11 juillet 2010.

(1736).Marie-France Hirigoyen, « Des cas de plus en plus graves de harcèlement au travail », Mediapart, 5 mars, 2014.

(1737). انظر:

«Épuisement professionnel et burn out», INRS, http://www.inrs.fr/risques/epuisement-burnout/ce-qu-il-faut-retenir.htmlL

(1738).Herbert J. Freudenberger, L'Épuisement professionnel, op. cit., p. 25.

تناقض: المسافة التي لا يمكن التغلب عليها بين «المثل العليا التي لا نهاية لها، تلك التي يحملونها في أذهانهم[1739]» وتحقيقها المستحيل، و«المنع» العنيد من تحقيق مشروع حياة، إلى أن يظهر إنهاك/ انهيار. مثل ما حدث لـجورج، من بين أشخاص آخرين، وهو «مدير شركة دولية كبيرة»، سيواجه «تعاقدات صعبة»، هو الذي زار ما يقرب من عشرين دولة، وصار موزعا بين «طاقة غير محدودة» وإحساس [بشيء] لا يقبل التحقق؛ فقد ضاع فجأة في ناد إنجليزي، بلا مَعْلَم، بدون أفق: «أدرك أن شيئًا ما فظيعًا قد حدث له، وتأرجحت أفكاره بين اضطراب الشريان التاجي والحمق[1740]». أو هؤلاء المتطوعين الذين يعملون في خدمات الرعاية الصحية، والذين انخرطوا «بالجسد وبالروح»، وضاعفوا من عزمهم وتشيثهم، لكن تجاوزتهم المهام بقدر ما تجاوزهم العجز، وطغى عليها التأثر بقدر ما طغى عليهم عدم فعاليتهم[1741]. وسرعان ما سيتبين أن الوصف قد اعترف به بما فيه الكفاية لـ «36٪ من المأجورين الذي سيعلنون سنة 2017، أنهم قد بلغوا سلفا احتراقا نفسيا[1742]»؛ وهو وصف أيضًا دقيق بما يكفي لتدقيق شعور الخاص بـ«الوهن» الشخصي:

لقد تدمر تقدير الذات، [حيث يصير] الشخص غير قادر على التركيز والعمل، والدماغ وأحيانا الجسم يتزحلقان، ولم تعد الآلة تستجيب. وصارت الأعراض عاطفية وبدنية ومعرفية وسلوكية وتحفيزية[1743].

عادت أكاديمية الطب في عام 2016 إلى الأسباب المحتملة [لذلك]؛ مستهدفة الثغرات الموجودة في السلامة الفردية: «متطلبات العمل، والمتطلبات العاطفية، ونقص الاستقلالية، والدعم الاجتماعي، والاعتراف، وتضارب القيمة، وانعدام

(1739).Ibid., p. 29.
(1740).Ibid., p. 32.
(1741).Ibid., p. 133.

(1742). انظر:

« Syndrome de burn out : c'est quoi ? », op. cit.
(1743).Ibid

الاستقرار في الشغل والعمل[1744]». طبعا لا وجود لـ «ضغط» جديد بشكل جوهري، ولكن تم تحليل عرض بشكل مختلف وتأويله[1745].

تزداد الحالات المذكورة بمرور الوقت، وتكشف بلا شك، عن تحذير متزايد من لدن الأطباء والمأجورين، «[الذين] سيتحدثون أكثر عن ذلك[1746]»... فقد مال نطاق الاحتراق النفسي، مع قطائعه مع الحياة، إلى التمدد، بل إلى التهوين منه، وكلمة «الضغط» نفسها (التي تؤدي إليه؛ أي إلى الاحتراق النفسي) هي أيضًا الكلمة الأولى التي اختارها 78٪ من العمال النشطين لوصف العمل[1747].

رهان التسيير

ومع ذلك حدثت، وبلا شك، وراء هذه الحساسية الفردية وإحيائها، وهذا الوجود التقليدي لهيمنة فسرت حديثًا، تغييرات طفيفة أخرى: (مثل) مراجعة تخطيط العمل نفسه وتنظيمه وظروفه، الشيء الذي يزيد من تفاقم المسافة بين الانتظارات والحقائق، بدءًا من امتداد للرقمنة، وآثارها في المراقبة، إن لم تكن في القمع، التي فرضت هيمنة أقل تحملا. يؤكد «سائق الكارة» الذي يقوم بتحميل البضائع في مستودعات شركة أمازون على انطباع دائم بـ «المطاردة»، وبـ «التعقب» لأنشطتها الخاصة، ويفخ يسبب العياء والقلق:

(1744).Jean-Pierre Olié et Patrick Légeron, « Rapport sur le burn out », Bulletin de l'Académie nationale de médecine, 2016, séance du 23 février 2016.

(1745). انظر:

Philippe Zawieja, Le Burn out, Paris, PUF, « Que sais-je ? », 2015 : « l'Ancien Testament fournit au moins deux exemples d'épuisement professionnel », p. 3. Cf., Dictionnaire de la fatigue, id. (dir.), Genève, Droz, 2016.

(1746). انظر:

« Épuisement professionnel et burn out », INRS, op. cit.

(1747). انظر:

Cercle Sésame, 2012-2017 : ce que veulent les Français, op. cit., p. 209.

في كل لحظة تسمح لك الخوارزميات بمعرفة مكان كل واحد، وحساب الوقت الذي يستغرقه كل أجير لإنجاز كل مهمة من المهام الأولية؛ وبالتالي تحديد الأوقات الميتة المحتملة[1748].

يهم الأثر مبادرة الحركات ومصدرها وتنظيمها. وهو أثر يمتد، ويخترق الضمائر، ويؤكد الرؤية الشاملة في ذهن الجميع، ويعزز الإحساس بتحكم غير مرئي؛ إحساس بالمقارنة المستمرة مع الآخرين ومع الذات، والسعي الدائم نحو معيار يمكن تحسينه من جهة، وهو مفروض من جهة ثانية: «يمكن للمسؤولين تنقيط مرؤوسيهم، وتسهل المنصة ظهور ديناميكيات المحاكاة والتحكم المتبادل بين الزملاء (العمال)[1749]».

يقول «سائق القطار» لنفسه إنه محكوم عليه بأن يظل يقظا باستمرار، ومحاصرًا بتراكم الشارات، ومهددا بأقل سهو، وتجعله أوقات العمل غير المنتظمة مضطربا، وفي النهاية، متعبا كما لو أن الأعباء قد تضاعفت وتجددت:

إن حياتك الشخصية وحياة عائلتك بأكملها تنتظمان انطلاقا من تدحرج جدول العمل ذاك وتقلباته؛ وهذا طوال حياتك المهنية. وامتيازاتنا المزعومة، بما في ذلك نظام المعاش، ليست سوى مقابل لهذه الأشكال من الإخضاع[1750].

وهناك ملاحظة تتكرر: رقمنة من هذا القبيل «غالبًا ما تترجم بزيادة في الشدة والمشقة[1751]»، إلى غاية «العبيد الجدد للرقمي[1752]»، المقاولين-الذاتيين

(1748).« Les algorithmes chassent tout rapport humain », TAF. Travailler au futur, no 1, janvier 2020, p. 57.

(1749).Antonio A. Casilli, En attendant les robots, op. cit., p. 263.

(1750).Julien Palleja, « SNCF : une déshumanisation lourde de conséquences », TAF, no 1, op. cit., p. 53.

(1751).Marc Loriol, « Numérisation de l'économie et transformation du travail », Cahiers français, no 398, 2017, p. 2-7.

(1752). انظر:

Hélène Riffaudeau, « Les nouveaux esclaves du numérique », Téléobs, 21- 27 septembre 2019.

المنخرطين في خدمة بعض «منصات» لا يعرفون مَن يسيرها لا وجها ولا صوتا. كلهم يعملون لحسابهم، ويحملهم في ذلك تطلعهم إلى استقلالية جديدة، ولكن بالخضوع لظروف العمل وللأسعار التي تتحدد بعيدا عنهم، وبالخضوع أيضًا لـ «صناع القرار» الذين يجهلون عنهم كل شيء. وهو ما يقود سعاة شركة دليفرو، وهي شركة توزع وجبات الطعام، إلى العمل أكثر من ستين ساعة في الأسبوع وهم يحسون بأنهم «سجناء»[1753]، أو «معبئو[1754]» دراجات التروتينيت الجديدة في المدينة، والذين يقومون بإعادة شحن بطارياتها، والعمل من الساعة 7 مساءً حتى 8 صباحًا[1755]، أو المترجمون «تحت الطلب» المتعلقين بمكالمات هاتفية تأتي في ساعات مباغتة، دون ضمان للموارد[1756]، في حين تنقص أية حماية اجتماعية وأي تأمين للمستقبل[1757]. لا شك أنها وضعيات محدودة، لكن من المرجح أنها ترسم الأنشطة المستقبلية، تلك التي تخفي فيها التكنولوجيا الرقمية ومرونتها، خضوعا شديدا تحت حرية ظاهرية.

يمكن لإعادة تنظيم النشاط نفسه أن يساهم في تفاقم محتمل. مثال أساسي: واجه تسيير المستشفى انتظارا متزايدا في المردودية، وعانى من هاجس شديد، وهو زيادة الدين العام، والحاجة إلى تخفيضه. وعبَّر «كل طبيب من اثنين[1758]»، في ديسمبر 2019، عن إنهاكه، محملا الإدارة ذلك، رافضا صرامتها، وطاعنا في

(1753). انظر:

« Deliveroo, une forme d'esclavage moderne », TAF, no 1, op. cit., p. 44.

(1754).من لفظ juice، jus électrique الذي استعاده هؤلاء العمال الجدد.

(1755). انظر:

Gurvan Kristanadjaja, « "Juicers" : la course aux clopinettes électriques », Libération, 10 mai 2019.

(1756). Cercle Sésame, 2012-2017 : ce que veulent les Français, op. cit., p. 203.

(1757). انظر:

Hélène Riffaudeau, « Les nouveaux esclaves du numérique », op. cit. :

"يشكل هذا النموذج ارتكاسة فيما يخص آلاف العمال"

(1758). انظر:

Éric Favereau, « À l'hôpital un médecin sur deux se dit épuisé », Libération, 2 décembre 2019

خياراتها، بما في ذلك تلك التي تقلص أعداد (الأطباء) والعد الدقيق للأسِرَّة: «فقدت مصلحتي مناصبا، وانهارت الممرضات واحدة تلو الأخرى[(1759)]». أو «حينما يتحدث الطبيب عن الرعاية والمرضى، تتحدث الإدارة عن العجز والميزانية[(1760)]». والسلطة، التي كانت للأوائل منذ فترة طويلة، مرت الآن إلى أيدي «المسيرين» وحدهم، وفقًا لـ «الانعطاف التسييري[(1761)]» كما سماه اقتصاد اليوم، إلى درجة أن عدد أماكن الاستقبال قد انخفض لتقليص فاتورة الأجور بشكل أفضل: « في العمق، يفكر المسؤول السامي في السيولة[(1762)]»، بينما يفكر مقدم الرعاية الصحية في الحاجات التي تتغير بدورها وأحيانًا تكون شديدة. يبقى للممارس في المستشفى السعي المجبر وراء النتائج، والإحباط والهوية الممزقة.

من المستحيل هنا، أيضا، تجاهل نمط إدارة الشركات متعددة الجنسيات، بهدف مردودية ضيقة وحصرية، وعمليات اندماجها، وحذفها المحتمل و«عمليات نقلها»، وعمليات إعادة شرائها، والتي من المحتمل أن تتسبب كلها في حدوث إنذارات أو انهيارات نفسية أو بطالة أو هشاشة[(1763)]. هناك قلق متكرر ويكرر نفسه، حُدِّدَ حديثا وبوضوح: إنه قلق ليثيسا، الكهربائية التي تواجه مشروع شراء شركة بومباردييه من لدن شركة ألستوم، وكلاهما شركتان في السكك الحديدية، وكلتاهما مدعوتان إلى «حذف» مناصب صارت بعد الشراء «مضاعفة»: «أنا تحت

(1759).Nathalie Raulin, « Hôpital : Agnès Hartemann, en unité de résistance », Libération, 14 février 2020.

(1760). انظر:

Éric Favereau, « À l'hôpital un médecin sur deux se dit épuisé », op. cit.

(1761).Dominique Méda, « Le grand fossé », Le Un, 29 avril 2020.

(1762). انظر:

Cécile Amar et David Le Bailly, « Santé publique, qui a désarmé l'hôpital ? », L'Obs, 9-15 avril 2020. Voir aussi Stéphane Velut, L'Hôpital, une nouvelle industrie : le langage comme symptôme, Paris, Gallimard, 2020.

(1763). انظر:

Fiodor Rilov, avec Alexia Eychenne, Qui a tué vos emplois ?, Paris, Don Quichotte- Seuil, 2019.

الضغط، لقد كنت عاملة مؤقتة منذ عام 2004، مع سبعة عقود في بومبارديه وعقدين في ألستوم، فماذا سيحدث لنا[1764]؟» إنه قلق عام، في الحقيقة، قلق «أن تكون مهددا بالبطالة والبؤس لـ 40٪ من الفرنسيين[1765]». ومنه ملاحظة آلان سوبيو: «لقد دفعَتْ كل هذه الابتكارات الشركات إلى البحث عن ربح قصير الأمد، قاتل ومعجل بالمعاناة في العمل، مع ما يتبعه من حالات الاكتئاب والتلاعبات[1766].»

يستحيل، في الأخير، تجاهل الوضعيات التي ينضاف فيها التحرش إلى إعادة التنظيم. والدعوى المرفوعة ضد مسيري شركة فرانس تليكوم سنة 2019، مثال رئيس في ذلك: الملاحقة القضائية (الجنائية؟) المتعلقة بتطبيق خطة «نيكست» المثيرة للجدل ومكونها الاجتماعي، والتي من المفترض أن تضمن بقاء الشركة التي أصبحت تسمى «أورنج»؛ أي حذف «22000 وظيفة من أصل 120.000؛ أي حوالي واحد من كل ستة مأجورين؛ وتغيير المنصب أو مكان العمل، لـ 10000 مأجور آخر[1767]». وهي منهجية «رفضت»، لاسيما من لدن موظفين ذوي وضع «محمي». وصرامة في المقابل، لاسيما أكثر تعمدًا؛ حيث يبدو المشروع «ملزمًا»: «فكل الأطر كانوا مهووسين بالحفاظ على الأهداف[1768].» ومن هنا اختيار الوحشية النفسية والتحرش. ومنه أيضا الجملة الرمزية للمدير الرئيسي، التي قيلت في 20 أكتوبر 2006: «سأقوم في سنة 2007، بالتسريح بطريقة أو بأخرى، من النافذة أو من الباب[1769].» وتنفيذ قرارات غير مناقشة:

(1764).Laurie Moniez, « L'annonce de la fusion entre Bombardier et Alstom inquiète leurs salariés des Hauts-de-France », Le Monde, 21 février 2020.

(1765).Cercle Sésame, 2012-2017 : ce que veulent les Français, op. cit., p. 208.

Alain Supiot, « Le travail humain "au-delà de l'emploi" », TAF, no 1, op. cit., p. 31..(1766)

(1767). انظر:

« Les témoignages marquants des premières semaines du procès France Télécom », France Info, 25 mai 2019.

(1768).Ibid.

(1769).Ibid.

التغييرات في أمكنة العمل، وتوبيخات مختلفة، وحذف المسؤولية؛ واتباع أضرار محسوسة حميميا، والشعور بالفشل والعجز والكرامة المنتهكة: «أكثر ما يقتلني هو عدم إتمام مسيرتي المهنية[1770]»، يعترف أحد الضحايا.

لاحظت طبيبة الشركة، مونيك فريس-فيجليني، الصدمات: زيادة في «متلازمات القلق-الاكتئاب، واضطرابات النوم أو الشهية، وأشكال من الإدمان»؛ وزيادة 45٪ من حالات التنقل نحو غرفة التمريض (المستوصف) بين عامي 2008 و2009[1771]. ويشير استطلاع أجري سنة 2009 إلى فقدان تقدير الذات: «فخر الانتماء إلى فرانس تليكوم، الذي كان قد ارتفع آنذاك إلى 95٪، انخفض الآن إلى 39٪»[1772]. «لقد لعبوا بحياتنا[1773]»، مثلما أكد المستخدمون، موجهين ملاحظتهم لأحد أعمق أمكنة الضرر؛ أي الهوية : «يجبرونكم على أن تفقدوا الثقة في أنفسكم، بل ويجعلونكم تشعرون بأنكم مسؤولون[1774]». وحدثت بعد ذلك عدد من حالات الانتحار؛ «واحدة كل أسبوع»، يؤكد الشهود؛ وبالتالي فالحكم على المسيرين بالسجن عزز من وضعية التحرش المعنوي[1775]. يجسد التعرف على الضرر، الذي يلحق «الإنهاك والضغط[1776]»، التغيير الحاسم: أي التحول من المعاناة البدنية إلى المعاناة الذهنية. لقد تغيرت أنماط تقدير «الضرر» بشكل عميق، والمتطلبات الشخصية أيضا.

لماذا التعب اليومي؟

(1770).« France Télécom : "Ils ont joué avec nos vies" », Libération, 9 août 2018.

(1771). انظر:
https://www.francetvinfo.fr/economie/telecom/suicides-a-france-telecom/

(1772).Ibid.

(1773).« France Télécom : "Ils ont joué avec nos vies" », Libération, op. cit.

(1774).Ibid.

(1775). انظر:
Jean-Christophe Vuattoux, « Les suicides cachent la forêt qu'est la souffrance au travail, laquelle n'est pas encore imputée aux organisations », Slate, 28 décembre 2019.

(1776).Ibid.

ومع ذلك، فرض وعي بطيء نفسه، ودعا اليوم إلى التخلي عن هذه الآليات. وستتضاعف الصيغ، راسمة أشكالا جديدة «من التسيير» جديدة، أو حتى أشكالا جديدة من تدبير الشركات: «تشجيع حرية معينة في الفعل[1777]»؛ و«مراعاة التطلعات الفردية[1778]»؛ و«تطوير استقلالية زملاء العمل[1779]»؛ و«تأكيد الاعتراف [بالآخرين][1780]». بل هناك عدد من «الرؤساء» قالوا إنهم قد «تابوا»، معترفين بأنهم كانوا معذِّبين سابقين [لمستخدميهم]: «كنت رئيسًا سيئًا»؛ «كنت شخصا يمارس القمع»؛ «أصبحت غير إنساني»؛ «غالبًا ما كنت أميل إلى الغضب»[1781]. وهذه اعترافات موحية، تركزت جميعها على هيمنة غدت «مذنبة»، بل وحاسمة، حتى وإن لم تكن تتبعها آثارا كثيرة، مؤكدة على المتطلبات المتزايدة للإثبات الذاتي الفردي من لدن «المرؤوسين» ومعاناتهم الناجمة عن المبادرات التي يعتبرونها معوِّقة. وذاك دليل، إن وجد، على الثقل الكبير الذي يمثلها، اليوم، مع نفي الاستقلالية وآثارها.

تلك هي الهيمنة التي استنكرت هنا، مما عزز من نبذ التحرش، وفي مقابل ذلك تبجيل استعادة الثقة في قدرة على [التحكم في] الذات نفسها؛ وهي أشكال من الثقة غدت محفزات في مدونات الأنترنت اليوم: «لا يوجد سيد عليك، هذا وهم مضحك وطفولي. فقط تفكيرك الخاص وتجربتك الخاصة لها قيمة[1782]». ينشأ

(1777).Alexandra Anders, « L'empowerment au cœur du nouveau management », Cornestone Blog, 18 octobre 2019.

(1778) Arnaud Hautesserres, « Management, quelles tendances pour l'année 2019 ? », Focus RH, 12 décembre 2018.

(1779).Ibid.

(1780).Amélie Petitdemange, « Management, guide complet », Les Échos Start, 18 décembre 2018.

(1781). انظر:

Agathe Ranc, « J'étais un mauvais chef », L'Obs, 13-19 février 2020.

(1782). انظر مدونة:

« Le réveil de la conscience ».

التعب بالتالي عن موقف دقيق: عن أصل غير معترف به، وعن هوية مزدراة. وهو القلق الذي يحضر أيضا في مجلات اليوم:

لأنه من طبعك السخاء، فإنك تقضي وقتكِ في العطاء، ولكن ذلك يمكن أن يتركِكِ منهكة ومتجاوزة إن لم تحتفظي بشيء للشخص الثمين الذي هو أنت[1783].

من المستحيل، في الحقيقة، تجاهل سياق هو الوحيد القادر على توضيح هذا التغيير. فإثبات الذات هو شيء أعمق بكثير مما يبدو عليه. إنه انتصار «التصوف تحرري واكتمال [للذات][1784]»، يروج له الاستهلاك الموسع. انتصار، وبالقدر نفسه، للفرد «ما فوق-الحديث» الذي وصفته العديد من التحليلات المعاصرة التي تركز على الإثبات النفسي للذات، «الفرد المبالغ فيه[1785]»، الذي بالنسبة إليه «لم يعد هناك أي معنى يوجد في إطار وجهة نظر شاملة[1786]»، أي المعنى الذي قام مجتمعنا بتثبيته فجأة في إطار جديد من «الانسجام»، مؤكدا على شعور الفرد بأسبقيته على أي مرجع اجتماعي. انشغال يومي، مثلما هو انشغال رومانسي، شرعنا في البحث عنه مؤخرًا وبشكل لا نهائي: «دعنا نعود إلى ذاتي التي هي أنا، فليس على الأمر أن يكون بالأخص مثيرًا للاهتمام، ولكنها ذاتي[1787]». وهو ما يوضحه أيضا سعي اشهاري حديث، إلى غاية التوسل بالرمز، رمز لوريال L'Oréal [مثلا] وكلماته التي يفترض أنها تمنح معنى للمنتجات المعروضة: «لأنني أستحق ذلك!»، أو إغراء النظرة بعد وضع [مسحوق تجميل] براق

(1783).Annika Rose, « Prenez soin de vous », In the moment, mai 2018.

(1784).Jean Baudrillard, La Société de consommation, op. cit., p. 201.

(1785).Robert Castel et Claudine Haroche, Propriété privée, propriété sociale, propriété de soi : entretiens sur la construction de l'individu moderne, Paris, Fayard, 2001, p. 128.

(1786).130. Marcel Gauchet, « Essai de psychologie contemporaine. Un nouvel âge de la personnalité », Le Débat, vol. 2, no 99, 1998, p. 177.

(1787).Michel Houellebecq, Sérotonine, Paris, Flammarion, 2019, p. 181.

للعينين: «لأنك تستحق ذلك [1788]»؛ تلك [نوع من] المناداة الحاسمة، لم يسبقها مثيل، بتغيير لنمط الترويج «للأشياء»، ونقل القيمة من الشيء إلى الشخص، بإخضاع صفات المنتوج لصفات الأنا، بتعميم يقين راسخ، حتى وإن كان هذا اليقين ضمنيًا: فإذا كان الحصول على المنتوج شيئا مشروعًا، فلأن «قيمتي» تسمح بذلك؛ الشيء الذي يجعل السمات الفردية، فورا، أولية، تهيمن على سمات الشيء.

في حين تناقض هذه الأشكال من إثبات الذات القوية دائما، أنماطا تسييرية (إدارية) لا تخلو من إكراهات. فولدت فجأة معارضة مباشرة، تلك التي هي نفسها لا يزيدها التحرش إلا سخطا، مؤدية إلى أشكال عدم الرضا، وانتظارات منهكة، وأشكال ظاهرة من الضعف :

فمن جهة هناك مستهلك قُدِّسَ وشُجِّع على التعبير عن نفسه في اختياراته، وتفرده، وخصوصيته. ومن ناحية أخرى، أجبر شُفَّهَ وشُجع على ألا يعبر عن نفسه، إنه [فرد] تقلص من قيمته النفسية لكي لا نطلب منه سوى الخنوع. وينتج عن ذلك تصادم مباشر بين ثقافة جديدة هي أنا-ذاتي عند المستهلك-السيبراني، وثقافة مجهولة للإنسان العادي[1789].

ولكن سينشأ أيضًا تعميم ممكن ويومي لهذه المعارضة، والتي غالبًا ما تكون مبتذلة بقدر ما هي معتادة، الشيء الذي يرمز لمثال عن الأنا وهي تواجه بشكل حتمي استحالة تحققها: الهوية المقيدة، أو الممنوعة، أو المتخيلة. وتضاعف عدد «الضحايا». وهي ظاهرة تخترق مختلف الأعمار والظروف؛ حيث ينضاف اليوم إلى الاحتراق النفسي للمستخدم «غير المعتبر»؛ الاحتراق النفسي «للطفل»، و«للمراهق»، و«للطالب»، و«للباحث»، و«لأفراد الأسرة»، و«للمقاول»، و«للزوج»، و«للرياضي» أيضًا. هذا «الألم الصامت الذي ينخر الرياضيين[1790]»؛

(1788). انظر:

https://fr.wikipedia.org/wiki/Parce_que_je_le_vaux_bien.

(1789).Cercle Sésame, 2012-2017 : ce que veulent les Français, op. cit., p. 199-200.

(1790). انظر:

حيث يشكو الكثير منهم من «إعدادهم وكأنهم روبوتات[1791]». فالكل يعاني من وهن، ومن بون مؤلم بين الانتظارات والواقع، ومن قطيعة بين ما هم «عليه» وما «يعتقدون» أنهم عليه. «إنك تغذي شعورا بالإحباط: فالأمور ليست كما تريد أن تكون[1792]»، كما يقول المعلقون على «الاحتراق النفسي في العلاقة الزوجية». و«هذه هي المواجهة بين ما جعله الآباء شيئا مثاليا بصدد حياتهم الأسرية والواقع[1793]»، يقول المعلقون على «الاحتراق النفسي الأسري».

وهو ما يعطي أيضًا المعنى الشامل للمعارك الحاسمة لصالح التحرر: مثل استنكار «الأعباء الذهنية»، من بين أمور أخرى؛ حيث تكون النساء ضحاياها في إطار العالم المنزلي. وهو أمر أكدت هيمنته الأرقام: إنهن ينجزن 71٪ من الأعمال المنزلية في عام 2010، و65٪ من المهام الأبوية[1794]. ذلك أن التنديد يستهدف هنا بدقة شديدة التعب، والعياء النفسي المهيمن، والذي يغزو السلوك برمته: «إنه مؤذ لأنه يشغل الذهن باستمرار؛ ولهذا تأثير على النوم، وفي العمل يكون التركيز أكثر صعوبة[1795]». كما تشكل وعي أساسي أخيرًا؛ حيث قامت إيما، الرسامة التي رسمت صورة هذا «العبء الذهني» في مدونتها تحت عنوان ساخر: «هل يجب أن تطلب[1796]»، والتي أثارت مئات الآلاف من الردود الإيجابية.

Élisabeth Pineau, « Le burn out, un mal tabou chez les sportifs de haut niveau », Le Monde, 29 janvier 2020.

(1791).Ibid.

(1792). انظر:

« Burn out amoureux : les signes qui doivent vous alerter », Femme actuelle, 2 octobre 2018.

(1793). انظر:

« Le burn out familial, signes et conséquences, comment l'éviter ? », Cool Parents make happy kids : https://www.coolparentsmakehappykids.com/burn-out-familial-signes-consequences-comment-eviter/.

(1794). انظر:

Gaëlle Dupont, « Quand la "charge mentale" du foyer pèse sur les femmes », Le Monde, 16 mai 2017.

(1795).Ibid.

(1796). انظر:

تبقى هناك فروق دقيقة بصدد الأعراض. لا، فقد أظهر، فجأة، الاحتراق النفسي، مصائبه، وانهياره الشامل، غياب عن الذات، ولكن التعب «السري»، المضر والمقلق، مع تباطؤ فعله ومعاناته المتنوعة. مثل هذا الاستماع المؤلم والجديد، بل والمصر أيضا، الذي ينصب على أي شكل في الوجود، على كل حالة حميمية، ومن أكثر الانطباعات بدنية إلى الانطباعات الأكثر ذهنية، وتحذير دائم بشأن ما يمكن أن «يقاوم» إلى ما لا نهاية أو، وبكل بساطة، كشف الحدود الحتمية للوجود. وهناك العديد من الأبطال في الأدب المعاصر الذين يعدون رمزا لذلك، مثل **مايكل دوليسل** في مجموعة قصص **قصر التعب**، بعنوان كاشف؛ حيث التجارب التي تظهر تافهة لكنها تتناقض وتتكرر، قد تركزت على نقص وعلى مسافة في أن تكون على تبعية «لأستاذ» لا يمكن الوصول إليه، لأصدقاء مصممون للغاية. وتتكرر الملاحظة: «لماذا لم أتمكن من اتباع طريقي(1797)؟»، أو كما عند **ميشيل هويلبيك**؛ حيث الشخصية عاجزة عن استعادة قواها، لأنها قد «سحقتها» المسافة التي لم تستطع قطعها بين المشاريع والواقع، ومحكوم عليها بـ «السيروتونين»، ومهددة بأن لا تصون حياتها إلا بشكل ضعيف:

إن صداقات الشباب، أي تلك التي يربطها المرء خلال سنوات دراسته، والتي هي في الأساس الصداقات الحقيقية الوحيدة، لا تنجو أبدًا من الولوج إلى حياة الكبار، فيتجنب رؤية أصدقاء مرحلة الشباب مرة أخرى لتجنب مواجهة شهود آمال محبطة؛ أي وبشكل واضح لتجنب سحقك الخاص(1798).

أو شهادة **جان كلير**، العادية جدا، وأكثر اعتيادا، والتي تثير أكثر الصدامات اليومية الأكثر تفاهة، وما يتبعها مما هو عاد أيضا، عن تعب يتكرر بشكل دائم :

«Fallait demander» emmaclit, 9mai 2017:
https://emmaclit.com/2017/05/09/repartition-des-taches-hommes-femmes/.
(1797).Michael Delisle, Le Palais de la fatigue, Montréal, Nouvelles Boréal, 2017, p. 76.
(1798).Michel Houellebecq, Sérotonine, op. cit., p. 148.

فتور غريب يستولي علينا كل ليلة، ويسحقنا ويتركنا منذثرين لساعات طويلة. ما هي هذه الخطيئة الأصلية التي تهددنا كل يوم بترك الحياة؟ وما الدَّين القديم، الذي لم ينطفئ أبدًا، الذي يحرمنا عبر فترات من الوعي، كما لو لدغتنا الجنية السيئة؟ (1799)

لا شيء آخر، في الحقيقة، غير تمديد، إن لم يكن نهاية، لما بدأه التنوير، اكتشاف «أنا» أكثر استقلالية، أنا تنبهها باستمرار حدودها الخاصة، ومساءلة أكثر منهجية اليوم إلى حد أن هذه «الأنا» قد تعمقت أكثر وسُبِرت، وتعقدت، لدرجة أن وجودها المؤكد غدا أكثر من أي وقت مضى يرافقه إحساس قوي غير مسبوق بقصور. ومنه فإن السؤال الراهن لمجلة الفلسفة، المباشر و«المستعجل» جدا حتى إنه سؤال شغل صفحة غلاف عدد نوفمبر 2019، هو: «لماذا نحن متعبون جدًا؟(1800)»؛ وتتسارع الأجوبة: أولها هو تحيين ثقل الإرهاق، والحضور في الأوساط التقنية في كل مكان، والتسارع المفرط، وضغط الآلات التي لا تتجدد باستمرار، وحوسبة العالم، والوضع المعمم للحظي، و«الربط المفرط(1801)»؛ وكل ذلك نشر «فورة(1802)» في قلب المجتمعات المعاصرة. ولكن، وبصرف النظر عن حقيقة أن هذه المجتمعات تعرف كيفية التكيف مع متطلبات آلاتها، وخلق التخطيط والليونة، فإن هناك إجابة ثانية تبدو أكثر أهمية: جواب عن المواجهة الحميمية مع ذات متضخمة؛ أي هذا الكائن الذي تتهدد أهميته الجديدة بالاختبار المستمر لحدوده، كما هو الحال بالنسبة إلى إعادة إبداع نفسه الدائم(1803). ثم يصبح

(1799).Jean Clair, Le Voyageur égoïste (1989), Paris, Petite Bibliothèque Payot, 2010.

(1800).« Pourquoi sommes-nous si fatigués ? », Philosophie Magazine, no 134, novembre 2019.

(1801). انظر:

Nicole Aubert (dir.), @ la recherche du temps, individus hyperconnectés, société accélérée : tensions et transformations, Toulouse, Érès, 2018.

(1802). انظر:

Laurent Muller, « Enjeux d'une quête anomique en des temps d'effervescence », in @ la recherche du temps, op. cit., p. 143.

(1803). انظر:

التعب مستمرًا وطبيعيا، آنيا وعاديا، مألوفًا بقدر ما هو مرهق، مرافقا أصم، غامضا ومضطرا دائمًا لكي يعيش؛ وهو حضور مؤذ وغير مسبوق، «أنا تعب إذن أنا موجود»[1804]، متعلق بوجود مؤلم، وإلزامي من جهة أخرى؛ ومن ثم الإحساس به بشكل مختلف: صعوبة قبول أية هيمنة، وصعوبة في العيش تحت القيود. وهي ملاحظة أخرى، كتومة مثلما هي بديهية: «ثم هناك التعب، مثلما نتحدث عنه قليلاً، الذي يهيمن على حياة معظمنا، والذي يدفعنا لنتخذ مثل هذا القرار، بالتخلي عن مثل هذه المحاولة؛ أي عن حدث ما بطريقة معينة [1805]!»، الشيء الذي يتطلب علاقة حميمة متزايدة إلى حد كبير، وشعورًا مستمرًا بالمقاومة، ومواجهة داخلية أكثر أهمية من أي وقت مضى. وهي نفس العلاقة التي حددها إيمانويل ليفيناس سلفا: «إن الكسل، والتعب، قبل أن يكونا مضمون وعي، فهما انتكاسة في الوجود عامة [...]. والعياء هو رفض مستحيل للحاجة الأخيرة إلى الوجود[1806]». ذلك اكتشاف أساسي؛ حيث حولت الدراسة السيكولوجية المعاصرة المكثفة، أكثر من أي وقت مضى، هذا الشعور بالوجود تحت «محنة» ثابت ومتكرر.

الانفلات من الحدود أو الوعي بها؟

ومن هنا الوجود المتزايد لأشكال الرفض وردود الأفعال، ومحاولات مضاعفة للتغلب على النقص واستعادة الذات كلها؛ حيث نجد للسؤال، الراهني جدا، على صفحة غلاف مجلة الفلسفة المذكور سلفا: «لماذا نحن متعبون للغاية؟»، نجد

David Le Breton, Tenir : douleur chronique et réinvention de soi, Paris, Métailié, 2017.

(1804).Michel Eltchaninoff, « Fatigo ergo sum », Philosophie Magazine, no 134, op. cit., p. 46.

(1805).Clara Malraux, Nos vingt ans, Paris, Grasset, 1966, p. 147.

(1806).Emmanuel Levinas, Totalité et Infini : essai sur l'extériorité, La Haye, Martinus Nijhoff, 1971.

انظر:

Henri Duthu, « Au-delà du sens commun : avec Emmanuel Levinas », Espace éthique, «Lassitude », 23 octobre 2005, http://espacethique.free.fr/articles.php?lng=fr&pg=123.

الجواب بصيغة أمرية، وهو راهني بدوره، على صفحة غلاف مجلة الصحة تعنيني، في ديسمبر 2019، : «لننتهي من التعب[1807]»؛ وهو قرار متعمد لتحرير الذات من معيش «لا يحتمل»، وجديد على ما يبدو. وهكذا يكشف التساؤل والجواب عن يقين، وهو اكتشاف بقدر ما هو حالة طارئة: أي الشعور بتوترات أقوى، وتصميم على راحة أقوى أيضًا؛ وذاك هو الدليل الوحيد، مهما كان الأمر، على شحذ وتطور مستمر في الإدراك كما في التنديد.

يظل الهوس الدوائي ولا يمكن نسيانه. فقد تضاعف سوق الأدوية بثلاث مرات في فرنسا بين عامي 1990 و2017[1808]. إنه يهم المضادات الحيوية بقدر ما يهم مضادات القلق، وبقدر ما يهم أيضا العلاجات والراحة، وأشكال التعب، مثلما يهم حالات الضيق الحميمية؛ حيث لا يمكن محو المخيال المثير، الذي تحمله كيمياء «أكثر تقنية» و «قابلة للتسويق». ومنه النجاح الذي لا زالت تحققه الصيغ التي تعد بالمقاومة العضوية و«بالتجاوز»:

إن الظروف المعيشية الحديثة، والتنافس والمنافسة المحمومة بين المرشحين للحصول على دبلوم ومنصب ونجاح واعتراف مهني أو مكافآت عاطفية، تجعل من الضروري اللجوء إلى منتوجات مقوية وتحفيزية[1809].

ومنه أيضًا هذا التاريخ الذي لا ينتهي للمنشطات في الأوساط الرياضية؛ حيث البحث السري والمحموم للحد كيميائيا من تعب الأبطال، ومنه الرد الرسمي والشاق المكون من ضوابط صعبة للحد من المخاطر الصحية لمثل هذه الإجراءات[1810].

(1807) « En finir avec la fatigue », Ça m'intéresse. Santé, décembre 2019..

(1808). انظر:

Olivier Monod, « La France fait-elle partie des plus gros consommateurs de médicaments dans le monde ? », Libération, CheckNews.fr, 29 juillet 2019.

(1809).300 Médicaments pour se surpasser physiquement et intellectuellement, Paris, Balland, 1988, p. 15-16.

(1810). انظر:

يبقى أن الرد اليومي العكسي؛ أي ذاك المشكل من أشكال من العياء الرتيب واليومي نفسه، قد تغير بشكل غير محسوس في العقود الأخيرة. إنه رد عكسي يعبر عن ذاته بشكل آخر، ويستهدف أشياء أخرى. لا يعني ذلك أن المشقة البدنية قد تلاشت، ولكن الجانب النفسي، مرة أخرى، قد فرض نفسه إلى حد كبير، وأعاد، قبل أي شيء، صياغة نفسه. فهو الذي تستهدفه، أي الجانب النفسي، بشكل غير مسبوق الأساليب العديدة التي لا تحصى والتي تبحث عن «التخفيف»، بما في ذلك تلك التي تنطوي على المشقة. فقد تكاثرت المجلات الجديدة، التي صارت تعمم النصائح، وتخلط بين الذهني والحساسية، والقرارات والمشاعر، والتي تركزت، منذ العقد الثاني من القرن العشرين، على «الاسترخاء»، وعلى «التوازن الداخلي»، وعلى «الاهتمام بالذات». وهو ما تؤكده العناوين والعناوين الفرعية: **تنفس. اخلق الوقت لنفسك**(1811)**، في اللحظة. فأن تكون أنت، شيء لا ينتظر**(1812)**، دنا [ADN]. الأساسيات: دليل الرفاهية اليومية**(1813)**، المعنى والصحة. الجسد، الذهن، العالم**(1814). حيث يقع الضغط النفسي في قلب المقاومات المتوقعة، واستعادة الهوية في قلب المشروع. مثل رفض أي «عبء ذهني» يضر بالمساواة بين الرجل والمرأة، والذي هو في صميم إثبات الذات الأنثوية.

إن إبعاد الإكراهات يفرض نفسه في المقام الأول، مثل «الفراغ» الذي يتكرر، والذي اقترحه **سيدريك فيلاني**، ليصد بشكل مؤقت أي بحث يعتبر مملا ومتعبا: «أضع دماغي في عجلة طليقة؛ فعلى سبيل المثال، مع فترات راحة لمدة عشر دقائق، أرتاح وأنسى كل شيء؛ حيث يشارك جسدي فيها، وهذا يجعلني أعود إلى عمقي،

Jean-François Bourg, Le Dopage, Paris, La Découverte, 2019. Voir aussi Georges Vigarello, «Le sport dopé », Du jeu ancien au show sportif, op cit., p. 169-189.

(1811).Respire. Créer du temps pour soi, premier numéro 15 février 2017.

(1812).In the moment. Parce qu'être soi n'attend pas, premier numéro janvier 2018.

(1813).ADN. Les essentiels, premier numéro 14 mars 2017.

(1814).Sens et santé. Le corps, l'esprit, le monde, premier numéro mai 2017.

إلى غاية عمق الخلايا[1815]»؛ أو «التسلية» الذي اقترحته **أنيس فانيل**، والتي هجرت بشكل شبه نهائي مكتبها كناشرة باريسية لتركب أمواج المحيطات، مدعيا أنها وجدت فيه «فيها لأصل تعب[ها][1816]». فكل شيء يقوم، بعيدا عن الـ «استرخاء» أو «قطع الاتصال»، على عمل على الوعي: بتفضيل الفضاء الداخلي، واكتشاف العلامات، وتحديد العقود، وتحديد (موطن) الآلام.

إنه تقويم منتظم؛ حيث إن «التغلب على التعب هو أولا معرفة كيفية الاستماع إلى إشارات الجسم[1817]». إضافة إلى رؤية جديدة؛ حيث يخترق النموذج المعلومياتي بشكل نهائي البدن: أي تعزيز «اتصالات»، و«التشفيرات»، و«العلاقات البينية»، وربط الاستمرارية بين الوعي والرسائل المحتملة، بين الحساسية والتحكم الإجباري؛ إنها شبكة لا تنتهي حيث يصير للـ «جسد» نفسه بعد شبه سيكولوجي، من خلال نظام من أشكال من التنسيق والتقاربات والتنبيهات الحساسة، التي يفترض فيها أنها تشكل وحدة. لكن هذا لا يخلو من استيعاب بعض الاقتراحات التافهة ببساطة، عبر اقتراح تحسين «إدراك الضغط النفسي» في «أربعة عشر سؤالًا»[1818]، «بتحرير الذهن» في «عشر مراحل»[1819]، باختيار خمسة خيارات ممكنة «للاستماع إلى المشاعر[1820]»؛ أو، هذا مع اللجوء إلى صيغة سحرية، مثل الطقوس التنفسية التي تقترحها مجلة **معنى وصحة**: «من الآن فصاعدًا، امنح نفسك دقيقة من الهدوء. استنشق الهدوء، وازفر الضغط. استنشق الحيوية، وازفر التعب[1821].» إجابات سخيفة طبعا، عبارات مجانية تقريبًا،

(1815).Cédric Villani, « Je mets mon cerveau en roue libre », Clés, décembre 2014, p. 56.

(1816).Anaïs Vanel, « J'ai tout quitté pour aller faire du surf », Ça m'intéresse. Santé, décembre 2019, p. 49. Voir aussi Anaïs Vanel, Tout quitter, Paris, Flammarion, 2019.

(1817).« Vaincre la fatigue, c'est d'abord savoir écouter les signaux du corps », Ça m'intéresse. Santé, décembre 2019, p. 57.

(1818).«Perception du stress», ADN, les essentiels, no 6, décembre 2019, « Spécial bien-être », p. 50.

(1819).« Libérez votre esprit en dix étapes », Respire, no 1, p. 8.

(1820).« Cinq façons d'écouter vos émotions », Respire, no 5, p. 27.

(1821).« Évacuer le stress », Sens et santé, no 2, p. 25.

وإجراءات سطحية بدون نتيجة، إلا أنها تؤكد على الأقل غزو الانشغال. بل إنها إثبات لرغبة دقيقة: استعادة وحدة شخصية عن طريق الإحساس بها أولا في تقوية المحسس، في تملكه، وفي فرادته. بعبارة أخرى، استعادة الجوانية، بعبارة أخرى، لمواجهة تعب يُعتقد عموما أنه يوجد في الخارج: «فحينما يصبح العالم من حولنا قمعيًا ومحمومًا، يمكننا أن نجد الهدوء والسكينة حينما نلج فضاءنا الداخلي[1822]». وهنا يكمن الفرق كله مع أوامر القرن التاسع عشر، التي تهدف بالفعل إلى الترميم، لكن في الفعل، وفي الممارسة، وفي مواجهة الوسط. لقد تغير الرهان بشكل نهائي وتعمق، مستهدفا بالأحرى مواجهة الذات مع نفسها، إلى غاية الطريقة التي تُقارب بها هذه البرانية نفسها؛ أي الأنا التي تسبق بشكل قطعي الفضاء، إلى حد استخدامه لاختبار الذات نفسها بشكل أفضل:

أن تجدي نفسك مع نفسك في قلب الطبيعة. متربعة في جلستك، وأترك المكان والبعد والصمت يتصرفون في داخلي. أتمهل بفضل الطبيعة الأم – بعيدًا عن الضغط وحركة المرور وقوائم المهام. أنا سعيدة [1823]

كل الاختلاف أيضًا مع ممارسات جديدة إلى حد كبير، تقع مقابل الراحة، ولكنها جعلت بدقة لتشعر بالجوانية بشكل أفضل، واللعب بالحدود، وأن توجد بشكل أكثر كثافة، وإعادة تملك الذات، حتى ولو في الألم، التي هي الهوية أولا. يصر كتاب أنثروبولوجيا الجديد على أن «أية مواجهة مع الحدود تمثل تحولا في الفرد[1824]». وهو ما تظهره العديد من التجارب اليوم، متناقضة في مقابل عالم اشتهر بأنه «مُتعَبٌ»، ولكنها متركزة على الإثبات الشخصي، والاستماع والاهتمام بالذات: «الرياضة القصوى (الخطرة)»، و«هبوط شديد»، «سباق شديد»، و«عبور شديد»، وجميعها محاولات «خارقة (ولا تصدق)»؛ لأنها تلعب على

(1822).« Moment de sérénité », Respire, no 19, p. 121.

(1823).My Switzerland : la nature te veut, dépliant touristique, Genève, 2019, p. 73.

(1824).Gérard Bruant, Anthropologie de l'effort : expériences vécues et représentation du monde, Paris, L'Harmattan, 2017, p. 69.

التحديات والتجاوزات والمنافسات، تبدأ من الجبال وصولا إلى المحيطات، من الحافات المدوخة إلى تسلقات تطل على المرتفعات، من المسارات الأكثر قابلية للتنبؤ إلى الرحلات غير المؤكدة أبدا... وهو ما عرف العديد من علماء الاجتماع تحديده من خلال الحديث عن هوايات ثورية: «مواجهة الأخطار والمخاطر المميتة التي تتطلب اختبار للاستقلالية والذكاء والجرأة والمثابرة [...]»[1825]. تتراكم الأمثلة الحديثة: «قطر المجانين» في لاريونيون، و«ماراثون الرمال» في المغرب، و«سباق مون بلان»، وسباق «أثينا-إسبرطة في خمس وثلاثين ساعة بدون توقف[1826]»، أو أيضا «إنجاز» الذي خرج منه **مايك هورن** بكتاب حقق نجاحًا: «أن تنجح فيما لم يجرؤ أحد على تجربته: قم بجولة حول العالم بتتبع خط الاستواء[1827]». أو أخيرًا في هذه البادرة «المهلوسة» تقريبًا؛ أي الألعاب الرياضية الثلاثية التي أجربت في المكسيك سنة 1998: 76 كيلومترًا من السباحة، و3600 كيلومتر من ركوب الدراجات، و844 كيلومترًا من الجري[1828].

تلك هي طريقة الإطالة، ربما يمكن تكرار قول ذلك، فيما سبق أن اخترعه التنوير، لكنه دفع لمسافة أبعد، معززا، كما لم يحدث من قبل، الانتماء إلى الذات، وإلى اللامحدود. ينعكس التعب هنا مرة أخرى في المتعة والحساسية المتحكم فيها. ومنه العديد من ردود فعل، التي وإن اختلفت، في الأخير، إلى حد كبير، إلا أنها

(1825).Olivier Bessy, Le Grand Raid de la Réunion : à chacun son extrême et un emblème pour tous, La Réunion, Océan Éditions, 2002, p. 19.

(1826).Carla de Silva, « Philippe Richet, adepte des raids extrêmes », France Bleu, 15 janvier 2020 :
https://www.francebleu.fr/emissions/le-temoin-du-jour/gascogne/phlippe-richet-adepte- des-raids-extremes.

(1827).Sous-titre du livre de Mike Horn, Latitude zéro : 40 000 km pour partir à la recherche du monde, Paris, XO Éditions, 2001.

(1828).Reto Lenherr et al., « From Double Iron to Double Deca Iron Ultra-Triathlon : A Retrospective Data Analysis from 1985 to 2011 », Physical Culture and Sport. Studies and Research, vol. 54, 2012, p. 55-67. Voir aussi Raphaël Verchère, Philosophie du triathlon : ou les joies et les souffrances de l'Hercule moderne, Le Crest, Éditions du Volcan, 2020, p. 113.

متطابقة من حيث المشروع: من تجربة الفراغ إلى تجربة الامتلاء، ومن تجربة الاسترخاء إلى تجربة «الهيجان»، يبقى الهدف هو زيادة أو استعادة الاستقلالية.

فهل لا يزال من الضروري العودة إلى التعب المهيمن، تعب تفاهة الأيام، وتعب اليومي، الأكثر تفاهة، التعب الذي نشعر به بشدة اليوم، والأكثر ضغطا على الفور أيضًا؛ لأنه مهدد، أكثر من ذي قبل، وفي ذلك مطلب جديد في تملك الذات. ومنه هذه الأوامر، غير المسبوقة تماما، مفضلة أشكالا غير متوقعة من القبول، أي من التواطؤ، طالما سيتعمم التعب، وطالما ستُفرض بداهته: صلابة، للرد عليه، أقل من التواطؤ، وصرامة أقل من الليونة، شريطة الحفاظ على الهوية أو، أيضا، تقويتها. يقترح **إريك فيات** في هذا الصدد دفاعًا جد متميز، يتألف من وعي واهتمام بالقدر نفسه، ويقظة مستمرة مهدئة، و«ساكنة»:

إن التعب، على كل حال، متعدد الأشكال إلى درجة أنه لا توجد فرصة للسيطرة على هذا العدو الذي يخرج من كل مكان [...]. أقترح التخلي عن استعارات القتال وأن أكون القصبة في ***خرافة لافونتين****. يريد بعض الرجال أن يكونوا أشجار سنديان لا تتعب. المشكلة هي حينما تصل الريح، يقاوم السنديان، ثم تُقتلع جذوره في الأخير. أن تكون قصبة يعني أن تقبل التعب*[1829].

ذاك انقلاب كبير أبرز مكانة الحميمي، وعمله وعمقه، وديناميكيته الحاضرة دائما في قلب مجتمعاتنا الغربية المعاصرة، بعيدًا عن تقليد طويل يجعل التعب في الجسد وماديته فقط. انقلاب كبير أخيرًا؛ حيث إنه، وفي عمق الوعي، وبالأخص

(1829).Éric Fiat, « La fatigue permet un autre rapport au monde », Ça m'intéresse. Santé, décembre 2019.

انظر أيضا:

Éric Fiat, Ode à la fatigue, Paris, Éd. de l'Observatoire, 2018, p. 398 :

" لائحة لأنواع من التعب التي تشكل جزءا من الوضع الانساني، والتي يمكننا أن نجعل منها أصدقاء لو تحملناها".

أن هذا العمق قد ازداد، غدا التعب نمطا من الوجود ثابتا وتافها في الآن نفسه، الشيء الذي فرض في النهاية، للقيام بتحالف معه (أي مع التعب نفسه)، للتطابق بشكل أفضل مع الذات.

أصبح التعب، والضعف المنتشر، وعدم الرضا الغامض، والعجز العاصي أنماطا لوجودنا في عصرنا.

الفصل الثلاثون

مفاجآت وأخطار «فيروسية»

إن وباء كوفيد-19، الذي ظهر في نهاية عام 2019، والذي تأجج فجأة، وانتشر فجأة، قد قلب السلوكات اليومية، وحول جذريا العادات على أوسع نطاق: الحجر الصحي الدائم للسكان، وتعليق أنشطة لا حصر لها، والحد من التبادل، واستثمارات ضخمة في حماية الكل. وأطال الخروج من الأزمة الترددات والصعوبات. واستئناف النشاط لم يمح الشك ولا القلق. ويستمر عجز أصم. في حين تبدو النتائج على التعب كثيرة: صعود أشكال جديدة من الإنهاك، وتقاطع مستمر بين العياء والتوجس، بل وحتى الخوف، ومحو حركات (الجسم التي) ظلت بديهية لمدة طويلة، وظهور حركات أخرى إجبارية أكثر، بما في ذلك المسافة البدنية الواضحة التي يجب احترامها من لدن كل واحد، تسمى «إجراءات(حركة) عازلة». وبدا عالم «الأمس» القريب جدًا بعيدًا، مفقودًا، وتغيرت المعالم المألوفة، وتحول المكان والزمان، وفرض الجديد نفسه، الذي كان غير متوقع إلى حد كبير. ينضاف إلى ذلك شعور بالضعف البدني الذي أنسانا إياه الانتشار المستمر للتقنيات.

ولكن ما هي التغييرات التي تعد موضوع هذا الكتاب ؟ وهل تقوضت الرؤية المعاصرة للتعب؟ وهل طريقة التفكير فيه وتمثله قد صارت باطلة؟ هناك الكثير من الأسئلة الضرورية لفهم خصوصية حاضرنا بشكل أفضل.

الجديد في هذا بلا شك هو عدد من الفاعلين الذين كانوا موضع اعتبار، وتم تتبعهم بشكل أفضل وملاحظتهم بشكل أفضل، ومنهم، وذلك من بين آخرين، المعالجين الذين يحتلون اليوم في الأوبئة مكانًا مميزًا، مثلما كان يشغل في مجال الدفاع في العصور الوسطى المقاتلون أو المحاربون. جديدة أيضا هي أدوات الحماية

الجماعية، التي ولدت أشكالا من التعب غير المتوقع، مثلما كانت تستطيع إثارته، في فترات منسية (قديمة)، ممارسات أو هيئات (بدنية) إلزامية. جديدة هي أيضا وسائل الاتصال الجديدة التي انتشرت فجأة، مطورة الإجراءات، ومتغلبة على المسافات، ومضاعفة للشبكات والشاشات، مع جعل التبادلات أكثر مشقة وأكثر ثقلا، في حين جعلتها حداثتنا أكثر سلاسة وأكثر يسرا. ولا نهائية هي أيضا أشكال تجديد الحركات والآليات والتفاعليات؛ لا نهاية لفرص الإحساس بالعقبات أو الصعوبات.

مما لا شك فيه وجود استمراريات واضحة. فقد أصبح المرجع «ثابتًا» فيما يخص التعب أولاً، تمامًا مثل «الأمس»، مرجع مرتبط بثقافة أفراد حذرين دائمًا مما يمر بهم، ومما يعيشونه، ومما يفعلونه. ويعده الاعتراف بتنويع هذا التعب نفسه، الشيء الذي يثير، إلى جانب الوقائع المادية المباشرة، وقائع غامضة جدا، ويضاعف المؤشرات «الداخلية»، والانفعالات والأسئلة حول الذات، وهو اعتراف يتوقف على الثقافة نفسها التي تعطي للنفسي الذي هو دوما رهان يزداد أهمية، هذا إن لم يكن غير متوقع. والانفتاح الواعي، في الأخير، على وضعيات مجهولة، والذي يقطع مع التقاليد الجامدة جدًا، والذي أدمج في التعب ما لم يكن فيه، مع تأكيد رؤيته في عمقه وفي تعدديته. تلك هي العديد من التصورات والحساسيات التي لم يزدها الوباء إلا شدة، من دون أن تتغير في العمق المعايير الجديدة التي صارت تنسب إلى العياء أو الإنهاك.

وهكذا أحدث كوفيد-19 ثورة في العديد من عاداتنا، وهون من الأخطار، وجعلنا نعيش في فضاء وزمن بشكل مختلف، وصنع مشقات، على الرغم من أن مخيال التعب الذي صاحب هذا السوء (أي كوفيد-19) لم يتغير حقا.

المعالجون والإنهاك

يأتي المعالجون في مقدمة مخاوف اليوم. وظهر الأمر أكثر أهمية بحيث ضاعف انعداما قويا في الثقة الاقتصادية، في فرنسا، خصوصا في الآونة الأخيرة، من القيود المفروضة على الإنفاق العام على الصحة. تقشف صارم للآثار التي استنكرت بشكل واضح إبان ذلك: فكل «طبيب واحد من كل اثنين[1830]»، حتى قبل ظهور كوفيد-19، في المستشفى في ديسمبر 2019، يقول إنه منهك، مشككا في ضعف المعدات وعدم كفاية الخدمات وتقلص عدد القوى العاملة. نتيجة حتمية على إستراتيجية مقاومة الوباء؛ حيث تتلاقى الشهادات مذكرة بـ «الغضب بسبب المدة الطويلة التي حذر، عبثا، [الأطباء] من نقص الوسائل وعدم سماع هذا التحذير. في حين يحكم وباء كوفيد -19 قبضته على البلد[1831]». تصل أوجه القصور إلى حد تفاصيل الحماية والهيئات التي يكون عليها الجسم، وآثارها على تشنج الحركات، وهوس بسلوكيات [معينة]، والشعور بالهشاشة: «بشكل عام، لا يشكوا المعالجون إلا من المعدات. ومن نقص الأقنعة، ومن البلوزات ذات الاستخدام الواحد التي تولد لديهم الكثير من القلق والغضب؛ [...] فبمجرد أن تتمكن الفِرَق من حماية نفسها بشكل صحيح، إلا وينخفض التوتر[1832].» يبقى هناك إعادة تنظيم سريع للخدمات في مواجهة حالات الطوارئ، وتسريع عمليات إعادة الاستثمار، وزيادة توفير الرعاية الصحية، وتبادل المرضى بين المناطق «الممتلئة [بالمرضى]» والأقل «امتلاءً»، و«عدد كبير من ساعات العمل الإضافي وقلة النوم[1833]». فقد حاول المستشفى ترشيد و«إعادة تمويل» وتطور، بالأخص، تضامن «طبي» أشاد به الرأي العام بشدة، إلى حد أن ظهر طقس غير

(1830).Éric Favereau, « À l'hôpital un médecin sur deux se dit épuisé », op. cit. Voir aussi ci-dessus, p. 350.

(1831).Témoignage d'un médecin hospitalier, « La fatigue et la trouille », Le Monde, 2 avril 2020.

(1832).« Journal de crise des blouses blanches », épisode 15, Le Monde, 7 avril 2020.

(1833).« Coronavirus : les soignants sont épuisés », France Info, 5 avril 2020.

مجهول إلى ذلك الحين: التصفيق من النوافذ، كل يوم على الساعة 8 مساءً، اعترافا بالتزام العاملين الصحيين ضد الوباء.

لقد أظهرت التجربة بصدد مفهوم التعب نفسه، أي مفهوم الإنفاق والإنهاك، ووضحت وأثبتت التغيرات الأخيرة: لقد تغير التقويم وتغيرت المشاعر، والشكل الذي يتم به الإحساس تغير. ولم يعد التقدير هو نفسه، وتضاعفت سجلات «المعاناة»، مثلما تضاعفت الإحالات أو الأشياء. ومما لا شك فيه أن الإنفاق البدني، دائما ما يثار، باستثماراته واضطراباته المختلفة:

تصل في الساعة 8 مساءً عربة من المرضى. ومن المستحيل التوقف قبل الساعة الـ 2 صباحًا. حركات آلية في اللباس وفي نزعه، استجواب، وفحوصات بدنية وما بعد-سريرية. نركض في جميع الاتجاهات، غرفة تلو الأخرى، لا تقل عن خمس عشرة في كل هذه الوحدة [...] ترى التعب على جميع الوجوه(1834).

تستعيد الأوصاف السلوكات والحركات والبروفايلات: «تؤكد الكائنات الآلية الحركات اليومية، ولكن في الممرات، يبدو أنها تسير فاقدة للوزن. تقرع أجراسها، وهي في حالة تيهان، وكأنها ضائعة قليلا(1835)».

ومع ذلك من المستحيل التمسك بهذه الملاحظات [فقط]؛ لأنه ينضاف إلى ذلك شبكة من التوترات الحميمية جدا؛ بحيث يُهتم بشكل مختلف بالتعب؛ وتأثيرات «معنوية» أو علائقية، تلك التي طالها الإهمال في التقليد، لكنها أصبحت أكثر حساسية وأكثر وعيًا، إلى حد التأثير المباشر على الشعور بالمشقة: أعباء ضرورة الانتصار الممنهج على المرض، وتراكم القرارات السريعة والتأثر نفسيا بالسوء، والخوف على الآخرين وعلى الذات، وحياة يومية ابتلعتها بالتدريج

(1834).« Soignants : "Je pense Covid, je mange Covid, je dors Covid », Libération, 5 avril 2020.

(1835).Jean-Paul Mari, « À l'hôpital, vague de fatigue et vague à l'âme », Libération, 20 avril 2020.

ممارسة المهنة، وتم شرح جميع الحالات على النحو الواجب. ويشارك «الإحساس بالضيق» هنا الإنهاك. وعدم اليقين والانتكاسة الممكنة دائمًا يحددان بدقة القساوة. والإبداع أخيرا، والذي يكشف عن مدى أهمية المكان الذي اتخذه التفرد، وأصبح حديث الفاعلين أكثر حضوراً. إنه يستعيد الوقائع، ويجسد «المعيش». وتعبر الصعوبات عن نفسها، وتعبر الاضطرابات عن نفسها. وتنشر الدوريات نفسها شهادات كل واحد: «يوميات أزمة أصحاب البدلة البيضاء» (جريدة **لوموند**)، و«السجل اليومي للأزمة الصحية الخاص بالمعالجين» (جريدة **ليبراسيون**). لقد كشف الوباء، أكثر من أي وقت مضى، ما اقترحته العقود السابقة حول التعب، فيما يخص شخصنته وتعقده.

لا يمكن للشعور بالإكراه المرتبط بالنشاط إلا أن يزداد، والعياء إلا أن يضاعف جوانبه، مثلما يضاعف موضوعاته، بدءاً بمواجهة ألم مجهول: «لقد كان قلقا شديدًا تغلغل في كل شيء، وكان على الجميع تدبيره في أذهانهم[1836].» يرتبط هذا بالشعور بـ «فشل» ممكن ودائم، وبمفاجأة أشكال من تفاقم الوضع غير المتوقع، وبإثارة التعاطف. ومنه كلمة «الضغط» هذه التي تتكرر دائمًا :

لقد صدمتنا السرعة التي تتدهور بها الحالة الصحية للمرضى. إنه أمر مرهق للغاية لأنه يمكننا أن نفقد المرضى حقًا في الوقت الحالي. سندفع ثمن هذا الضغط فيما بعد. هناك خطر حقيقي من الضغط اللاحق-للصدمة عند المعالجين، بغض النظر عن مهمتهم[1837].

يؤكد بالتالي فعل الرعاية، إلى درجة الرمزية، مدى كون أخطاره النفسية وتعقيده، وانتظاراته الإنسانية المكثفة التي يثيرها قد منحته قيمة مثال، هذا منذ الثمانينيات، نموذجا لكل التحديدات الأولى للاحتراق النفسي، ونموذجا لمخاطر «القطيعة» الشخصية التي يمكن أن يتعرض لها بعض الفاعلين بشكل بيّن. بالطبع

(1836).« Journal de crise des blouses blanches », épisode 14, Le Monde, 9 avril 2020.
(1837).Ibid., épisode 9, 31 mars 2020.

كان المعالجون هم الذين يحملون تحديدات أولية لهذه الأعراض: «أدت دراسة هذه الفئات المهنية إلى الاهتمام بالمواجهات المتكررة مع الألم أو الفشل كأسباب عددة لمتلازمة الإنهاك المهني[1838]». وتؤكد كلمات معالجي كوفيد-19 ذلك، كاشفة عن هذا التعب بمئات الوجوه، الذي صار اليوم أفضل قياسا؛ (حيث) ارتبط في هذه الحالة بخوف منتشر وبتقويم غير دقيق، وبعجز، وباجتياح للفضاء الذهني. ومنه جاءت هذه الأوصاف عن زمن صار مشبعًا يتسلل إلى الحياة اليومية ويبتلع اللحظات: «ينشر الوباء بشكل غير مباشر عدواه على كل شيء [...] فلا وجود ليوم عطلة[1839]»، يقول طبيب طوارئ باريسي، و«لا وقت للراحة، حتى ولو كنت في راحة أمنية [...] الراحة الحقيقية غير موجودة[1840]»، يضيف طبيب داخلي من بيزانسون. النوم نفسه متقطع، تمرد على أية سكينة: «ليلة الأربعاء 18 مارس، لم أتمكن من النوم. ومع ذلك، وكالعادة، أراكم الانفعالات[1841]».

لقد عد هذا الوجود مقيدًا، فالمقاومة مستحيلة للوقائع، وفجوة في الهوية وفي صلابتها، وليس فقط الثقل الوحيد للأفعال التي استقرت في قلب المشقة. فالرهان الاجتماعي والبشري يعد هنا أمرا أساسيا، إلى درجة أنه رغم الفسحة المحتملة للأزمة، وأمام وعود إدارة جديدة للمستشفى، يظل الفاعلون متشككين بشكل واضح: «معالجون» متعبون ومشمئزون، مثلما عنونت جريدة لوموند عدد 18 يونيو 2020[1842].

(1838).« Épuisement professionnel et burn out », INRS, op. cit.

(1839).Raphaëlle Rérolle, « Les jours sans répit d'un urgentiste parisien », Le Monde, 4 avril 2020.

(1840).« Soignants : "Je pense Covid, je mange Covid, je dors Covid », Libération, op. cit.

(1841).Sandrine Blanchard, « Journal de bord d'un médecin de campagne victime du coronavirus », Le Monde, 2 avril 2020.

(1842). انظر أيضا:

Thierry Philip et Jacques Leglise, « C'est l'ensemble du système hospitalier qui nécessite une réforme », Le Monde, 17 juin 2020.

لا يزال الوباء يضع في الصدارة المهن الضرورية للتدبير الجماعي: «حيث يعمل عشرة ملايين من شرطة، وصرافات، وجامعي القمامة، أو حتى العاملون في التغذية، على الرغم من الأزمة[1843]». تنضاف إليها مهن النقل، والطاقة، والمساعدة المنزلية، والاتصالات إلخ. ويمكن لنظرة عامة، من جديد، أن تقتصر على علاقة بسيطة، وأن تربط زيادة التعب بالإنفاق البدني فقط: زيادة في الحاجيات، وحالات الطوارئ أكثر إلحاحًا، وأعباء أكثر ثباتا. وهو ما يؤكده تمديد ساعات العمل، إلى غاية إضفاء الطابع الرسمي عليها. وعدلت مذكرة مارس 2020 «الحد الأقصى لوقت العمل خلال الأزمة» في القطاعات التي يُعتقد أنها «ساخنة[1844]» (الاتصالات، والغذاء، والطاقة، والنقل) إلى اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وستون ساعة للأسبوع[1845]. وأرقام بارزة تكشف عن قلق السلطة السياسية، مثلما تكشف قلق السلطة الاقتصادية، مع إثارة احتجاج نقابي بيِّن؛ وتناقض لا يمكن التغلب عليه بين متطلبات الإنتاج ومتطلبات الحماية: «إننا نخاطر بإضافة خطر الإصابة بالوباء إلى خطر الإصابة بالتعب، والإنهاك بساعات عمل أطول ويقليل من أوقات الراحة[1846].»

بالإضافة إلى هذه الأعمال الزائدة، فإن التعب يظهر، رغم ذلك، من جديد، أكثر تعقيدًا، والذي غالبا ما يستدعى، والأكثر تنوعا من حيث الإحساس به. آثار الخوف أولاً، وصداه البدني، إلى غاية طلب تخفيف الوجود في العمل الذي عُدَّ

(1843). انظر:

Aurélie Lebelle, « Coronavirus : le palmarès des emplois les plus vulnérables », Le Parisien, 28 avril 2020.

(1844). انظر:

La communication de LCI du 27 mars 2020.

(1845).L'ordonnance no 2020-323 du 25 mars 2020 portant mesures d'urgence en matière de congés payés, de durée du travail et de jours de repos.

(1846).Yves Veyrier, secrétaire générale de Force ouvrière, La Croix, 25 mars 2020.

«مسيئًا»: «كل هذه الإجراءات التي تم الإعلان عنها أو تأكيدها يومه الإثنين، لا تحصنها ضد شعور صار متقاسما بشكل متزايد بين أولئك الذين يضطرون للذهاب للعمل في أزمنة الوباء هذه: إنه الخوف [...] يجب تقديم ضمان خدمة بـ «مصباح في البطن»[1847].» أو هذا الاعتراف من لدن «عامل نظافة»: «حينما أصل أحس بآلام في المعدة[1848]». وآثار التوترات بين الأشخاص فيما بعد، المرتبطة بالعلاقات مع زبناء أنفسهم أكثر قلقًا، إن لم يكونوا أكثر تعذبًا: «يبدأ التعب في الاستقرار البدني والنفسي قبل كل شيء. كانت الأيام الأولى صعبة للغاية، مع الكثير من السلوكيات غير المتحضرة[1849].» أو هذا التمييز الذي قام به سائق سيارة أجرة في تحديد القلق وضرره المنتشر: «في الليل يكون التعب بدنيًا، ولكن في نوبة النهار يكون الزملاء سريعي التأثر بسبب الاختلاط مع الزبناء[1850]». آثار الوضعية في الأخير: يشعر العديد من العمال أنهم يراكمون الإنفاق (البدني) والجهود، والمخاطر والأخطار، دون أي اعتراف يخفف من انطباعهم عن التعب. وهو ما يؤكده مقدمو المساعدات الطبية في المنزل: «نحن الطبقة الدنيا، تلك التي لا نتحدث عنها[1851]»، «عمل العبيد[1852]»، كما يقول شاهد؛ حيث يزيد نقص التدريب المتخصص من الأعباء، وحيث يزيد نقص الحماية من القلق، وحيث يؤدي عدم الامتنان، أخيرًا، إلى إتمام الشعور بالضيق: «تلك مهمة صعبة للغاية، إنسانية جدًا، ولا وجود لأي اعتراف، خاصة من لدن الجسم الطبي (مجموع

(1847).« Commerces, usines, transports : ces Français qui vont travailler "la boule au ventre" », Mediapart, 4 avril 2020.

(1848).

« Avec la crise sanitaire, les travailleurs invisibles sortent de l'ombre », Le Monde, 1er avril 2020.

(1849).Ibid.

(1850).Ibid.

(1851).Laurence Defranoux, « Auxiliaires de vie : "On est la basse classe, celle dont on ne parle pas", Libération, 24 avril 2020.

(1852).Ibid.

الأطباء»[1853]. لاسيما أن هناك هيمنة مرتبطة بالجنس؛ مهن نسوية، ومهن متدنية-القيمة: حيث تمثل النساء «ما مجموعه 87٪ من الممرضين و91٪ من مساعدي-المعالجين في فرنسا»[1854]. وهيمنة أكثر نوعية أخيرًا، ولكن بعواقب مماثلة، مع «مستخدمي الخدمات اللوجستية» على منصات الخدمات: «بالنسبة إلينا، تتجاوز شركة أمازون حقوقها. إنه صراع غير متوازن بين قوي وضعيف»[1855]؛ على الرغم من أن المدعي العام لولاية نيويورك، ليتيسيا جيمس، تقدر، في رسالة مؤرخة في 22 أبريل 2020 أن «شروط الأمان في المستودعات غير كافية»[1856]. وتبقى هذه الكلمات، التي تتكرر بانتظام، مع أنها تخترق مختلف الوضعيات: «نحن بحاجة إلى الاعتبار»[1857]، لا شيء سوى عجز وإذلال يزيد من العياء والإنهاك.

تبدو، عكس ذلك، الزيادة في العمل عن بعد، حينما يمكن تحقيقه، أكثر ملاءمة. وتكشف الاستطلاعات عن 58٪ من المستجوبين ممن لهم جواب إيجابي: لأنه يعفي من الرحلات، ويحقق الاستقلالية الموعودة، ويمكن من مرونة أكبر «بين الحياة الشخصية والحياة المهنية»، والشعور، الذي غدا مذ ذاك أساسيا. «ثقة» جديدة و«تفويض» ممكن «للمسؤولية»[1858]. وتختفي عدد من أسباب التعب، ويتم تخفيف عدد من العلاقات بين-الشخصية، بالانفتاح على إمكانات لم يكن

(1853).Ibid.

(1854).Claire Legros, « Le souci de l'autre, un retour de l'éthique du "care" », Le Monde, 1er mai 2020.

(1855).Lucie Delaporte, « Les ouvriers de la logistique sont devenus les "caryatides du monde moderne" », Mediapart, 4 avril 2020.

(1856).Alexandre Piquard, « La controverse politique rattrape à nouveau Amazon aux États- Unis », Le Monde, 6 mai 2020.

(1857).« Avec la crise sanitaire, les travailleurs invisibles sortent de l'ombre », Le Monde, op. cit.

(1858). انظر:

Bertrand Bissuel, « Une conversion au télétravail plutôt réussie », Le Monde, 1er mai 2020 : http://tnova.fr/notes/la-revolution-du-travail-a-distance-l-enquete-montravailadistance-jenparle

من الممكن التفكير فيها قبل الآن: «ارتجال طرائق جديدة في التعاون مع الزملاء والتعايش مع الأزواج والأطفال[1859]». تنضاف إلى ذلك حماية إضافية ضد الوباء.

ومع ذلك، تبقى هناك مقاومات غير مسبوقة بدورها. فلا يستسلم التعب على الفور للإبداعات الجديدة للوسط؛ حيث أشكال عدم الرضا تقول ذلك، وتكشفها العوائق. إن العمل عن بعد أيام كوفيد-19، وذلك في إطار أكبر، يزعزع أيضا فضاءاتنا وأوقاتنا المعتادة. وتكشف الاستطلاعات عن «نفاذية» إشكالية بين جوانب مختلفة من الحياة اليومية، وتتسلل المخاوف المهنية إلى ساعات ولحظات كانت سليمة قبل ذلك: «فبالنسبة إلى المأجورين الذين لا يستطيعون تحقيق أهدافهم، سيكون من الضروري عليهم العمل في المساء وفي عطلة نهاية الأسبوع[1860].» أو الفضاء الخاص مرة أخرى الذي تقتحمه حركات وأشياء كانت منفصلة قبل ذلك: «إنني أعمل على طاولة المطبخ، لذلك نأكل على الطاولة القصيرة في غرفة الضيوف؛ أما إعداد الوجبات فيكون أمرا معقدا[1861].» تصر **دانييل لينهارت** على مناخ «مثير للقلق[1862]» يزعج الإطار الحميمي بأن يأذن، عن طريق الغزو التقني، بـ«مراقبة رقمية» من لدن الإدارة، إلى درجة حتى خيانة الغرض من العمل نفسه، أي «معناه وفائدته[1863]». يتسلل التعب هناك حيث يبدو مجهولا، وتنشأ آلام هناك حيث تبدو منسية: «يقول 40٪ من المستجوبين إنهم يشعرون بآلام بدنية غير عادية»، آلام الظهر وتشنجات وضغوط؛ و«29 ٪

(1859).Ibid.

(1860). انظر:

Amandine Cailhol, « Télétravail : le boulot compresseur », Libération, 29 avril 2020.

(1861).Ibid.

(1862).Danièle Linhart, « L'activité se retrouve déconnectée de sa finalité sociale », Libération, 29 avril 2020.

(1863).Ibid.

بقلق غير معتاد»، مع هيمنة ذلك في صفوف النساء اللواتي يتحملن المزيد من المسؤوليات المنزلية[1864].

يظل العمل، على الرغم من تحولاته، مثالا على تشابك توترات بدنية واجتماعية ونفسية. إن الزيادة في الحساسية الفردية، التي هي في طليعة أحداث حاضرنا، جعلت منها يقظة وأصالة.

أزمنة وأمكنة إجبارية

علاوة على ردة الفعل الطبية من خلال الاستثمار في الاستشفاء، وردة الفعل «العمالية» من خلال الحفاظ على حد أدنى من الاقتصاد، تبقى ردة الفعل الحمائية، تلك التي من المفترض أنها تدافع عن السكان. وهناك ممارستان تمكنتا من ذلك: اليقظة فيما يخص الاتصالات (الاحتكاكات بين الأفراد)، واليقظة فيما يخص التنقلات. وأعاد الحجر الصحي الذي امتد إلى الأماكن الخاصة، والذي تطور على نطاق واسع، والذي تشترك فيه العديد من البلدان، ربط العلاقة مع إجراءات كانت منسية إلى حد كبير. بل وكان قرارا غير مسبوق تقريبًا، و«شجاعًا» من الناحية السياسية، لأنه يحد من التبادلات ومن المنتوجات، قرارا كان مجهولا تمامًا خلال الأوبئة القديمة في القرنين التاسع عشر والعشرين. وعلى الأقل يكشف عن حساسية جماعية أكثر حزماً، ترفض قبول أي تسارع مفاجئ وقوي للوفيات الفيروسية.

فهل من الضروري أيضا إظهار آثار ذلك، من وجهة نظر هذا الكتاب: ظهور التعب في الحميمية المنزلية، بينما لا يوجد هناك قبليا أي إنفاق أو جهد جديدين، و«إنهاك» للسلوك، بينما لا وجود هناك لأي فائض ولا إفراط جديدين أيضًا؟

(1864). انظر:

Amandine Cailhol, « Télétravail : le boulot compresseur », op. cit.

هناك قلق أصم نشره الفيروس، وكان هو أول مظهر من مظاهره: الشعور بالقمع، وأثره على الراحة البدنية، والسكينة واليسر. وهو ما رددته العديد من «الاتصالات بـالأخصائي النفسي» بمراكز الاستماع الجديدة: «هناك العديد من نوبات القلق ونوبات الهلع المرتبطة بالوضع الحالي[1865]». أو هذه الحادثة، التي بلغت ذروتها هي أيضا، تلك التي عاشها مسافرو زاندام، وهي سفينة سياحية تبحر بين المحيطين الهادي والأطلسي في نهاية مارس 2020؛ حيث منعت من الرسو بسبب وجود كوفيد-19 على متنها، وهو حدث غيَّر من السفر إلى حد حوله من «الحلم إلى الكابوس[1866]». أو هذه القصص المتكررة من القلق تلك التي أثارتها عدد من المجلات بعدها؛ «جوانب من عالم انفلت من تحت أقدامنا، وحيث انهارت المعالم التي ظننا أنها أبدية[1867]». جميع الأعراض تفضل انطباع الصد والمقاومة وعدم الاكتمال: صعوبات في القيام بها وتحقيقها، وتحولت إلى «مشقة» لا ترحم.

ربما يجب أن يقال مرة أخرى إن المقولات الأنثروبولوجية الكبرى عن الفضاء والزمن قد تزعزعت، الشيء الذي يخلق أيضا مثل هذا التنافر: إقامات إجبارية أو معزولة، ولحظات عابرة أو غير مؤكدة، وولوج غير ميسر أو محظور. تلك هي الملاحظات المتكررة: «يعاش الالتزام بالبقاء في المنزل بمثابة ضرر يمس الحرية الفردية. علاوة على وجود مفهوم الخطر في الخارج، لذلك يخلق هذا مناخًا محيطيًا من انعدام الأمن الصحي[1868]». فضاء «مغلق» من جهة، وفضاء «مهدَّد» من جهة أخرى. ومن ثم فإن هذه الاستطلاعات تظهر رد فعل غير النشطين «الجدد»:

(1865).« Journal de crise des blouses blanches », épisode 9, op. cit.

(1866).Annick Cojean, « La croisière à la dérive », Le Monde, 16 avril 2020.

(1867).Doan Bui et David Le Bailly, « Covid Stories », L'Obs, 7-13 mai 2020.

(1868).« Les conseils d'un psychiatre pour bien vivre le confinement », RFI, 24 mars 2020: http://www.rfi.fr/fr/science/20200324-coronavirus-conseils-psychiatre-bien-vivre-confinement.

فـ 21٪ يعانون من مشاكل تقدير الذات، و30٪ من مشاكل التركيز(1869)؛ أو مثل هذا الإصرار على تفاوت متكرر: «أحد الأوجه الأولى لعدم المساواة هو ذاك الذي يوجد بين مَن يقطنون سكنا غير - لائق والآخرين(1870)». وملاحظة **ديفيد لوبريتون** مذكرا بآثار ذلك على جاهزية الجميع: «بالنسبة إلى الآخرين الذين يعيشون في حالة من الاختلاط من خمسة أو ستة أشخاص في مساحات صغيرة جدًا، فمن المعقد أن تجد الوقت لنفسك وهذا «الفضاء الخاص» الذي تحدثت عنه **فرجينيا وولف**(1871)».

والزمن تحديدا، أي هذه المدة التي تميل فيها العديد من المبادرات والإمكانات إلى التلاشي، صار زمن «ملل»، زمن «عياء» خاص، عياء يسعى للخروج منه، بواسطة أجوبة جد متنوعة، أولئك الذين لا يستطيعون تحمله: عبر مهارب وتجاوزات متعددة، ولقاءات غير متوقعة، «إحساس برهاب الأماكن المغلقة، في حين لا تتوقف الشمس عن اللمعان [في الخارج]. [...] يختار البعض التحايل على القانون(1872)». ومواجهة الهيجان بالخور، والثوران الشديد بالوهن. وتم تحليل هذا الزمن، بمهارة أكبر أيضا من لدن آخرين كعقبة أمام الذات، ورمز للحد بقدر ما هو تعب غير متوقع. بل إن الكاتب **كريستوف أونوريه** رأى فيه أنه لحظة «مسمومة»:

(1869). انظر:
« Le confinement, reflet des inégalités sociales liées au logement et au niveau de revenu des Français », Le Monde, 21 avril 2020.

(1870).Marie Duru-Bellat, « Cette crise met en évidence les conditions de vie très inégales des Français », Le Monde, 1er avril 2020.

(1871).David Le Breton, « L'exposition au bruit et au silence est très inégalitaire », Le Monde, 28 mars 2020.

(1872).« Rebelles au confinement », Libération, 28 avril 2020.

هناك، أشعر أنني مسجون، مكبل. لا يمكنني فعل أي شيء بهذا الوقت المفروض، الذي هو زمن مسموم. وسأذهب إلى أبعد من ذلك: لا أريد أن أبدع انطلاقا من هذا الحدث. إنه مجرد وقت قذر، لا رغبة لي في ربطه الفن به[1873].

ليس من المستغرب أيضا أن يكون هذا الزمن بشكل عام زمنًا من عدم اليقين، وأفقا دائما غامضا؛ حيث قد يختفي التهديد: «ما هي الدروس التي يجب تعلمها؟ فما بين اثني عشر وثمانية عشر شهرًا، في حالة عدم وجود لقاح حسب التقديرات، فمن المرجح أن الفيروس سيمشي ذهابًا وإيابًا على الكوكب[1874]». في حين أن أصحاب هذه التوقعات أنفسهم لا يزالون، وعن وعي، غير دقيقين، حذرين إلى درجة هم صامتون بقدر ما يتحدثون: «فالنمذجة الرياضية للوباء فن صعب، لأن ممارسيه يأملون دائمًا أن يكونوا قد أخطأوا[1875]»؛ مما يزيد فقط من الشعور بالضيق والإنهاك.

يبقى في الأخير، مجموع السلوك الذي غيره وجود هذا «الفيروس»، واقتحام يخترق النفسي والاجتماعي والبدني والثقافي؛ وشعور بالتجاوز أتى من التلاقي المستمر بين الأشخاص أنفسهم وفي المكان نفسه، إلى درجة أن البعض قد يعانون: «الجحيم في المنزل[1876]»! مع-الآخر بشكل دائم، غير المتحكم فيه بشكل جيد؛ الشيء الذي يؤدي ببساطة إلى كلمة «ضغط» التي تثار هنا، مرة أخرى، بشكل دائم :

تكشف الحياة الأسرية في أيام كوفيد-19 علامات تعب، كما يتضح من استقصاء المؤسسة الفرنسية للرأي العام (IFOP)؛ حيث يؤكد واحد من كل اثنين

(1873).Christophe Honoré, « Ce temps imposé est un temps empoisonné », Le Monde, 1er mai 2020.

(1874).« Cohabiter avec le coronavirus, dans la durée », Le Monde, 7 avril 2020.

(1875).David Larousserie, «Coronavirus : comment sont élaborées les modélisations épidémiologiques », Le Monde, 7 mai 2020.

(1876).« L'enfer à la maison », L'Obs, 9-15 avril 2020.

من الفرنسيين أنه قد تجادل أكثر من ذي قبل حول الأعمال المنزلية، وبزيادة 34٪ من الوقت الذي يقضيه أطفالهم عادة أمام الشاشات، ولكن أيضًا في التعلم (29٪) و... الإمدادات الغذائية. كل شيء يزداد حرارة من خلال الزيادة في ارتفاع نسبة الأدرينالين؛ حيث يؤكد 41٪ أنهم يعيشون فترات ضغط أكثر كثافة من ذي قبل، ناهيك عن صعوبات العمل في وجود بقية الأسرة. أليس الأمر مثيرا؟(1877)

إنه تعايش غير مرغوب فيه، علاوة على ذلك، مثلما هو الشأن بالنسبة إلى الطلبة الذين فرض عليهم البقاء في عائلة اعتقدوا أنهم قد ابتعدوا عنها: «كيف يمكنني تحمل هذا التقارب القسري مع هؤلاء الأشخاص الذين سعيت للفرار منهم خلال السنوات الثلاث الماضية(1878)؟»

يستحيل، في الأخير، تجاهل الأثر الذي زاد قوة «العبء الذهني» النسوي؛ حيث تتدفق الشهادات عن تفاوت في تحمل المسؤولية بين الزوجين، ويزداد التمايز حدة أحيانًا على الرغم من تقاسم العمل عن بعد والسخط من المهام غير المتقاسمة. أي ملاحظة، بمعنى آخر، لـ**فيرجيني باليه** والتعب قد تحدد بوضوح:

لا يبدو أن العمل عن بعد ولا البطالة الجزئية ولا المدرسة في المنزل قد أخلت بنظام متصلب، بل على العكس: فالنساء هن دائمًا من يدرن المنزل، ويفكرن في تخطيط الوجبات والتبضع وغسل الأواني والواجبات المنزلية، وغيرها من ملذات الحياة اليومية، وأحيانًا إلى درجة الإنهاك(1879).

مع كوفيد-19 غيرت، بلا شك، حقول التعب من التمثلات والرؤى التي رسمناها في العقود الأخيرة، وإن لم تكن على عكس ذلك، سوى هي نفسها وقد

(1877).Catherine Mallaval et Sylvain Mouillard, « Familles confinées », Libération, 22 avril 2020.

(1878).ZEP, « Moi JEune », Libération, 22 avril 2020.

(1879).Virginie Ballet, « Les foyers pas vaccinés contre la charge mentale », Libération, 22 avril 2020.

تأكدت. ذلك اضطراب أساسي، ولكنه عابر على ضوء الزمن الطويل؛ فقد أدى الظهور المفاجئ لوباء كوفيد-19 في عالمنا اليومي إلى إيقاظ مخاوف منسية، مع تأكيد الطريقة الحديثة والجديدة التي أصبح فيها التعب اليوم رفيقًا مألوفًا، ومقاومة داخلية ومستمرة جربها كل واحد منا.

كلمة شكر

أود أن أشكر على الخصوص هؤلاء الذين كانت آراؤهم أو مراجعاتهم ذات قيمة كبيرة بالنسبة إلي:

جان-جاك كورتين (Jean-Jacques Courtine)، يان ديكان (Yan Descamps)، كلودين آروش (Claudine Haroche)، جان-نويل جانوني (Jean-Noël Jeanneney)، كورين ميت (Corine Maitte)، سيفرين نيكيل (Séverine Nikel)، تيري بيون (Thierry Pillon)، مونيك كين (Monique Quesne)، أندريه روش (André Rauch)، سيسيل ري (Cécile Rey)، سيلفي روك (Sylvie Roques)، مارك ساراسينو (Marc Saraceno)، ديديه تيرييه (Didier Terrier)، فرانسوا فاتان (François Vatin)، جوسلين فايس (Jocelyne Vaysse).